

تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

كان التاريخية

Dawriyyat Kān al-Tārīḫiyyat

تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر

HTTPS://KAN.JOURNALS.EKB.EG

مارس ٢٠٢٣ – شعبان ١٤٤٤

السنة السادسة عشرة

59

@kanhistorique /historicalkan



Kan Historique périodique

Historical Kan

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

ISSN: 2090 - 0449







دورية كان التاريخية.- س١٦، ع٥٩ (مارس ٢٠٢٣/ شعبان ١٤٤٤)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 16, no. 59 [Mar. 2023]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٣.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ — ٢- الآثار

٣- التراجم — ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2023.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.



أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م

ISSN: 2090 – 0449 Online



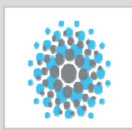
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات البيليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في **معامل التأثير أرسيف**.

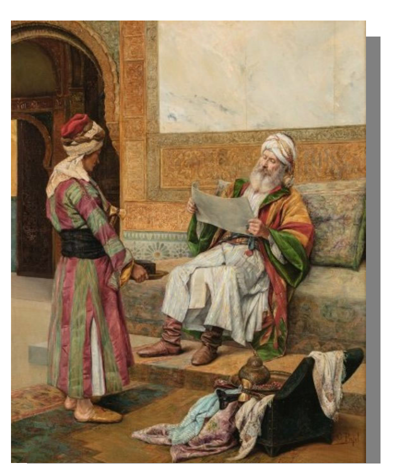
عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



THE MESSENGER
CLÉMENT PUJOL DE GUASTAVINO
French 1850 – 1905

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

historicalkan
groups/kanhistorique
kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com
goodreads.com/kanhistorique
www.kan.nashiri.net



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلّات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.

يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

COPE

دَّورية كـان التَّاريْخيـة هـي دورية علميـة عالميـة مُحَكَمـة تعتمـد سياســة المراجعــة المزدوجــة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمـة والنشـر. إن الهــدف الـرئيس مـن الدوريـة هـو دعـم الدراسـات التاريخيـة المتخصصـة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعـة أعـداد في السـنة وتقبـل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربيـة والإنجليزيـة. كمـا تنشر الدوريـة مقـالات أصلية وعاليـة الجــودة في مجــالات العلــوم المساعدة ذات العلاقـة، ويشمل ذلـك كـل العلـوم نظـرًا لطبيعـة التـاريْخ كعلـم يتنـاول النشـاط الإنسـاني كافـة. ويشـمل ذلـك مجموعـة واسـعة مـن مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيـف كبـير مـن القـراء ذوي التخصصات المتعددة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

دَورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرفِوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

الاسم	الجهة	الدولة
أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د. إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د. أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د. أحمد عبد الله الحَسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د. أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د. أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د. أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د. بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
أ.د. بشار محمد خليف	مركز حضارات المشرق العربي	سوريا
أ.د. بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د. حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د. حسين صالح حسين العنسي	جامعة ذمار	اليمن
أ.د. حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د. خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د. رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د. سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د. شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د. صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د. عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د. عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د. عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د. عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د. العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د. عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د. كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د. كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د. لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د. مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د. محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د. مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د. وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**
يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَر

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة/ مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

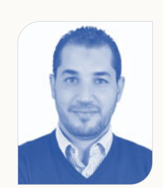
- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية
  https://www.facebook.com/historicalkan
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
  mr.ashraf.salih@gmail.com

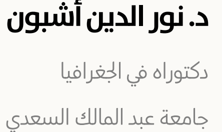




ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الفضاءات التراثية بالمدينة العتيقة بتطوان
ذاكرة محلية تعرضت للإهمال





د. نور الدين أشبون

دكتوراه في الجغرافيا

جامعة عبد المالك السعدي

تطوان – المملكة المغربية

مُلَخَّص

ترمي هذه المقالة التي تمت على الفضاءات التراثية بالمدينة العتيقة بتطوان إلى تسليط الضوء خاصة، على أهمية هذا العنصر التراثي-الفضاءات التراثية-كتراث ثقافي مادي ولامادي في آن واحد، ودورها الطلائعي في تحديد الهوية المحلية وتعزيز الذاكرة الجالية. حيث تعتبر المدينة العتيقة بجماعة تطوان، خزانًا تاريخيًا بامتياز، وملتقى حضارات شتى أبرزها الحضارة الأندلسية والأمازيغية والعربية ما ساهم في بناء نسيج من المرافق العمومية والخاصة ذات طابع ثقافي فريد. كان سببا في انصهار مجموعة من الثقافات والحضارات، لتخلف بالتالي زخم كبير على مستوى التراث الثقافي اللامادي، متمثلا في مختلف الطقوس والممارسات والأنشطة الإنسانية في هذه الفضاءات. لكن يبقى الإشكال المطروح هو كيفية تثمين هذا العنصر التراثي، والحفاظ عليه من كل أشكال الاندثار والضياع سواء كميًا أو نوعيًا. وذلك عن طريق حلول عاجلة تهدف ترميم ما يمكن ترميمه في هذه الفضاءات التراثية في إطار إرجاع الاعتبار للتراث الثقافي اللامادي بالمدينة العتيقة بتطوان والحفاظ على الهوية المحلية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٤	يناير	٢٠٢٣
تـاريخ قبـول النشـر:	٢٥	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

التراث الثقافي اللامادي؛ الفضاءات التراثية؛ المدينة العتيقة؛ تطوان؛ الحماية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.324072 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

نور الدين أشبون. "الفضاءات التراثية بالمدينة العتيقة بتطوان: ذاكرة محلية تعرضت للإهمال".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ١٤ – ٢٢.

Corresponding author: noureddineachboun@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

يساهم التراث الثقافي اللامادي في التماسك الاجتماعي، ويحفز الشعور بالانتماء للوطن الأمر الذي يقوي عند الفرد هذا الشعور بالانتماء إلى مجتمع محلي واحد، وبالتالي الانتساب إلى المكان أو الفضاء الذي يمارس فيه كل طقوسه وممارسات اليومية. ويبقى اللبس في انتماء الفضاءات الثقافية للتراث الثقافي اللامادي، خصوصًا بعد أن وضعت منظمة اليونسكو قائمة لتصنيف الساحات والفضاءات العمومية، ولتوضيح هذا فإن الفضاء الثقافي مادي بجدرانه وبناياته ومكوناته المادية، ولامادي بكل ما يمارس فيه من أنشطة وممارسات مكونة للحياة المعيشة فيه، والتي هي تحديد ضمني لهوية مستعملي هذا الفضاء، سواء أكان فضاء صناعيًا كدور الدباغة والأحياء الحرفية، أو فضاء تجاري كالأسواق الأسبوعية، أو فضاء اجتماعي ديني كالجوامع والأضرحة...وهكذا نجد الفضاء الثقافي تراثًا معنويًا لامادي بمحتواه من خلال ما يعاش فيه، بكل تفاصيله وجزئياته[١]، وهذا ما يؤكد أن وجود الإنسان ارتبط بالمجال، فبالتالي كان لابد أن يكون ذلك التجاوب الحاصل بين المكونين -المجال والإنسان-هو نتاج وثمرة تفاعل اجتماعي وثقافي يولد هوية معينة، وبالتالي فإن الفضاءات الثقافية وما يرتبط بها من آلات وأدوات مرتبطة بالنشاط الإنساني تعتبر تراثًا ثقافيًا لا ماديًا أيضًا.

١-طقوس الحمامات التراثية في تطوان

الحمامات العامة، من الفضاءات العمومية المعروفة في الوسط التطواني يرتادوها السكان[٢] بشكل مستمر. وقد اشتهر الأندلسيون بها وأعطوها قيمة كبرى على اعتبار أن النظافة من شيم المسلمين. "حيث يغتسل فيها عموم السكان مقابل أجر محدد، وهي تعمل بالتناوب بين النساء والرجال، حيث عادات سكان تطوان في الارتفاق بالحمامات أن تستعمل من طرف النساء في أوقات معينة، ومن طرف الرجال في الأوقات المخالفة"[٢]. وتقسيمها الداخلي يتكون من خمس مرافق أساسية (انظر جدول 1). يسهر على تدبير أمور الحمامات الداخلية طاقم تقني، موجود في كل الحمامات عمال يشتغل كل واحد منهم حسب تخصصه وحرفته (انظر جدول ٢).

الحمامات في تطوان تعرف نشاطًا كبيرًا أيام الخميس والسبت، وأيام العطل وفي المناسبات الدينية. وإلى حدود ثلاثينات القرن الماضي كانت بتطوان خمسة حمامات فقط وهي:

- حمام السوق الفوقي الذي بناه النقسيس.
- حمام أمحلي بالساقية الفوقية.
- حمام مدينة بحي المطامر.
- حمام العيون الذي بناه أحد قضاة عائلة بن قريش.
- حمام سيدي المنضري بحي البلد وقد بناه سيدي المنضري.

كل هذه الحمامات مازالت تعمل لحد الساعة بنفس النظام والتدبير الداخلي، وقد بنيت حمامات عامة تقليدية أخرى بالمدينة العتيقة وخارجها. من بين الحمامات التي بنيت داخل المدينة العتيقة حمام الرهوني، حمام طنانة وحمام الوطنية (انظر الجدول ٣) (انظر الخريطة ١)، أما خارج المدينة العتيقة نجد كل من حمام "سيدي طلحة"، حمام "الروبيو" في حي "التوتة" بالقرب من "سانية الرمل" وحمام "بلجيكا" بحي "الباريو" وغيرها. ويتميز الحمام بكونه أحد أنماط المباني الخاصة جدا التي تسمح لكم كبير من الماء يتخلل أنظمته المعمارية والإنشائية، الأمر الذي يجعله دائما عرضة لتدهورها ومواد بنائه، ويحتم ذلك تفعيل برنامج دوري للصيانة، وأية محاولة لفصل الماء عن الحمام بغرض الحفاظ على المبنى، هو فصل الروح عن الجسد الحي، وبالإضافة إلى ذلك تتعرض أنظمة المبنى وخاصة في المناطق الدافئة والساخنة منه لتباين شديد في درجات الحرارة والرطوبة النسبية بداخل الفراغات وخارجها، هذا الاختلاف البيئي يُعجِل بنسبة تكثيف البخار في صلب مواد البناء وبالتالي يؤدي إلى تفككها وتدهورها.

تجدر الإشارة إلى أن الحمامات التقليدية قد تعرضت لتدهور سريع في استخدامها، بالنظر لما تتطلبه هذه المباني من عناية وصيانة فائقتين ومكلفتين، وكذلك لموقع هذه الحمامات في المناطق التاريخية المهملة، التي يسكنها في غالب الأمر فقراء المجتمع الأمر الذي حال دون توفير العائد المادي لوقايتها من التلف[٣]. ونظرًا لازدياد الطلب من قبل الفئات الاجتماعية على توفير الحمامات التقليدية،

واحتياج الكثير من الأفراد للخدمات المختلفة التي تميز الحياة المدنية المعاصرة، فقد ظهرت أنماط وأشكال حديثة من هذه الحمامات، إلا أنها لا تلتزم بخصائص ومواصفات الخدمات التي تقدم في الحمامات التقليدية.

٢-نظام الفنادق التاريخية في مدينة تطوان

تتركز بمختلف أحياء المدينة العتيقة كما في الحي العصري (الإنسانشي) فضاءات عمومية تعرف بالفنادق جمع فندق، وهي عبارة عن مبنى تتوسطه ساحة كبيرة، يخصص الطابق العلوي للوافدين له، والساحة للدواب من حمير وبغال وغيرها أما الدكاكين الموجودة به للبضائع والسلع التي يشترها الوافد أو التي يبيعها. فمنها من يخصص لتجار الدواب ومنها ما يخصص لتجار المواد الفلاحية ومنها للصناع والحرفيين ونحو ذلك. أغلب الفنادق في تطوان تم بناءها في القرن ١٨ الميلادي، واستمرت في تأدية دورها إلى حدود ستينات القرن الماضي. وقد شهدت هذه الفضاءات أغلب المعاملات التجارية وحتى الصناعية التي كانت تعرفها مدينة تطوان باعتبار أنه المكان الوحيد بعد الزوايا والمقامات الشريفة واسقالة التي يلج لها أغلب التجار والصناع الوافدين، من أجل شراء المنتوجات المنتجة في مدينة تطوان أو بيع المنتوجات، فهذا الفضاء الشعبي والعمومي اليوم انعدم دوره نظرا للتقدم الكبير التي عرفته دور الإيواء بمختلف أنواعها. ولكن رغم ذلك تضل الفنادق جزءا من ذاكرة المدينة الحية في فترات تاريخية مهمة، شهدت ازدهار تجاري وصناعي للمدينة، وتوثق لنمط عيش السكان في فترة زمنية. ففي دول كإسبانيا أصبحت هذه الفنادق متاحف يزورها السياح بكميات كبيرة، بل لها زوارها الخاصين باكتشاف مثل هذه الفضاءات التراثية، أو مستمرة في أداء دورها الإيوائي أو مركز لإيواء الدواب التي تستعمل وسط المجال الحضري. في مدينة تطوان للأسف غابت خصوصية ومميزات الفنادق بشكل نهائي كما غابت كل الممارسات والحياة المعيشة فيها. وكما أشارنا من قبل عرفت المدينة العتيقة لتطوان نشأة العديد من هذه الفنادق حدد عددها في ١١ فندقًا (انظر الجدول ٤ والخريطة ٢).

٣-العادات المرتبطة بالأفران التقليدية في مدينة تطوان

الخبز من المواد الغذائية الأكثر أهمية في ثقافة الأسر المغربية والتطوانية خصوصًا، حتى أن معيار إتقان إعداد الخبز، يعتبر مهما بالنسبة للرجل المقبل على الزواج، والفرن من الفضاءات المرتبطة بهذه المادة الحيوية، والذي يعتبر المنتوج الوحيد لها، كما أن الفرن من الفضاءات المهمة، التي تسهر على تقديم العديد من الخدمات للسكان والدليل على ذلك عند بناء مدينة تطوان من طرف سيدي المنظري، قام بوضع تصميم المدينة يضم الجامع والفرن والحمام كأول ثلاث مرافق عمومية وضرورية للساكنة.

ذكر عدد من الباحثين المهتمين بالتراث المغربي، أن الأفران التقليدية موروث ثقافي له مميزات معمارية غاية في الدقة والإتقان، إذ اهتدى صانعوا هذه الأفران إلى جعلها في طابق سفلي وأخرى في طابق علوي وأغلبها مبلطة بمادة الزليج في مداخلها ومخارجها، هي لا تبعد سوى بمسافات صغيرة وأمتار قليلة عن المساجد والحمامات والأسواق الشعبية داخل الأحياء العتيقة. فالحقيقة للفرن دور كبير في نمط عيش الساكنة التطوانية، حيث تقوم عليه كثير من الأعمال البيتية، من طبخ للخبز وأنواع الطواجين والأكلات الرفيعة كالبسطيلة، ولن ننسى أنواع من الحلويات التي تتفنن فيها ربات البيوت، التي تقوم بعجن خبز المائدة بنفسها في الصباح الباكر، وتنتظر حتى اختماره لكي ترسله للفرن مع صبي أو شاب يسمى "الطراح" الذي له دور جمع "وصلات الخبز"[٤] ونقلها للفرن، يقوم المعلم بوضعها في الفرن الساخن ذو الجمر الملتهب عن طريق لوحة خشبية طويلة المقبض تسمى "المطرح"، حسب جاهزيتها للطهي أو حسب الرتبة التي وضعها الطراح أمامه. هذه المهنة متعبة جدا وخصوصا في فصل الصيف، أما الخشب المستعمل في إشعال النار لطهي الخبز، إما شجر الصنوبر أو العرعار.

كما يقوم المعلم في الفران بخلط وإنتاج الحلوى المسماة "بشكيطو" الذي يصنع من البيض والزيت والسكر حيث كانت الأسر في المناسبات تفوض للمعلم في الفرن عملية إعداده. وكان أجر المعلم خبزة وتسمى الكبيرة، وأجر الطراح خبزة وتسمى الصغيرة أو "البويا". كل هذه الخدمات التي كانت تقدمها الأفران، انضافت لها خدمات أخرى في وقتنا الحالي وهي إعداد الحلوى بمختلف أنواعها، وإعداد المالح المتكون من أصناف عديدة مثل "البروك والبانديات" وغيرها... وأكثر من هذا أصبحت الأفران تنتج الخبز بمختلف أنواعها، إذ يطلبها المستهلك أكثر من خبز المخبزات الحديثة، نظرا لأن خبز الفرن التقليدي يطهى على الحطب وبالتالي يكون طبيعيا خالي من المواد الكميائية. حاليا توجد في تطوان ما يقارب ١٠٠ فرن تقليدي منها ٣٧ في المدينة العتيقة وأخرى خارج أسوار المدينة، فقط عدد قليل من الأفران التي تنشط حاليا

بالمدينة العتيقة (انظر الجدول ٥ والخريطة ٣) أبرزها فرن "غرسية" (أنظر الصورة ١). كلها تشتغل بصفة يومية، لكن للأسف اندثرت بشكل كلي مهنة الطراح، حيث لم يعد أي طراح في تطوان لا في المدينة العتيقة ولا خارجها، وبالتالي اندثار جزء مهم من ذاكرة الفرن التطواني، في حين أن الأفران الآن أصبح دورها بيع الخبز أكثر من طهيها وهذا أيضا ما أسهم في تحريف دورها الأساسي التي وجدت من أجله. إلا أن ذاكرة مدينة تطوان اليوم، تصارع من أجل أن تحفظ تلك القصص التي تنسج حول شخصيتا "الطراح" و"المعلم" بحضورهما المميز وسط ساكنة أحياء المدينة العتيقة. ترتبط مظاهر التمدن السريع الزاحفة منذ سنوات إلى هذه الأحياء، إذ استحدثت وسائل جديدة استغنى الناس من خلالها عن خدمات الفرن التقليدي، فاستجلبت النسوة إلى بيوتهن "أفرانا منزلية" يطهين فيها الخبز، دون الحاجة للالتزام بتوقيت عمل فرن الحي، وفتحت مخابز عصرية أبوابها، أعفتهن حتى من عناء عجن الدقيق ليصير رغيفا، فصار الخبز مادة تستهلك كباقي المواد الأخرى تجلب من الدكاكين عند الحاجة، ولا تذخرها البيوت طوال اليوم كما في السابق، ولا تقضم قطعها ساخنة، زكية الرائحة، طيبة المذاق، بل يقنع أهل البيت برغيف الخبز الذي يأتي به من البقال المجاور باردا دون رائحة تميزه.

٤-الساحات العمومية في مدينة تطوان

الفضاء العمومي، هو مفهوم عام لا يدل على مكان خاص أو عام، فهو يتوفر على أبعاد اجتماعية وثقافية وتقنية. وهو أيضا مجال يضم أنشطة السكان بالأساس. يعرفه قاموس التخطيط والتطوير الحضري بأنه "جزء غير مبني مخصص للاستخدام العمومي، حيث شكلته الملكية وتخصيص الخدمات". والمدينة في مطلع القرن العشرين تتوفر على مجالات عمومية أحادية الاستعمال، حيث كان كل مجال يستخدم بطريقة فريدة ومتنوعة، إلا أن الفضاء العمومي في الوقت الحالي يمكن أن يشمل أيضا أنواع أخرى من الأماكن: محطات السكك الحديدية، مراكز التسوق، وسائل النقل العام والمرافق العامة، وحتى المقاهي[٥].

الفضاء العمومي يستعمل بدون مقابل ويتم استغلاله بدون تمييز، ومن بين هذه الفضاءات العمومية الساحات التي تعتبر هي قلب المدينة النابض حيث تشكل جزءًا هامًا من تاريخها، وجزءا من الذاكرة الجماعية ومن هوية المدينة وتاريخها وكينونتها. وهي ملتقى بشري وحيوي بالغ الأهمية[٦]. وتطوان تتميز بكثرة الساحات المتواجدة بها والتي تستغل لعدة أغراض منها ما هو تجاري واجتماعي وترفيهي. وتعتبر الأنشطة المزاولة في هذه الفضاءات العمومية هي المراد والمبتغى في بحثنا، لكون هذه الممارسات الاجتماعية والتجارية هي تجسيد لنمط حياة وعيش السكان بالمدينة، سواء خلال الحقب التاريخية التي مضت أو خلال الفترة الحالية (أنظر الصورة ٢).

مدينة تطوان تتوفر على عدة ساحات عمومية تحتفظ بالذاكرة الجماعية للمدينة وتؤرخ لأحداث مهمة من تاريخ المدينة، كما تعتبر الممارسات المعيشة في هذه الساحات نوعا من الصور الاجتماعية الناجمة عن تفاعل الإنسان مع محيطه السوسيو ثقافي. والجدول (٦) يعرض الساحات ذات الطابع الثقافي والشعبي بجماعة تطوان، سواء بالمدينة العتيقة أو الحي الجديد الإنسانشي- (أنظر الصورة ٤).

طرأت تحولات مهمة في وظيفة الساحات العمومية خصوصا بالمدينة العتيقة، وكل هذه التحولات لم تكن في خدمة دور الساحات الثقافي رغم تجديد بعضها التي طالها الإهمال، مثل ساحة الغرسة الكبيرة، للأسف مخططات التهيئة والوظائف التي تراد لهذه الساحات، لا تمت بصلة لثقافة المجتمع التطواني، ولا حتى لرهان التنمية السياحية بالمدينة، فمن الأسس المعتمدة في تدبير التراث الثقافي اللامادي هي ربط الثقافة بالفضاء، ومن خلال الدراسة التي قمنا بها تبين أن ٨٠ %من هذه الساحات ألغي دورها الثقافي، المتمثل خصوصا في نشر ثقافة الحرفة وأيضا فن الحكاية من خلال الحكواتيين الذين يترددون على ساحة الغرسة الكبيرة (أنظر الصورة ٣) والسينما الصيفية، ومسرح الهواء الطلق، كل هذه الصور الاجتماعية والثقافية اندثرت بشكل شبه كلي، وبالتالي اندثار ومسح جزء من ذاكرة الجماعة البشرية بالمدينة. الملاحظ أيضا غياب تام لما يسمى للساحات الشعبية التي تبرز فيها القيمة الفنية للمجتمع من خلال الفنون الشعبية، ألعاب، مسرح، حكاية، زجل وغير ذلك

كذلك ٧٠% من هذه الساحات عبارة عن فضاءات عمومية محاطة بمقاهي يرتادها العاطلين عن العمل والمتقاعدين. خلاصة القول إن الساحات العمومية بمدينة تطوان، لا تؤدي دورها الثقافي ولا الاقتصادي كما ينبغي وتدبير هذه الفضاءات يراعي فقط الجانب العمراني والتطور الحضري للمدينة.

٥-الأحياء الحرفية بالمدينة العتيقة في مدينة تطوان: نموذج ثقافي متميز

عند التأمل في التوزيع المجالي للحرف الفنية بالمدينة العتيقة بتطوان، يتضح أن التصميم العمراني للمدينة بشأن الحرف لم يختلف عن كل المدن العتيقة بالعالم الإسلامي حيث خصص لكل حرفة حي خاص بها، يتجمع فيه أصحاب الحرفة الواحدة، وذلك لمجموعة من الأسباب الاجتماعية والاقتصادية نذكر منها ما يلي:

- المنافسة بين الحرفيين.
- تسهيل الولوجية للمستهلك من أجل اقتناء منتوج معين.
- إبعاد الحرف المسببة للضجيج أو الروائح الكريهة، خارج نطاق المدينة أو في أبوابها وبالتالي مراعاة القيم البيئية.
- تسهيل عمل أمين الحرفة في مراقبة وتتبع عمل الحرفيين.
- إعطاء جمالية هندسية للمدينة.
- عدم الاختلاط مع الأحياء السكنية.
- بيع المواد الأولية لكل حرفة في حيها الصناعي.

"تتجلى الفنون الحرفية التطوانية التي تعكس تاريخ المدينة وخصائص مجتمعها وصناعتها الحرفية على نحو بارز داخل الأحياء. فهي تعبر صادق وموفق عن انصهار تيارين جماليين متداخلين، تيار فني قروي فيه شيء من الخشونة وكثير من البساطة، وفن حضاري متبلور وفاخر، موروث من عهد الأندلس، التي أشاعت خلاله التقاليد الإسلامية والعربية كفن الزخرفة، واعتماد الرسوم والخطاطات في التزيين والزخرفة".[٧]

"معظم الفنون الحرفية التطوانية استقرت في أماكن مخصصة، وفق تنظيم محكم داخل القسم الغربي للمدينة حيث يوجد حي البلد"[٨]، إذ تتمركز الأحياء الحرفية، التي تتخللها بعض المساجد والحمامات وغيرها من المرافق الضرورية لممارسة الحياة الاجتماعية والصناعية[٩].

كما كانت الحرف الفنية تتجمع مجاليًا وتتوزع على حومات البلد، فإن الحرفة خضعت ولو بشكل نسبيي لتوطين إثني بين المسلمين واليهود. فالمسلمون كانوا يزاولون معظم الحرف والصنائع كصناعة الجلد بفروعها (الصورة رقم٥) والحياكة بأصنافها، والفخار بأقسامه، وكذلك صناعة الخشب وصناعة السلاح والحدادة بالإضافة إلى الصناعة الغذائية الأساسية. والملابس وجل الحرف النسيجية. بينما كانت بعض الحرف التي تتطلب معالجة المعادن الثمينة كسك النقود وإصلاح النعال القديمة، بل كانوا متخصصين في حرفة صناعة البرادع والقزدرة وتذويب الشمع وصناعة الفنارات. وكان هناك عدد قليل من الحرف التي يزاولها اليهود والمسلمون في آن واحد مما لم يكن يفسح المجال بينهم فيما يخص المنافسة والعمل معا.

من خلال البحث الميداني اتضح أن تواجد الأحياء الصناعية وتنظيمها المجالي مازال كما كان، ولكن النشاط التجاري والصناعي قل في بعضها، واندثر في البعض الآخر، واختفى بشكل نهائي في الأخرى. وهذا ما يجعل سمات الحياة الاجتماعية ونمط العيش بهذه الأحياء والتي كانت تتميز بدينامية خاصة ليس بالبعيدة، تختفي وبالتالي اختفاء أحد المظاهر التراثية الهامة بالمدينة التي كانت تعكس الخصوصية السكانية والثقافية للجماعة البشرية بالمدينة.

من خلال (الجدول ٧) يتضح أن معظم الأحياء ذات الصبغة الحرفية في المدينة العتيقة قد فقدت طابعها الحرفي ولم يعد منها سوى الاسم فقط وذلك نتيجة لسببين اثنين:

- انتشار الحرف خارج الحي المخصص لها، وذلك نتيجة للتوسع الحضري بالمدينة وبالتالي رغبة الحرفيين الاقتراب من المستهلك، أو نتيجة للعامل التاريخي المتمثل في تدخل الاحتلال الإسباني في تفريق بعض الحرف حتى لا يلتف الحرفيين على مقاومته.
- اندثار وانقراض بعض الحرف بصفة نهائية أو شبه كلية، كما الشأن للحصير الذي مازال يمتهن من طرف صانع واحد وهو "عبد الرحمان مشراق" أو صناعة "الربوز" كذلك لم يعد يمارسه سوى صانع واحد. هذا الغنى في التدبير الحرفي الذي تحتويه فضاءات الأحياء، يعتبر علامة ثقافية يتمتع بها سكان مدينة تطوان دون غيرها، من حيث التنوع والتدبير والنمط المعيش.

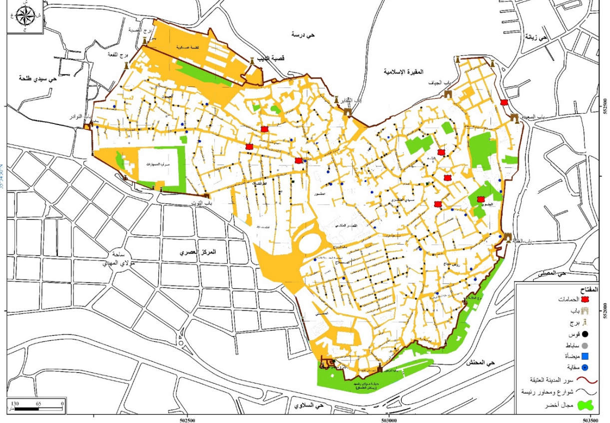
خَاتِمَةٌ

بناءً على ما ورد في محتوى هذه المقالة، والتي كان الهدف منها إبراز أهم المكونات المشكلة لنسيج الفضاءات التراثية بالمدينة العتيقة بتطوان كتراث ثقافي لامادي كما ونوعا، حيث تبين لنا تفرد وتميز هذا العنصر التراثي من حيث الطقوس الممارسة فيها، التي اعتادت ساكنة تطوان ممارستها، سواء بصفة يومية أو موسمية، وأيضًا وغزارة عناصره من فنادق وأفران وحمامات تقليدية وساحات عمومية...كل هذا أفرز نسيجًا تراثيًا غنيًا له خصوصية ثقافية-مجالية، ذو وظائف ودلالات حضارية ميزت المجتمع التطواني عن غيره.

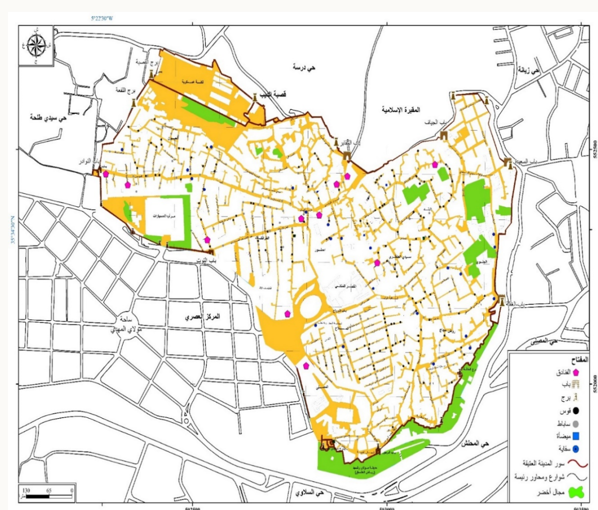
في خضم كل هذا التنوع والغنى على مستوى الفضاءات التراثية بالمدينة العتيقة لتطوان، يعرف هذا التراث الثقافي اللامادي تراجعًا كبيرًا، واندثارًا في جزء ليس باليسير منه، يحتاج لتدخل مستعجل وحاسم حفاظًا على الهوية المجالية، وتعزيزًا للترسانة القوية للتراث الثقافي عمومًا واللامادي خاصةً. في ظل إكراه العولمة الثقافية التي يعرفها العالم. هذه التدخلات التي يجب أن تكون على عدة أصعدة، سواء المجتمع المدني أو كل الفاعلين الترابيين.

الملاحق

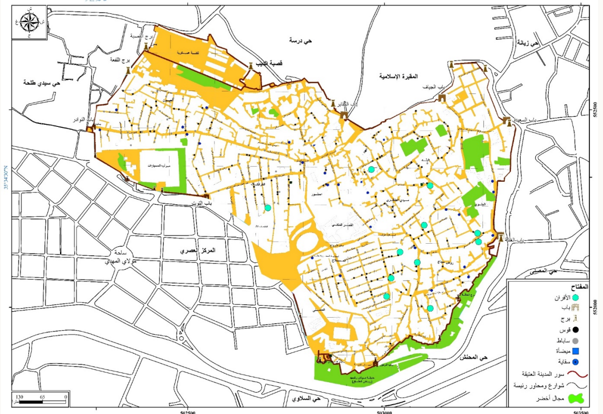
١-الخرائط



خريطة (١): الحمامات التراثية التاريخية بالمدينة العتيقة بتطوان
المصدر: استغلال شخصي لمعطيات البحث الميداني ٢٠٢٠



خريطة (٢): الفنادق التاريخية بالمدينة العتيقة بتطوان
المصدر: استغلال شخصي لمعطيات البحث الميداني ٢٠٢٠



خريطة (٣): الأفران بالمدينة العتيقة بتطوان
المصدر: استغلال شخصي لمعطيات البحث الميداني ٢٠٢٠

٢-الجداول

جدول رقم (١) مرافق الحمام التطواني

المرفق	الدور
الكلسة	الاستقبالات والأداء.
الكلسة الثانية	الجلوس والراحة أو انتظار خروج الرجال أو العكس.
البارد	فيها صهريج الماء البارد و"الميضات"[١٠]، ويغتسل فيها الأطفال ومَنْ لا يستطيع الاستحمام في الحمام الساخن، ويتكون من مجموعة من الغرف الصغيرة.
الوسطي	يكون متوسط الحرارة وغالبا ما يكون هو مكان الاستحمام الرئيسي لكل الزبناء وهو أيضا يتكون من غرف صغيرة.
السخون	"حيث توجد "البرمة" التي يكون مائها ساخن جدا ويكون تحت هذا الجناح الفرن الذي توقد فيه النار، وهو يكون ساخن جدا وهو أيضا يتكون من غرف لستر العورات".[١١]
	المصدر: من إنتاج الباحث بالاعتماد على البحث الميداني

جدول رقم (٢) حرف الحمام التطواني	
الحرفة	المهمة
الكلاس(ة)	الشخص الذي يوجد في استقبال الأفراد واستخلاص الأجرة منهم وبيع بعض الأغراض وحراسة الملابس.
الطياب(ة)	هو من يقوم بمهام نظافة اماكن الاستحمام وايضا غسل جسم الزبناء بمهارات خاصة وتقنيات تعلمها منذ الصغر. وهو يتقاضى أجر خاص عن ذلك.
الجحجاح	الشخص الذي يوقظ النار في "الفرناتشي"[١٢] لتسخين الماء. "ويضيف أحيانًا الحطب حتى لا يبرد الماء"[١٣].
	المصدر: من إنتاج الباحث بالاعتماد على البحث الميداني

جدول رقم (٣) الحمامات التقليدية بالمدينة العتيقة بتطوان

اسم الحمام	موقعه
الحمام الصغير	الوطية
سيدي علي بنمسعود	الفدان
حمام الطرانكات	الطرانكات
حمام المنظري	حي المرستان بالقرب من الصياغين
حمام الوطية	الوطية
حمام أمحلي	حي سيدي بن ناصر بالقرب من الجنوي
حمام مدينة	المطامر
حمام عائلة المنظري	بالقرب من سوق الحوت القديم
حمام غويلة	المطامر

المصدر: من إنتاج الباحث بالاعتماد على البحث الميداني

جدول رقم (٤) جرد الفنادق المتواجدة بالمدينة العتيقة

اسم الفندق	موقعه
فندق الخصة	السوق الفوقي
فندق السراير	بين باب المقابر والسوق الفوقي
فندق الغرباوية	الطرانكات
فندق بايص	بين باب النوادر وحي العيون
فندق الوطية	باب التوت
فندق المطمر	المطامر
فندق المصمودي	بالقرب من ساحة الفدان
فندق اللبادي	المصلى القديمة
فندق القريشي	السوق الفوقي
فندق القاعة	بالقرب من سوق الحوت
فندق الفاسي	باب النوادر

المصدر: من إنتاج الباحث بالاعتماد على البحث الميداني

جدول رقم (٥) جرد الأفران النشيطة بالمدينة العتيقة سنة ٢٠٢٠

اسم الفرن	موقعه
فران أحمد	الملاح
فران البلد	المطامر
فران الركينة ١	بين باب العقلة والمصداع
فران الركينة ٢	الجنوي
فران الصياغين	حي الصياغين
فران الطرانكات	الطرانكات
فران الملاح	الملاح
فران اليهودي	الملاح
فران أمحلي	الجنوي
فران سليمان	السويقة
فران للافريجة	السويقة

المصدر: من إنتاج الباحث بالاعتماد على البحث الميداني

جدول رقم (٦) الساحات ذات الحمولة التراثية المتواجدة بجماعة تطوان

اسم الساحة	الموقع	الأنشطة المزاولة فيها قديما	الأنشطة المزاولة فيها حاليا
بلاصا بريمو	الإنسانشي	فضاء عمومي	فضاء عمومي
الغرسة الكبيرة	المدينة	فضاء تجاري	فضاء عمومي
السوق الفوقي	المدينة	فضاء تجاري	فضاء تجاري
الملاح	المدينة	فضاء تجاري	فضاء تجاري
السويقة	المدينة	فضاء عمومي	فضاء عمومي
ساحة الوسعة	المدينة	فضاء حرفي	فضاء عمومي
التربيعة د كاوزا	المدينة	فضاء تجاري	فضاء حرفي
ساحة الفدان القديم	الإنسانشي	فضاء عمومي	مشوار السعيد
ساحة افيتيدا	الإنسانشي	فضاء عمومي	فضاء عمومي
تربيعة الخياطين	المدينة	فضاء حرفي	فضاء عمومي
تربيعة الصوف	المدينة	فضاء حرفي	فضاء عمومي
تربيعة الياسمينة	المدينة	فضاء حرفي	فضاء عمومي
ساحة اللبادي	المدينة	فضاء تجاري	فضاء عمومي
ساحة سوق الحوت	المدينة	فضاء عمومي	عمومي فضاء
ساحة بئر إنزران	الإنسانشي	فضاء عمومي	فضاء عمومي
ساحة الجلاء	الإنسانشي	فضاء عمومي	فضاء عمومي
ساحة العدالة	الإنسانشي	فضاء عمومي	فضاء عمومي
ساحة سينما اسبانيول	الإنسانشي	فضاء عمومي	فضاء عمومي
ساحة العيون	الإنسانشي	فضاء عمومي	بناية سكنية
ساحة سينما طيراسا	الإنسانشي	سينما صيفية	مراب سيارات

المصدر: من إنتاج الباحث بالاعتماد على البحث الميداني

جدول رقم (٧) الأحياء الحرفية بالمدينة العتيقة بمدينة تطوان

اسم الحي	الحرفة الفنية	عدد الحرفيين	مدى انتشار الحرف
الحدادين	الحدادة	٥	ضعيف جدا
الحصارين	صناعة الحصير	٠	غير موجودة
الخرازين	صناعة المنتوجات الجلدية	١٨	جيد
الصياغين	صياغة الحلي	٨	متوسطة
النيارين	صناعة المرمة	٠	غير موجودة
الخياطين	الخياطة	٣	ضعيفة جدا
الصباغين	الصباغة بمختلف أنواعها	٠	غير موجودة
السفاجين	صناعة السفنج	١	نادر
الجزارين	الجزارة	٠	غير موجودة
النجارين	النجارة	١٨	جيدة
الدباغين	دباغة الجلود	٥	ضعيف
القسدارين	صناعة المنتوجات القسدرية	١	غير موجودة
العطارين الطرافين	بيع التوابل صناعة منتوجات	٠	غير موجودة
الطفالين	صناعة المنتوجات الفخارية	٥	ضعيفة
الطرافين	إصلاح الأحذية	٠	ضعيفة

المصدر: من إنتاج الباحث بالاعتماد على البحث الميداني

٣-الصور



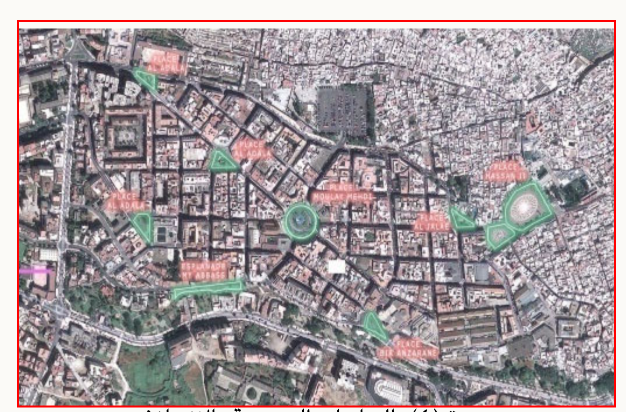
صورة (١): فران غرسية بالمدينة العتيقة
المصدر: بعدسة الباحث بتاريخ ٢٠٢٠/٢/٢



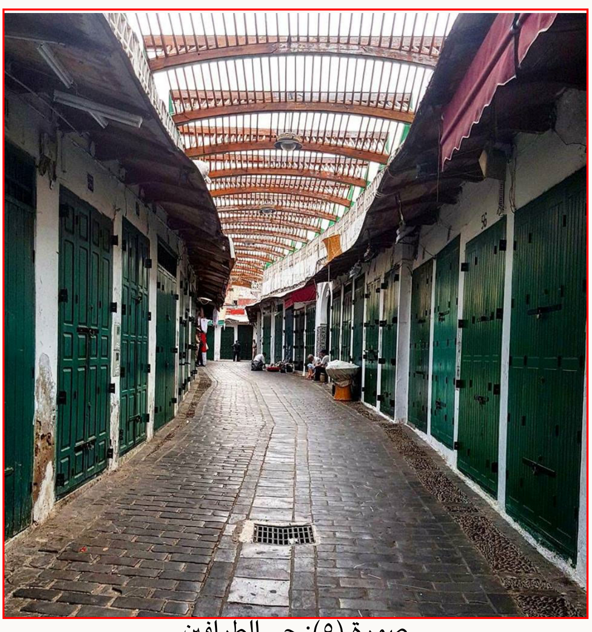
صورة (٢): ساحة الفدان تطوان
المصدر: https://chamalouna.skyrock.com/3.html



صورة (٣): ساحة الغرسة الكبيرة
المصدر: بعدسة الباحث بتاريخ ٢٠١٩/٠٥/٠١



صورة (٤): الساحات العمومية بالإنسانشي
المصدر: المهندس الطوبوغرافي نافع الزناجي بتاريخ ٢٠١٥


صورة (٥): حي الطرافين
المصدر: بعدسة الباحث بتاريخ ٢٠١٨/١٠/١٠


صورة (٦): حي الخرازين بتطوان
المصدر: بعدسة الباحث بتاريخ ٢٠١٨/٠٥/٢٣

الاحالات المرجعية:

(١) مايك كرانغ (٢٠٠٨) "**الجغرافيا الثقافية -أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية**"-ترجمة سعيد منتاق، مجلة المعرفة العدد ٣١٧ ص.٥٠.

(٢) الرامي خالد (٢٠٠٥) "**تطوان خلال القرن الثامن عشر تاريخ وعمران**"، الطبعة الأولى، مطبعة الخليج العربي، ص ١٣٤.

(٣) الحبشي علاء (٢٠١٤) "**الحمامات التاريخية بين الحماية وإعادة التأهيل**"، مجلة إنسانيات التابعة لمركز الأبحاث الأنتروبولوجية والاجتماعية والثقافية، تاريخ النشر (٢٠١٦) ص٢.

(٤) الصينية الخشبية الذي يوضع فيها الخبز لينقل للفرن.

(٥) **التعاون الألماني ووزارة الداخلية المغربية** (٢٠١٧) تصميم وتهيئة الفضاءات العامة والمدارات السياحية داخل المدن العتيقة دليل الممارسات الجيدة، مكتب الدراسات الخبرة، ص ١٣.

(٦) عابد هشام (٢٠١٢) "**الساحات العمومية بالمغرب**" مجلة الحوار المتمدن-العدد ٣٧٤٢، محور العولمة وتطورات العالم المعاصر.

(٧) نعمة الخطب بوجبار (١٩٨٦) "**مذكرات من التراث المغربي الخالد تراث فاخر**" إشراف العربي الصقلي، ج الثامن، مطبعة ألتمرا مدريد ص22.

(٨) الرباطي العربي (١٩٩٦) "**التطور العمراني لمدينة تطوان خلال القرنين ١٦ و١٧** " ضمن أعمال **ندوة: تطوان خلال القرنين ١٦ و١٧**، منشورات كلية الآداب، تطوان، ص.٢

(٩) السعودعبد العزيز (١٩٩٦) "**تطوان خلال القرن ١٩**" مطبعة الحداد تطوان، ص٣.

(١٠) الميضات جمع ميضة هي مكان الوضوء.

(١١) داود محمد (٢٠١٦) "**التكملة ذيل لكتاب تاريخ تطوان** (في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية)" مراجعة وتحقيق وإضافات حسناء محمد داود، مطبعة الخليج العربي. ص ١٦٦.

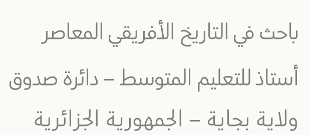
(١٢) الفرناتشي: هو الفرن الذي يكون تحت السخون من أجل تسخين الماء.

(١٣) داود محمد (٢٠١٥) التكملة... مرجع سابق، ص ١٦٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

صيفاك عاهل نوميديا
الشيخ المحنك ٢٢٠ ق.م – ٢٠٣ ق.م.




حملات عبد الرزّاق

باحث في التاريخ الأفريقي المعاصر

أستاذ للتعليم المتوسط – دائرة صدوق

ولاية بجاية – الجمهورية الجزائرية

مُلَخَّصْ

إنّ التاريخ القديم غني بأحداثه وشخصياته، وتاريخ بلاد الأمازيغ أو ما يعرف بشمال إفريقيا له نفس الأهمية إن لم تقل أكثر، فلقد عرف ميلاد إمارات وممالك ودول وشخصيات لعبت دورًا في عجلة التاريخ المحلي والعالمي، ومن بين هؤلاء نجد شخصية العاهل النوميدي الفذ والمحنك سيفاكس أو سيفاك، والذي تميزت فترات حياته بأحداث مهمة محلية وعالمية كتوحيده للمملكة النّوميدية بجزأيها الشرقي والغربي وكذا محاولاته للإصلاح بين أعظم إمبراطوريتين عرفهما العالم القديم عامة وحوض المتوسط على وجه الخصوص وذلك باجتماعه بين ألد الخصوم القائد الروماني سيبيون والقرطاجي صدر بعل، والذي انتهى بالفشل واستمرار رحى الحرب الطاحنة بين العملاقين، ورغم حكمة هذا العاهل الفذ وسرعة بديهيته في تقدير الأمور إلا أنّه عرف نهاية مأساوية بعد سقوطه في الأسر وتسليمه للرومان الذين لم يكونوا رحيمين به.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٣	يناير	٢٠٢٣
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٥	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

بلاد الأمازيغ؛ قرطاجة؛ نوميديا؛ مملكة مازيسيليا؛ سيفاكس

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.324144 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حملات عبد الرزّاق, "صيفاك عاهل نوميديا: الشيخ المحنك ٢٢٠ ق.م – ٢٠٣ ق.م.".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٢٣ – ٣١.

Corresponding author: abderrezak93@live.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

لقد عرف المغرب القديم ظهور ممالك وإمارات قوية تحت قيادة ملوك عظام حافظوا على كيانها السياسي ولعلّ من أبرز تلك الممالك والإمارات نجد مملكة موريتانيا بقيادة بوخوس ١و٢ ومملكتي الماسيل بقيادة غايا ثمّ ابنه ماسينيسا ومملكة المازيسيل بقيادة سيفاكس.

وتم اختيارنا موضوع شخصية سيفاكس للدراسة للدّور الذي لعبه هذا العاهل في مجريات الأحداث وتاريخ المنطقة عامة ومملكته خاصة، وكذا الرّغبة في كشف الغموض الذي اكتنف هذه الشخصية الأمازيغية العظيمة رغم النهاية المأساوية، فقد اعتمدنا في دراستنا هذه على مجموعة من المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ هذه الشخصية مثل: تيتوس ليفيوس، بوليبيوس، سترابون وآبيان....بالإضافة إلى كتب: ماسينيسا أو بداية التاريخ، نوميديا، يوغرطا، تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة، الاقتصاد والمجتمع في شمال إفريقيا، المملكة النوميدية والحضارة البونية، مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديمة،... ومن أهم التوجيهات والتوصيات المقدمة، علينا نحن الأمازيغ في شمال إفريقيا السعي جاهدين للنهوض بتاريخنا الحضاري لنقله إلى الأجيال اللاحقة، وإيجاد مدرسة تاريخية محلية للبحث في تاريخنا ولا نجتر فقط ما كتب من طرف المؤرخين القدامى....ولقد تم طرح الإشكالية التالية: **كيف استطاع العاهل سيفاكس فرض وجوده على مسرح الأحداث؟** والتساؤلات الفرعية: **من يكون سيفاكس؟ أهم إنجازاته؟ كيف استطاع المحافظة على الكيان النوميدي؟ كيف انتهت حياة عاهل الشرق والغرب؟**

١-المغرب القديم أو نوميديا

إنّ منطقة شمال إفريقيا أو المغرب القديم أو بلاد الأمازيغ هي المنطقة الممتدة من الحدود المصرية شرقًا إلى المحيط الأطلسي- غربًا ومن البحر المتوسط شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوبًا، والتي عرفت مجموعة من الشعوب الأمازيغية التي تواجدت هناك من نوميديون، جيتول، غرامنت، ومور، ولكن أقواها هم النوميديون الذين استطاعوا تأسيس مملكتين عظيمتين هما: نوميديا الشرقية التي تعرف بماسيليا بقيادة غايا ثم ماسينيسا ثم مسيبسا...ونوميديا الغربية التي تعرف بمازيسيليا بقيادة سيفاكس ثم فرمينا.[١]

٢-نوميديا الغربية أو مملكة المازيسيل

كانت أول الأخبار التي وصلتنا عن مملكة المازيسيل تعود إلى حوالي ٢١٣ ق.م حيث يذكر المؤرخ بوليبيوس بأنّ القرطاجيين كانت تربطهم علاقة صداقة متينة مع الملك سيفاكس(Syfax) قبل هذه الفترة وأنّ المازيسيليين كانوا يكوّنون جزءا كبيرا من الجيش القرطاجي في إسبانيا وبلاد المغرب القديم.[٢] أما سترابون فيشير إلى أنّ أراضي قبائل المازيسيل كانت تمتد من حدود القبائل المورية غربا والتي يفصلها عنها واد اللوشة (الملوية) وتنتهي حدودها الشرقية عند رأس تريتون(Cap Traiton).[٣] وكان هدف قرطاجة من هذه الصداقة هو المحافظة على استمرار الاتصال بجيوشها في اسبانيا عن طريق هذا الجار القوي.

٣-حياة الملك صيفاك

٣/١-اسمه

يعد العاهل سيفاك ملكا عظيما اعتلى عرش نوميديا الغربية[٤] سنة ٢٢٠ ق. م، فالمسكوكات التي صورت الملك قد كتبت عليها بالبونيقية وترجمت من طرف المتخصصين كما يلي: " Sphq Hummlkt، والكلمة تتألف من مقطعين هما: Sphq أو "سفك" والتي ترجمت إلى سيفاكس أما المقطع الثاني: Hummlkt أو حمملكت فيعني رئيس أعلى أو ملك، وبهذا تعني الكلمة بأكملها: سيفاكس رئيس الدولة أو ملك المملكة.[٥] وقد أطلق اسم سيفاكس على ملك أسطوري في شمال إفريقيا قد يكون منحدر من نسل هرقل وهذا على حد تعبير الملك النوميدي يوبا الثاني.

في حين أشار ابن خلدون إلى اسم سافاك، وهو أحد أجداد الأمازيغ، رغم أن النصوص لم تذكر إلا ملكا واحدا باسم سيفاكس، في حين المسكوكات تصوّره بشكلين مختلفين وتحت اسم واحد، وبعد افتراضات عديدة حول إمكانية وجود ملكيني يحملان نفس الاسم وهو شيء يتنافى مع ذكر النصوص، وصلت النتيجة أنه نفس الملك والفرق يرجع إلى اختلاف دور سك العملات، حيث إن المجموعة الأولى قد سكت محليا بينما الثانية التي تصوّره متوجا قد سكت في إسبانيا.[٦]

يعتبر سيفاك أول عاهل نوميدي تمتع بلقب ملك، وهو الوحيد الذي له الحق في صنع المسكوكات، وهذا ما ظهر جليًا في النقود التي تظهره وابنه على وجه العملة هذا وان دلّ على شيء هو أنّه زعيم وملك القبائل الواقعة في منطقة الماسيل الوهراني-نوميديا الغربية- واتخذ سيغا-عين تيموشنت الحالية- عاصمة لدولته، ولقد كان قويا من ناحية السلطة السياسية، وهذا ما يوضحه وجود التاج على رأسه جعله على مستوى واحد مع ملوك الدولة الهلنستية.(٧)

٢/٣-الصفات التي ميّزت هذا العاهل

مما سبق يمكن لنا القول إنه بالنظر والتدقيق في المسكوكات المتوفرة يلاحظ أن من أهم الصفات التي تتمتع به شخصية سيفاكس:

- فهو من الناحية الفيزيقية-الفيزيولوجية- لا تدل ملامحه على حبّ المغامرة، بل أننا نرى فيه شخصية الشيوخ ممن يميلون إلى تصريف الأموال بالعقل لا بالسلف، ولهذا اتسمت أهم أعماله بكونها أعمال سياسية لا حربية.(٨)
- لم يكن يتصف في سياسته بالدّهاء، بل كان صاحب شخصية غير ملتوية وهذا ما انعكس على خطط سياسته التي تتسم بالوضوح والعلن.
- على الرغم من أننا نعثر لسيفاكس على نقوش المسكوكات في صور شتى قد لا يقوم بين الصورة والاخرى تشابه ملموس، وهذا قد يؤدي إلى وضع الباحث في حيرة الاستدلال على تحديد الشكل أو الرسم أو الصورة الخاصة بسيفاكس على وجه الحقيقة، ولكن يمكن القول بشكل عام أنّ الصور المختلفة التي يظهر بها وجه سيفاكس على المسكوكات تنمّ عن شخصية تميل إلى الاستقرار الحضاري والسلوك النظري والتّنعم والهدوء أكثر من ميله إلى سلوك الحرب والدّمار.(٩)

٣/٣-أهم أعماله ومنجزاته

لعل من أهم ما خلفه الملك سيفاك في مملكة نوميديا عامة ونوميدية الغربية خاصة-المازيسيل- نجد:

(٣/٣) ١-التنظيم السياسي والاداري

يكاد التنظيم السياسي والاداري للمملكة المازيسيلية يكون مجهولاً، إلا عندما ننظر إلى المسكوكات التي ضربها لنفسه وابنه بعده دليل على أنّه الملك والآمر الناهي فيها، فتظهره القطع النقدية رجل بلحية مدببة، شعر قصير وعاري الرأس وفقه ٩ دوائر وخلف العملة رجل يمتطي حصانا دون سرج وهو مرتدي المعطف التقليدي الذي اشتهر به الأمازيغ " البرنس" وفي يده عصا أو رمحا وأسفل بطن الحصان مستطيل كتب فيه بالبونيقية والتي ترجمت الى اللاتينية Sphq Hummlkt والتي تعني رئيس الدولة ملك المملكة(١٠)، ونرى أن الفارس متجه نحو اليمين أو الغرب ومحاولاته الأولى لإخضاع القبائل المحيطة به وتوحيده مازيسيليا في الوقت الذي اتجهت سياسته نحو الغرب، في حين هناك قطع تبين فيها صورة نصفية لسيفاكس وعمره أصغر على رأسه تاج من تيجان الملوك الهلنيين، وشعر رأسه مموجا ولحية دائرية الأطراف وعلى اليمين دوائر أما على ظهر العملة رجل يمتطي حصانا متوجها نحو الشمال وقد يرمز اتجاه الفارس المحارب إلى اتجاه العمليات الحربية التي يقودها سيفاكس أو إلى قيمة العملة.(١١)

فيظهر جليًا في عام ٢١٣ ق.م أنه أهمل استرداد أملاكه التي احتلها الماسيليون والقرطاجيون عبر مضيق جبل طارق للالتحاق بالرومان هناك، كما وضع لنفسه علاقات اقتصادية مع إسبانيا. لكن بعد تاريخ ٢٠٦ ق.م بدأت سياسة سيفاكس تتجه شرقا وكانت ماسيليا منظر أطماعه حيث قام باحتلالها ما بين ٢٠٦ ق.م-٢٠٣ق.م، فلقد بلغ مراده بضم كل نوميديا تحت سلطانه، كما كان له سياسة خاصة تجاه عالم المتوسط فقد كانت له علاقات صداقة وتعاون واقتصاد مع روما، قرطاجة واسبانيا في فترات السلم، فكان سيدا على كل الموانئ في الساحل الوهراني، كما حاول أن يجعل من اللقاء الذي جمعه مع كبار قادة المتوسط مؤتمرا للقمة(١٢) حيث تنافست كلّ من روما وقرطاجة على كسب وده جعله حليفا استراتيجيا لها.

(٣/٣) ٢-بناء المدن المازيسيلية

سيقا عاصمة المملكة: هي أقدم مدينة في مملكة المازيسيل، ولقد ذكرتها النصوص والمصادر التاريخية كعاصمة أولى وأصلية لسيفاكس، وقد جمعت في عام ٢٠٦ ق.م بين أعظم قادة البحر المتوسط وهما سيبيون الروماني وأزدروبعل القرطاجي، أين خطط سيفاكس

لتكون عاصمته موضعا لأعظم مؤتمر يجمع بين العدوين التقليدين الروماني والقرطاجي للمصالحة بينهما.[١٣] وتقع هذه المدينة-العاصمة- على الضفة الشمالية لنهر التافنة (Tafna) على بعد ٩٠ كم شرق واد ملوية، وهناك من يقول أنها تقع على بعد ٤ كم جنوب مصب واد التافنة، على ضفته اليسرى[١٤] وآثارها الحالية تقع بالقرب من تاكمبريت، وبعيدة عن الساحل ب ٥ كم وميناؤها في الجنوب مقابل لجزيرة رشقون أو رشجون.[١٥]

المدن الساحلية لمازيسيليا: اعتبرت المدن الساحلية منافذ ومراكز مهمة لمازيسيليا فقد ساهمت في تجارة البحر المتوسط، وفي التبادل الحضاري بين مازيسيليا والعالم الخارجي فلقد ذكر البعض منها ضمن ممتلكات قرطاجة غير أن موقعا داخل الأراضي المازيسيلية والذي يعطينا الحق بالحديث عنها كأراضي مازيسيلية خاصة وانه تم استرجاع أغلبها عام ٢١٣ ق.م، فلقد وجدت مدن نوميدية بين المراكز البونيقية أو الفينيقية وأحيانا أخرى مدينة بونيقية ومدينة نوميدية تقع على مقربة منها مدينة تحمل نفس الاسم مدينتي (كلكيا) النوميدية والبونيقية اللّتين تم الاشارة إليهما من طرف سيلاكس.[١٦]

المراكز الساحلية: لقد ذكر سترابون اعتمادا على وثائق سابقة لعصره، أنّ هناك بعض المراكز الساحلية شرقي سيغا منها:

الميناء المقدس (Portus Divini): عند الرومان والمعروف حاليا بالمرسى الكبير أوالمرفأ الكبير.

أيول (Iol): وهي مدينة شرشال الحالية والتي أطلق عليها الملك يوبا ٢ قيصرية (Caesaree) بعدما جعلها عاصمة له تخليدا وتكريما ليوليوس قيصر، وسميت بيول نسبة للرب الفينيقي يول.، وكما تم الاشارة لها في ق ٤ ق.م ضمن مدونة رحلة سيلاكس بأنها كانت قرطاجية ولقد تم العثور فيها على أدوات من بينها صنج من البرونز عليه نقش بونيقي وعدد من النقوش البونيقية الجديدة من ضمنها كتابة معاصرة للملك مكوسن.[١٧]

صلداي (Saldae): وهي بجاية الحالية وتقع بجوار مصب واد الصومام الذي أشار إليه سترابون مبرزا أهميته كمركز بحري وتجاري، ولقد عثر هناك على مسلات تحمل نقوش بونيقية.[١٨]

سيد: والتي ذكرها سيلاكس ضمن مدونات رحلته ومن الجائز أنه يقصد (Saldae) خاصة وأنه أشار إليها بين يابسة (Thapsa) سكيكدة الحالية ويوليواكر (Louliou Acra) شرشال الحالية.

إيجيجلي (IGIGLI): جيجل الحالية وتقع في رأس بوجرون وخليج بجاية، ولقد عثر فيها على مدافن من الطراز الفينيقي، وتعود بعض الفروض بالتسمية إلى اسم فينيقي الأصل كما وجد بها بقايا معامل لصناعة الأرجوان. وثمة وثائق تعود إلى الحقبة الرومانية تعرفنا على خمس مدن تقع بين بجاية والجزائر العاصمة وتبدأ بالكلمة الفينيقية " رأس " أو " روش "-Roch- وهي: روزازوس(Rusazus) آزفون--Azzeffoun، روزوبير(Rusippir) وهي: تاكسبت الحالية(Taksebt) على رأس تادلس (Tadless) ثم روزوكورو(Rusucuru) وهي دلس(Dellys) الحالية، قرب مصب نهر سباو(Sebaou) ثم غربا روزوبيكاري (Rusubbicari) أو عين أشرب الحالية-شرقي الجزائر العاصمة.

إيكوزيوم (Icosium): ولها ميناءان –من الرياح الشرقية ومن الرياح الغربية- والتي أطلق العرب عليها اسم الجزائر نظرا لكثرة الجزر الصغيرة القريبة من أراضي الشاطئ، والتي يبدو أنها كانت مركزا فينيقيا، والتي يرجع تأسيسها حسب الأسطورة إلى رفقاء هرقل ليست بدليل قاطع أنها إغريقية إذا اعتبرنا أن هرقل المشار إليه هو الإله الصوري ملقرت-Melqart- ولقد عثر في إيكوزيوم على بقايا بونيقية منها مصباح وأحجبة وتمائم من النّوع المصري القديم.[١٩]

تيبازة (Tipaza): قد عثر بها على أدلة أثبتت الوجود الفينيقي والنوميدي بها، ولقد تمثلت هذه الأدلة في بعض المسلات التي ترجع إلى العهد الروماني وقد رسم عليها رمز الربّة تانيت(Tanite) وبعض الدهاليز الفينيقية كما عثر بها على صورة تمثل الثعابين وميناء صغير تعود إلى عهد الامبراطورية الرومانية، ويحتمل أن يكون هذا الميناء شيّد على أنقاض الميناء الفينيقي القديم.[٢٠] بالإضافة إلى مدن عديدة يجهل موقعها اليوم مثل: هبدوموس(Hebdomos) مدينة وميناء، ثم جزيرة آكيون(Acion) مدينة وميناء، بساماثوس(Psamathos) مدينة وميناء وفي الخليج جزيرة برتاس(Partas) وميناء

كالكا(Chalcoi) وكذا مدينة على نهر أريلون(Arylon) ومدينة ماس وميناءها.[٢١]

أما فيما يخص **المدن المازيسيلية** من الناحية الغربية فنذكر منها:

جزيرة رشقون(Rachgoun): في السواحل الوهراني المقابل لمصب وادي التافنة.

مرسى مذاق (Marssa Madakh): الذي أقام فيه الفينيقيون فيما مضى.

مركز GUNUGU: والذي يبعد عن مدينة شرشال ب ٣٠ كم إلى الغرب وهو معروف حاليا بقوراية سيدي إبراهيم (Gouraya Sidi Brahim).[٢٢]

(٣/٣) ٣-توحيد نوميديا لأول مرة

طبق العاهل سيفاكس نظام اللامركزية من حيث التنظيم الإداري في مملكته بعد توحيدها حيث كان له عاصمتين سيغا وسيرتا تسيران من طرف موظّفين سامين محليين يعيّنهم الملك بالإضافة إلى مجالس شبه قبلية ورجال دين وكذا جباة الضرائب وضباط في الجيش يشترط فيهم أن يكونوا موالين للملك.[٢٣]

عمل سيفاك على صك عملته الخاصة في مدينة سيغا وكان له بها معمل خاص يضرب العملة، فلقد كان عاصمته سيغا على واد التافنة وسيرتا على نهر الرمال واللتان كانتا تمثلان عصب الحياة في مملكته حيث كان يستقبل فيهما السفراء والمبعوثين الخاصين ورؤساء الدول الذين كان يتعامل معهم، كذلك كان يلتقي فيها برؤساء مقاطعات المملكة من أمراء ورؤساء قبائل حيث كان يزوّدهم بالتعليمات الضرورية لتسيير شؤون المملكة.[٢٤]

نتيجة لسياسة التّعقل التي كان يتصف بها هذا الملك العظيم ازدهرت الدولة النوميدية الغربية واتسعت رقعتها بعد أن بدأت تميل إلى القرطاجيين في صراعهم مع الرومان، وحتى يضمن سيفاك وقرطاجة مخططهما ضد الرومان كان عليهما أن يعملا على الحد من نشاط العاهل الشاب ماسينيسا[٢٥] في المنطقة والحيلولة دون تقرّبه من الرومان، وهو ما بدا لهم مصدر خطر وعنصرا نشيطا يمكن أن يستغله سيبيون بوبليوس في الوصول إلى أهدافه.[٢٦]

(٣/٣) ٤-تنظيمه لأول مؤتمر دولي (مؤتمر سيغا ٢٠٦ ق.م)

لقد اشترط على المبعوث الروماني أن يلتقي بالقائد الروماني سيبيون نفسه ومن أجل ذلك انتقل هذا الأخير إلى مدينة سيغا (Siga) عاصمة مملكة سيفاك ملبيا الطلب ما دام الأمر يهم مصلحة الرومان، وفي مدينة سيغا التقى القائد سيبيون الروماني مع القائد القرطاجي صدر بعل بن جيكسون الذي حلّ بها في نفس الوقت. هل كان ذلك صدفة؟ أم أن سيفاك مان قد خطط ورتب لذلك مع القائد القرطاجي؟ المهم أنّ القائدين الروماني والقرطاجي التقيا في ضيافة العاهل النوميدي سيفاك، ولقد تفاوض العظماء الثلاثة في شؤون انهاء العداوة التقليدية والحرب الدائرة بين روما وقرطاجة على السيادة على البحر المتوسط.[٢٧]

غير أنّ القائد الروماني سيبيون صرّح لمحاوريه بأنه لا يكن أي عداوة شخصية للقائد القرطاجي، لكنّه لا يستطيع البث في قضية يعود الحل والعقد فيها لمجلس الشيوخ والشعب الروماني، وبذلك تفرق الجميع دون إيجاد حل لتلك الحرب التي أثقلت الجميع.[٢٨] وفي الحقيقة كان سيفاك يدرك ويلات تلك الحرب إذا انتقلت إلى شمال إفريقيا كما أنّه كان يقدّر قوّة العدوين المتصارعين وعلاقة ذلك بمملكته المحايدة حتى تلك الفترة من سنة ٢٠٦ ق.م، وبذلك كان يحاول جاهدا أن ينهي ذلك النّزاع عن طريق التفاوض والمصالحة وهي أسمى الطرق في رأيه.[٢٩]

٤-تحالفه مع قرطاجة

بعد اللّقاء الذي جمع بين "صدر بعل بن جيكسون والملك سيفاكس للمرة الثانية في سيغا ودراستهما لنتائج هذا المؤتمر الدّلي حول تقرير مصير الصراع التّقليدي بين روما وقرطاجة وبداية تحركات ماسينيسا بعد وفاة والده غايا محاولا الوصول إلى كرس العرش وهذا ما قاده للتّقرب من الرومان.[٣٠]

كل المعطيات المشار إليها أفضت إلى إمضاء اتفاقية بين سيفاكس وقرطاجة أين التزم سيفاكس بأنه في حالة مهاجمة الرومان لشمال إفريقيا فإنّ الجيش المازيسيلي سيحارب إلى جانب القرطاجيين.[٣١] ومن جهتهم قرر القرطاجيون تزويج العاهل سيفاكس بالأميرة القرطاجية سوفونيزبه[٣٢] بنت صدر بعل التي خطبت سابقا للأمير

ماسينيسا عندما كان ضابطا في الجيش القرطاجي بإسبانيا.[٣٣] ولقد عدّ المؤرّخون المحدثين ذلك الزواج بأنّه زواج سياسي أكثر منه عاطفي.[٣٤] كما يعتبر أيضا تخليا عن ماسينيسا من قبل القرطاجيين وإيذانًا منهم لإطلاق يد سيفاكس في نوميديا الشرقية.[٣٥] وبموجب الاتفاق المشار إليه أرسل سيفاكس سنة ٢٠٤ ق.م مبعوثين للقنصل الروماني سيبيون الذي كان معسكرا في سراقوصة (صقلية) يخبرونه أنّه إذا نقل الرومان الحرب إلى شمال إفريقيا فإنّ جيوش الملك سيفاكس ستحارب إلى جانب القرطاجيين ضدّ الرومان.[٣٦]

أن القائد الروماني لم يعبأ بذلك وقد نقل الحرب إلى شمال إفريقيا حيث نزلت الجيوش الرومانية بالقرب من رأس آبولون(Apollon) وهو ما يعرف حاليا برأس سيدي علي المكي شرقي خليج تونس، ثمّ حاصروا بعدها مدينة أوتيكا.[٣٧]

٥-المجابهة المباشرة بين العاهلين النوميديين ماسينيسا وسيفاك

عندما اشتدت ايذاءات الأمير ماسينيسا لقرطاجة وحلفائها في ماسيليا، كلفت سيفاكس بحكم المصاهرة والتحالف لردّ الاعتداءات ونظرا لانشغالها بالحرب البونية الثانية[٣٨] أوعز سيفاكس لقائده بوكار(Bucar) بتنفيذ المهمة بعد أن زوّده بفيالق من المشاة والفرسان.[٣٩] وما هي إلى أيام معدودة حتّى شتّت جيوش سيفاكس جنود ماسينيسا ولم ينجو من تلك المناوشات إلا ماسينيسا بعد أن أصيب بجراح بليغة مما جعل بوكار يعتقد أنّه قد هلك وأخبر سيفاكس بوفاة غريمه فانتشر الخبر الخاطئ بعد ذلك في أنحاء كامل نوميديا.[٤٠] وكان ماسينيسا قد تستر عدّة أيام حتّى التأمت جراحه ثمّ عاد إلى حرب العصابات بعد ذلك فاحتل المنطقة الواقعة بين عنابة وسيرتا ثمّ بدأ زحفه نحو الغرب.[٤١]

لمّا رأى سيفاكس أعمال ماسينيسا تلك وتهديداته المتكرّرة استعدّ للأمر وكلّف ابنه فرمينا(Vermina) بمباغتة جنود ماسينيسا من الخلف ثمّ هاجمه هو بجيوشه الكبيرة من الأمام مما أدى إلى فقد ماسينيسا كلّ ما يملك من جنوده والقيام بالفرار مع زمرة قليلة من مرافقيه إلى الأقاص البعيدة من خليج السيرت بليبيا الحالية ويبقى هناك يتحينّ الفرص دون يأس أو قنوط.[٤٢]

وبسبب الصراع القائم بين قرطاجة وروما جعل سيفاكس يفكر في الوسائل الفعالة لإيجاد حلّ مناسب للمشاكل التي تمس سلامة قرطاجة مع الإبقاء على العلاقات الحسنة مع روما وذلك منذ ٢١٣ ق.م في لقاء القمة الذي جمعه مع القائد الروماني سيبيون في الجزيرة الإيبيرية.[٤٣]

ومع هذا اختار سيفاكس التحالف العلني مع قرطاجة حيث إنّ مصير بقاء مملكته ووجوده كان مرتبط أشد الارتباط بها. لقد حاول سيبيون إقناع العاهل سيفاكس عن العدول عن مناصرة القرطاجيين ولكن دون جدوى، فقد رفض هذا الاقتراح، ويرجع بوليبيوس سبب فشل القنصل الروماني في إقناع سيفاكس إلى قوّة شخصية زوجته التي كان لها تأثير شديد عليه في اتخاذ القرارات الكبرى.

٦-سقوط ونهاية سيفاكس

إنّ عشية معركة السهول الكبرى التي دخل فيها سيفاكس لأول مرة إلى جانب قرطاجة ضدّ الرّومان وكانت أيضا معركة سيرتا سنة ٢٠٣ ق.م الموقعة التي يتم فيها إلقاء القبض على سيفاكس ثمّ القضاء عليه في روما كانت بداية النهاية لمملكة نوميديا الموحدة تحت لواء سيفاكس بجزأيها الشرقي والغربي التي كانت حدودها ممتدة من أملاك الدولة القرطاجية شرقا إلى واد مولوشة (ملوية) غربا.[٤٤]

نقول أنّ النصر كان حليف سيبيون وأعوانه ومن ضمنهم ماسينيسا، واتفقوا على تقسيم الأعمال والجيوش فكان للأمير النوميدي-ماسينيسا- أن يقود صحبة ليليوس كتائب النوميديين وبعض الكتائب الرومانية وسدّد ضرباته نحو سيفاكس حتّ لا يتمكن من تضميد جروحه وإعداد العدة للقتال من جديد.[٤٥] فاتجه كلّ من ماسينيسا وليليوس نحو الغرب لكنّهما عدلا في الأخير عن متابعة سيفاكس لأنّهما أيقنا أنّ لا سبل إلى اللحاق به، وبعد ١٥ يوما مضت ولج القائدين أرض الماسيل فرحّبت بهما القبائل واستقبلت أميرها أحسن ما يكون الاستقبال وقضى على الجنود والولاة الذين سلّطهم سيفاكس بالدّيار الماسيلية.[٤٦]

ومهما يكن من أمر، فقد عمد العاهل سيفاكس إلى جمع جنود يعزّزون صفوفه وتأهب لمقابلة الرومان وحليفهم ماسينيسا، فقد كان المعسكران قرب مدينة سيرتا من الجهة الشرقية ولقد خرجت طلائع الكشافة من الجيش يتعرّفون على أسرار المنطقة من حيث السبل والتضاريس فوقع الاصطدام حتى كان على الخيالة أن تتدخّل وكان لسيفاكس عدد كبير من الفرسان فحملوا بسرعة فقد كاد الرومان يذهبون ضحيّة كرّاتهم لو لم يأتي المشاة يتصدّون لضرباتهم وكأنّهم سدود من حديد يعطّلون تحركات الفرسان فكلما اقتربوا منهم أوقفوا خيلهم حائرين ثمّ أدبروا فكان الكرّ والفرّ.(٤٧)

وأمّا وقوع سيفاكس في الأسر فهناك عدّة روايات ومنها:

- أنّه في أثناء المعركة صادف أن سقط سيفاكس على جواده في ظروف غامضة وأقبل عليه العدو وهو طريح الأرض فغلّلوه وحملوه إلى ليليوس وكان ذلك في ١٤ جوان ٢٠٣ ق.م على حدّ رواية أوفيد (Ovide).(٤٨)
- وأورد تيت ليف (Titus Livius) اعتمادًا على رواية بوليب (Polibius) وأوردها أبيان(Appain) مع بعض الاختلاف في النص: "أنّ معركة دارت بين ماسينيسا وسيفاكس أدبرت جنود المازيسيل وجرح حصان سيفاكس فسقط راكبه-يقصد سيفاكس- وعندها أسرع ماسينيسا وقبض على غريمه -يقصد سيفاكس-وعلى أحد أبنائه وأرسلهما فورا إلى سيبيون".(٤٩)
- وفي أخرى تقولك إنّ سيفاكس كان ممتطيًا فيلاً فرماه جندي روماني برمحه فسقط، ومهما تعدّدت الروايات واختلفت في تفاصيلها فالثابت أن البطل المازيسيلي-سيفاكس- سقط أسيرا تحت قبضة الرومان وبسقوطه تألق نجم الأمير الشاب ماسينيسا في سماء إفريقيا حيث انتشى بالنّصر وتابع طريقه نحو عاصمة سيفاكس قصد فتحها وتمّ الاتفاق أن يتقدّم حتّى جدران المدينة ولمّا أدركها أمر بمناداة أعيانها وأحاطهم علما بمصير ملكهم فلم يثقوا بصحة النّبأ وقابلوا القائد النوميدي بالصّمت، لكنّهم سرعان ما استولت عليهم الدّهشة والحيرة لما أبصروا سيفاكس

مغلولا مثقلا بالسلاسل فهرولوا عند ذلك وفتحوا أبواب المدينة فدخلها ماسينيسا وأسرع نحو القصر حيث وجد الأميرة (Sophonisbe) تلتقط الأنباء فوجئت برؤية ماسينيسا، خرّت على الأرض تتضرع إليه وتسأله أن لا يتركها لعبة بين أيدي الرّومان.(٥٠)

وانتهى هذا اللّقاء بزواج ماسينيسا منها ليبعدها من الأسر وهذا ما أدى إلى تأنيبه من طرف ليليوس والذي أمر بإرسال الأميرة مع زوجها سيفاكس إلى معسكر سيبيون للنّظر في أمرها باعتبارها أسيرة حرب ولمّا اجتمع ماسينيسا ب سيبيون أيقن بالخطر وهذا ما أدى به إلى ارسال أحد غلمانه حاملا السّم في كأس إلى الأميرة قصد انتحارها، فهناك من يقول أنّ ماسينيسا بنفسه هو الذي قدّم السّم لأميرته. (٥١)

أمّا بخصوص سيفاكس فلقد وصل إلى المعسكر الرّوماني يجرّ أذيال الخيبة مثقلاً بالسلاسل وكان الجنود والضّباط يتزاحمون ليشاهدوه من قريب ويتعرّفوا على الظّروف التّي أسقطته تحت أيدي أعدائه. فهناك من تحدّث من المؤرخين عن تأثر سيبيون لمّا رأى الملك مغلولاً، وتذكر أنّه كان ضيفه عام ٢٠٦ ق.م-مؤتمر سيغا الدولي- في قصره، فرقّ لحاله وأشار أن يعاملوه بلطف وانسانية، أمّا سيفاكس حاول التماس المعذرة ملاحظا معلقا أن سياسته كانت قد أملتها عليه زوجته البونيقية والتي افتكت منه عقله ورشده.(٥٢) وأضافا قائلاً حسب ما أورده تيت ليف (Titius Livius) إنّه ارتاح لنبأ زواج تلك المرأة بألدّ أعدائه فلا شك أنّها ستقوده إلى التهلكة، ونجد نفس الرواية في كتب تيودور الصقلي وأبيان وغيرهما، على أنّه من العسير اثباتها بل من المرجح لدينا أنّ الرواية وضعت لأهداف سياسية دعائية فيها تشويه لملك إفريقي حيث تم اظهاره في مظهر دنيء لا قيمة له ولا سلطان إذ غامر بملكه تحت تأثير امرأة، وفي تلك الرواية تعليل لموقف سيبيون إزاء زواج ماسينيسا بالأميرة الأرملة.(٥٣)

سقط إذا سيفاكس ومثل مغلولاً بين يدي سيبيون ولقب ماسينيسا بلقب ملك فكانت ضربة قاسية لقرطاجة حتّى أنها طلبت الهدنة قصد الدحول في مفاوضات تؤدي لوضع الحرب، فاغتنم ماسينيسا قيام الهدنة وعاد إلى مملكته لتدعيم مركزه فيها زمن ثمّ أرسل سيبيون مع

ماسينيسا ثلّة من أعوانه يقودون كتائب من المشاة والخيالة أرسلهم كي يساعدوه على توطيد مكانته بين القبائل الإفريقية والتّسلط على مملكة سيفاكس.(٥٤)

خَاتمَةٌ

في الأخِير نقول، أنّ المملكة المازيسيلية انتهت مع نهاية الملك العظيم سيفاكس كما عبر عن ذلك سترابون، اذ يقول أنّ الجزء المتاخم لموريتانيا من مازيسيليا والذي كان مصدر ثروة سيفاكس العسكرية والمادية والذي اشتهر بغناه تراجعت أهميته، فسقوط سيفاكس كان سقوطًا عسكريًا وحربيًا اقترن بغزوة خارجية اجتاحت الأمّة ودمّرت الحصون واستولت على البلاد، بالإضافة إلى الحروب الداخلية التي اشتبك فيها مع جيرانه الماسيليون...كلّها أدت إلى استنزاف غالبية موارد الدولة مما أسرع الخطى بها نحو الضيق الاقتصادي والفقر العام، وأصبحت مملكة مازيسيليا عبارة عن عائلة تحمل نفس الاسم حيث استمر وجودها في عهد الاستعمار والوجود الروماني في المنطقة.

فهناك من يقر ببقاء واستمرارية المملكة بعد القضاء على سيفاكس مثل: المؤرخ بوليبيوس المعاصر للأحداث بحيث يذكر أنّ ماسينيسا قد احتل ما بين عامي (٢٠٣-٢٠٢ ق.م) كامل مازيسيليا، أمّا تيتيوس ليفيوس الذي يقول أن فرمينا –ابن سيفاكس- ظهر يحارب القرطاجيين في أواخر عام ٢٠٢ ق.م بعد زاما، ليعود ويقول أنّه حكم في جزء من مازيسيليا وبادر عام ٢٠٠ ق.م بإرسال بعثة إلى روما يطلب من مجلس الشيوخ الرّوماني العفو عن ما بدر منه من مساعدة قرطاجة كما قدّمت البعثة أيضا طلبا باسم فرمينا للاعتراف بسلطته في المناطق التي يسيطر عليها، غير أنّ مجلس الشيوخ ردّ عليهم أنّه من الأفضل له طلب السلام قبل طلب السلطة، وإرسال بعثة رومانية إلى الأراضي التي يقيم فيها فرمينا لبحث شروط السلام معه بعدما وافق فرمينا ورضخ لشروط روما وأرسل بدوره مرّة أخرى بعثة جديدة إلى روما للتصديق على الشرّوط حسب رواية تي تيوس ليفيوس.

أمّا أبيان (Appain) فقد أشار في الأول أنّ سيفاكس سجن مع أحد أبنائه ويعود ليقول إن فرمينا كان يتحكم في غالبية أجزاء مملكة أبيه سنة ٢٠٢ ق.م، وأنّه كان يمد بالعون حنبعل – القائد القرطاجي العظيم – والذي كان متمركزا في حضر موت (سوسة الحالية) في تونس.

كما يشير كاسيوس بدوره أنّ فرمينا قد سجن مع أبيه عام ٢٠٣ ق.م ثمّ أطلق سراحه، لأنّ عودته إلى نوميديا كانت بأمر من مجلس الشيوخ الرّوماني وقد تفسح للرّومان مجالا أوسع في تحقيق مآربهم في المنطقة بإيجادهم حليفين لهم في المنطقة، أما المسكوكات التي مثلت صورة تمثال نصفي للملك بدون لحية ومتوّجا يبدو فيها ملكًا شابًا صغيرًا وعلى ظهرها رسم حصان حرّ غير ملجّم وأسفل بطن الحصان مستطيل كتب عليه " الملك فرمينا "-بهذا نفهم جليا أنّ الملك فرمينا نصب كملك في شمال إفريقيا بعد وفاة أبيه-

أما عن نهاية هذا الملك الشاب فيمكن القول أنّه قتل في إحدى المعارك بينه وبين ماسينيسا، ونفهم أنّه حقيقة حكم في نوميديا في عهد ماسينيسا ولو لمدّة قليلة بعد أبيه في جزء ضيّق من ممتلكاته بعد نزوحه جنوبا في المناطق المتاخمة للقبائل الجدالية وهذا إن وافقنا رأي بوليبيوس الذي يشير أنّ ماسينيسا قد احتل ما بين ٢٠٤-٢٠٣ ق.م كلّ مملكة سيفاكس، خاصة منها المناطق الغنية وأنّ ظهور الأمير آركو بارزان أحد أحفاد سيفاكس على مسرح الأحداث في الحرب البونية الثالثة عام ١٥ ق.م وإمداد قرطاجة بالعون العسكري لا يعني وجود مملكة مازيسيلية في هذا التاريخ.

وفي الأخير نقول رغم الدهاء والحنكة السياسية التي تمتع بها العاهل النوميدي العجوز إلا أن عزيمة الشباب والتخطيط المحكم الذي قام به ماسينيسا استطاعا هزيمته والقضاء عليه والاستيلاء على مملكته وإعادة توحيد مملكتي نوميديا الشرقية والغربية على يد ماسينيسا وبقيت على نفس الحال في عهد ابنه مسيبسا وتوحيدها مرّة ثالثة على يد العاهل الشاب يوغرطا بعد القضاء على ابني عمه مسيبسا وانهاء السيطرة والتدخل الروماني في الشؤون الداخلية للمملكة.

الاحالات المرجعية:

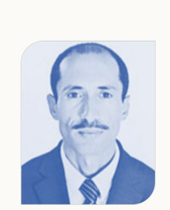
(١) محمد العربي عقون، **الاقتصاد والمجتمع في شمال إفريقيا**، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ٢٠١٠، ص ١٥٨-١٦٦.
(2) Polybius, Histoire, III, 33, 15.
(٣) محمد الصغير غانم، **المملكة النوميدية والحضارة البونية**، ط١، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، ١٩٩٨، ص١٣٤.
انظر أيضًا: مقال محمد الصغير غانم، **الملك سيفاكس والكيان السياسي النوميدي**، التراث-مجلة تاريخية أثرية، العدد ٩، جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس، ١٩٩٧، ص٨.
(٤) اسمه باللغة القرطاجية كما جاء في النصوص الفينيقية في معبد الحفرة. انظر: Mahfoud Keddache. L'Algérie dans l'antiquité. Nouvelle Edition. Alger. SNED, 1990, p 59.
(٥) فتيحة فرحاتي، **نوميديا (من حكم غايا إلى بداية الاحتلال الروماني) الحياة السياسية والحضارية(٢١٣ ق.م-٤٦ ق.م)**، منشورات آبيك، مطبعة متيجة، الجزائر، ماي ٢٠٠٧، ص ١١٥. ومحمد الصغير غانم، مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم، ج١، ط١، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ٢٠١٠، ص١٣٨.
(٦) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق.
(٧) ملوك الحضارة اليونانية.
(٨) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق، ص١٣١.
(٩) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق.
(١٠) فتيحة فرحاتي المرجع السابق، ص١١٨.
(١١) المرجع السابق، ص١١٩
(١٢) مؤتمر سيقا الدولي ٢٠٦ق.م جمع بين القائد القرطاجي صدر بعل بن جيسكون والقائد الروماني سيبيون في عاصمة مملكة سيفاكس سيقا وذلك من أجل انهاء الحرب الرومانية القرطاجية، لكن الطرفين لم يصلوا لاتفاق.... انظر: أحمد حسين السليماني، **تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة**، ط٢، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠١٧، ص٨٨.
(13) Titius Livius, XXVIII,17(12-6).
(١٤) رابح لحسن، **أضرحة الملوك النوميد والمور(دراسة أثرية وتاريخية مقارنة لأهم الأضرحة الملكية النوميدية والمورية المشيدة منذ ق٤ ق.م إلى غاية عشية الفتح الاسلامي)**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص٤٧.
(١٥) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق، ص ١٢٠.
(١٦) فتيحة فرحاتي، نفس المرجع، ص ١٢٢.
(١٧) مكوسن أو ميسيبسا إبن الملك ماسينيسا، تشير المصادر التاريخية إلى أن مولده كان حوالي سنة 200 ق.م، غير أننا لانعرف الكثير عن طفولته، وكل الذي وصل إلى المؤرخين هو أنّه تربى في كنف والده الملك(ماسنسن) ماسينيسا وتتلمذ عليه أمور الحكم والسياسة ، وقد أشار الجغرافي الإغريقي استرابون إلى أن الملك مكوسن يولي أهمية كبيرة للعلماء والمثقفين ويقضي معظم أوقاته في دراسة الفلسفة انظر: محمد الصغير غانم، "**نقيشة مسيبسا السيرتية، دراسة لغوية تاريخية**" ، **حولية المؤرخ** ، العدد ٣-٤ مركز البحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر:2005 ١٥ و انظر كذلك: Charl André Julien, **Histoire de l'Afrique du Nord**, Ed.Payot, Paris.1968.P :125.
(١٨) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق، ص ١٢٣.
(١٩) ستيفان غزال، **تاريخ شمال إفريقيا القديم**، ت: محمد التّازي سعود، ج٣، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة تاريخ المغرب، الرباط، المغرب الأقصى، ٢٠٠٧، ص ١٦.
(٢٠) فتيحة فرحاتي، المرجع السابق، ص١٢٤.
(٢١) فتيحة فرحاتي ، المرجع السابق.
(٢٢) نفسه.
(23) Appain , Histoire Romaine, ed, Viereck, dans Bib, Teulner, 1906, P10. انظر أيضًا: محمد الصغير غانم، مقال: الملك سيفاكس....، المرجع السابق، ص١٣.
(24) Titius Livius, Op Cit, P17.
(٢٥) هو إبن الملك غايا ملك نوميديا الشرقية التي تعرف بماسيليا، العدو اللّدود للعاهل سيفاك.
(٢٦) محمد الصغير غانم ، " **نقيشة**...، المرجع السابق، ص٦٤.
(٢٧) ستيفان غزال، المرجع السابق، ص١٨٤-١٨٧.
(28) Titius Livius, XXVIII, 18, 7.
(29) Ibid, 18, 12, XXIX, 36, 24, 3.
(٣٠) محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص ١٤٠.
(٣١) نفسه.
(٣٢) **صوفون بعل**: ابن القائد صدر بعل بن جيكسون وخطيبة الأمير الماسيلي ماسينيسا عندما كان أبوه غايا حليفا لقرطاجة وهو كان في الجيوش القرطاجية في إسبانيا في حروبها مع الرومان. انظر: محمد الصغير غانم، المرجع السابق.
(٣٣) محمد حسين فنطر، يوغرطه، الدار القومية للنشر، ١٩٧٠، ص٦٨.
(٣٤) محمد الصغير غانم، المرجع السابق.
(٣٥) نفسه.
(36) Titius Livius, XXIX, P23,7,10.
(37) Titius Livius, XX .X. 34, 3
(٣٨) حروب قامت بين الرومان وقرطاجة وهناك الحرب البونية ١، ٢ و٣، والتي كانت تحت قيادة الملك هاميلكار برقة ثم ابنه حنبعل برقة.
(٣٩) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس الجزائر المغرب الأقصى، من البدأ إلى الفتح الإسلامي**، ٦٤٧، تعريب: محمد مزالي والبشير سلامة، ص.
(٤٠) غابريال كامبس، **في أصول البربر ماسينيسا أو بداية التاريخ**، تعريب وتحقيق: محمد العربي عقون، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٩، ص١٦٨.
(41) Appain, Lib. II, 12.
(42) Ibid, 13.
(٤٣) محمد الصغير غانم، مقالات وآراء........، مرجع سبق ذكره، ص١٤٢.
(٤٤) محمد الصغير غانم، مقالات وآراء...، نفس المرجع السابق، ص ١٤٢، ١٤٣.
(٤٥) محمد فنطر، المرجع السابق، ص٦٨.
(٤٦) نفسه.
(٤٧) نفسه.
(٤٨) **أوفيد** شاعر روماني عاش ف القرن ١ ق.م وكذا في بداية القرن ١ م، فهو إذا من المخضرمين. انظر: محمد فنطر، المرجع السابق، ص٦٩.
(٤٩) محمد فنطر، المرجع السابق.
(٥٠) نفس المرجع، ص ٦٩.
(٥١) ستيفان غزال، المرجع السابق، ص١٨٧، ٢٣٨، ٢٣٩.
(٥٢) محمد فنطر، المرجع السابق، ص ٧٠، ٧١، ٧٢.
(٥٣) نفسه.
(٥٤) نفسه.



ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

علاقات نصارى بني تغلب في شمال العراق بالعرب المسلمين وبالبيزنطيين

من القرن السّابع إلى القرن العاشر الميلادي



د. بشير العبيدي
أستاذ مساعد في التّاريخ الوسيط
كليّة الآداب والفنون والإنسانيات – منّوبة
جامعة منّوبة – الجمهورية التونسية

مُلَخّصْ

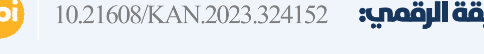
يندرج هذا البحث ضمن موضوع تاريخ علاقات العرب المسلمين بمجموعة من أهل الذّمة في شمال العراق خلال القرون الأولى للإسلام وذلك ضمن إطار أوسع يحيل على جانب من تاريخ علاقة العرب بالبيزنطيين. فتبحث هذه الدراسة علاقة نصارى بني تغلب في شمال العراق بالعرب المسلمين ثم علاقتهم بالبيزنطيين من القرن الأوّل الهجري/السّابع الميلادي إلى القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي). فأثناء بداية سيطرتهم على الجزيرة الفراتيّة أقنع قادة جيش العرب المسلمين هؤلاء العرب النّصارى بالانسلاخ عن البيزنطيين والقتال إلى جانبهم هم لكونهم عربا مثلهم، وذلك بصرف النظر عن نصرانيتهم. وما إن تحقق النّصر العسكريّ حتى عرض المسلمون الإسلام على بني تغلب فرفضوا. ولم يقبلوا أيضا بوضعية أهل الذّمة بصيغتها المعهودة، وتمكّنوا لعدّة أسباب من عقد صلح مع عمر بن الخطاب ضمن لهم وضعا مميزا عن باقي أهل الذمة. مع مرور الزّمن، وخلافاً لما نصّ عليه الصّلح المبرم، عانوا من سياسة ضريبيّة مجحفة. وفي سنة (٣٢٩هـ/٩٤١م) اضطرّ بنو حبيب، وهم بطن من تغلب، إلى اللجوء إلى بيزنطة. ولكونهم نصارى كبقية رعايا الإمبراطورية، ونظرًا إلى حاجة البيزنطيين لتعمير المناطق الثّغرية التي استردّوها من العرب المسلمين، وجد هؤلاء اللاجئون الحظوة والدّعم، واندمجوا في الدّولة البيزنطيّة، وتحالفوا مع الأسياد الجدد، وشنّوا الغارات على المناطق المجاورة من دار الإسلام.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ يناير ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٤ فبراير ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

العرب المسلمون؛ نصارى بني تغلب؛ الصلح؛ أهل الذّمة؛ بنو خبيب؛ البيزنطيون؛ الرّوم؛ الجزيرة الفراتيّة.

معرِّف الوثيقة الرقمي:  10.21608/KAN.2023.324152

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بشير العبيدي، "علاقات نصارى بني تغلب في شمال العراق بالعرب المسلمين وبالبيزنطيين: من القرن السّابع إلى القرن العاشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٣٢ – ٤٩.

Corresponding author: labidibechir@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةٌ

لمّا توغّلت جيوش العرب المسلمين في الجزيرة الفراتيّة[١]، بادرت معظم القبائل العربيّة باعتناق الإسلام، وسارعت إلى مناصرة المسلمين ضد الرّوم. وقد كانت قبيلة بني تغلب بن وائل التي حلّت بالجزيرة منذ أواخر القرن الخامس الميلادي وبداية القرن الموالي [٢] ضمن هذه المجموعات الفاعلة في بعض مجريات تلك الأحداث. ولكنّ اختلف موقفها عن موقف غيرها من القبائل ليس في رفض الكثير من أبنائها اعتناق الإسلام فحسب وإنما أيضا في تمسّكهم برفض دفع الجزيّة التي اعتاد المنتصرون فرضها على أهل الكتاب الذين خيرّوا البقاء على دينهم. عندئذ لم تجد السلطة المركزيّة بدّا من منح هذه المجموعة من النّصارى وضعا خاصا صلب دار الإسلام ممّا أثار بشأنهم جدلاً. ومع مرور الزّمن، يبدو أنّ بعض بنود الصّلح الذي عقدوه مع الخليفة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣ هـ/٦٣٤-٦٤٤م) لم تحترم من قبلهم وكذلك من قبل بعض أولي الأمر من المسلمين. ثم مع نهاية الثلث الأوّل من القرن الرّابع الهجري، اضطرّ بنو حُبَيْب، وهم بطن من بطون بني تغلب، إلى اللجوء إلى بلاد الرّوم والانضواء تحت راية الإمبراطوريّة البيزنطيّة.

ولئن أبدت مصادرنا مقدارًا هامًّا من الأمانة في نقل الأخبار المتعلقة بهذه الأحداث، فإنّ جزءا كبيرا من المادة التي وصلتنا بين طيّات صفحاتها ليس في نهاية المطاف إلا ما دوّنه أحفاد المنتصرين في زمن متأخر ودون نقد وتمحيص لأخبار كانت متداولة شفويًّا لا شكّ لدينا في أنّ الزّمن قد طوى تفاصيل عدّة منها، فشاب مضامين هذه الرّوايات بعض الغموض، وبدا بعضها الآخر محكومًا بموقف مؤلّفيها من السّلطة، وربّما تسرّبت إليها بعض الأخطاء. وجدنا إذن في هذه النّقطة وفي غيرها من النّقاط التي سنُجَلّيها في حينها ما يستدعي العودة إلى موضوع نصارى بني تغلب. وإنْ كنّا قد استفدنا من بعض الأعمال العلميّة الجدّية فإنّنا نطمح إلى تقديم الإضافة من خلال ما نطرح من إشكاليّات[٣]، ونسعى كذلك إلى تجاوز بعض الدّراسات التي اكتفت بتكرار ما ذكر في المصادر دون تحليل ونقد، ودون فهم معمّق لجوهر المسألة ولدقائقها[٤].

وقد ارتأينا في هذا العمل جمع شوارد روايات مختلف المصادر، وتحليل مضامينها، ومقارنة بعضها ببعض، ونقدها كلّما كان ذلك ممكنا، وإعادة تركيب أحداثها بعيدا عن مجرّد سردها. كما رمنا سبر أغوار ذهنيّة الفاعلين، لنفهم بعمق خلفيّات الصّلح الذي عقده نصارى بني تغلب مع عمر بن الخطّاب وتفاصيله، ونطرق بعض الجوانب المتروكة من تاريخ هؤلاء العرب النّصارى في شمال العراق. ولن يكون من اليسير بلوغ مرامنا إلاّ على ضوء ما نطرح من إشكاليّات مغايرة عما سبقنا إليه غيرنا من الباحثين من طرح، وعن طريق فحص تاريخ هذه المجموعة على الأمد الطويل. أي عبر النّظر في خلفيّات علاقتهم بالعرب المسلمين وطبيعتها، ثم النّظر في علاقة بني حُبَيْب التّغالبة بالبيزنطيين، وذلك خلال الفترة الممتدّة من نهاية العقد الثّاني من القرن الأوّل الهجري إلى منتصف القرن الرّابع الهجري/ من نهاية العقد الرّابع من القرن السّابع الميلادي إلى منتصف القرن العاشر الميلادي.

فكيف كانت علاقة نصارى بني تغلب بالعرب المسلمين أثناء بداية سيطرة المسلمين على الجزيرة الفراتيّة؟ وما هي خلفيّات الصّلح الذي عقدوه مع عمر بن الخطاب وما هي أبرز مضامينه ومآلاته؟ ثمّ كيف اندمج بنو حُبَيْب أحد بطون بني تغلب في الدّولة البيزنطيّة لمّا التجؤوا إلى بلاد الرّوم في نهاية الثّلث الأوّل من القرن الرّابع الهجري؟

أولاً: تحالف نصارى بني تغلب مع العرب المسلمين ضدّ الرّوم أثناء فتح الجزيرة الفراتيّة

بيّنت المصادر أنّ معظم مدن الجزيرة الفراتيّة فُتحت بالأمان، فتحها عياض بن غَنم سنة ١٧هـ/٦٣٨م بتكَليف من الخليفة عمر بن الخطاب[٥]. ونظرًا لشساعة المنطقة فقد استعان "أمير القتال" بعدد من القادة وقام بتوزيع المهام عليهم[٦]. لكنّ مصادرنا اختلفت بشأن القائد الذي توجّه إلى بني تغلب وعرض عليهم الإسلام. فهو عُمَيْر بن سعد في رواية البلاذري (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢م)[٧] ، وهو الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط في رواية الطبري (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م) وكذلك فيما دوّنه ابن الأثير (ت سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣م)[٨]. لا يمكن القبول بأنّ عُمَيْر بن سعد هو من تولّى هذه المهمّة الخطيرة. فلقد كان في ذلك الوقت "غلاما حدث السّن ليس إليه من الأمر شيء"[٩]. ثم إذا

علمنا أنّه توفي سنة (١٠٥هـ/ ٧٢٤م)، وإنْ قيل أنّه عُمِّر[١٠]، زادت شكوكنا في اضطلاعه بقضيّة بني تغلب. فلمّا فُتحت الجزيرة لازال هو غلاما لم يَحُزْ بعدُ الحنكة والخبرةَ اللاّزمتين لمفاوضة شيوخ تلك القبيلة. ولم يُوجَّه آنذاك إلاّ "إلى رأس العين في خيل ردءًا للمسلمين"[١١] أي مُعينًا ناصرًا. فللباحث إذن أن يقبل بالرّواية التي تقول أنّ من تولىّ أمر نصارى بني تغلب هو الوليد بن عقبة، وقد ذُكر اسمه في أقدم الرّوايات التي نقلها الطبري، وهي روايات أكثر تفصيلا ممّا دوّنه البلاذري[١٢]. وقد ذُكر أنّه كان حيًّا في سنة (٢٧هـ/ ٦٤٨م)، ثمّ توفيّ في الرّقّة[١٣].

وإذا استثنينا دوره في السّيطرة على رأس العين، فإنّ عُمَيرْ بن سعد لم يكن له – على ما يبدو – دورًا كبيرا في أحداث السّيطرة على الجزيرة تحت قيادة عياض بن غنم. ولمّا توفي عياض سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١م، تولىّ هذه المنطقة سعيد بن عامر بن حذْيم الذي توفيّ بعد ذلك بوقت قصير، عندئذ عينّ عمر بن الَخطّاب عُمَيرْ بن سعد والٍ هناك[١٤]. ولا يمكن القبول بفرضية نظره في أمر نصارىً بني تغلب عندما أصبح واليًا على الجزيرة، إذ لا توجد أيّة إشارة في المصادر ترجّح مثل هذه الفرضيّة، ولا يمكن أن تكون قضيّة هؤلاء النّصارى قد أُجِّلت إلى سنوات قليلة بعد انتشار الإسلام في المنطقة. من المؤكد أنّها من القضايا التي عولجت بمجرد زوال نفوذ الرّوم من شمال العراق.

بمجرد أن عبر عياض بن غنم الفرات متّجها نحو الجزيرة الفراتيّة، بلغه أنّ البيزنطيين أعدّوا جيشا من العرب والأرمن والرّوم لحربه، وأنّ المقاتلين العرب المنضوين تحت رايتهم لاسيما منذ أن هزم الإمبراطورُ هرقل (٦١٠-٦٤١م) الفرسَ في معركة نينوى في نهاية سنة ٦٢٧م وسيطر على شمال العراق، قد تقدّموا قبل غيرهم لمواجهته، فبعث إليهم الوليد بن عقبة[١٥]. فلمّا قدم الوليد على بني تغلب التقى أمراءهم، وحثّهم على القتال إلى جانب العرب المسلمين ضدّ الرّوم. عندئذ "نهض كافرهم ومسلمهم كلّهم إلاّ إيّاد بن نزار فإنّهم ارتحلوا بقبيلتهم إلى بلد الرّوم"[١٦]. يبدو أنّ الواقدي (ت. ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) يشير في نصّه هذا وفي مواضع أخرى من روايته إلى النّصارى عربًا كانوا أو رومًا بعبارة كفّار أو مشركين[١٧]. أمّا المسلمون منهم فهم أولئك الذين أعلنوا إسلامهم لّما وفدوا على الرسول محمد (ﷺ) في المدينة، وكذلك الذين أسلموا عندما فتح عبد الله بن المعتّم أحد قادة جيش سعد بن أبي وقّاص تكريت سنة (١٦ هـ/٦٣٧م)[١٨]. ورغم أنّنا لا نعرف الوزن العددي للذين بقوا على النّصرانية من بني تغلب في الجزيرة الفراتيّة فإنّ هؤلاء لم يكونوا قليلي العدد مقارنة بمن اعتنق الإسلام من أبناء قبيلتهم[١٩].

وتبينّ نفس الرّواية أنّه خلال المرحلة الأولى من دخولهم الجزيرة استند العرب المسلمون إلى حجّة العروبة فشقّوا صفوف من بقي هناك من الجيش البيزنطيّ بعد معركة نينوى، وتمكّنوا من إقناع بني تغلب بل وإقناع معظم "العرب المتنصرّة" بالانسلاخ عن الرّوم والمشاركة في القتال ضدّهم[٢٠]، وكانوا قبل ذلك قد اُسْتُنفروا للقتال إلى جانب جيش هرقل في بلاد الشام[٢١]. عندئذ وافق معظم العرب النّصارى المسلمينَ الرأي[٢٢]، وذلك بصرف النّظر عن قبولهم بالإسلام من عدمه. كما بينّ الوليد بن عقبة لبني تغلب أهميّة الانتصارات العسكرية التي تحققت في بلاد الشام ضدّ الرّوم وحلفائهم من العرب، وأنّ موازين القوى باتت لصالح العرب المسلمين. ثم قال لهم: "والصّواب أن ترجعوا إلينا وتكونوا حزبنا"[٢٣]، ممّا حفّزهم على الالتحاق به.

إنّ تدقيق النّظر فيما قاله الوليد لزعماء بني تغلب يشير بوضوح إلى أنّه طلب منهم التّحالف مع العرب المسلمين لنصرة الإسلام ولم يعرض عليهم التّخلي عن نصرانيتهم. ولا شيء يدلّ على أنّه قد عُرضت عليهم في تلك اللحظة شروط البقاء على النّصرانية إن لم يقبلوا بالإسلام. فلقد كان المسلمون حينئذ منشغلين بالجانب العسكري وما يتطلّبه من خطط للقتال ومن تحالفات حتّى مع غير المسلمين من العرب، أكثر من انشغالهم بالتّشريعات التي تتعلّق بأهل الكتاب. فإنْ هم خيرّوا نصارى العرب بين الإسلام ووضع الذّمة قبل التّخلص من الرّوم ربّما لرفض هؤلاء قطع صلتهم بالرّوم من أجل التّحالف مع العرب المسلمين، ولفضّلوا الحفاظ على حلفهم السّابق حفاظا على دينهم وعلى وضعهم. ومن هذا المنطلق، يبدو أنّ العرب المسلمين قدّموا أنفسهم في صورة الحامل للواء استقلال جميع العرب، مسلمين ونصارى، عن القوى الأجنبيّة. وفي نفس الوقت ربّما رأى عدد من نصارى العرب في العرب المسلمين خلال أولى أيّام توغّلهم في الجزيرة صورة المحرّرين لهم من سيطرة الرّوم،

لاسيما وأنّ الأسياد الجدد، وخلافا للرّوم، قد أظهروا مقدارا كبيرا من احترام حريّة معتقدات أهل الكتاب(٢٤). لم تكن في تلك اللحظة مسألة أسلمة مجموعات من العرب النّصارى مطروحة كأولويّة وإنْ كانت ماثلة في أذهان بعض أولي الأمر من المسلمين كعمر بن الخطاب والوليد بن عقبة(٢٥)، وربّما في أذهان نفر من بني تغلب؛ فلقد أُجِّلت إلى حين، وكان رابط العرق ومفعول العروبة أقوى. ولعلّ الطّموح السّياسي للعرب النّصارى هو كذلك من العوامل التي حرّكتهم ضد الرّوم. فمن الجائز أن يكون أمراؤهم قد فكّروا بمكاسب سياسيّة مهمة دون اضطرارهم إلى التّخلي عن نصرانيتهم.

إنّ ما قاله الوليد بن عقبة لنصارى بني تغلب هو تقريبًا نفس ما قاله عياض بن غنم لثعلبة ولبني ربيعة لّما جاؤوه. فقد طلب منهم الانضمام إلى جيشه ولم يعرض عليهم الإسلام إلا لَمًا وتلميحا، وتلك على ما يبدو خطّة مُعدّة مسبقًا. ثم قالَ لهم مرغّبا ومتحدّثا عن جميع العرب دون تمييز بين مسلم وكتابي إنّ الرّسول محمد (ﷺ) قد "وعدنا ووعده حقٌّ، بملك كسرى وقيصر وكنوزهما"(٢٦). ويضيف الواقدي أنّهم "لّما سمعوا كلام عياض بن غنم أسلم كافرهم"(٢٧). لا شكّ لدينا في أنّ الكثير من عرب الجزيرة قد اعتنقوا الإسلام في تلك اللحظة. ومن البيّن أنّ بعضهم كان يحفّزهم المُلك الموعود والغنائم المنتظرة، أكثر مما كانت تدفعهم قناعتهم بالدّين الجديد؛ فلم يتردّدوا في إعلان تحالفهم مع العرب المسلمين، وهو تحالف عسكري سياسي دون مواربة؛ ولكن إذا نظرنا إلى جوانبه الدّينية تبدو الأمور في ذلك الوقت غير واضحة للطرفين بالدّقة المطلوبة؛ ووجد كل طرف في ظاهر المسألة فقط ضالته.

لكن بعد أن حقّق العرب المسلمون وحلفاؤهم نجاحات عسكرية سريعة ضد الرّوم وحلفائهم الذين ما لبثوا أن تقهقروا(٢٨)، وبعد أن أصبحت المنطقة شبه خالية من جيش غير العرب، قفزت المسألة الدّينيّة المؤجلة إلى السّطح. وهذا ما لا تذكره المصادر بالوضوح المطلوب، وإنّما على الباحث اكتناهه بعد قراءة متأنّية للمصادر وغربلة رواياتها ونقدها ومقابلة بعضها ببعض، وبعد إعادة ترتيب الأحداث ترتيبا منطقيا. عندئذ التفت القادة المسلمون إلى مسألة التّشريع التي تخصّ غير المسلمين: "فأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من بني تغلب إلاّ الإسلام"(٢٩). وفي ذلك إشارة إلى أنّ أغلبهم لم يعتنقوا هذا الدّين إلى تلك اللحظة. ما يجب أن يسجّله الباحث في موقف الوليد هذه المرّة هو طلبه بوضوح تام من نصارى بني تغلب اعتناق الإسلام ورغبته في الانتقال بعلاقة المسلمين بهم من علاقة مبنيّة على التّحالف العسكري، وقد كانت قصيرة العمر بسبب قصر المدّة التي استغرقتها عمليّة السّيطرة على الجزيرة، إلى مرحلة جديدة ومختلفة عمّا سبقها تُبنى فيها العلاقة على الانصهار في الدّين الجديد، وذلك لقناعته بأنّ عروبتَهم حجّةٌ عليهم كي يعتنقوا الإسلام(٣٠).

غير أنّ بني تغلب رفضوا طلبه. فقد كانوا على اقتناع متين بكونهم أصحاب ديانة سماويّة توحيديّة حرصوا على التّمسّك بها(٣١) لأنّها لا تضعهم من وجهة نظر إيمانيّة على قدم المساواة فحسب مع غيرهم من العرب المسلمين – وتلك مساواة لا تقلّ عنها مساواة النّسب في شيء –وإنّما أيضا للنّصرانية التي اعتنقوها منذ القرن السّادس الميلادي الأسبقيّة التّاريخيّة على الإسلام. ولهم كذلك الأسبقيّة الإيمانيّة كأشخاص اعتنقوا ديانة توحيديّة على المذهب اليعقوبي في وقت كان الكثير من العرب وثنيين(٣٢). يبدو أنّهم فاوضوا الوليد بن عقبة من أجل "أن يأذن لهم في الجلاء" بسلام ولا يُعتَرَضُ سبيلهم(٣٣). ومن المرجّح أنّ حديثهم عن الجلاء كان مجرّد تهديد راموا من ورائه الضّغط على المسلمين لتحقيق المكاسب، فليس من الهيّن أن يفرّطوا في أراضيهم لأنّهم "أصحاب حروث ومواش"(٣٤). لكنّ الوليد تمهّل. لذا يبدو أنّه قد جرت بين الطّرفين مفاوضات متقطّعة بحسب تطوّر المواقف من الجهتين. ولا بدّ أنْ يكون الوليد قد أدار في المرحلة الأولى المفاوضات بنفسه مع وجهاء بني تغلب لأنّه كان قد اجتمع بهم وتعرّف إليهم بعد أنْ كلّفه عياض بن غنم بالتّوجّه إليهم منذ الوهلة الأولى لدخول جيش المسلمين الجزيرة(٣٥). ويمكن أن نستنتج أنّه حينما اصطدم برفض هؤلاء النّصارى الإسلام ولم يتوصّل إلى حلّ وكاد زمام الأمور ينفلت منه، وتلك تفاصيل لا تذكرها مصادرنا، لم يجد بدًّا من رفع شأنهم إلى الخليفة، فبعث إليه "برؤوس النّصارى وبديّانيهم" بحسب ما دوّنه الطبري (٣٦).

ثانيًا: صلح عمر مع نصارى بني تغلب (الخلفيّاتُ والمضامينُ والمآلُ)

لئن قبلت عدّة مدن وقبائل في الجزيرة الفراتيّة بوضع الذّمة الذي يقتضي أساسا دفع الجزية، ودخلت مجموعات أخرى في الدّين الإسلاميّ[٣٧]، فإنّ بني تغلب، وكما ذكرنا آنفا، رفضوا طلب الوليد بأن يعتنقوا الإسلام، وهذا أمر طبيعيّ. ولم يقبلوا بعد ذلك دفع الجزية المفروضة على الكتابيّ لّما أراد أن يلزمهم بها عمر بن الخطاب[٣٨]، أي أنّهم رفضوا وضعية أهل الذّمّة، وهذا أمر استثنائيّ ومستجدّ بالنّسبة إلى دولة المدينة. وتفسرّ المصادر موقفهم هذا بالقول إنّهم "قوم من العرب نائفون من الجزية"[٣٩]. بمعنى أنّ بني تغلب اعتبروا هذه الضرّيبة المفروضة على أعناق غير المسلمين – والتي ورد بشأنها في القرآن ما نصّه: "حتّى يُعْطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[٤٠] – مذلةً لهم أمام بني جلدتهم من العرب الذين اعتنقوا دينا غير دينهم. ورأوْا فيها صَغَارًا بيّنًا لم يقبلوا به لاسيما وأنّ لهم شوكة قد تمنعهم[٤١]. ولذلك تمسّكوا بعدم دفعها أثناء تفاوضهم مع الخليفة، وكرّروا تهديدهم السّابق للضّغط على عمر بالقول: "لئن وضعت علينا الجزاء لندخلنّ أرض الرّوم"[٤٢].

غنيّ عن البيان أنّ الخليفة قد أخذ في حسبانه هذا التّهديد الذي سبق وأنْ نفّذه بطن من بطون العرب. فبمجرد وصول جيش عياض بن غنم إلى الجزيرة غادرت إيّاد بن نزار المنطقة واحتمت بأرض الرّوم. فكتب عمر بن الخطاب إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين بن هرقل (٦٤١م) يطلب إخراجهم، وهدّد بطرد النّصارى إن لم ينفّذ طلبه؛ فأُعيدوا إلى ديارهم إلاّ عددا منهم "تفرّقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الرّوم"[٤٣]. وهذا يكشف عن جانب من ذهنية العرب الذين لم يقبلوا في ذلك الوقت بأن ينسلخ عنهم بنو جلدتهم ويلوذوا بجانب الرّوم[٤٤]. وقد ذكر الواقدي أنّ سعيد بن زيد أحد قادة جيش المسلمين الذي سيطر على الجزيرة خاطب عاصم بن رواحة الإيّادي الذي رجع من بلاد الرّوم بعد أن كان وقومه قد لجؤوا إليهم وتنصرّوا عندهم قائلاً: "أخبرني أيُّ مناسبة بينكم وبين الرّوم، حتّى لذت بجانبهم، وتركت العرب العَرْبَاء، وأنت منهم وأنت منّا وإلينا، وحَسَبُكَ حَسَبُنا ونَسَبُكَ نَسَبُنا؟ لأنّ أنمار وإيّاد وربيعة ومضر كلُّها ترجعُ إلى نزار بن معد بن عدنان"[٤٥]. وهذا هو نفس موقف عمر بن الخطاب لّما عاتب وفد بني تغلب قائلا "خالفتم أمّتكم"[٤٦]؛ وعلى الباحث أن يحمل في هذا السّياق لفظة "أمّة" على معناها العرقي لا على معناها الدّيني. كما ظلّ أولو الأمر من العرب المسلمين ينظرون إلى نصارى بني تغلب بنفس منظار العروبة حتى بعد مرور فترة طويلة على فرض سلطانهم على الجزيرة، وظلّ المعطى الدّيني الحاجز النّفسي الفاصل بين مجموعتين من أمة واحدة. ألم يقل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) لزعيمهم إسماعيل: "إنّك تُخْجلُ جميع العرب بسجودك للصّليب وأنت زعيم عربي فأطِعني وأسلم"[٤٧]. كأنّ بني تغلب بدورهم قد نظروا إلى الدّين الإسلامي بمنظار قبلي، فالدّين نزل بين ظهراني قريش، وهم غير مستعدّين للخضوع إلى دينها الذي يعني ضمنيًّا الخضوع لسلطان هذه القبيلة التي هم من نفس جنسها. وتلك الذّهنيّة لم تكن غريبة على العرب حتى المسلمين منهم في تلك الفترة[٤٨]، فما بالك بغير المسلمين؟

ولقد قام بعض مسلمي تغلب بدور الوسيط بين الخليفة ونصارى قبيلتهم، فاقترحوا أنْ تُضاعف عليهم الصّدقة[٤٩]. وذكر أبو يوسف يعقوب (ت. سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م) أنّ عمر استشار بشأنهم عبادة بن النّعمان التّغلبي الذي كان قد أسلم من قبل، فبينّ له ضرورة مراعاة قوّتهم العسكريّة من جهة، ومراعاة مجاورتهم للرّوم من جهة ثانية، وأنّه من الأفضل أن يعطيهم شيئا لكسب ولائهم، فلا يظاهرون العدوّ ضدّ المسلمين[٥٠]. ما يهمّنا أنّ الحلّ المقترح على الخليفة لا يتضمّن دفع الجزية، وأنّ ما قاله هذا التّغلبي ليس مجرّد رأي اقتضته الحمية العصبيّة فانتصر لقبيلته حتى وإن لم يكن معتنقا لعقيدتها؛ بل هذا الرّأي يرفده في واقع الأمر ما قامت به إيّاد بن نزار. أمّا بنو تغلب الذين لم يقبلوا بأداء الجزية فقد قالوا للخليفة بحسب رواية الطبري: "خذ منّا شيئا ولا تسمّه جزاء"[٥١]. وقالوا بحسب رواية البلاذري: "أمّا إذ لم تكن جزية كجزية الأعلاج فإنّا نرضى ونحفظ ديننا"[٥٢]. إنّ الأعلاج أو العلوج بحسب هذا التّوصيف هم الرّوم النّصارى في بلاد الشّام وفي شمال العراق، أي غير العرب من الكتابيين؛ بينما بنو تغلب هم من العرب. إنّه ذات الموقف الذي اتّخذه جبلة بن أيهم الغسّاني حليف الرّوم على إثر هزيمته في

معركة اليرموك لما أرسل إليه يزيد بن أبي سفيان "أنْ اقطع على أرضك بالخراج وأداء الجزية فقال إنّما يؤدّي الجزيةَ العلوجُ وأنا رجل من العرب"(٥٣).

لقد أدرك الخليفة دون عسف ما قد تؤول إليه الأمور على المستويات الدّيمغرافيّة والاقتصاديّة والعسكريّة إن لم يكن مستعدًّا للتّفاوض وتقديم بعض التّنازلات الهامّة، وربّما وجد فيما اقترحه عليه التّغلبي جانبا من الصّواب والحكمة لا يُستهان به. وخلافا لما كتبه البلاذري، فهم لم يغادروا ديارهم فيرسل إليهم ويردّهم(٥٤). إذن لم يكن الخليفة يقبل بلجوء هذا العدد الكبير من العرب النّصارى إلى بيزنطة فيتسبّب في فقدان الأرض عمّارها، ويحرم خزينة الدّولة من مبالغ ماليّة هامّة مُتوقّعَة. لقد كانت له رؤية ثاقبة في هذا الجانب من إدارة الدّولة وكذلك في جوانب أخرى، وليس أدلّ على ذلك ممّا ذُكر عنه لمّا طُعِن، فقد أوصى "بأهل الأمصار خيرا فإنّهم جُباة المال وغَيظ العدوّ وردْء المسلمين"(٥٥). عندئذ رأى أنّه لا بدّ من عقد اتّفاق لا جزية فيه(٥٦)، وهو اتّفاق شبيه بما عقده مع نصارى تنّوخ وبهراء(٥٧).

لقد منح عمر بن الخطاب لنصارى بني تغلب هذا الامتياز الضّريبي مراعاة لعدّة اعتبارات من بينها قوّتهم العسكريّة(٥٨). وذلك لا يعني أنّه كان يفكّر في استخدام هذه القوّة لصالح الدّولة الإسلاميّة ضدّ الرّوم بعد أن بسط سلطانه على الجزيرة، ولم تذكر المصادر أنّ هؤلاء شاركوا في عمل عسكريّ ما لفائدة المسلمين بعد أن عُقد معهم الصلح. بل كان عمر يفكّر في تحييد قوّتهم العسكريّة، وكسْب ولائهم السّياسي، وحرصَ على ألاّ ينتقلوا إلى بلاد الرّوَم كي لا يتحالفوا مع بيزنطة ضدّ دار الإسلام(٥٩). كما أنّ الخليفة لم يبد تشدّدا في موقفه منهم مراعاة لكونهم قد انسلخوا عن الرّوم وانضمّوا إلى جانب المسلمين لمّا غزوا الجزيرة الفراتية. أمّا ما أبداه من صرامة تجاه الملك جبلة بن الأيهم الغسّاني وقومه من العرب النّصارى في بلاد الشّام، فلم يكن بغاية طردهم إلى بيزنطة، وإنْ صرّح بذلك، وإنّما كان بغاية الضّغط عليهم لإلزامهم بدفع الجزية لأنّ هؤلاء، وخلافا لبني تغلب، كانوا قد قاتلوا في معركة اليرموك إلى جانب الرّوم ضدّ المسلمين(٦٠)، فليس من المعقول أن يحصلوا على امتياز ما. ولمّا لحق جبلة وقومه بحلفائهم في بيزنطة "ندم عمر على ما كان منه في أمره"(٦١). أي أنّه، ومن أجل أنْ يُقرّهم في ديارهم لكونهم عربا، كان على استعداد لتحقيق طلبهم بإعفائهم من دفع الجزية وتعويضها بالصّدقة المضاعفة، ولم يكن في حقيقة الأمر يفضّل جلاءهم والتحاقهم بسلطان الرّوم. إلاّ أنّ الأمور جرت على غير ما توقّع. وهذا يدفعنا إلى استنتاج مفاده أنّ عمر قد أخذ في حسبانه أيضا انتماء نصارى بني تغلب للعرب ليمنحهم هذا الامتياز الضّريبي.

لقد عقد الخليفة مع نصارى بني تغلب صلحًا ضمن لهم أن يحفظوا دينهم وألاّ يدفعوا جزية؛ وقبلوا بشروط عليهم وهي أن تؤخذ منهم ضعف الصّدقة المفروضة على المسلمين، وألاّ يُنَصرِّوا أبناءهم(٦٢). وقبل النّظر في مضمون ما أُتُّفق بشأنه لا بدّ أن نشير إلى أنّ مصادرنا لا تتحدّث عن عهد ذَمة عُقد بين طرفين. فعهود الذّمة التي عُقدت من قبل معروفةَ الشّروط، بيّنة الفصول؛ وهي وإنَ كانت تضمن لأهل الكتاب جملة من الحقوق، فإنّها تجعل منهم طرفا مغلوبًا على أمره ملتزمًا بما يفرضه عليه القويّ(٦٣). لكنّ مصادرنا تتحدّث عن صلح أُبرِم بين عمر بن الخطّاب من جهة ونصارى بني تغلب من جَهة ثانية، صلحٍ ضمن للطّرف الذي يُعتقد أنّه ضعيف الحفاظ على مكاسب معتبرة وإن اضطرّ إلى تقديم بعض التنازلات. ثم إنّ البعض كان وقتئذ يعي تماما مثل هذه المسألة، فقيل إنّ هؤلاء "ليست لهم ذمّة"(٦٤). ولئن أورد البلاذري عبارة ذمّة على لسان الخليفة علي بن أبي طالب متوعّدًا نصارى بني تغلب الّذين أخلّوا بأحد بنود الصّلح، فإنّ هذه العبارة لم ترد لا على ألسنة غيره من أولي أمور السّياسة من خلفاء وأمراء، ولا على ألسنة الفقهاء أصحاب النّظر والرّأي في أمور الدّين. وهذا يعني أنّ الخليفة الذي كان منشغلا بالفتنة الدّاخليّة التي جدّت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفّان، لم يجد فرصة سانحة تتيح له إنجاز فتحٍ ما لصالح الدّولة النّاشئة ويحقّق بذلك لسلطانه مكاسبَ سياسيّة وعسكريّة ودينيّة؛ فإنْ صحّ ما نُسب إليه بشأن هؤلاء فإنّ ذلك ليس أكثر من إسقاط وَضْعَ نصارى بني تغلب على وَضْعٍ آخر يشبهه ويشمل بقيّة أهل الذّمّة، وهو إسقاط اقتضته نبرة التّوعّد التي أطلقها الطّموح وكبّلتها الصّعوبات المتمثّلة في أحداث الفتنة(٦٥).

لقد ذاد نصارى بني تغلب بحماسة عن موقفهم، وتمكّنوا من تثبيت الاعتراف بهم مع تأكيد اختلافهم بل قل تمايزهم عن باقي الملل الموجودة في الفضاء الإسلامي: أوّلا اختلافهم عن المسلمين بصفتهم نصارى، وهذا اختلاف ذو طبيعة دينيّة؛ وثانيا تمايزهم عن النّصارى واليهود والصّابئة لكونهم خلافا عنهم لا يُؤدّون الجزية التي قبل بها هؤلاء. وهذا تمايز يتّصل بوضعهم "القانوني" نجحوا في إقناع دولة المدينة بقبوله. ويبدو أنّ العرب المسلمين اقتنعوا، وإنْ على مضض، بمثل هذا الوضع الخاص الذي تمتّع به هؤلاء العرب النّصارى داخل الدّولة. ثمّ إنّ رفض دفع الجزية للعرب المسلمين له خلفيّة قبليّة وسياسيّة يمكن للنّاظر اكتناهها بيسر. فالجزية تُؤدّى مقابل توفير الحماية لدافعيها[٦٦]، ممّا يعني القبول بسلطة سياسيّة عليا تحتكر لنفسها سلطة القهر المادّي. لذا لم يكن نصارى بني تغلب مستعدّين لمثل هذا الخضوع السّياسي الّذي حاول أن يفرضه عليهم عربٌ توحّدهم بهم اللّغة والتّاريخ الطّويل، وتجمعهم بهم قيم مشتركة عديدة؛ ولكن تفرّقهم العصبيّة القبليّة.

أضف إلى ذلك، وهذا ما لم ينتبه إليه من سبقنا من الباحثين، أنّ العهد الّذي التزموا به تجاهل تماما شروطا أخرى كانت تُفرَض على الذّمّيين ومنها ألاّ يركبوا الخيل وألاّ يحملوا السلاح. وهذا لم يكن يسري على بني تغلب. مما يوحي بإقرار ضمني بأنْ يحتفظوا بشوكتهم الّتي من المرجّح أنْ يكونوا قد فاوضوا من أجلها والتزموا بألاّ يُوَظّفوها ضد الدّولة، ويشي في نفس الوقت باعتراف لهم بحقوق أخرى تجعلهم على قدم المساواة مع المسلمين. فكيف لهم بصَغار الجزية ومن أصلابهم رجال وفرسان أُولوا بأس شديد يذودون عنهم ويحمون حماهم[٦٧]. إنّهم ببساطة لم يكونوا في حاجة لمثل هذه السّلطة التي ستسلبهم مقوّمًا من مقوّمات قوّتهم واستقلاليتهم. وهذا يتجلّ فيما ظلّوا عليه حتّى بعد قبولهم ببنود الصّلح الذي أبرموه مع عمر وبعد عودتهم إلى ديارهم. ولذلك وصفهم الطبري بكلام قد يبدو للوهلة الأولى عامّا ولكنّ ما من شكّ في عمق دلالته. فقال: "وكان في بني تغلب عزّ وامتناع، ولا يزالون ينازعون الوليد"[٦٨]. ولا يعني الامتناع المشار إليه عدم وفائهم بدفع الصّدقة مضعّفة؛ وإنّما يتعلّق الأمر على ما يبدو بنقطة أخرى من بنود الصّلح تتمثّل في مواصلتهم تنصير أبنائهم، وهذه سنعود إليها. كما هدّد علي بن أبي طالب في فترة خلافته بتقتيل مقاتلة بني تغلب لأنّهم، حسب رأيه، قد نقضوا العهد وبرئت منهم الذّمّة[٦٩]، وهذا دليل صريح على أنّهم احتفظوا بما لديهم من قوّة عسكريّة زمن خلافة عمر وبعده. ثمّ وظّفوا هذه القوّة للدّفاع عن أنفسهم ولصدّ غارات أعدائهم من القبائل العربية الأخرى خلال الثّلث الأخير من القرن السّابع الميلادي. فأثناء الاضطرابات الدّاخلية التي شهدتها الدّولة الأمويّة في تلك الفترة، اشتدّ الصرّاع في الجزيرة الفراتيّة بين القيسيّة الذين وقفوا إلى جانب عبد الله بن الزّبير (ت. سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢م)، وقبيلة تغلب التي ساندت العائلة الأمويّة وناصرت بصفة خاصة عبد الملك بن مروان (٦٦-٨٦ هـ/٦٨٥-٧٠٥)[٧٠]. وسجلت كتب الأخبار عدّة وقائع تارة كانت الغلبة فيها لتغلب وطورا كان النّصر فيه حليفا لقيس. ولقد كان التّعصّب إلى القبيلة أقوى من مفعول الانتماء الدّيني بدليل وقوف المسلمين من تغلب إلى جانب أبناء قبيلتهم من النّصارى في صراعهم ضدّ أعدائهم[٧١].

إذن، لمّا كان لا بدّ من اتّفاق يرضي الطّرفين، نجح هؤلاء النّصارى في الانعتاق من الجزية التي كانت على وشك أن تُفرَض عليهم، وثبّتوا الاعتراف بكيانهم على الوجه الذي راموا، فعدلوا عندئذ عن التّهديد بمغادرة ديارهم للّحاق بالرّوم. ونجح عمر بفضل واقعيّته السّياسيّة في فرض صدقة مضعَّفة لا شكّ أنّه رأى فيها مخرجا يحفظ جانبا من أحكام الدّين[٧٢]. أمّا هم فقد وجدوا في الصّدقة ما يحفظ الكرامة، فهي في حكم القرآن الذي لا يعوزه البيان فرضٌ على المال وليست على الرّقاب[٧٣]؛ وهذا بحدّ ذاته مكسب عسر مناله ولم يتحقّق إلاّ بعد مفاوضات. وربّما أنّهم وجدوا في البيان ما يُطمئن النّفوس، إذ بإمكانه أنْ يوحيَ بأنّ العبء الثّقيلَ صار هيِّنًا. جوهر القول أنّهم قبلوا بأداء الصّدقة مُضعّفة على ما تنتجه الأرض التي يملكونها، وعلى ما لديهم من مواشي. أي أنّهم يؤدّون على مقوّمين أساسيين من مقوّمات اقتصادهم، الزّراعة وتربية الماشية[٧٤]. ولم يكن عمر ليتأخّر عن الشرّوع في تطبيق بنود الصّلح فأرسل بعد ذلك أحد موظّفيه وهو زياد بن حُدَيْر الأسدي إلى نصارى بني تغلب رأسًا ليأخذ منهم نصف العشر[٧٥]. وتلك مناسبة لتأكيد فرض شكل من أشكال سلطانه عليهم من جهة،

ولاختبار مدى جدّية التزامهم من جهة ثانية. ولم تشر المصادر إلى أيّ شكل من أشكال التّبرّم من تلك الصّدقة لمدّة قرن ونصف قرن من تاريخ عقد الصّلح، فلا شكّ أنّ بني تغلب قد أوفوا غير مُستضعفين بما التزموا طيلة تلك الفترة[٧٦].

ولقد وجد بعض العرب المسلمين في أنفسهم غضاضة بشأن نصارى بني تغلب بعد أن عُقد معهم هذا الصّلح، أو قل لم يجدوا في الصّلح ما يرضي كبرياءهم؛ وهذا يعني ظهور موقف مكابر ومتشدّد إزاء ما ذهب إليه الخليفة وارتضاه، ولكنّه لم يكن معلَنا بالصرّاحة المرجوّة بالنّظر إلى عمر بصفته أميرا للمؤمنين، وبالنّظر إلى قوّة شخصيّته ومكانته عند الصّحابة. في هذا الصّدد يبدو عبد الله بن العبّاس (ت. ٦٨هـ/٦٨٦م) كمن تزعّم هذا التّوجّه الرّافض لمضمون الصّلح، أو على الأقل الرّافض لبعض فصوله. فقد قال بحسب ما أورده البلاذري: "لا تُؤكل ذبائح نصارى بني تغلب ولا تُنكح نساؤهم، ليسوا منّا ولا من أهل الكتاب"[٧٧]. وكأنّه يرى أنّ الصّلح منقوص من بعض الفصول التي كان من الضرّوري التّأكيد عليها لحظة عقده. فصل القول أنّ موقفه يُخرج بني تغلب من دائرة الملل التي تتّبع ديانات سماوية، والتي تُبيح تبادل الزّيجات بينها، وتحلّل أكل ذبائح بعضها البعض. أمّا هؤلاء فلا هم بالمسلمين، ولا هم بالكتابيين. بمعنى أنّهم بحسب نفس التّوصيف مشركون كغيرهم من المشركين؛ ومع ذلك هم يعيشون بين ظهراني المسلمين. من الجليّ أنّ ذات الموقف لا يعترف بالوضع الّذي أُقرّ لنصارى بني تغلب، ويستنهض في النّفوس رغبة في القيام بالجهاد ضدّ هؤلاء الكفّار، ولكنّه كان يصطدم بما أقرّه الخليفة. ثم إنّ عمر بن عبد العزيز (٩٨-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م) رفض الصّدقة المضعّفة عليهم وهدّدهم بحرب إنْ لم يدفعوا الجزية[٧٨]. ولم يكن هذا الموقف موجّها ضدّهم بشكل مخصوص، وإنّما هو جزء من بعض الإجراءات التي انتهجها الخليفة ضدّ جميع أهل الذّمة في الدّولة الأموية[٧٩]. لكن بسبب عدم طول فترة خلافته يبدو أنّ عمر بن عبد العزيز لم يتمكّن من تنفيذ تهديده، ولم يقدر على إلزامهم بغير الصّدقة المضعّفة.

ثم إنّ الفقهاء من بعدُ بادروا بالنّظر في موضوع الصّدقة المضعّفة، فقدّموا تفسيرا هو أقرب إلى التّبرير؛ وكأنّهم يرفعون عن السّلطة المركزيّة حرجا لازمها طيلة قرون لاحقة بسبب قرار عمر لمّا أسقط عن هؤلاء النّصارى ما فرضه عليهم القرآن، واقتدى به من جاء من بعده. وليس أدلّ على هذا من ذاك السّؤال الذي حيرّ الخليفة العبّاسي هارون الرّشيد (١٧٠-١٩٣ هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م) بشأن مضاعفة الصّدقة عن هؤلاء وإسقاط الجزية عن رؤوسهم، فطلب من أبي يوسف يعقوب الجواب الشّافي[٨٠]. عموما قال جميع فقهاء القرون الأولى للإسلام: "إنّ سبيل ما يؤخذ من أموال بني تغلب سبيل مال الخارج، لأنّه بدل من الجزية"[٨١]. ثمّ قيل في فترة لاحقة: "فالمأخوذ منهم جزية، غير أنّه على غير صفة جزية غيرهم"[٨٢]. وهذا القول الأخير ليس أكثر من توصيف يرضي المسلمين ونصارى بني تغلب على حدّ السّواء.

يذكر كل من ابن سعد والطبري أنّ وفدا من تغلب جاء إلى الرسول محمد (ﷺ) وفيه رجال مسلمون وآخرون نصارى، فأقرّ النّصارى على دينهم واشترط عليهم "ألاّ يصبغوا أولادهم على النّصرانية" بحسب عبارة ابن سعد[٨٣]. لكنّ للباحث ألاّ يقبل بهذه النّقطة من رواية المصادر، فالرسول محمد (ﷺ) كان قد أقرّ مجموعات أخرى من أهل الكتاب على دينهم دون أن يشترط عليهم أن يجعلوا أولادهم مسلمين[٨٤]. يبدو إذن أنّ الشرّط المشار إليه هو ممّا دُسّ لاحقًا في الرّوايات الشّفويّة قبل أن يُدوَّنَ في المصادر حتّى يُظنّ أنّ ما اشترطه عمر بن الخطاب بشأن عدم تنصير صبية بني تغلب ليس إلاّ اقتداء بالرّسول (ﷺ). من المؤكد أنّ هذا البند المذكور في الصّلح هو ممّا اتُّفق عليه مع الخليفة[٨٥]. وأنّه وجد فيه أهمّ مكسب ذي طابع ديني قد تمكّن من تحقيقه، ممّا جعله يعفيهم من دفع الجزية؛ فالقوم سيسلمون جميعا بمرور الزّمن بحسب ما كان يُتوقّع، وسيجني تبعا لذلك ثمار قراره على المديَيْن القريب والمتوسّط لا أكثر، كما كان مُنتظرًا أيضا. ولا شكّ أنّ كلّ ذلك قد ترك في نفسه وفي نفوس المؤمنين أثر الإحساس بالرّضا عن نصر سياسي قد تحقّق، وعن فتح مؤجّل إلى حين.

ورغم أنّ ظاهر هذا الشرّط يسلب بني تغلب الحريّة في كيفيّة تربية أبنائهم ويُلزمهم بتنشئتهم على الإسلام، إلاّ أنّهم قبلوا به ليس لكونه دون كلفة مادّية فحسب، وإنّما أيضا لوعيهم بأنّ ظاهره عليهم وباطنه لهم بما أنّه يضمن أنْ يظلّ مصير صبيانهم بين أيديهم. أي أن ينشئوهم على النّصرانية دون أن يتيسرّ للخليفة أو لعماله مراقبة مدى التزامهم بذاك الشرّط لأنّ الفرد قد لا يُظهِر حقيقة المعتقد الذي يبطنه. في واقع الأمر لم يلتزم بنو تَغلب منذ البداية بتنشئة أولادهم على الإسلام[٨٦]. وهذا ما تشهد به بعض النّصوص العربية التي تنضح عباراتها غضبًا وتهديدًا. فقد روي عن علي بن أبي طالب قوله: "لئن تفرّغت لبني تغلب لَيكوننّ لي فيهم رأي، لأقتلنّ مقاتلتهم ولأسبينّ ذريّتهم فقد نقضوا العهد وبرئت منهم الذّمة حين نصرّوا أولادهم"[٨٧]. ممّا يعني أنّه لم يكن مُعترضًا على مضمون الصّلح بقدر ما كان مُعترضًا على نقض أي بند من بنوده. ويُلاحَظُ كذلك أنّ هذا الصلح لم يتعرّض إلى شرًط أساسي من الشرّوط التي كانت تُفرَض على أهل الذمة والمتمثّل في تحجير بناء الكنائس، وهذا مردّه ما تُوُقِّعَ أن تؤول إليه الأمور على المستوى الدّيني، أي أن يسلم الجميع مع مرور الزّمن ولن تكون هناك حاجة لمثل دور العبادة هذه. ولكنّنا نعثر في بعض المصادر السرّيانية على إشارات متكرّرة إلى أسماء أساقفة العرب في الجزيرة الفراتيّة، وأحيانا يُشار إلى بعضهم بعبارة "أسقف التّغالبة" وذلك إلى حدود القرن الرّابع الهجري لّما تراجع الحضور المسيحيّ العربيّ في هذه المنطقة. خلال تلك الفترة، كان للمسيحيين التّغالبة أبرشية خاصة هي الأبرشية السرّيانية الغربية (أي اليعقوبية)، وهي توجد في إقليم عانة على الفرات، وتتّبع مفريان تكريت[٨٨].

لم يُكرَه هؤلاء النصارى على اعتناق الإسلام إلا في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٥-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥)[٨٩]. فقد قتل "زعيم التّغالبة المدعو موعد" بعد أن هدّده وأغراه ولكنه لم يذعن. كما عذّب من بعده "إسماعيل التّغلبي" ولكنّه أصرّ بدوره على البقاء على دينه قائلا للخليفة: "أنّ ما يخيفني وأنا زعيم التّغالبة كما قلتَ هو خشيتي أن أكون سببًا في هلاك الكثيرين"[٩٠]. نفهم إذن من هذه الرّواية تمسّكهم بدينهم حتّى في أحلك الظّروف، ونستنتج دون عناء أنّ ما اشترطه عليهم الخليفة عمر بن الخطاب كان دون تأثير واقعي، فلولا تنشئتهم لصبيانهم على النّصرانيّة لما تواصل وجود هذه المجموعات العربيّة غير المسلمة بالجزيرة الفراتيّة خلال القرون اللاحقة[٩١].

قد تكون السّلطة المركزيّة التزمت لفترة طويلة ببنود الصّلح المبرم مع نصارى بني تغلب، وخاصة بالبند المتعلّق بمضاعفة الصّدقة. لكن تطالعنا المصادر السرّيانيّة بأخبار ترقى إلى منتصف القرن (الثاني الهجري/ القرن الثّامن الميلادي)، ثم تتواتر منذ بداية القرن (الثّالث الهجري/ القرن التّاسع الميلادي)، مفادها أنّ المجموعات المسيحيّة في الجزيرة وبلاد الشّام، والتي من بينها بني تغلب، كانت تعاني من سياسة ضريبيّة مجحفة قد فرضها عليها الخلفاء، وغالى في تطبيقها الولاّة والعمّال وجباة الضرائب؛ بل والأشدّ في الأمر أنّه كثيرا ما كانت تُفرَض عليهم عدّة إتاوات عشوائيّة طالت الأرض والزّرع والضرّع والتّجارة والصّنائع وغير ذلك[٩٢]. وهذا يعني أنّ المسلمين لم يكتفوا بمضاعفة الصّدقة على نصارى بني تغلب بل عمدوا في فترة لاحقة إلى تطبيق سياسة ضغط ضريبيّ على جميع غير المسلمين. فربّما لا يشير قول الفقهاء بأن المسلمين أغلظوا على بني تغلب إلى مضمون الصّلح المذكور فحسب، وإنّما يعني فيما يعني هذا التّنكيل الجبائي الذي ضاق به جميع أهل الكتاب ذرعًا[٩٣].

ثالثًا: لجوء بني حُبَيْب إلى بيزنطة وتحالفهم مع الرّوم ضدّ العرب المسلمين

مع مرور الزّمن تحوّل ما كان ظرفيًّا عابرا مرتبطا بجشع بعض عمّال الجباية إلى سياسة ضريبيّة جائرة وممنهجة ضدّ سكان الجزيرة شهد بقسوتها وبتأثيراتها الكارثيّة حتّى المسلمون. فقد ذكر ابن حوقل (ت. بعد سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م) جوانب من هذه السّياسة التي اتّبعها أمراء بني حمدان المنحدرين من إحدى عشائر بني تغلب والّذين اتّخذوا من الموصل قاعدة لحكمهم[٩٤]، ووصف تأثيرها الخطير على الأوضاع الدّيمغرافيّة لتلك المنطقة. وبيّن أنّها دفعت ببني حُبَيْب، وهم أيضا قوم من تغلب وبصفة أدقّ هم بنو عمّ بني حمدان[٩٥]، إلى أن خرجوا من نصيبين "بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم في نحو عشرة آلاف فارس،" ودخلوا بلاد الرّوم في سنة (٣٢٩هـ/ ٩٤١م)، "فتنصرّوا بأجمعهم"[٩٦]. لا يمكن للباحث أن

يطمئنّ كلّ الاطمئنان إلى هذه الإشارة الأخيرة، إذ ليس من المعقول ألاّ تثير لديه بعض الأسئلة.

فهل أنّ هذه المجموعة من بني تغلب كانت قد اعتنقت الإسلام في مرحلة سابقة لّما كانت تعيش في الجزيرة بين ظهراني المسلمين دون أن تصلنا أخبارهم؟ إنْ كان الأمر كذلك فربّما تمّ بشكل تدريجي وبمفعول الاحتكاك اليومي بالمسلمين، وهو ما لم يكن على الأرجح يسترعي اهتمام المصادر. فبإمكان الباحث أن يستنتج أنّ عشيرة بني حمدان التّغلبيّة كانت قد اعتنقت الإسلام منذ ما قبل القرن الرّابع الهجري، وإنْ في فترة يصعب تحديدها، وربّما كان ذلك في عهد الخليفة العباسي المتوكّل (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م) الذي اتّبع سياسة متشدّدة تجاه النّصارى وغيرهم من أهل الذّمّة[٩٧]. وقد نجحت هذه العشيرة فيما بعد في فرض سلطانها على بلاد الجزيرة[٩٨]. وإذا افترضنا أنّ بني حُبَيْب قد اعتنقوا الإسلام، فلربّما تمّ ذلك أيضا في ظلّ سياسة التّشدّد آنفة الذّكر والتي تَمثّلَ أحد وجوهها في فرض ضريبة العشر على منازل جميع النّصارى إضافة إلى ما كانوا يدفعونه من ضرائب أخرى[٩٩]. وهذا يدفعنا إلى ترجيح فكرة أنّهم اضطرّوا إلى إعلان إسلامهم بسبب الضّغط الجبائيّ الذي سُلّط عليهم فيما بعد خارج شروط الصّلح الذي عقده أسلافهم مع عمر، أو على الأقلّ زعموا أنّهم بدّلوا دينهم اتّقاء السّياسة المتشدّدة التي انتهجها بعض الخلفاء، وكذلك اتّقاء تسلّط الجباة وما أبدوه تجاههم من مغالاة وجشع. وبما أنّ سياسة التّنكيل الجبائي التي انتهجها أولو الأمر لم تقتصر على غير المسلمين من الرّعيّة بل طالت أحيانا المسلمين أنفسهم[١٠٠]، فإنّ بني حُبَيْب لم يجدوا عندئذ بديلا عن ترك موطنهم واللّجوء إلى بيزنطة المجاورة حيث صدحوا بنصرانيتهم بمجرّد أن صاروا يعيشون جنبا إلى جنب مع مسيحيي الإمبراطوريّة، وتحت أنظار سلطاتها الرّسميّة المسيحيّة.

لكن يمكن أن نفترض أنّ ما قاله ابن حوقل بشأن اعتناق بني حبيب النّصرانية بعد هروبهم من دار الإسلام هو مجرد ادّعاء استهدف به بني حمدان أمراء الجزيرة والشّام في ذلك الوقت وخاصة منهم ناصر الدّولة الحسن بن عبد الله بن حمدان وولده من بعده أكثر ما استهدف به بني حُبَيب أنفسهم[١٠١]. فهذا الجغرافي الذي لم يخف يضمره من كراهيّة لهؤلاء الأمراء لِمَا سبّبوه من خراب في موطنه نصيبين وفي كلّ المناطق التي كانت تحت إمرتهم، لم يكن أيضا يخف امتعاضه الشّديد من سياساتهم المتمثّلة في مصادرة أملاك النّاس بشكل تعسّفي، وفي فرض شتّى أنواع الضرّائب على ممتلكاتهم، بل والزّيادة في قيمتها دون ضوابط ودون مراعاة للظّروف[١٠٢]. فكان يريد على الأرجح التّشنيع على هؤلاء الأمراء ويصوّرهم لا في صورة من دفعوا بتعسّفهم وظلمهم النّاس إلى الهروب من بلاد الإسلام والارتماء في أحضان العدوّ فحسب، لأنّ هذا أمر واقع وغير مخفي، وإنّما أيضا في صورة من تسبّبوا في ردّة إخوانهم عن دينهم وإقبالهم على اعتناق النّصرانية.

إذن، فالغالب على الظّنّ أنّ بني حبيب ظلّوا على نصرانيتهم ولم يتخلّوا عنها طيلة الفترة السّابقة حتّى وإنْ زعموا أنّهم اعتنقوا الإسلام، كما افترضنا سلفا[١٠٣]. ثم أنّهم اضطرّوا بعد أكثر من ثلاثة قرون إلى مغادرة دار الإسلام بسبب وطأة الضرائب ومصادرة الممتلكات، وخيرّوا اللجوء إلى بيزنطة المسيحيّة قناعة منهم بأنّ رابطة الدّين تتيح لهم على الأقلّ أرضية ملائمة للعيش هناك. وهكذا حقّقوا ما كان قد هدّد به أجدادهم دون أن تلتفت السّلطة المركزيّة هذه المرّة إلى قضيّة استبقائهم في موطنهم. لكنّ ذلك لا يمكن أن ينفي تماما وجود عدد من المسلمين الذين هربوا إلى بلاد الرّوم بسبب تلك الظّروف ثم تنصرّوا هناك. فالمصادر تخبرنا أنّ هناك من النّصارى من كانوا يعتنقون الإسلام بمحض إرادتهم، ثم بعد مدّة يعودون إلى نصرانيتهم فيُكرَهون عندئذ على الإسلام[١٠٤]. لذا ربّما كان البعض منهم يلتجئُ إلى بلاد الرّوم ليعود إلى نصرانيّته دون إكراه. فمثل هذه الأمور كانت تحدث من حين إلى آخر في صفوف سكّان المناطق المتاخمة لبيزنطة، من ذلك أنّ بعض البيزنطيين اختلفوا مع بعض الأباطرة ثم التجؤوا إلى بلاد المسلمين واعتنقوا الإسلام[١٠٥]؛ وأنّ بعضهم الآخر التجؤوا إلى بلاد الإسلام لكونهم اُضطُهدوا دينيًّا من قبل السّلطة المركزيّة البيزنطيّة التي يخالفونها في العقيدة[١٠٦]. لذا ربّما يكون ابن حوقل قد استغلّ تنصرّ بعض المسلمين الفارّين ليبالغ في تصوير الأمر، مجملاً القول وغاضًّا البصر في نفس الوقت عمّن هرب إلى بلاد الرّوم من النّصارى.

لا يمكن أن نفسرّ لجوء بني حُبَيْب إلى بلاد الرّوم بما كانوا يعانونه من ضيم ضريبي فحسب. لقد استفادوا أيضا من سياق تاريخيّ مخصوص تميّز بالضّعف العسكريّ الذي كانت تعاني منه الدّولة العبّاسيّة، وبعدم قدرتها على الصّمود في وجه الحملات العسكريّة الّتي شنّها الأباطرة البيزنطيون وكبار قادة العسكر على المناطق الحدوديّة الممتدّة بين الجارين. ورغم بروز سيف الدّولة الحمداني في شمال بلاد الشّام والجزيرة (٣٣٣-٣٥٦ هـ/٩٤٤-٩٦٧م) كأمير متحمّس للحرب جاهد في صدّ العدوّ(١٠٧)، إلاّ أنّه لم ينجح في الوقوف أمام الطموحات التّوسّعيّة للبيزنطيين الّذين كانوا على معرفة دقيقة بعدم قدرة السّلطة المركزيّة العبّاسية على الدّفاع على ثغورها الشّمالية فتمكّنوا من السّيطرة على مدن ومناطق شاسعة كانت تابعة للمسلمين(١٠٨). ممّا يعني أنّ موازين القوى العسكريّة قد مالت بشكل واضح لصالح بيزنطة. إذن، اختار بنو حُبَيْب الظّرف التّاريخي المناسب ليتركوا مواطنهم ويضعوا أنفسهم تحت السّلطة السّياسيّة والعسكريّة للطّرف القويّ، دون خشية أيّة ملاحقة قد يقوم به أسياد الأمس، إذ لم يعد للمسلمين الّذين تراجع نفوذهم ووهنت قوّتهم القدرة على التّأثير والنّكاية.

بعد أن دخل بنو حُبَيْب بلاد الرّوم، عملوا على كسب ثقة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السّابع (٩١٣-٩٥٩م) ونجحوا في ذلك؛ لاسيما وأنّ بيزنطة، وبسبب الحرب التوسّعية التي كانت تشنّها في تلك الفترة، كانت في حاجة إلى تعمير المناطق الحدوديّة التي هجّرت سكّانها المسلمين، ولم يكن لديها العدد الكافي من الرّعايا لتنفيذ هذا المشروع فوجدت في نصارى بني حُبَيْب وفي الأرمن ضالّتها(١٠٩). لقد مكّن الإمبراطور بني حُبَيْب من ضياع خصبة استوطنوها، وأقرّهم في قرى غير بعيدة عن بلاد المسلمين، وأعطاهم المواشي(١١٠). لا نجد في المصادر العربيّة مزيدًا من التّفاصيل حول هذه النّقطة، وفي المقابل تخبرنا المصادر البيزنطيّة أنّ البيزنطيين كانوا في تلك الفترة يمنحون للمتنصرّين الجدد من المسلمين، وخاصة المزارعين المستقرّين في مناطق قد سيطرت عليها بيزنطة، ثلاث "نوميزمات" ذهبية للشّخص الواحد، وستّة "نوميزمات" ذهبية لكلّ من يملك زوجًا من الثّيران لحراثة الأرض، وأربعة وخمسون مُدًّا من القمح لبذر أرضه ولمؤونته وعائلته لمدّة سنة(١١١). ويهدف هذا الإجراء إلى تشجيعهم كي يتشبّثوا بأرضهم فلا يغادرونها، وإلى كسب ولائهم فلا يظاهرون المسلمين ضدّ الأسياد الجدد.

انطلاقًا من موطنهم الجديد شرع بنو حُبَيْب في مكاتبة من خلّفوه في الجزيرة، لاسيما أولئك الّذين كانوا يعانون من الجور الضرّيبي الّذي سلّطه عليهم بنو حمدان، وأطمعوهم فيما وجدوه من مأوى وحظوة وتكريم لدى الإمبراطور الذي لم يكن ليُفوِّتَ على سلطانه هذه الفرصة، فنالوا منه ما نالوه من تأييد سياسي رسمي، وحصلوا منه على دعم بالمال وبالسّلاح. لذا لم يجد "كثير من المتخلّفين عنهم" بدّا من اللّحاق بهم، "وانتمى إليهم من لم يكن منهم"(١١٢). وبما أنّ مصادرنا لم تبح بشيء بشأن هؤلاء المتخلّفين، فمن المرجّح أنّهم مجموعات ممّن ليسوا من نفس قبيلهم، وآخرون من النّصارى ومن الّذين لم يكونوا على دينهم، ولكنّهم كانوا جميعًا يرزحون تحت نير الضّيم الضرّيبي ووطأة مصادرة السّلطان لأملاكهم(١١٣).

وبعدما وجد بنو حُبَيْب ومن معهم موطئ قدم في بيزنطة واستيقنوا من صلابة الدّعم الّذي حصلوا عليه، "شنّوا الغارات على بلاد الإسلام" بحسب عبارة ابن حوقل، فسيطروا على عدد من الحصون المتاخمة كحصن منصور وحصن زياد(١١٤). أي جعلوا ما كان تابعا لسلطان المسلمين تحت سلطانهم أولاّ، ولكن تحت السّلطة السّياسيّة والعسكريّة البيزنطيّة العليا ثانيا. ثم أخذوا يغيرون على مناطق ومدن وحصون شمال العراق الواقعة تحت نفوذ بني حمدان، ولاسيما تلك المناطق التي صادر فيها هؤلاء الأمراء الضّياع والعقارات من أصحابها وصيرّوها ملكا لهم(١١٥)، فأنكوا في أهلها بالقتل والسّبي، وفي قراها وضياعها بالتّخريب وحرق أشجارها وزروعها "كل سنة عند أوان الغلاّت"(١١٦). فالأرض التي لم يطيقوا البقاء على أديمها لجور سلطانها قرّروا ألاّ يهنأ له ولعمّارها بال، وألاّ يفيئوا بخيراتها. ممّا يعني أنّ بني حبيب قد انخرطوا هذه المرّة ضدّ بني عمومتهم في شكل من أشكال الصرّاع القبلي الذي يتخطّى الحدود، وهو صراع لا وجه ديني له وإنّما مداره الثّروة والنّفوذ. وسواء كانت غاراتهم على المجال الحمدانيّ بسبب رغبتهم في الثّأر منهم، وسعيًا لاسترداد أراضيهم وكذلك للتّوسّع، أو كانوا مدفوعين بواجب ردّ الجميل للبيزنطيين الّذين

أكرموا مثواهم، أو لكلّ هذه الأسباب مجتمعة في نفس الوقت، وهذا عندي هو الأقرب إلى الواقع، فإنّ الرّوم مَلكًا ورعيّة قد وجدوا في غاراتهم ومن معهم على بلاد الإسلام ما يُثبت لهم أنّ القوم قد استيأسوا من سلطان المسلمين، وأنّهم أصبحوا يدينون لبيزنطة بولاء لا شائبة تشوبه، "فتزايدت ثقة الملك بهم والرّوم إلى أن جعلوا لهم الأرزاق والأعطية وصاروا خاصّة الملك"(١١٧).

يُفهم من طبيعة السّياسة المتّبعة تجاه هؤلاء أنّ العلاقة بين الطّرفين توطّدت بشكل كبير، والأهمّ من ذلك أنّها "تمأسست. "فالأرزاق هي مبالغ معلومة من المال تُصرَف من خزينة القسطنطينيّة بشكل دوري لمستحقّيها لقاء ما يقدّمونه من خدمات عسكريّة بالأساس. وهذا يستوجب القول بأنّ بني حُبَيْب الذين كانت لهم شوكة من حوالي عشرة آلاف فارس مجهّزين بمختلف أنواع أسلحتهم(١١٨)، قد انتظمتهم بيزنطة في شكل فرق عسكريّة وأقرّتهم في المقاطعات الشرّقيّة للإمبراطوريّة، وذلك خاصّة بعد أن استردّت من المسلمين مدينة ملطية الثّغريّة الحصينة سنة (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م)(١١٩). أمّا الأعطية فهي على الأرجح مكافآت مختلفة القيمة والنّوع وغير منتظَمَة التّوزيع كانت تُسلّم لهم. وقبل أن يمرّ وقت طويل أمكن للطّرفين توحيد خطة العمل العسكريّ، فحاربوا جميعا باسم الإمبراطوريّة عدوّا مشتركا. ولكن كان بنو حُبَيْب في مقدّمة العمليّات العسكريّة التي كانت تُشنّ ضدّ المناطق المجاورة من بلاد الإسلام لكونهم يعرفون مسالكها ومضايقها(١٢٠).

ثم أنّ الإمبراطور اتّخذ من بعض وجوههم خاصّتة(١٢١). أي أنّ هؤلاء لم يُسْتَبْقوا في المنطقة الحدوديّة الشرّقية بعيدا عن العاصمة، بل نُقلوا إلى مقرّ السّلطة المركزيّة وأُدخلوا إلى البلاط الإمبراطوريّ ليكونوا باستمرار إلى جانب الإمبراطور. وهو إجراء من شأنه أن يرسّخ في نفوسهم وبقيّة أفراد عشيرتهم صلابة الاعتراف البيزنطيّ بهم، ويُثنيهم عن مجرّد التّفكير في إمكانيّة العودة إلى الوراء. وفي ذلك أيضا ما يشير إلى أعلى درجات الثّقة التي حازوا عليها والحظوة التي نالوها في القسطنطينيّة. فقد بلغوا من الإدماج في هياكل الدولة وفي المجتمع البيزنطي مبلغا رفيع الدّرجة، ومناقضا تماما لوضعهم تحت سلطة العرب المسلمين.

ولا شكّ أنّ الرّوم قد وجدوا في بني حُبَيْب ما يجمعهم بهم أكثر ممّا يفرّقهم عنهم. فلقد شكّلت النّصرانية رابطًا دينيًّا يوحّدهم رغم ما بينهم من فوارق مذهبية؛ وهي فوارق لم تكن حينئذ تشغل بال أباطرة بيزنطة أتباع النّصرانية الملكيّة بقدر ما كانت تشغلهم قضيّة تعمير المناطق الطّرفية البعيدة. ووجدوا في عدائهم لأمراء العرب وخلفائهم، وهو المعطى السّياسي، قاسما آخر مشتركا لا يقلّ قيمة عن غيره من القواسم. واستفادوا من قوّتهم العسكريّة فرفدوا بها جيشهم. إذن لم تكن عروبة بني حُبَيْب في نظر البيزنطيين عائقا يحول دون الاعتراف بهذه المجموعة اللاّجئة ثم إدماجها في مجتمعهم. لقد كانوا من هذا المنظور فحسب قومًا آخرين؛ ولكنّهم يماثلون من عدّة جوانب من آواهم: فمنذ قرون خلت، تنصرّ أجداد بني حُبَيْب بمفعول الاحتكاك برعايا الرّوم الذين اعتنقوا مذهب الطبيعة الواحدة وعمل بعضهم على نشره في مناطق ممتدّة خارج حدود بيزنطة، من بينها منطقة شمال العراق التي حلّت بها عدّة قبائل عربيّة تحت السّيطرة الفارسيّة(١٢٢). ولعلّ هذا ما أشار إليه ابن خلدون عندما كتب: "وكانت النّصرانية غالبة عليهم لمجاورة الرّوم"(١٢٣). وقد شهد هذا المذهب انتعاشه كبيرة في المشرق لاسيما لمّا اعتنقه الإمبراطور أناستازيوس (٤٩١-٥١٨م)(١٢٤). ثم قبيل سيطرة العرب المسلمين على شمال العراق، عاش أجدادهم أيضا تحت سيطرة البيزنطيين فترة من الزّمن وتحالفوا معهم ضدّ الفرس مثلما أشرنا إلى ذلك سابقا(١٢٥). ومن المرجّح كذلك أن يكون البعض منهم قد رطن برطانتهم. ولمّا انتشر الإسلام في الجزيرة الفراتيّة، تراجع الرّوم نحو آسيا الصّغرى وظلّ السّكان من هنا وهناك أجوارا رغم الحروب المتقطّعة الّتي كانت تدور بين المسلمين والبيزنطيين. إذن، لم يكن بنو حُبَيْب قومًا غرباء عن الروم، إنّهم نصارى كغيرهم من البيزنطيين، أصبحوا يعيشون بين ظهرانيهم، ويمشون في أسواقهم، ويأكلون من طعامهم. وسواء كانت المصلحة المشتركة هي الّتي دفعت إلى التّقارب، أو أنّ التّقارب هو الّذي ولّد المصلحة المشتركة؛ فإنّه لم يكن هناك من فارق جوهري وبارز بين الطّرفين إلاّ الفارق العرقي، ولم تكن عندئذ المقابلة بين عربي نصراني ورومي نصراني ذات بال.

خَاتِمَةٌ

فصل المقال فيما سبق وعالجنا أنّ نصارى بني تغلب انسلخوا عن الرّوم وتحالفوا ضدّهم مع العرب المسلمين أثناء فتح شمال العراق، ثمّ تمكّنوا من إقناع أولي الأمر من المسلمين بضرورة الاعتراف بهم لا بصفتهم أصحاب ديانة سماويّة أخرى، فتلك مسألة طبيعيّة تندرج ضمن باب الاعتراف بحقوق أهل الكتاب في البقاء على دينهم إن رغبوا في ذلك، بل والأهمّ من ذلك ألاّ يسري عليهم، نظرا لقوّتهم ولعروبتهم، ما كان يسري على أمثالهم من عهود الذّمة(١٢٦). وبهذا اختلف وضعهم في نفس الوقت عن غيرهم من أهل الكتاب وعن المسلمين. ثمّ أنّه ونتيجة لسياسات ضريبية مشطّة مورست ضدّهم دون مراعاة لشروط الصّلح الذي كانوا قد عقدوه مع عمر بن الخطاب، اضطرّ بنو حُبَيْب – وهم بطن من بطون تغلب – إلى اللجوء إلى بلاد الرّوم؛ وهناك وجدوا الحظوة والدّعم ليس لأنّهم نصارى فحسب، وإنّما أيضا لكونهم قد أصبحوا – شأنهم في ذلك شأن الرّوم – خصوما للمسلمين المجاورين. ومع مرور الزّمن، يبدو أنّهم انصهروا تماما في المجتمع البيزنطيّ، فلم نعد نعثر لهم عن ذكر في المصادر.

الاحـالات المرجعية:

(١) أطلقت المصادر العربية على الجزء الشّمالي من العراق اسم "الجزيرة" لأنّها بين نهريْ دجلة والفرات، أو اسم "الجزيرة الفراتية" لأنّ روافد الفرات منتشرة في معظم مساحاتها، كما يحدّها هذا النّهر من الشّمال والغرب والجنوب. يُنظر: الحموي (ياقوت بن عبد الله)، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧، مج ٢، ص ١٣٤؛ ابن خلدون (عبد الرّحمان)، **تاريخ ابن خلدون**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٠، ج ٢، ص ٣٦٠ ؛ الكعبي (عبد الحكيم)، **الجزيرة الفراتيّة وديارها العربيّة (ديار بكر، ديار ربيعة وديار مضر): دراسة في التّاريخ الدّيني والسّياسي والاجتماعي قبل الإسلام**، دمشق، دار صفحات للدّراسة والنّشر، ٢٠٠٩، ص ٢٩-٣٠.

(٢) بنو تغلب بن وائل بن قاسط هم بطن كبير من بطون ربيعة كانت ديارهم بالجزيرة الفراتية فيما بين الخابور والفرات ودجلة، ويخرج الخابور من رأس العين ويصبّ في الفرات. وتُعرف هذه المنطقة بديار ربيعة وتضمّ سِنْجار ونَصيبين. وقد هاجروا إليها في حدود نهاية القرن الخامس الميلادي من موطنهم الأصلي تِهامة في شبه الجزيرة العربية، وكانت لهم ضدّ إخوتهم من بكر بن وائل حروب طويلة. يُنظر : البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر)، **كتاب جُمل من أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٦، ج ٧، ص ٦١ ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج ٢، ص ٤٩٤ ؛ ابن خلدون، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٦٠ ؛ العايب (سلوى بالحاج صالح)، **المسيحية العربية وتطوّراتها من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي**، بيروت، دار الطّليعة، ١٩٩٧، ص ٤٨-٤٩ ؛ الكعبي، **الجزيرة الفراتية**، ص ٦٢ ؛

Nau (François), *Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie*, du VIIe au VIIIe siècle, Paris, 1933, pp. 13-15.

(٣) نخصّ بالذّكر: العايب (سلوى بالحاج صالح)، **تغلب بين المسيحية والإسلام، ٩-٢٣٥هـ/٦٣١-٨٥٠ م، دراسة في المسيحية العربية**، شهادة الكفاءة في البحث تحت إشراف هشام جعيط (عمل غير منشور)، كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ١٩٨٨؛ وكذلك مؤلفها: **المسيحية العربية وتطوّراتها**، مرجع سبق ذكره.

(٤) نذكر على سبيل المثال مقال الأطرقجي (رمزية)، "تغلب ودورها في التّاريخ"، **آداب الرّافدين**، ١٩٧٨، عدد ٩، ص ١٥١-١٨٥ ؛ وكذلك بعض الفقرات ذات العلاقة بهذا الموضوع في: المخزومي (صادق شاكر محمود)، **العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة في القرن الأوّل الهجري/السّابع الميلادي: بحث في جذور الفكر الإسلامي والممارسة التّاريخيّة**، النّجف، مؤسسة أديان للثقافة والحوار، ٢٠١٥، ص ١٦٠-١٨٢.

(٥) الطّبري (محمد بن جرير)، **تاريخ الرّسل والملوك**، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (ط ٢)، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٧، ج ٤، ص ٥١، ٥٤ ؛ البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر)، **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف للطباعة والنّشر، ١٩٨٧، ص ٢٣٦-٢٤٦ ؛ الواقدي (محمد بن

عمر)، **تاريخ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر والعراق**، تحقيق عبد العزيز فيّاض حرفوش، دمشق، دار البشائر، ١٩٩٦، ص ٧٢-٧٥ ؛ المنبجي (محبوب بن قسطنطين)، **كتاب العنوان**، تحقيق فازيلياف أ.، باريس، ١٩٠٩، ج ٢، القسم ٢، ص ٤٧٧ ؛ العلي (صالح أحمد)، **الفتوحات الإسلامية**، بيروت، شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر، ٢٠٠٤، ص ٢٧٧-٢٧٨ ؛ كينيدي (هيو)، **الفتوح العربية الكبرى: كيف غيّر انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه**، ترجمة وتقديم وتعليق قاسم عبده قاسم، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨، ص ١٣٦.

(٦) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٤ ؛ يُنظر أيضا : البلاذري، **فتوح**، ص ٢٣٧ ؛ العلي، **الفتوحات الإسلامية**، ص ٢٧٧ ؛
Theophanes Confessor, *The Chronicle*, Trans. By Cyril Mango & Roger Scott Oxford, Clarendon Press, 1997, p. 473.

(٧) هناك اختلاف حول نسب عُمَيْر بن سعد في رواية البلاذري، **فتوح**، ص ٢٤٤، ٢٥٠ ؛ وهو عمر بن سعد، ابن أبي موسى الأشعري في رواية الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٣.

(٨) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥ ؛ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، مج ٢، ص ٣٧٧-٣٧٨. حسب ما دوّنه ابن الأثير فإنّ الذي جعل الوليد على عرب الجزيرة هو أبو عبيدة. ورد اسم الوليد بن عقبة كاملا في: ابن خيّاط (خليفة بن خيّاط شباب العصفري)، **كتاب الطبقات**، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٧، ص ١١، ٣١٨.

(٩) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٣.

(١٠) ابن خيّاط، **الطّبقات**، ص ١٥٧.

(١١) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٣.

(١٢) بصرف النّظر عن النّقطة التي تتعلق بدور عمير بن سعد، فإنّ رواية البلاذري فيها من التّماسك ومن المعطيات ما أفادنا في هذا البحث. يُنظر : البلاذري، **فتوح**، ص ٢٤٩-٢٥٢.

(١٣) أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم)، **كتاب الخراج**، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنّشر، ١٩٧٩، ص ٧٤ ؛ ابن خيّاط، **الطّبقات**، ص ١١، ٣١٨.

(١٤) ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزّهري)، **كتاب الطبقات الكبير**، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ٢٠٠١، ج ٥، ص ٩٧ ؛ البلاذري، **فتوح**، ص ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٥ ؛ العلي، **الفتوحات الإسلامية**، ص ٢٧٧.

(١٥) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٤. حول سيطرة الرّوم على أجزاء شاسعة من شمال العراق خلال حكم الإمبراطور هرقل وتحالف عدة قبائل عربية مع الرّوم ضدّ الفرس ثم ضدّ المسلمين في الجزيرة الفراتية يُنظر مثلا : العلي، **الفتوحات الإسلامية**، ص ١٤٠-١٤١ ؛
Kaegi (Walter Emil), *Heraclius Emperor of Byzantium*, Cambridge, Cambridge University Press, 2003, pp. 156-191 ; Edwell (Peter), with contributions from Fisher (Greg), Greatrex (Geoffrey), Whately (Conor) & Wood (Philip), « Arabs in the conflict between Rome and Persia, Ad 491-630 », in *Arabs and Empires before Islam*, Edi. by Fisher (Greg), Oxford, Oxford University Press, 2015, p. 274.

(١٦) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٤، ١١٩-١٢١ ؛ يُنظر أيضا : الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٤.

(١٧) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ١١٩-١٢١. لا أوافق الباحث Simon Pierre في قراءته لنصّ الواقدي قوله أنّ بعض المسلمين من تغلب ومن إيّاد قد قاتلوا مع قبائلهم إلى جانب الرّوم. ينظر عمله :
Pierre (Simon), *Les Banû Taghlib dans les historiographies arabes et syriaques : la construction d'une figure des Arabes chrétiens*, Master 1 encadré par Françoise Micheau (travail non publié), Université de Paris 1-Panthéon Sorbonne, (travail non publié, s. d.), pp. 44-45.

(١٨) ابن سعد، **كتاب الطّبقات**، ج ١، ص ٢٧٣ ؛ الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٣٥-٣٦، ٥٥-٥٦ ؛ ابن الأثير، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٦٨.

(١٩) العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ١٣٧. ترى المؤرخة أنّ الأغلبيّة من بني تغلب تمسّكوا بنصرانيتهم.

(٢٠) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٧٧. أورد الواقدي عبارة "العرب المتنصّرة" على لسان أحد قادة الرّوم في الجزيرة. حول مشاركة نصارى تغلب في القتال ضدّ الرّوم يُنظر أيضا :
Al-Qāḍī (Wadād), « Non-Muslims in the Muslim Conquest Army in Early Islam », in *Christians and Others in the Umayyad State*, Edi. by Borrut (Antoine) & Donner (Fred M.), Michigan, Thomson-Shore, Dexter, 2016, p. 92.

(٢١) الأزدي (محمد بن عبد الله)، **كتاب فتوح الشّام**، تحقيق وليم ناسوَليس كلكتة، مطبعة بِبتست مِشن، ١٨٥٤، ص ١٣٤-١٣٥ ؛
Kaegi, *Heraclius Emperor of Byzantium*, p. 219.

(٢٢) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٧٧. حول من بقي في شمال العراق من جيش الرّوم بعد الانتصار على الفرس في معركة نينوى يُنظَر :
Kaegi, *Heraclius Emperor of Byzantium*, p. 219.

(٢٣) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٤.

(٢٤) السّرياني (ميخائيل)، **تاريخ**، عرّبه عن السّريانية غريغوريوس صليبا شمعون، أعدّه وقدّم له غريغوريوس يوحنّا إبراهيم، ماردين، منشورات دار الرها، ١٩٩٦، ج ٢، ص ٣٠٢ ؛ المخزومي، **العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة في القرن الأوّل الهجري/السّابع الميلادي**، ص ١٧٩ ؛

Ducellier (Alain), *Chrétiens d'Orient et Islam au Moyen Age VIIe-XVe siècle*, Paris, Armand Colin/Masson, 1996, pp. 46-48.

(٢٥) كان عمر بن الخطاب والوليد بن عقبة يأملان في أن يعتنق بنو تغلب الإسلام. يُنظر: أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠-١٢١ ؛ الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥.

(٢٦) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٥.

(٢٧) نفس المصدر، ص ٦٥.

(٢٨) نفس المصدر، ص ٦٣-٧٥، ٨١-٨٤.

(٢٩) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥.

(٣٠) كان عمر بن الخطاب يأمل في أن يعتنق بنو تغلب الإسلام لأنهم عربا حتى بعد أن عقد معهم الصّلح وأرسل إليهم عامله زياد بن حدير ليأخذ منهم الصّدقة مضعّفة. ويظهر ذلك فيما نقله زياد عن عمر لمّا قال له :"إنّهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب فعلّهم يسلمون." يُنظر: أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠-١٢١.

(٣١) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠. قالوا لعمر بن الخطاب : نرضى بالصّدقة مضعّفة "ونحفظ ديننا."

(٣٢) حول تاريخ اعتناق بني تغلب النّصرانية على المذهب اليعقوبي يُنظر: العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ٦١-٦٥.

(٣٣) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠. نُذكِّر هنا أنّنا نرى أنّ القائد الذي تولىّ أمر نصارى بني تغلب هو الوليد بن عقبة وليس سعد بن عمير الذي يذكره البلاذري.

(٣٤) نفس المصدر، ص ٢٥١ ؛ يذكر أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠، أنّه كانت بأيديهم أراضٍ يوم صولحوا. هذه الإشارات الواردة في المصادر تجعلنا لا نقبل بما ذهبت إليه بعض الدراسات التي ترى أنّ بني تغلب في الجزيرة الفراتيّة كانوا من البدو الرّحل. يُنظر مثلا:

Eddé (Anne-Marie), Micheau (Françoise) et Picard (Christophe), *Communautés chrétiennes en pays d'Islam*, Paris, SEDES, 1997, p. 32.

(٣٥) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٤. ذكر الواقدي أسماء من يقول أنهم أمراء بني تغلب كان قد اجتمع بهم الوليد بن عقبة أولّ مرة عندما توجّه إلى هذه القبيلة وهم : نوفل بن مازن والشّريد بن عاصم والأشجع بن وائل وميسرة بن عامر وحزام بن عبد الله وقارب بن الأصم. وذكر النّسّابة ابن حزم أنّ قائد بني تغلب أيام عمر بن الخطّاب هو حنظلة بن قيس بن هَوْبَر. يُنظر: ابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي)، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، (ط ٥)، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢، ج ٢، ص ٣٠٦؛ لكن يبدو أنّ روايته غير دقيقة، لأنّ النّسّابة الكلبي (ت سنة ٢٠٤ هـ/ ٨٢٠م) ذكر أنّ حنظلة بن قيس بن هَوْبَر هو قائد تغلب أيام عُمَيْر بن الحُباب وعُمَيْر هو قائد قبيلة قيس، وقد تزعّم القائدان الصّراع الذي دار بين القبيلتين في فترة حكم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وتمكّن حنظلة من قتل عُمَيْر. يُنظر: الكلبي (هشام بن محمد بن السّائب)، **جمهرة النّسب**، تحقيق ناجي حسن، بيروت، مكتبة النّهضة العربية، ١٩٨١، ج ٣، ص ٥٧١.

(٣٦) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥-٥٦.

(٣٧) نفس المصدر، ج ٤، ص ٥٤ ؛ الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٥ ؛ ابن الأثير، **تاريخ**، مج ٢، ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٣٨) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٤٩.

(٣٩) نفس المصدر، ص ٢٥٠ ؛ العايب، **تغلب بين المسيحية والإسلام**، ص ١٠٣ ؛ قدّم Pierre (Simon) ترجمة خاطئة تماما لعبارة "نائفون من الجزية" بجملة فرنسية تعني مقيمون بالجزيرة. يُنظر عمله:

Pierre (Simon), *Les Banû Taghlib dans les historiographies arabes et syriaques*, p. 72.

(٤٠) **القرآن الكريم**، سورة التّوبة، آية ٢٩ ؛ يُنظر بشأن هذه الآية : المقدسي (عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدامة)، **المُغني**، تحقيق رائد بن صبري بن أبي علفة، بيروت، بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٤، ج ٢، ص، ٢٣٤٣.

(٤١) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١-٢٥٢. وردت في كلام علي بن أبي طالب إشارة إلى أنّ لبني تغلب مقاتلة.

(٤٢) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦.

(٤٣) نفس المصدر، ج ٤، ص ٥٥ ؛ يُنظر أيضا : ابن الأثير، **تاريخ**، مج ٢، ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٤٤) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ٦٥، ١٢٨-١٣٠ ؛ العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ١٥٣.

(٤٥) الواقدي، **فتوح الجزيرة**، ص ١٢٨-١٢٩.

(٤٦) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦ ؛ الأطرقجي، "تغلب ودورها في التّاريخ"، ص ١٧٠.

(٤٧) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٧٦.

(٤٨) يُنظر مثلا : ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم الدّينوري)، **الإمامة والسّياسة المعروف بتاريخ الخلفاء**، تحقيق علي شيري، بيروت، دار الأضواء، ١٩٩٠، ج ١، ص ٢٣-٢٥. حول مكانة قبيلة قريش في الدّعوة الإسلامية وفي بناء دولة المدينة والفتوحات على مستوى الواقع وحتّى على مستوى المخيال القبلي يُنظر مثلا: الجابري (محمد عابد)، **العقل السّياسي العربي : محدّداته وتجلّياته**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠، ص ١٤٢، ١٥٠-١٥٢.

(٤٩) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦. كما ورد في الطبري أنّ عمر استشار أيضا بشأن بني تغلب علي بن أبي طالب، وقد أشار عليه كذلك بمضاعفة الصّدقة عليهم. يُنظر أيضا: العايب، **تغلب بين المسيحية والإسلام**، ص ١٠٣.

(٥٠) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠ ؛

Fattal (Antoine), *Le statut légal des non-musulmans en pays d'Islam*, Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1958, p. 274 ; Anver (M. Emon), *Relugiuos Pluralism and Islamic*

Law : Dhimmīs and Others in the Empire of Law, Oxford, Oxford University Press, 2012, p. 104.

(٥١) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦.

(٥٢) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠.

(٥٣) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب)، **تاريخ اليعقوبي**، قدّم له وعلّق عليه محمد صادق بحر العلوم، النّجف، المكتبة الحيدريّة، ١٩٦٤، ج ٢، ص ١٣٢.

(٥٤) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠.

(٥٥) القرشيّ (يحي بن آدم)، **كتاب الخراج**، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة- بيروت، دار الشّروق، ١٩٨٧، ص ١٠٧.

(٥٦) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠ ؛ الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥-٥٦ ؛ Fattal, *Le statut légal des non-musulmans*, p. 274.

(٥٧) ضاعف عمر بن الخطاب الصّدقة على قبيلتين عربيتين نصرانيتين وهما تنّوخ وبهراء، لكن المصادر لم تمدّنا بتفاصيل عن هذا الموضوع، ويُفهم من النّصوص أنّ ذلك تمّ قبل عقد الصلح مع نصارى بني تغلب. يُنظر: الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥ وقد ذكر العباد وتنّوخ ؛ الماوردي (علي بن محمد بن حبيب)، **كتاب الأحكام الدينية والولايات السلطانية**، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، الكويت، مكتبة دار ابن قتيبة، ١٩٨٩، ص ١٨٤ ؛ Anver, *Relugiuos Pluralism and Islamic Law*, pp. 103-105.

(٥٨) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠ ؛ البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠ ؛ المخزومي، **العلاقات الإسلاميّة المسيحيّة في القرن الأوّل الهجري/السّابع الميلادي**، ص ١٦٢-١٦٣ ؛ العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ١٥٣-١٥٥. أوافق سلوى بالحاج صالح العايب قولها أنّ هذا الامتياز الممنوح لبني تغلب هو بسبب قوّتهم العسكرية، ولكن أختلف معها في قولها أنّه بسبب قدرتهم على تقديم خدمات عسكرية للدّولة الإسلامية.

(٥٩) ابن زنجَويه (حميد)، **كتاب الأموال**، تحقيق، ذيب فيّاض، المملكة العربيّة السّعودية، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلامية، ١٩٨٦، ج ١، ص ١٣١.

(٦٠) اليعقوبي، **تاريخ**، ج ٢، ص ١٣١-١٣٢.

(٦١) نفس المصدر، ج ٢، ص ١٣٧. حول انتقال جبلة الغساني وقومه إلى بيزنطة يُنظر أيضا: Shahîd (Irfan), *Byzantium and the Arabs in the Sixth Century*, Vol. I, (Part 2) : *Ecclesiastical History*. Washington, D. C., Dumbarton Oaks Research Library and Collection, 1995, p. 948 ; Kaegi (Walter Emil), *Byzantium and the early islamic conquests*, Cambridge, Cambridge University Press, 1992, p. 171.

(٦٢) يُنظر بشأن مضمون هذا الصّلح : الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥-٥٦ ؛ البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠-٢٥١. الصّدقة المفروضة على المسلمين هي الزّكاة. يُنظر بشأنها وبشأن الصّدقة المفروضة على نصارى بني تغلب : أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ٧٦-٧٩، ١٢٠؛ المقدسي، **المُغني**، ج ٢، ص ٢٣٤٢ ؛ Fattal, *Le statut légal des non-musulmans*, pp. 36-37, 274-275 ; Gilliot (Claude), « Ṭabari et les chrétiens Taġlibites », in *Annales du département des études arabes*, (1991-1992), vol. 68, pp. 145-159.

(٦٣) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٢-١٢٨ ؛ الماوردي، **الأحكام الدينية**، ص ١٨١-١٨٦ ؛ الخربوطلي (علي حسني)، **الإسلام وأهل الذمّة**، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٦٥-٧٠ ؛ Ye'or (Bat), *The decline of Eastern Christianity under Islam : from Jihad to Dhimmitude : Seventh-Twentieth Century*, New Jersey, Associated University Presses, (7th printing), 2009, pp. 77-79, 121-128.

(٦٤) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١.

(٦٥) لم أعثر في المصادر التي اطّلعت عليها على ما يؤكد ما ذهب إليه Anver, *Relugiuos Pluralism and Islamic Law*, p. 104 عندما ذكر أنّ علي بن أبي طالب منع المسلمين من الزواج بنساء بني تغلب.

(٦٦) الماوردي، **الأحكام الدينية**، ص ١٨١ ؛ الخربوطلي، **الإسلام وأهل الذمّة**، ص ٦٨.

(٦٧) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٦٨) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦. المقصود هو الوليد بن عقبة.

(٦٩) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٧٠) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٧، ص ٦١، ٦٧، ٧٥، ٧٨.

(٧١) نفس المصدر، ج ٧، ص ٥٩-٨٠ ؛ ابن الأثير، **تاريخ**، مج ٤، ص ٩٥-١٠٢.

(٧٢) يُنظر بشأن واقعيّة عمر : Lecker (M.), « Tag͟hlib b. Wā'il », in *The Encyclopaedia of Islam*, Leiden, Brill, New ed., 2000, vol. X, p. 92 ; Anver, *Relugiuos Pluralism and Islamic Law*, p. 104.

(٧٣) **القرآن الكريم**، سورة التّوبة، آية ٦٠ وآية ١٠٣.

(٧٤) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠ ؛ البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١. حول مختلف الرّوايات بشأن الصدقة المضعّفة يُنظر: العايب، **تغلب بين المسيحية والإسلام**، ص ١٠٣-١٠٥.

(٧٥) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠- ١٢١ ؛ البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٢.

(٧٦) في سنة ١٧١ هـ/ ٧٨٧ م قتلت تغلب روح بن صالح قائد الموصل وقد كان هارون الرّشيد قلّده جمع صدقاتهم، كما قتلت جماعة من رجاله. يُنظر: الأزدي (يزيد بن محمد بن إيّاس الأزدي)، **تاريخ الموصل**، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٦٨.

(٧٧) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٠.

(٧٨) المقدسي، **المغني**، ج ٢، ص ٢٣٤٧.

(٧٩) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٨٣-٣٨٤ ؛ Theophanes, *The Chronicle*, p. 550.

(٨٠) أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ١٢٠.

(٨١) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥٢ ؛ الأطرقجي، "تغلب ودورها في التّاريخ"، ص ١٧٢.

(٨٢) المقدسي، **المغني**، ج ٢، ص ٢٣٤١.

(٨٣) ابن سعد، **كتاب الطّبقات**، ج ١، ص ٢٧٣ ؛ الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٥-٥٦ ؛

Fattal, *Le statut légal des non-musulmans*, pp. 21-22.

(٨٤) حول ما اشترطه النّبيّ محمد (ﷺ) على أهل نجران يُنظر: أبو يوسف، **كتاب الخراج**، ص ٧١-٧٤ ؛ العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ١٣٣-١٣٧. اعتبرت رمزية الأطرقجي أنّ التّغالبة هم الذين اقترحوا هذا الحل على الرسول (ﷺ) تخلصا من الجزية، وهذا ما لا أوافقها فيه الرأي. يُنظر: الأطرقجي، "تغلب ودورها في التّاريخ"، ص ١٦٤.

(٨٥) ابن زنجَويه، **كتاب الأموال**، ج ١، ص ١٣١.

(86) Fattal, *Le statut légal des non-musulmans*, pp. 36-37.

(٨٧) البلاذري، **فتوح**، ص ٢٥١-٢٥٢ ؛ المقدسي، **المغني**، ج ٢، ص ٢٣٤٧.

(٨٨) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ١٧٣، ٣٦٠، ٣٦٨، ٣٨٥، ٤٣٨ ؛ العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ٦١-٦٥، ١٧٢-١٧٥؛

Eddé, Micheau et Picard, *Communautés chrétiennes en pays d'Islam*, pp. 23-25.

(٨٩) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٧٦ ؛ العايب، **تغلب بين المسيحية والإسلام**، ص ٩٥-٩٦ ؛

Ye'or, *The decline of Eastern Christianity*, p. 88.

(٩٠) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٧٦ ؛

Ye'or, *The decline of Eastern Christianity*, p. 88 ; Pierre, *Les Banû Taghlib dans les historiographies arabes et syriaques*, p. 84.

(٩١) الخلّال (أبو بكر أحمد بن محمد)، **أحكام أهل الملل من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق سيّد كسروي حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤، ص ٧١ ؛ السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ١٧٣، 360، ٣٦٨ ، ٣٨٥، ٤٣٨ ؛ حول تواصل وجود هذه المجموعات العربية النّصرانية بالجزيرة الفراتيّة إلى القرن الرّابع الهجري يُنظر أيضا: العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ٢١٩-٢٢٢.

(٩٢) التّلمحري (ديونسيوس)، **تاريخ الأزمان**، ترجمة شادية توفيق حافظ، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨، ص ١٣٩-١٥٣، ١٦٥-١٧٤، ١٧٧-١٩٠، ٢١٣، ٢١٦، ٢٤٣ ؛ السّرياني، **تاريخ**، ج ٣، ص ٦٨-٦٩، ٧٥، ٨٠-٨١ ؛

Bar Šinaya (Mar Élie), *Chronographie*, éd. L.-J. Delaporte, Paris, Librairie Honore Champion, 1910, p. 111.

(٩٣) الخلّال، **أحكام أهل الملل**، ص ٦٩ ؛ التّلمحري، **تاريخ الأزمان**، ص ١٣٩-١٥٣، ١٦٥-١٧٤، ١٧٧-١٩٠، ٢١٣، ٢١٦، ٢٤٣.

(٩٤) ابن حوقل (أبو القاسم)، **صورة الأرض**، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢، ص 191-193، 199.

(٩٥) نفس المصدر، ص ١٩١-١٩٩.

(٩٦) نفس المصدر، ص ١٩٢. أثناء تبيانها للأسباب التي أدّت إلى إضعاف المسيحيّة العربيّة وتشتّتها في الجزيرة الفراتيّة تعرّضت المؤرّخة سلوى العايب في بحثها إلى خبر، نقلته عن ابن حوقل، حول رحيل فريق من بني تغلب إلى أرض الرّوم، وعدّت هذا الرّحيل واحدا من تلك الأسباب. ولكن ما يدعو إلى الاستغراب هو أنّها قد غضّت الطّرف على نقطة هامّة من نفس الرّواية تتمثّل في قول ابن حوقل أنّ هؤلاء تنصّروا في بلاد الرّوم. يعني هذا القول كما أورده صاحب كتاب صورة الأرض أنّ الذين غادروا دار الإسلام من بني تغلب هم مسلمون وليسوا نصارى، ثم اعتنقوا النّصرانيّة خارج دار الإسلام. من هذا المنطلق لا يستقيم تفسير تشتّت المسيحيّة العربية برحيل مجموعة مسلمة عن ديارها. لكأنّ المؤرّخة أشكلت عليها هذه الرّواية ولم تجد في خبر اعتناق بني حبيب النّصرانية لمّا حلّوا ببلاد الرّوم ما يتّفق مع فكرتها فتجاهلته تماما وفضّلت نهج الانتقاء الذي قد يطمس جانبا من "الحقيقة التاريخية." يُنظر: العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ٢٢١. حول انتقال بني حبيب إلى بيزنطة يُنظر أيضا:

Canard (Marius), *Histoire de la dynastie des H'amdanides de Jazîra et de Syrie*, Alger, 1951, t. I, pp. 737-738.

(٩٧) اتّبع الخليفة المتوكّل هذه السّياسة المتشدّدة تجاه النّصارى وغيرهم من أهل الذّمّة في مناسبتين اثنتين، كانت الأولى سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠م، وكانت الثّانية سنة ٢٣٩ هـ/ ٨٥٤م. يُنظر تفاصيل ما أمر به في: الطبري، **تاريخ**، ج ٩، ص ١٧١-١٧٥، ١٩٦ ؛ العايب، **تغلب بين المسيحية والإسلام**، ص ٩٩ ؛

Eddé, Micheau et Picard, *Communautés chrétiennes en pays d'Islam*, p. 70.

(٩٨) ابن خلدون، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٦١.

(٩٩) الطبري، **تاريخ**، ج ٩، ص ١٧٢.

(١٠٠) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص 191-199.

(١٠١) نفس المصدر، ص ١٩٨.

(١٠٢) نفس المصدر، ص ١٩١-١٩٩.

(١٠٣) في أطروحتي للدكتوراه، كنت قد تناولت الخبر الذي ساقه ابن حوقل حول اعتناق بني حبيب النّصرانيّة بعد دخولهم بلاد الرّوم دون أن أنقده. لعلّ هذه الفكرة في هذا المقال تكون بمثابة اللبنة التي تسدّ تلك الثّغرة. يُنظر :

Labidi (Béchir), *Les frontières entre Byzance et l'Orient musulman (VIIIe – XIe siècles)*, thèse de doctorat encadrée par Mohamed Tahar Mansouri (travail non publié), Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 2012, t. II, pp. 373-375.

(١٠٤) السّرياني، **تاريخ**، ج ٣، ص ٦١.

(105) Skylitzes (John), *A Synopsis of Byzantine History 811-1057*, Trans. by John Wortley, with introductions by Jean-Claude Cheynet & Bernard Flusin, Cambridge, Cambridge University Press, 2010, pp. 181-182 ; Labidi, *Les frontières*

entre Byzance et l'Orient musulman, t. II, pp. 536-550 ; Canard (Marius), « Deux épisodes des relations diplomatiques arabo-byzantines au Xe siècle », in *Bulletin d'Études Orientales*, (1949-1951), t. XIII, p. 57.

(١٠٦) السّرياني، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٨٤.

(١٠٧) ابن العديم (أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله)، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق، خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦، ص ٧٢-٧٥ ؛

Canard, *Histoire de la dynastie des H'amdanides*, t. I, pp. 720, 732-735.

(١٠٨) ابن العديم، **زبدة الحلب**، ص ٧٦، ٧٨، ٨٠-٨٤ ؛

Canard, *Histoire de la dynastie des H'amdanides*, t. I, pp. 732-735.

(١٠٩) حول تهجير السّكان المسلمين وتعمير المناطق الحدوديّة بغير المسلمين وخاصة بالأرمن يُنظر مثلا : ابن العبري (أبو الفرج جمال الدين)، **تاريخ الزّمان**، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦، ص ٦٣ ؛

Charanis (Peter), « Armenians and Greeks in the Byzantine Empire », in Charanis (Peter), *Social, economic and political life in the Byzantine Empire*, Collected studies, London, Variorum Reprints, 1973, pp. 24-26 ; Labidi, *Les frontières entre Byzance et l'Orient musulman*, t. I, pp. 153-157.

(١١٠) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٩٢.

(١١١) Texte cité in Andréadès (A.), « De la monnaie et de la puissance d'achat des métaux précieux dans l'empire byzantin », in *Byzantion*, 1924, t. I, p. 107.

(١١٢) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٩٢.

(١١٣) نفس المصدر، ١٩١-١٩٥.

(١١٤) نفس المصدر، ص ١٩٢.

(١١٥) نفس المصدر، ص ١٩١-١٩٥، ١٩٨، ٢٠٣.

(١١٦) نفس المصدر، ص ١٩٢.

(١١٧) نفس المصدر، ص ١٩٢.

(١١٨) نفس المصدر، ص ١٩١.

(119) Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History*, pp. 216-217 ; Treadgold (Warren), *Byzantium and its army 248-1081*, California, 1995, pp. 78, 110-111.

(١٢٠) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٩٢.

(١٢١) نفس المصدر، ص ١٩٢.

(122) Nau, *Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie*, pp. 15-17 ; Shahîd, *Byzantium and the Arabs*, vol. I, (Part 2), pp. 773, 842-843, 854-855, 924, 959.

(١٢٣) ابن خلدون، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٦ ؛ يُنظر أيضا : الأطرقجي، "تغلب ودورها في التّاريخ"، ص ١٧٤-١٧٥ ؛ العايب، **المسيحية العربية وتطوّراتها**، ص ٨١-٨٨.

(124) Shahîd, *Byzantium and the Arabs*, Vol. I, (Part 2), pp. 694-708.

(125) Greatrex (Geoffrey) & N.C. Lieu (Samuel), (Editors), *The Roman Eastern Frontier and the Persian Wars. Part II AD 363–630. A narrative sourcebook*, London & New York, Routledge, 2002, p. 221 ; Foss (Clive), « The Persians in the Roman near East (602-630 AD) », In *Journal of the Royal Asiatic Society*, Third Series, 2003, vol. 13, (N. 2), pp. 154-156.

(١٢٦) الطبري، **تاريخ**، ج ٤، ص ٥٦ ؛ ابن خلدون، **تاريخ**، ج ٢، ص ٣٦.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الدّعوة الشّيعيّة الفاطميّة في ليبيا ومَوقف المَالكيّة منها صُمُود المذهب المالكي ضد المذهب الشّيعي الإسماعيلي ٢٩٧ – ٤٤٣ هـ/٩٠٩ – ١٠٥١م



د. رمضان محمد رمضان الأحمر
عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ
كليّة الآداب – جامعة بنغازي
بنغازي – دولة ليبيا

مُلَخّص

سَعَى الفاطميّون منذ أن أعلنوا عن قيام دولتهم الشيعية في المغرب الأدنى (ولاية إفريقيّة) سنة (٢٩٧هـ/٩٠٩م)، إلى السيطرة على ليبيا وإخضاعها لحكمهم، وعملوا على نشر مَذهبهم الشيعي بين أهاليها، كونه خُطوةً أوّليّة في مشروعهم التّوَسّعي وأمانيهم الواسعة في حكم كل البلاد الإسلامية. وفي هذا البحث سَنتعرف على السياسة التي اتّبَعَهَا الفاطميون ووسائلهم التي استخدموها لنَشْر مَذهبهم الشّيعي بين أهالي ليبيا، مع توضيح لأوضاع مَالكية ليبيا في ظلّ الحكم الشيعي، إلى جانب معرفة أهم الأسباب التي جعلت معظم الأهالي ينبذون المذهب الشيعي، وفي المقابل ثبات نفوسهم على المذهب السُّنّي المالكي. وتكمن أهمية دراسة هذا الموضوع في أنه قد يُفيدنا -حاليًا ومستقبلاً- في معرفة الوسائل التي تُساعدنا على حفظ مذهبنا المالكي من الحركات الدينية الهَدّامة وتسمح لنا بالاحتفاظ بهويتنا الدينية السَّمحة من الأفكار الدخيلة والمعتقدات المتطرفة. وقد استخدمنا في كتابته المنهج التاريخي الاستردادي، الذي يعتمد على السَرد من ناحية وعلى القياس والتّحليل والاستنباط من نواحٍ أخرى. وبفضل استخدام هذا المنهج تَوَصّلَت الدراسة إلى أنه على الرغم من اهتمام الفاطميين بأمر الدعوة الشيعية في ليبيا إلا أنها كانت قد باءت بالفشل، حيث إنّ جُلّ ما حصل عليه الفاطميون من الليبيين هو الإخضاع السياسي فقط، أما من حيث العقيدةُ والمذهبُ فلم يَظفروا بشيء لدى أغلبيتهم الذين ظَلّوا على مَالكيتهم ولله الحمد. وكان من أهم أسباب فشل دعوة الفاطميين هو عُلَمَاء المالكية وفُقَهَاؤها من الليبيين الذين صَبروا على اضطهاد الفاطميين وقمعهم الفكري، فظَلّوا في البلاد ولم يُهاجروا منها، فكان لثَبَاتهم على الحق وصُمُودهم أثره على عامة الناس فيها، الذين صَبروا لصَبرهم وتَقَوّوا بقوتهم، فكانوا بذلك أداة ثبات وحفظ للمذهب المالكيّ في ليبيا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٥ يناير ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ فبراير ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الفاطميون؛ ليبيا؛ الدعوة الشيعية؛ المذهب المالكي؛ الدولة الفاطمية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.324201 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

رمضان محمد رمضان الأحمر. "الدعوة الشيعية الفاطمية في ليبيا ومَوقف المَالكية منها: صُمود المذهب المالكي ضد المذهب الشيعي الإسماعيلي ٢٩٧ – ٤٤٣ هـ/٩٠٩ – ١٠٥١م".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة -العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص٥٠ – ٧٢.

Corresponding author: r.alahmer@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يُنْسَبُ الفَاطميّون إلى الإسماعيلية، الذين هم فرْقَة من فرَق الشّيعة، عُرفَت بذلك نسْبَةً إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصّادق، المُتَوَفَّ سنة ١٤٣هـ/٧٦٠م[١]. وسُمُّوا بالفَاطميّة لأنهم يرون أنهم يعودون بنسبهم إلى علي بن أبي طالب (ﷺ) من زوجه فاطمة الزهراء تحديدً -رضي الله عنها- ابنة الرسول (ﷺ)[٢]. وقد استطاع الفاطميّون إقامة دولة لهم في المغرب الأدنى (ولاية إفريقيّة) منذ أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي (٢٩٧هـ/٩٠٩م)، وذلك بعد نجاحهم في هزيمة الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ/٨٠٠-٩٠٨م) -الذين كانوا يحكمون إفريقيّة باسم الخلافة العباسية- والاستيلاء على مُلكهم في بلاد المغرب، وإعلان الخليفة الفاطمي الأول عُبَيد الله المهدي (٢٩٧-٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٣م) عن قيام الخلافة الفاطمية الشّيعيّة من مدينة رَقّادة التّونسيّة -عاصمة الأغالبة الخاصة- سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، بعد أنْ استقرت قدمه في البلاد ودانت له أهلها.[٣]

وبمجرد أنْ سيطر الفاطميون على إفريقية سَعوا إلى السيطرة العسكرية على ليبيا وإخضاعها لحكمهم، كما عملوا على نَشر مَذهبهم الشيعي بين أهاليها، كونه خطوة أوَليّة في مشروعهم التَّوَسّعي وأمانيهم الواسعة في حكم كل البلاد الإسلامية. وفي هذا البحث سَنتعرف على السياسة التي اتّبَعَهَا الفاطميون في محاولة نشر مذهبهم الشيعي بين أهالي ليبيا، ووسائلهم التي استخدموها للوصول إلى هذه الغاية، مع توضيح لأوضاع مَالكية ليبيا في ظلّ الحكم الشيعي، إلى جانب معرفة أهم الأسباب التي أدّت إلى عدم تأثر معظم أهالي ليبيا بالمذهب الشيعي، ورفضهم له على الرغم من خُضُوعهم السياسي التام للفاطميين في ذلك الوقت، وفي المقابل ثبات نفوسهم على المذهب السُّنّي وبالخُصُوص المالكي، وعدم تزعزع إيمانهم به -ولله الحمد- إلى يومنا هذا.

وتكمن أهمية دراسة هذا الموضوع وما يَتَمَخّض عنه من نتائج في أنه يُعطينا العظَة والتّدَبّر التاريخي، إلى جانب استيعاب وإدراك ما يُفيدنا -حاليً ومستقبلً- في الاهتمام بالوسائل التي تُسَاعدنا في حفظ مَذهبنا المالكي من الفرَق الضّالّة والحركات الدينية الهَدّامة التي تأتي تحت مُسَمّيَات بَرّاقَة في العادة، وفي الوقت نفسه تسمح لنا بالاحتفاظ بهويتنا الدينية السَّمحة من الأفكار الدخيلة والمعتقدات المتطرفة، التي عادةً ما تستهدف النَّشء الذين هم عمَادُ أيّ أُمّة ومستقبلها.

ولكي تصل هذه الدراسة إلى الأهداف المطلوبة منها استخدمنا في كتابتها المنهج التاريخي الاستردادي، الذي يعتمد على السرّد من ناحية وعلى القياس والتحليل والاستنباط من نواح أخرى، وكل ذلك استنادً على ما حصلنا عليه من مادة تاريخية مستقاة من المصادر الأصيلة. وبفضل استخدام هذا المنهج انتهى البحث -بمشيئة الله- بخاتمة فيها حَوصلة لَما في المقال من خُلاَصة، وأهم النتائج.

ومن الضرّوري أنْ نُوَضّح أنّ ليبيا خلال عصورها التاريخية المختلفة لم تكن في معزل عن محيطها الإقليمي وموقعها الجُغرافي المتوسط بين مصر وتونس، فَطَرابلس جُغرافيً كانت تمثل الجزء الشرقي من المغرب الأدنى (ولاية إفريقية)، وغالبً ما تكون تخضع للحكم السياسي في حواضره، سواء كانت القيروان أو رَقّادة أو المَهْديّة[٤] أو المَنصُوريّة[٥] ...إلخ. وكذلك برقة كثيرً ما كانت تخضع للحكم السياسي الموجود في مصر وتتبعها إداريً، إلا في فترات متقطعة خرجت فيها عن سيطرة الدولة وأصبحت قبائلها هي من يقرر مصيرها. لذلك عند تناولنا لموضوعات مقالنا هذا لن نكون بعيدين عمّا كان يجري في الجارتين مصر وتونس على يد الفاطميين، فتاريخ ليبيا (طرابلس وبرقة) خلال العصور الإسلامية الأولى والوسطى ما هو إلا جزء من تاريخَيهمَا، واستقطاعه بهذا الشكل والمُسَمّى ما هو إلا مُجَاراة للتقسيم الجُغرافي والسّياسي الذي فُرضَ على المنطقة منذ مَجيء العثمانيين ومن بعدهم الاستعمار الأوروبي الحديث.

مدخل (توطئة)

كانت الدولة الفاطمية منذ تأسيسها دولة عَقَديّة الجوهر والمَضمون، فالتَّشَيّع ومحاربة السنّة هما ركيزتها ومنْهَاجُهَا، والقضاء على دولة بَني العَبّاس كان غايتها السياسية الأولى. ومن هنا حرص عُبَيد الله المهدي -منذ أنْ أعلن عن قيام دولته المَغربيّة- على المسير إلى مصر وانتزاعها من العَبّاسيين وحكمها شيعيً، ثم الامتداد منها إلى شبه الجزيرة والشام فالعراق، انتهاءً بالقضاء على

منصب الخليفة رمز السّنّة في الحكم، وهو الهدف الأسمى وخاتمة المطاف[٦].

ولكي يُحَقّق الفاطميون مشروعهم هذا، كان لزَامً عليهم تأمين وصولهم إلى مصر والامتداد إليها، وهذا لا يَتَأتّى إلا بإحكام سيطرتهم على ليبيا أولاً، التي كانت ولا زالت -بحكم موقعهما المميز- بمثابة حلقة الوصل والجسر الرابط بين مصر وولاية إفريقية بشكل خاص، وبين مَشرق العالم الإسلامي ومَغربه بشكل عام. لذلك عمل الفاطميّون على السيطرة عليها منذ أنْ أعلنوا عن قيام دولتهم، فبمجرد قضائهم على دولة الأغالبة وسقوط ولاية إفريقيّة في أيديهم، أصبح إقليم طرابلس ضمنيٌّ من أملاك الفاطميين لكونه يُمَثّل الجزء الشرقي من إفريقية. فأرسل إليه المهدي سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م من مقر حكمه في رَقّادة عامله ماكنون بن ضبارة الألجائي[٧]. فكان بذلك أول وال شيعيّ على طرابلس من قبَل الفاطميين.

ولم يَلبث الفاطميون بعد ذلك أنْ شرَعُوا في مَدّ سُلْطَانهم على بَقيّة المُدن والأراضي السّاحلية الليبية، التي سَتُوَفّر لهم بعد سنوات طريقً آمنة إلى مصر، فَجَهّزَ الخليفة المهدي لذلك حملة للسيطرة عليها في سنة ٣٠١هـ/٩١٣م بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي (ت: سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م)، تَمَكّنَت من السيطرة على مدينة سرت بالأمان وهرب من كان فيها من الجُنْد العباسي. وحصل لمدينة أجدابية ما حَصَلَ لسرت فدخلها الجند الفاطمي بالأمان أيضً، وهرب من كان فيها من بَني العبّاس. واستمرّت الحملة في المسير وكان عُبَيد الله يَمُدّها بالجيوش في مسيرها إلى أنْ وصلت إلى برقة[٨]، وتمكنت من الاستيلاء عليها بعد تَنَافُر حصل بين قادة الجيش العباسي مما ساعد على انهزامهم واندحارهم إلى مصر[٩].

وبسقوط برقة أصبحت جميع الأراضي السّاحليّة اللّيبية تخضع للفاطميين الشيعة، الذين لم يَهنؤوا بهذا الخُضُوع في بادئ الأمر، فما لَبثتْ مقاومة الأهالي للحكم الجديد أنْ بدأت تتوالى من هنا وهناك، كانت أولها ثورة أهالي طرابلس سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م[١٠]، ثم ثورتهم الثانية سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م، التي حُوصرَت فيها المدينة لمدة ستة أشهر[١١]، حتى أكل أهلها المُيتَةَ من الجوع[١٢]. وبعدها ثورة أهالي برقة سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م، التي استمرت مُدّة ثمانية عشر شهرً وانتهت سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م، بعد أنْ حاصرها الفاطميون حتى "أفنت الحرب أكثر أهلها"[١٣].

وكانت آخر الثورات المناهضة للفاطميين في ذلك الوقت هي ثورة أهالي جبل نفوسة سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م، التي أخمدها الفاطميون بعد حصَار وقَتْل وسَبْي إلى أنْ استكان الأمر لهم سنة ٣١١هـ/٩٢٣م[١٤]. وبانتهاء ثورة نفوسة دانت البلاد للحكم الجديد، وأصبحت ليبيا خاضعة تمامً للحكم الشيعي الفاطمي، باستثناء الجنوب اللّيبي الذي لم يكن للفاطميين صالحٌ لمد سيطرتهم عليه في ذلك الوقت، حيث إنّ جُلّ اهتمامهم كان منْصَبٌّ على السيطرة على الأقاليم والمُدُن التي تقع بها الطريق السّاحلية المُوَصّلة إلى مصر هدفهم الأسمى.

وعلى ما يكون، بخضوع ليبيا للحكم الفاطمي أصبحت سياسيً تحت حكم دولة شيعية فَتيّة، عَقَديّة في المقام الأول كما ذكرنا، كان من أهم أهدافها وأعظم سياساتها محاولة نشر مذهبها الشيعي على جميع الأقاليم والبلدان والمُدُن التي تقع على الرقعة الجغرافيّة للعالم الإسلامي كله، فَمَا بالك بتلك التي تخضع لسيطرتها المباشرة. لذلك عمل الفاطميّون على نشر مَذهبهم الشيعي بين أهالي ليبيا، في محاولة لاستبداله بما يَعتنقونه من مذاهب، ولا سيّما المذهب المالكي الذي كان -ولا يزال- يَتّبعه غالبية السّكان، باستثناء بعضهم على المذهب الإباضي في جبل نفوسة وفي نواحي طرابلس.

أولاً: سياسة الفاطميين ووسائلهم لنَشْر المذهب الشّيعي بين سُكّان المغرب عُمُومًا وليبيا خُصُوصًا

من المعروف تاريخيً أنّ الدولة الشيعية الفاطمية قامت في بلاد المغرب الإسلامي على أساس الدعاية والدعوة الدينية، التي قد يعتقد بعض الباحثين أنها كانت قريبة العهد من إعلان الفاطميين لدولتهم في سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، بل إنها كانت أبعد من ذلك، حيث يرى بعض الباحثين المحدثين أنّ بدايات الدعوة الشّيعيّة ترجع في أصولها أو بذرتها الأولى منذ تَوَلّيّ معاوية بن أبي سفيان الخلافة إثر وفاة سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وحرمان أبنائه الحسن والحسين من الخلافة (رضي الله عنهما)[١٥]. وهناك من يرجعها إلى أبعد من ذلك إلى بُعَيد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتَوَلّيّ أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) الخلافة من بعده[١٦]،

فالمُتشَيّعون لسَيّدنا عَلي (ﷺ) كانوا ولا يزالون يَرون بأنه أحق للخلافة من أبي بكر وعمر بن الخطاب (ﷺ)، ولكن سياسة الخليفتين الحكيمة الراشدة في الحكم كَبَحَت جَمَاح الشيعة، إلى أنْ تَوَلىّ الخلافة عثمان بن عفان (ﷺ) فكانت سياسته في الحكم مثار سخط في أغلب الولايات الإسلامية، وأتاحت لأنصار عليّ (ﷺ) فرصة لتحويل الخلافة إلى أهل البيت، وبعث الدُّعَاة إلى الأمصار المختلفة يدعون له بالخلافة[١٧]، وهو رضي الله عنه بَريءٌ من ذلك.

ومنذ ذلك الوقت والدُّعَاة لآل البيت منتشرون في الأقاليم الإسلامية لدعوة الناس في محاولة لإقامة دولة لهم، وقام العلويون في سبيل ذلك بعدة ثورات عنيفة تعرضوا من ورائها للتنكيل والقتل سواء في عصر الأمويين أو العباسيين من بعدهم[١٨]. إلى أنْ استطاعوا في آخر المطاف -بعد تكثيف لحركة الدعاة والنشاط في توزيعهم على أرجاء العالم الإسلامي- أن يُقيموا الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، التي هي أول دولة شيعية أعلنت عن وجودها صراحةً في العالم الإسلامي وبحَدّ السَّيّف.

وقد وَاجَهَ قيام دولة الفاطميين في ذلك الوقت عَقَبَات جَمّة، فهي نشأت وقامت من بين ست دول أو أكثر من ست دول إسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها[١٩]، وأسّسَت حَقّها على دعوة يَتَألّب الخُصُوم من حولها على إنكارها، واعتمدت في الدعوة على وسائل لم يسبقها إليها سابق ولم يلحقها نظير لها في تلك الوسائل إلى وقتنا الحالي[٢٠]. وقد انتشر الدُّعَاة الفاطميون في كل مكان حتى وصلوا إلى بغداد ذاتها، حيث طُردَ الخليفة العباسي منها وخُطبَ للخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧ه/١٠٣٥-١٠٩٤م) على يد أبي الحارث أرسلان البَسَاسيري (م: سنة ٤٥١ه/١٠٥٩م)، لمدة سنة كاملة من شوال سنة ٤٥٠ه/١٠٥٨م إلى شوال سنة ٤٥١ه/١٠٥٩م، وانتهت بوصول السّلاجقة إلى بغداد وإعادتهم الخليفة القائم بأمر الله العباسي إليها[٢١].

وقد كانت بلاد المغرب الإسلامي من ضمن الأقاليم التي أرسل الفاطميون إليها دُعَاتهم، الذين اشتهر منهم داعيّان كان قد أرسلهما جعفر الصّادق[٢٢]، أحدهما يُعْرَف بالحَلْواني والآخر بأبي سفيان، حيث قال لهما: "بالمغرب أرض بور فَاذْهَبَا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر"[٢٣]. فَأَخَذَا يَدْعُوان الناس لطاعة آل البيت، حتى استمالاَ قلوب الكثيرين من قبيلة كُتامة المغربية وغيرها، وظَلاّ هناك إلى أنْ مَاتَا[٢٤].

وبعد الدور الذي قام به الحَلْواني وأبو سفيان أصبحت بلاد المغرب الإسلامي مُهَيَّأة لتَقَبّل الداعية الجديد. عندها أرسل ابن حوشب[٢٥] أبا عبد الله الشّيعي وكَلّفه القيام بالدعوة للمذهب الإسماعيلي في تلك البلاد، قائلاً له: "إن أرضَ كُتَامةَ من المغرب قد حَرثها الحَلْواني وأبو سفيان، وقد مَاتَا وليس لها غيرك، فبادر فإنها مُوَطَّأة مُمَهدَة لك"[٢٦]. فَنَجَحَ أبو عبد الله الشيعي في دعوته نجاحً منقطع النظير، بما اجتمع إليه من علْم وفَهْم ودَهَاء ومَكْر، وبما استخدمه من ضرُوب الحيَل؛ التي منها السّحر والطّلاسم والرّقى والأحجبة (النّارنجيات) التي تُذْهلُ العُقُول وتُبْهرُ النفوس، فالتَفّ الناس حوله وعظم شأنه وأَتَتْهُ القبائل المغربية من كل حَدْب وصَوب[٢٧]، فَقَويَتْ شوكته، وانتهى أمره بإعلان قيام دولة الفاطميين الشيعية. وأبو عبد الله الشّيعي هذا يُعَدّ المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية في بلاد المغرب، وقد انقسم تاريخ دعوته التي قام بها هناك إلى مرحلتين: المرحلة الأولى كانت مجرد دعاية سلميّة ودعوة لجذب الأنصار استغرقت ثلاث سنوات (٢٨٨-٢٩١ه/٩٠٠-٩٠٣م). ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الثانية وهي جهاد حربي طويل انتهى بالاستيلاء على القيروان عاصمة الأغالبة وقيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م[٢٨].

وبإعلان أبي عبد الله الشّيعي الحرب في مرحلة دعوته الثانية وهي مرحلة تأسيس الدولة بقوة السّلاح، أصبحت وسائل الفاطميين لدعوة الناس إلى مَذهبهم في الأقاليم الخاضعة لهم تسير على خَطّين متوازيين مع بعضهما بعضً، أيّ وسائل سلميّة عن طريق الدعاية لمذهبهم والدعوة له بالترّغيب والتّحبيب، وفي الوقت نفسه من يرفضه ويجابهه وينفر منه ولا سيّما إذا كان من المالكية، فإنه يتعرض للترهيب والتنكيل والقتل. وهذه السياسة أَكّدَها عبيد الله المهدي بمجرد استلامه الحكم من الداعية أبي عبد الله الشيعي، حيث يُخبرنا ابن الأثير أنّ الخليفة الفاطمي كان قد "أمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخُطبة في البلاد، وتَلَقّبَ بالمهدي أمير المؤمنين. وجلس بعد الجمعة رَجلٌ يُعرف بالشّريف ومعه الدُّعَاة، وأحضروا الناس بالعنف والشّدّة ودَعوهم إلى مذهبهم، فمن أجاب

أحسن إليه، ومَن أَبَى حُبِسَ، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس -وهم قليلٌ- وقتل كثيرٌ ممّن لم يوافقهم على قولهم"[٢٩].

وعلى ضوء هذه السياسة -ذات الخَطّين المتوازيّين- التي اتّبعها الفاطميون لمحاولة نشر مذهبهم الشيعي بين سكان المغرب الإسلامي، سنتناول الوسائل والطرق التي اتّبعوها بالخُصُوص بين سكان ليبيا، وهي كما أسلفنا لم تكن في معزل عَمّا اتّبعه الفاطميون من وسائل لنشر مذهبهم في الأقاليم الأخرى، سواء لما كانوا في بلاد المغرب، أو بعدها عندما استولوا على مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وانتقلوا إليها واستقروا بها منذ سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م، ومنها وَسّعوا نشاط دعوتهم في بلدان المشرق الإسلامي، كسوريا والعراق واليمن وبلاد الحجاز وغيرها من البلاد.

١/١-وسائل وطُرُق سلْميّة

(١/١) ١-عن طريق الدّعوة والدّعاية

الدّعوة والدّعاية هي الطريقة الأولى التي استخدمها الفاطميّون لاستقطاب الناس لمذهبهم وذلك قبل أنْ تَشْتَدّ شوكتهم ويرهب جانبهم. وحسب الخطة التي وضعها الفاطميون في مشروعهم لَمَدّ سُلطانهم على جميع بلدان العالم الإسلامي كان جعل ليبيا منطقة شيعيّة خالصة أمراً حَيويّاً في هذا المشروع. لذلك استهدفت حملات الدعوة والدعاية الشيعية أقاليم ليبيا ومُدُنها في مرحلة السّتر قبل أن يُعْلنَ الفاطميين عن قيام دولتهم المغربية، ولا سيّما في إقليم طرابلس القريب جغرافيّاً من مواطن قُوَى الفاطميين في بلاد المغرب، بخلاف إقليم برقة الذي كان يخضع مباشرة لحكم العباسيين السُّنّة في مصر.

وإنّ سقوط طرابلس في يَد الفاطميين بمجرد سقوط الحكم الأغلبي في القيروان ورَقّادة ما هو إلا انعكاس لجُهد الدُّعَاة فيها، الذي أوجد مع الزمن عدداً من المتشيعين من أهلها -وإن كانوا قليلي النسبة- كان لهم دورٌ في السّقوط الأوّلي للمدينة من غير قتال. ومن المؤكد أنّ دُعَاة الفاطميين وشيعَتهم في طرابلس كانوا قد استخدموا فَنّ التّخذيل وبَثّ روح الهزيمة في المدينة، وهو ما يُعرف بالطابور الخامس في العصر الحديث، وهو من الوسائل التي كان الفاطميون يعتمدون عليها في مَدّ سلطانهم على المدن والأقاليم المختلفة[٣٠]. وهذا ما يُفَسرّ ما حصل في سرت وأجدابية وبرقة عند قُدُوم الجيش الفاطمي لها، حيث دخلها قائد جيوش الفاطميين حباسة بن يوسف بالأمان من غير قتال، بعد هروب الجند العباسي وانسحابه منها بشكل مريب يدعو للعجب[٣١].

وفيما يخص الدُّعَاة الفاطميون على أرض ليبيا لم تذكر لنا المصادر التاريخية سواء السُّنّيّة منها أو الشّيعية أسماء أشخاص بعينهم تَوَلّوا أمر الدعوة المباشرة فيها، وإنْ كنّا من خلال تتبعنا للسرد التاريخي وقراءتنا لمجريات الأحداث في تلك الفترة واستخدامنا للمنهج الاستنباطي، نجد أنّ ليبيا كان قد مَرّ بها واستوطنها عدد من كبار دُعَاة الفاطميين الذين كان لهم دورٌ رئيسٌ في الدعوة إلى قيام الدولة الفاطمية الشيعية وترسيخ مبادئها. كان من هؤلاء الدُّعَاة على سبيل المثال لا الحصر، أبو العباس المعروف بالْمَخْطُوم وهو أخو الداعية أبي عبد الله الشّيعي، وكذلك أبي جعفر الخَزَريّ (م: سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م)، اللّذان مَكَثَا فترة من الزّمن في طرابلس في انتظار انتهاء العمليات العسكرية التي كان يقوم بها أبي عبد الله الشّيعي للقضاء على دولة الأغالبة. ومن غير شَكّ أنّ هَذين الدّاعيَينّ كانا يقومان بعملهما في دعوة أهالي طرابلس -خفْيَة وتَقيّة- للمذهب الشيعي الإسماعيلي، حيث إنهما كانا يجتمعان في المسجد الجامع الذي بالمدينة، فيتناظران في العلم بحضرة أهل المسجد، ويُظْهرُ كل واحد منهما خلاف صاحبه والطّعن عليه بالبرَاءَة منه ويُكَفّرُه، وكل ذلك حتى لا يفتضح أمرهما، وعُيُون الأغالبة تترقبهما[٣٢].

وإلى جانب هّذَين الدّاعيّين وغيرهما من الدُّعَاة كان هناك عَدَدٌ من كبار قُضَاة الشّيعة الذين أرسلهم الخلفاء الفاطميون لأداء مهامهم القَضَائيّة في ليبيا، وهم في الأصل كانوا دُعَاةً في مواطنهم، منهم أفلح بن هارون الملوسي (م: ما بين سَنَتَي ٣٠٨هـ-٣١٠هـ/٩٢٠-٩٢٢م)، وهو أحد تلاميذ الداعية أبي عبد الله الشيعي وأكثرهم مَوهبةً، خلفه في منصب داعي الدُّعَاة بعد مقتله سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م[٣٣]، وكان قد أرسله الخليفة المهدي قاضيً على طرابلس إثر قيام الدولة الفاطمية، ولما انتقل المهدي للسكن في عاصمته الجديدة المهدية واستقرّت قدمه فيها كَلّفَهُ النظر في القضاء بالمهدية ورَقّادة وفي جميع ولايات الخلافة وأعمالها[٣٤]. أي أصبح قاضيَ قُضَاة الدولة كلها، ومنذ ذلك الوقت أصبح تقليداً لدى الدولة الفاطمية أنْ يتولى

قاضي القُضَاة منصب داعي الدُّعَاة في الوقت نفسه؛ صورة لتوحيد الظاهر والباطن أو الشريعة "الظاهرية" وتأويلها "الباطني" في شَخْص واحد، وذلك لما يَتَمَتّع به دَاعي الدُّعَاة من مَزَايا تُؤَهّله لشَغْل هذا المنصب المميز[٣٥].

وكان دَاعي الدُّعَاة الثالث في تاريخ الدولة الفاطمية - بعد الشّيعي والملوسي- هو القاضي النّعمان (ت: سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م)، صاحب المؤلفات المشهورة في تاريخ الدعوة الإسماعيلية والتعريف برجالها، وهو كَسَلَفه كان قاضيً بطرابلس ليبيا في بداية أمره، إلى أنْ ولاّه الخليفة المنصور الفاطمي (٣٣٤-٣٤١ هـ/٩٥٤-٩٥٢م) قاضيً للقُضَاة وداعيً للدُّعَاة بمُدُن المْنصوريّة والمْهديّة والقَيروان وسائر مُدُن إفريقية وأعمالها، وكتب له عهدً بذلك عُمّمَ في الأقاليم ونشر بين الناس[٣٦]. ويُعَدّ القاضي النّعمان هو مؤسس مدرسة الفقه الإسماعيلي الشّيعي، ويظل كتابه الرئيس "دعائم الإسلام"[٣٧]، المرجع الكلاسيكي لهذه المدرسة إلى يومنا هذا[٣٨]. لهذا استحقّ مكانته التاريخية كونه أشهر من تَوَلّ منصب قاضي القُضَاة ودَاعي الدُّعَاة في دولة الفاطميين الشيعة بأسرها.

ونختم حديثنا عن القُضَاة الدُّعَاة الذين مارسوا عملهم القَضَائي والدَّعَوي في طرابلس، بقَاض من أهل البلد هو محمد بن الحسن بن أبي الدبس الطرابلسي، الذي كان قاضيً على طرابلس إلى أن استدعاه الوزير الفاطمي يعقوب بن كلّس -(م: سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)- إلى مصر، وأمره بالنظر في الأحكام، وفَوّضَ إليه قضاء دمياط وبلبيس والفرما وغيرها[٣٩]. واستمر ابن أبي الدّبس في تكليفه الجديد إلى تُوُفّيَ سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م[٤٠].

ومن خلال شُخُوص كبار الدُّعَاة وأعلام القُضَاة الذين ذكرناهم، نستشف أنّ أمر الدعوة الشّيعيّة في ليبيا وتحديدً في إقليم طرابلس الغرب كان يمثل أهمية كبرى للفاطميين ويعد أمرً له شأنٌ بالنسبة لخلفائهم، وليس أَدَلّ على ذلك من إرسالهم لتلك الأسماء الرّنّانة والقامات العالية من رجالات الدعوة الشيعية الفاطمية إلى طرابلس، لمباشرة عملهم في القضاء والدّعوة في الوقت نفسه، وهم كأفراد يُعتبرون علامات بارزة لعبت دورها في توطيد الدولة الفاطمية وترسيخ مذهبها الشّيعي وتأصيله بين مُريديه.

ومن المؤكد أنّ دُعَاة الفاطميين في ليبيا كانوا يمارسون دعوتهم -كما هو معتاد- في المساجد الجامعة التي تقع في المدن الرئيسة المكتظة بالناس، دلالة على الهيمنة وفي الوقت نفسه لكي تصل دعواهم إلى أكبر عدد من الناس، ولا سيّما في أيام الجُمعَات التي تمتلئ فيها المساجد بالمُصَلّين على مختلف أعمارهم، فَيستغلون خُطَب الجمعة للدعاية للمذهب الشيعي والتّرويج له بين المُصَلّين في محاولة التأثير عليهم وإدماجهم فيه. ولا نَشُكّ في أنهم قد واجهوا في أثناء أداء وظيفتهم الدَّعَويّة حملات رفض واستهجان ومُنَابذة من قبَل أئمة هذه المساجد وفقهائها من المالكية[٤١]، وكذلك من رُوّادها من عامة الليبيين الذين كان معظمهم على المذهب المالكي -أو الإباضي بنسبة قليلة- الذين لم يستسيغوا هذا المذهب الدّخيل المخالف لعقائدهم وما تآلَفُوا عليه من مبادئ فقْهيّة وعبَادات. لذلك لا نستغرب حملة بناء المساجد التي أطلقها الفاطميون في المدن العامرة بليبيا ولا سيّما في الفترة الأولى من حكمهم، وهي مساجد خاصة للشيعة يستطيعون منها عقد مجالس الدّعوة الشيعية بحرية من غير تدخلات المالكية. وهي الفكرة نفسها التي طَبّقُوها بعد ذلك في مصر، فَبمُجَرّد حلولهم فيها شرَعُوا في بناء الجامع الأزهر سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م، ليكون مسجدً رسميً للدولة الفاطمية ورمزً لدعوتها المذهبية، تُقَام فيه شعائر المذهب الإسماعيلي الشّيعي[٤٢].

ومن أشهر المساجد التي أنشأها الفاطميون في ليبيا – خدمةً لدعوتهم الشّيعيّة- مسجد طرابلس الأعظم، الذي بَنَاهُ أو بالأحرى استكمله الخليل بن إسحاق الطرابلسي (م: سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م) ، ببناء مناره وتشطيبه في العام المُكَمّل للمائة الهجرية الثالثة (٣٠٠هـ/٩١٢م)، وهو جامع مُتّسَع على أعمدة مرتفعة، ومناره مُتّسع مرتفع قائم من الأرض على أعمدة، مستديرٌ إلى نصفه، والنصف الآخر العلوي سُداسي الأضلاع[٤٣]. وكذلك جامع النّاقة الشّهير، التي تُفيد الرواية الشعبية المتواترة لدى أهالي طرابلس أنّ الذي كان سببً في بنائه هو الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله، فعند رحيله من المغرب إلى مصر لاتخاذها مقرًّ لخلافته، كان قد نزل في طريقه بطرابلس ومكث بها للراحة[٤٤]، ومن جرّاء حَفَاوة الناس في استقباله واحتفالهم بقدومه أكرمهم بأنْ أعطاهم إحدى النّوق المُحَمّلة بالأموال والذهب -التي كانت تعج بها

قافلته- هَديّةً منه إلى الأهالي الذين أكرموا وفادته، فَبَنُوا بتلك الأموال هذا الجامع وسَمّوه جامع النّاقة[٤٥].

وإلى جانب هَذين المسجدين بطرابلس كان هناك مسجد مدينة أجدابية الذي بَنَاهُ الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله (٣٢٢-٣٣٤/٩٣٣-٩٤٥م)، وهو جامع حَسن البناء له صَومعة مُثمَّنة بديعة العمل[٤٦]، ويرجع تاريخ بنائه إلى الربع الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[٤٧]. وكذلك المسجد الأعظم بمدينة سرت القديمة (سلطان)[٤٨]، الذي اكْتُشفَتْ بقاياه بواسطة الحَفْريّات الأثريّة المتعددة التي أُجْريَتْ في المنطقة، والتي رَجّحَت أنّ تاريخ بنائه يعود للفترة العباسية المبكرة، وإنْ كان أُعيدَ بناؤه وتجديده والزيادة فيه خلال العصر الفاطمي، مما جعل آثاره تأخذ شكل البناء المتعارف عليه للمساجد الفاطمية، وتحديداً إلى عصر الخليفة المعز لدين الله، حيث عُثرَ خلال الحَفْريّات بموقع المسجد على قطعة نقود عليها اسم الخليفة المعز، مما أكد ترجيح فترة بنائه وتوسعته خلال الربع الثالث من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[٤٩].

ومن المؤكد أنّ مدينة برقة (المرج) -ذات الموقع الاستراتيجي بالنسبة للفاطميين- لم تكن تخلو من مساجد فاطمية هي الأخرى، ولا سيّما بعد العثور على جزأين من عمود رُخَاميّ يرجع إلى العصر الفاطمي في محراب مسجد الزاوية الذي يقع داخل أسوار المدينة القديمة، وذلك في أثناء تجديده عقب الزلزال الذي أصاب المدينة سنة ١٩٦٢م، ويحمل الجزآن شريطً من كتابة كوفية بارزة نُفّذَت بالخَطّ الكوفي المورق، جاء على أحدهما ذكر الخليفة المعز لدين الله **"مَولانا الإمام المعز خليفة الله"**[٥٠]. مما يدل على أنّ المسجد كان في وقت من الأوقات مسجداً فاطمياً، ولا سيما أنّ هذه الكتابات تتفق مع مثيلاتها في الجامع الأزهر في مرحلته الأولى التي ترجع إلى عصر الخليفة المعز لدين الله[٥١].

وعلى الرغم من إشارتنا في توطئة البحث إلى أنّ الفاطميين لم يهتموا كثيرً بمَدّ سيطرتهم على الجنوب اللّيبي، إلا أنهم يبدو في فترة من الفترات كانوا قد اهتموا بأمر الدعوة الشيعية فيه، ولا سيما في حاضرة إقليم فَزّان مدينة زويلة، حيث اكْتُشفَ فيها آثارٌ لمسجد أعظمَ أخذ شكل بقاياه نمط البنَاء الذي اشْتُهرَتْ به المساجد الفاطمية، ولا سيّما تلك التي كانت في بلاد المغرب؛ كالمسجد الأعظم في المهدية، وفي سوسة، وصفاقس، وكذلك التي في ليبيا؛ كمسجدي أجدابيا وسلطان بسرت[٥٢]. وقد دَلّت المكتشفات القليلة من الفخار المزجج الذي وُجدَت داخله وحول أركانه إلى أنّ فترة تشييده لا تَتَعَدّى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[٥٣]. ومما يؤكد اهتمام الفاطميين -المتأخر نسبيً- بمدينة زويلة، هو دينار الذهب الفاطمي الذي اكْتَشَفَتْهُ إحدى الْحَفْريّات الأثرية، والذي سُكَّ بها سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م، وبه اسم الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧ه/١٠٢٠-١٠٣٥م)، مع عبارات شيعية خاصة[٥٤]. فلا يكون اهتمامهم بالمدينة وازدهارها إلا باهتمامهم بما هو أهم وأسمى بالنسبة لهم وهو الجانب العقدي الديني.

وعلى ما يكون، فَممّا نلاحظه من عدد المساجد الجامعة التي أنشأها الفاطميون أو التي بَنوها وجَدّدُوها على أرض ليبيا، سواء تلك التي تعرفنا عليها أو الأخرى التي لم نتعرف عليها، ومن خلال توزيعها الجُغرافي الذي غَطّى أغلب حواضر أقاليم ليبيا ومُدنها الرئيسة ذات الفعالية من حيث الموقع والتعداد والنشاط، فإنّنا نُدرك مدى الرغبة التي كانت لدى الفاطميين في نشر مذهبهم من خلال استخدام تلك المساجد في الدعوة والدعاية الشيعية بين أهالي ليبيا، في محاولة منهم لجعل البلاد وسكانها تُدينُ بالمذهب الشّيعي الإسماعيلي.

(١/١) ٢-عن طريق احتفال الدولة بالمواسم والأعياد الدينية وإحياء المناسبات الاجتماعية

كان الاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية والمناسبات الاجتماعية من الوسائل السّلْميّة التي استخدمها الفاطميون للدعاية لمذهبهم وتسهيل دعوة الناس له، وقد استخدم الفاطميون هذه الطريقة في الدعوة منذ أن كانوا في بلاد المغرب، ولما انتقلوا إلى مصر زاد اهتمامهم بها بشكل كبير لم يؤلف من قبل ولا من بعد، فالدولة الفاطمية كانت دولة دينية ذات عقائد مذهبية متطرفة، فكانت الحفلات بالنسبة للفاطميين مناسبة لتأكيد عقيدتهم؛ حيث كان معظمها يقام عادةً في الأعياد الدينية الخاصة بالفاطميين. وقد عرف الفاطميون كيف يصبغون الأعياد بصبْغَة إسلامية مَذهبية، وأكثروا منها وبالغوا في إحيائها، فكانت سمَة من السّمَات البارزة للمجتمعات التي

حكموها ولا سيّما المجتمع المصري، مكان إقامة الخليفة الفاطمي.

وكانت هذه الأعياد والاحتفالات تجري حسب رسوم مخصوصة -يشارك فيها الخليفة بنفسه والوزير ورجال الدولة- لم يكن لها مَثيلٌ في التّقاليد العربية أو الإسلامية من قبل. ويُعْتَقد أنّ بعض هذه الرُّسُوم كانت مُسْتَقاة عن بعض الحضارات الأجنبيَّة، القديمة منها كالدولة الفارسية والمعاصرة للفاطميين كالدولة البيزنطية. وإنْ كان من المؤكد أنّ الدولة الفاطمية -لو ثَبُتَ فعلاً أنها استقتها- كانت قد أضافت إليها الكثير لتَتَمَاشىَ مع أوضاعها الماديّة الثّريّة، وكذلك عقائدها المذهبية. فقد عَرَفَ الفاطميّون كيف يَثْرون أعيادهم بأقصى مظاهر الرّوعة والفخامة والأُبّهَة، ممّا جعلها تمتاز بطابع جديد غير مألوف من قبل(٥٥).

وهم في ذلك كانوا يهدفون إلى غايتين اثنتين: الأولى: أنْ يَبثّوا هيبتهم الدينية بما يَسبغونه من الخُطُورة والخُشُوع على بعض المظاهر والرّسوم فيها. والثانية: أنْ يَغمروا رعيتهم -من خلالها- بسَيل من الحفلات والمآدب والمواكب الباهرة، وأنْ يأسروهم بمظاهر جودهم الوافر، وأنْ يَنثروا عليهم ما استطاعوا من آيات البَهجة والمَرح والحُبُور. كل ذلك لكي يكسبوا ولاءهم وعرفانهم وتأييدهم، ولا سيّما أنهم كانوا يشعرون دائمً أنهم لم يكسبوا كل ولائهم وتقديرهم(٥٦)، مما قد يكون عثرة في مخطط دعوتهم.

وبطبيعة الحال شمل هذا الأسلوب من الدعوة الشيعية والدعاية لها الأقاليم والمدن الليبية، وهي التي كانت تمثل دائمً المعادلة الجغرافية الصعبة التي تربط بين قُطبَي الحكم الفاطمي في المغرب ومصر. ومن غير الخوض في ذكر الأعياد الكثيرة التي استنها الفاطميون والحديث عَمّا كان يجري فيها من رسوم وطقوس واحتفالات وهي غَنيّة بالتفاصيل والسرد، فَنَخْتَزل الحديث عنها بالحديث المختصر عن عيد واحد -هو عيد الفطر المبارك- مثال لكيفية توظيف الفاطميين الاحتفال به في فرض هَيبتهم على الناس وفي الوقت نفسه تبيان لمظاهر كرمهم وجودهم عليهم، ومن ثَمَّ نَقيسُ على ما كان يجري فيه من مراسم وطقوس واحتفالات ونتصورها -بشكل أقل أو أكثر- على الأعياد الأخرى وهي كثيرة ومتعددة التصنيفات(٥٧).

ونرجع لعيد الفطر الذي جعل منه الفاطميّون في مصر احتفالاً رسميً تُقيمه الدّولة وتُنْفقُ عليه، وكان لهم فيه العديد من الطُّقُوس وضرُوب الخير(٥٨)، كَرُكُوب الخليفة لصلاة العيد بهيأته في المواكب العظَام من الْمظلّة والتّاج وغير ذلك من الآلات، ويكون لباسه فيه الثّياب البيض الْمُوَشّحة. وكذلك تفرقة الفطرة، وتوزيع الكُسْوات (الحُلَل) على الوزراء والأمراء وسائر رجالات الدولة ومُوَظّفيها على اختلاف مراتبهم، لذلك أطلقوا على عيد الفطر "عيد الحُلَل"، لأنّ الحُلَل كانت تَعُمُّ فيه جميع رجال الدولة دون استثناء، بما فيهم أولادهم وزوجاتهم، في حين كان في غيره من الأعياد للأعيان خاصة(٥٩). كما كان يُعْمَل في أول يوم العيد سمَاطَان(٦٠) كبيران، الأول مُعَبأ بأنواع الحلويات المختلفة والآخر بأصناف الأطعمة ولا سيّما من مَشَاوي( )الطُّيُور والدّجاج والخرْفَان(٦١). وبلغ اهتمام الفاطميّين بصلاة العيد أنْ أفردوا لها بابً خَاصً من القصر الكبير الشرّقي الذي كان يُقيم فيه الخليفة الفاطمي، يُسَمّى "باب العيد"، يخرج منه الخليفة إلى الْمُصَلىّ، للصلاة بالناس(٦٢).

وبطبيعة الحال أَلْقَى أسلوب الدّعوة عن طريق احتفال الفاطميّين بالأعياد في مصر بظلاله على الأقاليم التابعة لهم، فكانت تأخذ مُنْحَنَى مُشَابهً لها في طريقة الاحتفال الرسمي، وفي ليبيا كغيرها من البلدان الخاضعة للفاطميين كان يُسْتَعدّ للاحتفال بعيد الفطر منذ آخر يوم من شهر رمضان، وهو يومٌ معلومٌ في جميع الأقاليم التابعة للفاطميين، حيث كان الفاطميّون لا يعتمدون على الهلال في تحديد نهاية شهر رمضان وأول العيد، بل كان شهر رمضان عندهم ثلاثين يوما بالتَّمَام منذ بدايته(٦٣). فإذا ما أصبح يوم العيد يبدأ الاحتفال الرسمي بخروج مَوكب عامل الإقليم -سواء في طرابلس أو برقة- بالطُّبُول والبُنُود وهيأة العيد، في طريقه لإقامة الصّلاة في أجواء مَهيبة تعكس شخصية الدولة في نظر رَعيّتهَا. ومن رُسُوم الاحتفال أنْ يقوم قاضي الإقليم بالخُطْبَة ثم الصّلاة ومن خلفه عامل الإقليم ورجال الدولة وعامة الناس(٦٤). ومن غير شَكّ يكون بعدها تجهيز أسمطة الطعام لعامل الإقليم والقاضي وكبار رجال الدولة، ثم تفريق الفطرة وتوزيع الحُلَل اقتداءً بما كان يُعْمَل بالقاهرة مقر الخلافة الفاطمية.

وإلى جانب عيد الفطر نعرج على مناسبة أخرى جعل منها الفاطميون موسمً خصبً يسهل من خلالها التأثير على الناس والتمكن من استقطابهم للدعوة الشيعية، وهذه المناسبة هي ختَان الأطفال (الطّهور)، الذي استنّ فيه الفاطميون لما كانوا ببلاد المغرب -بما فيها طرابلس وبرقة- سُنّة جديدة في الاحتفال لم يسبقهم إليها أحد، تميزوا بها وكانت صبْغَة من صبْغَاتهم على الحياة الاجتماعية في بلاد المغرب ومن ضمنها ليبيا. وذلك أنهم جعلوا منه مناسبة جماعية واحتفالً شعبيً عامً، تَغْلُبُ عليه سمَات الأعياد وما يحفل فيها من كرم الدولة وفخامتها. حيث كان الخليفة الفاطمي لا يُحَبّذ أنْ يَخْتن أبناءه لوحدهم، فكان يستغل هذه المناسبة ويجعل منها حفل ختَان جماعيًّ تشهده البلاد كلها، يُختن خلالها الكثير من أبناء الرّعيّة، فَتَكُون مناسبةً مشهودة بالخير تُوَزّع فيها الهدايا والكُسْوَات والهبَات من الأموال(٦٥).

ومما جاء في هذا الصّدَد أنّه في سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م خَتَنَ الخليفة المنصور بنصر الله أبناءه، فَخَتَن معهم ألف صَبي من أبناء أهل القيروان، وقام بكسوتهم وأعطاهم ما يَنفقون(٦٦). كما أمر أنْ يُكْتَب له أسماء أولاد القادة ووجوه الدولة من قبيلة كُتامة وغيرهم، وأبناء الجند وعامة الناس ليختنوا في هذه المناسبة، فكانوا أكثر من عشرة آلاف. فابتُديءَ في ختَانهم، وعُملت الولائم لأجل هذه المناسبة لعامة الناس وخاصتها، ووُزّعت الكُسْوات والأموال على الصّبْيان بقدر مَراتبهم، فكان يُخْتَنُ في كل يوم ما بين خمسمائة إلى ألف وثلاثمائة صبي، واسْتَمَرّ الحال على ذلك لُمدّة سبعة عشر يومً، شُوهدَ فيها من الإنفاق واللّهو ما لم يُرَ مثله(٦٧).

وقد فاق الخليفة المعز لدين الله والده المنصور في الاحتفال بالختَان كونه مناسبة سعيدة جَمَاعيّة، تَعمّ فيها الفرحة جميع طبقات الشّعب وفئاته، في جميع الأقاليم الخاضعة للفاطميين، تُحْيِيهَا الدولة وتتكفل بمصاريفها. ففي سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م، عندما عزم المعز على خَتْن أولاده عبد الله ونزار وعقيل كتب إلى سائر عُمّاله ووُلَاته بالمغرب من برقة وأعمالها إلى أقاصي سجلْمَاسة وحدودها وما بين ذلك، وما حوته مملكته إلى جزيرة صقلية وما والاها، بطُهُور من وجد من أولاد سائر الخلق غير مُطَهّر، حُرّهم وعَبدهم، وأبيضهم وأسْوَدهم، ودَنيّهم وشريفهم، وملّيهم وذمّيهم، الذين حوتهم المملكة لُمدّة شهر واحد. كما أمرهم بالقيام بجميع نفقاتهم وكُسْوَتهم، وما يُصْلحُ أحوالهم من مَطْعَم ومَشْرُب ومَلْبَس وطيْب وغيره على حسب رُتَبهم وأحوالهم. فكان من جملة ما أُنْفقَ في ذلك مما حُملَ إلى جزيرة صقلية وحدها من المال -سوَى الخلَع والثّيَاب- خمسون حمْلً من الدّنانير في كل حمْل عشرة آلاف درهم، ومثل ذلك إلى كل عامل من عُمّال الدّولة ليُفَرّق على أهلها(٦٨).

وقد وَصَفَ القاضي النُّعْمَان طريقة الاحتفال بهذا الْختَان الجَمَاعي كما شاهده بنفسه في حاضرة الدولة الفاطمية بالمغرب، فَذَكَرَ أنّه لأجل هذه المناسبة نُصّبَتْ سرُادقات (خيَام) ضخمة بساحة القصر الخلافي، وكان الخليفة المعز يجلس داخلها لحُضُور مراسم الختَان، فَيَدْخُل الصّبيان الُمرَاد خَتنهم ومعهم من يشاؤون من آبائهم وأُمّهَاتهم وخدمهم وعبيدهم، ومن أرادوا أنْ يُطَهّروه من عبيدهم. ويكون الخَتّانون جالسين على كراسي وأمامهم قَومٌ يُمْسكُون الصّبيان في حجورهم حتّى ختَانهم، ومعهم مَسَاحيق (الذّرَارات) التي تُنْثَر على مكان الختن لمنع نزول الدّم. كما يَرُشّون على رؤوس الصّبيان ووجوههم ماء الورد ليفيقوا مما اعتراهم من الألم والرّوْع. وكان أصحاب الملَاهي والألعاب الُمضْحكَة يُلْهُونهم في أثناء عملية الختَان حتى يصرفوهم عن الألم والبُكَاء. وكان الصّبيان بعد ختَانهم يمرّون من أمام الخليفة لمنحهم الكُسْوَات والهبَات المالية -التي تختلف مقاديرها باختلاف مراتب الناس- ثم يُزَفّون إلى بيوتهم بصحبة بعض أصحاب الملاهي(٦٩).

وقد استمرت احتفالات الخَتن هذه لُمدّة شهر، كان يُخْتَنُ في كل يوم منها ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف صَبي، وتصل إلى اثني عشر ألف صَبي أحيانً. وقد جَرَى على ذلك جميع أهالي البلدان والأقاليم التي تتبع الخلافة الفاطمية بما فيها ليبيا. أنفقت الدولة خلالها ما لا يُحْصيه إلاّ من وقف عليه. ونَستعير لسَان القاضي النّعْمَان في وصفه الأجواء الاجتماعية التي خَلّفَتْهَا احتفالات الختَان هذه، بقوله: "وكانت أيّام هذا الشّهر أيّام أعياد ومَسرّات وأفراح وهبَات بكل وجه وجهة من مملكة أمير المؤمنين، من بَدو وحَضرَ، وعَمَّهُم فضله، وتَبَيّنَ عليهم أثره، وارتفق به أغنياؤهم، وانتعش له فُقَرَاؤهم، ودخلت الُمسرّة على

أهل كل بَيت منهم. وكان أثرٌ جميلٌ لم يَسْبقه إليه أحد قبله، ولا أظن أنّ أحدً يَتّسع له مثله. والحمد لله على ما أَوْلَى وَلِيَّهُ وأنعم به عليه"[٧٠].

ودعونا نَقف قليلً عند نَصّ القاضي النّعْمَان هذا، ولا سيّما تلك الجملة التي توضح انطباع الناس على بادرة الخليفة المعز وكرمه في هذا الختَان، وهي: "... وعَمَّهُم فضله، وتَبَيّنَ عليهم أثره ...". فإذا تَمَحّصْنَا فيها عرفنا المْغْزَى الذي هدف إليه المعز من وراء تلك الاحتفالات التي كَلّفَت الخزينة الفاطمية أموالً باهظة كانت مَحَلّ جَزَع وإشفاق القاضي النّعْمَان[٧١]. فلا شَكّ في أنّ مَرَامي المعز من ذلك العيد كانت أبعد من المظاهر الاحتفالية التي صاحبته، بل هدف به إلى اكتساب قُلُوب رَعيّته وشَدّها إليه، فالناس بطبيعة حالها تهفو قُلُوبها دائمً إلى من يَحنُّ عليها ويسأل عنها ويُشْبِعُ بُطُونها، وهذا ما عمل عليه المعز في ذلك الاحتفال، فَنَتَائجه الاجتماعية تكون مساندة لدولته وتأييدً لسياسته التّوسعية ونشر المذهب الشّيعي. ويبدو أنّ المعز قد نجح في كسب رضا رعيته من خلال هذه المبادرة ويتضح ذلك من خلال نَصّ آخر أورده النّعْمَان يَصفُ فيه حال الناس بعد الختَان الجَمَاعي، بقوله: "... ذكروا ما كان من فضل أمير المؤمنين على عامة الناس، وما انتشر من الثّنَاء عليه في ذلك والدُّعَاء له على أَلْسُن العامة والمخالفين والمؤالفين"[٧٢].

٢/١-وسائل وطُرُق تَعَسّفيّة

سبق أن ذكرنا أنّ وسائل الفاطميين لدعوة الناس إلى مذهبهم في الأقاليم الخاضعة لهم أخذت تسير على خَطّين متوازيين مع بعضهما بعضً، وسائل سلميّة عن طريق الدعاية والدعوة بالترغيب والتحبيب، ووسائل تعسفية بالتّرهيب والتّنكيل وتصل إلى القتل أيضً لمن رفض الدخول في مذهبهم ولم يَذعن لبدَع الشيعة وتطرفهم.

ومن خلال تتبعننا لتاريخ الدولة الفاطمية نجد أنّ معظم الأقاليم والبلدان التي خضعت للفاطميين لم يسلم أهلها -ولا سيّما علماؤها وفقهاؤها- من هذه السياسة بما في ذلك ليبيا، التي تعرض مالكيتها لما تعرض له غيرهم من تَعَسّف، حيث يُخبرنا التّجاني (ت: بعد سنة ٧١٧ه/١٣١٧م) -في رحلته التي نزل فيها بطرابلس، وفي أثناء سرده لبعض تاريخ المدينة وترجمته لأشهر علمائها- أنّ الفاطميين كانوا يقتلون كل من لم يمتثل لبدَعهم وضَلالاتهم، منها أنهم قتلوا بشرً كثيرين لم يلتزموا بصيغة أذان الصلاة التي فرضوها عليهم، وهي زيادة جملة: "حَيّ على خير العمل". فمن أسقطها من أذانه من أهل البلد سواء تَعَمُّدً أو نسيانً تَعَرّض للقتل[٧٣]. وكذلك صلاة الضُّحَى التي منعها الفاطميون، وكان الناس يُصلّونها في مُدّة حكمهم خفْيَةً، فمن علموا به يُصلّيها جَهَارَةً قَتَلوه. وقد حَكَى لنا التّجاني في ذلك قصة مَفَادُهَا: أنّ أحد عُمّال الفاطميين كان قد مَرّ برجل على شاطئ البحر يُصَلّي وقت الضُّحَى، فسأله عن صلاته، فذكر أنه كان جُنُبً فَلَمّا مَرّ بالبحر نزل واغتسل وقَضَى صلاة الصبح، فلم يقبل ذلك منه وأمر به فَأُلْقيَ في البحر إلى أنْ مات[٧٤].

وبطبيعة الحال كان أكثر من تعرض -من أهالي ليبيا- لتَعَسّف الفاطميين في الدعوة لمذهبهم هم علماء المالكية وفُقَهائها وقُضَاتها، فهم رُعَاةٌ لغيرهم وقُدْوَةٌ لعامة الناس في البلاد، فإنْ حدث وانصاعوا للفاطميين فإنهم يكونون بذلك مفتاحً لقلوب الناس لإدخالهم في التَّشَيّع. لذلك كان تركيز الفاطميين عليهم كبيرً، فكانوا هم في مقدمة من تَعرّضوا لوسائلهم التّعَسّفيّة، حيث كانوا في ضَنْك ومُعَاناة إزَاء ما يُفْرَضُ من رسوم شيعية في البلاد ولا يستطيعون منعها، ومن جَهر منهم بالرفض أو المنابذة تَعَرّض للإهانة والتّعذيب وتصل إلى القتل أيضً. ومن الذين تعرضوا لذلك على سبيل المثال لا الحصر أبو العبّاس بن بطريقة (ت: سنة ٣٠٣ه/٩١٥م) قاضي طرابلس في زمن الخليفة المهدي، وكان من الفُقَهاء العُلَماء الرّافضين للشيعة، وقد تَعَرّض للضرب والإهانة بأمر من قاضي إفريقية المُتَشَيّع محمد بن عمر المروذي[٧٥].

كذلك أبو عبد الله محمد بن إسحاق الجبلي قاضي برقة، الذي رفض أمر ابن كافي والي برقة الشّيعي بإعلان عيد الفطر والصّلاة في غير ميقاته، حيث قال له: "لا أَخْرُج ولا أُصَلّ ولا أَفْطُر في يوم من أيام رمضان ولو عُلّقْتُ بيَدي". فأرسله العامل إلى الخليفة الفاطمي بالقيروان، الذي قال له: "إمّا أن تَتّصل بنَا ونَعفو عنك أو نفعل بك ما قُلْت". فامتنع في الدخول في دعوته وقال له: "افعل ما شئت". فَنَصَبَ له صَاريً، وعُلّقَ من يده في الشّمس حتى مات من العطش رحمة الله عليه سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م[٧٦].

بالإضافة إلى القاضي الأجل الصالح مالك بن سعيد بن مالك القرافي، الذي كان قاضيً على طرابلس، ثم ولاه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بمصر سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، وفي الخامس من ذي القعدة من سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م انتزعت منه المظالم، وقد أمره الحاكم أن يكتب سب الصحابة (ﷺ) على أبواب المساجد، فلم يكتب على المساجد إلاّ قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[٧٧]. فأمر الحاكم بضرب عنقه، فَضرُبَت في شهر ربيع الآخر من سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م، وكان -رحمة الله عليه- محمودً في ولايته عَفيفً عن أموال الناس لا يخاف في الله لَوْمَة لائم[٧٨].

وإزاء سياسة التّنكيل هذه نجد بعض قُضَاة المالكية وفُقَهائها وعُلَمائها في ليبيا لم يجدوا لهم مَلْجَأ إلا بالهجرة منها والسفر إلى مواطن أخرى يبدؤون فيها حياةً جديدةً هربً من ظلم الفاطميين، وكان من أشهرهم أبو جعفر أحمد بن نصر الدّاودي الأسدي، وهو من أئمة المالكية بالمغرب، كان بطرابلس الغرب وبها أَصّلَ كتابه في شرح المُوَطّأ، وكان فقيهً متقنً مؤلفً مَجيدً، له حَظٌّ من اللّسان والحديث والنّظر، وله عدة مؤلفات أخرى منها النّامي في شرح المُوَطّأ، والواعي في الفقه، والنّصيحة في شرح البخاري، والإيضاح في الرد على القدرية، وغير ذلك[٧٩]. وقد انتقل الداودي من طرابلس إلى تلمْسَان واستقر بها إلى أن تُوُفِّيّ سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م، وكان -رحمه الله- دائمً ما يُنْكِرُ على مُعَاصريه من علماء القيروان سُكْنَاهم في مملكة بَني عُبَيد وبقاءهم بين أظهرهم، وكان يكاتبهم بالخروج والهجرة من مواطنهم التي تخضع لسَيطرة الفاطميين[٨٠].

لذلك لا نستغرب هجرة الكثير من العلماء المالكية في ليبيا في زمن حكم الفاطميين إلى مصر وبلاد المغرب وصقلية والأندلس وغيرها من البلاد الإسلامية، فانقطعت صلتهم بموطنهم الأصلي وإن ظَلّ أغلبهم يحتفظُ بنسبته القديمة إلى مدينته أو إقليمه، فَنَجدُ ألقاب الطّرابلسي والبرَقي والبرَنيقي والزّويلي والسرّتي والأجدابي منتشرة في الأقطار الإسلامية، وإن كان -والحق يقال- ليس كلهم هاجروا هربً من الفاطميين، فبعضهم رحل طلبً للعلم أو التجارة أو الشهرة أو غيرها من الأمور التي يسعى إليها بَني البشر.

والذين بَقوا في ليبيا من علماء المالكية وفقهائها كانوا مغلوبين على أمرهم لا حول لهم ولا قوة أمام تَعَسّف الفاطميين وبطشهم، وإنْ ظَلّوا على ثباتهم، فلم يُفَرّطوا في عقيدتهم وفي الوقت نفسه مستترين بمذهبهم، حيث لم يعد في إمكانهم الوفاء بواجباتهم الدينية في المساجد الجامعة التي هَيْمَنَ عليها الفاطميون، وأصبحت الجمعة تُصَلّى فيها على ضلالات الشيعة وبدَعهم. ومع ثبات نفوسهم على المالكية جيل بعد جيل ظَلّوا ينتظرون الوقت المناسب للجَهر بمذهبهم ومقارعة المذهب الشيعي ونبذه من حياتهم، وهذا ما بَرهنت عليه الأحداث في السّنين التالية.

ثانيًا: أوضاع مالكية ليبيا ورُدُود فعلهم تجاه السياسة الفاطمية الشّيعيّة

بعد أنْ أكملنا الحديث عن الوسائل التي اتّبعها الفاطميون والطرق التي استخدموها لنشر مذهبهم الشيعي وفرضه على الناس، لا ننكر أنّ الدعوة الشيعية والدعاية لها في ليبيا قد لاقت بعض الآذان المُصغية والقلوب المفتوحة، ولا سيما أنها تزامنت مع سيطرة سياسية وعسكرية كاملة للفاطميين، مما جعل لها مناصرين اعتنقوا المذهب الشيعي إمّا قَناعةً أو تملقً أو استفادة من النظام القائم. لهذا نسمع عن بعض المتشيعين من أهل البلد الذين خدموا القضية الفاطمية، من أمثال محمد بن سلاَّم بن سيار البرُقيّ الهمدانيّ، المتوفى سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م، الذي كان متفقهً على مذهب الشيعة[٨١]. وكذلك محمد بن الحسن بن أبي الدبس الطرابلسي، الذي كان قاضيً للشيعة على طرابلس قبل أن يُوَلّوه القضاء على دمياط وبلبيس والفرما وغيرها[٨٢]. وأيضً الخليل بن إسحاق الطرابلسي، الذي انحاز للفاطميين ضد أهل بلده (طرابلس)، وكان هو المُتوليّ تغريمهم وتعذيبهم في ثورتهم التي قُمعَتْ سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م[٨٣].

وهذه العَيّنة من المتشيعين الذين انضموا للفاطميين من أهل ليبيا لا يمثلون الغالبية الرافضة لهم، التي جَسّدَتها الثورات التي قامت ضدهم في الفترات الأولى من حكمهم للبلاد والتي أشرنا إليها في توطئة البحث، أو الثورات التالية في أواخر حكمهم التي سنعرج عليها في الصفحات القادمة، لذلك يمكننا القول إنّ كل ما حَصل عليه الفاطميون في ليبيا طيلة فترة حكمهم -سواء المباشر

أو غير المباشر- هو الإخضاع السياسي فقط، أما من حيث العقيدة والمذهب فلم يظفروا بشيء لدى الأغلبية، حيث إنّ أهل السنة في ليبيا بما فيهم المالكية كانوا قد عانوا ما عانوه هم وأهل المغرب كافّة من الفاطميين بما فرضوه عليهم من رسوم شيعيّة، ولا سيّما في المبادئ الفقهية وبجانب العبادات خاصة، ومطالبتهم بتطبيقها عملياً والتّنْكيل وقتل كل من يخالفها، مثل قطع صلاة التّراويح في شهر رمضان والأمر بصيام يومين قبله، وإسقاط عبارة: "الصّلاة خير من النّوم" في أذان صلاة الصبح، وزيادة عبارة: "حَيّ على خير العمل ومحمد وعلي خير البشر"[٨٤]. والجَهْر بالبَسْمَلة في الصّلاة، وزيادة القُنُوت في صلاة الجمعة في الرّكعة الثانية، وإبطال صلاة الضُّحَى، وزيادة تكبيرة خامسة في صلاة الجنازة، وتأخير الصّلَوات عن أوقاتها، إلى آخرها من بدَع الشّيعة وضلالاتهم التي يطول الحديث عنها[٨٥].

وأمام القَبضة العَسكريّة المُحْكَمَة للفاطميين على البلاد وقَسوتهم في التعامل مع المخالفين لهم في المذهب، كانت سُبُل مقاومة المالكية للدعوة الشيعية بطريقة عَلَنيّة شبه مُعْدَمَة، لذلك لجأوا إلى مقاومة من نوع آخر -كانوا قد استخدموها- تأمن لهم على أنفسهم من تنكيل الفاطميين وفي الوقت نفسه تُعَبّر عن رفضهم للمذهب الشيعي. وهذه المقاومة جاءت على شكل مقاطعة المساجد الفاطمية ولا سيّما في أيام الجُمُعَات، حيث إنّ المذهب الشيعي الرسمي كان يَتَجَلّ بقوة من خلال الأذان وخُطُب الجمعة[٨٦]، بالإضافة إلى دُرُوس الدّعاة للمذهب الشيعي. لذلك كان الكثير من المالكية يرفضون حُضُور الجمعة لعدم سماع الخطيب وهو يدعو للخليفة الفاطمي[٨٧]، فكان بعضهم إذا بلغ إلى المسجد قال سرًا: "اللّهُمّ اشْهَد! اللّهُمّ اشْهَد!". ثم ينصرف فَيُصَلّي الظهر أربعاً[٨٨]. وقد عَدّ الكثير من علماء المالكية الخُطَبَاء الذين يدعون للفاطميين خارجين عن السنة[٨٩]. ومن مالكية ليبيا الذين أدانوا بشدة الخُطَبَاء الذين كانوا يخطبون في الجوامع في زمن الشيعة أبو جعفر أحمد بن نصر الدّاودي سالف الذكر، الذي أفْتَى بعدم صحّة صلاة الجمعة إذا كانت الخُطبة تتضمن الدعوة للفاطميين[٩٠].

وهكذا بفضل جُهُود علماء المالكية وفُقَهائها وغيرها من الأسباب ظَلّ المذهب المالكي ثابتاً في نفوس أهالي ليبيا، حاضراً في حياتهم الاجتماعية، متواتراً في أسلافهم جيلاً بعد جيل، وكانوا في انتظار الوقت المناسب التي تسمح به الظروف السياسية للمجاهرة بمذهبهم قولاً وفعلاً وتطبيقاً، وإعلان رفضهم للمذهب الشيعي واجتثاثه من حياتهم نهائياً. وقد تَسَهّلَت الظروف للمالكية تدريجياً بعد رحيل الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦١هـ/٩٧١م، وتولية بني زيري الصنهاجيين وُلاَةً عنهم في بلاد المغرب. فالزيريّون كانوا مدفوعين -بحكم الطاعة والتبعية للخلافة الفاطمية- بالدّعوة على المنابر للخلفاء الفاطميين الذين في مصر بالنّمَط نفسه الذي سارت عليه الخلافة الفاطمية إبّان وجودها في بلاد المغرب. وفي عصر بُلُكّين بن زيري (٣٦١-٣٧٣هـ/ ٩٧١-٩٨٣م) أول أُمَراء بني زيري الذي تَوَلّى حكم إفريقية بعد رحيل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي مباشرة، كان قد حرص على الاستمرار في الدعوة للمذهب الشّيعي، وعلى تهيئة المناخ الصالح لنَشر المذهب الشّيعي بين الناس، وقد اسْتَمَرّ هذا الحرص في عُصُور خلفائه الذين تَوَلّوا من بعده وإنْ كان على درجات متفاوتة[٩١].

بيد أنّ الشيء المؤكد هو أنّ عصر الزّيريّين تَميّز بالفُتُور في الولاء للمذهب الشّيعي، الذي بدأ تدريجياً إلى أنْ انتهى الأمر إلى المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٣هـ/ ١٠١٥-١٠٦١م)، الذي يُخبرنا عنه المؤرخون بأنه نشأ نشأة أهل السّنّة والجماعة على مذهب مالك والشيعة لا يعلمون بذلك، فكان أنْ حصلت مذبحة الشيعة في عصره، التي عُرفَت بـ "وقعة المشارقة"[٩٢]. وفيها انتفض أهالي القيروان وعامة الناس وقتلوا كل من يعتنق المذهب الشّيعي في المدينة، ووضعوا السّيفَ فيهم، فقتلوا منهم ما يزيد على الثلاثة آلاف نفر، لدرجة أن سُمّيَ المكان الذي قُتلوا فيه بـ"بركة الدّم"[٩٣]. وكان السّبب في تلك المذبحة حسب ما رَوَى ابن عذاري أنّ المعز بن باديس كان قد خرج في بعض الأعياد إلى المُصَلّ في زينته وحُشُوده، وهو غلام، فَكَبَا به فرسه، فقال عند ذلك على حسب تربيته السُّنّيّة: "أبو بكر وعمر"، وكأنه يستنجد بهما، فَسَمَعَهُ الرجال الشّيعة الذين كانوا في عسكره، فهاجموه محاولين قتله، ولكن تَصَدّى لهم عبيده ورجاله ومن كان يكتم

السُّنَّة من أهل القيروان ووضعوا السّيف في الشّيعة، ومنها بدأت المذبحة التي انتشرت في جميع نواحي إفريقية(٩٤). وقد انتشرت عدوى قتل العامة للشيعة بعد هذه الحادثة، وخرجت من القيروان إلى المهدية وسائر البلاد، فَقُتِلُوا حيث وُجِدُوا وأُحْرِقُوا بالنّار فلم يُترك أحدٌ منهم بمُدُن إفريقية إلاّ من هرب واختفى(٩٥).

فكانت تلك الوقعة فرصة سانحة لمالكية ليبيا لمجابهة أعمدة المذهب الشيعي ورجالاته في البلاد، وكانت طرابلس من المُدُن التي وصلت إليها موجة القتل، وكان الذي تَوَلَّ أمر قيادة الأهالي فيها وقتلهم للشيعة الفقيه والعالم الطرابلسي أبا الحسن علي بن المُنَمّر(م: سنة ٤٣٢ه/١٠٤٠م) ، الذي يُعَدّ أول من أظهر السُّنَّة في طرابلس جَرّاء هذه الحادثة، وقطع من الأذان "حَيّ على خَير العمل"، وأذّن في ذلك اليوم أذان أهل السُّنَّة بنفسه، كما كان أول من أقام للناس بطرابلس صلاة القيام، وكان رسم هذه الصلاة قد انْمَحَى من إفريقية في عصر الفاطميين كما أسلفنا الذكر، فَكان الشيخ ابن المُنَمّر أول من أحيا بطرابلس رسمها، وقَدّمَ لها أبو مسلم مؤمن بن فرج الهواري الطّرابلسي (ت: سنة ٤٤٢ه/١٠٥٠م)، فَصَلاّها في الجامع الأعظم ولم تكن قبل ذلك قد صُلّيَت فيه لأنه من تشييد الفاطميين كما تقدم. وأيضاً ابن المُنَمّر هو أول من أطلق للناس صلاة الضُّحَى جَهَاراً ولم يكن أحد في زمن الفاطميين يُصَلّيها إلاّ خفْيَةً خوفاً من القتل(٩٦).

وهكذا كان لابن المُنَمّر الدور الأكبر في مقاومة المذهب الشيعي في عصره، مُتَولِّياً قيادة الثورة الشعبية لأهالي طرابلس ضد الفاطميين التي احتَلّ فيها الحرص على العقيدة المقام الأول، فكان له الفضل هو ومن معه من المالكية في رَدّ ما طَمَسَهُ الفاطميّون من معالم أهل السّنّة في طرابلس بإعادة الشّعائر التي منعوها وإلغاء الشّعائر والبدَع الشّيعيّة(٩٧).

ومن قبل أنْ تقع وقعة المشارقة بفترة كان لأهالي برقة دورهم أيضاً في مقاومة الشيعة، وذلك في انضمامهم للثورة التي قام بها الوليد بن هشام المعروف بأبي رَكْوَة سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م، ضدّ الحكم الفاطمي في برقة ومصر(٩٨)، حيث التَفّ عليه أهالي برقة من قبيلة بَني قُرّة العربية مع قبائل البرْبَر من لواتة ومزاتة وزناته وغيرها. وعلى الرغم من أنّ ثورة أبي ركوة كانت ثورة سياسية في المقام الأول وليست دينية، فقد كان طامعاً في السلطة، وكان هدفه الأول هو انتزاع الحكم من الفاطميين والاستيلاء عليه، إلا أنه في الوقت نفسه كان قد عَملَ على القضاء على المذهب الشيعي في برقة وأظهر فيها مذهبه مذهب السّنّة، وهو المذهب الأصلي لأهالي الإقليم. وقد نالت خطوته هذه مباركة أهالي برقة المتعطشين للخروج من ربقة الخضوع للحكم الفاطمي الشيعي، لذلك قاموا بمبايعته وخَاطبوه بالإمامة، وسُمّيَ بـ "أمير المؤمنين الناصر لدين الله"، وضرُبَت السّكّة باسمه على ذلك، وأقام الدعوة لنفسه(٩٩).

ومن خلال ما جَرَى في طرابلس من وقعة المشارقة، وفي برقة من اندلاع ثورة أبي ركوة، نجد أن غالبية أهالي ليبيا خلال العصر الفاطمي كانوا قد ظَلّوا على سُنّيتهم ولم تتمكن منهم الدّعوة الشّيعية على الرغم من طول مُدّة فرضها عليهم، وقد ظَلّ المذهب المالكي راسخاً في قلوبهم إلى جانب القليل منهم على المذهب الإباضي، فكانوا لذلك يَتَحَيّنون الفُرَص للخروج عن الفاطميين ونَبْذ مذهبهم ومَحْو شعائرهم وإلغاء معتقداتهم.

وقد واتَت هذه الفرصة أخيراً لمالكية ليبيا للقضاء على المذهب الشيعي نهائيّاً، بعد توتر العلاقات السياسية بين بَني زيري في إفريقية والخلافة الفاطمية في مصر، التي أخذت في التَّهَلْهُل تدريجيّاً إلى أنْ انتهت بالانفصال. ففي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، أَمَرَ والي بلاد المغرب المعز بن باديس بقطع الدّعوة عن الشّيعة الفاطميين ولعنهم في الْخُطَب وخَلَعَهم، فَقُطعَت الخُطبة عن الخليفة الفاطمي في مصر آنذاك المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م) من مَنابر المساجد في إفريقية، وأُحْرقَت رَايَاتُهُ وبُنُودُه(١٠٠). كما أمر المعزّ في سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩، بتبديل السّكّة، ومَحْو أسماء الخلفاء الفاطميين من العملة الموجودة وإعادة سَكّها من جديد، وأشاع في رَعيّته بزوال أسمائهم من جميع الدّنانير والدّراهم في جميع الولايات التابعة له بما فيها طرابلس وبرقة، وذلك بعد تداولها منذ سنة ٢٩٦ه/٩٠٨م، لمدة خمس وأربعين ومائة سنة هجرية(١٠١). كما نَادَى مُنَاديه في الناس بأنّه: "من تَصرّف بمال عليه أسماء بَني عُبَيْد(١٠٢) نَالَتْهُ العُقُوبة الشّديدة"(١٠٣). وفي سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م، تَمَخّضَ انفصال المعز عن تبعية الفاطميين بالانضواء تحت عباءة

الخلافة العبّاسية، فَصَدَرَت أوامره بلبس السّوَاد[١٠٤]، والخُطبة للخليفة العبّاسي أبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤م) على منبرَ جامع القيروان، وفي المقابل "أَخْزَى بَني عُبَيد الشّيعة ولَعَنَهُم"[١٠٥].

فَنَالَت خُطُوات المعز هذه رضاَ أهالي ليبيا من المالكية الذين عانوا ما عانوه من الشيعة لمدة طويلة من الزمن، وكانت أنفسهم تَتَشَوّق لمثل هذه اللّحظات، فاستحسن عامة الناس في طرابلس ما قام به المعز من إسقاط الحكم الفاطمي والقضاء على المذهب الشيعي وفي المقابل إرجاع المذهب السّنّي والاستظلال بالخلافة العباسية، فالّذي جَرَى في إفريقية بهذا الخُصُوص جَرَى في طرابلس لكونها جزءً منها. وكذلك الأمر نفسه في برقة التي كانت في تلك الفترة تُعَدّ خارج نطاق السُّلْطَتَين الشرّعيتين سواء في إفريقية أو مصر، متمتعةً بحكم شبه استقلالي تحت نفوذ قبيلة بَني قُرّة، فنجد شيخها جَبَارة بن مختار يُرَحّب بدعوة المعز بن باديس لقطع الخُطبة عن الفاطميين في إفريقية والمغرب، فَيُرسلُ إليه مكاتبة في القيروان تُفيد بالسّمع والطاعة، ويخبره فيها بأنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يُدْعَى منها للفاطميين، كما أحرقوا راياتهم، وتَبَرّؤُوا منهم، ولعَنُوهم على منابرهم، وفي الوقت نفسه دعوا للخليفة القائم بأمر الله العبّاسي[١٠٦].

وبهذه الأحداث والتّرتيبات التي جَرَتْ في بلاد المغرب عامةً وما تَمَخَّضَ عنها من رُدود فعل في ليبيا خاصةً، انتهى الحكم الفاطمي السياسي والعسكري في ليبيا تماماً، وانتهى معه المذهب الشيعي وزَالَ ولله الحمد، بفضل ما تمتع به أغلبية أهل البلاد -من المالكية- من حسن إيمان وثبات عقيدة وقوة مذهب، جعلتهم لا يتقبلون المذهب الشيعي ويتحينون الفرص لمقاومته والقضاء عليه، وعلى دُعَاته ومُنَاصريه ومُتَشيّعيه، والعمل على مَحْو آثار دعوتهم التي طالت البلاد ورَتُعَتْ فيها لحوالي قرن ونصف من الزمان.

ثالثًا: أهم أسباب صُمُود المذهب المالكي في ليبيا أمام المذهب الشّيعي الفاطمي

مما لا شَكّ فيه أنه كانت هناك أسباب وعوامل ساعدت على عدم تَأَثّر معظم أهالي ليبيا بالدّعوة الشّيعية الفاطمية، وفي المقابل ثبات نفوسهم على المذهب السُّنّي وبالخُصُوص المالكي، وعدم تزعزع إيمانهم به ونفورهم مما عداه، وسنحاول في هذه الجزئية حصر أهم هذه الأسباب والحديث عنها، وهي كالآتي:

١- من الأسباب الرئيسة التي جعلت عامة الليبيين ينفرون من الفاطميين ومن مذهبهم ويكنون لهم العَداوة والبَغضاء طوال مدة حكمهم هو طريقة الحكم السيئة التي طَبّقَهَا وُلَاة الفاطميين وعُمّالهم على الأقاليم الليبية بمجرد تَوَلّيهم أمرها. حيث اتّسَمت بالمغالاة في القسوة والعنف الشديد الذي لا يترك مجالاً للمَحَبّة أو القَبُول، ولا سيّما أنها كانت مخالفة للسياسة التي أكّدَها الخليفة المهدي في سبيل دعوة الناس إلى المذهب الشيعي، وهي الترغيب والتحبيب أولاً وبعدها استخدام الشدة والعنف في حالة الرفض. فنجد أحدهم وهو حباسة بن يوسف قد لجأ إلى العنف مباشرة مع أهالي إقليم برقة بدون استخدام أسلوب الدعوة والدعاية لتحبيبهم في الحكم الفاطمي ومذهبهم الشيعي. فَعَلَى الرغم من أن سيطرته على مُدُن سرت وأجدابية وبرقة كانت قد أُنجزت بالأمان ومن غير قتال في سنة٣٠١هـ/٩١٣م، إلا أنه كان شديد الوطأة عليها، حيث يخبرنا ابن عذاري أنه: "كُلّمَا دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم وعَاثَ فيهم"[١٠٧].

وكان عُنْفُهُ الشّديد على أهالي مدينة برقة بالتّحديد مُبَالَغً فيه ومن غير سبب وليس له داع، فقد أخذ في خلق الْعلَل للتنكيل بالمُيَسرّين من أهل المدينة واستباحة أموالهم، لدرجة أنّه أخذ جماعة منهم كانوا يلعبون بالحَمَام، فأضرم لهم ناراً وأجلسهم حَوَالَيْهَا وأمر أن تُقَطّع لُحُومهم وتُشْوَى ثم يُطْعمُوها لهم، وبعد ذلك قَذَفَهم في النار، وقال: "إن هذه الحمام كانت تأتيهم بالأخبار من قبل بَني العبّاس"[١٠٨]. كما نَادَى مُنَاديه في برقة "من أراد العَطَاء والرّزْقَ الواسعَ فَلْيَأْت"[١٠٩]. فَسَجّل عنده جماعة من الأهالي، فأمر العرفاء من كتامة بأن يعرفوهم بأعيانهم، ويرقب كل واحد منهم رجلاً من أولئك المُسَجّلين عنده، ثم أمرهم أن يأتوا في اليوم الثاني لأخذ الأرزاق. فَلَمّا حضروا قتلهم جميعً وكانوا نحوً من ألف رجل، ثم أمر بجمع جثثهم ووضع عليها كرسيً وجلس فوقه، ثم أدخل وجوه أهل البلد عليه في حاله هذا، فنظروا إلى ما هَالَهُم من كثرة القَتْلَى، فَمَاتَ منهم ثلاثة من الخوف

والرّعب على حسب ما ذكر ابن عذاري. ولمّا مَثُلَ أهل البلد بين يديه سَبَّهم وقال لهم: "إن لم تحضروني غداً مائة ألف مثقال قتلتكم أجمعين، فأحضروه إيّاه"[١١٠].

ومن جرّاء تجاوز حباسة حدوده في العنف المفرط الذي عامل به أهالي برقة، مخالفاً بذلك سياسة الخليفة المهدي في الدعوة كما أسلفنا، الأمر الذي جعل أهالي برقة يكتبون إلى المهدي في مقر حكمه في إفريقية يشتكون إليه ما فعله فيهم حُبَاسة من قَتْل رجالهم وسَبْي نسائهم وأخذ أموالهم، فكانت شكواهم محلّ اعتذار لدى المهدي، ينفي فيه مسؤوليته عَمّا قام به حباسة، حالفاً بأنه ما أمر بشيء مما ذكروه، وتدعيماً لقوله كتب إلى حباسة بتركهم والرّحيل عنهم[١١١]. كما تَعَرّضَ أهالي برقة بعدها للتنكيل والقتل في مخالفتهم للفاطميين سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م[١١٢]، التي أخضعها الفاطميّون بعد حصار للمدينة لمدة ثمانية عشر شهراً، حتى "أفنت الحرب أكثر أهلها"[١١٣]، تلاها انتقام قائد حملة الإخضاع -وعاملها الجديد- من أهل برقة بأخذ أموالهم وحرق جماعة منهم بالنّار، وإرسال آخرين إلى الخليفة المهدي في مقر حكمه فأمر بقتلهم[١١٤].

ومن غير شَكّ أنّ هذا التّنكيل الشّديد الذي تَعَرّض له أهالي برقة من الفاطميين مرتين متواليتين كان قد خَلّفَ لديهم كراهية شديدة من أهلها للفاطميين ومذهبهم الشيعي، وقد استمرت هذه الكراهية متوارثة في أهلها جيلاً بعد جيل، وقد تجلت في عدّة حوادث من ضمنها اغتيالهم لشاعر الفاطميين الشهير ابن هانئ الأندلسي، الذي اشتهر بقصائده التي تمدح الفاطميين وتدعو لمذهبهم وترفع من قدر خلفائهم وتجعلهم في مصاف الآلهة. وقد أورد لنا بعض المؤرخين[١١٥] رواية لمقتل ابن هانئ في برقة -عند نزوله بها سنة ٣٦٢ه/٩٧٢م وهو في طريقه للّحَاق بالخليفة المعز لدين الله بمصر- وكأنّه من جَرّاء حادثة سُكر وعَربدة بعد ليالي أُنْس كان قد قضاها الشاعر مع بعض رفقائه في المدينة، ولكن الأقرب للحقيقة أنه قُتلَ عَمْدَاً وعن سبق إصرار وتَرَصُّد من بعض أهل برقة، تعبيراً عن كراهيتهم للفاطميين -باغتيال شاعرهم المُفَضّل الذي كان يُرَوّج بشعره محامد خلفائهم وقداسة الإمامة الفاطمية الإسماعيلية- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى انتقاماً من ابن هانئ في شخصه لقصيدة كان قد ألقاها في والي برقة الفاطمي أفلح الناشب (٣٤٢- بعد سنة ٣٦٩هـ/٩٦٣- بعد سنة ٩٧٩م) يمتدحه فيها، ويمتدح ما فعله بالقضاء على كل من كان يعارض الخليفة الفاطمي من أهالي برقة سواء من البربر أو العرب، ولا سيما تنكيله بقبيلة بَني قُرّة العربية القاطنة في إقليم برقة إلى ما شرقه[١١٦]. وكان قتل أهالي بَرقة لابن هانئ ضربة موجعة للخليفة الفاطمي المعز لدين، الذي لما بلغه خبر وفاته وهو بمصر تَأَسّفَ عليه كثيراً وقال: "هذا الرجل كُنّا نَرجو أنْ نُفَاخرَ به شُعَراء المشرق فلم يُقَدّر لنا ذلك"[١١٧].

وما تَعَرّضَ له أهالي برقة من قَسوة ولاتهم الفاطميين وعنفهم كان قد تعرض له أهالي طرابلس من قبلهم، سواء في ثورتهم الأولى على الفاطميين سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م، التي جُوبهَت بالتّنكيل الشّديد، حيث قَتَلَ قائد الفاطميين الكثير من الأهالي، ونَكّل بالكثير وبعث برؤوس كثيرة وآذان مقطوعة لمن قتلهم، فَنُصّبت برَقّادة[١١٨]. أو ما جَرَى لهم بعدها من اضطهاد والي المدينة ماكنون بن ضبارة الألجائي، الذي سار مع الأهالي سياسة التّطاول في الحكم، وبَسَطَ أيدي أبناء عمومته من كتامة في أموال الناس وممتلكاتهم وحرماتهم أيضاً. مما أثار حفيظة أهالي طرابلس فثاروا عليه سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م، إلا أن المهدي تمكن من إخضاعهم بعد حصَار المدينة -لمدة ستة أشهر[١١٩]- حتى أكل أهلها المَيتَةَ من الجوع[١٢٠].

ومما لا شَكّ فيه أنّ قسوة هؤلاء الولاة والعُمّال الشديدة وإجرامهم مع أهالي ليبيا كانت سبباً من أسباب فشل الدعوة الشيعية الفاطمية فيها، فمن المعروف أنّ قُلُوب الناس تهفو دائما لمن يَعتني بها ويهتم بمطالبها ويحقق رغباتها، وهذا ما فقده معظم أهالي ليبيا من ولاتهم الفاطميين في أهم مراحل الدعوة الفاطمية (بداية قيام الدولة)، مما جعلهم لا يتقبلون حكمهم ويرفضون مذهبهم ويَظُلّون على سُنّيّتهم ومالكيّتهم.

٢- تُعَدّ أرض ليبيا إحدى المراكز الرئيسة التي انطلق منها المذهب المالكي إلى الأقطار المغربية الأخرى، فقد خرج منها أول علماء المالكية ببلاد المغرب، وهو علي بن زياد العبسي، الإمام الثقة المتعبد العالم الذي لم يكن بإفريقية مثله. وهو في الأصل من طرابلس الغرب وإن كان قد انتقل إلى مدينة تونس وبَقيَ فيها إلى أنْ تُوُفّيّ سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م. وقد كان من أكابر أصحاب الإمام مالك بن أنس[١٢١]، وعنه أخذ ورَوَى كتاب المُوَطّأ، وكتباً أخرى

هي: البُيُوع والنِّكَاح والطّلاق. وهو أول من أدخل المُوَطّأ إلى بلاد المغرب، ومنه سمع كبار علماء المالكيّة مثل البهلول بن راشد (ت: سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م)، وأسد بن الفرات (ت: سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م)، والإمام سحنون (ت: سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، وغيرهم(١٢٢).

٣- اتّسَاع مصادر المذهب المالكي وقدرة استيعابه لَسيرة الحياة التّطوريّة، فهو إلى جانب اعتماده الكتاب والسنّة يعتمد أيضً على الإجماع وهو ما أعطاه الاتّساع والتوثيق. وكان المذهب المالكي -ولا يزال- يتناسب وبَسَاطة طبيعة أهالي ليبيا قديمً وحديثً، ويَتَماشَى مع بيئتهم شبه الصّحْرَاويّة، لذلك لاَقَى قَبُولً ومُسَانَدة شعبية منهم طوال العُصُور الإسلامية، أدّت إلى حمايته من التّيّارات المضادة، وأعطته الثّبات والاستمرارية حتى أصبح جزءً من التّراث الحضاري لليبيا(١٢٣).

٤- إنّ الموقع الاستراتيجي لليبيا الذي يتوسط بُلْدَان المشرق الإسلامي ومَغربه، ومرور علماء المالكيّة خاصة مُشرّقين أو مُغَرّبين، في ترحالهم وطريقهم سواء ذهابً للحج والعودة منه أو طلبً للعلم أو التجارة، فكل تلك الرحلات ومن فيها من العُلماء والفُقهاء أعطت للمذهب المالكي الاستمرار في ليبيا والتّرسيخ، نتيجةً للمناقشات العلمية والدّروس التي كان يُلْقيها أولئك العلماء الذين مَرّوا بها أو أقاموا فيها لفترة من الزمن(١٢٤)، وليس أَدَلّ على فوائد الموقع الجغرافي لليبيا وتأثيره على التحصيل العلمي لأبنائها، في أنّ أشهر العلماء الذين أنجبتهم ليبيا -وتحديدً طرابلس- خلال العصور الإسلامية الوسطى، الذي ذاع صيته العلمي إلى خارجها في الأقطار الإسلامية الأخرى، كان قد حصل على علمه الوفير بمن كان يقابله من العلماء الوافدين على مدينته طرابلس والجلوس معهم والأخذ منهم دون أن يكون له رحلة خارجها.

وهذا العالم هو الإمام الفقيه أبو إسحاق إبراهيم ابن الأجدابي اللّواتي الطرابلسي (ت: بعد سنة ٤٤٤ه/١٠٥٢م)، الذي كان معاصرً للفاطميين، وهو من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم كلامً وفقهً ونحوً ولُغَةً وعروضً ونظمً ونثرً، وله تآليف كثيرة وأسئلة مفيدة في الفقه وغيره لا يسع المجال هنا لذكرها، وإن كان أكثرها شُهرةً وتداولً ومنفعةً إلى يومنا هذا كتابه كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة. وقد أشاد الرحالة التّجاني به وبمؤلفاته وبطريقة تحصيله العلمي ذاكرً: "وكَفَى بهذا الرجل المعظم القدر فخرً لهذا القطر ولم تكن له رحلة عن بَلَد طرابلس إلى غيرها، وقد سُئلَ أنّى لك هذا العلم ولم ترتحل، فقال: اكتسبته من بَابَي هوارة وزناتة. وهما بابان من أبواب البلد نُسبَا إلى من نزل بهما في أول الزمان، يُشير أنه إنما استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يَفدُ على طرابلس فَيَدْخُلَ من هَذَين البَابَيْنْ من المُشرّقين والمُغرّبين، وكان له اعتناء بلقَاء الوفود والقيام بضيافتهم"(١٢٥).

ومما سبق نجد أنّ ليبيا كانت مَحَطّةً للعلماء المالكية من الأقطار المختلفة ولا سيما من المغاربة، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر -وكان من أشهر من نزل ليبيا واستوطنها لمدة من الزمن- الإمام سحنون بن سعيد سالف الذكر، الذي أسهم في نشر المذهب المالكي في بُلدان المغرب الإسلامي وحَفظَهُ في مُدَوّنته الشّهيرة. وكان قد قَدمَ إلى إقليم برقة سنة ١٩١هـ/٨٠٦م، ونزل مدينة أجدابية، وفيها سمع منه أهلها وأخذوا العلم(١٢٦). ثم انتقل بعدها إلى طرابلس واتخذها مُقَامً له لفترة من الزّمن، تَلَقّى خلالها العلم على يديه الكثير من طُلاّبها(١٢٧)، وقد أشاد الإمام سحنون بما شاهده في طرابلس من فضائل طلبة العلم ورجال المالكية فيها، حيث قال فيهم عندما سُئلَ بعد عودته من الحَجّ من رأيت من الصالحين فيها، فقال: "لقد لَقيتُ رجالً ما الفُضَيْل بن عياض(١٢٨) بأفضل منهم"(١٢٩).

٥- إنّ الله سَخّرَ للمذهب المالكيّ في ليبيا -إلى جانب علماء المالكية المارّينَ بها- عُلَماءَ مَحَلّيّين من أبنائها، كان لهم الفضل في تَقْويَة وُجُود هذا المذهب وانتشاره وتثبيته في قلوب الناس من خلال دروسهم التي يُلْقُونها في المساجد وحلقاتهم العلميّة التي يعقدونها لطلابهم، بالإضافة إلى مؤلفاتهم عن الفقه المالكي وغيره، التي انتشرت بين الناس على أرض ليبيا وتَعَدّتها إلى الأقطار الأخرى من المشرق والمغرب. فإلى جانب أبي الحسن علي بن المُنَمّر -قائد وقعة المشارقة في طرابلس- صاحب كتاب الكافي في الفرائض، نذكر من هؤلاء العلماء والفقهاء على سبيل المثال: محمد بن معاوية الحَضرَميّ الطرّابلسيّ، الذي كان معاصرً للإمام مالك ومنه سمع مُوَطّأه(١٣٠). وكذلك أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن بن حَبيب المعروف بالقَطّان، وُلدَ سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م، وكان إمامً عالمً فقيهً

حافظاً، من الفقهاء المعدودين، والأئمة المشهورين، يُحْسِنُ الكلام في الفقه على مذهب مالك وأصحابه، وُلِّيَ قضاء طرابلس فَنَفَّذَ الحُقُوق وأخذها للضعيف من القوي، وكان من الذين رَسّخوا المذهب المالكي في طرابلس، وكانت له مؤلفات كثيرة من أهمها كتابه أحكام القرآن في اثني عشر جزءًا. تُوُفِّيّ رحمه الله بذي القعدة سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م(١٣١).

ونختتم حديثنا عن العلماء المالكيين من أبناء الإقليمين بأبي الحسن علي بن أحمد بن زكريّا بن الخطيب المعروف بابن زكرون الطّرابلسي. كان رجلً صالحً مُتَعَبّدً ناسكً، ذا فضل وعبادة وعَقل رَصين، له مؤلفات كثيرة في الفقه والفرائض والشرّوط والرّقائق، إلى جانب مؤلفاته في الرجال والحديث(١٣٢). وقد كان لابن زكرون وغيره من علماء عصره فَضْلٌ كَبيرٌ في مجابهة المذهب الشّيعي في طرابلس، من خلال دورهم الذي قاموا به في المساجد التي لم تتوقف عن أداء مهمتها في هذا الخصوص(١٣٣)، لا سيّما ابن زكرون الذي كان أهل طرابلس يُعَظّمُونه وينتفعون به، لأنه كان يُعَلّمهم الفقه المالكي والحديث والنُّسُك وغيره. تُوُفِّيّ رحمة الله عليه سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م(١٣٤).

ويكفي لتبْيَان أصالة علماء مالكية ليبيا التّدَبُّرَ في شهادة الإمام سحنون في حَقّهم التي ذكرناها آنفً، وأيضً التَّمَعُّنَ في شهادته الأخرى -التي تدل على نضوج علمهم وتقواهم وزهدهم- وهي التي جاءت نقلً عن الفقيه المالكيّ جبلّة بن حمود الصّدفي، حين قال: "سَمَعْتُ سحنون بن سعيد يقول: كان بإفريقيّة رجال بعضهم بالقيروان وتونس وأطرابلس، وذكر من فضلهم وما رأى منهم، فقال: لو قُرنوا إلى مالك بن دينار(١٣٥) لَسَاووه"(١٣٦). ولوُجُود مثل هؤلاء العلماء الرجال داخل ليبيا فترة الحكم الفاطمي، وعدم هجرتهم منها زمن اشتطاط الدعوة الشيعية فيها، وبقائهم بين ظَهْرَانَي الأهالي من المسلمين –ولا سيما من المالكية- كان تثبيتً لعامة الناس على الإسلام وبَقيّة صالحة للإيمان، فلو خرج العلماء كلهم بسبب اضطهاد الشيعة لما بَقِيَ فيها من العامة آلاف الآلاف، فَعُلَمَاء المالكية وفقهائها رَجّحُوا خير الشرّين، وكان لترجيحهم فَضلٌ في تثبيت أفئدة الناس على المالكية، والله أعلم(١٣٧).

وفي الختام، هذه هي أهم الأسباب التي ثَبّتَتْ أغلب أهالي ليبيا -بخلاف الإباضية منهم- على المذهب المالكيّ من أهل السّنّة والجماعة ضد الدعوة الشّيعية الفاطمية. ومن المؤكد أنه كانت هناك أسبابٌ أخرى فرعية ساعدتهم على ذلك، تحتاج منّا إلى المزيد من البحث والدراسة والتمحيص والتّحليل.

خَاتمَةٌ

تتبعنا من خلال بحثنا هذا قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ثم تَوَسّعُهَا بعد ذلك وسيطرتها على الأقاليم والمُدُن الليبية، التي كانت تمثل أهمية كبرى لمشروع الفاطميين الذي يهدف للوصول إلى مصر ومنها السيطرة على كل العالم الإسلامي، وجعله يُدين بالمذهب الشيعي. كما تحدثنا أيضً عن الوسائل التي استخدمها الفاطميون لمحاولة نشر دعوتهم الشيعية في ليبيا، التي كانت تسير على خَطَّين متوازيين؛ وسائل سلْميَّة عن طريق الدّعاية والدّعوة بالتّرغيب والتّحبيب، ووسائل تَعَسّفيّة عن طريق التّرهيب والتّنكيل والقتل لمن يرفض الدعوة. ثم عَرَّجنا الحديث لتوضيح أوضاع مَالكيَّة ليبيا خلال حكم الفاطميين ورُدود فعلهم تجاه سياستهم الشيعية. واختتمنا البحث بذكر أهم أسباب صُمُود المذهب المالكي في ليبيا أمام المذهب الشّيعي الفاطمي.

نتائج الدراسة

ومن خلال هذه الموضوعات وسرَديّاتها توصلنا إلى عدة نتائج يمكن اختزالها في النقاط الآتية:

- لم تكن أرض ليبيا تمثل أهمية جغرافية واستراتيجية لمشروع الفاطميين العسكري فقط، بل كانت تمثل لهم أهمية كبيرة من الناحية المذهبية العَقَديّة، فَضَمَان تَشَيّع أهل ليبيا هو ضَمَان لخضوعها المستمر، وبالتالي فهو ضمان لبقاء الدولة الفاطمية في بلاد المغرب واستمرار ارتباطها بمصر، وذلك لما كان لليبيا من أهمية جغرافية واستراتيجية في المنطقة، فهي بمثابة العَصب الحيوي الذي كان ولايزال يربط بين القطرين: المَشْرقيّ والمَغْربيّ. لذلك اعْتَنَى الفاطميون بالدعوة الشيعية فيها، وقد ظَهَرَ ذلك بوضوح في اعتنائهم بتشييد المساجد الفاطمية في معظم المُدُن الرئيسة في ليبيا واتخاذها مراكزَ للدعوة والدعاية الشيعية. وقد زاد من أهمية الدّعوة الشيعية في ليبيا شُخُوص الدُّعَاة الذين أرسلهم الفاطميون لممارسة عملهم الدَّعَوي فيها، فهم يُمثّلون أسماء مُضيئة وعلامات بارزة في تاريخ الدولة الفاطمية ورجَالَاتها.
- على الرّغم من اهتمام الفاطميين بأمر الدعوة الشيعية في ليبيا إلا أنها لم تكن ذاتَ جَدْوَى في نُفُوس أهاليها، حيث إنّ كل ما حَصل عليه الفاطميون من أهالي ليبيا طيلة فترة حكمهم -سواء المباشر أو غير المباشر- هو الإخضاع السياسي فقط، الذي جاء عبر القمع والتنكيل والقتل، أمّا من حيث العقيدة والمذهب فلم يَظفروا بشيء لَدَى أغلبيتهم، الذين ظَلّوا على مَالكيّتهم ولله الحمد.
- من خلال تباين مواقف علماء المالكية الليبيين في رفضهم للفاطميين ودعوتهم الشيعية، التي كانت ما بين الرحيل والهجرة أو المكوث والمقاطعة، فمن وجهة نظرنا المتواضعة أنّ من أهم الأسباب التي جعلت الدعوة الشيعية تفشل في ليبيا وفي الوقت نفسه ثبات المذهب المالكي وصُمُوده فيها، هو عُلَمَاء المالكية وفُقَهَاؤها الذين ظَلّوا في البلاد وصَبَروا على اضطهاد الفاطميين وقمعهم الفكري، فكان لثباتهم على الحق وصمودهم وعدم انصياعهم للباطل أثره على عامة الناس فيها، الذين اتّبعوا -بطبيعة الحال- قُدْواتهم في الدين والدنيا، فَصَبروا لصَبرهم وثبتوا لثباتهم وتَقَوّوا بقوتهم، والله أعلم بعبَاده المسلمين.

الاحالات المرجعية:

(١) النَّوبَختي، الحسن بن موسى وسعد بن عبد الله القُمِّي: **كتاب فِرَق الشيعة**، حقّقَهُ وصَحّح نصوصه وعَلّق عليه وقدّم له بدراسة وافية عبد المنعم الحفني، القاهرة، دار الرشاد، ط١، ١٩٩٢م، ص٧٨.

(٢) العقّاد، عباس محمود: **فاطمة الزَّهراء والفاطميُّون**، القاهرة، نهضة مصر، ط٧، ٢٠٠٨م، ص٦١.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: **تاريخ ابن خلدون المُسَمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأعظم**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠م، ٤٧/٤. كذلك المقريزي، تَقيّ الدين أحمد بن علي: **اتّعاظ الحُنَفَا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفَا**، تحقيق جمال الدين الشَّيَّال، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط٢، ١٩٩٦م، ٦٥/١-٦٦.

(٤) **الْمَهْدِيّة**: بالفتح ثم السّكون. اختطها الخليفة المهدي وإليه تُنسب، قيل شرع في بنائها سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م، وأكمل سورها سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م، وانتقل إليها سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م، وهي جزيرة على ساحل البحر المتوسط، متصلة بالبرّ كهيأة كف متصلة بزند، عليها سور عالٍ محكم كأفضل ما يكون، وأبواب من الحديد المصمت تأنق المهدي في عملها. وبعد أن أحكم الخليفة المهدي تحصيناتها قال: **"اليوم آمنت على الفاطميات"**، يعني بناته = ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧م، مج٥/٣-٢٣١.

(٥) **المَنْصُوريّة**: أو مدينة صَبْرَة، مُتّصلة بالقيروان، بَنَاها الخليفة الفاطمي المنصور بنصر الله سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م، واستوطنها وسَمّاها المنصوريّة، وبقيت من بعده منزلً للولاة إلى حين خرابها. وقد نقل الخليفة المعز إليها -عندما تَوَلّى الأمر- أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات، وكان لها خمسة أبواب؛ الباب القِبلي، والباب الشّرقي، وباب زويلة، وباب كتامة وهو جوفي، وباب الفتوح ومنه كانت تخرج الجيوش = البَكْريّ، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز: **الْمُغرِبُ في ذكر بلاد إفريقية والْمَغرب** (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د.ت، ص٢٥.

(٦) بازامه، محمد مصطفى: **واحات الجنوب البَرقي بين الأسطورة والتاريخ**، بيروت، دار الحوار الثقافي العربي الأوروبي، ط١، ١٩٩٤م، ص١٩٢.

(٧) ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، ٤٧/٤. وورد اسمه أيضً: ماقنون بن دبّارة الأجّاني = ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد: **البَيَان الْمُغْرِب في أخبار الأندلس والْمَغْرِب**، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط٣، ١٩٨٣م، ١٦٨/١.

(٨) ابن عذاري: البيان، مصدر سابق، ١٧٠/١.

(٩) الكندي المصري، أبو عمر محمد بن يوسف: **كتاب الولاة وكتاب القضاة**، مهذبً ومصححً بقلم رفن كَست، بيروت، مطبعة الآبا اليسوعيين، ١٩٠٨م، ص٢٦٨.

(١٠) ابن عذاري: البيان، مصدر سابق، ١٦٣/١.

(١١) عماد الدين، إدريس: **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب** "القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر النبي المصطفى ووصيّه الكرّار وآلهما الأطهار"، تحقيق محمد اليعلاوي بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٥م، ص١٩٢.

(١٢) ابن عذاري: البيان، مصدر سابق، ١٦٨/١-١٦٩.

(١٣) المصدر نفسه، ١٧٥/١.

(١٤) نفسه، ١٨٧/١-١٨٨. كذلك إدريس عماد الدين: **عيون الاخبار**، مصدر سابق، ص٢١٤.

(١٥) الدّشْراوي، فرحات: **الخلافة الفاطمية بالمغرب (٢٩٦-٣٦٥هـ/٩٠٩-٩٧٥م) التاريخ السياسي والمؤسسات**، نقله إلى العربية حَمّادي السّاحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٤م، ص٦٣. كذلك بيضون، إبراهيم: الفاطميون **قراءة مختلفة في تاريخ ملتبس**، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٣، ٢٦-٢٧.

(١٦) العبادي، أحمد مختار: **في التاريخ العباسي والفاطمي**، بيروت، دار النهضة العربية، د. ت، ص٢١٩.

(١٧) حسن، حسن إبراهيم: **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م، ص٤٠، ٨.

(١٨) أحمد مختار العبادي: **التاريخ العباسي والفاطمي**، مرجع سابق، ص٢١٩.

(١٩) من هذه الدول: الدولة البيزنطية في القسطنطينية، والدولة الأموية في الأندلس، والخلافة العباسية في بغداد. ومن دول المغرب الإسلامي: دولة الأغالبة في المغرب الأدنى، والدولة الرستمية في المغرب الأوسط، ودولة الأدارسة والدولة المدرارية (بَني واسول) في المغرب الأقصى.

(٢٠) عباس محمود العقاد: **فاطمة الزهراء**، مرجع سابق، ص٦٦.

(٢١) ابن مُيَسَّر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جَلَب رَاغِبْ: **الْمُنْتَقَى من أخبار مصر**، حَقّقه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهارسه أيمن فؤاد سَيِّد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨١م، ص١٨-٢١. كذلك دخيل، محمد حسن: **الدولة الفاطمية الدور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية**، الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٩.

(٢٢) أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الأمامية، وكان من سادات أهل البيت ولُقّبَ بالصّادق لصدْقه في مقالته. وُلِدَ سنة ٨٠هـ/٦٩٩م، وقيل سنة ٨٣هـ/٧٠٢م. وتُوفيّ بالمدينة سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م، ودُفِنَ بالبقيع (ﷺ) = ابن خَلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فيما ثَبُتَ بالنّقل أو السّماع أو أثبته البيان**، حَقّقه إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٩٤م، مج١/٣٢٧.

(٢٣) ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، ٤١/٤.

(٢٤) المقريزي: **اتّعاظ الحُنَفَا**، مصدر سابق، ٤١/١.

(٢٥) أبو القاسم الحسن بن فَرَح بن حَوْشَب بن زادان النجار، من أهل الكوفة. رحل إلى اليمن سنة ٢٦٨هـ/٨٨١م، وعمل على نشر الدعوة الإسماعيلية فيها، فنجح نجاحً كبيرً، وتَلَقّب بالمَنصور. وقد عمل ابن حوشب على تفريق دعاة الإسماعيلية في اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، ٣٥/٤. كذلك إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص٥٩، ٦١، ٦٨-٧٢.

(٢٦) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: **الكامل في التاريخ**، راجعه وصَحّحَه محمد يوسف الدّقّاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ٤٥٠/٦.

(٢٧) ابن الأثير، **الكامل**، مصدر سابق، ٤٥٠/٦، ٤٥١ وما بعدها.

(٢٨) أحمد مختار العبادي: **التاريخ العباسي والفاطمي**، مرجع سابق، ص٢٢٤، ٢٢٥.

(٢٩) ابن الأثير، **الكامل**، مصدر سابق، ٤٦١/٦.

(٣٠) عباس محمود العقاد: **فاطمة الزهراء**، مرجع سابق، ص٦٦.

(٣١) ابن عذاري: البيان، مصدر سابق، ١٧٠/١.

(٣٢) القاضي النّعمان، أبو حنيفة النّعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيّون، **كتاب افتتاح الدعوة**، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس- الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع- ديوان المطبوعات الجامعية، ط٢، ١٩٨٦م، ص٢٠٦، ٢٦١-٢٦٢. كذلك إدريس عماد الدين: **عيون الأخبار**، مصدر سابق، ص١٣٥-١٣٦.

(٣٣) هالم، هاينز: **الفاطميّون وتقاليدهم في التعليم**، تعريب سيف الدين القصير، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ط١، ١٩٩٩م، ص٤٧.

(٣٤) إدريس عماد الدين: **عيون الأخبار**، مصدر سابق، ص١٩٢، ٢١١-٢١٢.

(٣٥) هاينز هالم: **الفاطميّون**، مرجع سابق، ص٤٧.

(٣٦) القاضي النعمان: **كتاب المجالس والمسايرات**، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شَبُّوح ومحمد اليعلاوي، بيروت، دار المنتظر، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٤٨.

(٣٧) دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣م (مجلدان).

(٣٨) هاينز هالم: **الفاطميّون**، مرجع سابق، ص٤٨-٤٩.

(٣٩) ابن حَجَر العَسْقَلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد: **رَفْعُ الإِصْر عن قُضَاة مصر**، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٩٨م، ص ٣٥٦. كذلك النّائب الأنصاري، أحمد بن الحُسَين: **نَفَحَات النّسرين والرّيحان فيمَن كان بطرابلس من الأعيان**، تقديم وتعليق محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ١٩٩٤م، ص٩٢.

(٤٠) المقريزي: **اتعاظ الحنفا**، مصدر سابق ٢٦٢/١.

(٤١) قيل إنّ الفقيه المالكي جبلّة بن حمود بن جبلّة الصّدفي (ت: سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م)، عندما حضر أول خُطبة للفاطميين في جامع

القيروان، جلس عند المنبر، فَلَمّا سَمِعَ ما لا يجوز سماعه قام قائمً وكشف عن رأسه حتى رآهُ الناس، ومَشىَ من المنبر إلى آخر باب الجامع والناس ينظرون إليه، حَتّى خرج من الباب وهو يقول: **"قطعوها قطعهم الله"**. فمن حينئذٍ ترك العلماء حُضُور جمعتهم، وهو أول من نَبّه على ذلك رضي الله عنه = الْمَالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد: **كتاب رِيَاض النُّفُوس في طبقات علماء القيروان وإفْريقيّة وزُهّادهم ونُسّاكهم وسِيرَ من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، حَقّقَه بشير البَكّوش وراجعه محمد الْعَروسي المطوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٤م، ٢٧/٢، ٤٢-٤٣.

(٤٢) أحمد مختار العبادي: **التاريخ العباسي والفاطمي**، مرجع سابق، ص٢٥٥. كذلك حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، مرجع سابق، ص٣٧٧.

(٤٣) التّجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد: **رحلة التّجاني، ليبيا**-تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م، ص٢٥٣، ٢٥٤.

(٤٤) كان دخول المعز لمدينة طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م، وبَقيّ فيها إلى أنْ رحل عنها يوم السبت السابع عشر من ربيع الآخر من السنة نفسها = ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس، مطبعة الدولة التونسية، ط١، ١٣٨٦هـ، ص٦٣.

(٤٥) الزّاوي، الطّاهر أحمد: **معجم البلدان الليبية**، طرابلس، مكتبة النور، ط١، ١٩٦٨م، ص٩٤. كذلك الكيب، نجم الدين غالب: مدينة طرابلس عبر التاريخ، ليبيا-تونس، الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٩٧٨م، ٥٥. مِيسّانا، غاسبري: **الْمِعْمَار الإسلامي في ليبيا**، تعريب علي الصّادق حَسنين، د. م، الناشر مصطفى العجيلي، ١٩٧٣م، ص١٦٥.

(٤٦) البَكْريّ: الْمُغرِبُ، مصدر سابق، ص٥. كذلك ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١/١٠٠.

(٤٧) البَلّوشي، علي مسعود: **تاريخ معْمَار المسجد في ليبيا في العَهدين العثماني والقَرمَانَليّ ١٥٥١-١٩١١م (نشأة ونمو وتطور أنماط المساجد الليبية)**، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ٢٠٠٧م، ص٦١.

(٤٨) مدينة سرت القديمة أو مدينة السّلطان الأثرية: تقع إلى الشرق من مدينة سرت الحاليّة بحوالي ٥٠ كم. والسلطان المقصود هنا هو المعز لدين الله الفاطمي، وقد عُرِفَت قبل ذلك ومنذ قديم الزمان بأسماءَ أخرى هي على التوالي: سورتوس (Sortos) زمن الإغريق، ثم خاراكس (Charax) زمن الفينيقيين، ثم أسكينا (Iscina) زمن الروم، ثم سرت (Sort) زمن الجغرافيين والمؤرخين المسلمين الأوائل، وقد شاع نطقها خطً سرت (Sirt). وحاليً تُعرف بالسّلطان، ويعرفها سكان المنطقة أيضً بـ"الْمُدَيْنَة"، وهي تصغير لكلمة "مدينة" = شَلّوف، عبد السلام محمد: **مُعجم المواقع والوقائع الليبية - أسماء وتواريخ المدن والقرى والأماكن الليبية**، بنغازي، شركة المجموعة الوطنية للهندسة والانشاءات العامة - دار ومكتبة الفضيل، ٢٠٠٩م، ص٣٧٤.

(٤٩) فيهرافاري، غيزا ومسعود شقلوف وآخرون: **حَفْرِيّات سرت (مدينة سلطان) ١٩٧٧-١٩٨١م**، ترجمة مصطفى عبد الله التّرجمان، ليبيا، منشورات مصلحة الآثار، د. ت، ص.٣، ٤٨، ٧١. كذلك حامد، سعيد علي: **تاريخ ومعالم الحضارة والعمران في ليبيا** (بحث منشور ضمن كتاب معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا)، القاهرة، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٦٠-١٦١.

(٥٠) عبده، عبد الله كامل موسى: **مدينة برقة وآثارها الإسلامية عبق التاريخ وطُرُز العمارة**، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط١، ٢٠٠٢م، ص٨٢. كذلك عبد السّيّد، عبد الحميد: **مدينة برقة (المرج الحديثة)**، تلخيص أنطون حبيقة، مجلة ليبيا القديمة، المجلد الثامن، ١٩٧١م، ص٢٣.

(٥١) عبد الله كامل موسى عبده: **مدينة برقة**، مرجع سابق، ص٨٢.

(٥٢) غيزا فيهرافاري وآخرون: **حَفْرِيّات سرت**، مرجع سابق، ٦٥-٦٦.

(٥٣) عبد السّيّد، عبد الحميد وإدريس أحمد بادي وعبد القادر سعيد المزيني: **حَفْرِيّات مسجد زويلة**، مجلة ليبيا القديمة، المجلد الخامس عشر والسادس عشر، ١٩٧٨-١٩٧٩م، ص٦٦.

(٥٤) سعيد علي حامد: **تاريخ ومعالم**، مرجع سابق، ص١٩٠-١٩٢.

(٥٥) ماجد، عبد المنعم: **أصل حفلات الفاطميين في مصر (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)**، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثاني، السنة السادسة، العدد الثاني، ١٩٥٤م، ص٢٥٤-٢٥٦.

(٥٦) عنان، محمد عبد الله: **رسوم الفطر والأضحى في عهد الدولة الفاطمية**، مجلة الرسالة، القاهرة، المجلد الأول، السنة الرابعة، العدد ١٤٠، ١٩٣٦م، ص٣٦٤-٣٦٥.

(٥٧) للمزيد عن الأعياد الفاطمية يُنظر: الأحمر، رمضان محمد رمضان: **الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)**، بنغازي، منشورات جامعة بنغازي، ط٢، ٢٠٢١م، ص٣١١-٣٧١.

(٥٨) المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخِطَط والآثار المعروف بالْخِطَط المقريزيّة**، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٨م، ٣٥٥/٢.

(٥٩) ابن المأمون البطائحي، جمال الدين أبو علي موسى: **نُصُوص من أخبار مصر**، حَقّقَها وكتب مقدمتها وحواشيها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سَيّد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٣م، ص٤٨ –٥٣.

(٦٠) مفردها سِمَاطٌ: وهو كلمة شاع استعمالها في أيام الفاطميين للدلالة على ما يُبْسَطُ ليوضع عليه الطعام، فهناك أسمطة رمضان، وأسمطة عيدي الفطر والأضحى، وسِمَاطُ الحزن، وغيرها من الأسمطة التي كانت تمُدّ في الأعياد والمواكب التي كثرت في عصر الفاطميين في مصر = رمضان محمد رمضان الأحمر: **الحياة الاجتماعية**، مرجع سابق، ص٥٧، هامش (**).

(٦١) ابن الطُّوَيْر، أبو محمد الْمُرْتَضَى عبد السّلام بن الحسن القَيْسَرَاني: نُزْهة الْمُقْلَتَيْن في أخبار الدّولتين، أعاد بِنَاءَهُ وحَقَّقَهُ وقَدَّم له أيمن فؤاد سَيّد، شتوتغارت، فرانتس شتاينر، ١٩٩٢م، ص٢١٢-٢١٤. كذلك المقريزي: الخطط، مصدر سابق، ١١٣/٢-١١٤.

(٦٢) المقريزي: **مُسَوَّدة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، حَقّقها وكتب مقدمتها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سيّد، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٩٩٥م، ص١٢٣-١٢٤.

(٦٣) ابن تَغْري بَرْدي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، قدّم له وعلّق عليه محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م، ٩٨/٤.

(٦٤) المالكي: ريَاض النُّفُوس، مصدر سابق، ٤/٢-٥-٤٠٤. كذلك الدّبّاغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأُسيدي: مَعَالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلّق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تحقيق وتعليق محمد ماضور، تونس-مصر، المكتبة العتيقة-مكتبة الخانجي، ١٩٧٨م، ٤٩/٣.

(٦٥) رمضان محمد رمضان الأحمر: **الحياة الاجتماعية**، مرجع سابق، ص٣٧٨-٣٧٩.

(٦٦) ابن حَمّاد، أبو عبد الله محمد بن علي: **أخبار مُلُوك بَني عُبَيد وسيرتهم**، تحقيق ودراسة التّهامي نقرة وعبد الحليم عويس، القاهرة، دار الصّحوة للنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ، ص٨١.

(٦٧) مِتز، آدم: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النّهضة في الإسلام**، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٥، د. ت، ٢٩٩/٢–٣٠٠.

(٦٨) ابن الزُّبَيْر، الرشيد أبو الحسن أحمد بن الرشيد: **كتاب الذّخائر والتُّحَف**، حَقّقه محمد حميد الله، قَدّم له وراجعه صلاح الدين المنجد، الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، ط١، ١٩٥٩م، ص١٢٤-١٢٥. كذلك المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق ٩٤/١.

(٦٩) القاضي النعمان: **المجالس والمسايرات**، مصدر سابق، ص٥٥٦-٥٥٧. وعنه نقل إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص٦٣٨-٦٣٩.

(٧٠) القاضي النعمان: **المجالس والمسايرات**، مصدر سابق، ص٥٥٧-٥٥٨. كذلك إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص٦٣٩-٦٤٠.

(٧١) القاضي النعمان: **المجالس والمسايرات**، مصدر سابق، ص٥٥٧.

(٧٢) المصدر نفسه، ص٥٥٩.

(٧٣) التجاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٦٦.

(٧٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٧٥) المالكي: **ريَاض النُّفُوس**، مصدر سابق، ٥٥/٢.

(٧٦) الدّبّاغ: **معالم الإيمان**، مصدر سابق، ٤٩/٣.

(٧٧) **القرآن الكريم**: سورة التوبة، الآية (١١٧).

(٧٨) النائب الأنصاري: **نَفَحَات**، مصدر سابق، ص٧٢.

(٧٩) ابن فَرحون المالكي، إبراهيم بن نور الدين: **الدّيباج الْمُذْهَب في معرفة أعيان علماء الْمَذْهَب**، دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدين الجَنّان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٦م، ص٩٤.

(٨٠) القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السّبتي: **ترتيب الْمَدَارك وتقريب الْمَسَالك لمعرفة أعلام مَذهب مالك**، تحقيق سعيد أحمد أعراب، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٢م، ١٠٢/٧-١٠٣.

(٨١) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ١٨٨/١.

(٨٢) ابن حَجَر العَسْقَلاني: **رَفْعُ الإصْر**، مصدر سابق، ص ٣٥٦. كذلك النّائب الأنصاري: **نَفَحَات**، مصدر سابق، ص٩٢.

(٨٣) التجاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٥٣، ٢٥٤

(٨٤) ابن حَمّاد: **مُلُوك بَني عُبَيد**، مصدر سابق، ص٥٠.

(٨٥) حواله، يوسف بن أحمد: **الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري (٩٠-٤٥٠هـ)**، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط١، ٢٠٠٠م، ٧٣/٢.

(٨٦) إدريس، الهادي روجي: **الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بَني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م)**، نقله إلى العربية حَمَّادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٢م، ٣٢٢/٢.

(٨٧) المرجع نفسه، ٣٥٤/٢.

(٨٨) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ٢٧٧/١.

(٨٩) الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية**، مرجع سابق، ٣٥٤/٢.

(٩٠) المرجع نفسه، ص٣٢٤.

(٩١) يوسف بن أحمد حواله: **الحياة العلمية**، مرجع سابق، ٨٥/٢.

(٩٢) كان أهل الشّيعة في المغرب يُسَمّون بالْمَشَارقة نسبة إلى أبي عبد الله الشّيعي الذي كان قد قَدِمَ من الْمَشْرِق، ولهذا عُرِفَت هذه الوَقْعَة في إفريقية بـ"وَقْعَة الْمَشَارقة" = ابن الأثير: **الكامل**، مصدر سابق، ١١٤/٨.

(٩٣) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ٢٧٤/١.

(٩٤) المصدر نفسه، ٢٧٣/١-٢٧٤.

(٩٥) الدّبّاغ: **معالم الإيمان**، مصدر سابق، ١٥٤/٣.

(٩٦) التجاني: الرحلة، مصدر سابق، ص ٢٦٥-٢٦٦. كذلك ابن ناصر الدَّرْعِي، أبو العباس أحمد بن محمد: **الرحلة الناصريّة ١٧٠٩-١٧١٠م**، حقّقها وقدّم لها عبد الحفيظ ملوكي، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م، ص١٨٩-١٩٠.

(٩٧) رمضان محمد رمضان الأحمر: **التّوَسّع الفَاطمي في إِقْلِيمَي طرابلس الغرب وبرقة وموقف الأهالي منه (٢٩٧-٤٤٣هـ/٩٠٩-١٠٥١م)**، مجلة جامعة بنغازي العلمية، العدد الأول، المجلد ٣٤، ٢٠٢١م، ص٤٨.

(٩٨) للمزيد عن الوليد بن هشام (أبو ركوة)، وثورته التي أشعلها ضد الحكم الفاطمي في برقة ومصر يُنظر:

Alahmar, Ramdan M Ramdan and Ahmed Faisal bin Abdul Hamid: "The Revolution of Abu Rakwah Against the Fatimids In Barca And His Attempt to Overthrow Their Rule in Egypt", JOURNAL AL-MUQADDIMAH,

Department of Islamic History and Civilisation in Malaya University, Volume 5, Issue 1, June, 2017.

(٩٩) الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى: **تاريخ الأنطاكي "المعروف بِصِلَة تاريخ أوتيخا"**، حقّقه وصنع فهارسه عمر عبد السلام تدمري، طرابلس الشام، جرّوس برسّ، ١٩٩٠م، ص٢٦٢.

(١٠٠) البُنُود: مفردها الْبَنْدُ، وهو كل علمٍ من الأعلام، وهو العلم الكبير الضخم = ابن مَنْظُور، عبد الله بن محمد بن الْمُكرّم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، د.ت، مج١، ٣٥٨/٣ (مادة بند).

(١٠١) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ٢٧٧/١-٢٧٩.

(١٠٢) نسبةً إلى عُبَيْدِ الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس دولتهم.

(١٠٣) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ٢٧٨/١-٢٧٩.

(١٠٤) كان اللّون الأسود شعار الدولة العباسية وبه عُرِفَت منذ قيامها سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م. في حين كان الفاطميون على نقيضهم قد اتخذوا اللّون الأبيض شعاراً لدولتهم. وكان كل من دَعَا للدولة العلوية قبل الفاطميين يتخذ البياض شعاراً له (أحمد، زهير: **رايات العرب والمسلمين وبنودهم وأعلامهم وبيارقهم**، مجلة المورد، المجلد الخامس، العدد الثالث، ١٩٧٦م، ص٤٥-٤٧. لذلك اتخذ الفاطميون الرايات البيضاء شعاراً لهم وقد سُمّيَت لهذا السّبَب "مُبَيّضَة"، مخالفة للعباسيين الذين سُمّيَت راياتهم "مُسَوّدَة"، أي سوداء = ماجد، عبد المنعم: **نُظُم الفاطميين ورُسُومهم في مصر**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٨٥م، ٢١٤/١.

(١٠٥) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ٢٨٠/١.

(١٠٦) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ٢٨٨/١.

(١٠٧) المصدر نفسه، ١٧٠/١.

(١٠٨) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ١٧٠/١.

(١٠٩) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(١١٠) نفسه.

(١١١) نفسه.

(١١٢) نفسه، ١٧٢/١.

(١١٣) نفسه، ١٧٥/١.

(١١٤) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(١١٥) ابن خَلّكان: **وفيات الأعيان**، مصدر سابق، مج٤/٤٢٢.

(١١٦) ومن أبيات هذه القصيدة:

عَصَفَتْ على الأعرابِ منك زَعازعٌ،
سَفَكَتْ دمَ الأقرانِ بالأقران
ما قَرّ أعينُ آل قُرّة مذ سُقُوا،
بكَ ما سُقُوه من الحَميم الآني
وقـبـيــــلةً قـتّــلْتـهـا، وقبيـــــلةً
أثكَلْتـهَا بالبَرْكِ في الأعْطَـــانِ

ويلاحظ في البيت الثاني تلاعبه بلفظ القرّ ومقابلته بالنار الجهنمية التي أنزلها أفلح الناشب بقبيلة بَني قُرّة = إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص٦٧٢. كذلك اليعلاوي، محمد: ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥م، ص٩٣.

(١١٧) ياقوت الحموي: **مُعجم الأُدَباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م، ٢٦٦٧/٦. كذلك ابن خَلّكان: **وفيات الأعيان**، مصدر سابق، مج٤/٤٢٢.

(١١٨) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ١٦٣/١.

(١١٩) إدريس عماد الدين: **عيون الأخبار**، مصدر سابق، ص١٩٢.

(١٢٠) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ١٦٨/١، ١٦٩.

(١٢١) أبي العرب، محمد بن أحمد بن تميم التّميمي: الجزء السابع من كتاب **طبقات علماء إفْريقِيّة**، رواية أحمد بن محمد الطلمنكي، جاء ضمن مجلد مع كتاب طبقات علماء تونس للمؤلف نفسه وكتاب طبقات علماء إفْرِيقِيّة لمحمد بن الحارث الخشني، بيروت، دار الكتاب اللبناني، د. ت، ص٢٥٣. كذلك الطّاهر أحمد الزّاوي: **أعلام ليبيا**، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط٣، ٢٠٠٤م، ص٢٦٠-٢٦١.

(١٢٢) مخلوف، محمد بن محمد: **شجرة النُّور الزَّكِيّة في طبقات المالكية**، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت، ص٦٠.

(١٢٣) السّباني، صالح الصادق: **ليبيا أثناء العهد الْمُوَحّدي والدولة الحفصية (ق ٦-١٠هـ/ ١٢-١٦م)**، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٨٨.

(١٢٤) صالح الصادق السّباني: ليبيا، مرجع سابق، ص٤٨٩.

(١٢٥) التجاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٦٤-٢٦٦.

(١٢٦) أبي العرب: الجزء الثالث من **كتاب طبقات علماء إفْريقِيّة**، مصدر سابق، ص٢٠١. كذلك ابن فرحون المالكي: الدّيبَاج، مصدر سابق، ص٢٦٣.

(١٢٧) صالح الصّادق السّباني: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٤٨٩.

(١٢٨) هو أبو علي الفُضَيْل بن عيَاض التّميمي المروزي، الزاهد المشهور أحد العلماء الأعلام. وُلِدَ بسَمَرقند وقدم الكوفة شابّاً ثم جاور مكة إلى أنْ تُوفيّ بها سنة ١٨٧ه/٨٠٢م. قيل الكثير في فَضله وزُهده وحُسن إسلامه مما لا يسع المجال لذكره، ومن ذلك وصفهم له بأنه: إمام الحرم، شيخ الإسلام، قُدوة الأعلام، كان إماماً رَبّانيّاً، كبير الشأن، ثقة، نبيلاً، زاهداً، جليلاً، حجة أهل زمانه = ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد العكري الحنبلي: **شَذَرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط١، ١٩٨٨م، مج٢/٣٩٩-٤٠١.

(١٢٩) التجاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٥١.

(١٣٠) القاضي عياض: **ترتيب المدارك**، مصدر سابق، ٣٢٣/٣.

(١٣١) ابن فرحون: **الدّيباج**، مصدر سابق، ص٤٢١-٤٢٢.

(١٣٢) المصدر نفسه، ص٢٩٧. كذلك النائب الأنصاري: **نَفَحَات**، مصدر سابق، ص١٨١.

(١٣٣) أبو فارس، حمزة: ابن زكرون الأطرابلسي **الْمُحَدّث الزّاهد**، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، كلية الدعوة الإسلامية، العدد الثاني عشر، ١٩٩٥م، ص. ٢٣.

(١٣٤) ابن فرحون: **الدّيباج**، مصدر سابق، ص٢٩٧. كذلك النائب الأنصاري: **نفحات**، مصدر سابق، ص١٨١.

(١٣٥) أبا يحيى مالك بن دينار، كان أبوه من سبي سجستان، وقد اشتهر مالك بالزهد، وهو علمُ العلماء الأبرار، معدود في ثقات التابعين، ومن أعيان كَتَبَة المصاحف، راوية حديث، وثِقَة النسائي وغيره، واستشهد به البُخَاريّ، وحديثُه في درجة الحسن، وله نحو من أربعين حديثً، تُوفيّ سنة ١٢٧ه/٧٤٤م، وقيل سنة ١٣٠ه/٧٤٧م = الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: **سِيرَ أعلام النبلاء**، تحقيق شُعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٢م، ٣٦٢/٥-٣٦٤.

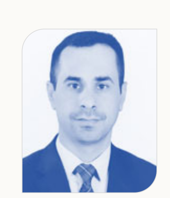
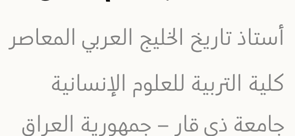
(١٣٦) أبي العرب: الجزء الأول من **كتاب طبقات علماء إفْريقِيّة**، مصدر سابق، ص٦.

(١٣٧) القاضي عياض: **ترتيب المدارك**، مصدر سابق، ١٠٣/٧.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

السفن العُمانية
في المصادر التاريخية الأجنبية

أ.د. عماد جاسم حسن

أستاذ تاريخ الخليج العربي المعاصر

كلية التربية للعلوم الإنسانية

جامعة ذي قار – جمهورية العراق

مُلَخّصْ

ما لا شك فيه أن عُمان اتسم تاريخها بتراث كبير امتزجت فيه قدم الحضارة وعراقتها بروح الأصالة والإبداع والتطور، إذ امتاز العُمانيون بكونهم من أمهر أبناء منطقة الخليج العربي بصناعة السفن وقيادتها، وبذلك ارتبط تاريخهم بشكل كبير بتلك المهنة التي زاولوها منذ القدم ومارسوا دورًا كبيرًا في تجارة المنطقة ونشاطها الملاحي. وعلى هذا الأساس يأتي موضوع بحثنا المعنون "السفن العُمانية في المصادر التاريخية الأجنبية" الذي يحاول إبراز المصادر التاريخية التي تناولت ذلك الموروث الحضاري (السفن) الذي امتازت به عُمان عبر تاريخها، حيث تطرق البحث إلى المصادر الأصلية التي تحدثت عن السفن العُمانية ونقصد بذلك الوثائق الأجنبية لا سيما البريطانية ومنها وثائق حكومة بومباي، وكذلك المجلدات الوثائقية التي كتبها البريطاني سلدانها وأيضًا كتاب دليل الخليج لمؤلفه البريطاني لوريمر، فضلاً عن مذكرات الرحالة والمسؤولين الأجانب الذين زاروا المنطقة لاسيما خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والذين نقلوا لنا معلومات وافية عن تلك السفن من حيث كيفية بناءها والمواد الداخلة في بناءها وأنواعها وأحجامها ومسمياتها وحمولتها وطولها وعرضها وكذلك تجارتها والمناطق التي تبحر إليها والأسعار التي كانت تباع فيها حتى أن اغلب إمارات الخليج العربي كانت سابقا تعتمد على عُمان في شراء السفن وهذا يعني أنها كانت تدر أرباحًا طائلة على أبناءها بل وانها كانت مصدر معيشتهم ورزقهم سواء من خلال تصنيع تلك السفن وبيعها أو من خلال استخدامها في أثناء مواسم الغوص على اللؤلؤ وصيد الأسماك أو لغرض المتاجرة مع المناطق المختلفة. وتناول البحث تلك السفن من خلال المصادر والدراسات الحديثة والمراجع التاريخية التي تناولت تلك السفن، وأيضًا التعرف على الرسائل والأطاريح الجامعية والبحوث المنشورة في المجلات العلمية والتي تحدث عنها وعن دورها في النشاط التجاري والملاحي لعُمان خلال تلك المراحل التاريخية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٨	يناير	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٥	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

البحرية العُمانية؛ الرحالة الأجانب؛ النقل البحري العربي؛ الوثائق البريطانية؛ الخليج العربي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.324243 doi

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عماد جاسم حسن. "السفن العُمانية في المصادر التاريخية الأجنبية".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٧٣ – ٨٥.

Corresponding author: dr.amadgulf@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

مما لاشك فيه، أن عُمان اتسم تاريخها بتراث كبير امتزجت فيه قدم الحضارة وعراقتها بروح الأصالة والإبداع والتطور، إذ امتاز العُمانيون بكونهم من أمهر أبناء منطقة الخليج العربي بصناعة السفن وقيادتها، وبذلك ارتبط تاريخهم بشكل كبير بتلك المهنة التي زاولوها منذ القدم ومارسوا دورًا كبيرًا في تجارة المنطقة ونشاطها الملاحي، وبذلك تُعَدّ سلطنة عُمان من أبرز الدول العربية التي برع أهلها بصناعة وامتلاك السفن حتى ذاع صيتها وشهرتها وأصبحت من أبرز القوى البحرية ليس على مستوى منطقة الخليج العربي فحسب بل على مستوى العلم وبخاصةً أيام حكم السلطان السيد سعيد، ولم يتحقق ذلك الأمر إلا بإرادة وإصرار أهلها وتخطيط وتفاني قادتها وسعيهم الدؤوب من أجل بناء وتطوير ذلك الأسطول الذي أصبح موروثًا حضاريًا يفتخر به ليس العُمانيون وحدهم بل العرب جميعًا، وذلك للمكانة المتميزة التي حققها العُمانيون في ذلك المجال الذي يصعب اجتيازه بسبب أهوال ومخاطر البحر مما دفع الأقلام للكتابة عن ذلك المنجز.

وعلى هذا الأساس يأتي موضوع بحثنا المعنون "السفن العُمانية في المصادر التاريخية الأجنبية" الذي يحاول إبراز المصادر التاريخية الأجنبية التي تناولت ذلك الموروث الحضاري (السفن) الذي امتازت به عُمان عبر تاريخها، حيث يقسم البحث إلى اربع محاور تطرق الأول منها نظرة الرحالة الأجانب وكتاباتهم عن السفن العُمانية وملاحظاتهم ومشاهداتهم الواقعية التي ثبتوها في يومياتهم أثناء زيارتهم إلى عُمان في مراحل تاريخية مختلفة، وشاروا فيها إلى إعدادها وأنواعها وأحجامها وكيفية صناعتها والمواد الداخلة في ذلك وأيضًا تسليحاه، فضلاً عن الإشارة إلى بعض المعارك التي دخلها الأسطول العُماني سواء مع البرتغاليين أو غيرهم من القوى الأخرى، أما المحور الثاني فقد تناول السفن العُمانية في الوثائق الحومية والمقصود بها المراسلات أو تقارير الجهات الرسمية الحكومية وبخاصةً البريطانية التي كانت تمثلها حكومة الهند البريطانية والتي وثقت معلومات مفصلة عن تلك السفن وأعدادها وسفراتها وتسليحها وكانت تلك الوثائق تركز على المعلومات العسكرية والمعارك البحرية أكثر من إشارتها إلى الجوانب التجارية.

وفي المحور الثالث تم التطرق إلى كتابات المسؤولين الأجانب عن السفن العُمانية وهؤلاء قد أُرسلوا من قبل حكوماتهم لأغراض وأهداف محددة، كان من ضمنها البحث والتحري عن عُمان التي ذاع صيتها وشهرتها وأصبحت قوة لا يستهان بها في المنطقة وكان المسؤولين يشغلون رتبًا عسكرية وبعضهم بصفة تجار وآخرين بصفة مدنية وكانوا يرسلون تلك المعلومات لحكوماتهم للإفادة منها من أجل التخطيط للسيطرة على المنطقة. أما المحور الأخير فتضمن موضوع السفن العُمانية في كتب أخرى والمقصود بها المؤلفات التي قام بكتابتها مؤلفين أجانب اعتمد بعضهم فيها على مصادر أصلية، لكنها حملت بين طياتها معلومات مفصلة عن السفن العُمانية من حيث كيفية بناءها والمواد الداخلة في بناءها وأنواعها وأحجامها ومسمياتها وحمولتها وطولها وعرضها، وكذلك تجارتها والمناطق التي تبحر إليها والأسعار التي كانت تباع فيها، حتى أن أغلب إمارات الخليج العربي كانت سابقًا تعتمد على عُمان في شراء السفن وهذا يعني أنها كانت تدر أرباحًا طائلة على أبناءها، بل وأنها كانت مصدر معيشتهم ورزقهم سواء من خلال تصنيع تلك السفن وبيعها أو من خلال استخدامها في أثناء مواسم الغوص على اللؤلؤ وصيد الأسماك أو لغرض المتاجرة مع المناطق المختلفة.

الواقع أن تلك المهنة تُعَدّ موروثًا حضاريًا اتسم به تاريخ عُمان وظل مزدهرًا طوال عقود من الزمن لكن التطور الحاصل في العالم ودخول السفن الحديثة أدى إلى التأثير عليها والتي أصبحت رمزًا للماضي يشير إلى سمو العقل العُماني وتطوره في تلك المرحلة وبالتالي ينبغي الاهتمام بذلك الإرث من خلال وضع بعض السفن أو إنشاء متحف على الساحل العُماني يخلد ذلك التاريخ العريق للتذكير بذلك الماضي ليكون حافزًا ودافعًا لأجيال اليوم تستمد منه القوة والعزيمة والصبر والتحدي الذي أنتج ذلك الموروث، لأن التاريخ ليس فقط تذكير بالماضي، إنما هو عبرة ودروس يُستفاد منها في الحاضر والمستقبل.

السفن العُمانية
في المصادر التاريخية الأجنبية

إن الشهرة الكبيرة التي امتازت بها البحرية العُمانية نتيجة لامتلاكها عدد كبير من السفن دفعت العديد من الكتاب الأجانب للكتابة عنها سواء من الذين زاروا المنطقة أي (الرحالة) الذين كانوا يتوافدون على المنطقة بشكل كبير أو من خلال الكتاب الآخرين الذين كانت لديهم اهتمامات بمنطقة الخليج العربي بصورة عامة وعُمان بصورة خاصة، فضلاً عن ذلك فقد شغل الحديث عن السفن العُمانية مساحة كبيرة في الوثائق الأجنبية لا سيما البريطانية التي كانت تكتب عن أدق الأمور وتفاصيلها من خلال المراسلات بين مندوبيها ووكلائها ومقيميها في مناطق الخليج العربي.

الواقع أن اسم عُمان أو (مكان) التي كان الاسم الحضاري القديم لها كانت تعني أرض السفن أو ميناء السفن[١]، وهذا يعني أن العُمانيون امتازوا ببناء السفن أو بوجود السفن لديهم منذ العصور التاريخية القديمة، الأمر الذي يؤكد أصالة هذا الموروث الحضاري لديهم واستمراره في العصور التاريخية اللاحقة وتطوره وتعدد استخداماتها، وبما أن بحثنا يحاول أن يظهر السفن العُمانية من خلال المصادر الأجنبية فسوف لن يتم التطرق إلى الكتابات التاريخية العربية التي تناولتها على الرغم من أن هنالك العديد من المصادر التي كتبت تفاصيل دقيقة عنها وأيضًا ذكر العديد من الرحالة العرب السفن العُمانية وكيفية صناعتها ومهارة أهلها وكيفية جلبهم الأخشاب من المناطق البعيدة لغرض صناعة تلك السفن التي كانت بأحجام وأنواع مختلفة، كما أنهم تحدثوا عن أغراضها فمنها ما هو معدّ للتجارة ومنها لصيد السمك والأخرى للغوص على اللؤلؤ ومنها السفن الحربية، وهنالك السفن الصغيرة الحجم التي تستخدم للحاجات البسيطة قرب الساحل ومن أولئك الرحالة ابن جبير، كما تحدث الإدريسي عن السفن العُمانية وأيضًا المسعودي،[٢] وكذلك ابن بطوله الذي قال "ركبنا البحر نريد عُمان في مركب صغير لرجل يعرف بـعلي بن إدريس المصيري من أهل جزيرة مصيرة إحدى جزر عُمان".[٣]

وفي الوقت ذاته أشارت العديد من المصادر العربية إلى السفن العُمانية وأعدادها وأسمائها وتتبعها لتطور البحرية العُمانية خلال المراحل المختلفة، حيث ذكر الازكوي على سبيل المثال عنها بالقول "أربعة وعشرين مركبًا أو ثمانية وعشرين مركبًا خمسة منهم كبيرة الحجم هي الملك والفلك والرحمن وكعب الرأس والناصري والباقي أصغر منها حجمًا، وكانت هذه المراكب غاية في العظم، وقد احتوى المركب المسمى بالفلك ثمانين مدفعًا".[٤] وفي السنوات الأخيرة يأتي كتاب أسياد البحار لمؤلفه حمود بن حمد الغيلاني ليعطي صورة واضحة ومفصلة عن السفن العُمانية وكيفية صناعتها والمواد المستخدمة في ذلك ونشاطها وربابنتها وأنواعها وأحجامها ومقدار حمولتها، فضلاً عن المعارك التي خاضتها وتجارتها وماهي ابرز الموانئ العُمانية، ويُعَدّ هذا الكتاب من المصادر التاريخية المهمة لكون الباحث لم يعتمد فقط على المصادر التاريخية المكتوبة، بل إنه لجأ إلى أسلوب المقابلات مع كبار السن من النواخذة وأبناءهم ليتعرف على المعلومة من منابعها الحقيقية وبالتالي نستطيع أن نصطلح على ذلك الكتاب بكونه يمثل الموسوعة الخاصة بالسفن العُمانية لأنها تضمن كل ما يتعلق بها من حيث تناوله لها في العصور التاريخية المختلفة وكيفية تطورها في المراحل اللاحقة.[٥]

والحقيقة ابتدأت البحث بذكر بعض الأمثلة عن المصادر العربية التي تناولت السفن العُمانية وذلك للإشارة إلى أن الكتابات العربية كانت كثيرة ومتعددة وأكثر بكثير مما كتبته المصادر الأجنبية وبخاصةً الكتاب العُمانيون الذين أعطوا تفاصيل دقيقة، ولكن موضوع البحث اختص في التعريف بالمصادر الأجنبية للتعرف على الطرف الأخر وكيف يكتب عن ذلك الرمز والتراث الحضاري الذي امتازت به عُمان وما هي رؤيتهم ومتابعاتهم.

أولاً: السفن العُمانية من خلال كتب الرحالة الأجانب

استقبلت البلاد العربية خلال المراحل التاريخية المختلفة العديد من الرحالة الذين وفدوا إليها من مختلف أصقاع العالم لأسباب وأغراض متعددة بعضهم لأغراض الاطلاع والأخر للبحث والكتابة والبعض منهم لجمع

المعلومات وآخرين لأغراض التجارة وبعضهم لغرض التبشير، وبغض النظر عن تلك الأسباب التي دفعت موجات من أولئك الرحالة فأنهم قد وصلوا إلى البلدان العربية وتجولوا في مدنها وكتبوا بتفاصيل دقيقة عنها حتى أصبحت كتاباتهم من المراجع والمصادر التاريخية المهمة للمنطقة، وتأتي أهمية كتب الرحالة بكونها تمثل مشاهدات واقعية لما كان يكتبه الرحالة عن كل منطقة يزورها ومن ثَمَّ فأنها تنقلنا للتعايش مع ما يكتبه.

إن أول الرحالة الأجانب الذي وفد إلى عُمان وتحدث عن سفنها هو الإيطالي ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤) والذي قام برحلته عام ١٢٩٨ ومر بالعديد من المدن والمناطق وكانت هرمز بوصفها إحدى المناطق التابعة إلى عُمان فذكر عن سفنها قائلاً "إن السفن التي تبنى في هرمز كان من اردأ الأنواع وترجع عيوبها إلى استخدام المسامير في بناءها لشدة صلابة الخشب وتعرضه للانشقاق فأنه ينكسر لذلك فأنها تثقب بعناية بمثقاب وتدق فيها دبابيس تلف عليها حبال أو خيوط مأخوذة من شجر جوز الهند وتترك الحبال أو الليف في الماء حتى يتعفن ثم تطلى بالزيت أو شحم السمك المطبوخ ثم تسد الشقوق والفتحات، وهذا النوع من السفن له سارية واحدة ودفة واحدة وسطح واحد".(٦) وهنا يبدو أن وصف ماركو بولو كان قاسيًا للسفن العُمانية ولكن يمكن أن نستنتج من ذلك أنه قارن بين ما كان يلاحظه من سفن في أوربا وبين ما شاهده في هرمز الأمر الذي دفعه إلى أن يذهب بذلك التوصيف للسفن العُمانية التي نستطيع أن نقول عنها ورغم الوصف الذي قدمه بولو عنها أنها تمثل تطورًا كبيرًا في وسائل النقل البحري العربي آنذاك كما أنها مثلت براعة الفكر العربي للتصنيع والاعتماد على نفسه وعدم تقليد الغير في نتاجاته، كذلك يمكن القول إن وصف ماركو بولو للسفن العُمانية قد ركز فيه على كيفية صناعتها والمواد المستخدمة فيها دون الإشارة إلى معلومات أخرى عنها، ويعود السبب في ذلك لكونه لم تكن مهمته تقصي ومتابعة السفن، بل إنه ذكر معلومات من باب ملاحظاته العامة ومشاهداته عند وصوله إلى كل منطقة يتوقف فيها.

ومن جانب أخر، أشارت المصادر الروسية إلى السفن العُمانية بفترة مبكرة في التاريخ الحديث وكانت تلك المعلومات من خلال وصف السائح الروسي افاناس نيكتين هرمز أثناء زيارته لها عام ١٤٧٢ والذي قال عنها "شاهدت كثرة دخول السفن إلى ميناءها وهي محملة بمختلف البضائع وتلك السفن الخارجة منها المتوجهة إلى موانئ شرق أفريقيا وبلاد الهند"،(٧) ويستدل من ذلك ضخامة النشاط البحري في هرمز والذي يؤكد امتلاك العُمانيون للسفن وعمل بالتجارة مع المناطق المختلفة، وهنا جاءت إشارة السائح الروسي إلى النشاط التجاري وتركيزه عليه دون أن يذكر معلومات أخرى عن طرائق صناعة السفن أو أنواعها أو حمولتها.

وفي عام ١٥٠٣ أي قبيل وصول البرتغاليين إلى الخليج العربي زار هرمز الرحالة الإيطالي لود فيكو دي فارتيما والذي قال عنها: "ترى فيها ثلاثمائة سفينة من مختلف أنواع المراكب التي تأتي إليها من جهات عديدة وبلاد مختلفة"، كذلك وصلها الإيطالي دوراتي بربوزا عام ١٥٢٢ وتحدث عن الموانئ العُمانية قلهات، قريات، مسقط صحار وعن كثرة السلع التي تجلبها السفن المختلفة(٨) وفي ذلك إشارة واضحة إلى السفن العُمانية.

فضلاً عن ذلك فقد زار مسقط الرحالة البرتغالي بيدرو تيكسيرا عام ١٥٧٨، إذ تحدث عن الوجود البرتغالي وتشدده مع المراكب العربية ولا سيما العُمانية خلال قيامها بالعمليات التجارية بل انهم فرضوا عليهم شروط وضوابط لغرض السماح لهم بالمتاجرة(٩) وبالتالي فإن تلك المرحلة مثلت ضعف النشاط البحري العُماني وقلة أعداد السفن العُمانية.

وبعد تمكن العُمانيون من استعادة نشاطهم وقوتهم وتفوقهم على البرتغاليين أيام حكم الأئمة اليعاربة، استعادت البحرية العُمانية مكانتها من جديد وأخذت كتابات الرحالة تعطي حيزا كبيرا للسفن العُمانية نتيجة للنشاط الكبير ومواجهتها للبرتغاليين ومن ذلك ما كتبه الفرنسي مارتن فرانسوا الذي جاء إلى المنطقة عام ١٦٦٩ وتحدث عن تفاصيل المعارك التي خاضها العُمانيون مع البرتغاليون وإيضاحه للسفن التي كانوا يبحرون فيها ويستخدمونها لذلك الغرض.(٩)

كما ذكر لوكير عام ١٧٠٥ قائلاً "لقد طور العرب في مسقط منذ أن انتزعوها من أيدي البرتغاليين.. لقد كانوا في حرب مع البرتغاليين وكانت سفنهم تزداد يوميًا، فقد بنوا عدة سفن كبيرة في سورات وبعض السفن في نهر السند الذي كانت معلومات الأوربيين عنه قليلة جدا وكان هنالك أربعة عشر سفينة لنقل المقاتلين وعشرين سفينة تجارية وكانت احدها تحمل سبعين مدفعا ولم تكن بينها ما تحمل اقل من عشرين مدفعا وان موانئهم قريبة من بعضها البعض، وان هنالك خمسة عشر أو ست عشر سفينة في الخارج وسفنهم بصورة عامة مجهزة برجال ذوي خبرة"(١٠) إلى جانب ذلك ذكر روي فرير الذي زار منطقة الخليج العربي في عهد سيف بن سلطان "أن العُمانيين اكتسبوا إمكانات بحرية كبيرة وأن نشاطهم البحري قد هدد بندر عباس لدرجة أن الفرس طلبوا من الإنكليز الإبقاء على أسطولهم لحماية المدينة".(١١)

وعندما زار بارسونز مسقط عام ١٧٧٥ قال "كانت القوة الضاربة في الأسطول لا تقل عن ٣٤ سفينة كبيرة وأعداد كثيرة من السفن الصغيرة"، كما أنه أشار إلى أن مسقط مدينة تجارية مهمة جدًا وفيها عدد من المراكب تتاجر مع سورات وبومباي وكوا على امتداد ساحل الملبار ومع مخا وجدة في البحر الأحمر.(١٢)

ومما تجدر الإشارة إليه، متابعة بارسونز لكل الأعمال التي كانت تقوم بها السفن العُمانية ومنها المحاولة الهامة التي قام بها الأسطول العُماني في نجدته للبصرة التي كانت قد تعرضت للهجوم الفارسي عام ١٧٧٥، إذ كان بارسونز متواجدًا في مسقط خلال فترة الأعداد لتلك الحملة وقال عنها "كانت القوة الضاربة في الأسطول لا تقل ٣٤ سفينة منها أربع سفن بنيت في بومباي تحمل أربع وأربعون مدفعًا وخمس سفن من نوع الفرقاطة مزودة بـ ١٨-٢٤ مدفعًا والباقي سفن صغيرة يتراوح تسليح كل منها ما بين ٨-١٤ مدفعًا وقد بنيت الأخيرة في ميناء مسقط وغيره من الموانئ الأخرى.(١٣)

وتحدث ولستيد الذي زار عُمان عام ١٨٣٥ في كتابه تاريخ عُمان عن الموانئ العُمانية وتواجد السفن فيها بالقول "تحمل تلك السفن في مسقط بالتمر وأيضًا التبغ الفارسي والسجاد مع عدد كبير من الحجاج الفرس وتأخذ هذه السفن في الإبحار مع السواحل العربية حتى تصل إلى البحر الأحمر وتنتهي إلى ميناء جدة"، وأضاف قائلاً "بعد أن تعود السفن محملة بالبن إلى مسقط حيث يبيع التجار قسما منه هناك ثم يعاد شحن الفائض في مراكب عُمانية اصغر حجما تبحر إلى البحرين والبصرة" كما أنه ذكر عن ميناء صور قائلاً "أهل صور تجار ينصب اهتمامهم في سبيل تحصيل الكسب ولهذه المدينة ميناء جيد تعمل فيه حوالي ثلاثمائة بغلة من أحجام مختلفة وتعمل تلك البغلات بحمل التجارة بين سواحل الهند وموانئها وسواحل الخليج وأفريقيا وبحر العرب" وأضاف تأتي صحار من الناحية التجارية بعد مسقط، فلمينائها أربعون بغلة ولها تجارة معتبرة مع كل الموانئ الفارسية ولهندية، فضلاً عن ذلك فقد أشار ولستيد إلى القوارب العُمانية التي تعمل في صيد اللؤلؤ وأكد أنها تتفاوت في أحجامها وحمولتها تتراوح ما بين ١٠- ٥٠ طنًا.(١٤)

وفي عام ١٨٦٢ زار مسقط الرحالة البريطاني وليام جيفورد بلكريف وتحدث عن موانئها ونشاطها الملاحي بتواجد العديد من السفن فيها وهي بمختلف الأنواع والأحجام.(١٥) وبذلك فإن الرحالة الأجانب الذين زاروا مسقط وتحدثوا عن سفنها فأنهم وثقوا معلومات مهمة سواء من حيث أعداد السفن أو أغراضها إذ أشاروا إلى قيام بعض تلك السفن بالعمليات التجارية والبعض الأخر قد شارك في المعارك العسكرية التي خاضتها عُمان في مراحلها التاريخية ولاسيما معاركهم مع البرتغاليين وبالتالي الإشارة إلى أن الأسطول العُماني كان من أقوى الأساطيل البحرية ليس في المنطقة فحسب بل على المستوى العالمي لا سيما أيام حكم السيد سعيد بن سلطان.

ثانيًا: السفن العُمانية من خلال الوثائق الحكومية

تُعَدّ الوثائق الحكومية المتمثلة بالتقارير اليومية أو الرسائل التي يكتبها المقيمين الأجانب في منطقة الخليج العربي احد المصادر المهمة لتاريخ المنطقة وذلك لكون قد ضمت كتابات مفصلة عن كل مناطق الخليج العربي وفي المجالات كافة ومن ثَمَّ تُعَدّ مصدر أساسيًا لدراسة تاريخ المنطقة، وكانت الوثائق البريطانية هي الأبرز والأهم بحكم سيطرة البريطانيين على المنطقة لاسيما في القرن التاسع عشر، فكانت هنالك متبعات لكل ما يجري في منطقة الخليج العربي من أحداث وتطورات على جميع

المستويات، وبما أن عُمان كانت واحدة من أهم البلاد العربية التي امتازت بوجود بحرية قوية لديها أدت إلى متابعة الوثائق الحكومية لها.

فقد أشارت تلك الوثائق إلى قيام العُمانيون ببناء سفن وتبنوا طرازًا جديدًا من السفن الحربية يكون بمقدوره مواجهة القلاع الطافية للعدو وقد أفادتهم السفينتان البرتغاليتان اللتان تم الاستيلاء عليهما خلال معركة مسقط خبرة في وسائل بناء الطراز الجديد من السفن بتثبيت ألواح أبدانها بالمسامير بدلاً من الأسلوب التقليدي بخياطتها بالحبال وجعلوا لها فتحات للمدافع ورفعوا على اسطحها الصواري ذات الأشرعة المربعة إلى جانب تحوير السفن المحلية بما يلائم الغرض الجديد.[١٦] وقد وصل الأسطول العُماني إلى قوة كبيرة في عهد الإمام سلطان واستغرق ذلك عقدين من الزمن وقد استعان بعدد من السفن الأوربية الحديثة سواء عن طريق شراءها أم الاستيلاء عليها أم تأجيرها.[١٧]

ومن جانب أخر، أشارت بعض الوثائق إلى أن تطور سفن البحرية العُمانية بتلك الصورة لا يمكن أن يكون مصدرها السفن المصنوعة في عُمان فقط ولا السفن المشتراة من الإنكليز والهولنديين وإنما كانت من سبل أخرى منها سورات التي كانت مركز لصناعة السفن التي استخدمها العُمانيون ومنطقة حوض السند، فضلاً عن أماكن أخرى لم تكن معروفة للأوربيين.[١٨]

استمر تصاعد قوة الأسطول العُماني بتزايد أعداد سفنه الأمر الذي أشارت إليه الوثائق الأجنبية ومنها الرسالة التي كتبها نائب الملك إلى ملك البرتغال جوان الرابع في كانون الأول ١٦٥١ قائلاً: "لقد أصبح العرب مكتفين ذاتيًا وواثقين من انفسهم بحيث يتطلب الأمر إرسال أسطول ضخم جدًا لتحقيق غايتين الأولى سحقهم وتأمين مياه المنطقة والحيلولة بينهم وبين الوصول إلى ممباسا التي أصبح من اليسير عليهم الوصول إليها وثانيًا عدم إتاحة الفرصة للحكام الآخرين في الجوار للسير على منوالهم".[١٩]

وأشارت الوثائق البريطانية إلى أن قوة الأسطول العُماني أصبحت ذات تأثير مهم في منطقة الخليج العربي حيث غدا العُمانيون يوصفون بأنهم أسياد الملاحة والتجارة.[٢٠] وذكر باثرست أن الأسطول العُماني مارس نشاطًا متميزًا في التجارة زمن الإمام سيف بن سلطان ١٦٩٢-١٧١١ إذ سيطر الأسطول التجاري العُماني على الطرق المؤدية إلى الخليج العربي ومارس حقوق جباية الرسوم الجمركية مما انعش اقتصاد البلاد التي أصبحت تعيش في رفاهية وأصبحت مسقط المدينة التجارية الأساسية.[٢١]

أعطت الوثائق البريطانية قدرًا كبيرًا من الاهتمام بمتابعة أخبار السفن العُمانية وتوثيق أخبارها لغرض التخطيط لمواجهتها، ولذا فقد أشار باثرست في كتاباته إلى أن الأسطول العُماني كان له دورًا كبيرًا في تدمير العديد من المستعمرات البرتغالية في الهند وشرق أفريقيا وغنموا منها غنائم ثمينة،[٢٢] إذ قامت السفن العُمانية بالتحرك في أسطول ضخم ضم ٢٤ سفينة تحمل على متنها أكثر من الف مقاتل وتوجهوا إلى اهم الحصون البرتغالية في غرب الهند وهو حصن ديو ونجحوا في احتلاله عام ١٦٦٨ ومكثوا فيه ثلاثة أيام وغنموا غنائم كبيرة وعادوا إلى بلادهم، ولكن السفن العُمانية عادت مرة أخرى إلى مهاجمة ديو مرة أخرى عام ١٦٧٦ وتم خلال ذلك تدمير عدد كبير من السفن البرتغالية وأسر أخرى،[٢٣] كذلك قيام السفن العُمانية أيام السلطان سيف بالهجوم على جزيرة سالست البرتغالية قرب بومباي[٢٤] وتمكنوا من تدميرها وأسر ١٤٠٠ أسير ثم قامت السفن العُمانية بمهاجمة بارسلور ومنغالور وتدميرهما أيضًا، كما قام أسطول عُماني مؤلف من خمس سفن تحمل على متنها ١٥٠٠ مقاتل بمهاجمة ميناء كونك وتم تدمير قاعدته وأسروا سفينة كبيرة وغنموا ما قيمته ٦٠٠٠٠ تومان.[٢٥]

أخذ البريطانيون بمتابعة استمرار وتطور سفن الأسطول العُماني، حيث أشارت إحدى الوثائق في عام ١٦٨٩ في عهد الإمام سلطان بن سيف قائلاً: أن أهل مسقط يزيدون يوميًا قواتهم البحرية بتجهيز سفن قوية وكبيرة الحمولة قبل سنتين فقط وقاموا ببناء سفينة قوية في سورات وهي ذات حمولة أكثر من ألف طن وتحمل ما لا يقل عن مئة مدفع"[٢٦]

وفي عهد سيف بن سلطان تعددت شهادات المراقبين في وصف سفن البحرية العُمانية، إذ استطاع حسم الصراع بها ضد البرتغاليين في الخليج العربي وشرق أفريقيا وأصبحت قوة الأسطول البحري اليعربي قوة يشار إليها

بالبنان حسب ما ذكرته تلك الوثائق، وضمت بحاره مهرة من العرب والهنود والأوربيين أيضًا،[٢٧] ووصلت قوة الأسطول إلى درجة أن بروس كتب عنه في أحد تقاريره قائلاً: "كان قوة العرب في مسقط في هذا الوقت من ناحيتي الشحن والقوى البشرية قوية جدا لدرجة تثير الرعب من انهم سيضعون يدهم على الخليج كله"[٢٨] وفي ذلك إشارة واضحة إلى القلق الذي كان يتملك البريطانيين من تلك القوى البحرية العربية.

فضلاً عن ذلك، تابعت الوثائق البريطانية عملية تجهيز السفن العُمانية بالأسلحة بالقول "على الرغم من السمة التجارية الخاصة التي اتسم بها البوسعيديون إلا أنهم لم يهملوا تدعيم سفنهم بالمدافع وتوفير الحماية الكافية لها، حيث كانت الأوضاع القائمة تستدعي اليقظة والحذر لا سيما بوجود أعداد كبير من السفن تابعة للقوى الأوربية.[٢٩] كما أوضحت الوثائق البريطانية إلى اهتمام البو سعيديون إلى صناعة السفن وتطويرها والاهتمام بها في أواخر القرن الثامن عشر وكان النموذج الذي شد انتباههم قد تمثل في النموذج الذي أتى به الأوربيين إلى المنطقة وكان أحد أهم الأسباب في تفوقهم وفرض سيادتهم وانطلاقًا من ذلك الوعي توجهوا نحو توسيع مراكز بناء السفن حتى انتشرت في موانئ مسقط وصحار وصور، فيما نشطوا في شراء السفن الأوربية وحاولوا أيضًا الاستفادة من خبرة الهنود في صناعة السفن لا سيما في مينائي بومباي وسورات.[٣٠]

فضلاً عن ذلك فقد أشارت الوثائق الأجنبية إلى ضخامة الأسطول العُماني أوائل القرن الثامن عشر وقوته العسكرية ومكانته في المنطقة وبسط سيطرته على مناطق شاسعة في المحيط الهندي والخليج العربي.[٣١] وتتبعت الوثائق الحكومية البريطانية موضوع السفن العُمانية ولا سيما عهد السيد سلطان بن أحمد (١٧٩٢-١٨٠٤) مؤكدة أن الأسطول العُماني يضم خمسة عشرة سفينة كبيرة حمولتها تبلغ (٤٠٠ – ٧٠٠) طن، فيما هنالك المئات من السفن المتوسطة والصغيرة والتي أوجدت نظامًا ملاحيًا مميزًا تمثل في رحلات السفن الكبيرة إلى الهند وتوجه السفن المتوسطة نحو سواحل أفريقيا وتركيز نشاط السفن الصغيرة داخل مياه الخليج العربي، وبالوقت نفسه لم يهمل الأسطول الحربي وتم إضافة السفينة جنجافا التي تبلغ حمولتها ١٠٠٠ طن و٣٢ مدفعًا بالإضافة إلى ثلاث سفن أخرى ذات عشرين مدفع.[٣٢]

وخلال عهد السلطان سعيد ازدهرت البحرية العُمانية بشكل كبير وفاق الحدود، إذ امتلكت أسطولاً بحريًا كبيرًا مكنها من السيطرة على العديد من المناطق ليس في أسيا فحسب بل في أفريقيا وتحديدًا في شرقها، ذلك الأمر الذي عملت العديد من المصادر الأجنبية وكتابات المسؤولين الأجانب بالإشارة إلى تلك البحرية التي أصبحت من القوى البحرية ليس على مستوى المنطقة الخليجية فحسب، بل على المستوى العالمي وكما تصف بأنها تأتي بالمرتبة الثانية بعد البحرية البريطانية، إذ أولى السيد سعيد اهتمامًا فائقًا ببناء الأسطول الحربي وكانت موانئ عُمان في عهده (مسقط، مطرح، صور، شناص) تضم أهم أحواض بناء السفن من الأخشاب المستوردة من الهند فضلاً عن الأخشاب العُمانية. وقد أمر السلطان سعيد شخصيًا ببناء العديد من السفن الحربية في أحواض السفن الهندية والخاصة في بومباي والتي أشارت إليها وثائق حكومة بومباي/ سجلات حكومة بومباي (Bombay Government selection from Records) والتي أعطت تفاصيل دقيقة عن قوة السلطان البحرية وأنواع السفن التي يملكها وأعداها وأعداد بحارتها وتسليحها.[٣٣]

وأشار ريجبي في إحدى تقاريره التي أرسلها إلى حكومة بومباي حول زنجبار إلى أعداد السفن العُمانية قائلاً: "كانت في عُمان قوة بحرية مكونة من خمسة عشر سفينة حربية في عام ١٨٥٦ مبنية على الطراز الغربي تضم سفينة هجومية مزودة بـ ٧٤ مدفعًا وخمس بارجات بالإضافة إلى سفن عديدة مبنية على الطراز العربي، وفي أوقات السلم يعمل هذا الأسطول كناقلات بضائع ويدر ربحًا كبيرًا.[٣٤]

ولم تكن السلع التجارية التي تنقلها السفن العُمانية غائبة عن التقارير والوثائق الحكومية التي كانت تقوم بمتابعة نشاط السفن العُمانية، إذ أشارت تلك الوثائق إلى المواد التي كان ينقلها تلك السفن إلى كلكتا في الهند وهي اللؤلؤ والملح الصخري والكبريت والنحاس والزرنيخ والعفص والزعفران والبخور والفواكه المجففة والأفيون والأعشاب الطبية، في حين أن البضائع التي كانوا ينقلونها إلى مسقط على متن السفن العُمانية تمثلت بالأنسجة

القطنية والصوف وخشب الصندل والفلفل والزنجبيل والهيل والدارسين والمسك والكافور والنيلة والكركم والحديد والصلب والرصاص والزيت والسمن.(٣٥)

ثالثًا: السفن العُمانية في كتابات المسؤولين الأجانب

كانت منطقة الخليج العربي محط أنظار القوى الكبرى نتيجة الأهمية التي تمتاز بها المنطقة من جميع النواحي الأمر الذي دفع تلك الدول إلى إرسال عدد من المسؤولين للتعرف على المنطقة ومتابعة ما يجري فيها من تطورات. ولذا فقد تدفق على المنطقة العديد من أولئك المسؤولين وبمختلف المواقع الحكومية الذين زاروا المنطقة أو بعضهم تم تعينهم كمعتمدين أو قناصل في مناطق الخليج العربي، وكانت عُمان واحدة من أبرز البلدان العربية التي وصلها عدد كبير من المسؤولين الأجانب سواء المدنيين منهم أو الضباط العسكريين وقاموا بإعداد تقارير مفصلة عن مشاهداتهم وملاحظاتهم وتوصياتهم إلى حكوماتهم لغرض التعامل مع المنطقة وفق ما تقتضيه مصالحهم.

ففي عام ١٧٢١ جاء إلى مسقط الكسندر هاملتون وهو عسكري إنكليزي وقد أدهشه الأسطول العُماني وقال عنه: "يتألف من سفينة كبيرة تحمل أربعة وسبعين مدفعًا وسفينتين كبيرتين تحمل كل واحدة منهما ستين مدفعًا وواحدة تحمل خمسين مدفعًا وهنالك ثماني عشرة سفينة صغيرة تحمل كل واحدة ما بين أربعة إلى ثمانية مدافع".(٣٦) وعندما زار مسقط الضابط البريطاني ديفد سيتون عام ١٨٠٠ فأنه تحدث عن بحريتها وأعداد سفنها ومواصفتها، فضلاً عن ذلك فأنه قام بإعطاء وصف كامل عن السفينة (الجنجافة) التي سافر عليها مع سلطان عُمان.(٣٧)

ونتيجة لكثرة السفن العُمانية وأهمية مسقط التجارية فقد ورد ذكرها في كتابات المبعوثين الروس إلى الخليج العربي ومنهم سيرفر المبعوث الذي زار عُمان بداية عقد العشرينيات من القرن التاسع عشر وقدم تقريرا عام ١٨٢٤ إلى الكسندر الأول والذي أكد فيه على أهمية عُمان وضرورة السيطرة عليها مؤكدًا أن كافة السفن الحربية والتجارية الداخلة والمغادرة للخليج العربي تمر بمسقط وبجانب الساحل العُماني.(٣٨) ومن كتابات المسؤولين الأجانب الأخرى المهمة التي تناولت السفن العُمانية وثائق (سي يواتيجسون بي سي اس)(Aitchison) والتي ثبت فيها كل المعاهدات والاتفاقيات التي وقعها شيوخ الخليج مع الدول الأوربية، حيث أشارت تلك الوثائق إلى الاتفاقيات التجارية التي وقعها العُمانيون من أجل سلامة ونشاط سفنهم ومنها الاتفاقية التي وقعت عام ١٨٣٣ مع الولايات المتحدة الأمريكية والتي أشارت إلى إمكانية دخول السفن العُمانية إلى الموانئ الأمريكية ولا تدفع رسومًا أكثر من تلك التي تدفعها السفن الأمريكية التي تدخل إلى الموانئ العُمانية.(٣٩)

أما عن تشكيلات الأسطول العُماني، فقد أورد التاجر الأمريكي روبرتس الذي زار عُمان عام ١٨٣٣ بأن السلطان كان يملك أسطولاً وقوة بحرية تتألف من:

١-سفينة مزودة ب ٦٤ مدفعًا.

٢-ثلاث فرقاطات مزودة كل منها بـ ٣٦ مدفعًا.

٣-سفينتان مزودة كل منهما ب ١٤ مدفعًا.

٤-مائة مركب تقل عليها ستة ألاف مقاتل.

كما ذكر في تقريره بأن عُمان في عهد السيد سعيد كانت تمتلك أكبر أسطول تملكه الدول الأسيوية والأفريقية الواقعة على سواحل المحيط الهندي.(٤٠) وتذكر بعض المصادر أن الكابتن (هارث) أحد العاملين في القوة البحرية العُمانية زمن السيد سعيد قد وضع كشفًا عام ١٨٣٤ بأعداد سفن الأسطول العُماني أيام السلطان سعيد موضحًا أنواعها، وقد تضمن الكشف بوجود بارجة حربية واحدة وثلاث فرقاطات وسفينة حربية واحدة فضلاً عن عشرين سفينة تجارية عائدة للسلطان وعدد من البغلات البحرية والمراكب التي تحمل كل منها ما بين الأربعة والعشرة مدافع.(٤١)

وأشارت الوثائق البريطانية إلى رحلة السفينة كارولين التي أرسلها السيد سعيد عام ١٨٤٥ إلى ميناء لندن وبينت حمولة تلك السفينة والبضائع التي نقلتها، وفي عام ١٨٤٩ تم إرسال السفينة ارتميس إلى لندن في مهمة تجارية أيضًا.(٤٢) كما أشارت الوثائق البريطانية التي كتبها سالدانها إلى وصول السفينة العُمانية كارولين عام ١٨٤٩ إلى مدينة مرسيليا الفرنسية وهي تحمل بضائع من زنجبار.(٤٣)

أما بالنسبة إلى مايلز الذي زار عُمان عام ١٨٧٤ أنه شاهد خلال زيارته لمدينة صور بناء ثمان سفن في نفس الوقت مؤكدًا أن أسطول عُمان التجاري في النصف الأول من القرن التاسع عشر بلغ مائة سفينة عابرة للقارات تجوب المدن والموانئ والسواحل ما بين البصرة شمالاً والهند وسواحل أفريقيا جنوبًا وهي تحمل التمور واللبان والبن والأقمشة والأسماك والأخشاب والسمن والتوابل ومواد غذائية أخرى.(٤٤) وأوضح مايلز بأن الأخشاب على أنواعها تستورد من الملبار، أما تكلفة بناء مركب من طراز البدن فيبلغ أربعة ريالات للمتر المكعب الواحد وفي أمكان ثلاث نجارين بناء سفينة خلال ثلاثة أشهر، أما الأسلاك المستعملة فهي المصنوعة من الحبال يتم صنعها في مطرح واحسن قماش للأشرعة يجل من البحرين.(٤٥) كما تحدث مايلز عن نوعين من السفن أولهما تسمى البدن وتستخدم للتجارة الداخلية لكونها صغيرة الحجم، أما طراز البغلة الذي هو اكبر المراكب والسفن العُمانية فيستخدم في التجارة مع بومباي وخليج البنغال وأفريقيا الشرقية والبحر الأحمر وهناك سفينة بتيل والزيما وتتراوح حمولة الأول بين مائة ومائتي طن غير أن البدن هو أهم المراكب الساحلية وأكثرها عددًا واستعمالاً ويبلغ طولها ٢٠-٢٥ قدما وحمولتها ١٠-٢٠ طن، ويوجد أيضًا نوع أخر يسمى الشوعي وهو قريب إلى الطراز الأوربي، أما في ساحل الباطنة فيوجد نوع من القوارب اسمه الشاشة وهو يقاوم الأمواج وكما يقول مايلز "الشاشه دليل على قدرة الإنسان العربي على تطويع المواد لمطالبه واحتياجاته وهو مصنوع من سعف الخيل بشكل كامل وذلك بتجميعها كلها وتركيب القارب عن طريق الصانع الخبير وهذا القارب يصل طوله إلى اثني عشر قدمًا ولا يتسع لأكثر من شخص أو اثنين على الأكثر، وعلى الرغم من أن هذا النوع من القوارب هش إلا أنه مطاط وفي وسعه أن يتحمل أشد الأمواج عنفا ويستعمل في الصيد وفي الاتصال بالسفن الراسية بعيدًا عن الشاطئ".(٤٦)

وتحدث البريطاني لوريمر أحد موظفي حكومة الهند البريطانية والذي أرسل إلى منطقة الخليج بمهمة استقصائية للكتابة عن المنطقة، تحدث عن السفن العُمانية بتأكيده أن بناء تلك السفن أدى إلى زيادة استيراد الأخشاب التي تدخل في بناءها من الهند، كما أن العُمانيون لم يكتفوا بصناعة السفن المحلية بل أنهم قاموا بشراء سفن أوربية وبناء بعض سفنهم في الموانئ الهندية مثل بومباي وسورات، وبالتالي أصبح لدى عُمان منذ منتصف القرن التاسع عشر أكبر أسطول حربي وتجاري في المنطقة الممتدة بين الخليج العربي وجزيرة مدغشقر وكان له تواجد مهم في البحر الأحمر.(٤٧)

ومن الكتاب الأخرين الذين تطرقوا إلى السفن العُمانية القنصل الروسي في البصرة الكسندر اداموف الذي قال: "كانت السفن الشراعية العُمانية تخرج من ميناء صور إلى البصرة وهي محملة بأنواع البضائع وعند عودتها تحمل معها التمر والحبوب فضلاً عن ذلك فأنها تجلب معها إلى الهند الأخشاب والكيروسين والقادمة من زنجبار تجلب الأخشاب اللازمة لصناعة السفن القادمة من مسقط تجلب السمك المجفف والليمون".(٤٨) بالإضافة إلى ذلك فقد أشارت الوثائق البريطانية إلى المخاطر الكبيرة التي ممكن أن تتعرض لها مصالحها بوجود الأسطول العُماني ولذا فأنها كانت دائمة المراقبة له.(٤٩) وبذلك يلاحظ أن كتابات المسؤولين الأجانب كانت واضحة ومفصلة بخصوص البحرية العُمانية، وكان ينتابها القلق من تطور تلك البحرية وامتلاكها لأعداد كبيرة من السفن بأنواع مختلفة.

رابعًا: كتب أخرى

اهتم العديد من الكتاب بالتاريخ العُماني وذلك لأهمية عُمان السياسية والاقتصادية الأمر الذي دفع الباحثين الأجانب إلى البحث في تفاصيل تاريخها، ومن المؤكد أن التاريخ العُماني لا يمكن أن يخلو من الإشارة إلى سفنها سواء من حيث الإشارة إلى أنواعها أو تصنيعها أو ذكر مساهماتها العسكرية في خوضها للمعارك البحرية ومن ذلك ما ذكره بادجر في كتابة عن تاريخ أئمة وسادة عُمان فقد أشار قائلاً: "كان لسيف بحرية كبيرة تحت قيادته وأن إحدى سفنه تحمل ثمانين مدفعًا كبيرًا"، كما أنه ذكر السفن العُمانية عند مشاركتها في دعم البصرة أثناء الحصار الفارسي عليها، إذ قال "أرسل السلطان أحمد حملة إلى البصرة ١٧٧٥ وأخذ معه أسطولاً قوامه عشرة سفن حربية وقوة كل واحد منها عشرة ألاف رجل".(٥٠) كما أشار إبراهام بارسونز إلى أن أحمد بن سعيد اشترى بعض السفن من ميناء البصرة والموانئ العربية الأخرى داخل الخليج(٥١) ونتيجة لكثرة أعداد السفن العُمانية، فقد

قدر الكاتب رونالد هولي عدد سفن أسطول القهوة فقط في عام ١٧٦٥ بخمسين سفينة كانت تقوم برحلاتها من مسقط إلى البصرة.(٥٢)

أشارت عدة مصادر متنوعة قام بأعدادها عدد من الكتاب والمؤلفين الأجانب والتي اعتمد بعضها على مصادر أخرى أصلية والتي تحدثت بعضها إلى أهم أنواع السفن العُمانية في عهد السيد سعيد:(٥٣)

النوع	الوصف
شاه علم:	وهي فرقاطة بحرية تحمل ست وخمسون مدفعًا وحمولتها تبلغ ألف ومائة وإحدى عشر طنا.
كارولين:	نوع أخر من السفن يطلق عليها فرقاطة تحمل على متنها أربعين مدفعًا وحمولتها تبلغ خمسمائة وخمس وسبعون طنًا.
تاج بكس:	اسم مركب تبلغ حمولته سبعمائة وسبعة وثلاثين طنًا.
ليفربول:	اسم بارجة تحمل أربع وسبعين مدفعًا تزن حمولتها ألف وسبعمائة وخمسة عشر طنًا.
سلطانه:	اسم سفينة تحمل أربعة عشر مدفعًا وتبلغ حمولتها ثلاثمائة واثني عشر طنًا وتُعَدّ من أهم قطع الحربية العُمانية.
تاجه:	اسم مركب يحمل اثني عشر مدفعًا وحمولته تبلغ ألفان وخمسة وعشرين طنًا.
نوسري:	اسم مركب تزن حمولته مئة وتسع وسبعون طنًا.
البغلة:	أكثر أنواع المراكب استعمالاً في عُمان والخليج وكانت تحمل ما بين مئة إلى مئة وخمسون طنًا
السنبوق:	من أكثر المراكب العُمانية عراقة وتتراوح حمولته ما بين عشرين إلى مئة وخمسون طنًا.
الجلبوت:	اسم مركب تاثر بالتصميم الأوربي فهو يشبه السفينة الأوربية المسماة جولي بوت ويذكر أن اسمه مشتق من اسم المركب البرتغالي جالبوتا، وتبلغ حمولته ما بين أربعين وخمسة وسبعين طنًا.
البدن:	أكثر السفن العُمانية شهرة.
البتيل:	مركب مزود بالمدافع وتصل حمولته إلى ما يقارب مائتي طن.
الزيما:	وهو يشبه البتيل ويستخدم في السواحل.
الداو:	وهو من السن العُمانية الكبيرة.
الغراب:	وهو من أقدم أنواع السفن العُمانية الحربية، وقد ورد ذكره على لسان العديد من الكتاب الأوربيين ولونه أسود يشبه الغراب.

وقد أشار برترام ثومس إلى بعض أنواع السفن العُمانية واستخداماتها، فعلى سبيل المثال أكد أن السفينة المسماة (الداو) كانت تستخدم في المياه الضحلة في الخليج، وكانت هنالك سفن أخرى يطلق عليها البدن المتخصصة بتجارة السمك ومنها يسمى البغلة وهي كبيرة ومتخصصة في المتاجرة مع المناطق البعيدة خارج الخليج.(٥٤)

ومن جانب أخر، اهتمت بعض المصادر الأجنبية برحلات السفن العُمانية التي أرسلها السيد سعيد لغرض التبادل الدبلوماسي مع الدول الكبرى، وكانت أولى تلك الرحلات قد قامت بها السفينة (سلطانه) التي أرسلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٠ وكانت بقيادة أحمد بن نعُمان حيث حملت على متنها كميات كبيرة من السلع والبضائع العُمانية وبينت تلك المصادر أنواع وكميات السلع التي أرسلت إلى نيويورك أو السلع التي عادت بها السفينة سلطانه إلى عُمان.(٥٥) وتدل هذه الرحلة دلاله واضحة على قدرة العُمانيين على القيام بأدوار إيجابية في العالم الخارجي فضلاً عن قدرة الأسطول العُماني على الوصول إلى أبعد مناطق في العالم لا سيما وأنها السفينة العربية الأولى التي وصلت إلى السواحل الأمريكية آنذاك.

فضلاً عن ذلك، فقد أشار الكاتب الأمريكي اتليس إلى تلك السفينة قائلاً: "كانت السفينة سلطانة التي أسماها السيد نسبة إلى زوجته الأولى السلطانة عزه بنت الأمير سيف حاكم شيراز وهي من أسرع سفن الأسطول العُماني تم بناءها في حوض مازجون في مدينة بومباي الهندية عام ١٨٣٣ وكانت أشرعتها مربعة تحملها ثلاث صوار وكان

بناءها على الطراز الأوربي وادخل عليها بعض التعديلات في تصميمها لتناسب الطابع العُماني.[٥٦] أما بالنسبة إلى روبرت جيران لاندن الذي بحث في التاريخ العُماني وتناول تاريخه في مراحل تاريخية مختلفة كما انه ركز على المدة التي اخذ فيها الضعف يدب في أوساط الأسطول العُماني لا سيما بعد وفاة السيد سعيد وبعد أن أكد على سعة التفوق البحري العُماني بالقول "كانت السفن التي يملكها أهل مسقط تحمل أكثر من نصف تجارة الخليج العربي عام ١٨٥٤".[٥٧] عاد مرة أخرى ليقول "أخذ نشاط السفن المحلية يقتصر على العمليات الساحلية المحدودة والرحلات غير المنتظمة أو على النشاط غير المسموح به كالتهريب نتيجة لتزايد البواخر البريطانية الكبيرة في المنطقة".[٥٨]

كما تحدث كرستيان اوسبوران في كتابه دول الخليج وعُمان عن النشاط التجاري لعُمان وأنواع السفن فيها، حيث قدم وصفًا لبعضها مبينا طولها وحمولتها ونوعية تجارتها.[٥٩] كما أن البريطاني جون كيلي قد أوضح العديد من الصراعات والمعارك والتي أشار فيها إلى السفن العُمانية التي كانت تُعَدّ حجر عثرة أمام المصالح الأجنبية في المنطقة والتي نافست أساطيل القوى الكبرى التي كانت تريد فرض هيمنتها على المنطقة.[٦٠]

خَاتِمَةٌ

وفي ختام هذا البحث، لا بد من القول إن البحرية العُمانية بامتلاكها لأعداد كبيرة من السفن كانت قد رسمت تاريخًا مشرفا للعقلية العربية التي استطاعت بإمكاناتها البسيطة من قهر القوى الكبرى وتقف بوجهها، كما أنها استطاعت أن تصل إلى المناطق البعيدة متجاوزة مياه المحيطات في تلك الظروف الصعبة التي لم تكن هنالك تقنيات أو أجهزة حديثة تستطيع الاعتماد عليها، لكن خبرة الملاحين العُمانيين أدت إلى تفوقهم ووصولهم إلى تلك المراحل المتقدمة آنذاك، ولذا يجب الاهتمام بذلك التاريخ الزاخر والذي أصبح تراثًا لا يفتخر به العُمانيون فحسب، بل العرب جميعًا نتيجة للإسهامات الكبيرة التي قدمها العُمانيون في مجال الملاحة واكتشاف الطرق البحرية خلال تلك القرون، لذا فإن التذكير بذلك التاريخ يعطي الحافز والعزيمة لأبناء هذا الجليل لغرض اتخاذ ذلك التراث منطلقًا نحو التطور والابتكار والتميز والإبداع وعدم الاعتماد على الغرب، وإنما الاعتماد على الثروة التي يكتنزها عقول أبنائنا، والعمل على تنميتها وإظهارها بالمظهر الذي يليق بذلك التاريخ والتراث الذي كان يومًا من الأيام له السطوة والقوة ويُحسب له.

نتائج الدراسة

اتضح من خلال البحث النتائج الأتية:

- أشارت المصادر التاريخية الأجنبية وبمختلف عناوينها إلى أهمية البحرية العُمانية وتطورها وتنوعها بوجود مجموعة كبيرة من السفن بمختلف الأنواع والأحجام وقد ساهمت تلك البحرية في ازدهار النشاط الملاحي العُماني خلال المراحل التاريخية المختلفة.
- بينت تلك المصادر أعداد السفن وأحجامها وكيفية بناءها وأسمائها سواء كانت المخصصة لأغراض التجارة أو المخصصة للأغراض العسكرية، كما بينت تلك المصادر حجم التجارة التي كانت تقوم بها تلك السفن.
- اتضح من خلال تلك المتابعات التي أولتها المصادر التاريخية الأجنبية القلق الكبير الذي كان ينتاب القوى الكبرى من تنامي وتصاعد قوة الأسطول العُماني ومن ثَمَّ شعورها بالخطر على مصالحها لا سيما وأن العُمانيون استطاعوا أن يخرجوا البرتغاليون الذين كانوا يملكون قوة بحرية كبيرة مجهزة بأسلحة حديثة آنذاك، لكن تفوق السفن العُمانية ساعد على التصدي لهم وإخراجهم من العديد من مناطق الخليج العربي وشرق أفريقيا.
- تبين من خلال البحث السعي الدائم والمتواصل للسلاطين العُمانيين في الاهتمام بالبحرية العُمانية من خلال تصنيع إنشاء الموانئ اللازمة لبناء السفن والتشجيع على جلب المواد اللازمة لها أو سعيهم المتواصل في شراء السفن من المناطق الأخرى.
- أشارت المصادر التاريخية الأجنبية إلى قوة الأسطول العُماني واستعداده الدائم للتصدي لأي طارئ، وذلك من خلال تزويد السفن العُمانية بمدافع وأسلحة.
- اتضح من خلال الدراسة أن السفن العُمانية كانت من أوائل السفن العربية التي وصلت إلى مناطق بعيدة حتى أنها وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، وهي بذلك ترسل رسائل إلى تلك الدول بأنها متمكنة من الوصول إلى تلك المناطق.

الاحالات المرجعية:

(١) عبد الله جاسم علي أل ثاني، **الحياة السياسية والاقتصادية في إقليمي البحرين وعُمان بين القرنين الخامس والسابع الهجري (الحادي عشر والثالث عشر الميلادي)**، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٨، ص١٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٠.

(٣) للتعرف أكثر يُنظر: أبو عبدالله محمد الطنجي المعروف ابن بطوطة (ت. ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، **رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١-ج٢**، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧.

(٤) سرحان بن سعيد الازكوي (ت. ١١٧٧هـ/ ١٧٦٥م)، **كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، مطابع سجل العرب، ١٩٨٠، ص ١١.

(٥) للتعرف أكثر يُنظر: حمود بن حمد الغيلاني، **أسياد البحار الأسطول البحري العُماني وأثره في التجارة الدولية**، ج١-٢، مسقط، ٢٠١٥.

(٦) ماركو بولو (ت. ٧٢٦هـ/ ١٣٢٤م)، **رحلات ماركو بولو**، ترجمة/ عبد العزيز جاويد، القاهرة، ١٩٩٥، ص٨١.

(٧) علي أبا حسين، "**من العلاقات الثقافية بين روسيا ودول الخليج العربي**"، مجلة الوثيقة، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، (١٩٩٩) العدد ٣٥، ص١٤.

(٨) نقلاً عن: نيقولا زيادة (ت. ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م)، "**الخليج العربي والرحالة الأوربيون**"، مجلة الرائد العربي، (١٩٦٢)، العدد ١٩، ص٢٨.

(9) Robin Bidwell, **Bibliographical Notes on European Accounts of Muscat, 1500-1900**, p.125.

(٩) مستكشفون وضباط ومغامرون يرسمون صورة عُمان، على الموقع www.alkhaleej.ae

(10) Charles Loekyer ,**Anaccont of the trade of India**,London,1911,p.207.

(11) john bruce, **the Annals of the honorable East-India company**, vol.3, London, 1810. p.170.

(12) Abraham Parsons, travels in Asia and Africa, London, 1808, p.206.

(١٤)(13) Ibid.

جيمس ريموند ولستيد (ت. ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م)، **تاريخ عُمان رحلات في شبه الجزيرة العربية**، ترجمة عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٧٢،١٥٥،٤٥.

(15) W.Gifford Palgrave, **Narrative of year journey through central and Eastern Arabia, 1862-1863**, vol.2, London, 1856, p.380.

(16) Bathurst, **the ya rubi in oman**, ph. oxford university.1967, p.120.

(17) Ibid,99

(18) faclemeuts oman the Reborn land, London, 1980, b.38.

(١٩) صالح العابد، "الصراع البحري العُماني البرتغالي في الخليج العربي وغرب المحيط الهندي في النصف الثاني من القرن السابع عشر"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة بغداد (٢٠٠١)، العدد ٥٢، ص٤٣.

(20) Bathurst, Op.Cit, p.124.

(21) Ibid, p.103.

(22) Ibid, p.121.

(23) Ibid, p.132.

(24) Cl.Hurt, **Histoire des arabes**, tom II, paris, 1913, p.264.

(25) Bathurst, Op.Cit,p.141-142.

(26) Qouted in Batharst the yarabi, b.188.

(27) Calvin.h.hllen, **oman the modernization of the sultanate**, London, 1987, p.37.

(28) John Bruce, op.cit, p.169.

(29) Marine Records, Vol .891, August 15 1799, Report ontrade of Arabia and Persia by samuel Monesty and harbord jons.

(30) India Office, **factory Records, Letters from Bussora, Gambroon etc. Letter From Bussra**, vol. 21, September 1769.

(31) Amillton**, A new Account of the East India 1688-1723**, vol.1, p.45.

(32) India Office, OP Cit, p.234.

(33) Bombay Governments, **selection from the Records of Bombay Government**, vol. xxix, Bombay, 1856.

(٣٤) ريجبي، **تقارير حول زنجبار**، سجلات حكومة بومباي، سلسة جديدة، رقم ٥٩،١٨٦١، ص١٨-١٩.

(35) India Office, OP Cit. ,p256.

(36) Alexander Hamilton**, Anew Account of East Indies**, London, 1827, vol.1, p.74.

(37) Bombay Governments, Op cit, p.543.

(٣٨) سيرجي جيرجيوف، "عُمان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من خلال الوثائق الموجودة في الأرشيفات الرسمية لسان بطرسبيرج"، **مجلة الوثيقة**، مركز الوثائق التاريخية، مملكة البحرين، (٢٠٠٢)،العدد ٤١،ص١٥٥.

(39) Aitchison, **Treaties, Engagement and Sands Telating to India and Neighbouring** Counteries, vol.xl, Delhi,1833.

(٤٠) نقلاً عن: جمال زكريا قاسم، **دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠-١٩١٤**، الكويت، ١٩٧٤، ص٨٣.

(41) Bombay Governments, Op cit, p.2826.

(42) Saldanha, **Precis ofcorres pondance Regrding the A ffairs of the gulf 1810-** 1853, vol. vIII, London, 1986, pp.186-187.

(43) Ibid.

(٤٤) س.ب. مايلز، **الخليج بلدانه وقبائله**، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث والثقافة، عُمان، ٢٠١٦.

(٤٥) المصدر نفسه، ٢٩٠.

(٤٦) المصدر نفسه، ص٢٩١.

(٤٧) ج ج لوريمر(ت. ١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، **دليل الخليج**، القسم التاريخي، ج١، ترجمة مكتب أمير دولة قطر، د.ت، ١٦٤.

(٤٨) الكسندر اداموف، **ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها**، ترجمة هاشم التكريتي، بيروت، ٢٠٠٩، شركة الوراق، ص٥٢٤.

(49) Bombay Governments, Op cit.

(٥٠) جورج بيرسي بادجر(ت١٣٠٥هـ/١٨٨٨م)، **مقدمة كتاب تاريخ أئمة وسادة عُمان**، ترجمة، محمود علي الداوود، ٢٠١٢.

(51) Abraham Parsons, **Travel in Asia Africa**, London, 1808, P.207.

(٥٢) رونالد هولي، **عُمان ونهضتها الحديثة**، ترجمة مؤسسة ستايس، لندن، د.ت، ص١٨٦.

(٥٣) وندل فليبس (ت. ١٣٧٢ه/١٩٥٣م)، **تاريخ عُمان**، ترجمة محمد أمين عبد الله، ١٩٩٤، عُمان، ص. ١١-١١٣. رودلف سعيد روت، **سلطنة عُمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١-١٨٥٦**، ترجمة/ عبد المجيد حسين القيسي، البصرة، ١٩٨٣، ص١٨٨. عُمان في أمجادها البحرية، سلسلة تراثنا، العدد الثامن، عُمان، ١٩٩٤، ص٨٩-٩٦.

(54) Bertram Thomas, **Arab Rule under the Al-bu said dynasty of oman 1741-1939**, London, p.15.

(٥٥) هرمان فريدريك اتليس، **سلطانه في نيويورك أولى رحلات الأسطول العُماني لأمريكا عام ١٨٤٠**، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عُمان، ١٩٨٠، ص٦٤-٦٧.

(٥٦) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٥٧) روبرت جيران لاندن، **عُمان منذ القرن التاسع عشر حتى القرن العشرين**، ترجمة مركز المؤسسة، الدار لعربية للموسوعات، بيرت، ٢٠١٢، ص١٦٤.

(٥٨) روبرت جيران لاندن، المصدر السابق.

(59) hristine Osborne, **The Gulf Staes and Oman**, London, 1977, p.133.

(٦٠) جون كيلي، **بريطانيا والخليج ١٧٩٥-١٨٧٠**، ج١، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة، مطبعة عيسى البابي، عُمان، ١٩٦٥.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الثروة الطبيعية في الريف الشرقي المغربي
معدن الحديد نموذجًا



د. فريد المساوي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
جامعة عبد المالك السعدي
تطوان – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تحتوي منطقة الريف الشرقي المغربي على معدن الحديد من أجود أنواع الحديد في العالم، وكان السكان يستغلونه ويتجرون فيه منذ العصور الوسطى على الأقل. وفي الفترة المعاصرة، خاصة مع بداية القرن العشرين، كان هناك تنافس حاد بين العديد من الرأسماليين الأوربيين على استغلاله. ولا يمكن الحديث عن معدن الحديد بالريف الشرقي دون التطرق للخطوة التي أقدم عليها الثائر الجيلالي الزرهوني (بوحمارة) في مطلع القرن العشرين، والذي عقد صفقة استغلال المناجم مع شركتين إحداهما إسبانية والأخرى فرنسية. ولعب استغلال معادن الريف خلال الفترة الاستعمارية دورًا مهمًا في التنمية الحضرية والازدهار الاقتصادي لمدينة مليلية المحتلة، فإلى حدود أواخر القرن التاسع عشر الميلادي لم تكن المدينة شيئًا يذكر من حيث النمو العمراني، ولكن المعادن فتحت فيها آفاق التجارة، وجلبت إليها المستثمرين فنمت واتسعت. وكانت إسبانيا تحقق الاكتفاء الذاتي من الحديد وتصدره إلى العديد من الدول، بينما العمال من أبناء البلد لم يحظوا حتى بالمساواة مع الإسبان في نوع العمل وفي الأجر وفي ظروف حياتهم بشكل عام. وبعد الاستقلال انتقل الاستغلال إلى المسؤولين المغاربة، وكان الفساد وغياب التدبير السليم هو سيد الموقف، حتى تم تخريب وإتلاف ما أقامه الإسبان من تجهيزات، والدفع بالشركة إلى الإفلاس فتوقف العمل بالمناجم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٧	يناير	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	١١	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:
إسبانيا؛ المغرب؛ الريف؛ المعادن؛ المناجم؛ الحديد

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.324281 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
فريد المساوي، "الثروة الطبيعية في الريف الشرقي المغربي: معدن الحديد نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٨٦ – ٩٩.

Corresponding author: faride87@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

تلعب المعادن، خاصةً معدن الحديد، دورًا مهمًا في حياة الإنسان، نظرًا لاتساع وتعدد مجالات استعماله. وباتت حاجة الإنسان إلى الحديد تزداد مع التطور والتقدم البشري، ذلك أن الإنسان انتقل من الاستعمال البسيط للحديد في صنع أدوات الفلاحة والحفر والتقطيع والأسلحة اليدوية، إلى بناء الآلات العملاقة والعربات وشتى أنواع وسائل النقل وقطع الغيار والمصانع العملاقة، وغير ذلك مما توصل إليه التقدم البشري في عصرنا الحالي. وعلى هذا الأساس كانت الإمبريالية الأوربية، التي جاءت كنتاج للثورة الصناعية وما أفضت إليه من حاجة الدول الصناعية إلى المواد الخام بشكل عام والحديد بشكل خاص، تهدف بالدرجة الأولى إلى التنافس حول مصادر تلك المواد الخام والاستيلاء عليها واحتكارها. سنقدم في هذا المقال نموذجًا من مناجم الحديد التي كانت هدفا للتنافس الإمبريالي الأوربي، قبل احتلال المنطقة المتواجد فيها من طرف الإسبان، وهي مناجم الحديد بالريف الشرقي المغربي الغنية بمعدن الحديد من أجود أنواعه في العالم، مند بدايات الاستغلال الأولى، مرورًا بالتنافس الأوربي والاستغلال الإسباني للمعدن، إلى استقلال البلاد وعودة ملكية المناجم إلى المغاربة.

أولاً: استغلال حديد الريف في العصور الوسطى والحديثة

تعتبر منطقة الريف من المناطق المعروفة منذ أزمنة قديمة بوجود معدن الحديد واستغلاله والاتجار فيه من طرف السكان. وحسب شرح قدمه مهندس معادن إسباني بمناجم بني بويفرور[١] لأحد الزوار خلال فترة الاستعمار الإسباني حول تكون معدن الحديد بالريف، فإن جبل كوروكو[٢] القريب هو جبل بركاني، كان ثائرا في العصور الجيولوجية القديمة ثم خمدت ثورته، وكان يقذف الحمم فتسيل الصخور الملتهبة الذائبة على جوانب الجبل على شكل لافا، ولم تتكون من تلك اللافا معادن على سفوح نفس الجبل لأنها كانت تبرد بسرعة، أما في الناحية المقابلة للبركان فإن المواد الملتهبة والمنصهرة كانت تتجمع فتقع تحت الضغط، وتبرد في بطء شديد فتتحول إلى معادن نافعة، أي إلى هذا الحديد النفيس[٣].

وإذا كنا لا نعرف متى بدأ استغلال الحديد بالريف على وجه التحديد، فإننا نقف على إشارة تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي، حيث أورد عبد الواحد المراكشي في (المعجب) أنه "فيما بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى تمسامان، فيه معدن حديد[٤]". وفي القرن السادس عشر نجد مع الحسن الوزان أن مناطق كرت والريف الشرقي عموما كانت كثيرة الإنتاج لهذا المعدن، حيث أشار إلى أن مدينة مليلية "لها إقليم كبير ينتج كمية هامة من الحديد والعسل[٥]". ويقول حين حديثه عن مدينة أمجاو الواقعة على بعد نحو عشرة أميال غرب تزوطة[٦]، أن جميع الجبال المجاورة لها كانت بها "مناجم حديد يعمر العمال المشتغلون فيها العديد من المداشر والقرى[٧]". أما عن جبال بني سعيد الممتدة ـ حسب نفس المصدر ـ من غساسة[٨] إلى النكور[٩] غربا، فكانت تستخرج من أراضيها كميات كبيرة من الحديد، وكان "لكل عامل في المعدن داره قرب المنجم مع ماشيته ومعمله الذي يصفي فيه الحديد، وينقل التجار هذا الحديد إلى فاس في شكل سبائك، لأن عمال المعادن لا يعرفون كيف يحولونه إلى قضبان. وما لا يباع منه يستخدم آلات كالمجارف والفؤوس والمناجل، وكذلك لصنع أسلحة لهؤلاء الفلاحين، إذ لا يمكن استخلاص الفولاذ من هذا الحديد[١٠]". ونفس المعطيات التي تحدث عنها الوزان نجدها بعده عند مارمول كارباخال، سواء فيما يتعلق بأحواز مدينة مليلية[١١]، أو بالجبال المجاورة لأمجاو[١٢]، وكذلك ما يتعلق بجبال بني سعيد، عدا كون هذا الأخير خلط بين بني سعيد الريفية وبني سعيد الغمارية[١٣]، ومن هنا يتضح أن كارباخال استقى معلوماته من الحسن الوزان نفسه.

أضاف الوزان في معرض حديثه عن جبل وردان (بني وليشك حاليا) الذي يتاخم جبال بني توزين، مشيرا إلى سوق كانوا يقيمونه هناك يوم السبت على ضفة نهر صغير، وكان "يلتقي فيه معظم فلاحي كرط، ويأتي إليه كذلك عدد مهم من تجار الحديد. وتتم المبادلات التجارية بأجهزة الخيل وبالزيت في مقابل الحديد، إذ لا تنتج بلاد كرط الكثير من الزيتون[١٤]"، وقد أشار مارمول كارباخال أيضا إلى هذا السوق إلا أنه لم يذكر تجارة الحديد فيه[١٥]. أما فيما يتعلق ببني بويفرور المعروفة بهذا المعدن في

الفترة المعاصرة، فإن الوزان حين ذكرها، وإن لم يذكر الحديد بالضبط، إلا أنه أشار إلى أن جبل (ازكنكن[١٦])، "إنتاجه لا يقل عن إنتاج الجبال السابقة[١٧]". هذا ونجد في مخطوط (رسالة في تاريخ المغرب) المعروف بمخطوط ميشيغان، وهو لكاتب مجهول، ويعود إلى الفترة العلوية، خاصة عهد المولى سليمان، إشارة مهمة أثناء الحديث عن قبيلة تفرسيت، وهي أن هذه القبيلة "لها معدن من الحديد موجود الآن يتصرف فيه بخدمته ويصنع منه الحديد ويباع في الأسواق[١٨]".

أما في القرن التاسع عشر، خاصةً قبل بروز التهافت الأوربي على معادن الريف، فنجد أن موضوع وجود واستغلال معدن الحديد بالريف قد تراجع إلى طي النسيان، فعلى سبيل المثال الفرنسي أوجست مولييراس صاحب كتاب المغرب المجهول، رغم اهتمامه بكل شيء في الريف، خاصة ما يتعلق بالثروات الطبيعية، إلا أنه لم يشر إلى هذه المسألة حتى أثناء حديثه عن بني بويفرور نفسها، هذا بالرغم من أن المادة الطوبونيمية التي أوردها عن بعض الأماكن تحمل إشارات ذات دلالة على وجود هذا المعدن في زمن ما، كإشارته إلى وجود واد بتمسامان يسمى واد الحديد، وهو نهر صغير يحد بين بني بوداوود وأيت موسى وعمر[١٩]، وكذا ذكره لقرية الحديد التي تستخدمها بني بوداوود بتمسامان كمرفأ لها[٢٠].

ثانيًا: الثائر بوحمارة ومناجم الريف

لا يمكن الحديث عن معدن الحديد بالريف الشرقي دون التطرق للخطوة التي أقدم عليها الثائر الجيلالي الزرهوني (بوحمارة) في مطلع القرن العشرين، حين عقد مع الإسبان صفقة لاستغلال هذا المعدن. فهذا الشخص الذي أثار أكبر حركة مناهضة للدولة المركزية، مستغلا في ذلك استياء الفقراء من فرض المخزن لضريبة الترتيب على الممتلكات الفلاحية والمواشي التي سنت عام ١٩٠١، وقد ناصرته أغلب القبائل التي رفضت أداء هذه الضريبة[٢١]. والذي قيل عنه أنه لم يكشف بعد الكثير من أسرار حركته والجهات التي كانت تموله وتدعمه من الخارج، ولكن يبدو أيضا أنه كان يحظى بسند قوي في الداخل. ولولا ذلك ما استطاع أن يصمد ست سنوات في وجه قوات المخزن ويهزمها غير ما مرة[٢٢]. على كل حال، فالمعلوم أن هذا الثائر بعد خوضه مجموعة من المعارك ضد قوات المخزن في محيط مدينة تازة والضواحي الشرقية، اتجه نحو الريف الشرقي حيث اتخذ من قصبة سلوان مركزا ومنطلقا لعملياته. فلماذا اختار هذه المنطقة بالضبط عوض الاتجاه إلى محاصرة فاس أو غيرها من العواصم والمدن الكبرى؟

هناك مَنْ يرى أن هدف بوحمارة من وراء الزحف في اتجاه الريف الشرقي هو البحث عن منفذ بحري يمكنه من الانفتاح على الخارج، ولتسهيل الحصول على ما يحتاج إليه من الأسلحة وغيرها من حاجياته، وليكون قريبا من فرنسيي الجزائر[٢٣]، وهناك من يرجع ذلك لصلة منطقة زرهون بالريف بسبب استقرار عدد كبير من الريفيين هناك خلال فترات متباعدة، خاصة في العصر العلوي قبل الحماية[٢٤]، ولكن مهما توفر من أسباب فالواضح أن احتياج بوحمارة إلى المال لتمويل حربه ضد المخزن المركزي والقبائل التي لم تنضم إلى ثورته، دفعه للبحث عن مصدر يدر عليه المال بأية وسيلة، خاصة بعد فشل المركز التجاري الذي أقامه على ساحل سبخة بوعرك Mar chica، وعدم كفاية ما كان يوفره له التاجر دافيد شاربي من مليلية بمختلف الطرق[٢٥]، خاصة بعد أن توقف الجزائري الشيخ بوعمامة عن مناصرته وأصبح كل من نجله الطيب وعبد المالك بن عبد القادر في قبضة المخزن[٢٦].

لقد دفعته حاجته الملحة إلى المال للاقتراض من الفرنسيين، ووافق لهم مقابل ذلك على إقامة ميناء بسبخة بوعرك، كما رخص للإسبان مقابل "أموال بخسة" بوضع أيديهم على معادن الحديد ببني بويفرور، وعلى أراضي كثيرة حول مليلية لمد خط السكة الحديدية. وكان لهذه الخطوة التي أقدم عليها أثر حاسم في إضعاف نفوذه بالمنطقة، حيث انقلبت عليه الكثير من القبائل التي كانت تناصره[٢٧]. إذ كانت خزينته تعتمد بالأساس على هبات بعض الفرنسيين بالجزائر، والذين ظلت علاقته بهم خفية، وعلى الضرائب التي كان يجبيها من القبائل الخاضعة له، وعلى ما تدره عليه الرسوم الجمركية المجباة من مدخل مليلية، ثم ما صار يحصل عليه من أصحاب الامتيازات الفرنسيين والإسبان الراغبين في استغلال مناجم الريف. فقد أبرم سنة ١٩٠٧ مع "الشركة الإسبانية لمناجم الريف" عقدا مدته ٩٩ سنة[٢٨] خول فيه لهذه

لشركة حق استغلال حديد منجم وكسان، وفي نفس السنة سمح لشركة إسبانية ممولة برأسمال فرنسي وهي "شركة شمال إفريقيا" باستغلال مناجم الرصاص بجبل أفرا قريبا من منجم الحديد المذكور، ورخص للشركتين بالشروع في مد خط السكة الحديدية من ميناء مليلية إلى بني بويفرور لنقل المعادن إلى المصانع الأوربية[٢٩]. فكان رد فعل القبائل المجاورة الخروج عن طاعته والشروع في محاربته بقيادة الشريف محمد أمزيان، ومحمد بن حدو الورياغلي، وعبد الكريم الخطابي الأب[٣٠].

أما بوحمارة، فقد عمل كل ما بوسعه لتنفيذ اتفاقيته مع الشركتين، ودعى إلى حماية العمال الإسبان الذين بدأوا في شق طريق السكة الحديدية، والذين وصلوا إلى منطقة المناجم وبدأوا بأعمال الحفر، ونسوق هنا وثيقة، هي رسالة بعثها إلى بعض أعيان قلعية تعود إلى تاريخ ٠٧ أبريل ١٩٠٨، يلح فيها على حماية العمال الأجانب والسماح لهم بشق الطريق واستغلال المعادن، وقد جاء فيها:

"خديمينا الأرضين الأمين عبد الكريم بديوانة مليلية والأمين الشاذلي القلعي المزوجي سلام عليكما ورحمة الله وبعد، فإننا بحول الله وقوته وشامل يمنه قد أذنا لخدام عتبتنا الشريفة الكبانية الاسبنيولية وشريكهم التاجر افيد شربيط بمليلية في خدمة طريق المشينة من الحدادة للمعدن السعيد على مقتضى الحاجة، وعليه بوصوله إليكما نأمركما بتسريحهم وكف اليد العاملة عنهم بحيث لا يتعرض لهم أحد في ذلك ومن فرط شيء في جانبهم فلا يلومن إلا نفسه، أعانكما الله وأصلحكما والسلام. صدر به أمرنا المعتز بالله في ربيع النبوي عام ١٣٢٦ هـ"[٣١].

وقد عين بوحمارة ٥٠ جنديا لحراسة الإسبانيين الذين يعملون في منجم جبل وكسان، تحت قيادة الحاج الفضيل النصيري، كما عين فرقة أخرى لحراسة عمال منجم جبل احرشاوا عند الشركة الفرنسية تحت قيادة رجل يسمى بابن العتروس، وشرعت كل من الشركتين في مد السكة الحديدية بين مليلية والمنجمين[٣٢]. في أكتوبر 1908، هاجم مجموعة من سكان الريف منشآت الشركة الإسبانية دون وقوع إصابات، فأوقفهم بوحمارة وعاقبهم بقسوة، وكان هذا سبب بداية التمرد عليه[٣٣]. وقبل نقل القطارات أول شحنة من الأحجار المعدنية إلى مليلية، انطلقت الثورة الريفية ضد بوحمارة، فتعطل العمل في المنجمين وفي الخطين الحديديين[٣٤]. لقد أمر الرئيس أنطونيو مورا الشركتين بالتوقف، واستشارة السلطان وزعماء القبائل إن كان بإمكانهم الحفاظ على الأمن في المناجم، فسافر ألفونسو ديل فالي إلى فاس وأبلغه السلطان أنه سيفعل ذلك إذا تخلت القوات الإسبانية عن ريستينكا ورأس الماء[٣٥]، وأكد أن ملكية الشركتين للمناجم لا يعتد بها لحصولهما على الامتياز من دعي متمرد. لكنه أبدى رغبته في إرسال سفارة إلى مدريد لمحاولة التوصل إلى اتفاق. ومن جانبه، التقى حاكم مليلية الجنرال مارينا ببعض أعيان القبائل، ثم أبلغ مدريد أن هناك انقسامًا في الرأي بين من قبلوا بالوجود الأجنبي لأنه خلق فرص الشغل وبين من يعارضه[٣٦].

وفي سنة ١٩٠٩، بعد العودة إلى العمل، هاجم المقاومون بقيادة الشريف محمد أمزيان ورش السكة الحديدية فأتلفوها برمتها، وقد جرت معارك ضارية بين الإسبان والمقاومين الريفيين استمرت ستة أشهر، خلف فيها الجيش الإسباني ما بين قتيل وجريح حوالي ٢٠٠٠ جندي[٣٧]. وإذا كانت هذه المقاومة قد توقفت بعد استشهاد الشريف محمد أمزيان سنة ١٩١٢، ففي بداية العشرينات اندلعت حرب الريف بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي ليكون عائقا آخر لاستغلال المعادن، وفي هذا الصدد يقول أمين الريحاني: "أما الشركة الإسبانية للمناجم الريفية هي ربة هذا الجبل، ولكنها وإن كانت قد بدأت الحفر سنة ١٩١١، توقفت طويلا؛ فقد حالت الاضطرابات والثورات مدة عشرين سنة دون الاستثمار، فلم تباشره حتى سنة ١٩٣١"[٣٨]، بينما نجد كاتبا إسبانيا يقول أن العمل بدأ مع أولى شحنات خام الحديد التي كانت سنة 1914، ولكن حتى سنة 1929، مع إصلاح المنشآت القديمة والفاشلة، آنذاك يمكن القول أن العمل بدأت تظهر ثماره[٣٩].

ثالثًا: الإسبان ومناجم الريف

لعب استغلال معادن الريف دورا مهما في التنمية الحضرية والازدهار الاقتصادي لمدينة مليلية، فإلى حدود أواخر القرن ١٩ لم تكن المدينة شيئا يذكر من حيث النمو العمراني، وكان عدد سكانها سنة ١٨٩٥ لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة، وأصبحوا في أواخر الثلاثينات سبعون ألفا،

منهم ألفان من المسلمين، ثمانية آلاف من اليهود، وقليل من الأوربيين غير الإسبان[٤٠]. ذلك أنه بعد الاحتلال الإسباني للريف، والتمكن من استغلال معدن الحديد، تم توسيع ميناء المدينة، ومد السكة الحديدية إلى جبال بني بويفرور، فاتسع مجال العمل والتجارة للإسبان، فتهافتوا على "مدينة المناجم"، فأخذت تزداد عمرانا، وتزدهر اقتصاديا، فالحديد هو المصدر الأول لثروتها وازدهارها[٤١].

وقد كان الرأسماليون الأوربيون المتهافتون على المعادن، ومن بينهم الإسبان والفرنسيين، يعرفون ما تزخر به منطقة الريف من ثروة معدنية[٤٢]، وعرفت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تنافس العديد من الأوربيين على معادن الريف. وبعد الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية سنة ١٩٠٤ بشأن تقسيم النفوذ، والتي تضمنت تخصيص منطقة لإسبانيا في شمال المغرب، لم تقبل ألمانيا بالاتفاقية مما دعا إلى عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء عام 1906، حيث تم الاتفاق على التقسيم نفسه، ولكن الدبلوماسية الألمانية تمكنت من انتزاع حرية التجارة في المغرب[٤٣]، وأثارت مسألة الثروات المعدنية المغربية جدلا خاصا، ليتم تأجيلها حتى يصدر ظهير من السلطان يحدد قانون الامتياز[٤٤]. وشجعت سياسة الباب المفتوح رجال الأعمال من مختلف البلدان على السعي للحصول من السلطان على حقوق استغلال المناجم قبل صدور الظهير. ومنهم صناع الصلب الألمان رينارد وماكس مانسمان، اللذين حصلا على صك يخول لهما العديد من الامتيازات التجارية في المغرب، لكن ذلك صادف أن كان الريف الشرقي تحت نفوذ الثائر بوحمارة[٤٥].

بالنسبة للفرنسيين كان أول من حصل على امتياز استغلال معادن قلعية هم كل من المهندس المقيم بالجزائر ألكسندر بايل، والضابط والمستكشف غابرييل دلبريل[٤٦]، الذي كان يتعاون مع بوحمارة، حيث زار بايل بوحمارة سنة 1904، وحصل على الامتياز، وحقق دلبريل أيضًا نفس الهدف، ولكن لاحقا جمد بوحمارة اتفاقه مع دلبريل الذي فر من سلوان لاتهامه بالعمالة للمخزن[٤٧].

في بداية عام 1907، نقل بايل امتيازه إلى المهندس الفرنسي ألفريد ماسينيت، الذي التقى ببوحمارة في شهر ماي من نفس السنة، ودفع له 250 ألف بسيطة مقابل الأرض. وبعد فترة وجيزة من بدء العمل بأموال من مستثمرين فرنسيين وإنجليز وبلجيكيين، توصل القائد العسكري في مليلية الجنرال مارينا بأمر بعدم منح التأشيرات للفرنسيين الذين كانت مليلية طريقهم الوحيد للوصول إلى مكان المناجم. فاحتج ماسينيت أمام السفير الفرنسي في مدريد بزعم انتهاك اتفاقية الجزيرة الخضراء، فاقترحت إسبانيا حلا قبلته باريس والمهندس ماسينيت معًا. ستسمح إسبانيا للفرنسيين بالتنقيب على أن يكون مقر الشركة في الأراضي الإسبانية. وهكذا تأسست "شركة شمال إفريقيا" وكان مقرها في مدريد، وعين ماسينيت في مجلس إدارتها أنطونيو غارسيا أليكس، الوزير السابق والمحافظ السابق لبنك إسبانيا[٤٨].

أما الإسبان فقد ظهر أولا كل من كليمينطي فيرنانديس الذي كان يملك شركة باسمه في مدريد، والتاجر إنريكي ماكفيرسون. حيث حصل التاجر اليهودي دافيد شاربي يوما على عينات صخرية مستقدمة من جبال بني بويفرور، ليكتشف لاحقا أنها تحتوي على معدن الحديد[٤٩]، وأخبر بذلك كليمنتي فرنانديز، والذي اتصل بدوره بالتاجر إنريكي ماكفيرسون، وقرر كلاهما إرسال المهندس ألفونسو ديل فالي لتفقد المنطقة في بداية عام 1907، وفي شهر يونيو من نفس السنة، اشترى فرنانديز وماكفيرسون من بوحمارة مناجم الحديد متاخمة لمناجم ماسينيت[٥٠]. فهؤلاء الذين اتحدوا في شركة فيكيرا كلفوا مجموعة من المهندسين بتحليل بنية تلك الأحجار المقدمة لهم من طرف شاربي، فتوصلوا إلى أنها غنية بالحديد بنسبة ٧٥ في المائة، وعلموا أنها في مقالع سطحية سهلة الاستغلال[٥١].

بعد ذلك بقليل، ظهر الكونت رومانونيس، والذي أرسل بدوره مهندسين إلى الريف لمعاينة منطقة المناجم، وبعد تقرير المهندسين قام بشراء الامتياز من كابريال ديلبريل السابق الذكر، وعرض على بوحمارة 500000 بسيطة مقابل ذلك، لم يقبل بوحمارة بما أن تلك الأراضي هي نفسها التي فوتها لفرنانديز وماكفيرسون، لكنه باعه أراضٍ أخرى مجاورة مقابل 260 ألف بسيطة[٥٢].

وبفضل دافيد شاربي، انضم رومانونيس إلى الآخرين، واندمج في شركة فيكيروا، وأصبح من بين الشخصيات الهامة في هذه المجموعة.

لقد اصبحت شركة فيكيروا مكونة من الإخوة: الكونت دي رومانونيس، الكونت دي ميخورادا والدوق توفار، مع ثلاث مجموعات أخرى وهي: مجموعة كومياس، مجموعة ماكفيرسون ومجموعة فيرنانديس، وهؤلاء جميعا سيعملون على تأسيس "الشركة الإسبانية لمناجم الريف"(٥٣). فبعد أن حصل رومانونيس على أرض مجاورة لأرض فرنانديز وماكفيرسون، عرض الشراكة حتى يمكن إنشاء شركة إسبانية لاستغلال كلا الامتيازان، كما ضغطت الحكومة الإسبانية من أجل ذلك، وفي يوليوز 1908 تم تأسيس الشركة، وكان مساهموها الرئيسيون هم: فرنانديز، ماكفيرسون، رومانونيس، وشقيقه الدوق توفار وخوان أنطونيو جويل، ماركيز دي كوميلاس، وتم تعيين الوزير السابق ميغيل دي فيلانويفا رئيسًا لمجلس الإدارة(٥٤).

كان تأسيس الشركة بموجب صك تم تحريره من قبل العدل إميليو كوديدو دياز، وذلك برأسمال أولي قدره ٦,٠٠٠,٠٠٠ بيسيطة، وكان أعضاء أول مجلس إداري هم: الرئيس: دون مانويل فيلانويفا إي جوميز. نائبه: الدوق دي لاس طوريس. السكرتير المدير: خيرومينو رويس دي لا باررا، الأعضاء: كليمنتي فرنانديز، إنريكي ماكفيرسون، ألفونسو ديل فالي، خوسيه أنطونيو غويل، كونت سانتا كولوما دي سيرفيلو(٥٥). ولاحقا انضم الدوق طوفار إلى مجموعة مانيسمان الألمانية التي كانت تحاول انتزاع حصتها من المعادن الريفية، والمكونة من الإخوة مانيسمان، أصحاب مصانع في دوسلدورف، وملاك ثروة كبيرة، وذوي تأثير مهم في الريف بفضل الكميات الكبيرة من الأسلحة التي كانوا يهدونها للقبائل الريفية، بحيث اقترحوا التنازل عن حقهم مقابل حصة ٥٠ % من عائدات الشركة، هكذا أسس شركاء إسبان وألمان "مجموعة مانيسمان الريف(٥٦)".

لم يكن الريفيون في فترة بداية القرن ٢٠، ليسمحوا بتدخل الأوربيين لاستغلال المعادن بأي وجه من الوجوه، وكذلك المخزن المركزي نفسه، ذلك أن الجميع آنذاك كان يعي الأهداف الاستعمارية للأوربيين ونزعاتهم الاستغلالية. ولكن بعد ثورة الجيلالي الزرهوني (بوحمارة)، دفعته حاجته إلى المال لتمويل حربه ضد قوات المخزن وإخضاع المزيد من القبائل، للبحث عن طريقة تخول له الحصول على الموارد المالية، ولذلك فبمجرد أن بسط نفوذه على منطقة قلعية، خاصة قبيلة بني بويفرور حيث تقع مناجم الحديد، عقد صفقة مع الشركتين، حيث اتفق الطرفان على أن تستغل الشركة الإسبانية منجم جبل وكسان، وتستغل الفرنسية منجم جبل احرشاوا لمدة ٩٩ عاما، وبعدما دفعت له الشركتان نحو خمسة ملايين بسيطة، شرعت في العمل فورا. وذلك في تاسع يوليوز من سنة ١٩٠٧(٥٧). وعمل بوحمارة على حماية عمال الشركتين لتنفيذ مضمون الاتفاقية، وهذا سنتطرق له في فقرة خاصة.

وبعد انهزام بوحمارة بدأ الحاكم العسكري لمدينة مليلية يراسل زعماء قلعية، خاصة الشريف محمد أمزيان، يحاول إقناعهم بالعمل على مد السكة الحديدية، وبالمنافع الكثيرة التي سيجنيها الأهالي من الشركتين، ومن العمل في أوراش استغلال المعدن. ولكن الشريف محمد أمزيان كان يلح على أن صلاحية الترخيص بذلك مخول للسلطة المركزية وحدها، وأن انتشار الفوضى جعل الأوضاع غير مؤمنة على تواجد الأجانب وسلامتهم، مما قد يثير الكثير من المشاكل. ورغم تصريح الحاكم باستعداد الشركة لحماية الطريق بالأسلاك الشائكة، وأن كل من تخطاها من الأجانب يتحمل مسؤولية ذلك، إلا أن الشريف أمزيان أصر على رفضه، وعلى عدم التنازل عن أي شبر من تراب الوطن(٥٨). كما حاول الإسبان إرشاءه أيضا، ذلك أنهم بعثوا له من مليلية مع السيد علال الورثي البجافري، وهو أحد وجهاء قلعية، بمبلغ كبير من المال قدر بثمانية آلاف ريال إسبانية، يلتمسون منه أن يستخدم نفوذه على زعماء قبائل قلعية ليوافقوا على مد طريق السكة إلى جبلي وكسان واحرشاوا، وعلى استغلال معادن الجبلين، ولكن الشريف رفض تسلمه، وطلب من علال البجافري إعادته لهم(٥٩). وظل حاكم مليلية يراسل زعماء القبائل واحدا بعد الآخر يغريهم بالمال، ويعدهم بالامتيازات(٦٠)، خاصة الشريف أمزيان، فقد عرض عليه أموالا طائلة ومنصبا هاما، ولكنه أصر على أنه لا حاجة له بأموالهم(٦١).

بعد فشل حاكم مليلية الجنرال مرينا في محاولاته لإغراء زعماء قلعية بالمال والامتيازات، بدأ في تنفيذ مخططاته بالقوة، وأعد لذلك جيشا كبيرا مجهزا بأحدث الأسلحة، وصار يتحين الفرصة المتاحة للبدء في احتلال المنطقة انطلاقا من مليلية(٦٢)، الواقع أن الحكومة الإسبانية تعرضت لضغوطات قوية لاستئناف العمل في المناجم، وتشير الوثائق إلى الجهات التي كانت تضغط على الجنرال مورا للترخيص وهي: الملك، وزير الحرب، الجنرال ليناريس، الجنرال مارينا، رومانونيس، فيلانويفا، جويل، غارسيا أليكس، غرفة التجارة في مليلية، صحافة الحزب الليبرالي، المؤسسة والجمعيات الأفريقانية، والمهندس ماسينيت، الذي انقلب في محاولة للوصول إلى مناجم الريف مباشرة من الجزائر عن طريق إرسال بعثة استكشافية إلى قلعية، وهو ما لم يتحقق بسبب معارضة القبائل الأخرى. وفي شهر يونيو 1909، وبسبب الضغوطات، سمحت الحكومة للشركتين باستئناف عملهما(٦٣).

وفي 9 يوليوز، أمر الجنرال مارينا عددًا من العمال الإسبان بالبدء في إتمام طريق السكة الحديدية(٦٤)، كما تهيأ زعماء قلعية وعلى رأسهم الشريف محمد أمزيان للتصدي لأية محاولة تدخل من طرف الإسبان، حيث أصدر أوامره بالهجوم على العمال الإسبان الذين كانوا يقومون ببناء الجسور لطريق السكة، فنفذ ذلك الشيخ المختار بن بوعرفة البويفروري ومعه نحو ٢٥ من رجال قلعية(٦٥). وأسفر الهجوم عن مقتل العديد من عمال الشركة الإسبانية. رد الجنرال مارينا بقصف المنطقة، فبدأت الحرب التي أسفرت عن خسارة إسبانيا أكثر من 20 ألف شخص، وكلف خزينتها مبالغ مالية هائلة، وكان لها تأثير عميق لدرجة تسميتها بالأسبوع المأساوي(٦٦). واستمرت الحرب بين الريفيين والإسبان، وتشابكوا في عدة معارك أشهرها معركة "إغزر نوشن" الشهيرة.

وبالموازاة مع الحرب والمعارك العسكرية، شنت إسبانيا عبر إعلامها حملة دعائية كبيرة ضد المقاومين الريفيين وزعمائهم، خاصة الشريف محمد أمزيان، بهدف تشويه سمعتهم، وزرع الفرقة بين المقاومين وتشتيتهم، وتمكنوا بوسائلهم من استصدار فتاوى من بعض الفقهاء بعدم مشروعية هذا الجهاد باعتباره لم يأت استجابة لدعوة سلطان البلاد. ولكن زعماء المقاومة عملوا على توعية الناس بأهداف تلك الحملة، عبر تنظيم حلقات للتعليم والتكوين الديني، وبيان قيمة الجهاد وفضله، وفضح نوايا الاستعمار الإسباني في الريف(٦٧). كما دعا المقاومون إلى خوض حرب اقتصادية أيضا، وذلك بمقاطعة الأسواق الإسبانية ومنتجاتها(٦٨).

رابعًا: عملية الاستغلال والنقل

انتهى أمر استغلال مناجم الحديد بالريف الشرقي إلى شركتين: الأولى هي الشركة الإسبانية لمناجم الريف، والثانية هي شركة سيتولاسار setolazar. الأولى كانت تستغل منطقة مستطيلة مساحتها نحو ٥ على ٨ كيلومترات، فضلا عن منطقتين صغيرتين. والأخرى تستغل منطقة مربعة مساحتها ٤ كيلومترات في كل اتجاه(٦٩). أما ما يتعلق بكيفية العمل فقد كانت وسائل العمل منذ الشحنات الأولى سنة 1914 تتم بوسائل بسيطة، وكان الاعتماد كثيرًا على العمل اليدوي، ثم لاحقًا بدأت الشركتين، خاصة الشركة الإسبانية لمناجم الريف، في تطوير وسائلها، مثل رصيف الشحن بمليلية cargadero، محطة الطاقة الكهربائية المملوكة للشركة، وفي عام ١٩٢٩ تم إصلاح جميع المرافق البدائية والآلات بصفة عامة وتوسيع منطقة الاستغلال، وتم إنشاء مغاسل أطالايون، ومحطة معالجة المعادن في ويكسان(٧٠).

كانت تحفر في الجبل الصخري حفر لحشوها بالمتفجرات، وعدد ما يحفر منها نحو خمسين حفرة كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع حسب الحاجة، وعمق الحفرة الواحدة متر ونصف، ثم تحشى بالديناميت فيحدث انفجار هائل، ويهوى شطر ضخم من الجبل، فتظهر المعادن، وتقوم الآلات الرافعة بنقلها وتفريغها في العربات(٧١)، وتنحدر العربات كلها إلى مستوى واحد مقصود ثم تنقلب أوتوماتيكيا مفرغة شحنتها، فيكون لإفراغها دوي شديد، فتتلقى كتل الحديد آلة التحطيم المريعة فتفصل بين الحديد وغيره من المواد الملتصقة به عند خط التماس ligne de contact، وتختفي الكتل المحطمة عن الأنظار، إذ تتلقاها أحواض في المعامل حيث تجري عمليات التحليل(٧٢). هذا ما أشار إليه أيضًا أمين الريحاني، الذي زار المنجم في أواسط الثلاثينات حيث قال: "ينقل الحديد

بعربات على خطوط من حديد إلى معمل التكسير، إلى الآلات، ويا لهول تلك الآلات الكسارة، المركبة في ثنايا الجبل، المتصل بها من أسفل ومن أعلى شبه قنوات من حديد، فتتدهور في العالية جلاميد الصخور، تقذف بها تلك العربات، فتتناولها الآلة بأضراسها الجبارة، وتكسرها بقوة هادئة خارقة كما تكسر اللوز والجوز بمكسرتك الفضية على المائدة[٧٣]".

عند إخراج المعدن من الكسارة، يمرر عبر غربال مكون من ثلاث طبقات، والتي تميز بين ثلاثة أحجام مختلفة: الحجم الأكبر بين 12 و 55 ملم، والمتوسط بين12و35 ملم، ثم الحجم الأصغر بين 0 و12 ملم. يصب مسحوق الحجم الأكبر على حزام ناقل لينقل عبر قطار الترام الإلكتروني ثلاثي الكابلات لمسافة 350 متراً إلى الأفران. الحجم الأصغر 0-12 يذهب مباشرة إلى خزان الخام. أما الحجم المتوسط 12-35 ملم. فيتم تمريره عبر مطحنة بعمود مخروطي دوار، ومن هنا يخرج بالحجم الصغير 0-12 ملم، حيث يضاف إلى الخام السابق في خزان الخام[٧٤].

يقول أحد الشاهدين على هذه العملية في صغره وهو الأستاذ أحمد بودهان: "كنت ... أذهب مع أقراني إلى المناجم لنتفرج على الآلات الحديدية وهي تعمل كالعربات الحديدية، التي يشحنها العمال بالأحجار المعدنية خاما، والقاطرات التي تجرها، ونتفرج من بعيد على "الديناميت" حين تنفجر للتنقيب على المعادن في باطن الأرض، أو المصعد الآلي الذي يتحكم في تصعيد وإنزال العربات الحديدية من الأعماق إلى الأعلى، وكانوا يسمونه "بلانو"[٧٥]، كان هذا المصعد يعمل بقوة 60 حصان، ويمكن أن يرفع وزن مائة طن[٧٦]. يكمل الشاهد المشار إليه: "أو كنا نذهب أحيانا إلى حيث توجد تلك الأفران لتذويب المعادن، وكانوا يسمونها "أورنو"... وكذلك كنا... ندخل الكهوف والمغاور التي هجرتها اليد العاملة لنفاذ المعادن منها، وأحيانا نتبع القاطرات البخارية، أو النفطية الصغيرة وهي تجر العربات المشحونة بالمعادن، لتنقلها إلى القطار المعدني الرئيسي، لإيصالها إلى مليلية، ومنها إلى أوربا للتصنيع[٧٧]".

كان جبل ويكسان قد حفر على شكل طبقات ومدرجات أو رفوف، وكلما صعد المرء إلى الرفوف العليا كلما أمكن له مشاهدة الأشغال وسيرها بشكل أفضل[٧٨]، وكان بالمنجم أماكن يحفر فيها العمال بالمعاول، فيخرجون التراب والحجارة يملئون بها العربات التي تسير على خطوط الحديد إلى آلات التكسير والتصويل، إضافة إلى الجرافات الآلية الكبيرة التي تحفر الجبل وتدك صخوره[٧٩]. وكان هذا المحصول من المناجم، أي نحو مليون طن في السنة، يشحن في سكة الحديد، وهي ملك الشركة، إلى الميناء بمليلية، ومنها إلى إسبانيا؛ ليستخلص الحديد ويصنع من هناك، ذلك لأن هذه العمليات تستهلك من الفحم الحجري ما يكلف استجلابه إلى مليلية أكثر من نفقات شحن الحديد الخام إلى منطقة الباسك مثلا حيث تكثر مناجم الفحم[٨٠].

كان يتم تحميل المعادن من مدخل المنجم في القاطرات التي تنقلها مباشرة إلى رصيف شحن السفن في ميناء مليلية، أو إلى الخزان الاحتياطي الواقع في بني أنصار على بعد 24 كيلومترًا من موقع المناجم. يبلغ طول خط السكة الحديد 28 كيلومتر إلى الميناء بمسار عرضه 0.60 متر، وبسكة من فئة 18 كلغرام، وعارضات معدنية. يتكون القطار من قاطرتين بخاريتين للجر تبلغ قوتهما 325 حصانًا وتزنان 47 طنًا، وهناك اثنان آخران بقوة 185 حصان. وتزنان 28 طن. وأربع قاطرات أخرى بإجمالي 470 حصانًا. كما يتكون من 82 عربة تزن فارغة 8 طن، وأخرى تزن 16.5 طن. وقدرة السعة الإجمالية للقطار هي 1300 طن[٨١]. وكان القطار ذو قدرة على نقل 5000 طن من خام الحديد في اليوم[٨٢].

خامسًا: قيمة حديد الريف وجودته

تتحدد قيمة معدن الحديد المستخرج من جبال بني بويفرور انطلاقًا من ثلاث معايير أساسية: الأولى تتمثل في نسبة المعدن في الصخور التي يتم حفرها من الجبال؛ الثانية في الكمية الكبيرة من المعادن المحصل عليها بعد التصفية؛ أما الثالثة وهي الأهم فتتمثل في نوعية هذا الحديد وجودته. وهذا ما سنتطرق له في هذه الفقرة من خلال جمع الإشارات القليلة التي وردت في بعض المصادر.

فمن ناحية الجودة فالحديد المستخرج من مناجم الريف يعتبر من أفضل أنواع الحديد في العالم، ومرغوب فيه جدا من قبل أكثر الشركات العاملة في مجال

الصلب[٨٣]. فقد كانت أراضي إسبانيا غنية بمناجم الحديد، ولكن منتوجها ليس بجودة الحديد الموجود هنا في هذه الجبال القريبة من مليلية[٨٤]، وكان حديد هذه المناجم في بداية الخمسينيات يصدر إلى كل من إنجلترا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية وهولندا، وبالطبع إسبانيا (بلباو وخيخون وساغونتو)[٨٥].

أما من ناحية الكمية التي كان يتم حفرها، أشار أمين الريحاني إلى أن آلة الحفر بالشركة الإسبانية لمعادن الريف كانت "تكسر يوميا من الثلاثة إلى الأربعة آلاف طن، فترسل في القنوات السفلى إلى آلات التصويل والتحليل، فيفرز منها الكبريت والإكسير، وما تبقى يحتوي على ٧٠% من الحديد الأحمر hematite، وهو كما يقول المدير: أحسن حديد في العالم[٨٦]". وحسب مصدر آخر فقد كانت فرنسا وإيطاليا تستوردان نصف مليون طن سنويا من هذا المعدن النفيس، وكان يصدر منه إلى إسبانيا نحو ١٥٠ ألف طن، وهي الكمية التي تحتاج إليها[٨٧]. وكانت كل عملية تفجير التي تتطلب ما يعادل ٣٠ ألف كيلوغرام من المتفجرات، يتم من خلالها سحب ما يصل إلى ٣٥٠ ألف طن من المنتجات[٨٨]. أما الشركة الأخرى فحديد منطقة استغلالها يبقى من الدرجة الثانية من حيث الأهمية، وكان يصدر إلى ألمانيا، ولكن خلال الحرب العالمية الثانية، تعطلت حركة التصدير، ومع ذلك فالشركة استمرت في الإنتاج والتخزين ولم تتوقف أعمالها رغم الخسائر المتوالية، وقد كانت تأمل أن تبيع كميات من مخزونها لإنجلترا[٨٩].

وإن شئنا تفاصيل أكثر دقة، لدينا بعض الإحصاءات تعود لسنة ١٩٣٨: فمجموع ما استخرج من الحديد خلال هذه السنة قدر بـ ١,١٤٣،٨٤١ طن، وقدرت الكمية المصدرة ب ١,٠٦٦,٦١٤,٧٧٥ كيلوغرام، واستخرجت منه ١٠٠,٩٩٣ طن من البيريت، وقدر مسحوق الحديد بعد غسله في أحواض الشركة المتواجدة ب (أتالايون) ب ١٠٩,٥٨٩ طن. وكان هذا نتيجة الاشتغال لفترة قدرت خلالها عدد أيام العمل ب ٤٨٦,١٤٤ يوما، واستهلكت من الطاقة الكهربائية مقدار ٥٥٠,١٧٣ كيلووات[٩٠].

لقد بلغت عدد عمليات التحليل خلال نفس السنة ١٠,٣١٧ عملية، وتم ذلك لفرز ثلاث أنواع من الحديد بالنسب الآتية:

- معدن رقم ١: كتل أوكسيد الحديد ٨٠,٠٦ في المائة.
- معدن رقم ٢: مسحوق الحديد ٩,٦٦ في المائة.
- البيريت pirite (كبريت الحديد): ١٠,٢٨ في المائة[٩١].

وهذه بدورها كان يتم معالجتها بالتمرير عبر الأفران للتحميص، ثم تمر عبر مغاسل أطالايون فيتم الحصول على معدن مشابه للمعدن رقم ١[٩٢].

أما منجم أكسروا Axura الصغير فمجموع ما استخرج من الحديد في نفس السنة قدر ب ٤٢٣,١١٠ طن مقسمة حسب النسب الآتية:

معدن رقم ١:	٩٠,٩٤ في المائة.
معدن رقم ٢:	٧,٧٣ في المائة.
البيريت (الكبريت):	١,٣٣ في المائة[٩٣].

سادسًا: أوضاع عمال المناجم

يمكن التمييز فيما ورد في بعض المصادر حول أوضاع عمال منجم الحديد، سواء بالشركة الإسبانية لمعادن الريف، أو بشركة سوتولازار، بين نظرتين مختلفتين: إحداهما زار صاحبها أوراش المناجم مرة واحدة، كما اعتمد على المعلومات التي استقاها من إدارتي الشركتين أو من مسؤولي إدارة الحماية، ويمثلها هنا كل من الأستاذ محمد وهبي والرحالة أمين الريحاني. أما النظرة الثانية فصاحبها من ساكنة المنطقة، وكان بشكل دائم قريبا من المناجم، كما أتيحت له فرصة الاحتكاك بالعمال حتى في فترات لاحقة، وكانت المعلومات حول أوضاع العمال بالمناجم من المواضيع المتعارف عليها في الحياة العامة، ويمثلها هنا الدكتور أحمد بودهان.

كان الإسبان الذين يشتغلون في شركتي المعادن يسكنون في أحياء خاصة، إما حي Sotolazar jimi، وإما حي Pueblo viejo، أي الحي القديم[٩٤]، أما المغاربة فكانوا يسكنون وسط غيرهم من الأهالي في أحيائهم الفقيرة أو في المداشر المجاورة للمنطقة.

يشير محمد وهبي إلى أن تلك الأعمال الميكانيكية الهائلة تديرها أذهان إسبانية جبارة ويعاونها عمال ورؤساء عمال مغاربة غاية في النشاط والانتباه، فهم الذين يديرون تلك الآلات ويلاحظون إدارتها[٩٥]، والواقع أن وضعية العمال المغاربة لم تكن متساوية مع نظرائهم الإسبان، فبهذا الخصوص أورد الدكتور أحمد بودهان أنه

تمكن من الاطلاع على العديد من المظاهر السلبية في أحوال الطبقة العاملة، خاصة العمال من أهالي البلدة، بالمقارنة مع امتيازات عمال النصارى الإسبان، في مجال الأجور وطبيعة العمل والحقوق والتعامل، وأسلوب العيش والحياة، والبون الشاسع بين هؤلاء وأولئك[٩٦].

كان العمال من الأهالي يعملون في هذه المناجم في ظروف سيئة وجد قاسية، خاصة حين كانت الأشغال تباشر يدويًا، قبل أن تتولى الآلة القيام بمختلف الأعمال التي كان يقوم بها الإنسان، وهكذا كان العامل المغربي في هذه المناجم يحفر في تخوم المغارات والكهوف أو فوق الأجراف الخطيرة، وإما ينقل الصخور المعدنية على صدره من الأرض ليضعها في العربات، أو يكلف بدفع تلك العربات إلى حيث القاطرة التي تجرها، أو ينقل براميل الماء إلى بيوت النصارى الإسبان، أو يثقب الصخور بالآلة اليدوية لوضع الديناميت... وفي المساء حين يخرج أولئك العمال يذهبون إلى منازلهم في حالة يرثى لها، خاصة عمال المغارات والكهوف، وعمال أفران تذويب المعدن[٩٧]، لدرجة أنهم كانوا يخيفون الأطفال الصغار الذين يصادفونهم في الطريق، بسبب حالتهم المزرية وما يكتنف ثيابهم ووجوههم وأيديهم وأرجلهم من أسود فاحم، أو أحمر قاني أو أصفر فاقع، حسب تربة المنجم الذي اشتغلوا فيه، إذ كانوا يخرجون كأشباح تغطي بشرتهم الأتربة المعدنية[٩٨].

كان يشتغل في تلك المناجم إلى حدود أواخر الثلاثينات من القرن العشرين حوالي سبعمائة من العمال المسلمين، ومائة من الإسبان، حسب ما أشار إليه أمين الريحاني[٩٩]، ويضيف أنه كانت تسود في إدارتها أساليب وقوانين. وقوانين العمل حقوق وواجبات، تامة شاملة طبقا "لإنجيل" العمال في هذا الزمان، فالعمل ثماني ساعات، وأسبوع العمل خمسة أيام، والأرباح الإضافية مضمونة، ومخزن "الكوبراتيف" مفتوح للعمال وأهلهم جميعا[١٠٠]. ولكن عدد العمال ازداد لاحقًا حين وسعت الشركتين من مجال الاستغلال، وكذلك المرافق التابعة لها، حيث صار عدد العمال والموظفون 7000 عامل من الريفيين و500 إسباني كانوا يشتغلون بخبرة احترافية وقيادة متمكنة[١٠١]. أما الدكتور أحمد بودهان فيقول ـ عكس ما قال أمين الريحاني ـ أنه "لم يكن هناك ما نراه اليوم ونسمعه ونعيشه مما يسمى بالحقوق أو الواجبات أو النقابات، أو الجمعيات، أو الحوار الاجتماعي أو حقوق العمال وحقوق الشغل أو الضمان الاجتماعي، أو الحريات العامة أو الديمقراطية... الخ... الخ... من الألفاظ المتداولة اليوم في هذا المجال الاجتماعي[١٠٢]".

كانت لمخزن الشركة (الكوبراتيف) لجنة خاصة مؤلفة من إسبان ومغاربة تتولى إدارته وتضبط حساباته السنوية، فتوزع الأرباح على العمال كل حسب قيمة ما كان يقتنيه من المخزن، وقد بلغ ربح أحد العمال المغاربة خمسمائة بسيطة، وهو من الذين يشتغلون بخمس بسيطات لليوم، أي أقل الأجور، وهي تبلغ الخمس عشرة بسيطة للعمال الحاذقين والفنيين[١٠٣].

فيما يتعلق بالأجور، فقد كان الإسبان أثناء البدايات الأولى للعمل يؤدون للأهالي ما يعادل 25 سنتيم في اليوم مقابل تسليمهم البنادق وتخليهم عن المقاومة[١٠٤]. وخلال الأربعينات كانت أجرة العامل المسلم محصورة بين خمس وسبع بسيطات في اليوم، وفي أفضل الحالات تصل إلى ثمان بسيطات، أي ما يعادل نصف درهم إلى ٠,٨٠ درهم بعملتنا اليوم. أما العمال الإسبان الذين كان عملهم مريحًا، إذ كانوا يشتغلون داخل الإدارات، أو مراقبين، أو مهندسين، أو محاسبين، أو مساعدين، أو مرافقين... فقد كانت أجورهم أضعاف أجور العمال المغاربة، ولذلك كان مستوى العيش مختلفا اختلافًا كبيرًا بين العمال المغاربة والإسبان[١٠٥]. كان التمييز بين المسلمين والإسبان في نوع العمل وكذلك في الأجر، ذلك أن الكثير من المسؤولين الإسبان بمناجم الحديد كانوا يعانون من الضغط والحقد النفسي من جراء ما كانوا يسمعونه من آبائهم حول ما عانوه مع الريفيين إبان حرب الريف وعهد أعروي، وكذلك من الريفيين الذين شاركوا في الحرب الأهلية، فكانت تلك الضغينة والحقد الدفين ينعكسان على طريقة تعاملهم مع العمال الريفيين وإمعانهم في إذلالهم واستغلالهم، وكانوا يثأرون منهم لأنفسهم من خلال تلك الامتيازات التي يتمتعون بها مقابل بؤس المغاربة وشظف عيشهم[١٠٦].

لما كان العمل بالمناجم قد يخلف حوادث شغل من حين لآخر، إضافة إلى ما كان يستنشقه العمال من غبار، خاصة مادة سيلوكوس أو غبار ذرات المعادن، فيتسبب لهم في

علل صحية مزمنة توفي الكثير منهم بسببها[١٠٧]، فقد أقامت الشركة مستشفى بعين المكان يحتوي على بضع غرف نظيفة، وغرفة للعمليات على أحدث طراز وصيدلية للأدوية، وغرفة الأشعة والتصوير لتشخيص حالات الكسور أو الإصابات، وكان المستشفى تحت إشراف طبيب مقيم[١٠٨]. ففي سنة ١٩٣٨ حدثت حالة وفاة واحدة، وأربع إصابات خطيرة ألزمت أصحابها الولوج للمستشفى حتى تعافوا فعادوا إلى أعمالهم. أما الحوادث البسيطة فبلغت ٣٣٠ حالة، وقد يظهر أن هذه النسبة كبيرة - يقول محمد وهبي نقلا عن أحد مسؤولي إدارة المنجم - ولكن الواقع أن الحوادث تعتبر قليلة جدا بالنظر إلى عدد أيام العمل السنوية، وإليك النسبة المئوية:

نسبة الوفيات ٠,٠٠٢ في المائة.

نسبة الحوادث الخطيرة ٠,٠٠٨ في المائة.

نسبة الحوادث البسيطة ٠,٦٧٨ في المائة[١٠٩].

ومن المرافق التي أقامتها الشركة أيضًا، أنها أنشأت مدرستين للعمال وأبنائهم، إحداهما للأولاد والأخرى للبنات، وكان يتعلم فيهما ليلاً من يشاء من العمال أنفسهم، ويتعلم أبناؤهم في النهار. وكان الإقبال حسنا في النهار وفي الليل معا. كان الطالب المغربي من العمال يرغب خصوصًا في تعلم الحساب. والعامل المغربي -حسب تصريح للمدير- نبيه نشيط يتعلم بسرعة العمل على الآلات الميكانيكية والتجارية[١١٠]، وفيما يلي إحصاء للتلاميذ المستفيدون من الدروس بهاتين المدرستين خلال سنة ١٩٤٠:

عدد التلاميذ الذكور الأطفال من إسبان ومغاربة ٥١.

عدد التلميذات من إسبانيات ومغربيات ٦٤.

عدد التلاميذ البالغين من الإسبان ١٠.

عدد التلاميذ البالغين من المغاربة ٥٥.

مجموع التلاميذ ١٨٠[١١١].

وكانت هناك ساحة للألعاب الرياضية، كما كانت الشركة قد شرعت في بناء قاعة للسينما، لتوفير وسائل الراحة للعمال في أوقات الراحة[١١٢].

بالإضافة إلى التعليم الإسباني في المدرستين، فالمسلمون الذين كانوا يقطنون بأحيائهم المجاورة للمناجم كانوا يوفرون لأبنائهم تعليمهم التقليدي المتمثل في حفظ القرآن الكريم، كما استفاد من ذلك الدكتور أحمد بودهان حيث تعلم عن أخيه الأكبر كما كان يساعده في مهنة الخياطة، وذلك حين هاجر مع أمه من بادية البعاج ببني بويحيي ليستقر بجبل الحديد قرب مجموعة سيتولاسار في سنوات الأربعينات[١١٣].

سابعًا: مناجم الريف بعد الاستقلال

انتهت الحماية وعادت السيادة للمغرب سنة ١٩٥٦، وعقدت الحكومة المغربية اتفاقية مع الشركة الإسبانية لمناجم الريف في ١٥ أبريل ١٩٥٩ حول تخصيص نصيب للدولة من عائدات المعدن، وفي اجتماع انعقد في ٢٠ يونيو من نفس السنة، تم الاتفاق على أن تساهم الدولة المغربية ممثلة في مركز الأبحاث والدراسات المعدنية برأسمال قدره ٣١,٣٨١,٨٠٠ بسيطة، وهو المبلغ الذي أضيف إلى رأسمال الشركة الذي كان ٨٦,٣٠٠,٠٠٠ بسيطة، ليصبح ١١٧,٦٨١,٨٠٠ بسيطة، وهو ما يمثل نسبة مشاركة الدولة المغربية في الشركة بما يعادل ٢٦,٦٧٪ من الرأسمال الجديد[١١٤].

ولاحقًا أفضت سياسة المغربة، وضرورة تسيير المناجم من قبل المغاربة إلى عقد اتفاقية أخرى بين الحكومة المغربية والشركة الإسبانية في ٣١ مارس ١٩٦٧، وتتعلق بالاستغلال وتولي مسؤولية المناجم، وانعقد جمع عام استثنائي للمساهمين في ٢٨ يونيو ١٩٦٧، وتم الاتفاق على تصفية الشركة الإسبانية، وهذا ما أفضى إلى إنشاء شركة استغلال مناجم الريف (SEFERIF)، وهي جمعية تولت مسؤولية استغلال المناجم في ١ فبراير ١٩٦٨[١١٥].

قامت الحكومة المغربية بشراء جميع الأسهم المقدرة بـ 100715 سهما بقيمة إجمالية قدرها 100.715.000 درهم، ساهمت فيها شركة الأبحاث والمساهمات المعدنية بحوالي 80%. هكذا أصبحت مجموعة من المؤسسات والمرافق والممتلكات في ملكية الدولة أهمها: وحدة التكسير بخزاناتها العملاقة، الأشرطة المطاطية، الأفران، الحمامات، السكة الحديدية، القاطرات والعربات، عدد كبير من الشاحنات والجرافات والمطارق الضخمة والسيارات...، بالإضافة إلى يد عاملة محترفة يمكن أن تشتغل بمهارات عالية، ومئات الهكتارات من الأراضي تمتد من المناجم عبر زغنغن ثم بني نصار إلى حدود مليلية.[١١٦]

ولاستمرار التصدير عبر رصيف الشحن بميناء مليلية، تم إنشاء شركة جديدة Embarques y Transportes del Rif S.A والمعروفة اختصارا ب ETSA، والتي ورثت ممتلكات الشركة السابقة بمليلية وبنفس المساهمين، مع الاحتفاظ للمغرب بنفس نسبة المساهمة مع الشركة الإسبانية لمعادن الريف، وهي نسبة ٢٦,٦٧٪.. تأسست الشركة في ٦ يوليو ١٩٦٧، وتولت الإشراف على تصدير المعدن بتنسيق مع شركة سيفريف[١١٧]. وبسبب المنافسة في السوق العالمية كان لزاما على المغرب التفكير في تجديد الآليات وتأسيس معمل ضخم لمعالجة المعدن بجميع مراحلها، الاستخراج، التكرير، التحويل وفق طلب الشركات الصناعية، وفي سنة 1969 خرج المعمل إلى الوجود، وكان الأول في إفريقيا والرابع في العالم بعد أمريكا وكندا والسويد[١١٨]. ولكن التصدير عن طريق مليلية انتهى في ٣٠ غشت ١٩٧٢، وتم تصدير آخر شحنة من مخزون الخام الذي كان بمليلية والمقدر بـ ٦٧٠٠ طن لشركة "فيليبس برازرز" البريطانية في ٣ يوليوز ١٩٨٠[١١٩]، لتتحول عملية الشحن والتصدير إلى ميناء بني أنصار.

ولن تشتغل شركة سيفريف لمدة طويلة حتى بدأت مردوديتها تتراجع، ومشاكلها تتكاثر، فقد شاب تسييرها الكثير من مظاهر الغش والفساد، بدءا من التشغيل بناءً الانتماء العائلي بغض النظر عن الخبرة والتكوين في مجال العمل، إلى النهب وسرقة الممتلكات، وعقد صفقات مشبوهة قصد الاغتناء الشخصي، وإهمال العمال وتركهم عرضة للأمراض والتلاعب بمستحقاتهم... مما أدى في الأخير إلى إتلاف العديد من ممتلكات الشركة، وبيع الكثير منها في المزاد باعتبارها متلاشيات، وهكذا أفلست الشركة وأغلقت أبوابها بصفة تامة[١٢٠].

ظلت المناجم متوقفة رغم أنها لا تزال غنية بالحديد، وقد طرح أحد البرلمانيين في إحدى الجلسات مسألة إعادة فتح مناجم الريف واستغلال ثرواتها، فكانت إجابة المسؤولة عن القطاع أن المناجم لا تحتوي إلا على نسبة 15 في المائة فقط من الحديد، مما يعني أن هناك تهرب أو انعدام الرغبة في إعادة الاستغلال، وتم تحليل عينات سنة 2013 فتأكد أن نسبة الحديد فوق الأرض 66،65 في المائة، وتحت الأرض 62،44 في المائة، وهي ثروة مهمة جدًا من شأنها أن تدر مداخيل باهظة لخزينة الدولة ونخلق مناصب شغل كثيرة[١٢١]. وانتشر مؤخرًا في بعض المواقع الإلكترونية خبر مفاده أن المكتب الوطني للهيدروكاربونات المعادن أعلن عن طلبات عروض لفتح مناجم الريف وإعادة استغلالها.

خاتمةٌ

إن منطقة الريف شأنها شأن العديد من المناطق المغربية، غنية بالثروات الطبيعية والمعادن، وكان السكان يستغلون تلك المعادن منذ أزمنة قديمة بطرائق بسيطة وتقليدية. وإن فقر هذه المناطق ومعاناة سكانها من البطالة ونقص التنمية لا يعود إلى فقر منطقتهم وشح مواردها الطبيعية، بل إلى بحث طرق استغلال الموارد والمؤهلات الطبيعية المتاحة، بكيفية يستفيد منها أبناء البلد، وهذا يتطلب إرادة سياسية ونزاهة في التسيير وحسن التدبير. فخلال فترة الاحتلال الإسباني كان العمل الإنتاجي بالمناجم يسير في ظروف جيدة، ولكن الاستعمار عقيدته معروفة، فقد كان ينتج ويستفيد المتروبول من المنتوج، بينما العمال من أبناء البلد لم يحظوا حتى بالمساواة مع الإسبان في نوع الخدمة وفي الأجر وفي ظروف حياتهم بشكل عام. وبعد الاستقلال كان الفساد وغياب التدبير السليم هو سيد الموقف، حتى تم تخريب ما أقامه الإسبان من تجهيزات إيقاف العمل بالمناجم.

الاحالات المرجعية:

(١) قبيلة بالريف الشرقي المغربي، وهي إحدى القبائل الخمسة المشكلة لمجموعة قبائل قلعية.

(٢) جبل معروف بالمنطقة ذكرته المصادر الجغرافية القديمة باسم جبل هرك.

(٣) محمد وهبي، «رحلة جوية من تطوان إلى مليلية»، **جريدة الوحدة المغربية**، السنة ٤، العدد ١٥٥، الجمعة ١٧ شعبان ١٣٥٩/ ٢٠ سبتمبر ١٩٤٠، ص.٣ و٥.

(٤) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة القاهرة، ١٩٤٩، ص.٣٦٢

(٥) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، الجزء الأول، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣ ص.٣٤١

(٦) مدينة أو قلعة تازوضة (بالضاد) كانت توجد فوق جبل كوروكو، وقد تكون القبائل المحيطة بها استمدت منها اسم قبائل قلعية.

(٧) الحسن الوزان، م.س، ص.٣٤٣

(٨) مدينة قديمة كانت توجد بمنطقة الريف الشرقي.

(٩) اسم نهر بالريف الأوسط، ومنه استمدت إمارة النكور الإسلامية اسمها، وكذلك عاصمتها مدينة النكور التي خربت على يد المرابطين.

(١٠) الحسن الوزان، م.س، ص.٣٤٤ – ٣٤٥

(١١) مارمول كارباخال، **إفريقيا**، الجزء الثاني، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط ١٩٨٤، ص.٢٥٨

(١٢) نفسه، ص.٢٦٤

(١٣) يقول عن بني سعيد: "جبل كبير جدا، ويتاخم إقليم الريف، حيث يفصل بينه وبين إقليم كرت نهر نكور. وهو منقسم إلى ثلاثة فروع: بني سعيد، وبني منصور، وبني وليد، وكلهم أغنياء أبطال من قبيلة غمارة" أنظر: مارمول كارباخال، م.س، ص.٢٦٦

(١٤) الحسن الوزان، م.س، ص٣٤٦

(١٥) مارمول كارباخال، م.س، ص.٢٦٧

(١٦) بلدة أزغنغن الصغيرة الموجودة بالقرب من مدينة الناظور.

(١٧) الحسن الوزان، م.س، ص.٣٤٥

(١٨) مخطوط **رسالة في تاريخ المغرب** في عهد السلطان المولى سليمان (مخطوط ميشيغان)، ص ٩.

(١٩) أوجست موليراس، **المغرب المجهول**، الجزء الأول: **اكتشاف الريف**، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز الريف ٢، دار النجاح الجديدة ٢٠٠٧، ص ١٠٩

(٢٠) نفسه، ص ١١٠

(٢١) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الثالث، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء ١٩٩٤، ص.٢٩٥

(٢٢) نفسه، ص.٢٩١

(٢٣) كريدية إبراهيم، **ثورة بوحمارة ١٩٠٢ – ١٩٠٩**، شركة الطبع والنشر S.I.E، الدار البيضاء ١٩٨٦، ص ٤٧.

(٢٤) إبراهيم حركات، م.س، ص.٢٩٢

(٢٥) عبد الحميد الرايس، م.س، صص ٨٨ – ٨٩.

(٢٦) إبراهيم حركات، م.س، ص ٣٠٠.

(٢٧) نفسه، ص.٣٠١

(٢٨) قال أمين الريحاني في مسألة مدة الامتياز للشركة الإسبانية لمناجم الريف ما يلي: "جبل بني بويفرور باعه "بو حمارة" لهذه الشركة الإسبانية؛ أعطاها امتيازا مجهول الحدود والشروط، إلا في المديرية العامة، سنة كان ثائرا على سلطان المغرب (...) وقد تكون الحكومة الحامية عالمة ببعض تلك الشروط والحدود ولكنها متكتمة. قال لي المقيم العام الكولونيل بايبدر جوابا على سؤال سألته: قريبا تنتهي مدة الامتياز، وسيكون للمنطقة حينئذ حقوق في الاستثمار".

أمين الريحاني، **المغرب الأقصى**، نشر مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٧، صص. ٣٦٠ – ٣٦١

(٢٩) كريدية ابراهيم، م.س، ص ٥٦.

(٣٠) محمد الصغير الخلوفي، **بوحمارة من الجهاد إلى التآمر**، المغرب الشرقي والريف من ١٩٠٠ إلى ١٩٠٩م، دراسات ووثائق، دار نشر المعرفة، الرباط ١٩٩٣، صص ٥٦ – ٥٧.

(٣١) نفسه، ص ٥٧.

(٣٢) الحاج العربي الورياشي، م.س، ص ١١٥

(33) Antonio Escudero, «Las Minas de Guelaya y la Guerra del Rif», pp 329-336, **Pasado y Memoria**: Revista de Historia Contemporanea, N° 13, 2014, p.331

(٣٤) الحاج العربي الورياشي، م.س، صص ١١٥ – ١١٦.

(٣٥) موقعان على ساحل البحر المتوسط يوجدان شرق مدينة مليلية.

(٣٦) Antonio Escudero, op.cit, p.331

(٣٧) أحمد عبد السلام البوعياشي، **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، الجزء الأول، نشر عبد السلام جسوس وسوشبريس، طنجة ١٩٧٤، صص ٥١٥ – ٥١٦.

(٣٨) أمين الريحاني، م.س، ص. ٣٦١

(39) Ramon Touceda Fontenla, « Riquezas Marroquies : Las Minas del Rif », Revista **Marruecos**, Primer Año, N° 12 y 13, Noviembre y Diciembre 1949, p.31

(٤٠) أمين الريحاني، م س، ص. ٣٥٦ – ٣٥٧

(٤١) نفسه، ص. ٣٥٧

(٤٢) الحاج العربي الورياشي، **الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان**، الطبعة الأولى، المطبعة المهدية، تطوان ١٩٧٦، ص.١١٥

(٤٣) إن الخلاف الألماني حول طريقة تقسيم النفوذ في المغرب، خاصة مع فرنسا عرف تطورا، إلى اقتربت البارجة الألمانية panther إلى أكادير، مبررة ذلك بنفس المبررات التي قدمتها فرنسا على احتلالها الدار البيضاء، وإسبانيا على احتلالها العرائش، ولكي تتجنب فرنسا أي اصطدام محتمل اتفقت مع ألمانيا أن تتنازل لها على جزء من مستعمراتها في الكونغو بمساحة بلغت ٢٧٥٠٠٠ كلمتر مربع مقابل الاستمرار في سياستها في المغرب. أنظر:

ميكل مرتين، **الاستعمار الإسباني في المغرب (١٨٦٠ – ١٩٥٦)**، ترجمة عبد العزيز الوديي، الطبعة العربية الأولى، منشورات التل، الرباط ١٩٨٨، ص.١٩

(44) Antonio Escudero, op.cit, p.330

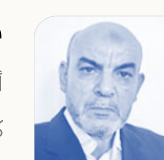
(45) Ibidem

(٤٦) كابريال ديلبريل له كتابات مهمة حول جغرافية الريف، خاصة الريف الشرقي وأشهرها كتاب Geografia general de la provincia del Rif
(47) Antonio Escudero, op.cit, p.330
(48) Ibidem
(٤٩) عبد الحميد الرايس، "المسألة المعدنية بالريف والتهافت الأجنبي (١٨٨٠ – ١٩١٢)"، صص ٧٣ – ١٠٣، **مجلة حوليات الريف**، العدد الثاني، السنة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة ١٤٢٠/١٩٩٩، ص ٩٠.
(50) Antonio Escudero, op.cit, p.331
(٥١) عبد الحميد الرايس، م.س، ص ٩١.
(٥٢) Antonio Escudero, op.cit, p.331
(٥٣) خافيير أنخيل راموس هيدالغو، **الذكرى المئوية الأولى لاستشهاد الشريف سيدي محمد أمزيان**، الترجمة إلى العربية مرية الصيباري، طبع الطوبريس، طنجة ٢٠٠٩، ص.٣٢.
(54) Antonio Escudero, op.cit, p.331
(55) Ginés Sanmartin Solano, "La Compañia Española de Minas del Rif (1907 – 1984)", pp 55-74, Revista Aldaba, N° 5, 1985, Centro Asociado de la UNED, Melilla, p.61
(٥٦) خافيير أنخيل راموس هيدالغو، م.س، ص.٣٢.
(٥٧) الحاج العربي الورياشي، م.س، ص.١١٥
(٥٨) نفسه، صص ١١٦ -١١٧.
(٥٩) نفسه، ص.١١٨.
(٦٠) نفسه، ص.١١٧
(٦١) نفسه، صص: ١١٧ – ١١٨.
(٦٢) نفسه، ص.١١٨.
(63) Antonio Escudero, op.cit, pp.331-332
(٦٤) الحاج العربي الورياشي، م.س، ص.١١٨
(٦٥) نفسه، ص.١١٩.
(66) Antonio Escudero, op.cit, pp.331-332
(٦٧) عبد الله كموني وعبد الوهاب برومي، **مقاومة الشريف محمد أمزيان من خلال النصوص العربية في يومية تلغراف الريف**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص.٢٦
(٦٨) نفسه، صص ٢٩ – ٣١
(٦٩) محمد وهبي، م.س
(70) «Minas del Rif: Explotacion de uixan», Revista **Marruecos**, N° 23-24, Marzo 1951, pp.11-12
(٧١) تسع الواحدة من هذه العربات نحو سبعة عشر طنا من الحديد الخام، وتتحرك واحدة تلو الأخرى على المنحدرات تضبطها قوة كهربائية في هبوطها مليئة أو صعودها فارغة. أنظر: محمد وهبي، م.س
(٧٢) محمد وهبي، م.س
(٧٣) أمين الريحاني، م.س، ص. ٣٦١
(74)«Explotaciones de Mineral de Hiero de la Sociedad Anonima Minera (setolazar)», Revista **Marruecos**, N° 23-24, Marzo 1951, pp.13-15
(٧٥) أحمد بودهان، **رسالة الحياة (مذكرات تؤرخ لأهم أحداث القرن العشرين)**، الطبعة الأولى، مطبعة طوب بريس، الرباط أبريل ٢٠٠٦، ص ١٣٩.
(76) «Explotaciones de Mineral..., op.cit, pp.13-15
(٧٧) أحمد بودهان، م.س، ص ١٣٩.
(٧٨) وردت إشارة في مجلة مارويكوس إلى أن المنجم كان عبارة عن مستويات أفقية على ارتفاع ٢٠ إلى ٣٠ متراً لكل مستوى، مترابطة بواسطة مصاعد عمودية. أنظر: «Minas del Rif..., op.cit, pp.11-12
(٧٩) أمين الريحاني، م.س، ص. ٣٦٠
(٨٠) نفسه، ص. ٣٦٢
(81) «Explotaciones de Mineral..., op.cit, pp.13-15
(82) Ramon Touceda Fontenla, op.cit, p.31
(٨٣) محمد وهبي، م.س
(٨٤) أمين الريحاني، م.س، ص. ٣٥٧
(٨٥) «Minas del Rif..., op.cit, pp.11-12
(٨٦) أمين الريحاني، م.س، ص. ٣٦٢
(٨٧) محمد وهبي، م.س
(٨٨) «Minas del Rif..., op.cit, pp.11-12
(٨٩) محمد وهبي، م.س
(٩٠) محمد وهبي، م.س
(٩١) نفسه
(٩٢) «Minas del Rif..., op.cit, pp.11-12
(٩٣) محمد وهبي، م.س
(٩٤) أحمد بودهان، م.س، ص ١٣٩.
(٩٥) محمد وهبي، م.س
(٩٦) أحمد بودهان، م.س، ص ١٤٠.
(٩٧) نفسه.
(٩٨) نفسه.
(٩٩) أمين الريحاني، م.س، ص. ٣٦١
(١٠٠) نفسه.
(١٠١) فاطمة الطويل، "الثروة الصناعية: عندما يتم نهبها وتخلف وراءها الأنقاض"، **جريدة الاتحاد الاشتراكي**، ٨٠ أبريل ٢٠١٦
(١٠٢) أحمد بودهان، م.س، ص ١٤٢.
(١٠٣) أمين الريحاني، م.س، ص. ٣٦١
(١٠٤) فاطمة الطويل، م.س
(١٠٥) أحمد بودهان، م.س، صص ١٤١ – ١٤٢.
(١٠٦) أحمد بودهان، م.س، ص ١٤٥.
(١٠٧) نفسه، ص ١٤٠.
(١٠٨) محمد وهبي، م.س
(١٠٩) نفسه.
(١١٠) أمين الريحاني، م.س، ص. ٣٦١
(١١١) محمد وهبي، م.س
(١١٢) نفسه.
(١١٣) أحمد بودهان، م.س، ص ١٣٨.
(114) Ginés Sanmartin Solano, op.cit, p.66
(115) Ibid, p.67
(١١٦) فاطمة الطويل، م.س
(117) Ginés Sanmartin Solano, op.cit, p.67
(١١٨) فاطمة الطويل، م.س
(119) Ginés Sanmartin Solano, op.cit, p.67
(١٢٠) فاطمة الطويل، م.س
(١٢١) نفسه

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

المشروع الفرنسي لترشيح الأمير عبد القادر لإمارة الشام (١٨٦٠ – ١٨٧٠)



د. عبد القادر بوتشيشة

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية العلوم الإنسانية – جامعة حسيبة بن بوعلي

الشلف – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

عرف الأمير عبد القادر الجزائري بمقاومته المسلحة للاحتلال الفرنسي، والتي دامت قرابة الخمسة عشر سنة استطاع خلال مرحلتها الأولى أن يلحق الهزائم المتكررة بقوات عدوه. لكنه وأمام اشتداد ضغط القوات الاستعمارية وتخلي القبائل في الجزائر عنه وانقلاب سلطان المغرب ضده؛ اضطر الأمير عبد القادر في النهاية إلى التسليم على أن يسمح له بالهجرة إلى الإسكندرية أو عكا. وتلقى وعدًا بذلك، ورحل على ظهر إحدى البوارج الفرنسية التي أوصلته ومرافقيه إلى ميناء طولون في فرنسا بدل المشرق. وهنا بدأت رحلة الأسر. مكث الأمير عبد القادر في الأسر ما يقارب الخمس سنوات بعدما تنكرت الحكومة الفرنسية لوعودها التي قطعتها له. وفي ١٦ أكتوبر ١٨٥٢م قام الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث بإطلاق سراحه، ثم استقبله في باريس وأكرم نزله. واتفق نابليون الثالث مع السلطان العثماني أن يقيم الأمير في أراضي الدولة العثمانية. في عام ١٨٦٠ وقعت في لبنان وسورية مواجهات عنيفة بين الدروز والموارنة تحولت إلى صدامات بين المسلمين والمسيحيين. فقام الأمير عبد القادر-باعتراف العديد من قادة تلك الفترة-بحماية وإنقاذ أكثر من أثني عشر ألف مسيحي. وهو ما دفع العديد من ملوك وقادة تلك الفترة إلى منح الأمير أوسمة شرف عرفانا له بجميل صنيعه. لقد كان لأحداث الفتنة الطائفية وتعامل مختلف الأطراف معها أثره البالغ على بلاد الشام حيث سلطت الأضواء عليها، ما جعل بعض الدول الأوروبية تطرح مشاريع للمنطقة، منها إقامة إمارة عربية في بلاد الشام يكون الأمير على رأسها. وكان أهم هذه المشارع المشروع الفرنسي الذي طرحه نابليون الثالث الذي كان له أهدافه الاستراتيجية والاستعمارية. ولم يتجسد المشروع لأنه تقاطع مع المصالح البريطانية، والأهم لأن الأمير عبد القادر رفضه.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٧	يناير	٢٠٢٣
تـاريخ قبـول النشـر:	٢٣	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الأمير عبد القادر الجزائري، نابليون الثالث، فرنسا، الشام، الفتنة الطائفية، المملكة العربية.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.324486 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد القادر بوتشيشة. "المشروع الفرنسي لترشيح الأمير عبد القادر لإمارة الشام (١٨٦٠ – ١٨٧٠)".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ١٠٠ – ١١١.

Corresponding author: a.boutchicha@univ-chlef.dz

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مقدمة

يُعدُّ الأمير عبد القادر الجزائري، من أهم الشخصيات التاريخية والوطنية التي صنعت أمجاد المقاومة الجزائرية ضد المستعمر الفرنسي، بل من أبرز رموز المقاومة ضد الاستعمار في العصر الحديث، ومن قادة العالم في التاريخ المعاصر الذين اشتهروا بعبقريتهم وحكمتهم. إن الكثير من الدراسات تناولت الأمير من حيث سيرتُه الجهادية أو من حيث بناء دولته الحديثة، والملفت للانتباه في جُل هذه الكتابات، سواء الجزائرية أو المشرقية أو الأجنبية -خاصة الفرنسية- هو تركيزها على الجوانب العسكرية في حياة الأمير، وهي المرحلة الأولى من حياته التي قضاها بالجزائر، وأهملوا المرحلة الثانية التي قضاها في المشرق.

إن هذه الدراسة المتواضعة تهدف معرفة ظروف وأسباب ترشيح الأمير عبد القادر لإمارة بلاد الشام، كما تهدف إلى الكشف عن الأهداف الحقيقية للسياسة الفرنسية في البلاد العربية عامة وبلاد الشام خاصة. ومن خلال هذه الدراسة سنحاول الإجابة على التساؤلات التالية: ما حقيقة مشروع ترشيح الأمير عبد القادر ملكا على الشام؟ ومن كان وراء هذا المشروع؟ وما هي أهدافه وأبعاده؟ وهل سعى الأمير إلى الإمارة حتى يُرشَّح لها؟ ولماذا الأمير عبد القادر الجزائري بالذات وليس شخصًا أخر من أهل البلد؟ كيف تصرف الأمير حياله؟ وما موقف الدول الفاعلة وقتئذ منه؟

١- الأمير الأسير

بعد أن احتلت الحملة الفرنسية مدينة الجزائر وما حولها- في صيف ١٨٣٠ في عهد شارل العاشر[١]، ثم في عهد ملكية يوليو (ملكية لويس فيليب)- اعتبر الضباط الفرنسيون هذه البلاد أرضا مستباحة ولجؤوا إلى اتباع سياسة النهب والسلب والتوسع[٢]، وأخذوا يشجّعون هجرة المستوطنين الأوروبيين إليها. ولكنّهم واجهوا مقاومة شعبية عنيفة اندلعت في مختلف مناطق البلاد بعد انتهاء المقاومة الرسمية باستسلام الداي حسين.

ولعل أشهر وأكبر مقاومة واجهت جحافل الجيش الفرنسي وسياسته الاستعمارية هي مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري التي امتدت من ١٨٣٢ إلى أواخر سنة ١٨٤٧ استطاع خلال مرحلتها الأولى أن يلحق الهزائم المتكررة بقوات العدو حتى اضطرت فرنسا أن تعترف بدولته ووقعت معه عدة معاهدات: معاهدة ديميشال (٢٦ فيفري ١٨٣٤) ومعاهدة التافنة ٣٠ ماي ١٨٣٧[٣]. وقد دفعت فرنسا بمزيد من القوات والقادة العسكريين المحنّكين للقضاء على دولة الأمير ومقاومته ومنهم المارشال كلوزيل[٤] والمارشال بيجو[٥] على سبيل الذكر لا الحصر. وأمام اشتداد ضغط القوات الاستعمارية وتخلي القبائل في الجزائر عنه وانقلاب سلطان المغرب ضده؛[٦] اضطر الأمير عبد القادر في النهاية إلى التفاوض مع القائد الفرنسي الجنرال لاموريسيار[٧] على التسليم على أن يسمح له بالهجرة إلى الإسكندرية أو عكا ومن أراد من أتباعه، وتلقى وعدًا بذلك فوقع على شروط التسليم في ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧م، ورحل على ظهر إحدى البوارج الفرنسية التي أوصلته ومرافقيه بعد ثلاثة أيام الى ميناء طولون[٨]. وعندما طلب منه النزول والتوجه إلى برج لامالغ أحس الأمير بالخديعة[٩].

شعر الأمير بالخيبة لما عرف أن الفرنسيين أخلفوا وعدهم، عندها تمنى الاستشهاد في ساحة الوغى على أن يحدث له ذلك، وقد عبرّ عن أسفه هذا بهذه الكلمات «لو كنا نعلم أن الحال يؤول إلى ما إليه آل، لم نترك القتال حتى تنقضي منا الآجال»[١٠]. كانت يوميات الأمير في طولون متشابهة: يستيقظ لصلاة الفجر بعدها يذهب ليسلم على والدته ثم يمكث ساعة بين أهله ويَقدم إليه أتباعه للسلام والاطمئنان على أحواله، ثم يقضي بعض الوقت مع ولديه محمد ومُحي الدين، وفي حدود الحادية عشر يتناول الأمير وجبة الغداء ثم يجتمع الجميع لأداء صلاة الظهر وبين الظهر والعصر يستقبل زائريه أو يتفرغ للدراسة وبعد صلاة العصر تقام حلقة درس يلقيها الأمير أو مصطفى بن التهامي[١١] وفي حدود الساعة السادسة يقوم الأمير بتفقد أهله وبعد صلاة المغرب تقام حلقة لتلاوة القرآن(الراتب) وبعد صلاة العشاء والعَشاء يجتمع مع خلصائه لغاية العاشرة أو الحادَية عشر[١٢] ومن الحين للآخر كانت بعض الشخصيات الرسمية تزوره لتُطمئنه على مصيره وتقدم له مبررات تأخير إطلاق سراحه. وبعد قيام ثورة فيفري ١٨٤٨ زاره السيد أوليفي[١٣] ممثلاً عن الحكومة المؤقتة مؤكدًا له نية النظام الجديد في إبقائه أسيرًا بداعي الخوف من عودته للجزائر[١٤]. وراسل الأمير الحكومة الجديدة طالبًا منها الوفاء بالعهد وتنفيذ شروط الاتفاق الذي على أساسه تم

إنهاء مسيرته الجهادية دون أن يظهر الندم لمحاربته لفرنسا، ولكن الرد كان مخيبًا للآمال لأن مضمونه يقول إن «الجمهورية لا ترى نفسها مقيدة بأي التزام لعبد القادر..»[١٥].

ولما اكتمل عدد المعتقلين من أفراد عائلته وأعوانه نقل الأمير إلى مدينة بو[١٦] نهاية شهر أفريل من نفس العام، حيث شُدّدت عليه الحراسة بعد انتشار شائعات مفادها أن عملاء إنجليز يخططون لتهريبه[١٧]. وفي هذه الأثناء اُستدعي لاموريسيار لتولي وزارة الحربية فانتعش أمل الأمير في إطلاق سراحه وأرسل له رسالة يذكّره بوعده ويطلب منه توضيح الغموض السائد لدى الرأي العام الفرنسي حول مسألة تسليمه واستئمانه. وظن الأمير أن الرجل سيفعلها إنقاذا لشرفه الشخصي- وشرف الأمة الفرنسية، ولكن يبدو أنه لم يكن في فرنسا في ذلك الوقت – على الأقل بين من بيدهم مقاليد الحكم- من يعرف للعهد أو الشرف معنىً. ونتيجة اليأس الذي أصاب مرافقي الأمير فكروا في عملية تمرد ضد سجانيهم لكن العملية أجهضت، فتقرر بعدها نقل «المساجين» إلى قلعة أمبواز(Amboise)[١٨] وهي قلعة شديدة التحصين. وأصبحت زيارة الأمير ومن معه لا تتم إلا بترخيص خاص من وزارة الحربية وقد وقّع هذا الأمر(القرار) لاموريسيار نفسه.[١٩]

بعد شهر من وصول الأمير ومرافقيه إلى أمبواز اُنتخب الأمير لويس نابليون[٢٠] رئيسا لفرنسا وتمت مناقشة مسألة تحرير الأسير دون الوصول إلى القرار الحاسم. فكتب بيجو إلى الأمير يقترح عليه أن يقبل بالعيش هو وأتباعه في فرنسا مع تمليكم الأراضي والقصور[٢١] وغيرها من المغريات[٢٢]، لكن الأمير رفض كل ذلك، وأصر على تنفيذ الاتفاق الأول. إن هذا الإلحاح من السلطات الفرنسية على تخلي الأمير عن شروطه إنما يعود إلى شعورها بالحرج جراء نكثها للعهد من جهة ورغبتها في تحطيم معنويات الشعب الجزائري ودفعه للاستسلام من جهة أخرى، وهي نفس الغاية التي كانت ترمي إليها جل الكتابات الفرنسية عن الأمير.

مكث الأمير عبد القادر في الأسر ما يقارب الخمس سنوات ذاق فيه مختلف أنواع الإهانات والإذلال، وقد توفي عدد من أقاربه الذين كانوا معه خلال ذلك الوقت جراء المرض و البرد وظروف السجن[٢٣]. لقد حاولت الحكومة الفرنسية تهدئة روع الأمير، فأرسلت اليه بعض الوجوه المألوفة لديه كالجنرال دوماس والقبطان بواسوني[٢٤] وكلاهما كان قد عمل بالجزائر وكانا يتمتعان بتجربة طويلة في التواصل مع العرب[٢٥] بالإضافة إلى معرفتهما للغة العربية[٢٦]. كما رتبت زيارة محمد الشاذلي القسنطيني[٢٧] له وللغرض نفسه على الأقل ظاهريًا (حسب الدكتور سعد الله)[٢٨]. وفي ١٦ اكتوبر ١٨٥٢م وفي طريق عودته من بوردو إلى باريس قام نابليون الثالث بزيارة مفاجئة للأمير، وأبلغه بنفسه[٢٩] قرار إطلاق سراحه، ثم استقبله في باريس وأكرم نزله، وأقام له المآدب الفاخرة ليقابل وزراء ووجهاء فرنسا، «ولم يزل في عز واحترام وجلالة وإعظام. يدور حيث شاء ويجتمع مع الأكابر والعظماء»[٣٠]. وفي الحادي عشر من ديسمبر ١٨٥٢ غادر الأمير فرنسا متجها نحو الشرق.[٣١]

٢-الفتنة الطائفية ١٨٦٠

كانت الاتفاقيّة التي وُقعت بين نابليون الثالث والسلطان العثماني تقضي بإقَامة الأمير في مدينة بورسة؛ وأثناء إقامة الأمير فيها تعرضت المدينة في أوت ١٨٥٥ لزلزال عنيف دمر قسمًا كبيرًا. فكانت فرصة الأمير لمفاتحة نابليون والسلطان في شأن تغيير مكان إقامته[٣٢]. فكان له ذلك فانتقل ومرافقيه الى دمشق[٣٣]. في عام ١٨٦٠ وقعت في لبنان وسورية مواجهات عنيفة بين الدروز[٣٤] والموارنة تحولت إلى صدامات بين المسلمين والمسيحيين، والتي تعود جذورها إلى الصراع الذي كان قائما بين الموارنة، الميالين لفرنسا[٣٥]، والدروز المؤيَدين من طرف بريطانيا[٣٦]، وقد استفاد الموارنة من فترة حكم إبراهيم باشا على بلاد الشام الذي سلّحهم وألبهم على الدروز ومكّنهم من الاستيلاء على إقطاعات الزعماء الدروز الذين نفاهم إلى مصر في أواخر أيامه بسورية[٣٧].

كما يُرجع أغلب المؤرخين أسباب هذه المواجهات إلى صدور ما عرف بالخط الهمايوني في ١٨٥٦م. وهو نظام قانوني ألغى نظام أهل الذمة السابق. وبموجب القانون الجديد يتساوى المسلم بغيره، ممَّا ولَّد غضبًا عارمًا لدى المسلمين[٣٨] الذين رأوا في ذلك انتهاكًا صارخًا لقوانين الشريعة الإسلامية، واستغلت هذا التذمر الدول

الأوروبية نفسها التي كانت تلعب بمصائر الشعوب من أجل مصالحها الخاصة[٣٩]، وعلى رأس هذه الدول بريطانيا وفرنسا ويندرج هذا التدخل في إطار المنافسة الاقتصادية في المنطقة، وفي إطار إستراتيجيتها الرامية إلى تفكيك (دار الإسلام) سياسيا، ففرنسا كانت وراء الموارنة فيما كانت بريطانيا[٤٠] تحرك الدروز لكي تتصدى لمطامع فرنسا ولكي ترسى هيمنتها[٤١].

وحين أفرزت تلك الفتنة غضبًا عارمًا على المسيحيين في الشام وخارجه وهاجم بعض المسلمين الحي المسيحي في دمشق. قام الأمير عبد القادر- باعتراف العديد من قادة تلك الفترة- بحماية وإنقاذ أكثر من أثني عشر- ألف مسيحي احتموا به من غضب جماعات ثائرة[٤٢]، وقد حمل مع أتباعه، الذين بلغ عددهم حوالي ١٢٠٠ رجلا، السلاح من أجل ذلك[٤٣]، وهو ما دفع العديد من ملوك وقادة تلك الفترة ورجال الدين إلى منح الأمير أوسمة شرف عرفانا له بإنقاذ أرواح الآلاف من المسيحيين،[٤٤] ومنهم عدد من رعاياهم بمن فيهم قناصلة روسيا وفرنسا واليونان وأمريكا وقد انتهت تلك الفتنة بالتدخل الأجنبي الفرنسي[٤٥]، «وانهالت المكافآت على الأمير عبد القادر الكبير بعد ذلك وأغدقوا عليه وابلا من التهاني البليغة.. وكان السلطان الخليفة عبد المجيد رحمه الله أول الشاكرين وابلغ المهنئين، وكافأه على عمله المجيد بمنحه الصنف الأكبر من الوسام المجيدي»[٤٦] كما تهاطلت على الأمير الأوسمة والنياشين من عدد كبير من رؤساء الدول الأوروبية، وعلى الخصوص من نابليون الثالث الذي وشحه وسام الشرف الفرنسي الأول، ونتيجة لذلك أخذت تنتشر في أوروبا التآليف التي مجدت الجانب الإنساني للأمير وتسامحه[٤٧].

لقد تصرف الأمير مدفوعا من وازعه الديني والإنساني، كيف لا وهو العالم العارف يدرك تماما أن قتل النفس بغير حق كبيرة من الكبائر وأن هؤلاء المسيحيين هم مستأمنين يعيشون في كنف المجتمع الإسلامي الذي يجب عليه أن يوفر لهم الأمن على أرواحهم وممتلكاتهم، لقد تصرف الأمير حيال هذه الأحداث وهو يدرك قوة الدول المسيحية من جهة وضعف الممالك الإسلامية من جهة أخرى[٤٨]؛ لقد كان تصرف الأمير تعبيرا عن التسامح والتعايش بين الأديان، فهو المسلم الذي قاسى من الفرنسيين المسيحيين، لم يحمل أي حقد أو ضغينة ضدهم، بل سعى إلى إيواء نصارى الشام وحمايتهم[٤٩].

وبهذا العمل الجليل يكون الأمير قد حطم آمال المستعمرين، وخدم الإسلام خدمة مثلى، وقدم للدولة العثمانية معروفًا، وازدادت قيمته التاريخية سموًا وارتفاعًا[٥٠]. كما أنه ساعد على تحقيق الاستقرار في سورية سنة ١٨٦٠، وقلل من فرص التدخل الأوروبي،[٥١] وكبر في أعين قادة الغرب، وكثر محبيه في فرنسا بعد أن كانوا منحصرين في أسراه القدامى.

٣-فكرة إنشاء كيان سياسي مستقل للعرب

لقد كان لأحداث الفتنة الطائفية وتعامل مختلف الأطراف معها أثره البالغ على بلاد الشام حيث سلطت الأضواء عليها، مما جعل بعض الدول الأوروبية تطرح مشاريع للمنطقة، منها إقامة إمارة عربية في بلاد الشام يكون الأمير على رأسها؛ فهو رجل تتوفر فيه شروط الزعامة العربية من نسب شريف، ونضال قومي وغيرة دينية وأصول هاشمية[٥٢]. ومنها أنه تردد في الفترة ما بين ١٨٦٠ و١٨٦٥ وحتى بعد ذلك، تردد على الألسن في فرنسا – وفي إطار حملة سياسية – أطروحات مثل: «عبد القادر عاهل مملكة عربية في المشرق»، «عبد القادر نائب الملك أو حاكم سورية»[٥٣]. وكان ذلك انعكاسًا لمشروع سياسي لتولية الأمير على بلاد الشام ظهر في تلك الفترة وارتبط أساسًا بحوادث الفتنة الطائفية في المنطقة في ١٨٦٠ كما أسلفنا.

لقد ظلت بلاد الشام محط أطماع فرنسية منذ عهد نابليون بونابرت وتعود جذور هذه الأطماع إلى فرانسوا الأول ومعاهدة الامتيازات التي سبق ذكرها؛ وبعد الحركة التي قام بها محمد علي– والذي كان ميالاً لفرنسا- باحتلاله للشام، أرادت هذه الأخيرة أن تقر له بحكم الشام أو تستولي هي عليه[٥٤]. وبعد فشل مشروع محمد علي بسبب معارضة بريطانيا، وضعف موقف الدولة العثمانية نتيجة ملابسات حرب القرم؛ تجددت فكرة مشروع فصل سورية عن الدولة العثمانية في إطار دولة عربية تحت الحماية الفرنسية، وهذه المرة كان وراء المشروع نابليون الثالث.

٤-دوافع المشروع وأهدافه

لا يمكـن اعتبـار أن وراء المشـروع مجـرد إحسـاس نابليون الثالث بالذنب جراء نكث فرنسا لوعودهـا للأمـير غداة إنهائه المقاومة، وكمـا لا يمكـن اعتبـاره جـزءًا مـن تعويض الأمير عبد القادر عما عناه خلال سـنوات سـجنه في فرنسـا، ولكـن كـان وراء المشـروع دوافـع سياسـية واقتصادية تتمثل في رغبة فرنسا في تكـوين إمبراطوريـة استعمارية في ما وراء البحار وتعزيز النفـوذ الفرنسي- في منطقـة المشـرق العربـي[٥٥] التـي ظلـت محطـة تنـافس وتجاذب بين القوى السياسية الأوروبية وكانـت إنجلـترا من أكبر الطـامعين في السـيطرة عـلى المنطقـة باعتبارهـا إحدى أهم طرقها إلى مستعمراتها في آسيا وخاصة الهنـد. بالإضافة - طبعًا- إلى القيمة الإيديولوجيـة[٥٦] التـي بـات يحملها نابليون الثالث في فرنسـا في حمايـة الكاثوليك في الشرق بعد الدور الذي لعبه في توحيد إيطاليا[٥٧].

ولا يمكن أن نهمل العامل الشخصي المتعلـق بشـخص الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث نفسه فقد كان– وهـو سـليل نـابليون بونـابرت – يحلـم بإنشـاء إمبراطوريـة فرنسية تصل مغرب البلاد العربية بمشرقها[٥٨].

بالإضافة إلى الدوافع السياسية نجـد مصـالح فرنسـا الاقتصادية التي كانت تـزداد، خاصـة مـع بـروز نشـاط فرديناند دي لِسَبْس[٥٩] في المنطقة، سواء في مشروع قنـاة السـويس أو المَشـاريع التـي أقامهـا في الشـام وخاصـة مشروع الطريـق المعبّـد بـين بـيروت ودمشـق التـي تـم إنجازها سنة ١٨٦٢ م وساهمت في تمويلـه البورجوازيـة الشامية[٦٠]. وكذلك رغبة فرنسا في السيطرة عـلى زراعـة القطن في السهول السورية[٦١].

وكان مـن المغريـات الاقتصـادية التـي شـدت أنظـار الدوائر الرأسمالية الغربية هـو ازدهـار إنتـاج وصـناعة الحـرير[٦٢]، فقبيل عام ١٨٦٠ كانـت دمشـق تشـكل أكـبر مركز صناعي لإنتاج الحرير والاتجار به في العالم، وكانت دمشق تواكب آخر التطورات التقنية الصناعية العالميـة في ذلك الوقت أي نظام الجاكار[٦٣] الذي كان أول من أدخلـه إلى دمشق آل بولاد المشهورين بصناعة الحرير البولاديـة، وذلك بغية زيادة الإنتاج كمًا ونوعًا، واكـب ذلـك ازدهـار تجـاري واقتصـادي كبـير وتوسُّـع للأسـواق، لأن مـادة الحرير الخام كانت متوفرة وبأسعار زهيدة بدمشق، ممـا انعكس على رخص وجودة الإنتـاج الدمشـقي مـا أكسـبه شهرة عالمية. وقد ساهم بعملية الازدهار تلك وجود مرفـأ صيدا وقربه من دمشق.[٦٤] وتجدر الإشارة إلى أن صـناعة الحرير بصفة خاصة والصناعات النسيجية بصـفة عامـة كانـت تـتحكم فيهـا العـائلات المسـيحية نظـرا لعـزوف المسلمين عن ممارسة مثل هـذه الحـرف إذ أنهـا كانـت في نظر بعض المذاهب السنية حرف دنيئة مثلها مثل الصياغة والجزارة والدباغة وغيرها[٦٥]. ويضاف إلى هذه الـدوافع: الرغبة في السيطرة على سوق الجواد السوري نظرا لأهمية الجياد في البنية العسكرية الأوروبية (سلاح الفرسان)[٦٦].

إذن تضافرت عوامـل سياسـية واقتصـادية وأخـرى شخصية لتدفع بنابليون الثالث والفرنسيين للتفكير جـديا بمشروع تكوين إمبراطورية جديدة في المشرق يكـون عـلى رأسها الأمير عبد القادر وتكون هي الحل للمسألة الشرقية التي تسببت في كثير من الحروب وإراقة الدماء.[٦٧]

بل ذهب البعض إلى تحديـد معـالم وخصـائص هـذه المملكة أو الإمبراطورية فهي تشمل بلاد العرب في المشـرق باستثناء مصر وهي بالضبط المنـاطق التـي كانـت آنـذاك مازالت خاضعة للدولة العثمانية وقد قُدِّر عدد سكانها مـا بين ١٠ و١٢ مليون نسمة. وتضمن هذه الدولـة الحقـوق المدنية والسياسية لكل مكوناته البشرية وتستمد قوانينهـا المدنية من القانون النابوليوني [الفرنسي] وتعتمد النظـام المـتري الفرنسي- ويكـون الفصـل فيهـا بـين السـلطتين الروحية والزمنية بعاصمتين السياسة في بغداد والروحية في مكة[٦٨].

٥-مواقف مختلف الأطراف من المشروع

لقد سبق وأشرنا إلى أن فكرة المشـروع قديمـة، وهـي فكرة فرنسية أصلا، وبطبيعـة الحـال فلـم تكـن فرنسـا تهدف من وراءه سوى خدمة لمصالحها، حتـى ولـو كـان ذلك يتطلب تفكيك الدولة العثمانية. وما دام الأمر يتعلـق بتفكيك هذه الدولة الشـرقية ووراثـة ممتلكاتهـا فهـذا لا يعني فرنسا وحدها فقط بل يعني أطرافـا أخـرى وعـلى رأسها بريطانيا.

وقبل التطرق إلى مواقف الأطراف المعنية بهذه المسألة فلا بد أن نشير إلى انه بالقدر الذي برز فيه -داخل فرنسا- تيار قوي يؤيد الطرح ويـتحمس لـه[٦٩]، فإنـه كـان مـن الفرنسيين من يتوجس من الأمير، فنجد المترجم «بـولاد» يكتـب عنـه تقريـرا مطـولا في أوت ١٨٥٧، يحـذر فيـه

الحكومة الفرنسية من المبالغة في الطمأنينة إلى موقف الأمير، و«يتهم» الأمير بأنه يرغب في بعث «الشعور القومي العربي الفعال». كما تشير تقارير أخرى إلى عدم إخلاص الجزائريين[٧٠]. وهكذا فإن فرنسا نفسها كانت منقسمة حيال المشروع، ولعل هذا هو أحد أسباب فشل المشروع في النهاية.

أما عن بريطانيا فكانت تنتهج سياسة المحافظة على الدولة العثمانية، والوقوف في وجه أي محاولة لتفكيكها سواء جاءت من روسيا أو من محمد علي (الميّال لفرنسا) أو من فرنسا نفسها. فمثلا كانت بريطانيا تعارض مشروع قناة السويس وتشكك في نجاحه؛ ولما تم المشروع ونجح، استطاعت بعبقرية ساستها أن تسرق المشروع كله من فرنسا عندما أقدمت على شراء أسهم الخديوي في الشركة، وبذلك مهدت الطريق للسيطرة على مصر وفرض نظام الحماية عليها في ١٨٨٢. وكانت الحكومة البريطانية قد غيرت نظرتها للأمير بعد أسره، فكانت ترى فيه مجرد صديق لفرنسا بل ذهب القنصل البريطاني في دمشق إلى اعتبار تفاقم الفتنة ناتج عن تواطؤ «لانوس»[٧١] وعبد القادر[٧٢].

والواقع أن بريطانيا كانت على استعداد لإتمام صفقة مع فرنسا دون المساس بمبادئ سياستها في المنطقة وخاصة تجاه الدولة العثمانية – على الأقل حتى مؤتمر برلين ١٨٧٨- وهذا يعكس سياستها القائمة على البراغماتية والتي عبر عنها فيما بعد مهندس سياستها الاستعمارية دزرائيلي[٧٣]: «ليس هناك أعداء دائمون وليس هناك أصدقاء دائمون وإنما هناك مصالح دائمة»[٧٤]. وقد جرت محادثات بين باريس ولندن في مسألة الخيار بين المرشحين المحتملين لولاية سورية، فؤاد باشا والأمير فكانت بريطانيا تميل إلى المرشح الأول فؤاد باشا[٧٥].

وبالنسبة لروسيا فإنها كانت من أشد المتحمسين لتفكيك الدولة العثمانية، وكان قيصرها «نيقولا الأول» هو من أطلق عليها تسمية الرجل المريض، وباستثناء رغبتها في الإبقاء على إدارتها للأماكن المقدسة في فلسطين، لم تكن لها مطامع إقليمية في البلاد العربية وإنما كانت أطماعها في المناطق العثمانية المتاخمة لحدودها هذا فضلا عن حلمها القديم الجديد في السيطرة على المضايق والوصول إلى المياه الدافئة وخاصة البحر المتوسط. ولذا فالمشروع لم يكن يعنيها بشكل مباشر.

٦-موقف الأمير من المشروع الفرنسي

عندما سئل الأمير هل سمع عما تكتبه الصحافة الفرنسية عن ترشحه لحكم سورية ردَّ قائلا: «نعم وإن لم أكن مخطأ فهذا هو أحد الأسباب الرئيسية لما يبديه الأتراك من غيظ تجاهي وتنكيد لي. إنني أنهيت مسيرتي السياسية ولا أطمح إلى سلطان على البشر...»[٧٦]. هذه واحدة من الكتابات التي تحدثت عن موقف الأمير من المقترحات الفرنسية، ويمكن اعتبار أن جلها لم تعبر بوضوح عن رد الأمير الصريح (القبول أو الرفض). ولكن نابليون الثالث أراد أن يعرف موقف الأمير ومدى استعداده للعب دور سياسي من جديد، فكلف الجنرال فليري[٧٧] بهذه المهمة، فطلب هذا الأخير من إسماعيل أوروبان[٧٨]-الذي كان مستشارا للإمبراطور في الشؤون العربية- سبر موقف الأمير من مسألة تكوين مملكة عربية مستقلة في سورية يكون هو على رأسها[٧٩]، فكان الرد: «... الرفض القطعي والجازم حسب قول إسماعيل أوروبان...»[٨٠].

والواقع أن الأمير كان حَذِرًا في مواقفه كلها، ولم يكن يريد أن يصبح لعبة في يَد فرنسا أو أن يؤدي دور الدمية[٨١]. وفي اعتقادنا هناك عدة عوامل جعلته يفكر كثيرا في قبول المشروع؛ أولها: كيف يمكن له أن يصبح حاكما في وطن المنفى من جديد بعد أن وضع السلاح وتعهد بأن لا يعود لمقاومة من سلبوا منه صولجان الحكم في وطنه ومسقط رأسه؛ ولطالما عبر عن زهده في الدنيا وابتعاده عن السياسة. وثانيها: هو توجسه من العثمانيين الذين كانوا يراقبونه ويخشونه. وثالثها: وهو أن الأمير كان يدرك أبعاد وخبايا سياسة الدول الأوروبية والتي كانت كلها تهدف إلى تفكيك الدولة العثمانية والانقضاض على ممتلكاتها[٨٢]؛ وما كان للأمير أن يسهم في تفكيك الدولة العلية ولعل موقفه هذا ناشئ عن احترامه لمبدأ الخلافة الإسلاميّة. وهناك عامل آخر أراه من الأسباب التي دفعت الأمير إلى رفض المشروع وهو أن قطاعا لا يستهان به من الدمشقيين لم يهضموا موقف الأمير من الفتنة حتى أنه هوجم لفظيا من طرف بعض الرعاع حسب ما ورد في احدى مراسلات الديبلوماسيين

البريطانيين[٨٣]، بل ذهبت بعض الكتابات الفرنسية إلى اعتبار أن سكان المدن السورية وخاصة دمشق أصبحوا يكنون الضغينة والكراهية للأمير لأنه حال بينهم وبين النصارى[٨٤]. ولا ننسى أن الرأي العام الفرنسي كان أيضا منقسما حول المسألة أي أن الأمير كان يدرك عدم حصول إجماع حول الموضوع.

٧-مآل المشروع

لقد رأينا أن المشروع الفرنسي ارتبط أساسا بشخصين هما الإمبراطور نابليون الثالث صاحب فكرته وأكثر المتحمسين له، وبشخص الأمير عبد القادر نفسه «الأداة» المفترضة لهذا المشروع. فالأمير رفض المشروع كما مر معنا، ولم يتحقق مشروع الدولة العربية المستقلة عن الدولة العثمانية، فشل لعوامل عديدة منها أن المشروع في حد ذاته كان يمثل تناقضات السياسة الفرنسية[٨٥]، فهي من جهة احتلت الجزائر وحاربت الأمير وحالت بينه وبين تكوين دولة مستقلة ومن جهة أخرى تقترح عليه ولاية سورية. لقد تهرب الأمير من المشروع سنة ١٨٦٠ عندما عرض عليه لأول مرة ورفضه نهائيا سنة ١٨٦٥ وبهذا الرفض يكون الأمير قد وضع حدا للسياسة العربية لنابليون الثالث لأن الأمير كان «الأداة» الوحيدة والممكنة لذلك[٨٦]. ثم أن الإمبراطور نفسه فقد الحكم في فرنسا بعد هزيمته وأسره على يد الألمان في ١٨٧٠، ولم تتمكن فرنسا من تحقيق هذا الطموح لكون المنطقة بكاملها سرقت منها فيما بعد، نظرا لاكتساح السياسة البريطانية للمَنطقة وتفوق اللاعب البريطاني، الذي قدم مشروعا آخرا تمثل في مشروع الثورة العربية بقيادة الشريف حسين[٨٧]. وقد ضمت الثورة العربية في صفوف قيادتها أحد أحفاد الأمير عبد القادر وهو الأمير عبد القادر بن علي الذي حاول تجسيد حلم الدولة العربية القومية المستقلة دون جدوى[٨٨].

٨-نقد المشروع

إن المتتبع لمسار علاقات القوى الأوروبية - بما في ذلك فرنسا - مع الدولة العثمانية يلحظ أنها كانت مبنية على المصالح المختلفة لهذه القوى، فالصراع الذي نشب بين الطرفين على مدى قرون كان يحركه عاملان، عامل تاريخي وآخر اقتصادي، فالعامل التاريخي يتمثل في الصراع الحضاري بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي سواء كان تحت مسمى مباشر كالحروب الصليبية أو تحت مسمى مقنع كالمسألة الشرقية، ولم يخف الأوروبيون رغبتهم في القضاء على الإسلام ونشر المسيحية. فالفرنسيون اعتبروا احتلالهم للجزائر استمرارا للحروب الصليبية[٨٩].

والمشروع الفرنسي لتولية الأمير على بلاد الشام لا يخرج عن هذا الإطار وهو احتلال وتقسيم ما تبقى من ممتلكات الدولة الإسلامية؛ وحتى مشروع المملكة العربية (في الجزائر) لم ينجح وما كان له أن ينجح بسبب عدم وضوح سياسة نابليون الثالث والداعين إلى المشروع، وعدم تعاون الحكام العامين للجزائر، وكذلك عدم قدرة نابليون على كبح جموح غلاة المعمرين[٩٠]؛ فقد كان دعاة المملكة العربية يرون فيها وسيلة لإخضاع الجزائريين بأقل الخسائر؛ فنابليون الثالث يمكن وصفه بالطامح الكبير الذي اصطدم بصخرة الواقع.

وإذا كان نابليون الثالث قد فشل في مشروع المملكة العربية الذي كانت قاعدته أرض الجزائر وهي بيده، فكيف له أن ينجح في مشروع على أرض مازالت بيد أصحابها، وهي محط أنظار قوى أوروبية أخرى، كانت ترى أن الأمير هو صديق لفرنسا وهو ليس المرشح الوحيد لمشروع كهذا[٩١]. وما كان لهذا المشروع أن ينجح في ظل غياب أهم طرفيه، ونقصد بذلك (العاهل المفترض[٩٢] للمملكة (المشروع)، وصاحبة الأرض والشأن وهي الدولة العثمانية. فالأمير عبد القادر لم يسع إلى الحكم بعد أن اضطر إلى إنهاء مقاومته في الجزائر، ولم يبد لا الرغبة ولا الاستعداد للعب دور سياسي في إطار هذا المشروع. وقد بادرت الصحافة الفرنسية وما عرف بالـ(حزب القادري) إلى الدعاية للمشروع وترشيح الأمير، له دون استشارته أو معرفة رأيه فيه. كما أن الدولة العثمانية لم يعرض عليها المشروع بالرغم من أنه لم يكن مشروعا سريا وكانت ستقاوم تنفيذه بكل الطرق، وهذا طبعا لو قبله الأمير خاصة وأنه يتعلق بأهم الولايات العثمانية -أي ولاية الشام- وهي أهم آخر ما تبقى لها من سلطة مباشرة على البلاد العربية.

ولو كانت فرنسا فعلاً صادقة في أقوالها وفي ظاهر سياستها لبادرت إلى تنفيذ مشروع المملكة العربية عندما وضعت يدها على سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى؛

فبعد أن تمكنت- هي وبريطانيا- من تقسيم الدولة العثمانية وسلخ البلاد العربية عنها، راحت تمعن في التفتيت فقد «كانت باكورة أعمال الجنرال غورو[٩٣] إحداث دولة لبنان الكبير ثم تأسيس دولة العلويين، بموجب قرارين بتاريخ ٢١ آب [أوت] ١٩٢٠، ثم تلا ذلك إقامة دولة دمشق فدولة حلب وتبعها إقامة دولة الدروز بتاريخ ٤ آذار [مارس] ١٩٢١.»[٩٤].

خَاتِمَةٌ

لقد كون الأمير عبد القادر علاقات واسعة مع معاصريه من ملوك وقادة ورجال سياسة وعلم وأدب، وتبادل معهم الرسائل والتهاني والهدايا؛ وطبعا فيهم الكثير من الفرنسيين، ولعل أشهر هؤلاء نابليون الثالث. بيد أن علاقته مع الفرنسيين لم تكن بالصفة التي روَّج لها الفرنسيون أنفسهم، فهي لا تعدو أن تكون علاقات شخصية مع أفراد، وعلى رأسهم طبعا نابليون الثالث. فالأمير تأثر كثيرا بسلوك نابليون النبيل، فكان هذا الإحسان والكرم الإمبراطوري بمثابة طوق في عنق الأمير وقيد في يديه، فقد ظل الأمير وفيا للكلمة التي أعطاها للإمبراطور غداة إطلاق سراحه. ويصدق في وصف هذه العلاقة قول الشاعر أبي الفتح البُستي:

أَحْسِنْ إِلَى النَاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهَمُ
فَطَالَمَا اَسْتَعْبَدَ الإنسانَ إِحْسَانُ

ولقد حاول نابليون الثالث أن يستغل هذه الصداقة ليحقق طموحاته الشخصية والأطماع التوسعية للاستعمار الفرنسي. لكن الأمير رفض أن يكون مطية لذلك.

ساهم الأمير عبد القادر في تنبيه العرب والمسلمين إلى ما كان الاستعمار يحيكه من مؤامرات بزرع الفتن بينهم وسعيه لتمزيق وحدتهم وبسط نفوذه على بلادهم، وتفطن إلى دسائسه؛ لذا نجده يتهرب وبلباقة من العرض الذي اقترحه عليه نابليون الثالث لإمارة الشام تحت المظلة الفرنسية.

لقد عُرفَ عن الأمير بساطته وزهده الشديدان ولم يسع للرياسة سواء في الجزائر أو في المهجر. لقد كان للتجربة التي خاضها مجاهدا في الجزائر وعاناها أسيرا في فرنسا، كان لكل هذا الأثر البالغ في بقية حياته فقد كان يرغب في أن يقضي بقية حياته في العبادة والدرس؛ وهذا ما حذا بالمؤرخ الفرنسي برونو إتيين ليُعَنْون أحد مباحث كتابه حول الأمير بـ«مملكتي ليست من هذا العالم».

إنّ موقف الأمير من الدولة العثمانية كان موقفًا مسؤولاً، فهو على الرغم من إدراكه لقوة الدول المتربصة بها من جهة، ومدى الضعف الذي وصلت إليه دولة الخلافة من جهة ثانية؛ فإنه لم يشأ أن يدق مسمارا في نعشها. فهو ظل وفيا لمبادئه في الولاء لخليفة المسلمين والحفاظ على وحدتهم؛ وهذا ما يفسر رفضه في النهاية للمشروع الفرنسي.

الاحالات المرجعية:

(١) يحيى بوعزيز، **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية ١٨٣-١٩٥٤**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٧.

(٢) مصطفى هشماوي، **جذور نوفمبر ١٩٥٤ في الجزائر**، دار هومة، الجزائر، ٢٠١٠، ص ١٣.

(٣) حسان صبحي، **الأمير عبد القادر وتاريخ الوحدة الوطنية الجزائرية**، مجلة أخبار معسكر ع خاص بمناسبة الذكرى ١١٩ لوفاة الأمير عبد القادر، جوان ٢٠٠٢.

(٤) **برتراند الكونت كلوزيل** (Clauzel) قائد عسكري فرنسي ولد في ١٢ ديسمبر ١٧٧٢، عين قائدا عاما للجيش الفرنسي في الجزائر خلفا لدي بورمون في ١٨٣١. استدعي لفرنسا حيث رقي إلى مارشال ثم عين حاكما عاما للجزائر. كان من أشد المدافعين عن فكرة الاحتفاظ بالجزائر نهائيا فارتكب أبشع الجرائم، توفي سنة ١٨٤٢. انظر:

Faucon Narcisse, Le livre d'Or de l'Algérie, Challamel et Cie Éditeurs, Librairie Algérienne et Coloniale, Paris, 1889, pp.157-160.

(٥) **توماس روبير بيجو دولا بيكونيري** (١٧٨١-١٨٤٩) المعروف بالمارشال بيجو (Bugeaud) الملقب بدوق إسلي، حارب في بروسيا وبولندا وإسبانيا ثم أبعد عن الخدمة سنة ١٨١٥ من طرف آل بوربون فانكفأ إلى ضيعته واشتغل بالزراعة إلى غاية ١٨٣٠ حيث عاد إلى معترك السياسة ودخل البرلمان. وفي سنة ١٨٣٦ عين قائدا لمنطقة وهران بمهمتين هما محاربة الأمير والتفاوض معه، خاض ضده عدة معارك انتصر في بعضها (الصكاك) وانهزم في البعض الآخر، وتوجت المفاوضات بإبرام معاهدة التافنة (١٨٣٧)، ثم استدعي لفرنسا ليعود إلى الجزائر سنة ١٨٤٠ حاكما عاما. عزل عن منصبه في ١٩٤٨، ومات بوباء الكوليرا في ١٠ جوان ١٨٤٩ بفرنسا. انظر: Narcisse, op.cit., pp.128-130.

(٦) سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية** (١٩٠٠-١٩٣٠)، ج٢، ط٤، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٦.

(٧) **لاموريسيار:** Christophe-Louis-Léon de) La Moricière (Juchault (١٨٠٠-١٨٦٥) جنرال فرنسي شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر، عين على رأس فرقة الزواوة العاملة في جيش الاحتلال الفرنسي عرف عنه تقربه من القبائل العربية لاستمالتهم وكان يحسن العربية. عمل تحت قيادة بيجو. حارب الأمير وفاوضه على شروط التسليم. انظر:

Narcisse, op.cit., pp.355-362.

(٨) **طولون:** (Toulon) مدينة جنوب شرق باريس على بعد ٨٤٠ كلم قاعدة بحرية وتجارية على ضفة البحر المتوسط. انظر:

Georges Lucas et al. Petit Larousse en couleurs, librairie Larousse, édition 1986, paris, septembre 1985, p.1603.

(٩) محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ج٢، الإسكندرية، ١٩٠٣، ص٥.

(١٠) محمد بن عبد القادر، المصدر نفسه، ص ٦.

(١١) السيد الحاج مصطفى بن أحمد بن التهامي ولد سنه ١٧٩٦. كان أحد المقربين من الأمير وصهرا له، رافقه بالسجن بفرنسا ثم رحل معه إلى المشرق. انظر: الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة ١٨٤٩، تح محمد الصغير بناني وآخرون، دار الأمة، ١٩٩٥، ص ١٦٦(هـ).

(12) Alexander Bellemare, Abd-el-kader sa vie politique et militaire, Librairie de L. Hachette et Cie , Paris, 1863, p. 349.

(١٣) **إيميل أوليفي** (Emile Ollivier) كان من المدافعين عن إطلاق سراح الأمير وبعث بهذا الشأن رسالة إلى الحكومة المؤقتة. انظر:

Marie d'Aire (née Boissonnet), Abd-el-Kader : quelques documents nouveaux lus et approuvés par l'officier en mission auprès de l'émir, Imprimerie Yvert & Tellier, Amiens, France, 1900, p.75.

(١٤) محمد بن عبد القادر، مصدر سابق، ص ٩.

(١٥) شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، تر أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٤، ص٢٥٦.

(١٦) بو: (Pau) مدينة تقع على نهر بو. ٧٥١ كلم إلى الجنوب الغربي من باريس. بها قصور تعود للقرنين الثالث عشر والخامس عشر. انظر: Lucas et al., op.cit, p.1471.

(١٧) تشرشل مصدر سابق، ص ٢٥٧.

(١٨) مدينة فرنسية في منطقة وسط فرنسا تقع إلى الجنوب من باريس على نهر اللوار اشتهرت بقصورها التي تعود إلى عصر النهضة. انظر: Lucas et al., op.cit, p.1016.

(١٩) Bellemare, op.cit., p. 370.

(٢٠) **لويس نابليون بونابرت** (١٨٠٨-١٨٧٣)، إمبراطور الفرنسيين (١٨٥٢-١٨٧٠) قضى صباه وشبابه في سويسرا وإيطاليا. حاول مرتين (١٨٣٦ و ١٨٤٠) المناداة بنفسه إمبراطوراً على فرنسا، ففشل وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ١٨٤٠، ولكنه تمكن من الفرار إلى إنجلترا. ثم عاد إلى فرنسا عقب اندلاع ثورة فبراير ١٨٤٨، وانتخب عضواً في الجمعية الوطنية، ثم رئيساً للجمهورية الثانية (ديسمبر ١٨٤٨). وسع سلطاته تدريجياً. وفي نوفمبر ١٨٥٢ أُعلن إمبراطورا بعد استفتاء شعبي. اتسم حكمه بالدكتاتورية، عرف بالمغامرات الاستعمارية مثل الاستيلاء على منطقة كوشنشين الفيتنامية، وإرساله حملة إلى المكسيك (١٨٦١ ـ ١٨٦٦) في محاولته إنشاء إمبراطورية مكسيكية تدور في فلك فرنسا. واشتركت فرنسا في عهده في حرب القرم (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦). ساعد الايطاليين في حربهم ضد النمسا وحصل مقابل ذلك على سافوا ونيس. انهزم جيشه أمام بسمارك فاستسلم له فثارت باريس وخلعه الثوار فتوجه إلى بريطانيا حيث توفي هناك في ١٨٧٣. انظر:

Lucas et al., op.cit, p.1432.

(٢١) عبد الباقي مفتاح، **لمحات من تصوف الأمير عبد القادر**، مجلة أخبار معسكر، مرجع سابق.

(٢٢) لمزيد من التفاصيل عن محتوى الرسالة انظر: تشرشل، مصدر سابق، ص ٢٦٣-٢٦٤.

Bellemare, op.cit., p. 373.

(٢٣) سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٥، دار البصائر، الجزائر، (د ت) ص ٥٣٢.

(٢٤) **بواسوني**: (Boissonnet Laurant Estève) بارون من عائلة أرستقراطية ولد في باريس في: (١٩ جوان ١٨١١م)، أصبح ضابطاً في المدفعية، وتولى في قسنطينة شؤون المكتب العربي وإدارة الشؤون الأهلية من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٩٤٨. كسب صداقة كثير من أعيان الجزائر منهم محمد الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر، بدأ حياته العملية سنة ١٨٤٨م بكتابة أشعار الأمير وتنظيماته العسكرية، كان عارفاً باللغة العربية ولهذا رشح من طرف الدوق دومال لمرافقة الأمير إلى فرنسا وكذلك بعدها للمشرق. انظر: سعد الله، **محمد الشاذلي القسنطيني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ٢٠.

-و François Pouillon, Dictionnaire des orientalistes de langue française, éditions IISMM-Karthala, 2008, p.119.

(٢٥) يزعم بليمار -بكل ثقة- أن سلوك الأمير تجاه نصارى الشام في فتنة الستين إنما جاء نتيجة تأثير بواسوني ودوماس عليه اثناء سجنه بفرنسا! ونسي أن المسلمين قد تعايشوا قرونا مع النصارى قبل أن يعرفوا الفرنجة، كما تجاهل معاملة الأمير للأسرى الفرنسيين أثناء مقاومته للاحتلال. انظر: Bellemare, op.cit., p. 349.

(26) ibid.

(٢٧) محمد بن الحاج محمد بن ابراهيم الصولي (١٨٠٧-١٨٧٧) الشهير بالشاذلي القسنطيني أديب وفقيه جزائري نشأ في قسنطينة وبها درس الفقه والحديث واللغة والحساب. شهد دخول الفرنسيين للمدينة. وبعد استقرارهم بها عين قاضيا مالكيا سافر عدة مرات إلى أوروبا وآنس في إحداها الأمير عبد القادر في سجنه بأمبواز (١٨٤٩-١٨٥٠). انظر: سعد الله، **محمد الشاذلي القسنطيني**، مرجع سابق، ص ١٥-٢١.

(٢٨) نفسه، ص ٣٤.

(29) Civray Eugène de (Cte) - Napoléon III et Abd-el-Kader, Charlemagne et Witiking, étude historique et politique, Biographie de l'émir, P. Martinon, libraire-éditeur, Paris, 1853,p.321.

(٣٠) عبد الرزاق البيطار، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، ج٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣، ص٨٩٣.

(٣١) تشرشل، مصدر سابق، ص ٢٧١.

(٣٢) تشرشل، المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٣٣) محمد بن عبد القادر، مصدر سابق، ص ٦٥.

(٣٤) بعض المفكرين وعلماء الدين السنة لا يعتبرون الدروز من المسلمين ولا يقتصر الأمر على المسلمين بل حتى بعض الغربيين يرون ذلك فمثلا نجد عالم الآثار الفرنسي فرانسوا لينورمان (Lenormant François) الذي كلف بكتابة تقرير عن حوادث الستين-لأنه كان من أوائل الأوروبيين الذين وصلوا إلى المنطقة بمجرد تناقل أخبار الحوادث- نجده يصف الدروز بأنهم شعب غير مسلم: انظر:

François Lenormant. Histoire des massacres de Syrie en 1860. Hachette. Paris 1861.p.VII.

(٣٥) يعتبر الموارنة أكثر الطوائف الشرقية تأثرا بفرنسا «فهم -حسب لينورمان- فرنسيون حقيقيون بالقلب»: انظر:

Lenormant ibid., p. XIV.

وانظر أيضًا: - نسيم نوفل، كتاب بطل لبنان الشهير الطائر الصيت المرحوم يوسف بك كرم، المطبعة الوطنية بالإسكندرية، ١٨٩٦، ص٢١٥.

(٣٦) كانت بريطانيا تمارس الحماية للدروز، فمنها أنها توسطت لدى الباب العالي لمنع مدحت باشا من تأديبهم بسبب القلاقل التي تسببوا فيها في فترة ولايته على الشام، انظر: محمد عوض عبد العزيز، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤–١٩١٤م)**، رسالة ماجستير في الآداب، جامعة عين شمس، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ص ٢٩١.

(٣٧) ياسين سويد، **فرنسا والموارنة ولبنان**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٤.

(٣٨) إسماعيل ياغي، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض،١٩٩٦، ص157.

(٣٩) سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٥، دار البصائر، الجزائر، (د ت)، ص ٥٣٧، ٥٣٨.

(٤٠) لقد جرت مناقشة في مجلس العموم الانجليزي بتاريخ ١٧ أوت ١٨٦٠ أتهم فيها بعض النواب ومنهم المستر مونسل الحكومة البريطانية بالوقوف وراء الفتنة الطائفية في لبنان. لمزيد من التفصيل حول المسألة انظر:

- فيليب وفريد الخازن (تع)، **مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٠**، الجلد [كذا] الثاني من كانون الثاني سنة ١٨٦٠ إلى تشرين الأول منها، مطبعة الصبر، جونية، لبنان، ١٩١١، ص ٢٨٨-٢٩١.

(41) Hamza Benaissa, L'Emir Abdelkader et la franc maçonnerie, El maarifa éditions, Alger, p.19.

(٤٢) تضاربت أرقام عدد الضحايا فهي ٢١٩٠٠ شخص حسب بعض الكتابات الكاثوليكية و١١٥٠٠ حسب المصادر العثمانية انظر:

Ageron, Abd el-Kader souverain d'un royaume arabe d'Orient, In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°8, 1970, unica, p. 16.

(43) Annuaire des deux mondes: histoire générale des divers états, 1860 (T10), 1er juillet 1861 ,Paris, p.530.

(٤٤) ناصر الدين سعيدوني، **عصر الأمير عبد القادر الجزائري**، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٠، ص١٧٥، ١٧٦.

(٤٥) يورد الأستاذ سهيل الخالدي قصة مفادها أن الأمير عبد القادر توجه إلى بلدة رياق على الحدود اللبنانية السورية وقابل الجنرال الفرنسي ومنعه من الدخول بقواته إلى سورية. انظر: -سهيل الخالدي، توضيحات لألان كريستلو في مقاله «من الأمير عبد القادر ١٨٦٠ إلى الأخضر الإبراهيمي ٢٠١٢»، جريدة الشروق الجزائرية، ع ٣٧٨٧، ٢٦ سبتمبر ٢٠١٢.

(٤٦) أحمد توفيق المدني، **الأمير عبد القادر الجزائري وحوادث سورية المحزنة، والدولة العثمانية**، مجلة التاريخ ع خاص بمناسبة الذكرى الـ ١٠٠ لوفاة الأمير عبد القادر، النصف الأول من سنة ١٩٨٣، ص٨.

(47) Ageron, op.cit., p.18.

(48) Ageron, Idem.

(٤٩) عبد القادر بوعرفة وآخرون، **تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر**، دار القدس العربي، الجزائر، ٢٠١٠، ص٣٢.

(٥٠) المدني، مقال سابق، ص ٧.

(٥١) ألان كريستلو، **الجزائريون والأزمة السورية من الأمير عبد القادر (١٨٦٠) إلى الأخضر الإبراهيمي (٢٠١٢)**، تر أبو القاسم سعد الله، جريدة الشروق الجزائرية، ع ٣٧٧٧، ١٦ سبتمبر ٢٠١٢.

(٥٢) سعد الله، **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، ط١، الجزائر ٢٠٠٣، ص ١٢٩.

(٥٣) Ageron, op.cit., p.15.

(٥٤) جرانت وتمبرلي مرجع سابق، ص ٣٥٣.

(٥٥) يعود هذا النفوذ إلى اتفاقية الامتيازات بين سليمان القانوني وفرانسوا الأول (١٥٣٥م).

(٥٦) من ذلك أن الشاعر المعروف «لامارتين» وقف في مجلس النواب الفرنسي- وكان في ذلك الوقت عضواً فيه - يقول» إنه من الأولى لفرنسا أن تفكر في إقامة دولة مسيحية على منابع الأردن شاملة لجبل لبنان بشرط أن تكون القدس عاصمتها..». انظر: -محمد حسنين هيكل، **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل**، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٥١.

(٥٧) منجد طلال، «**جذور ومقومات التدخل الدولي في لبنان: حالة سنة ١٨٦٠**»، جريدة التمدن، طرابلس، لبنان، العدد: ١٢٤٦، ٢٠١٠/٠٥/٢.

(٥٨) يورد عبد الجليل التميمي نقلاً عن: (André Martel) تفكير نابليون الثالث في إمكانية ضم تونس وطرابلس إلى الجزائر وتكوين مملكة عربية. وإذا أضفنا إلى هذا التصور مشروع المملكة العربية في سورية تبقى مصر نظريا هي الفاصل بين المملكتين لكنها عمليا هي همزة وصل بينهما لأن أسرة محمد علي تعتبر حليفة تقليدية لفرنسا. راجع:

Abdeljelil Temini, Recherches et documents d'histoire maghrébine, In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°12, 1972. pp. 160,161.

(٥٩) دي لِسَبْس فرديناند ماري، فيكونت: (De Lesseps, Ferdinand) (١٨٠٥-١٨٩٤) دبلوماسي فرنسيومهندس، صمم مشروع قناة السويس ونفذه في ١٨٦٩، وهو صاحب مشروع خليج قابس الذي جنَّد له الأمير ليعلن موافقته علنا، كما أنه حاول شق قناة بنما ولكن المشروع تخللته أزمات، واتُّهم دي لِسَبْس بالاختلاس وسجن ثم خففت التهمة إلى الإهمال. انظر: نصار وآخرون، م٣، مرجع سابق، ص ١٥٦١.

(٦٠) إتيين، مرجع سابق ص ٣١.

(٦١) منجد، **جذور ومقومات التدخل الدولي في لبنان**، مقال سابق.

(٦٢) إتيين برونو، **عبد القادر الجزائري**، تر ميشيل خوري، ط١، دار عطية للنشر، بيروت، دمشق، ١٩٩٧، ص٣١٢.

(٦٣) نسبة إلى المخترع جوزيف ماري جاكار Joseph Marie Jacquard(1752-1834) ميكانيكي فرنسي، ولد في ليون، اخترع نول جاكار الذي يحمل اسمه. من: Lucas et al., op.cit., p.1315.

(٦٤) إلياس بولاد، **حوادث ١٨٦٠ في لبنان ودمشق فتنة دينية أم مؤامرة سياسية غربية**، مجلة النور، ع ٢٣٩ ٢٠٠٦/٠٣/٢٩، دمشق.

(٦٥) ليلى الصباغ، **الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني**، جم وتق عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية خلال العهد العثماني، زغوان، ١٩٨٦، ص ١٠٧.

(٦٦) منجد، **جذور ومقومات التدخل الدولي في لبنان**، مقال سابق.

(67) Ageron. op.cit. p.20.

(68) Ibid. p.20.

(٦٩) كان من بين المؤيدين للفكرة المهندس دي لِسَبْس صاحب مشروع قناة السويس وكان من أصدقاء الأمير. انظر:

- Jean-Louis Marcot, Abd el-Kader et la modernité, Studia Islamica, nouvelle édition/new series, 2, 2011, pp. 193-195.

(٧٠) إتيين، مرجع سابق، ص ٣٠٩، ٣١٥، ٣٢٨.

(٧١) لانوس هو القنصل الفرنسي في دمشق وقتئذ.

(٧٢) إتيين، نفسه، ص325.

(٧٣) **بن يامين دزرائيلي** (Benjamin Disraeli) (١٨٠٤-١٨٨١) سياسي ورجل دولة بريطاني من أصل يهودي دخل البرلمان كنائب عن حزب المحافظين سنة ١٨٣٧.عين رئيسا للوزراء في ١٨٦٨ وفيما بين ١٨٧٤ و١٨٨٠. عرف بسياسته المحافظة واندفاعه الاستعماري، تمكن -بدعم من آل روتشيلد- من شراء أسهم الخديوي إسماعيل في شركة قناة السويس، مما مهد الطريق للسيطرة على مصر، وقف بحزم تجاه الأطماع الروسية في البلقان. توفي بلندن عام ١٨٨١. انظر: عبد الوهاب الكيلاني، **موسوعة السياسة**، ج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢،١٩٩٠، ص٧٣٩-٧٤٠.

(٧٤) فضيلة دفوس، **العلاقات الإيرانية-الإسرائيلية من شهر العسل إلى الطلاق البائن**، جريدة الشعب الجزائرية، ع١٥٧٣٣، ٢٩ فيفري ٢٠١٢.

(٧٥) إتيين: مرجع سابق، ص ٣٢٣.

(76) Poujoulat, op.cit. pp.444, 445.

وإتيين، مرجع سابق، ص ٣٢٣.

(٧٧) Émile Félix Fleury جنرال فرنسي (١٨١٥-١٨٨٤) كان من المقربين من نابليون الثالث وكان كبير سائسي خيله. عضو مجلس الشيوخ في ١٨٦٥. كلف بمهام دبلوماسية آخرها سفيرا للإمبراطورية لدى روسيا. من:

F. Choisel نقلاً عن: http://www.napoleontrois.fr in Dictionnaire du Second Empire. Fayard, 1995

(٧٨) كان اسمه توماس أوروبان (Thomas Urbain) ولكن غيره إلى إسماعيل بعد أن أعتنق الإسلام وتزوج عربية وأصبح من أنصار «الجزائر للجزائريين» ونشر كتابا بهذا العنوان، وكان مترجما للدوق دومال، ثم أصبح مترجما لنابليون الثالث، ويقال إنه أثر عليه في سياسته نحو الجزائر تأثيرا كبيرا. انظر: - سعد الله، **محمد الشاذلي القسنطيني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ٣٩.

(79) Bruno Étienne, «Les projets d'un «royaume arabe» au Bilâd al-Shâm: histoire d'un malentendu entre la France et l'émir Abd el-Kader», in Pierre-Jean Luizard, Le choc colonial et l'islam, Les politiques religieuses des puissances coloniales en terres d'islam, La Découverte, Paris,2006, p. 469-483.

(٨٠) Ageron, op.cit., P.29.

(٨١) Benaissa, op cit. p.52., Alger

(٨٢) محمد الشريف ساحلي، **الأمير عبد القادر فارس الإيمان**، تر محمد محمد يحياتن، منشورات ANEP، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٣٦.

(٨٣) الخازن، مصدر سابق، ص ٣٠٠.

(٨٤) انظر: Ageron, op.cit., P.24. و Poujoulat, op.cit.P. 429.
والواقع أن مثل هذه الاستنتاجات تدخل في إطار سياسة دأب عليها الكثير من الكتاب الأوروبيين للتفرقة بين العرب والأتراك من جهة، وبين المسلمين والنصارى من جهة أخرى؛ فالذين قاموا بالاعتداء على نصارى دمشق هم دروز قدموا من خارج المدينة مع بعض رعاعها.

(85) Ageron, op.cit., p.30.

(86) Idem. P.29. Ageron

(٨٧) **الحسين بن علي (الشريف)** (١٨٥٤-١٩٣١) ملك الحجاز ومؤسس الأسرة الهاشمية وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين. نفي إلى إسطنبول حيث عين في مجلس الشورى، عين أميرا لمكة خلفا لعمه، توترت علاقته مع الأتراك إبان حكم الاتحاديين، حاول القوميون العرب في سورية استمالته كما كاتبه البريطانيون ووعدوه بدولة عربية إن هو ثار على الأتراك، فأعلن الثورة العربية الكبرى التي حررت بلاد الحجاز وبلاد الشام والعراق من الدولة العثمانية لكن البريطانيين حنثوا بوعدهم. فقد نفوذه بالجزيرة لصالح ابن السعود. - انظر: الكيلاني، مرجع سابق، ص ٥٤١-٥٤٢.

(٨٨) ألان كريستلو، مقال سابق.

(٨٩) سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٠٠-١٩٣٠)**، ج١، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٣٣.

(٩٠) سعد الله، **الحركة الوطنية**، ج٢، مرجع سابق، ص٢٥.

(٩١) طرحت بريطانيا فؤاد باشا كمرشح لولاية الشام. انظر: -إتيين، مرجع سابق، ص ٣٢٧،٣٢٨.

(٩٢) يذكر إتيين انه كان يتم تدارس مستقبل سورية في أعقاب حوادث الستين من خلال مراسلات وتقارير الديبلوماسيين والعسكريين الفرنسيين في المنطقة ولم يبلغ الأمير بالأمر مطلقا. انظر: -إتيين، مرجع سابق، ص ٣٣٢.

(٩٣) **هنري أوجين** (Henri Eugène Gouraud) (١٨٦٧-١٩٤٦) جنرال فرنسي ولد وتوفي في باريس، أتجه إلى السلك الاستعماري فعمل في مالي والمغرب. كان قائدا للجيش الرابع في حملة الدردنيل جرح وبترت ذراعه اليمنى. عين مفوضًا ساميًا في سورية من ١٩١٩ إلى ١٩٢٣، وجه إنذارًا إلى فيصل ولم ينتظر الرد وزحف على دمشق واحتلها بعد تغلبه على يوسف العظمة في ميسلون. انظر: - الكيلاني، مرجع سابق، ص ٣٧٧.

(٩٤) أحمد معاذ الخطيب الحسني، **دور السياسة الدولية في إثارة النعرات الطائفية والوعي الإسلامي تجاهها**، بحث مقدم لنيل درجة الدبلوم في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، الأكاديمية السورية الدولية، ٢٠١٠، (غ م)، ص ٣.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

ملامحٌ من نظام الحكم العثماني
الدَّولة العليَّة بين السَّلطنة والخلافة



د. حسن بربورة
مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور
جامعة يحي فارس المدية
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تطوَّر مفهوم الدَّولة لدى العثمانيّين تدريجيًا، فبعد أن قامت الإمارة العثمانيّة على فكرة الغزو كأهم واجبٍ، تكشف الوثائق العثمانيّة أنَّ التّقاليد الإسلامية، قد أخذت طريقها إلى الإدارة العثمانيّة، فظهر لقب السُّلطان عهد بايزيد الأوَّل (١٣٨٩-١٤٠٢م)، وكنتيجةٍ طبيعيّةٍ للتطوّرات التي شهدتها الدولة، وبعد أن شعر العثمانيّون بالضّعف منذ القرن السابع عشر الميلادي، بدَتِ الحاجة إلى ألقاب الخلافة، وعمد العثمانيّون إلى إحياء لقب "الخليفة"، لإثبات شرعيّة الحكم في المناطق الإسلاميّة، كما أظهر العثمانيُّون اهتمامًا كبيرًا باللقب خلال النّصف الثّاني من القرن التاسع عشر الميلادي. هكذا فالفرق واضحٌ بين استخدامات كلًّا من المصطلحين "الخلافة" و"السَّلطنة"، حيث يرى بعض المؤرخين بأنَّه لا يمكننا استخدام مصطلح الخلافة بالنسبة للسَّلطنة العثمانيّة، ولا يجوز إطلاق صفة الخليفة على أيّ سُلطانٍ عثمانيّ ما عدا السُّلطان عبد الحميد الثّاني، ما يؤكّد صعوبة حسم المسألة، إذ لا تزال هناك حاجةٌ إلى مزيدٍ من البحث لمعرفة إلى أيّ حدٍّ اعتقدت النّخبة العثمانيّة أنَّ سُلطانهم هو الحاكم الأعلى للعالم الإسلامي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٤	يناير	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

ملامحُ من نظام الحكم العثماني: الدَّولة العليَّة بين السَّلطنة والخلافة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.324488 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن بربورة. "ملامحُ من نظام الحكم العثماني: الدَّولة العليَّة بين السَّلطنة والخلافة".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ١١٢ – ١٢٤.

Corresponding author: barbora.hacen@univ-medea.dz
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

يُعدُّ نظام الحكم العثماني امتدادًا لأنظمة الحكم الإسلاميَّة، حيث تأثر بالعباسيِّين والسَّلاجقة والإيلخانيين، وحتى من التُّراث الإداري الفارسي والبيزنطي. والإسلام في مصادره الأساسيَّة لم يتعرَّض بصورة تفصيليَّة لنظام الحكم أو تحديد شكل الحكومة، أو طرق تنظيم السُّلطات فيها، وإنما ركَّز على المبادئ والأُسُس العامَّة للحكم[١]، ثم ترك للأمَّة مهمة وضع المبادئ والقواعد بما يُحقِّقُ المصلحة ويتلاءم مع الأوضاع.

وقد تفاوتت نُظُم الحكم التي أقامها المسلمون بعد وفاة الرسول (ﷺ) في درجة شرعيَّتها طبقًا لدرجة تحقيقها لمبادئ الإسلام المقرَّرة شرعًا، وبينما اعتبرت فترة الخلافة الرَّاشدة في نظر فُقهاء الإسلام، نظام الحكم الإسلامي المثالي، نجد أنَّ الأنظمة التي حملت لواء الخلافة من بعدها قد تخلَّت شيئًا فشيئًا عن هذه المبادئ، الأمر الذي أنقص من شرعيَّتها، وأفضى إلى ضعفها وزوالها في النِّهاية، وقد ساير الفكر السِّياسي الإسلامي السُنِّي[٢] الأمر منذ البداية، واتَّجه إلى الاعتراف بالأمر الواقع بتحوُّل الخلافة إلى مُلْك، ومن ثمَّ الحُكم بشرعيَّة الدُّول التي تلت الخلافة الرَّاشدة، طالما كان الضرَّر المتمثِّل في وجودها أخفُّ من الضرَّر المتمثِّل في نزع شرعيَّتها، حيث ناقش أهل السُنَّة هذه الحالة من خلال تكييفهم لإمامة الضرُورة. هذا وتعد مسائل الخلافة والسلطنة خلال العهود الإسلامية، من أبرز المسائل التي رصدها وعالجها المؤرخون والفقهاء، وتباينت آراؤهم فيها[٣]. فكيف تطوَّر مفهوم الدَّولة لدى العثمانيّين؟ وهل كان نظام الحكم في الدَّولة العليَّة نظام سلطنة أم خلافة؟ وما الفرق في استخدامات كُلاًّ من المصطلحين؟

أولاً: ظهور السُّلالة العثمانيَّة الحاكمة

١/١-بين الجهاد والغزو

يتَّفق كثيرٌ من المؤرِّخين[٤] على أن أسرة آل عثمان لا تنتمي إلى أُصول قَبَلِيَّة، ما يعني عدم ارتباطها بأي التزام نحو أقربائها، كما لم تكن أسرةً حاكمةً تَحتَكرُ مهام الدَّولة الرئيسيَّة، ممَّا جعل الكفاءة هي المعيار الأساسي للرُّتْبة والوضع الاجتماعي، وقد ظلَّ العرش طيلة التَّاريخ العثماني يتبوأُ قمة النّظام الاجتماعي والسِّياسي. ولَّما كان هذا النظام يرتكز على نُخبَة مُنتقَاة، فقد كانت كلَّ مجموعة تَحرصُ على المحافظة عليه، لكونه يخلع الشرَّعيَّة على وضعها الاجتماعي والسِّياسي[٥]، يؤكِّد ذلك المؤرخ التُّركي فؤاد كوبريلي، الذي يرى أنَّ تأثير قبيلة (قايي) - التي ينتمي إليها العُثمانيون-في نُشوء الدَّولة العُثمانية ليس بالكبير، ويقول ما نصُّه: « تُجمعُ المصادر القديمة على أن العنصر الذي أنجب أسرة آل عثمان.. النَّواة الأولى للدَّولة العثمانيَّة، عُنصرٌ غُزّي (تُركماني)، لا يفترق في ذلك عن أغلبيَّة التُّرك الذين وفدوا مع السَّلاجقة.. وقد تَوَطّنَ قسْمٌ من (قايي) بين ظَهرَاني التُّركمان فيما وراء بحر الخَزَرْ (قزوين)، وتَوَطّنَ قسمٌ في مازندران، وقسمٌ في أذربيجان وأران (جنوب قفقاسيا)، وامتزجوا في هذه المواطن بقبائل تُركيَّة أُخرى، ومن المعروف أنَّ القسم الذي وَرَدَ على الأناضول، تَقَسَّمَ وتَفَرَّقَ ووُطِّن بدوره في أماكن مختلفة.. ويتبيّن من هذا أنَّ الشُّعبة القليلة الأهميَّة التي أحاطت بأرطغرل، ثم بعثمان من بعده.. لم تُؤثِّر مع أنّها النَّواة الأولى للتشكُّل السِّياسي الجديد في صبغة الدَّولة»[٦].

لقد انطلقت الدَّولة العثمانيَّة في بادئ الأمر من عصبيَّة تركيَّة، أسرة آل عثمان التي اعتمدت بشكل أساسيٍّ على الجند الأتراك، وعلى القبيلة التُّركيَّة المقاتلة التي وحَّدت القبائل التُّركمانيَّة حول مشروع سياسيٍّ كمشروع دولة ومشروع سَلطَنة[٧]، ووفقًا لما أكَّده ابن خلدون في نشأة الدُّول السُّلطانيَّة[٨]. فضمن إطار الدولة السَّلجوقية، وانطلاقًا من فكرة الغزو/الجهاد على الحدود (دار الحرب)، برزت السُّلالة العثمانيَّة الحاكمة[٩]، وذلك بالرغم ممَّا أثاره مفهوم "الغزو" من جدل لدى المؤرِّخين، فقد استخدمه المستشرق النَّمساوي "بول ويتك" Paul Wittek (١٨٩٤-١٩٧٨م) في نظريته لتفسير قيام الدَّولة العثمانيَّة "نظرية الغزو" Gaza-thesis التي أصدرها سنة ١٩٣٧م[١٠] بمعنى: "الجهاد في سبيل الله"، وأكَّد أنَّه الدَّافع الأوَّل والعنصر المحرِّك لقيام الدَّولة العثمانيَّة وتوسُّعها على حساب جيرانها المسيحيين (الكفَّار)، وهو تقريبًا نفس ما ذهب إليه المؤرخ الألماني "فريدريك جيزه" Giese Friedrich (١٨٧٠-١٩٤٠م) حينما تكلَّم عن دور تنظيمات الحرفيِّين والتُّجار المعروفة باسم التَّنظيمات الآخية (الآخيات) التي نشأت وازدهرت في الأناضول خلال القرنين (١٣-١٤م).

في حين عارض آخرون هاته النَّظرة، فالمؤرخ "حلمي قاجار" يؤكِّد أن المصادر العثمانيَّة المبكِّرة كانت تُميِّز بين المفهومين، ولم تكن تستخدم مفهوم الجهاد، فقد تحدَّث عاشق باشا زاده (١٤٠٠-١٤٨٤م) عن مقاتلين يُطلق عليهم لقب "غازي" التفُّوا حول عثمان وكانوا يشنُّون الغزوات بإمرته، كما يرى المؤرخ الانجليزي "كولن إمبر" Colin Imber أنَّ مفهوم الغازي الوارد في "اسكندر نامة"[١١] والمدوَّنات العثمانيَّة المبكِّرة الأخرى ليس أكثر من ترجمة لمفردة "آقنجي" التُّركيَّة، التي تعني عند العثمانيِّين كَسب الغنائم والعبيد وليس نشر الإسلام! وهو ما يذهب إليه أيضًا الأمريكي "هيث لوري " Heath Lowry بقوله: إنَّ العثمانيِّين الأوائل طوال القرن الخامس عشر الميلادي لم يكونوا يَعُدُّونَ "الغزو" فريضةً دينيَّةً لنشر الإسلام بين الكفَّار، بل غارةً لجمع الغنائم والعبيد والنَّهب[١٢]! إلاَّ أنَّ المؤرِّخ التُّركي خليل إينالجيك (١٩١٦-٢٠١٦) دافع سنة ١٩٨٠م عن نظرية "ويتك"، وأكَّد أهميَّة الغزو بمعنى الجهاد، بوصفه عامل توحيد في تجاوز الانقسامات القبليَّة وظُهور الدَّولة العثمانيَّةً وتوسُّعها، وأكَّد مثل "ويتك" أنَّ مجتمع الأناضول له خصائصٌ ثقافيَّةٌ ثابتةٌ، وهو متشبِّعٌ بفكرة الجهاد لتوسيع دار الإسلام وأنَّ فكرة الغزو تنسجم مع فلسفة الإسلام[١٣].

٢/١-تطوُّر حُكم آل عثمان

تذكر السِّجلات التَّاريخيَّة[١٤] أنَّ الغازي عثمان مُؤسس إمارة آل عثمان كان يتزعَّم التُّركمان شبه الرُّحَّل، ويُقاتل تحت قيادة أمير "قسطموني" في المناطق الحدوديَّة، وحسب التَّقاليد المحليَّة للمنطقة التي نشأ بها، كان لابُدَّ له كي يصبح زعيمًا مستقلاً لإمارة سلجوقيَّة حدوديَّة من أن يُحقِّق نصرًا كبيرًا ضد المسيحيِّين، حتى يحصل من السُّلطان السَّلجوقي على لقب "بك"، وهو ما تحقَّق بعد معركة "بافيون" سنة ١٣٠٢م، كما هيمنت في الوقت نفسه طُرق الدَّراويش على الحياة الرُّوحيَّة في المناطق الحدوديَّة، حيث حصل عثمان على بركة الشَّيخ "أدَه بالي" (أديب علي) زعيم جماعة الآخية[١٥].

وبعد وفاة عثمان خلفه ابنه "أورخان" الذي أسَّس مئات الأوقاف في المناطق المفتوحة للآخية والدَّراويش، ما يُثبت أنَّ الآخية لَعبُوا دورًا مهمًّا في تأسيس الدَّولة والسُّلالة العثمانيَّة، كما يعتبر أورخان المؤسِّس الحقيقي، بعد أن أسَّس الجيش العثماني، وسكَّ أوَّل عُملة لتأكيد استقلاله[١٦]، وعندما أخذت الإمارات الأناضوليَّة الصَّغيرة[١٧] تُقرُّ بسيادة مراد بن أورخان بادر إلى حمل لقب "خداوندكار"، أمَّا وريثه بايزيد فكان أوَّل سُلطان عثماني أطلقت عليه المصادر الغربيَّة المعاصرة لقبَ "إمبراطور"، كما اعتبَرَ السُّلطان محمد الفاتح أنَّه قد اتَّحدت في شخصه التَّقاليد الإسلاميَّة والتُّركيَّة والرُّومانيَّة كعاهل عالميٍّ، وخلال عهد السُّلطان سليم الأول تغيَّر بشكلٍ جذريٍّ مركز السُّلطان العثماني بعد ضمِّ البلاد العربيَّة سوريا ومصر والحجاز إلى دولته، ومُنِحَ لقب "حامي الحرمين" و"راعي طرق الحج"، اللذين كَانا أهمَّ من لقب "الخليفة"، إلاَّ أنَّه لم يدَّعى أنَّه خليفة المسلمين بالمفهوم التَّقليدي الإسلامي الذي يلزم شرط "القُرشيَّة" في الخلافة[١٨]، كما أنَّ مفهوم وجود خليفة واحد لكُلِّ العالم الإسلامي فقد قيمته منذ القرن الثالث عشر الميلادي[١٩].

أمَّا السُّلطان سليمان القانوني فقد كان يرغب تأكيد تَفوُّقه على بقيَّة حكام المسلمين وحمايته للإسلام، وقد خطَّ شَريف مكَّة في رسالة التَّهنئة لسليمان الأوَّل بمناسبة وصوله للعرش، أنَّ نجاحه في الجهاد وحمايته للإسلام جعله يتفوَّق على كل الحُكَّام المسلمين[٢٠]. وهكذا فقد بقي سلاطين آل عثمان سلاطين-غزاةً، وَأَغْنَوا مؤسَّسة الخلافة بمعنًى جديد، بعد أن أقاموها على مفهوم الغزو وليس على أساس التَّقاليد، حيث كان العالم الإسلامي يرى في العثمانيِّين القوَّة الوحيدة القادرة على حمايتهم من هجوم المسيحيِّين، وكان من الطَّبيعي أن يستثمر سلاطين آل عثمان ذلك لدعم تفوُّقهم السِّياسي.

ثانيًا: مفهوم الدَّولة لدى العثمانيِّين وأركان نظام الحكم

٢/١-مفهوم الدَّولة لدى آل عثمان

بدأ مفهوم الدَّولة لدى العثمانيِّين يتطوَّر تدريجيًا مع تطوُّر الدَّولة، وبعد أن قامت الإمارة العثمانيَّة على فكرة الغزو على الحدود بهدف حفظ الشَّريعة وحماية الإسلام ونشره كأهم واجب، تكشف الوثائق العثمانيَّة منذ النِّصف الأوَّل للقرن ١٤م أنَّ التَّقاليد الإداريَّة للدول الإسلامية قد أخذت طريقها إلى الإدارة العثمانيَّة، عن طريق رجال الدَّولة المنحدرين خلال تلك الفترة من المراكز السَّلجوقيَّة

القديمة في الأناضول ومن إيران ومصر، فمنذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادي نجد أنَّ حوليَّةً لمؤلف مجهول تنتقد بعض الإجراءات الإداريَّة المتَّخذة عهد بايزيد الأوَّل حول تنظيم إحصائيات المسح، والسِّياسة الماليَّة التي تهدف إلى زيادة واردات خزينة الدَّولة، ونظام الدفشرمة وغيرها. وقد تطوَّر مفهوم الدَّولة قبل الإسلام، ثم انتقل بواسطة الكُتَّاب الفرس والنَّصارى إلى الخلافة العباسيَّة، فتقبَّل العثمانيُّون هذا المفهوم بعد أن تطعَّم بتقاليد تركيَّة[٢١].

كما تعكس ملحمةٌ شعبيَّةٌ عثمانيَّةٌ مبكِّرةٌ مكتوبةٌ بتقاليد الغزو مفهوم الدَّولة، فالدّرويش "صاري صالتق" ينصح عثمان الغازي بالقول: «كُن عادلاً ومُنصفًا ولا تدفع الفقير ليسُبَّك ولا تظلم رعيَّتك.. راقب بانتباه قُضاتك ووُلَّاتك، اعمل بالعدل لكي تبقى في الحكم، وتحافظ على طاعة رعيَّتك»[٢٢].

وكما هو الأمر مع كل حُكَّام المسلمين، فقد اعتبر السَّلاطين العثمانيون أتباعهم رعيَّةً سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، وفي المقابل فقد كان السُّلطان مُلزَمًا باعتباره إمام المسلمين أن يقود الرَّعية حسب الشرَّيعة، وهكذا فقد كتب في النَّصف الثَّاني من القرن الخامس عشر الميلادي المؤرخ "طوسون" في كتابه المقدَّم للسُّلطان "بايزيد الثَّاني"، بعض الآراء حول ضرورة الملكية وطبيعتها، مُؤكدًا أن وجود الحاكم الأعلى ضروري، وهو واجب الطَّاعة، إذ يقول: «وَمَهمَا كَانَ هَذَا النِّظَامُ، فإنَّ وُجُودَهُ واستمرَارِه يَعتمَدَان عَلَىَ أنْ يَكُونَ هُنَاكَ حَاكمٌ أعلىَ، وَلَيسَ ثَمَّةَ ضَرُورَةَ وُجُودَ النَّبيَّ في كُلِّ عَصر، وَلَكن يَجِبُ أن يُوجَدَ حَاكمٌ أعلىَ دَائمًا، لأنَّ بدُون مثل هَذَا الحَاكم يَنقَلبُ النِّظَامُ إلى الفَوضىَ.. وإنَّ الامتنَانَ والاحترَامَ والإطَاعَةَ التي منْ حَقِّه يُؤكِّدُهَا القُرآنَ والتَّقليد الإسلامي»[٢٣].

هكذا يرى طوسون أنَّ الحكومة التي تعتمد على العقل فقط، تسمَّى "اليسق السُّلطاني"[٢٤]، أمَّا الحكومة التي تعتمد على الأُسس التي تُؤسِّس السَّعادة في الدُّنيا والآخرة تسمَّى بالسِّياسة الدِّينيَّة، وقد دعا النبي ﷺ إلى تطبيق الشرَّيعة، إلاَّ أن الملك فقط يمكن له أن يُطبِّق هذه السِّياسة بما لديه من سلطة، فالنَّاس لا يمكنهم أن يعيشوا في انسجام دون سلطانٍ، وهو بذلك يعتبر العدالة جوهريَّةٌ لاستمرارية الدَّولة، حيث يشترط في الحاكم الأعلى أربع صفاتٍ (العدل، الصَّبر، الاعتدال والحكمة)[٢٥].

وبالتَّالي فإنه ومنذ حدوث الانقطاع بين الخلافة الإسلاميَّة (الخلافة الرَّاشدة الأنموذج) والملك العضُوض الذي بدأ مع تغلُّب معاوية ﷺ، وحتى نهاية المرحلة التي تحكَّمت فيها "إمارات الاستيلاء" والسَّلطنات التي برَّرها الماوردي (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) في الأحكام السُلطانيَّة[٢٦]، استقرَّت الدَّولة في الإسلام، على ثوابت معيَّنة من المفاهيم والمؤسَّسات والأعراف انطبقت بدورها على الدَّولة العثمانيَّة نفسها، فمؤسَّسة السَّلطنة التي تقوم مقام الخلافة وتنوب عنها في بعض المهمَّات، هي نفسها المؤسَّسة "العثمانيَّة" التي وَرِثَت السَّلاجقة حسب المنطق الفقهي الذي برَّره الماوردي[٢٧]. وفي هذا الإطار نجد أنَّ العُثمانيِّين قد وقفوا مَوقفًا وسطًا بين نظريتين: النَّظريَّة الأولى تعتبر السُّلطة مَمنُوحةٌ للسَّلاطين من قبَل الله[٢٨]، في حين تَعْتَبِرُ الثَّانية وهي لأهل السُّنة والجَمَاعَة أنَّ السُّلطة يَخْتَصُّ الله بها عباده وخلفاؤه على الأرض، فهي تفويضٌ بمُبايعة حاكم، مع التزامه بشروط مُعيّنة في مُقدّمتها العدل وتنعقدُ بشرُوط: أوَّلُها مُبايعةُ أهل الحَلِّ والعَقْد إذا لم يَستَخْلف الخليفةُ، ثانيها الاستخلاف، وثالثها جَعل الخليفة الأمرُ شُورى، وخلاصة هذا القول الاختيار والشُّورى بين المسلمين، وقد ظهر جليًا موقف العثمانيين الوسط من النَّظريتين نظريًا وعمليًا (من خلال الممارسة السِّياسيَّة)، من خلال الفرمان[٢٩] الذي يُصدره السُّلطان بمُجرَّد جُلُوسه على العرش بقوله: «إنَّ منْ لُطف الله أنْ تَيسرَّ لَنا أمْرُ اَلسَّلْطَنَة»[٣٠].

٢/٢-أركان نظام الحكم العثماني

اتَّبع العثمانيون تنظيمًا بسيطًا في بناء دولتهم، من خلال إنشاء جهازين إداريّين للحُكم، جهازٌ إداريٌّ مركزيٌّ مُمثَّلاً بالسُّلطان وحاشيته (آل عثمان)، يعاونهم الدِّيوان الذي يَضُمُّ هيكلاً إداريًا يتكوَّن من الصَّدر الأعظم وأفراد الطَّبقة الحاكمة، إضافةً لرجال المؤسَّستين العسكريَّة والدِّينيَّة، وجهازٌ إداريٌّ محليٌّ في الولايات (الإيالات) وتفرُّعاتها[٣١].

ونظرًا لأن الدَّولة العُثمانية قد نشأت على أطراف ما تبقَّى من الدَّولة البيزنطيَّة وأنَّها كانت دولةً أوروبيةً قبل أن تُصبح دولةً آسَيويةً، لذلك لم تتوفَّر لها نُظُمٌ واحدةٌ، فقد كان نظام الحُكم في الأناضول يختلف عنه في كُلٍّ من البَلقَان والعالم العربي، حيث وَرِثَت الهيئةُ الحاكمة

العُثمانيةُ الملامحَ الرئيسيةَ عن النِّظام الفارسي، الذي أَخَذَ به السَّلاجقة بعد أن تَترَّكَ بعض الشيء، وهو النِّظام الذي وَرِثَهُ الغزنويون عن العباسيّين ثم لَحِقتهُ بعض التَّعديلات[٣٢]، إلاَّ أنَّ النِّظام العُثماني كانتَ له ملامحٌ خاصّةٌ، قد ترجع إلى موقع الدَّولة الجُغرافي في أوائل عهدها، بما في ذلك اقتباسها بعض مَلامحِ النِّظام البيزنطي[٣٣].

كما اصطبغت الدَّولة العُثمانيَّة بالصِّبغة العسكريّة منذ قيامها، واتَّجهت إلى التّوسُّع باعتباره أفضل وسائل الدِّفاع، فقامت الدَّولة منذ نشأتها على نظريَّة الجهاد الذي يُعطي للقائمين به فُرَصَ مُتابعته بصفَة مُستمرَّة بالقوى البشريَّة والمادِّية، ما ترتَّب على هذا الاتِّجاه مُحافظة الدَّولة على طابعها العسكري حتّى النِّهاية، وكان هذا التَّوسُّع من السرُعة بحيث حال دُون إدماج الرَّعايا غير المسلمين ممَّن دخلوا في نطاق الدَّولة الجديدة واستمرار الحكومة العسكريَّة، وبذلك فإنَّ السُّلطة العُليا كانت للمجاهد العُثماني[٣٤] أو من يَختَارُهُ العُثماني[٣٥].

غير أن تَطَوُّر الدَّولة العُثمانيَّة عبر مسارها التَّاريخي الطَّويل، من بَكَوِيَّة حُدوديَّة إلى إمارة مُستقلة، فَدَولَةٌ فإمبراطوريَّةٌ، فَرَضَ عليها من جهة أخرى إيجاد نظام إداريٍّ مَتَطَوِّر تجلىّ في مُؤسَّساتها القويَّة التي أوجَدَتهَا، مُستفيدةً في ذلك من تُراثها الإسلامي والبيزنطي[٣٦]، واهتمامها البالغ بتدريب الكفاءات التي أدارتها، حيث مثَّل القصر الهمايوني مدرسةً حقيقيةً لتخريج الكفاءات العسكريَّة والمدنيَّة، الأمر الذي نال شهادة استحسان كثير من المؤرِّخين الغربيِّين، منهم المؤرخ ألبرت هـ. ليبير[٣٧] Albert H Lyber الذي يقول: «.. يكشف تاريخ الإمبراطوريَّة العُثمانيَّة عن ثابتين كانا سببًا في قُوّتها: ليست القُوَّة العسكريَّة وحدها هي التي جعلت العُثمانيين القُوَّة الأكبر خلال القرن السَّادس عشر فالقُوَّة العسكريَّة كان من خلفها رجالٌ لهم من قُوَّةٍ وكَفَاءَةً مكَّنتهم من فتح أجزاء شاسعةً في أوربا، آسيا وإفريقيا، وإدارتها وفْقَ تنظيم مُحكَم ومُقَنَّنٍ صَمَدَ لأكثر من ثلاثة قرون قبل أن ينهارَ»[٣٨].

وبالتَّالي فقد كان المجتمع في الدَّولة العثمانيَّة مُنظّمًا ومُقسَّمًا بين نُخبَة حاكمة وعامَّة النَّاس، أي (الرَّعايا في التَّعبير العثماني)،[٣٩] وضمَّت النُّخبة الحاكمة فئتين: هما مُمثِّلي السُّلطان والهيئة الدينيَّة، وحتى مطلع القرن التَّاسع عشر كان ما يزال بالإمكان أن يُطلق على نظام الحُكم (نظام الوصاية)، الذي هو امتداد لأسرة السُّلطان الخاصَّة، حيث شُكِّلَ نمط الحُكم من خلال أُسرَة واسعة ضمَّت حتى الخدم والعبيد والتَّابعين، وكان الانضمام إلى نظام الوصاية هذا يكون من خلال الولاء للأسرة الحاكمة، بل ويعتبر من المتطلَّبات الأساسيَّة للحُصول على أيّ وظيفة حكوميَّة[٤٠].

ثالثًا: بين السَّلطنة والخلافة

٣/١-السَّلطنة العثمانيَّة

لم يكن نظام السَّلطنة[٤١] طابعًا للدَّولة العثمانيَّة في بداياتها، حيث لم تكن تحكم من قبل حاكم واحد يُمسك بزمام السُّلطة، بل كانت العائلة كُلُّها تشترك في الحُكم والإدارة، وفي سياق الفتوحات كانت تُمنح البلاد المفتوحة لمختلف أفراد العائلة، ولم يتحرَّر العثمانيون من كلِّ سيطرة عليهم قبل منتصف القرن ١٤م، ونجد ترجمة ذلك في ألقاب الحكَّام الأوائل في السِّجلاَّت الأقدم، فعثمان وأورخان حملوا لقب "بك" أو "خان"[٤٢]، ولم يظهر لقب السُّلطان إلاَّ عهد بايزيد الأوَّل (١٣٨٩-١٤٠٢م)، وعلى الرَّغم من تطوُّر الألقاب عند العثمانيِّين، فقد بقيت التَّقاليد والأعراف سَّائدة عثمانيًّا في الزَّعامة القبليَّة، وبذلك فإن مفهوم الحُكم كان محدودًا جدًّا، وكانت الإدارة منحصرةٌ في الأمور الماليَّة[٤٣]، وبمرور الوقت تركَّزت في شخصيَّة السُّلطان نظريات الفكر والتَّطبيق السِّياسي في الإسلام، فالسَّلطنة العثمانيَّة وريثة تسعة قرون من التَّاريخ، تطوَّر خلالها المفهوم الإسلامي للملكيَّة والحُكم، على أساس أعمال مقرونة بالتَّقاليد العربيَّة والفارسيَّة القديمة، ونظريات أفلاطون وأرسطو، والاستنباطات النَّظرية التي خرج بها فقهاء أهل السنَّة[٤٤]، وضرورات الحُكم العقلي وكلُّ ذلك ترك أثره على طريقة الحُكم عند العثمانيِّين[٤٥].

فقد اعتقد العثمانيُّون أنَّ تعيين السُّلطان بيد الله، وكان إصدار أيَّ قانون لتحديد وريث له، أو أيَّة محاولة لخلعه من العرش تُعَدُّ مخالفةٌ لإرادة الله، كما أنَّ أيَّ نتيجة للصرِّاع على عرش السَّلطنة تُعَدُّ حُكمًا إلهيًا يجب التَّقيُّد به[٤٦]، إضافةً إلى وجوب وشرعيَّة السُّلطان بعد إتمام البَيعَة له، والتي كانت تمثِّل عند العثمانيّين تقليدٌ

إسلاميٌّ قديمٌ يجب التَّقيُّد به، وترمز إلى قبول الخليفة الجديد وتقديم الولاء له(٤٧).

وقد تبوأ السُّلطان العثماني قمَّة النِّظام السِّياسي الاجتماعي، وارتكز على شرعيَّة تاريخيَّة حافظت على نفسها من خلال الصرِّاع الدَّاخليّ على الحُكم، وشغل قمَّة نظام الحكم الذي يتألَّف من أجهزة متعدِّدَة مدنيَّة وعسكريَّة، بإصداره لجميع القوانين والنُّظم والأوامر لتمتُّعه بالسُّلطتين التَّشريعيَّة والتَّنفيذيَّة، وقوانينه تأتي بعد القرآن والسُّنَّة والمذاهب الأربعة وبخاصَّة المذهب الحنفي، فتغدو مراسيمه بمثابة أعراف(٤٨). ومن هذا المنطلق كان الحُكَّام العثمانيون يرفضون أيَّ تحديد لسلطتهم السِّياسيَّة وكان السُّلطان يُصدر القانون على شكل "فرمان"٤٩، فالقانون العثماني الذي وُضعَ في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي يقول: «إنَّ الرَّعيَّة والأرض تعود إلى السُّلطان»، وبعبارة أخرى فإنَّه كان لا يَحقُّ لأحد أن يُمارس سلطةً دون إذن السُّلطان، وكان هذا يوفر للسُّلطان سيادةً مطلقةً في الدَّولة، ويسمح له بالتَّخلُّص من كل أشكال السِّيادة القانونيَّة في الولايات، كما يسمح له ممارسة بعض الرَّقابة على الأوقاف والملكيَّات الخاصَّة، وهكذا كان هذا المبدأ في الحقيقة حجر الزَّاوية للنِّظام المركزي العثماني، وبالمقابل كانت الشَّريعة الإسلاميَّة القانون الثَّابت والأساسي في الدَّولة، لكنَّ ذلك لم يمنع من وجود "القوانين العقليَّة" التي وضعها السُّلطان، على أنَّها كانت قاصرةٌ على بعض مسائل القانونية والإداريَّة(٥٠)، وهكذا فإنَّ السَّلاطين العثمانيّين بحكم التُّراث الذي ورثوه حقَّقوا تطويرًا عظيمًا لهذا الحقِّ الممنوح للسُّلطان(٥١)، وقد تسنَّى لبعض السَّلاطين الاضطلاع بنشاط تشريعيٍّ مُكثَّف لعلَّ أبرزهم محمَّد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م)(٥٢)، وسليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م).

ومن الملامح الأساسيَّة لمنصب السَّلطنة في الدَّولة العثمانيَّة إمساك السُّلطان بزمام السُّلطة والحكم، فهو الذي يُعينِّ الحكومة أو يعزلها، ويُعينِّ الموظَّفين في جميع الوظائف، ويُحدِّد وظيفتهم و ألقابهم، وهو القائد الأعلى للجيوش، وهو الذي يَعقدُ المعاهدات وعهود الصُّلح مع الدُّول الأجنبيَّة(٥٣)، وقد بقي السُّلطان الزعيم المطلق للدَّولة حتى القرن السابع عشر الميلادي، عندما أدَّى ضعف بعض السَّلاطين العثمانيين إلى تعاظم تدخُّل الإنكشاريَّة وتأثيرها في نظام الحكم، ومع ذلك فقد بقي منصب السُّلطان العثماني ذا مكانة في الدَّولة، وضُعف السَّلاطين كان بعد ضعف الدَّولة العُثمانيَّة، وليس بسبب ضعف منصب السُّلطان نفسه، مع أنَّ البعض منهم لم يلعب سوى دور ثانويٍّ في شُؤون الحُكم(٥٤).

٢/٣-علاقة السَّلطنة بالخلافة

منذ أواسط القرن (٤هـ/١٠م) لم يَعُد الخليفة في العالم الإسلامي صاحب السُّلطة التَّنفيذيَّة، وغَدا السُّلطان هو صاحب السُّلطة الفعليَّة، ولم يكن أمام الفقهاء إلاَّ تعديل نظريتهم من خلال قيام الخلفاء بمنح تفويض للحُكَّام، فَمَعَ الضَّعف المتوالي للخلفاء ومركز الخلافة، وبُروز قوَّة السَّلاطين المستقلِّين، ظهرت إشكالاتٌ سلطويَّةٌ كان ينبغي للفقهاء أن يجدوا لها حلاًّ شرعيًّا يَعصمُ الأمَّة من التَّناقض مع شريعتها من جهة، ويُجنِّبُها الفتن من جهة ثانية، فكان الحلُّ في شرعَنَة" إمارة الاستيلاء"، والتي يشرحها أَبي الحسن الماوردي إبقاءً على رمزيَّة الخلافة وبقائها حكرًا على قريش ودرءًا للفتنة عن الأمَّة، بقُبُول من تغلَّب على أمورها بالقُوَّة والشَّوكة، وفق شروط معيَّنة، حيث يقول: «.. وأمَّا إِمَارَةُ اَلْاسْتيلَاء اَلَّتي تُعْقَدُ عَن اضطرَار فَهيَ أَنْ يَسْتَوْليَ الأَميرُ بالقُوَّة عَلَى بلَاد يُقَلِّدُهُ الخَلِيْفَةَ إِمَارَتَهَا وَيُفَوِّضُ إِلَيْهَا تَدْبِيرَهَا وَسيَاستَهَا، فَيَكُوْنُ اَلأَميرُ باَسْتيْلَائه مُسْتَبدًّا بالسِّيَاسَة وَاَلتَّدْبيرْ، وَاَلْخَليْفَةُ بإذْنه مُنَفِّذًا لأَحْكَامْ اَلدِّيْن، لَيَخْرُجَ منَ اَلْفَسَاْد إلَى اَلْصحَّة وَمنَ اَلْخَطَر إلَى اَلإِبْاَحَة»(٥٥).

وعند قيام الدَّولة العثمانيَّة بدأ فُقهاء الدَّولة على المذهب الحنفي في تغيير وُجهَة نظرهم حول الخلافة والسَّلطنة، وَتُشبهُ نظريَّة الخلافة كما قدَّمها الفقهاء المسلمون في العهد العثماني -في جوانب كثيرة- النَّظرية التي قدَّمها من قبلهم، ولهذا حدَّدت الدَّولة هدفها الذي تمثَّل في تحقيق المُثل العليا الإسلاميَّة، ولم تَعُد السُّلطة هدفًا في حدِّ ذاته(٥٦)، ووفقًا للنَّظريَّة الجديدة فإن الخلافة الأصليَّة قد انتهت حين أخفق علي بن أبي طالب ﷺ رابعُ الخلفاء الرَّاشدين، في سدِّ حاجة المجتمع السُنِّي إلى إمام قائم مرئي، ومن هنا يصلح لمنصب الخلافة ومهمَّاتها كلُّ حاكمٍ رشيد، يحكم بالعدل ويُنفِّذ أحكام الشرَّع(٥٧)، أي أنَّ "الفقه السُّنِّي" قد تجاوز شرط القرشيَّة بنقلها من النَّسب إلى الوظيفة والقدرة على القيام بأعباء المنصب، وبالتَّالي

تُعَدُّ هذه النَّظرية أساس استعمال اصطلاَحَي "خليفة"، و"خلافة"، في الفترة الأخيرة من الدَّولة العَثمانيَّة، وقد كان الفقيه "الدواني"(٥٨) الذي عاصر السُّلطان بايزيد الثَّاني، قد تبنَّى هذه النَّظريَّة ومهَّد لها لكي تكون تعبيرًا نهائيًا لقي قبولاً عند النَّاس، كما لقيت نظريته تأييدًا من قبَل السُّلطان، ومنذ ذلك الوقت أصبح اصطلاحَا "الخلافَة والسَّلطنة" مُترادفين معنىً ومبنًى، إلاَّ أنَّ السُّلطانَ العثماني لم يكن يُخاطَبُ على الإطلاق بلقب الخلافة بوصفه إمامًا وخليفةً، سواءً في الاستعمال العادي أو الرَّسمي(٥٩).

والواقع أنَّ السُّلطان بايزيد الأوَّل (١٣٨٩-١٤٠٢م) قد نجح في التَّخلِّي عن التَّقاليد القبليَّة البسيطة، متبنيًا نظام حُكم لدولة قائمةٌ بذاتها، تستند على المرجعيَّة الإسلاميَّة، واتَّخذ لَقب "سلطان الرُّوم" بعد سيطرته على الأناضول وامتداده غربًا، وأملاً في زيادة هيبته في العالم الإسلامي، وإسباغ الشرَّعية الرَّسميَّة على سلطنته نَاشَدَ الخليفة العبَّاسي في القاهرة المتوكل بن المعتضد (١٣٦١-١٤٠٦م) الذي كان يُقيم في ظلِّ مماليك القاهرة لإقرار هذا اللَّقب(٦٠)، ووافق السُّلطان المملوكي برقوق (١٣٨١-١٣٩٨م) حامي الخليفة العبَّاسي على الطَّلب، لأنَّه يرى بايزيد حليفه الوحيد ضدَّ قُوَّات "تيمورلنك" التي كانت تُهدِّدُ الدَّولة العثمانيَّة والمملوكيَّة(٦١)، وبذلك يُعَدُّ بايزيد أوَّل من تسمَّى بالسُّلطان، في ظل وجود الخليفة العباسي بالقاهرة، الذي يُمثِّلُ رمزًا روحيًا في العالم الإسلامي(٦٢)، وتمَّ إعلاء منصب السَّلطنة العثمانيَّة على كُلِّ المناصب الأخرى، بما فيها الخلافة العبَّاسيَّة في القاهرة، خاصَّةً بعد فتح القسطنطينيَّة سنة ١٤٥٣م، حيث صار السُّلطان محمَّد الثَّاني (١٤٥١-١٤٨١م) أشهر زعيم في العالم الإسلامي، بالرَّغم من وجود السَّلاطين المماليك والخلفاء العبَّاسيين تحت ظلِّهم في القاهرة(٦٣).

وعند ضَمِّ السُّلطان سليم الأوَّل (١٥١٢-١٥٢٠م) لمصر سنة ١٥١٧م ظهرت مسألة انتقال الخلافة العبَّاسيَّة إلى آل عثمان، وقد كان الاعتقاد أنَّ العُثمانيينِّ حملوا هذا اللَّقب بعد أن استلم السُّلطان سليم الأول رُمُوز الخلافة من آخر العبّاسيّين، كما يذكر ذلك المؤرِّخ والدّبلوماسي السُّويدي "مرادجه دوسون" Mouradgea D'ohsson ونقلها عنه بعض المؤرِّخين العُثمانيِّين(٦٤)، لكن يُشكِّك البعض في أنَّ السَّلاطين العثمانيِّين قد اهتمُّوا أصلاً بحمل هذا اللَّقب(٦٥)، حيث أنَّ النُّصُوص التي أرّخت للحملة العُثمانيَّة على مصر والشَّام، لم تُشر إطلاقًا إلى هاته المسألة، فلا "ابن إياس" ولا "ابن طولون" أثارا مسألة نقل رُمُوز الخلافة، مع أنَّهما اهتمَّا بمسائل أقلُّ أهميَّةً(٦٦)، والرَّسائل التي أرسلها السُّلطان سليم إلى ابنه سليمان لم تَرد فيها أيَّة إشارة لتنازل الخليفة عن لقبه للسُّلطان(٦٧).

ولم يُلقَّب السُّلطان سليم بعد دخوله القاهرة بالخليفة في مساجدها في أثناء الخُطبَة بل مُنح لقب: "السُّلطان ابن السُّلطان، ملك البرَّين والبحرين، كاسر الجيش، سُلطان العراقين، خادم الحرمين الشرَّيفين، الملك المظفَّر سليم شاه"(٦٨)، وهذا رغم توظيفه السِّياسي والإعلامي لمكانة الخليفة العباسي الرُّوحيَّة، لتهدئة حال الرَّعيَّة وعودة الاستقرار للقاهرة بعد دخولها، يقول ابن إياس: «.. وفي يوم الاثنين -سلخ اثنتين وعشرين وتُسعمائة-دخل أمير المؤمنين محمد المتوكِّل على الله إلى القاهرة، وصحبته وزراء ابن عثمان والجم (الجمع) الكثير من العَسَاكرَ العُثمانيَّة.. فلمَّا دَخلَ الخليفة من باب النَّصر، شقَّ القاهرَة وقُدَّامه المشاعليَّة تنادي للنَّاس بالأمان والاطمئنان والبيع والشرِّاء والأَخذ والعَطَاء، وأن لا أحدٌ من العسكر العثماني يُشوِّشُ على أحَد من الرَّعيَّة، وقد أُغلِقَ باب الظُّلم وفُتِحَ باب العدل..»(٦٩).

كما تخلُو نُصوص الرَّسائل الصَّادرة عن السُّلطان العُثماني والمُوجَّهة إلى مُلُوك أوربا نهاية القرن الثامن عشر الميلادي من لقب "الخَليفة"، لكن رغم ذلك شكّلت مخاطبة المسلمين من قبل العُثمانيين استثناءً، حيث يظهر ذلك جليًّا من خلال الرسائل التي كان يبعثها السَّلاطين العُثمانيون منذ القرن السادس عشر الميلادي -على الأقل- إلى شريف مكّة وخان القرم، وكذا المُراسلات العُثمانيَّة مع الدَّولتين المغربيَّة والصَّفوية، والتي كانت تحمل كُلَّ الألقاب الشرَّفيَّة التي يحملها السُّلطان، بما فيها لقب الخليفة، ويمكن أن نستدلَّ على ذلك برسالة سليمان القانوني إلى شريف مكَّة والتي جاء فيها: «..إنَّ والدنا السُّلطان الأعظم والخاقان المُبَجَّل، خادمُ بيت الله والحرم فاتحُ ممالك العرب والعجم، سعيدُ الحياة شهيدُ الممات المغفور له سلطان سليم خان أسكنه الله فسيح الجنان وألبسهُ بِلُطفه لِبَاس الكرامة والرِّضوان، وقد امتَثَلَ

لخطاب ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.. ولمّا كان الحال على هذا المنوال صارت العناية العليَّة الرَّبَّانية قَرينَ أحوالنا والهداية الجليلة الصَّمدانية رهينُ آمالنا فَجَعَلَنَا على سرير السَّلطنة ومُستَقَرِّ الخلافة يوم الأحد السَّابع عشر من شهر شوَّال المُكرَّم المنخرط في سلك شُهور سنة ستٍّ وعشرينَ وتُسعمائة ونَشرَنَا مَيَامنَ مَعدلَتنا الشرَّيفة بينَ الأنَام.."[٧٠]، وكذا رسالته إلى خان القرم، والتي يقول فيها: «...وَرِثْتُ بإرادة الله المُستَعَان سرير السَّلطنة يوم الأحد سابع عشر من الشهر وبمجرَّد جلوسي بَعَثْتُ بمنشُوري السُّلطاني ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ مُوقَّعٌ ومَطرُوزٌ بآيات الخلافة..»[٧١].

كما كان للعُثمانيين على ما يبدو فهمٌ خاصٌ للخلافة، كنتيجة طبيعيَّة للتطوُّرات التي عرفتها البلاد الإسلاميَّة، وبَدَت الحاجة إلى ألقاب الخلافة أكثر عندما شعر العُثمَانيُّون بالضَّعف[٧٢]، وعليه فإنَّ رواية "خلافة آل عثمان" وتسمية السُّلطان سليم الأوَّل بخليفة المسلمين، هي دَعوى لا تستند إلى أصل تاريخيٍّ أو مصدر شرعيٍّ فالدَّولة العثمانيَّة هي دولة سَلطَنَة[٧٣]، وهذا رغم أنَّ مُصطَلَحي السَّلطنة والخلافة كانا مُتداخلين دائمًا لدى المؤسَّسة الدِّينيَّة العثمانيَّة في القرون الأولى[٧٤]. ولم يَعمَد العثمانيُّون إلى إحياء لقب "الخليفة" إلاَّ في القرن الثامنَ عشر الميلادي فقط، لإثبات شرعيَّة الحكم في المناطق الإسلاميَّة، كما هو الشأن في معاهدة "كوجوك قينارجه" سنة ١٧٧٤م، عندما أُجبرَ العثمانيون على التَّخلي عن جزيرة القرم، حيث أرادَ العثمانيُّون المحافظة على سلطتهم الرُّوحيَّة على جميع المسلمين خارج نطاق الدَّولة العثمانيَّة ومنهم تتار القرم[٧٥]، فحرصوا على كتابة عبارة "أمير المؤمنين" و"خليفة الموحِّدين"، في البند الثَّالث من نصِّ المعاهدة باللُّغة التُّركيَّة، وفي النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر أظهر العثمانيُّون اهتمامًا كبيرًا بلقب الخليفة، عندما جعل السُّلطان عبد الحميد الثَّاني (١٩٧٦-١٩٠٩م) قضيَّة المطالبة بالخلافة واحدةً من اهتماماته، وهذا على عكس جدِّه السُّلطان محمود الثَّاني، الذي أراد أن يُشاركه لَقب الخلافَة[٧٦]، الإيراني "علي شاه"، كما يظهر ذلك في "معاهدة أرضروم" سنة ١٨٢٣م[٧٧]، كما حمل السُّلطان عبد الحميد الثَّاني مشروعًا للوحدة الإسلاميَّة[٧٨] تحت راية الخليفة العثماني[٧٩].

لكن ورغم مطالبة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بلقب الخلافة، إلاَّ أنَّ "المولى الحسن" في المغرب، و"الخديو إسماعيل" في مصر، وبدرجة أقل "ناصر الدين شاه" في طهران، لم يعترفوا به كخليفة، أمَّا المسلمون الذين كانوا تحت نَير الاستعمار الأوربي في الهند وجنوب شرقي آسيا وفي إفريقيا، فقد كانوا يَوَدُّونَ أن يتقلَّد السُّلطان ذلك اللَّقب، لا لسَبَب سوى أنَّ الدَّولة العثمانيَّة كانت آخر دولة إسلاميَّة قَادرة -رغم ما تُعانيه- على الوقوف في وجه الاستعمار[٨٠]، وهكذا فقد بدأت حملةً دعائيَّةً داعمةً من استانبول، للتَّرويج لشعارات "الجامعة الإسلاميَّة"، وانتشرت على نطاق واسع، وأُرسلَت البعثات إلى مختلف الجهات، وصارت الخُطَب تُلقى بَاسم (الخليفة)، والدُّعاء له في كُلِّ مكان، كما أصبح شيخ الإسلام والمفتي من أقرب مُستشاري السُّلطان، ولم يَحْظَ ذلك بتعاطف العلماء الأتراك وحدهم وإنَّما في مختلف الأوساط الإسلاميَّة، وصار يُنظر للسُّلطان عبد الحميد الثَّاني باعتباره خليفة المسلمين، وحامي الشرَّيعة والمدافع عن حُرمتها[٨١].

أمَّا عند المفكِّرين المسلمين –العرب خاصَّةً- فقد كانت شرعيَّة المطالبة بالخلافة بَالغَةُ التَّعقيد، فقد استدلَّ البعض بقول النَّبي ﷺ بالخلَافة في قريش، واضمحلَّ التَّردد في الإقرار بمطلب السُّلطان عبد الحميد الثَّاني أكثر مع سقوط المقاطعات الإسلاميَّة تباعًا بأيدي الاستعمار، لكن وبمرور الزَّمن قدَّم بعض العلماء سبيلاً فكريًا أكثَرُ تعقيدًا، يرى بأنَّ السُّلطان العثماني هو الوحيد الذي له الحقُّ في اللَّقب، حفاظًا على المجتمع الإسلامي، وكما فعل "ابن عابدين" بخصوص السُّلطان محمود الثَّاني، فقد قدَّم "عبد الرزَّاق البيطار الدِّمشقي" أحد تلامذة ابن تيمية، في مدخل كتابه عن سيرة حياة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، مبررات منطقيَّة بشأن تَفَرُّد آل عثمان بشرعيَّة المطالبة بالخلافَة، وأدرَجَ ألقابًا للسُّلطان مثل: (سلطان سلاطين العرب والعجم)، و(ظلُّ الله على الأرض)، و(أمير المؤمنين)، وهي ألقابٌ لا تُطلَقُ سوى على الخلفاء، واختتم مناقشته لثورة "محمد أحمد" في الخرطوم ضد الإدارة المصريَّة سنة ١٨٨٣م وادِّعائه المهديَّة، بأنَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني هو الخليفة الشرَّعي العالمي للمسلمين، مستدلاًّ في ذلك بنُصُوص كتاب الشَّجرة النعمانيَّة، كما أنَّ نقيب الأشراف "أبي الهَدى الصَّيادي" (ت ١٩٠٩) كان

من أبرز المُروِّجين العرب لتبنِّي السُّلطان عبد الحميد الثَّاني لمنصب الخلافة[٨٢].

وإذا كان بعض المفكِّرين والعلماء المسلمين قد دافعوا عن مسألة خلافة السُّلطان عبد الحميد، فإنَّ البعض الآخر قد عارضها، كما فعل "عبد الرحمن الكواكبي" الذي أصدر كتابين في القاهرة: (طبائع الاستبداد)، و(أُمُّ القُرى)، وأشَارَ إلى أنَّ الأتراك قد سمحوا بتدهور الإسلام تحت مَرأى منهم، وحسب رأيه فإنَّ الحفاظ على الدِّين وتحرير أراضي المسلمين من الهيمنة الأوربيَّة، لا يمكن أن يحدث إلاَّ من خلال إحياء نظام الخلافة العربيَّة، غير أنَّ دعوته لم تَلقَى صدًى كبيرًا بين مفكِّري العرب في مصر وفي غيرها، وهو نفس ما دعا إليه "لويس صابونجي" في صحيفته (الخلافة) التي أسَّسَهَا منذ سنة ١٨٨١م، وكذا الموظَّف السَّابق في وزارة الخارجيَّة البريطانيَّة "ولفرد بلنت"[٨٣].

خَاتِمَةٌ

إنَّ الفَرق واضحٌ بين استخدامات كُلاًّ من المصطلحين "الخلافة" و"السَّلْطنة"، حيث يرى بعض المؤرخين[٨٤] بأنَّه لا يمكننا استخدام مصطلح الخلافة بالنسبة للسَّلطنة العثمانيَّة، ولا يجوز إطلاق صفة الخليفة على أيِّ سُلطان عثمانيٍّ ما عدا السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، الذي تبنَّى مشروع الجامعة الإسلاميَّة وأطلق على نفسه لقب الخليفة العثماني، غير أنَّ المؤرخة "ثريا الفاروقي" تُؤكِّد صعوبة حسم المسألة، إذ لا تزال هناك حاجةٌ إلى مزيد من البحث لمعرفة إلى أيِّ حدٍّ اعتقدت النُّخبة العثمانيَّة أنَّ سُلطانهم هو الحاكم الأعلى للعالم الإسلامي، الذي يجب أن يَذعَنَ له الآخرون جميعًا[٨٥]، وبالتَّالي فالجدل التَّاريخي يبقى طويلٌ وغير محسومٍ حتى الآن.

الاحالات المرجعية:

(١) للمزيد حول نظام الحكم في الإسلام. **يُنظر:** محمد سليم العوا، **في النظام السياسي للدولة الإسلامية**، ط٦، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ١٩٦٣، ص٧١ وما بعدها.

(٢) بخلاف الفكر السُّنِّي، بقي مُفكِّرُو الشِّيعة بعيدين عن الواقع، باعتقادهم أنَّ الحُكم الشَّرعي الأمثل منوطٌ فقط بحكم الأئمة الاثنى عشر، وأنَّ الإمام الثَّاني عشر في نظرهم (المهدي المنتظر) ما زال حيًّا، وسوف يعود ذات يومٍ ليملأ الأرض عدلاً، وبذلك ينتهي الفكر الشِّيعي إلى إسقاط صفة الشَّرعيَّة عن الأنظمة السياسيَّة التي قامت خلال فترة حياة الأئمة، أو خلال الفترة التي يستغرقها ظهور المهدي، ويُنظر إلى إمكانيَّة قبولها من حيث هي أنظمةٌ زمنيَّةٌ بمدى ما تلتزم به من تطبيق أحكام ومبادئ الإسلام. **يُنظر:** أمية حسين أبو السعود، **نظام الحكم في الفكر السياسي الإسلامي**، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، قطر، ١٩٩٣، ص ١٦. https://bit.ly/3hNvEje

(٣) لإلقاء نظرة على مفهوم السلطنة وركائزها، وعلاقتها مع الخلافة، وبيان منهجية المؤرخين والفقهاء في رصد الواقع السياسي في العهد السلجوقي الذي يسبق ظهور العثمانيين يُنظر: غيداء خزنة كاتبي، **"الخلافة والسلطنة بين الرواية التاريخية والآراء الفقهية: رصد وتحليل للوثيقة والنصين التاريخي والفقهي"**، المجلة الأردنية للتاريخ والاثار، مج١٢، ع٣، الأردن، ٢٠١٨، ص ص١-٢٥.

(٤) نذكر منهم: المستشرق والمؤرخ النمساوي **بول ويتك P. Wittek** (١٨٩٤-١٩٧٨م)، المؤرخان التركيان: **خليل إينالجيك Halil inalcık** (١٩١٦-٢٠١٦م)، و**محمد فؤاد كوبريلي Mehmet Fuat Köprülü** (١٨٩٠-١٩٦٦م).

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ط٣، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٠٥.

(٦) محمد فؤاد كوبريلي، **قيام الدولة العثمانية**، تر: أحمد السعيد سليمان، تق: أحمد عزت عبد الكريم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧، ص ص١١٨، ١٢٣، ١٢٤.

(٧) وجيه كوثراني، **"من الدولة السُّلطانية إلى الدولة الوطنية"**، مركز الدراسات الاستراتيجية، شؤون الأوسط، ع١٢٢، ٢٠٠٦، ص١٢٩.

(٨) ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، **المقدمة ابن خلدون**، تح: عبد الله محمد الدرويش، ج١، ط١، دار يعرب، دمشق، ٢٠٠٤، ص٣٠٨.

(٩) حسن الضيقة، **الدولة العثمانية الثقافة المجتمع والسلطة**، ط١، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٧، بيروت، ص٥٧.

(١٠) لمزيد من التَّفاصيل حول نظريَّة الغزو يُنظر:

Colin Heywood, **"Paul Wittek (1894-1978) and the Early Ottoman State"**, Die Welt des Islams, New Series, Vol. 38, Issue 3, The Early Twentieth Century and Its Impact on Oriental and Turkish Studies, Nov 1998, pp.386-405.

(١١) **اسكندر نامة:** ملحمةٌ شعريَّةٌ لشاعر البلاط العثماني "تاج الدين إبراهيم بن خضر أحمدي" (١٣٣٣-١٤١٢م) يعود تاريخها إلى سنة

١٤٠٠م، وهي تمُثِّل أوَّل نموذجٍ عثمانيٍّ للأدب المعروف باسم "مرآة الأُمَرَاء" (نصائح الحُكَّام)، كما تعتبر من أهم الدَّلائل التي اعتمدها "بول ويتك" لتأكيد نظرية "الغزو"حول قيام الدَّولة العثمانيَّة خاصَّةً ذَيلُهَا المعُنوَن "تواريخ ملوك آل عثمان"، والذي خصَّصه أحمدي لهدفين: تحذير بايزيد الأوَّل ومن بعده ابنه الأمير سليمان جلبي من محاربة أُمراء الأناضول، وتأكيده على مبدأ العدل بِوَصفِهِ أهمَّ عوامل الحُكم الرَّشيد. **للمزيد يُنظر:** أنيس عبد الخالق محمود، **"نقاش في نظرية بول وتك عن قيام الدولة العثمانية"**، مجلة أسطور، ع٩، يناير ٢٠١٩. **يُنظر أيضا:**

Kemal Silay, **"Ahmedi's History of Ottomans Dynasty"**, Journal of Turkish Studies, Vol.16, 1992, p.129.

(12) Kate Fleet, **"The Nature of the Early Ottoman State by Heath W. Lowry"**, Middle East Journal, Vol.57, No.4, Autumn 2003, pp.682-683.

(١٣) عبد الخالق محمود، المرجع السابق، ص ص٦٤-٦٨.

(١٤) من بين تلك المصادر التَّاريخيَّة التي تُلقي بعض الضَّوء أو تُشير إلى فترة نشأة الإمارة العثمانيَّة: كتاب جامع التَّواريخ وتاريخ أولجايتو، صبح الأعشى، تاريخ العيني، الدُّرر الكامنة، وبعض الحوليَّات كالحوليَّات الفارسيَّة (مُسامرات الأخبار) لمحمود بن محمد الأقسرايي (الذي كُتب سنة ١٣٢٣م، وتوجد منه نسختان بتركيا، واحدةٌ بمكتبة يني والأخرى بمكتبة آيا صوفيا)، وكتاب سلجوقنامة، إضافةً لبعض الرِّوايات التي نقلها المؤرِّخُون الأتراك من أمثال: تاريخ عاشق باشا زاده، وتاريخ أورج بك، ونشري، وتاريخ لطفي باشا، وبهجة التَّواريخ للمؤرِّخ شكر الله وتاريخ قرماني محمد باشا، والتَّواريخ العثمانيَّة المجهولة، من رواياتٍ شعبيَّةٍ دُوِّنت في القرن ١٥م، في شكل أساطير تمَاهَى فيها الواقعي بالخيالي. **يُنظر:** محمود علي عامر، **"أهمية المصادر العثمانية لفترة النشأة من خلال الدفاتر والفرمانات ودفاتر المهمة"**، مجلة دراسات تاريخية، ع٧٧-٧٨، دمشق، جانفي-جوان ٢٠٠٢، ص١٦٨.

(١٥) خليل إينالجيك، **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، تر: محمد.م. الأرناؤوط، ط١، دار المدار الإسلامي، بيروت،( )ص ص٨٩-٩٠؛ بنحادة عبد الرحيم، **العثمانيون المؤسسات الاقتصاد والثقافة**، تقديم عبد الرحمن المودن، الطبعة١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٨، ص٢٣.

(١٦) سيد محمد السيد محمود، **تاريخ الدولة العثمانية النشأة الازدهار وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة**، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٩٦.

(١٧) لتفاصيل أكثر حول الظُّروف التي أحاطت بتشكيل إمارات غربي الأناضول التُّركمانية، ومنها إمارة آل عثمان **يُنظر:** كوبريلي، المرجع السابق، ص١١٥ وما بعدها.

(١٨) لم يوجد عند الأمة الإسلاميَّة أمرٌ من أمورها اختلفت فيه الكلمة و تشعَّبت بشأنه الآراء، بمقدار ما كان منها في شأن الخلافة، حيث أنَّ القرآن لم يُعيِّن بيتًا للخلافة يُنتخب الخلفاء من أهله، ولا شعبًا من شعوبهم، ولا قبيلةً من قبائلهم، وثبت عن رسول الله ﷺ ما روى البخاري سندًا إلى معاوية ﷺ يقول فيه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ هَذَا اَلْأَمْرَ فيِ قُرَيْشٍ لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إلَّا كَبَّهُ الله عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُواْ اَلدِّيْنَ»، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَزَالُ هَذَا اَلأَمْرُ فيِ قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اِثْنَانِ»، وفي مقابل ذلك روى عنه أنس بن مالك ﷺ قوله: «وَاسْمَعُواْ وَأَطِيْعُواْ وَإِنْ اُسْتُعْمِلَ عَلَيكُمْ عَبْدٌ حَبَشيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيْبَةٌ»، وهي أدلَّةٌ متعادلةٌ. **يُنظر:** عبد الوهاب النجار، **الخلفاء الراشدون**، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٨٦، ص ص٩-١٢.

(١٩) منذ النِّصف الثَّاني من القرن ٣هـ/٩م أخذ الأمراء المحليُّون ينفصلون عن الخلافة العباسيّة، فشاركوا الخليفة حق الخطبة والسكَّة، وضربوا أسماءهم تحت اسم الخليفة على النُّقود، وصار الأمراء يطلبون عهدًا من الخليفة لاكتساب الشَّرعيَّة، ومنذ تلك الفترة فَقَدَ الخليفة سلطاته، ولم يَبْقَى له إلاَّ شارات الخلافة، كما شهد منصب الخلافة في القرن ٤هـ/١٠م تراجعًا سياسيًّا مرَّة أخرى بادِّعَاءِ ممثِّلي ثلاث أُسَرْ له: (العبَّاسيُّون في بغداد، الفاطميُّون في المهديَّة، والأمويُّون في قرطبة)، كما حُرم الخليفة العبَّاسي من السُّلطة لصالح البويهيين، وبقي الأمر كذلك إلى غاية سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ولم تكن محاولة إحياء الخلافة العبَّاسيَّة على يد السُّلطان المملوكي الظاهر بيبرس (١٢٥٩-١٢٧٧م) إلاَّ محاولةٌ لإضفاء الشَّرعيَّة الدينيَّة، إذ لم يكن للخليفة تحت حكم المماليك أيَّ سُلطةٍ تُذكَر. **يُنظر:** محمد عفيفي، **"حدود الدين وحدود الدولة: قراءة في تطور مفهوم الدارين بين الخلافة والسلطنة العثمانية"**، مجلة التفاهم، مج٩، ع٣٣، القاهرة، ٢٠١١، ص٦٥؛ **يُنظر أيضا:**

Vasiliy Vladimirovich Bartold, **Caliph and Sultan**, translated by: N.S. Doniash, Islamic Quarterly, Vol.7, London, jul 1963, p.132.

(٢٠) للاطلاع على نص رسالة السلطان سليمان القانوني إلى شريف مكَّة بعد تنصيبه على العرش العثماني، وكذا رسالته إلى خان القرم **يُنظر:** فريدون بك التوقيعي، **مجموعة منشآت السَّلاطين**، ج١، دار الطباعة العامرة، إستانبول، ١٨٨٥، ص ص٥٠٠،٥٠٢.

(٢١) إينالجيك، المرجع السابق، ص١٠٤.

(٢٢) نقلا عن: لويس برنارد، **استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية**، تعريب: سيد رضوان علي، الطبعة٢ مزيدة ومنقحة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٢، ص ص٦١-٦٢.

(٢٣) نفسه، ص ص٦١-٦٢.

(٢٤) **اليسق (الياسا):** كلمةٌ مغولية الأصل تعني القاعدة والقانون، أو أحكام الجزاء التي أصدرها "جنكيز خان" سنة ١٢٠٦م، كما عنى المصطلح أيضًا التَّقليد والعادة، أو المبلغ الذي يُدفع عند عقد النكاح، لكن استقرَّ الأمر على اعتباره بالدَّرجة الأولى بمثابة المبلغ الذي يتقاضاه القاضي على الأحكام الشَّرعيَّة التي يُصدرها، وهو إجراءٌ ليس له سندٌ شرعيٌّ حسب علماء القرن ١٦م وأثَارَ فتنةً في الدِّين، حتى قال عنه ابن إياس الحنفي: "إِنَّهُ أَشْأَمُ قَانُونٍ" (بدائع

الزهور، ج٥، ص٤٢٧)، كما عكس اختلافاً مذهبيًّا بين أتباع المذهب الشافعي الأكثر انتشارا في مصر والشام من جهةٍ وعلماء المذهب الحنفي من جهةٍ ثانيةٍ، وهو المذهب الرَّسمي الذي تلتزم به الدَّولة العثمانيَّة، إلَّا أنَّ اليسق عنى أيضًا كلَّ القوانين والتَّرتيبات التي أدخلها العثمانيون إلى مصر والتي لا تستند إلى أساسٍ شرعيٍّ وكان فرضه يوحي بتحوُّلٍ لمسه العلماء يَخُصُّ أوضاعهم وامتيازاتهم، وقد أكَّدت التَّرتيبات العثمانيَّة فعلاً ذلك من خلال: تقليص عدد أفراد الجهاز الشَّرعي، السَّيطرة على الأوقاف والمدارس، إبطال العمل بنظام القضاة الأربعة وتَقَدُّم المذهب الحنفي، رغم أن مصر بعكس الشَّام أظهرت مناعةً نسبيَّةً من خلال الأزهر الشريف الذي ظلَّ على المذهب الشَّافعي. **للمزيد يُنظر:** خالد زيادة، **الكاتب والسلطان من الفقيه إلى المثقف**، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠١٣، ص ص٢٧-٣١؛ **يُنظر أيضا:** طارق شمس، **"المغول من الشرذمة إلى قانون الياسا"**، مجلة العربي، ع٦١٧، الكويت، أفريل ٢٠١٠، ص١٣٩.

(٢٥) إينالجيك، المرجع السابق، ص ص١٠٥-١٠٧.

(٢٦) يقول الماوردي:".. فإذا ثَبَتَ وُجُوبُ الإمَامَةِ، فَفَرْضُهَا عَلَى الكِفَايَةِ كَالجِهَادِ وطَلَبِ العِلْمِ.. وَإِذَا لم يَقُمْ بِهَا أَحَدٌ خَرَجَ مِنَ النَّاسِ فَرِيقَانِ: أَحَدُهُمَا أَهلُ الاختِيَارِ حتَّى يَختَارُوا إِمَامًا لِلأُمَّةِ، والثَّانِي أَهلُ الإِمَامَةِ حتَّى يَنتَصِبَ أَحَدُهُم لِلإمَامَةِ". يُنظر: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، **كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تح: سمير مصطفى رباب، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٠، ص ص١٣-١٤.

(٢٧) الماوردي، نفس المصدر السابق، ص ص٤٤-٤٦؛ وجيه كوثراني، **السلطة والمجتمع والعمل السياسي العربي أواخر العهد العثماني وسائط السلطة في بلاد الشام**، ط٢، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٧.

(٢٨) يتّفق السُّنة والشيعة على ضرورة وجود الإمام الحاكم، غير أنَّ الشِّيعة يَرَونَ أنَّ الإمامة لا تَثبُتُ إلَّا (بالنَّصِ والتّعيين)، فالإمام لا يكون إلَّا بالنَّص من قِبَلِ الله تعالى، والإمامة في نظرهم استمرارٌ للنُّبوَّة، وليس للنَّاس أن يتحكَّمُوا فيمن يُعَيِّنُهُ الله، كما ليس لهم حقُّ تعيينه أو ترشيحه أو انتخابه. **يُنظر:** حسين أبو السعود، مرجع سابق، ص١٤٩. **يُنظر أيضًا:** محمد الحسين المظفري، **الشيعة والإمامة**، ط٢، النجف، المطبعة الحيدرية، ١٩٥١، ص٦٠.

(٢٩) **الفرمان:** جمعها فرمانلر، وهي كلمةٌ فارسيَّة الأصل بمعنى (أمرٌ أو حُكمٌ أو مرسُومٌ)، والفرمان هو الحُكمُ الصَّادر عن السُّلطان إلى أيِّ شخصٍ داخل حدود الدَّولة العثمانيَّة، أمَّا التَّعبير الدَّقيق للفرمان المستخدم في الوثائق العثمانيَّة فهو حُكم، وفي أحيانٍ كثيرةٍ تتبعها ألقابٌ تشريفيَّةٌ مثل شريف أو همايون (سُلطاني). **يُنظر:** سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مر: عبد الرازق محمد حسن بركات، د.ط، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠، ص١٦٤. **يُنظر أيضا:** فيصل بن عبد الله الكندري، **"الفرمانات السلطانية دراسة في نظم الفرمانات الهمايونية ورسومها"**، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مج٢١، ع١٥١، الكويت، ٢٠٠١، ص٢٦.

(٣٠) بنحادة، المرجع السابق، ص٨٠.

(٣١) نجم الدين بيرقدار، **العثمانيون حضارة وقانون**، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠١٤، ص ص١٤٨، ١٤٩، ١٥٢.

(٣٢) جب هاميلتون وبُوون هارولد، **المجتمع الإسلامي والغرب دراسة حول تأثير الحضارة الغربية في الثقافة الإسلامية بالشرق الأدنى في القرن١٨م**، ترجمة: أحمد إيبش، الطبعة١، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة ودار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ٢٠١٢، ص٩١.

(٣٣) يُؤكِّد ذلك أيضًا " توينبي"، حيث يرى أنَّ الدَّولة العُثمانية وَرِثَت ثلاثة تقاليد منفصلةً، فهي وريثة الإمبراطوريَّة العربيّة الإسلاميّة، والإمبراطورية الرُّومانيّة المسيحيّة، بالإضافة إلى تقاليد الرُّعاة الرُّحَّل في استبس أوراسيا، ويذهب إلى أنَّ ميراثها العربي-الإسلامي كان أقلُّ هذه النَّواحي أهميَّةً، بعكس مِيراثها الرُّوماني. لكن المؤرخ "كوبريلي" يرى بأنَّ ما أُخِذَ عن التُّراث الإسلامي والتُّركي في مجال نظام الحُكم والإدارة، أكثر ممَّا أُخِذَ عن النُّظم البيزنطيَّة وليس العكس كما تسرَّع باحث الدِّراسات البيزنطيَّة "يورجا" في استنتاجاته، ونقلها عنه بعض المؤرخين الغربيين، وهو ما يبدو أقرب للصِّحة باعتبار الطَّبيعة الإسلاميَّة للدَّولة العثمانيَّة، وإن تأثَّرت بأنظمة ومؤسَّسات حُكمٍ أخرى. **يُنظر:** جان سوفاجيه وكلود كاين، **مصادر دراسة التاريخ الإسلامي دليل ببليوغرافي**، تر: عبد الستار حلوجي وعبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، ص ص٣٢٩-٣٣٠. **يُنظر أيضًا:**

Kemal H.karpat, **The Ottoman State and its Place in World History**, E.J. Brill, Leiden,1974, p.21-22.

(٣٤) إنَّ مصطلح (العُثماني) كان يعني السُّلالة الحاكمة، باعتباره دلالة على نُخبةٍ حاكمةٍ، شأنه في ذلك شأن الدُّول الإسلاميَّة التي سبقت، من أمويّين وعبّاسيين وسلاجقة، وقد كان لدى العثمانيين شعورٌ بأنّهم الوريث والخلف للدُّول الإسلاميَّة الكُبرى السَّابقة، أما مفاهيم الأمَّة العثمانية بوصفها تعبيرًا عن الولاء القومي والوطني، فكانت من تجديدات القرن التَّاسع عشر تحت التأثير الأوربي. **للمزيد يُنظر:** برنارد لويس، **ظهور تركيا الحديثة**، تر: قاسم عبده قاسم وسامية محمد،ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦، ص٢٠.

(٣٥) شمس الدين نجم زين العابدين، تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة٢، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمّان، ٢٠١٤، ص ص٢١٥-٢١٦.

(36) Franz Babinger, **Mehmet The Conqueror And His Time**, edited by: William C. Hickman, translated from german by Ralph Manheim, Princeton University Press, New Jersey U.S.A, 1978, p.108.

(٣٧) **ألبرت هوي ليبير** Albert Howe Lybyer **(١٨٧٦-١٩٤٩م):** مستشرقٌ أمريكيٌّ من أهم مؤلَّفاته: الحكومة العثمانيَّة في عهد سليمان القانوني، الأتراك العثمانيُّون، طرق التِّجارة الشَّرقيَّة، رحلات إليا أفندي، محمَّد الفاتح. **يُنظر:** نجيب العقيقي، **المستشرقون**، ج٢، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٦، ص١١٢.

(38) Albert Howe Lybyer, **The Government Of The Ottoman Empire In The Time Of Suleiman The Magnificent**, Vol. XVIII, Cambridge Harvard University Press, Henry Frowde Oxford University Press, London, 1913, p.4.

(٣٩) جين هاثاواي وكارل ك. برببر، **البلاد العربية في ظل الحكم العثماني ١٥١٦-١٨٠٠**، تر: محمد شعبان صوان، ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية ناشرون، وهران-بيروت، ٢٠٠٨، ص٣٢؛ **وللتوسع في موضوع العلاقة بين الدَّولة ورعاياها يُنظر:** خليل إينالجيك، **"الدولة والرعايا"**، تر: عبد اللطيف الحارس، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، مج١١، ع٤١-٤٢، ١٩٩٩.

(٤٠) إريك زوركر، **تاريخ تركيا الحديث**، تر: عبد اللطيف الحارس، مر: سعد ضاروب، ط١، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠١٣، ص٣١.

(٤١) يُعرِّفُهَا "مراد جه دوسون" بقوله: "السَّلطنة العثمانيَّة هي حكومةٌ ملكيَّةٌ مطلقةٌ، محصورةٌ بشخصٍ واحدٍ هو السُّلطان، وهي حكومة عسكريَّةٌ قبل كُلِّ شيءٍ يدعمها الجيش، وإنَّ جميع مُوظَّفيها عدا البعض منهم هم من رجال الجيش". **يُنظر:** مراد جه دوسون، **نظام الحكم والإدارة في الدولة العثمانية أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر**، تر: فيصل شيخ الأرض، رسالة قدمت إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، بيروت، ١٩٤٢، ص١١.

(٤٢) إيرين بيلديسينو، **البدايات عثمان وأورخان**، في تاريخ الدولة العثمانية، إشراف: روبير مانتران، تر: بشير السباعي، ج١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ص ص٣٢-٣٣.

(٤٣) سيار الجميل، **بقايا وجذور التكوين العربي الحديث**، ط١، الأهلية للنشر والتوزيع، عمَّان، ١٩٩٧، ص٦٨.

(٤٤) يرى المؤرخ "جب" أنَّ علماء السنَّة الذين نظَّموا القوانين المتعلِّقة بالخلافة، لم تكن لهم حرِّية تطوير طريقتهم بواسطة الاستنتاج النَّظري البسيط من مصادره، بل على العكس كانوا مُقيَّدين بالتَّوجيه الإلهي، وضرورة تجنُّب أيِّ نتيجةٍ من شأنها أن تنأى بالمجتمع بعيدًا عن الشَّريعة، وبالتَّالي فقد اتَّخذت النَّظرية السُّنِّيَّة منذ البداية موقف تبرير الوضع الرَّاهن، وكانت نظرتهم للخليفة كممثِّلٍ ونصيرٍ للشَّريعة، وأنَّ وظيفتها لا يمكن الاستغناء عنها كواجبٍ ديني. **يُنظر:** جب وبوون، ج١، المصدر السابق، ص ص٧٦-٧٧.

(٤٥) نفسه، ص٧٦ وما بعدها.

(٤٦) إينالجيك، المرجع السابق، ص٩٥.

(٤٧) نفسه، ص١٠٠.

(٤٨) الجميل، **بقايا وجذور التكوين العربي الحديث**، مرجع سابق، ص١٤٧.

(٤٩) مع تمتُّع السَّلاطين العثمانيين بالحريَّة في وضع القوانين وإلزام الآخرين بالعمل بها، إلَّا أنَّ السُّلطان كان مُلزمًا باحترام قواعد النِّظام والتَّقاليد واحترام قرارات القاضي، ولم يكن السُّلطان شأنه شأن أيِّ حاكمٍ مسلمٍ قادرٌ على الحكم وفق هواه، أي أن يكون فوق القوانين، فهو لا يستطيع تجاوز مبادئ الشَّريعة الإسلاميَّة التي تحكم حياته العامَّة والخاصَّة. **يُنظر:** إينالجيك، المرجع السابق، ص١١١؛ جيل فاينشتاين، **الإمبراطورية في عظمتها القرن السادس عشر**، في تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص٢٥٣.

(٥٠) فاينشتاين، نفس المرجع السابق، ص ص٢٥١-٢٥٢.

(٥١) كُتِبَ في مُقدِّمة "قانون نامه" للسُّلطان سليمان الأوَّل، الذي شهد عهده ذروة عمليَّات التَّصنيف القانوني لنظام الحكم، والذي وُضِع في نهاية القرن ١٥م: "لقد أمر السُّلطان بوضع القانون العثماني، لأن هذه الأنظمة مهمَّةٌ لأجل ازدهار شُؤون العالم وكل قضايا الرَّعيَّة". **يُنظر:** إينالجيك، المرجع السابق، ص١١١.

(٥٢) كان محمد الفاتح أوَّلُ سُلطانٍ عثماني يهتمُّ بإدخال النِّظام وتجميع القوانين وتنسيقها في مختلف الأنظمة القانونيَّة والاجتماعيَّة، فصدر في الفترة الأولى لحكمه (١٤٥٣-١٤٥٦م) قانون نامه Kanunname وتضمَّن منزلة والتزامات رعاياه، وصدر الثَّاني في فترةٍ مُتأخِّرَةٍ من حكمه (١٤٧٧-١٤٧٨م) وتضمَّن تنظيم الدَّولة والطَّبقة الحاكمة، وصدر الثَّالث في أواخر سنتين من حكمه، تضمَّن التَّنظيمات الاقتصاديَّة وامتلاك الأراضي والضَّرائب. **يُنظر:** سيار الجميل، **تكوين العرب الحديث**، الطبعة العربية، الإصدار الأول، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمَّان، ١٩٩٧، ص ص٦٢-٦٣.

(٥٣) نفسه، ص٢٥.

(٥٤) جب وبوون، ج١، مصدر سابق، ص٩٠.

(٥٥) الماوردي، مصدر سابق، ص٤٤.

(٥٦) إينالجيك، المرجع السابق، ص ص١٠٦-١٠٧.

(٥٧) جب وبوون، ج١، المصدر السابق، ص٨٣.

(٥٨) **جلال الدين محمد بن أسعد الصديقي الدواني (١٤٢٧-١٥١٢م):** قاضي وفيلسوف، ولد في "دوان"، وَسَكَنَ "شيراز" في بلاد فارس وتوفي فيها، ينتسب إلى أُسرةٍ مُثقَّفةٍ من المُشرِّعين الشَّافعيِّين، تولىَّ القضاء في ولاية فارس وترك مُؤلَّفاتٍ عدَّةٍ منها: أنموذج العلوم وتعريف العلم ورسالة إثبات الواجب، الأربعون السُّلطانية، أفعال العباد وغيرها. **يُنظر:** خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٦، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢، ص ص٣٢-٣٣.

(٥٩) جب وبوون، ج١، المصدر السابق، ص ص٨٣-٨٤.

(٦٠) الجميل، **تكوين العرب الحديث**، مرجع سابق، ص٥٥؛ عبد الكريم رافق، **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون**

بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨، ط٢ مزيدةٌ ومُنقَّحةٌ، د.د.ن، دمشق، ١٩٦٨، ص٣٨.

(٦١) علي محمد محمد الصلابي، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**، ط١، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١، ص٦٧.

(٦٢) الجميل، **بقايا وجذور التكوين العربي الحديث**، المرجع السابق، ص ص٦٧-٦٨.

(٦٣) نفسه، ص ص٦٤-٦٥.

(٦٤) من بين الدِّراسات الحديثة التي تبنَّت وجهة النَّظر تلك، كتاب "الدَّولة العثمانية تاريخ وحضارة"، لأكمل الدين إحسان أوغلى، وإن كان لا يُحدِّد سنةً أو حادثةً معيَّنةً بعينها. ناقدًا الرَّافضين لهذه الرِّواية، ومُستندًا لرسالة لطفي باشا "خلاص الأئمة في معرفة الأئمة" التي ناقش ودحض فيها الرَّأي الذي عليه الإجماع منذ عصر الماوردي (ت١٠٥٨م) بأن الخلافة في قريش، وأكَّد استحالة استمراريته، إذ لو كان الأمر كذلك فإن المسلمين -حسب وجهة نظره- سوف يظلُّون بلا خليفةٍ بعد سقوط الخلافة العباسيَّة، وهو أمرٌ يتنافى مع المصلحة الإسلاميَّة، كما يقوم لطفي بالدِّعاية للسُّلطان سليمان القانوني كخليفةٍ للمسلمين، في قوله: «لاغرو أن يكون السُّلطان العثماني.. أجدر النَّاس وأحقَّهم بحمل لقب الخلافة»، ممَّا يؤكِّد على تمازج الخلافة في السَّلطنة. **يُنظر:** عفيفي، مرجع سابق، ص ص٦٨-٧٠.

(٦٥) منذ دخول المغول بغداد وإعدام آخر الخُلفاء العبَّاسيِّين سنة ١٢٥٨م، غابت (مؤسَّسة الخلافة) وانتقلت السُّلطة الفعليَّة للسَّلاطين، وتُشير بعض النُّصوص التَّاريخية للدَّرَكِ الذي آل إليه لقب (الخليفة) بعد العبَّاسيِّين فابن الأثير حرص على استعمال لقب السُّلطان بالنّسبة لجميع الخُلفاء العبَّاسيّين، كما أن المثقَّف التُّركي "يازي أوغلو" Yazi oglu (عاش في القرن ١٥م) صاحب كتاب (مغارب الزَّمان) مَاثَلَ بين بطريك المسيحيِّين في الإمبراطورية البيزنطيَّة وخليفة المسلمين. **يُنظر:** محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تح: أبي الفداء عبد الله القاضي، مر: محمد يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧. **يُنظر أيضا:**

Bernard Lewis, **Le Language Politique De L'Islam**, Traduit de l'anglais par O.Guitard, Gallimard, 1989, p.74.

(٦٦) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، **بدائع الزُّهور في وقائع الدُّهور**، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤؛ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد ابن طولون الصَّالحي، **مفاكهة الخلّان في حوادث الزمان**،ج٢، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

(٦٧) نفسه، ص١٤٥.

(٦٨) ابن إياس، نفس المصدر السابق، ص١٠٧٨؛ أندريه ريمون، **تاريخ الدولة العثمانية الولايات العربية (القرن السادس عشر-القرن الثامن عشر)**، في تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص٥١٩.

(٦٩) ابن إياس، المصدر السابق، ص١٠٧٧.

(٧٠) فريدون بك التوقيعي، **مجموعة منشآت السلاطين**، ج١، مصدر سابق، ص ص٥٠٠، ٥٠٢.

(٧١) نفسه، ص ٥٠٢.

(٧٢) بنحادة، **العثمانيون**..، المرجع السابق، ص ٨٠-٨٤.

(٧٣) الجميل، **تكوين العرب الحديث**، المرجع السابق، ص٥٨.

(٧٤) بروس ماسترز، **عرب الإمبراطورية العثمانية تاريخ ثقافي واجتماعي (١٥١٦-١٩١٨م)**، تر: عبد الحكيم ياسين عبد الله، ط١، دار الرافدين، بيروت، ٢٠١٨، ص٢٥٢.

(٧٥) زكريا صادق الرفاعي، **"العالم الإسلامي في كتابات المستشرقين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مستقبل الإسلام لولفريد سكاون بلنت أنموذجا"**، المجلة العربية للعلوم الإسلامية، مج٣١، ع١٢٢، الكويت، ٢٠١٣، ص١٩٥.

(٧٦) أقرَّ العالم وفقيه الدِّيار الشَّاميَّة:"محمد أمين بن عمر عابدين الدمشقي" (ت١٨٣٦م) بأنَّ السُّلطان العثماني محمود الثَّاني هو الخليفة الرَّاشد، ما دام أنَّه يَصُونُ حُكمَ القانون، ويُقَاتِلُ مُجَاهِدًا ضدَّ الكُفَّار، إلَّا أنَّه مَيَّزَ بين الخلافة (الأَرقَى) وهي الخلافة الرَّاشدة، والخلافة (الأَدنىَ) الخاصَّة بآل عثمان. **يُنظر:** ماسترز، المرجع السابق، ص ص١٩٢، ٢٥٣.

(٧٧) نفسه، ص٢٥٢.

(٧٨) يرى المؤرخ "بلنت سكاون" Skawen أنَّ فكرة الجامعة الإسلاميَّة قد بدأت منذ عهد السُّلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦م)، حين نجح بعض مستشاريه في لَفتِ نَظَرِه إلى أهميَّة النُّفوذ الرُّوحي للخلافة، وأنَّ هذا الجانب هو الذي يُؤمِّنُ للدَّولة العثمانيَّة قُوَّتها ونُفوذَهَا، ليس داخل حُدودِ الدَّولة والعالم العربي فَحَسب، بل وفي أرجاء العالم كافَّةً خصوصًا بين مسلمي الهند. **يُنظر:**

Blunt W. Skawen, **The Future Of Islam**, Kegan Paul, London, 1882, P.134

نقلاً عن: صادق الرفاعي، المرجع السابق، ص١٧٧.

(٧٩) بنحادة، **العثمانيون**..، المرجع السابق، ص٨٤.

(٨٠) ماسترز، المرجع السابق، ص٢٥٢.

(٨١) Blunt, Op.Cit, pp.86-87.

نقلاً عن: صادق الرفاعي، المرجع السابق، ص١٧٨.

(٨٢) ماسترز، المرجع السابق، ص ص٢٥٢-٢٥٤.

(٨٣) نفسه، ص ص٢٥٦-٢٥٧.

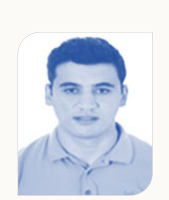
(٨٤) الجميل، **تكوين العرب الحديث**، المرجع السابق، ص٥٨.

(٨٥) ثريا فاروقي، **الدولة العثمانية والعالم المحيط بها**، تر: حاتم الطحاوي، مر: عمر الأيوبي، ط١، بيروت، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٨، ص٣٧.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

التفاعل الاجتماعي لأطباء مدينة تلمسان في الحياة الصحية بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني

محمد بومدين
أستاذ التعليم المتوسط – اجتماعيات
باحث دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة أبي بكر بلقايد – الجمهورية الجزائرية



مُلَخّص

تُعَدّ الأمراض والأوبئة من العوامل التي تتسبب في تأخر المجتمعات وتضعفها، نظرًا لما تلحقه من أضرار بمختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية...، وتراجعٍ في النمو الديمغرافي...، لذلك خصصت له السلطة الحاكمة بالبلاد الإسلامية عبر العصور اهتمامًا بالغًا في تشييد المستشفيات، وتشجيع الأطباء في أبحاثهم. بيد تغيرت هذه الصورة نوعًا ما في إيالة الجزائر على عهد العثمانيين، حيث عجزت الإدارة العثمانية على ما يبدو في اتخاذ الإجراءات الوقائية الضرورية لكبح الأمراض، ما جعل السكان يتكيفون مع الأوبئة بوسائلهم الخاصة، فضلاً عن اجتهادات العلماء في هذا الميدان الحساس بمؤلفات الطبية في إطار ما عرفته إيالة الجزائر عمومًا ومدينة تلمسان خصوصًا من الحركية العلمية النشطة في مجالات العلوم العقلية، والتي لم تخرج عن التقليد في مواجهة الأوبئة والجوائح، من خلال كتبهم الطبية التي ركزت على الجانب الروحي في التداوي بالأعشاب الطبيعية، والتي برز فيها الكثير من الأطباء التلمسانيين وهم يحاولون طيلة التواجد العثماني بمدينتهم المذكورة مُسايرة الكوارث الصحية التي عصفت بسكان الإيالة وأثرت بشكل لافت للانتباه في مناحي الحياة للمجتمع الجزائري.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٠	يناير	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

إيالة الجزائر؛ العلوم العقلية؛ العهد العثماني؛ المؤسسات الصحية؛ علم الحكمة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325317 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد بومدين. "التفاعل الاجتماعي لأطباء مدينة تلمسان في الحياة الصحية بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ١٢٥ – ١٣٩.

Corresponding author: boumedinem999@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

إن المتمعّن في تاريخ مدينة تلمسان عبر مختلف المحطّات التاريخيّة وفي العصور الحديثة على وجه التّحديد، سيجده لا محال يتخبط في دوامة الظروف الطبيعية والمناخية التي كانت تهدد الحياة الاجتماعية لسكانها طيلة التواجد العثماني بها من القرن ١٠هـ/١٦م، حتى القرن ١٣هـ/١٩م.

وتماشيًا مع ما تم ذكره، تُحيلنا القراءة الأولية لموضوع الأوضاع الصحية في إيالة الجَزائر بما فيها مدينة تلمسان إلى ذلك العجز الرهيب في مواجهة الجوائح والأوبئة وغيرها من الأمراض التي كانت تعصف بالسكان بصفة منتظمة عبر ثلاث قرون من الزمن، في خضم تردي الأوضاع المَعيشية للسكان، وتراجع الحركة الَاقتَصادية في كثير من الَأحَيان، بسبب موجات الأمراض التي كانت تنتشر داخل الإيالة وخارجها، ما أدى ذلك كله إلى انعكاسات اجتماعية وسياسية خطيرة على العنصر البشري الذي بات يعيش سنين القلق الصحي. وممًّا لا يدع مجالا للشك، فإن عامة الناس من سكان الجَزائر قد جابهوا تلك الظروف الصحية بطرقهم الخاصة، التي وسمها التقليد في معالجة الأمراض والحد من انتشارها، علاوة على مساهمة العلماء والأطباء في ميدان التطبيب، حَيث إن الثابت ممًّا يُمكن استنباطه حول الأحوال الصحية زمن العثمانيين، هو تلك الاجتهادات العلمية الراقية في ميدان الطب من قبل ثلة من العلماء وعلى رأسهم أطباء مدينة تلمسان، بما تميزوا به من حذق علمي، وبصيرة نافذة على مستوى التعامل مع الأوبئة والأمراض. حتى طار لهم صيت في مشارق الأرض ومغاربها.

لكن يبقى التساؤل مطروح فيما يخص مدى قدرة العلاج التقليدي الذي مارسه عامة السكان في إيالة الجزائر وعلمائها على عهد العثمانيين في مجابهة تلك الجوائح والأمراض. حيث على العكس ممًّا ساد في أوربا من طب حديث مؤسس على التجربة والآلَات المستحدثة في هذا الشأن، فإن الجزائريين على خلاف ذلك، بقيت اعتقاداتهم النفسية والجسمية حبيسة الرُوحانيات. ونتيجة لذلك لم تشهد الساحة العلمية بالإيالة شيء من التجديد في ميدان الطب، بل اكتفت بالتداوي بالأعشاب وبعض الخرافات التي طغت على عقول الناس.

ولا بد من الإشارة أيضًا، أنه لم يكن للإدارة العثمانية دور ملموس في هذا المجال، ممًّا يُتيح لنا الجزم على سهرهم الدؤوب في تحسين المؤَسسات الصحية، إلا مع القلة القليلة من الحكام ووُلاتهم في البايليكات الثلاث ودار السلطان، الذين قاموا ببناء بعض المستشفيات التي لم تكن كافية في ظل الانتشار السريع والمتنامي للأمراض، حتى أن الساسة الحكام أنفسهم كانوا لا يترددون في استقبال الأطباء الأسرى المسيحيين في قصورهم للتداوي، وأن الكثير من الأمراء قد آتاهم الأجل بسبب وباء أو جائحة.

وعليه لا مناص لنا من القول سوى أن ما عاشه سكان الجزائر وقتذاك، من تدهور في شتى مجالات الحياة، يمكن إرجاعه بنسبة كبيرة إلى نقص ما من شأنه الارتقاء بالميدان الصحي من أطباء وهياكل صحية، فضلاً عن افتقاد هؤلاء للتمويل المالي والمادي، ما أدى ذلك كله إلى تدمير القاعدة الصحية في الجزائر تدميرًا مبرمًا.

ولعله من المفيد أن نؤكد على ذلك الدور الريادي الذي خاضه أطباء الإيالة ومدينة تلمسان على مستوى الإنتاج العلمي للمؤلفات الطبية وكل ما له علاقة بالتطبيب من علوم، مثل علم الحكمة الذي كان علمًا ينظر في الأحوال النفسية والجسمية للفرد. ويمارسه جل أطباء تلمسان الذين أظهروا مقدرة فعالة في مواجهة مختلف الأمراض، غير أنهم على ما يظهر قد ارتبطوا بالجانب الديني والروحي في إيجاد الحلول للظواهر الصحية آنذاك، فكثيرة هي المؤلفات التلمسانية التي خاضت في الطب والحكمة على أساس العلم النقلي لا العلم العقلي المجرد ذي الصبغة التجريبية، إلا مع نزر قليل من الأطباء الذين بادروا إلى التجريب، لكنهم وقعوا فيما اعتادوا عليه من ابتذال في النقل عن سابقيهم من العلماء.

وهو الأمر الذي يقضي منا توضيحه طروحات إشكالاته أكثر فيما مر معنا للتو، عبر هذه الورقة العلمية التي تسعى لتفسير مجريات الأوضاع الصحية في الإيالة عمومًا، وتمظهراتها في مدينة تلمسان خصوصًا، ومدى مساهمة علماء هذه المدينة المذكورة وأطبائها في العلوم العقلية بالدرجة الأولى وعلوم الطب التي أضحت تشكل أهمية بالغة في المجتمع في ذلك الوقت.

كما أن مثل هذه المواضيع الجادة، قد فجرت أسئلة مرحلية مقلقة ومحيرة، متعلقة أساسًا بأسباب تراجع العلوم العقلية بشكل عام في الإيالة، والتي بدورها أثرت على علم الطب أو التطبيب إن صح القول. ممَّا يجعلنا نتساءل عن الوضع الصحي العام الذي كانت عليه الإيالة زمن العثمانيين؟ وماهي السبل العلاجية والطرق الصحية التي اتبعها سكانها في سبيل التقليل من هذه الأوبئة والأمراض؟ وكيف كان موقف العلماء التلمسانيين على وجه التحديد من تلك الجوائح والأوبئة؟ وما مدى قدرتهم العلمية في التقليل من انتشار الأمراض؟ ومن هم أبرز علماء الطب من التلمسانيين الذين خاضوا في ميدان التطبيب؟ وهل حافظت المدرسة التلمسانية على إشعاعها العلمي في ميدان الطب والعلم العقلي بمثل ما كانت عليه زمن الزيانيين؟ أم أنها أصيبت بالشلل التام على عهد العثمانيين على غرار ما أصاب بقية المدن الجزائرية والولايات العثمانية في المشرق والمغرب؟

أولاً: العلوم العقلية والنقلية في إيالة الجزائر (مقاربات بين المفاهيم والأصول والتداخل)

إن العلوم العقليّة هي مجموع المعارف والخبرات والمهارات، التي توصل إليها العقل الإنسانيّ من خلال تفاعله المستمر مع الظواهر الاجتماعيَّة، والسياسية، والاقتصاديَّة، والعمرانيّة، والصحية...، ومن خلاله تعامله مع الطبيعة والعالم حوله، وتنتظم هذه العلوم اليوم هو سائر في فلك العلوم الطبيعيّة من علوم، وطبّ، وصيدلة، وتمريض، وفيزياء، وكيمياء، ورياضيّات، وسواها. وقد سمّيت هذه العلوم، علوماً عقليّة، لكونها علوماً منبثقة عن العقل الإنسانيّ المجرّد دون رجوع مباشر إلى النقل، ولكونها علوماً تعتدّ بالعقل الإنسانيّ، مرجعًا ومستندًا لها، ولا تعتدّ ـ في كثير من الأحيان ـ بما لا يقرّه العقل المجرّد. ويقول ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٣م)، في "المقدمة" عن أصل العلوم العقلية، بأنها: «هي طبيعة الإنسان من حيث هو أنه ذو فكر، فهي غير مختصة بملة، بل بوجه النظر فيها إلى أهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها»[١]، وهي موجودة مند أن كان عمران الخليقة، ويسميها ابن خلدون بعلوم الفلسفة والحكمة.

وقد يقول قائل أن العلوم العقلية كانت هي أساس المعرفة لدى علماء المغرب الإسلامي، إلا أن ذلك لم يكن قد نَضُجَت بعدُ معالمه العلمية بمثل ما كانت عليه العلوم النقلية، التي وضح في شأنها أكثر شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت.١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، في "أزهار الرياض"، وقال أن التلمسانيين قد بَرَّزُوا أكثر في العلوم النقلية، وبَيَّنَّ حتى البدايات الأولى لانتقال هذه العلوم النظرية ــ حسب تعبيره ــ إلى بلاد عُدوة[٢] المغرب الإسلامي، وهو يُحيلنا إلى كون المغاربة على حد قوله لم يعرفوا هذا الصنف من العلوم إلا زمن "إبني الإمام" بتلمسان الذين نقلوا العلوم النقلية إلى المغرب الأوسط، بقوله: «وأما ملكة العلوم النظرية، فهي قاصرة على البلاد المشرقية، ولا عناية لحذاق القرويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط، ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون إلى المشرق، فلقي تلاميذ الفخر بن الخطيب، ولازمهم زمانا، حتى تمكن من ملكة التعليم، وقدم إلى تونس، فانتفع به أهلها، وانتهت طريقته النظرية إلى تلميذه ابن عبد السلام المذكور، واستقل تلميذه ابن عرفة بعده بتلك الطريقة، وكذلك أبو عيسى موسى ابن الإمام التلمساني المذكور، ولهذا تجد العلوم النظرية بتلمسان (...)»[٣].

وبفصل من جانبه عالم تلمسان أبو عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن رزوق بن محمد بن عبد الرحمن بن موسى الأنصاري ابن الصائم الجازولي التلمساني (كان حيًا سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م)، وهو بصدد تعريف العلوم العقلية في مخطوطه "كعبة الطائفين"، فيقول: «إنما خص العقل هنا بالذكر لأنه هو أول درجات الكشف وعليه مبناه، ولم يتبين ما ينكشف بالعقل في درجة العقل(...)»[٤]. ويردف الكلام عنها مُفسرًا العلاقة القائمة منهجيًا ومعرفيًا بين العلوم العقلية والنقلية، فيقول: «فالعلم العقلي نتيجة العلم النقلي لأنه استنباط منه موافق للحق، (...) فأول العلم العقلي الاستنباط، ووسطه الإلهام، وآخره الأخذ عن الله (...)»[٥].

ثانيًا: الإنتاج العلمي لعلماء إيالة الجزائر في العلوم الطبية على عهد العثمانيين

بالقياس إلى إنتاج الجزائر في التصوف، وفي التاريخ، وحتى في الأدب، فإن إنتاجها في العلوم الرياضية والطبية يُعد قليلاً، فلم يكن هناك علماء طبيعيون أو أطباء بارزون كما كان هناك فقهاء ومتصوفة بارزون[٦]. وقد أشار "أبو القاسم سعد الله" على أنه، حقيقة، قد التصقت ببعض الأسماء مهنة الطب، وهناك من ارتبطت بعلم الحساب، والفرائض، والفلك. لكن هؤلاء على حسب رأيه لم يختصوا بالحساب أو الطب كما اختص مثلاً "الونشريسي" في الفقه[٧]، ومع ذلك فإن مدينة تلمسان عرفت علماء رياضيون (متخصصون) في العلوم العقلية أمثال العالم أبو محمد عبد الله ابن أحمد بن عبد العزيز بن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م).

ثالثًا: أسباب تراجع العلوم العقلية في تلمسان العثمانية

إن ما يمكننا قوله ومن دون الوقوع في مغبة الخطأ، هو أنَّ العناية بالعلوم الشرعية والعلوم المساعدة لها كاللغة، والنحو، والبيان، وغيرها ...، ظلت الشغل الشاغل للمراكز التعليمية في الجزائر عامة، وتلمسان خاصة، بما فيها المدارس إبان الفترة الحديثة، وأدى التركيز عليها إلى عدم العناية بالعلوم الأخرى، وهذا القصور لا ينطبق على تلمسان وحدها بل هي حالة كل العالم الإسلامي، وهو ما أدى إلى انحطاط وضعية العلوم العقلية به خلال العهد المدروس، وليس أدل على ذلك من قلة المشتغلين بالطب والكيمياء، الفلك، والحساب، والجبر، وغيرها[٨].

وذلك ما لاحظه الرحالة الإنجليزي الدكتور "شو" الّذي زار الجزائر خلال القرن (١٢هـ/١٨م)، وتلمسان، وقال عن وضعية العلوم العقلية فيها بأن أي علم عقلي لم يأخذ بدرجة من الكمال، مؤكدًا على أن هذه الوضعية ليست ناجمة عن قلة الأشخاص الّذين يمارسون الطب، أو أي من المهن التي تتطلب بعض المعرفة بالعلوم الدقيقة، إلا أن كل ما يفعلونه هو من قبيل العادة والتعود، معتمدين في ذلك على ذاكرتهم القوية وذكائهم الفذ، وفيما يخص الطب أكد على تدهور وضعية في إيالة الجزائر[٩]، كما في بقية الولايات العثمانية، مع اعترافه بقدرة بعض الأطباء الجزائريين في المعالجة ببعض الأعشاب فخلص إلى القول إلى أن: "الطب لم يكن يسير وفق قوانين معينة أو مدارس، بل كان يعتمد على ما ألفه العرف"[١٠].

وأشار في هذا الصدد أحد أطباء تلمسان المشهورين إبان القرن (١٢هـ/١٨م)، وهو الشيخ ابن عزوز (ت. بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، في مخطوطته "رسالة الصوفي للصوفي"، ما يؤكد أن علماء إيالة الجزائر قد ارتبطوا بالجانب الروحي في التداوي أكثر من الجانب التطبيقي، على حد قوله: "(...) وفي الالتجاء إلى الله بالدعاء إليه فايدة ليست في التداوي بالعقاقير (...)"[١١]. ولعل رأي السيد "شو" أقرب إلى الصواب على حسب "سعد الله أبو القاسم" عندما لاحظ قبل "فيرو" بفترة طويلة، وهو يتحدث عن حالة العلوم والفنون في إيالة الجزائر في وقته، بأنها ما زالت عند المسلمين: "كما كانت منذ مدة في حالة دنيا (...) فالفلسفة والحساب والطبيعيات والطب التي كانت ملكا لهم خلال عدة قرون قد أصبحت الآن لا تكاد تعرف أو تدرس"[١٢].

وقد أرجع "شو" ذلك إلى عدم الاستقرار لدى العرب، والمظالم التي كان يعانيها الحضر على يد الأتراك العثمانيين، لأن الأمن، والحرية، والهدوء ضرورية للإنتاج الأدبي والفني الراقي[١٣]. وهذا النقص في نظره يعود إلى كون حكام الجزائر آنذاك، لم يكونوا مهتمين إلا بالتجارة والأمور المالية، بالإضافة إلى ميولهم للحرب وعدم الاستقرار السياسي تجعل مساهمتهم في الإنتاج العلمي غير مضمونة[١٤].

وتنحصر وجهة نظر "سعد الله أبو القاسم" إلى أن العثمانيين كانوا يفتقرون إلى أشياء أساسية لكي يشجعوا العلم والأدب على السواء في الجزائر، وأولها اللغة، حيث كانت "لغة الوجق" العامة هي التركية، وهي لغة للكلام أكثر منها للكتابة، ولم تكن هناك أعمال أدبية وعلمية هامة أنتجت بهذه اللغة إلى ذلك الحين. ولا شك أن لغة الحضارة الإسلامية في وقتهم كانت هي اللغة العربية، ولا نعرف أن الحكام العثمانيين كانوا يتقنون العربية العامية، فما بلك بالعربية الأدبية. الأمر الذي جعل المؤرخ المذكور يتساءل. كيف نتوقع منهم في هذه الحالة تشجيع إنتاج بلغة لا يعرفونها ولا يتذوقونها؟[١٥].

هذا، ومن ناحية أخرى، أثبتت المصادر والروايات التاريخية على أن الحكام أنفسهم كانوا في أغلبهم جهلة ومغامرين، بل كان بعضهم مرتدًا عن دينه الأصلي، فكان حتى بعد توليته للحكم يتحدث أحيانًا لغته الأصلية. وحري بنا كذلك تقديم تفسير آخر قريب من التفسيرات السابقة، مفاده أن الحكام العثمانيين كانوا يشعرون بالغربة في الجزائر، وهذا الشعور قد جعلهم مبتعدين عن السكان المحليين، وهذا العامل هو الذي لم يشجع على إيجاد إحساس أدبي أو علمي مشترك، رغم وجود إحساس روحي ديني ومصيري[١٦].

ونتيجة لذلك، فإن تدريس الطب قد أهمل في أقطار عُدوة المغرب الإسلامي، بما فيما المغرب الأوسط، منذ فترة سابقة للعثمانيين[١٧]، وكان من نتائج إهمال تعليم الطب قلة عدد الأطباء في الجزائر، وعليه لا نبالغ إذا قلنا أن دراسة الطب بالطريقة المتطورة التي بلغها في العهد الذهبي للحضارة الإسلامية، كاد أن يختفي بها زمن العثمانيين، ولهذا قال "أبو القاسم سعد الله" في سياق حديثه عن ابن حمادوش بأنه: «جاء بعد ظلام دامس أصاب الحضارة الإسلامية، ولذلك اعتبره بعض الباحثين من أواخر المثلين للطب العربي»[١٨].

وممَّا تجدر الإشارة إليه، أن بعض العلماء المدرسين حينذاك، قد تطرقوا في مجالسهم لبعض العلوم العقلية، كالحساب، والفرائض، والفلك...، لكن دراستها لم تكن إلا للاستفادة منها في الحياة اليومية البسيطة، فالحساب كان للاعتماد عليه في التجارة، والفرائض، وتقسيم، التركات، وغيرها، وكان الفلك يدرس لمعرفة الزوال، وأوقات الصلاة، وفي هذا الإطار أكد العالم الفيلسوف أبو محمد عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز ابن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، في مخطوطته "رسالة الصوفي للصوفي" أن العلوم العقلية وخاصة منها علوم أسرار الحروف والأسماء هي علوم كان يهتم بها أكثر نخبة المجتمع من العلماء والموظفون في المؤسسات الدينية وغير الدينية، بقوله: «(...) تتصرف بها في أرباب المراتب العالية والعلماء والقضاة والفقهاء والحكام وأهل العدل وأئمة الهدي وأهل التأويل الرؤيا والفضلاء والزهاد والخلفاء والتجار (...)»[١٩].

إن عدم اهتمام الجزائريين بهذه العلوم هو الذي جعل الكتاب الأوربيين ينتقدون التعليم في الجزائر انتقادًا لاذعًا، وانتقادهم هذا فيه شيئ من الحقيقة[٢٠].

ولقد أشار العديد من علماء تلمسان على وجه التحديد للأهمية المرجوة من العلوم العقلية والتجريبية، حيث أكد في هذا الجانب الشيخ ابن عزوز (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، في مخطوطه "الأمر الوافي والترتيب الكافي للسر الخافي"، أن لهذه العلوم فائدتان، الأولى "دُنيوية" في معرفة كيفية التغلب على ما يحيط بالإنسان من طبيعة وكائناتها، والفائدة الثانية "أخروية" وهي انفتاح البصيرة ومعرفة الله معرفة كاملة، ولأجل هذه الفائدة الثانية كان الطلب بكثرة على هذه العلوم[٢١].

رابعًا: الأحوال الصحية في إيالة الجزائر من خلال النصوص التاريخية

٤/ ١-الأوضاع الصحية في الإيالة وسبل معالجتها

تعرضت إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، كغيرها من الأقطار المغاربية، والمشرقية، والأوربية، مرارًا إلى وباء الطاعون، الذي حصد عدد كبيرًا من الأرواح. حيث يُرجع الباحث "أرزقي شويتايم" تاريخ أول ظهور لوباء الطاعون في الجزائر إلى سنة ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م. ويبدو أن وباء ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م، انتقل للإيالة عن طريق الأسطول الذي أرسله السلطان العثماني لمؤازرة بايلرباي الجزائر صالح رايس (ت ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م)[٢٢]، في حروبه ضد الإسبان، وقد كان صالح رايس نفسه من ضحاياه سنة ٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م، ومنذ ذلك العهد أصبحت إيالة الجزائر تتعرض للوباء بصفة متقطعة. وإن كان هذا الوباء ضعيفًا في القرن ١٠هـ/ ١٦م، فإنه قد عرف في القرنين ١١هـ/ ١٧م، و١٢هـ/ ١٨م، انتشارًا واسعًا[٢٣] وهلاك كبير للسكان في الإيالة.

ولعله من الضروري بالأهمية بما كان، أن نؤكد على أن الإدارة العثمانية قد غفلت كثيرًا عن الحياة الصحية للسكان بالإيالة. ذلك أن معظم البايات والباشوات كان لهم أطباء أجانب يختارونهم عادة من الأسرى الأوربيين الذين يقعون في قبضتهم أو يستأجرونهم بالأموال، لذلك اعتمد الناس على وسائلهم الخاصة واستعملوا "الطب التقليدي" في أدويتهم بما في ذلك الأدعية، والأحجمة، وبصاق الأولياء، وتمائم السحرة والمشعوذين[٢٤]. خاصةً

الاضطرابات النفسية التي كان يرجعها في الغالب سكان الإيالة إلى "الجن" فإنهم كانوا يعالجونها بالبخور، والجاوي، وزيارة الأولياء، والذبائح[٢٥]. ومهما قيل عن الطب التقليدي في إيالة الجزائر، فإن الأوربيين كانوا هم أيضًا يستعملون الطرق التقليدية لمعالجة بعض الأمراض[٢٦].

مع العلم أن ما ذكرناه فيما مر معنا، لا يمكن الاعتداد به في أي حال من الأحوال في إطار فك إشكالية مدى ارتباط الولاة العثمانيين بظاهرة التقليد، وعلى أنهم لم يلتفتوا البتة إلى النواحي الصحية، فقد بنى حسن باشا بن خير الدين مستشفى أو اثنين، وقام كل من صالح باي ومحمد الكبير (ت ١٢١٢هـ/١٧٩٧م)، ببناء منشآت من هذا النوع، ولكن الملاحظ على هذه المنشآت أنها كانت قليلة أو نادرة حتى[٢٧].

٢/٤-الوضع الصحي في مدينة تلمسان زمن العثمانيين

تشير العديد من المصادر المحلية والأجنبية عن وقوع الجوائح والأوبئة بكثرة في تلمسان خلال العهد العثماني، والنتائج السيئة التي خلفتها في الأرواح ومجمل مناحي الحياة العلمية، والاقتصادية، والاجتماعية،... وفي هذا الصدد يُشير "ابن مريم" في "البستان" إلى الطاعون الذي حدث سنة ٩٨١هـ/١٥٧٩م، والذي أدى إلى وفاة عدد من العلماء والصلحاء وعامة الناس[٢٨]. وقد صاحبت بعض الفتن في تلمسان خلال القرن ١١هـ/١٧م، كوارث طبيعية متمثلة في الوباء الذي هلك بسببه الكثير من عامة الناس بتلمسان والعلماء على وجه التحديد سنة ١٠٥٨هـ/١٦٥٠م، حيث نلتمس ذلك بشكل جلي في الشهادة التي أدلى بها العالم أبو عبد الله محمد بن سليمان ابن الصائم التلمساني، الذي كان مُختلطًا بالعلماء وأولياء عصره في تلمسان، ومُتألمًا لحال مَوتهم، خاصة منهم من ماتوا أثناء الوباء خلال السنة المذكورة، وهو يقول فيهم:

ذهب الخيار وغاب عني خيارهم
وبقيت في خلف آثراهم يخلف
فق الوباء عصابة فتفارقوا
وتلاحقوا وتحققوا ما أسلفوا
شهدت عليهم شهادة بشهادة
ومفازة ورزانة ما طففوا[٢٩].

ويذكر أيضًا أبو عبد الله مسلم بن عبد القادر الوهراني الحميدي الزايري (ت ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م)، في "أنيس الغريب"، أنّه لم تكن وحدها معاملة حكام تلمسان السبب الرئيسي على ما يبدو في الحالة المزرية الّتي عرفتها المدينة بما فيها الأوضاع الصحية في هذه الفترة، إذ تُؤرخ مصادر محليّة لأسباب أخرى طبيعية أكثر تأثير على غرار القحط والمجاعة التي أتت على الأخضر واليابس، حتَّى أكل أهل تلمسان لحم الميتة والدم، كما حدث ذلك في أيام حكم محمد بن عثمان، الباي المشهور بحبه للعلم والعلماء وتقريبهم إليه، في ظل ذلك الاهتمام الذي ولو ظرفيًا كان، بيد أنه لم يكن ليتجسد على أرض الواقع ويغرس مغرسًا دائمًا في ظل القحط والطاعون اللذان لم يحدث مثلهما قطّ أيام حكم هذا الباي[٣٠].

وتجدر الإشارة في هذا المقام، أن "يهود ليفورنة" كان لهم السبب المباشر كذلك في مجاعة مدمرة أثناء أحداث الثورة الدرقاوية بقيادة بن الشريف في غرب الإيالة عمومًا وتلمسان على وجه الخصوص. وهي المأساة التي عاشتها البلاد ما بين سنوات ١٧٩٨م و١٨٠٤م، بسبب الجوع والظلم والجراد والأوبئة[٣١].

خامسًا: المؤسسات الصحية الخاصة بأهل الذمة في تلمسان خلال العهد العثماني (النصارى واليهود)

١/٥-مستشفيات النصارى

لقد بنيت الكثير من الكنائس في تلمسان منذ عهد الزيانيين، وتواصل تشييدها حتى مع العثمانيين الذين قدموا ترخيصات لإقامة هذه المباني الدينية للتجار والأسرى الأوربيين، وفي هذا الصدد يذكر "الأب برجيس" أن الكثير من تجار مدينة فنيس الإيطالية "البندقية" تلقوا ضمانات تجارية ودينية لمزاولة أنشطتهم اليومية وخاصة الصحية منها في مدينة تلمسان، ومن مظاهر تلك الأنشطة الدينية بناءهم لكنيستين يعود تاريخ تأسيسها للقرن ١٠هـ/١٦م، وبالضبط سنة ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م، اللتان بنيتا من قبل الأسير الأيرلندي "طوماس"[٣٢].

٢/٥-مستشفيات اليهود وأطبائهم

لمعت تلمسان كقطب ثقافي وديني عبري منذ ظهور المدارس الحاخامية بتلمسان في القرن ٤هـ/ ١٠م، ممَّا

دفع إليها بالكثير من العائلات اليهودية الأندلسية ـــ يهود السافارديم ـــخصوصًا منذ سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩١م، حيث أقبلت عليها شخصيات دينية وثقافية معروفة تركت بصمتها في تطور جاليتها اليهودية مثل العالم اليهودي الربي إفرايم النقاوة أو رب نقاوة (١٣٥٩م ـــ ١٤٤٩م)، الذي كان من أبرز وأقدم هذه الشخصيات استقرارًا بتلمسان[٣٣].

وإن يبقى التساؤل مطروحًا فيما يتعلق بسيرته الذاتية، ومسيرته العلمية، كونه يترك وثائق مكتوبة أو مؤلفات تسمح بتقييم وزنه الديني والثقافي، فإن ضريحه وحده الموجود قرب **"ندرومة"** إلى اليوم، والذي مازال يحج إليه يهود الجزائر، وحتى بعض يهود فرنسا، وبقية أقطار شمال إفريقيا كل سنة، ليُعد دليلاً كافيًا عن مكانته في تلمسان. وحتى دوره الثقافي الديني آنذاك وسط جاليته إلى الحد الذي أعطاه كل هذه الكاريسماتية والقداسة التي لا تمنح إلا للشخصيات الاستثنائية[٣٤].

ومن ضمن الكتابات والتآليف اليهودية في مجال الطب بتلمسان خلال العهد العثماني، يمكن ذكر ما عثر عليه الرحالة الفرنسي "الأب برجيس" من مخطوطات عبرية تؤرخ للوضع العام الذي كان عليه اليهود العبريون في مدينة تلمسان، والحالة الصحية التي عاشتها هذه المدينة زمن العثمانيين. ورغم أن جهوده لم تكلل بالنجاح[٣٥]، فإنه وعلى الرغم من ذلك، قد أشار إلى مخطوط نفيس وجده في "مستشفى المشور" مرتب في خزانة الكتب الخاصة على ما يظهر بمركب المشور عامة، هذا المخطوط المنسوب للطبيب "أبراهام" إبن الحاخام "يعقوب قابيسون" الذي قدم من مدينة ليفورنة سنة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٨م، والذي كان يحتوي حسب كلام "الأب برجيس" أسماء الكثير من العلماء اليهود وأطبائهم. غير أنه أكد هذا الأخير أن الكلمات الواردة في هذا المخطوط لم تتح له الإطلاع على معلومات مفيدة تخص تاريخ اليهود العلمي في تلمسان على الأقل[٣٦].

سادسًا: إسهامات علماء تلمسان وأطبائها في التطبيب على عهد العثمانيين

بادئ ذي بدء، فيما يخص ما دأب عليه علماء تلمسان في ميدان الطب والتطبيب على حد سواء، هو أن كلمة "حكيم" بدل "الطبيب" هي الشائعة عند الناس في ذلك الوقت، وكان الحكيم محل احترام وتبجيل عند العامة من الناس، وكان بعض هؤلاء العلماء وأشباههم يجتهدون اجتهادًا منقطع النظير في مجالات التطبيب، حيث كانوا يُرَكِبُون الأدوية من النباتات المتوفرة في البلاد، ويصنعون المعَاجين والأشربة، ويستعملون وسائل الكي والحجامة، ونحو ذلك[٣٧].

ومن ضمن هؤلاء الجهابذة العلماء، نذكر: ابن الصائم (كان حيا سَنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م)، وابن عزوز (ت بعد ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٠م)، اللذان ألف كل واحد منهما تآليف متنوعة وكثيرة في التداوي بالأعشاب.

١/٦-علم الحكمة مظهر من مظاهر العلوم الطبية في الفترة الحديثة

لا جرم علينا القول، على أن علماء تلمسان قد اهتموا بعلوم الحكمة وعظموها تعظيمًا كبيرًا، حتى بلغ ببعضهم الأمر أن جعلوا لها تآليف مُتخَصِّصة، وأفردوا لها عناية فائقة، ومَدحُوها في مُقدمات تلك الكتب والمُؤلفات، وفي هذا الإطار قام العالم أبو محمد عبد الله ابن أحمد بن عزوز، بالتأكيد على المقام العلمي والديني الكبير التي حظيت به علوم الحكمة، بقوله في مقدمة مخطوطته "أثمد البصائر": «(...) وبعد فإن أعظم العلوم مقاما (...) علم الحكمة (...)»[٣٨]. هذا، وقد نوه العالم المذكور في المخطوطة نفسها على تعريف العالم "الحكيم"، حيث قال: «(...) والحكيم هو الجامع لفنون الحكمة المطالع على أسرارها (...)»[٣٩].

ومن بين علماء تلمسان الذين مارسوا علم الحكمة في العهد العثماني، نذكر:

أبو العباس أحمد بن محمد المقري شهاب الدين التلمساني (ت ١٠٤١هـ/١٦٣٣م):

كان "الشهاب المقري" عالما في الحديث بمثل ما كان عليه في العلوم العقلية مثل الحكمة التي ألف فيها منظومة "رفع الغلط عن المخمس الخالي الوسط"، إلى جانب مُؤلف

آخر في هذا العلم، موسوم بـ: «نيل المرام المغتبط لطالب المخمس الخالي الوسط»(٤٠)، وهو مخطوط بالرباط، مصنف تحت رقم: ٢٨٧٨.

أبو العباس الحاج أحمد الصغير بن الحسين الدرعي السنوسي التلمساني (كان حيا سنة ١٠٦٠هـ/١٦٥٢م):

واحد من علماء تلمسان وحكمائها الذين ارتحلوا إليها من ليبيا، والذين تم ذكرهم عند ابن الصائم، في مخطوطته "كعبة الطائفين"، بقوله: «(...) قدم من المشرق، وكان حكيما عارفا لبيبا (...)»(٤١).

أبو عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن رزوق بن محمد بن عبد الرحمن بن موسى الأنصاري التلمساني ابن الصائم الجازولي (كان حيا سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م):

وهو أحد علماء بيت "ابن الصائم التلمساني" وصاحب مخطوطة "كعبة الطائفين وبهجة العاكفين على قصيدة حزب العارفين"، التي ضمنها للعديد من العلوم النقلية والعقلية، وعرف فيها بعلم الحكمة والهدف من ممارستها، وعلاقاتها بالله عز وجل، بقوله: «(...) والحكمة هي إتمام الشيء وإنهاؤه إلى غايته التي أريدت منه، قال تعالى: الذاريات ٥٦، وهؤلاء السادة داعون على الله بأقوالهم وافعالهم وأحوالهم، ومحببون العباد في مولاهم، وحريصون على هداية الخلق إلى الحق(...)»(٤٢). وأضاف يقول عن علم الحكمة: «والحكمة المصيبة عين الصواب (...)»(٤٣).

أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد العزيز بن عزوز المراكشي التلمساني (ت بعد ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٠م):

الشيخ ابن عزوز، طبيب تلمساني المنشأ، مراكشي الدار، سوسي الأصل، عباسي النسب(٤٤)، متوفى بعد سنة ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م، ومعروف بـلقب: «سيدي بلة»(٤٥)، كان من الفقهاء الرحالة، والعلماء المتميزين في علم الأسماء، والحساب، والحروف، المجودين للقرآن، والحافظون للحديث والتاريخ، ومع ذلك نابغ في الطب، له كتب في علم المقادير والأعداد وعلم الحساب، وعلم الحكمة، منها: «باب الحكماء في علم الحروف والأسماء»، و«الأجوبة النورانية»(٤٦)، و«لب الحكمة في علم الحروف وعلم الأسماء الإلهية»، و «قهر العقول، وتغلبها إلى فهم الحقائق والأصول»(٤٧) توجد نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم: ١١٥٦ ك.

وألف أيضًا في الحكمة «أثمد البصائر في معرفة الماهر»(٤٨)، الذي خَصَّصه للحديث عن أسرار العلوم والحكمة من تعلمها، وهو تأليف موجه لطالب الحكمة، إذ كثيرًا ما يبدأ صاحب المؤلف عبارات التفسير بـ: «واعلم يا طالب». وقد انتهى ابن عزوز من تأليف هذا الكتاب في ٢٣ شعبان من عام ١١٦٦هـ/١٧٦٧م.

ومن بين كتاباته في الطب والحكمة كذلك، مخطوط من ١١٨ صفحة، محفوظ مكتبة باريس، تحت رقم ٤٧٥٨، ونسخة أخرى بالمكتبة العامة بالرباط، مصنفة تحت رقم: ٨٢٤ـ ١١٣٦د، معنون بـ: «ذهاب الكسوف ونفي الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة»(٤٩)، فرغ من تأليفها في رمضان عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م، وقد قسم هذه المخطوطة في ٧٠ فصلاً، وفي كل فصل موضوع من مواضيع التطبيب في الطبيعة وحوادثها، العلم والحكمة، علم التوليد، وخَصَّ الفصل الأخير في استكشاف المعدة في أمراضها وسبل معالجتها، وأفرد فصل في ذكر كل مرض وسُبل معالجته.

وقد أورد "الأب برجيس" أنه حصل على نسخة من هذا المخطوط العربي النفيس من مدينة "مسرغين" من قبل الكولونيل "شارل مونطوبو" المحب للعلم والكتب، والذي حصل عليه هذا الأخير من طرف ولي وعالم صالح من المدينة المذكورة، وتم نقل هذا المخطوط إلى باريس(٥٠).

٢/٦-واقع الطب وإنتاجه العلمي في مدينة تلمسان في العهد العثماني

عرَّف أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٣م)، صنعة الطب في "المقدمة"، فقال: «وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين مرض كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراء التي تنشأ وما لكل مرض من الأدوية مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها على المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولا في السجية والفضلات والنبض محاذين لذلك

قوة الطبيعة، فإنها المدبرة في حالتين؛ الصحة والمرض»[٥١].

ولما كان الشغل الشاغل لعلماء إيالة الجزائر بتدبير الدواء للأمراض وضرورة المحافظة على الصحة النفسية والجسدية، فقد كانت العناية بالعلوم الطبية في الإيالة عمومًا، أكبر من العناية بالعلوم العقلية الأخرى، (ماعدا علم الفلك) خلال العهد العثماني، ذلك أن الإنسان كان في حاجة إلى المعالجة، وبما أن المجتمع الجزائري آنذاك كان مجتمعًا إسلاميًا، فإن الإيمان بالقضاء والقدر في هذا الميدان كان المُسيطر على العقول بصفة عامة، ولكن بعض الناس كانوا يؤمنون بالعلاج والتداوي واتخاذ الوسائل والأسباب للمحافظة على الصحة، لذلك وجدنا عدد ليس بالقليل من التآليف، والرسائل، والأراجيز، في علم الطب وفروعه، ومع ذلك فإن الخرافة قد اختلطت بالطب في معظم الأحيان، فالعامة كانت تؤمن بالتداوي بالشرب من بئر معينة أو بتعليق تميمة، أو بزيارة ولي أو زاوية، كما كان يفعل بعض النسوة خصوصًا اللائي كن يؤمن ببعض الأسباب غير الطبية للبرء من العقم وغيرها...[٥٢]، على ما أورده النسابة سيدي الشيخ بلهاشمي الحسيني بن بكار، في كتابه "مجموع النسب والحسب والفضائل"، وهو يقول بالنص عن زاوية سيدي بن اعمر الواقعة في مدشر سيدي بن عمر في الجهة الشمالية الغربية من مدينة تلمسان: "زاوية سيدي محمد بن اعمر (...) وقصدت من الجهات الشاسعة (...) والتداوي والمعالجة والرقية في أمراض كادت أن تكون لها خصوصية فيها كمرض عرق النساء وداء الكلب وداء السم وقطع التابعة ورقية الولادة كل ذلك من سر الله في صدق ولي الله سيدي بن اعمر وشيخه القطب الكامل (...) مولاي الطيب رضي الله عنهم (...)»[٥٣].

وممًا لاحظه "أبو القاسم سعد الله" في ميدان الطب وغرائبه في إيالة الجزائر على عهد العثمانيين، هو اعتقاد الجزائريين بما فيهم العلماء، بأن الطب مقصور على الأوربيين[٥٤]، حيث استند في ذلك لملاحظات "بانانتي الإيطالي" في أن (أهل الجزائر) يعتقدون أن كل أوربي طبيب، كما يعتقد الأوربيون أن كل إيطالي مُغن[٥٥].

والجدير بالذكر كما سبقت الإشارة إليه، هو أن الحكام العثمانيين من الباشوات والبايات وغيرهم، قد كانوا يجلبون لأنفسهم أطباء أوربيون ويؤمنون بالطب الأوربي، ومن جانب آخر لم يكونوا يهتمون بصحة السكان في العموم، تاركين العامة للطب التقليدي الذي انتشر بشكل كبير في الإيالة[٥٦].

وقد كانت مصادر الطب العربي التقليدي متوفرة في إيالة الجزائر و مكتباتها التي احتوت على كميات كبيرة من الكتب الطبية ولا سيما تآليف "ابن رشد" و"ابن سينا" و"ابن البيطار"[٥٧]، كما أن مدرسة مدينة تلمسان الطبية لم تندثر نهائيًا، ولا شك أن كتابات "إبراهيم بن أحمد التلمساني" و"محمد بن يوسف السنوسي" في الطب كانت معروفة ومتداولة خلال العهد المدروس[٥٨].

ومن جملة أطباء تلمسان الذين مارسوا الطب واختصوا فيه، نذكر:

أبو سليمان داود بن عبد الله البغدادي التلمساني (كان حيا سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٢م):

أورد ترجمته أبو القاسم محمد بن علي بن عسكر الحسني العلمي الشفشاوني (ت ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م)، في "دوحة الناشر"، وقال إن كان طبيبًا ماهرًا، وكان ضريرًا أعمى. لقيته بمصر سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٢م، وكتب الطب تسرد عليه، ومعرفته في الطب عظيمة[٥٩].

أبو عثمان سعيد بن أحمد المقري القرشي التلمساني (ت حوالي سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م):

على الرغم من أننا لم نقف على تآليف أبو عثمان سعيد المقري (ت حوالي سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م، في الطب، فإن تلامذته ومعاصريه من الطلبة والعلماء، يقولون عنه أنه كان يجمع بين العلوم العقلية والنقلية، خصوصًا علوم الطب والتشريح ...[٦٠].

أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ابن مريم المديوني التلمساني (كان حيا سنة ١٠٢٥هـ/١٦٢٥م):

له مخطوطات في الطب، منها: "فتح الجليل في أدوية العليل»[٦١]، لأبي زيد عبد الرحمن بن علي الرقعي السنوسي الفاسي (ت ٨٥٩هـ/١٤٥١م)[٦٢]، المعروف بالرّقعي. حيث عرفه ابن الصائم في "كعبة الطائفين" أنه "مؤلف الشيخ الرقعي" وقد اشتهر "ابن مريم" بهذا المؤلف أكثر من اشتهاره بـ: "البستان" في ذلك الوقت، غير أنه كما ذكر "أبو القاسم سعد الله" أن المُؤلف المقصود به

"فتح الجليل في أدوية العليل" هو تأليف في العقائد والتصوف[٦٣]. وهو ما يجعلنا نتحفظ من هذا المؤلف الذي نسب لابن مريم.

وقد ذكر العالم المرغيتي في "فهرسته المسماة: العوائد المزرية بالموائد"، لإشارات عديدة ومتعددة وهو يشرح بعض ما جاء في "فتح الجليل" لابن مريم، حيث كثيرًا ما وثق لابن مريم في مواضيع فهرسته، فيقول عن المديوني وهو يقصد "ابن مريم": «(...) المديوني على ابن رشد (...)»[٦٤]. ويضيف قائلاً: «(...) فائدة المديوني على ابن رشد (...)»[٦٥]. وهذا ما لا يدعو مجالاً للشك في أن ابن مريم له تأليف معنون بهذا الإسم، لكن على ما يظهر أنه ليس المخطوط المحفوظ في المكتبة الوطنية بباريس، أو بمكتبة هارفورد الأمريكية.

أبو عبد الله محمد أحمد الشريف الحسني التلمساني (ت١١٤٩هـ/١٧٤٩م):

لم يصلنا شيء حول حياة هذا العالم الطبيب، إلاَّ أنه ترك مخطوط في «الطب» من ثلاثة عشر صفحة، ووفاته التي كانت في سنة ١١٤٩هـ/١٧٤٩م[٦٦].

أبو عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن رزوق بن محمد بن عبد الرحمن بن موسى الأنصاري التلمساني ابن الصائم الجازولي (كان حيا سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م):

وإذا عد العالم ابن الصائم (كان حيا سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م)، من العلماء الأطباء، لتآليفه العديدة، بالضافة لتآليفه الخاص في الطب الشرعي التقليدي، إلا أنه لم يخرج في تناوله الطب عن اختصاصه في التصوف وعلم التوحيد، عندما ربط بين الطب والدين على عادة علماء إيالة الجزائر وقتذاك[٦٧] حيث ترك كتاب في «قوانين الطب الشرعي»[٦٨].

أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد العزيز بن عزوز المراكشي التلمساني (ت بعد ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٠م):

وكان الشيخ ابن عزوز، ــ كما سبقت الإشارة إليه ــ، طبيب، نُعت بـلقب: "سيدي بلة". وكان ابن عزوز إلى جانب ذلك من الفقهاء الرَّحالة، والعلماء المتميزين في علم الطب، ولدرجة نبوغه تلك، أن ارتحل إليه من تلمسان لمراكش أحد علمائها البارزين أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله بن موسى بن محمد فتحا الزجاي التلمساني الجدّ (ت ١٢٢٦هـ/ ١٨١٨م)، هذا الأخير الذي لقيه بمراكش وأخذ عنه بعض العقاقير الطبية، وفي ذلك يقول الزجاي الحفيد (كان حيا سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م)، في "إتمام الوطر": «(...) ثم ذهب لمراكش ولقي ابن عزوز (...)، الذي ناوله العقاقير (...)، التي أذهبت فيه كل علة (...)»[٦٩].

كان ابن عزوز طبيبًا مشهورًا في المغرب العربي ككل، وكان معروفًا أيضًا بامتلاكه العقاقير الطبية، والتي أشار لها تقريبًا في كل مؤلفاته في العلوم العقلية والصوفية، ومنها ما أورده في مخطوطته المتخصصة في أسرار علم الأسماء والتصوف "رسالة الصوفي للصوفي"، حيث يشبه كل تفسير روحاني إلى العقاقير، بقوله: «(...) كالعقاقير يدفع بعضها (...) وله من العقاقير لسان العصفور (...)»[٧٠]. ومن كتاباته في الطب والحكمة مخطوط من ١١٨ صفحة محفوظ بمكتبة باريس، تحت رقم: ٤٧٥٨، ونسخة أخرى بالمكتبة العامة بالرباط، تحت رقم: ٨٢٤ــ ١١٣٦د، معنونة بـ: «ذهاب الكسوف ونفي الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة»[٧١]، فرغ من تأليفها في رمضان عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م، وقد قسم هذه المخطوطة في ٧٠ فصلاً، وفي كل فصل موضوع من مواضيع التطبيب في الطبيعة وحوادثها، العلم والحكمة، علم التوليد، وخص الفصل الأخير في استكشاف المعدة في أمراضها وسبل معالجتها، وخص فصل في ذكر كل مرض وسبل معالجته.

وقد أشار "أبو القاسم سعد الله" على أن هذا الكتاب قد اختص في الطبيعة وعناصرها، وفي العلم والحكمة، وفي علم التوليد، وفي حديثه عن الطب فصل في ذكر العلاج لكل مرض، وكان آخر باب في الكتاب في صفة المعدة وأمراضها وعلاجاتها. أما بدايته فهي: «الحمد لله الذي أفاض على قلوب عباده المحبوبين فنون العلوم والمعاني الكثيفة واللطيفة، وأطلعهم على الحكم والمعاني، وأدخلهم حضرتهم القدسية»[٧٢]. ولعل هذه العبارات ونحوها قد جعلت من هذا التأليف يصنف أيضًا في علم التصوف. ومؤلف آخر لهذا الطبيب معنون بـ: «جراب المجربات في الأدوية والأعشاب»[٧٣] من ٢٣٨ صفحة، موجود بالمكتبة القاسمية ببوسعادة، قسمه إلى ٢٧ بابا. كما نسب له المؤلف المغربي "محمد الأخضر" مؤلف في علم النباتات، معنون بـ: "كشف الرموز"[٧٤].

خَاتِمَةٌ

وزيادة القول، من كل ما قدمناه في هذا العرض التاريخي الموثق، والموسوم بـ: "التفاعل الاجتماعي لأطباء مدينة تلمسان في الحياة الصحية بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني". والقراءة الاستنتاجية المتأنية لما خلفه علماء تلمسان وغيرهم على عهد العثمانيين من مؤلفات احتوت على مادة مصدرية مهمة تؤرخ من جهة للأوضاع العلمية والصحية وتعتبر من ناحية أخرى مساهمة في مجال الطب والتطبيب؛ تمكنا من الوقوف على مجموعة من النتائج. حصرناها في النقاط التالية:

- كشفت لنا النصوص التاريخية أن إيالة الجزائر قد شهدت العديد من الجوائح والأوبئة والأمراض، التي كانت تضرب مختلف القطاعات على عهد العثمانيين، والتي كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقال فيما يتعلق بتردي الأوضاع الاجتماعية والسياسية وحتى الثقافية والعلمية.
- أبانت سطور هذه الورقة البحثية عن ذلك التراجع الرهيب في ميدان العلوم العقلية زمن العثمانيين، مع احتفاظ مدينة تلمسان ومدارسها بشكل نسبي على الإشعاع العلمي في هذا المجال، والذي أُسِّسَ على أنقاد المدرسة الزيانية سابقًا.
- لم تسلم مدينة تلمسان هي الأخرى من موجات الأوبئة، كالطاعون وغيره طيلة العهد العثماني، ما انجر عنه هلاك عدد كبير من السكان بما فيهم نخبة المدينة من العلماء على ما أدلى به علمائها من شهادات تاريخية في نصوص مُؤلفاتهم.
- شهدت مدينة تلمسان والإيالة عمومًا، تنظيمًا مُحكمًا فيما يخص المؤسسات الاستشفائية الخاصة بأهل الذمة ــ اليهود والنصارى ــ، والتي كانت تلمسان احدى المدن التي شُيِّدَت فيها تلك المنشآت المعمارية، خاصة منها التي تعود لليهود الذين كانوا يشكلون نسمة كبيرة بالمدينة المذكورة حتى لمع منهم الكثير من الأطباء خلال العهد العثماني على ما أكده الباحث الرحالة الفرنسي "الأب برجيس".
- أنجبت مدينة تلمسان خلال العهد العثماني الكثير من العلماء الذين امتهنوا الطب الشرعي ــ العربي التقليدي ــ وأنتجوا فيه إنتاجًا علميًا محترمًا في زمن تراجعت فيه الحركة العقلية بشكل عام.
- استطاع أطباء تلمسان على ما يبدو مواجهة بعض الأمراض، وإيجاد العلاج لها من خلال ما ألفوه من كتب طبية شاملة لمختلف الأمراض، لكن مساهماتهم تلك لم تخرج عن التقليد والطب العربي الشرعي.
- أظهرت المصادر التاريخية التي دونها أصحابها العلماء من أبناء مدينة تلمسان على حركية علمية راقية، مست الجانب الطبي ومهنة التطبيب عبر الكثير من المؤلفات العقلية التي كان من روادها العالم أبو عبد الله محمد بن سليمان ابن الصائم التلمساني، والعالم أبو محمد عبد الله ابن عزوز ...
- تنوعت تآليف العالم أبو محمد عبد الله ابن عزوز، بين مُؤلفات في الطب الشرعي، وبين مُؤلفات جمعت بين علمي الحكمة والطب، وعلم المحسوسات التجريبية، ما يَجعل هذا العالم الطبيب واسع الدراية بمختلف الأمراض والأوبئة آنذاك.

الملاحق:

الملحق رقم ٠١: الورقتان الأولى والأخيرة من مخطوطة: **"فتح الجليل في أدوية العليل"**، للعالم أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد بن مريم المديوني التلمساني **(كان حيا سنة ١٠٢٥هـ/١٦٢٥م)**.

الورقة الأولى/أ



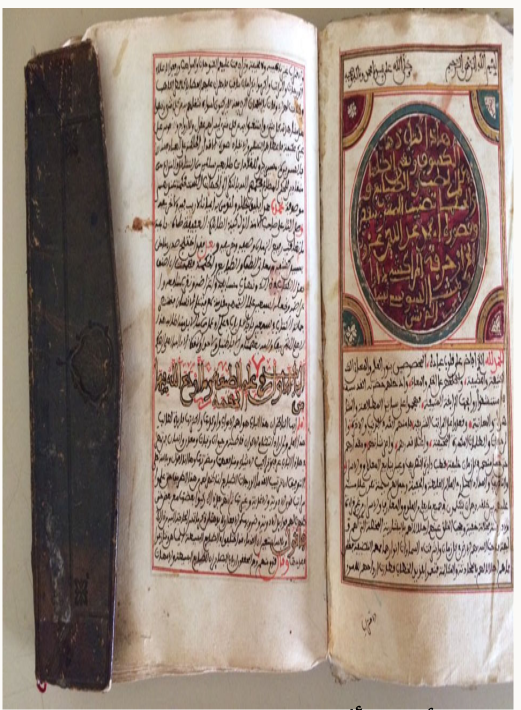
الورقة الأخيرة/ب



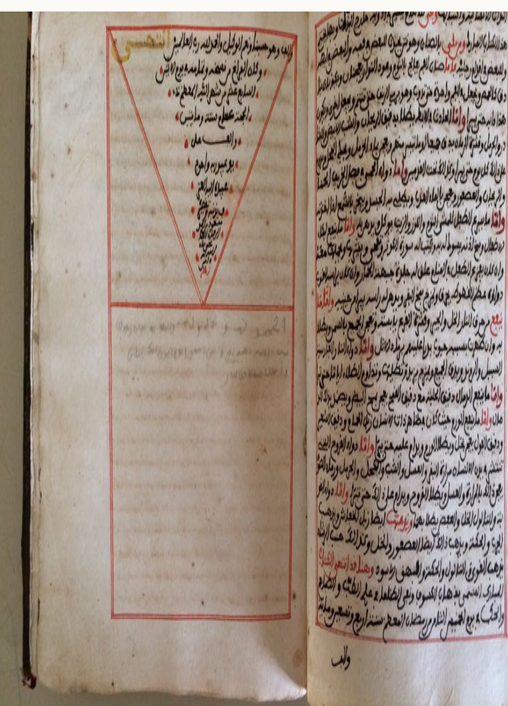
المصدر: مكتبة هارفرد الأمريكية، يحمل رقم: ٩٩٠٠٧٣٨٤٤١١٠٢٠٣٩٤١، عدد الأوراق: ٤٠٠.

الملحق رقم ٠٢: الورقة الأولى والأخيرة من مخطوطة: **"ذهاب الكسوف ونفي الظلمة عن علم الطب والطبائع والحكمة"**، للعالم أبي محمد عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز ابن عزوز العباسي المراكشي التلمساني **(ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)**.

الورقة الأولى أ/ب



الورقة الأخيرة أ/ب



المصدر: (مخطوط غير مصنَّف)، موقع أبو مريم، عدد الأوراق: ٨١.

الاحالات المرجعية:

(١) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٣م)، **المقدمة**، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، لبنان، ٢٠٠٧، ص: ٤٠٣

(٢) **العدوة**: مصطلح يقصد به في اللغة المكان المتباعد، والمكان المرتفع، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، بعد بسم الله الرحمن الرحيم: «... إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ» **[الأنفال ٤٢]**، بمعنى ما يلي المدينة وما يلي مكة، ولقد انتقل هذا المصطلح إلى بلاد المغارب عبر الكُتاب المشارقة على الأرجح، فأطلق على ضَفَّتي كل مجال يفصله مجرى مائي، فوجدت العُدوة المغربيّة التي يقصد بها تونس والمغرب والجزائر، والعدوة الأندلسيّة، لما يفصل بينهما من ماء البحر الأبيض المتوسط. يُنظر حول الموضوع: المعلمة، (١٩٨٩م)، **قاموس مرتب على حروف الهجاء يحيط بالمعارف المتعلقة بمختلف الجوانب التاريخية والجغرافية والبشرية والحضارية للمغرب الأقصى**، (ج١٨)، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ص ٦٠٠٦.

(٣) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، (ج٣)، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، ١٩٨٠، ص: ٢٦.

(٤) أبو عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن رزوق بن محمد بن عبد الرحمن بن موسى الأنصاري ابن الصائم الجازولي التلمساني (كان حيا سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م)، **مخطوط: كعبة الطائفين وبهجة العاكفين على قصيدة حزب العارفين**، المكتبة الوطنية بباريس، يحمل رقم: ٤٦٠١، ص: ٣٨٩.

(٥) نفسه، ص: ٤٠١.

(٦) سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي ١٥٠٠ ـ ١٨٣٠**، (ج١)، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٩، ص: ١١١.

(٧) نفسه، (ج١)، ص: ١١١.

(٨) فوزية لزغم، **الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية ١٥٢٠م ـ ١٨٣٠م**، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، وهران، (دت)، ص: ٧٢.

(9) Thomas (Shaw), **voyage Dans La Régence d’Alger**, Chez Marlin éditeur, Paris, 1830, P: 48.

(10) IBID, P: 48.

(١١) أبو محمد عبد الله ابن أحمد بن عبد العزيز بن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، **مخطوط: رسالة الصوفي للصوفي في التعريف بالاسم الأعظم المفرد الجامع الكافي وفي التعريف بشرابه الصافي وميزانه الوافي وسره الخافي**، (غير مصنَّف)، الورقة: ٢٤٧/أ.

(١٢) نقلاً عن: سعد الله (أبو القاسم)، **مرجع سابق**، (ج١)، ص: ١٩٣.

(١٣) نفسه، (ج١)، ص: ١٩٣.

(١٤) نفسه، (ج١)، ص: ١٩٤.

(١٥) نفسه، (ج١)، ص: ١٩٤.

(١٦) نفسه، (ج١)، ص: ١٩٤.

(١٧) مصطفى خياطي، **الطب والأطباء في الجزائر العثمانية**، منشورات ANEP، الجزائر، (د.ت)، ص: ٤٨.

(١٨) فوزية لزغم، **مرجع سابق**، ص: ٧٢.

(١٩) أبو محمد عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز ابن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، **مخطوط: رسالة الصوفي للصوفي في التعريف بالاسم الأعظم المفرد الجامع الكافي وفي التعريف بشرابه الصافي وميزانه الوافي وسره الخافي**، (غير مصنَّف)، الورقة: ٢٠٣/ب.

(٢٠) فوزية لزغم، **مرجع سابق**، ص: ٧٣.

(٢١) أبو محمد عبد الله ابن أحمد بن عبد العزيز بن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، **مخطوط: الأمر الوافي والترتيب الكافي للسر الخافي**، (غير مصنَّف)، الورقة: ٤/ب.

(٢٢) **صالح ريس (ت ٩٦٣هـ/١٥٥٦م)**: الملقب بأمير البحر، وباي لارباي أيالة الجزائر، أجمع المؤرخون على أن أصل صالح ريس هو عربي من الإسكندرية، تعرف إلى الأتراك حين قدومهم إلى مصر، ورافق البحار عروج و خير الدين بربروسا في رحلاتهم، تعلم فنون الحرب والبحرية في سن مبكرة، من أهم أعماله مساهمته في انقاذ بقايا المسلمين في الأندلس، فمنح لقب بكلربك أو باي لارباي أي أمير الأمراء، وهو لقب يخول لصاحبه أن يُصدر الأوامر إلى باشا تونس وطرابلس والجزائر، لتولى منصب حاكم الجزائر في عام ١٥٥٢م، فأتم فتح بجاية عام ١٥٥٥م، من الإسبان، وقضى على التمردات في المغرب الأقصى ودخل فاس في عام ١٥٥٤م، توفي صالح رايس مصاباً بالطاعون وقد ناهز السبعين عاما في سنة (٩٦٣هـ/ ١٥٥٦). يُنظر: مبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، (ج٣)، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ص ص: ٧٣ ـ ٨٩.

(٢٣) أرزقي شويتيام، **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني ٩٢٦ ـ ١٢٤٦ هـ/ ١٥١٩ ـ ١٨٣٠م**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩، ص: ٤٠٩ ـ ٤١٠.

(٢٤) سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، (ج١)، ص: ١٦٧.

(٢٥) أرزقي شويتيام، **مرجع سابق**، ص: ٤٠٦.

(٢٦) نفسه، ص: ٤٠٦.

(٢٧) سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، (ج١)، ص: ١٦٨.

(٢٨) أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد ابن مريم المديوني التلمساني (كان حيا سنة ١٠٢٥هـ/١٦٢٥م)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، تحقيق: بوباية عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٤، ص: ٢٦٤، ٢٨١، ٢٨٦.

(٢٩) أبو عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن رزوق بن محمد بن عبد الرحمن بن موسى الأنصاري ابن الصائم الجازولي

التلمساني (كان حيا سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م)، **مصدر سابق**، ص: ٣٨٩.

(٣٠) لتفاصل أكثر يُنظر: أبو عبد الله مسلم بن عبد القادر الوهراني الحميدي الزايري (ت ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م)، **أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر أو تاريخ بايات وهران المتأخر**، تحقيق: بونار رابح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ص: ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣١) سعد الله فوزي، **يهود الجزائر هؤلاء المجهولون**، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٤م، ص: ٢٣٠.

(32) Barges (Labbe), **Tlemcen Ancienne Capitale Du Royaume De Ce Nom, Souvenir Dun Voyage**, Challamel Aine Libaire, Paris, 1859, P: 128.

(33) IBID, P: 128.

(٣٤) سعد الله فوزي، **مرجع سابق**، ص: ٩٩.

(35) Barges (Labbe), **op, cit**, P. 92.

(36) IBID, P. 92.

(٣٧) سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، (ج٢)، ص: ٤١٧.

(٣٨) أبو محمد عبد الله ابن أحمد بن عبد العزيز بن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، **مخطوط: أثمد البصائر في معرفة الماهر**، (غير مصنَّف)، الورقة: ٢.

(٣٩) نفسه، الورقة: ٢.

(٤٠) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقَّري التلمساني (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، **مخطوط: نيل المرام المغتبط لطالب المخمس الخالي الوسط**، المكتبة الوطنية العامة بالرباط، يحمل رقم **٢٨٧٨**، عدد الأوراق: ٣٨.

(٤١) أبو عبد الله محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن رزوق بن محمد بن عبد الرحمن بن موسى الأنصاري التلمساني ابن الصائم الجازولي التلمساني (كان حيا سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م)، **مصدر سابق**، ص: ١٦٢.

(٤٢) نفسه، ص: ٢٨٤.

(٤٣) نفسه، ص: ٢٨٦.

(44) Barges (Labbe), **op, cit**, P: ٤٤٤.

(٤٥) نعم الله هيكل، مليحة إلياس، **موسوعة علماء الطب مع اعتناء خاص بالأطباء العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص: ٥٢.

(٤٦) أبو محمد عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز ابن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، **مخطوط: الأجوبة النورانية**، المكتبة الوطنية الجزائرية، يحمل رقم: **٩٢٧**، عدد الأوراق: ٥٦.

(٤٧) أبو محمد عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز ابن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، **مخطوط: قهر العقول، وتغلبها إلى فهم الحقائق والأصول**، المكتبة الوطنية العامة بالرباط، يحمل رقم: **١١٥٦ ك**، عدد الأوراق: ١٨٤.

(٤٨) أبو محمد عبد الله ابن أحمد بن عبد العزيز بن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، مخطوط: **أثمد البصائر في معرفة الماهر**، **مصدر سابق**، عدد الأوراق: ٦٦.

(٤٩) أبو محمد عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز ابن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، **مخطوط: ذهاب الكسوف ونفي الظلمة عن علم الطب والطبائع والحكمة**، (غير مصنَّف)، موقع أبو مريم، عدد الأوراق: ٨١ ورقة.

(50) Barges (Labbe), **op, cit**, P: ٤٤٤.

(٥١) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٣م)، **مصدر سابق**، ص: ٤١٦.

(٥٢) سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، (ج٢)، ص: ٤١٧.

(٥٣) سيدي الشيخ بلهاشمي الحسيني بن بكار، **كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب**، مطبعة ابن خلدون، تلمسان – الجزائر، ١٩٦١، ص: ١٦٥.

(٥٤) سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، (ج٢)، ص: ٤١٧.

(٥٥) نفسه، (ج٢)، ص: ٤١٧.

(٥٦) **نفسه**، (ج٢)، ص: ٤١٩.

(٥٧) نفسه، (ج٢)، ص: ٤٢٠.

(٥٨) نفسه، (ج٢)، ص: ٤٢٠.

(٥٩) أبو القاسم محمد بن علي بن عسكر الحسني العلمي الشفشاوني (ت ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م)، **دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٧م، ص: ١٠٢.

(٦٠) سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، (ج٢)، ص: ٤٢٠.

(٦١) أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد بن مريم المديوني التلمساني (كان حيًا سنة ١٠٢٥هـ/١٦٢٥م)، **مخطوط: فتح الجليل في أدوية العليل**، مكتبة هارفرد، و ــ م ــ أ، يحمل رقم: ٠٠٧٣٨٤٤١١.٠٢.٣٩٤١.٩٩، عدد الأوراق: ٤٠٠.

(٦٢) **أبو زيد عبد الرحمن بن علي الرقعي السنوسي الفاسي (ت ٨٥٩هـ/١٤٥١م):** ولد أبو زيد بـ: **«رُقْعة»**، قرية وبلدة من بلاد لمطة التابعة لمدينة فاس، وقد نزل بها سلفه، لم تورد المصادر المتوفرة عنه شيئا، خاصة ما له علاقة بتكوينه العلمي في الصغر، ولا على من تلقى من أهل بلده الذين عاشوا في وقت بلوغه سن الأخذ والتلقي، كما لم تورد من أخبار رحلته في طلب العلم شيئا، وهذا القصور في ترجمته ظهر واضحا على الذين ترجموه، حيث لم نقف في كتب التراجم، إلا على شيخين اثنين ممن تلقى عنهم المترجم، هما العالم الشيخ الفقيه: أبو عبد الله سيدي محمد بن عمر العكرمي القرشي **(ت ٨٤٢هـ/١٤٣٤م)**، وأبو مهدي سيدي عيسى بن علال الكتامي المصمودي **(ت ٨٢٣هـ/١٤١٥م)**. أما تلاميذه فلم نظفر منهم بأحد، وأبو زيد هذا هو صاحب النظم المشهور، المعروف بـ: «**نظم مقدمة ابن رشد**»، الذي فرغ من نظمها سنة **٨٥٣هـ/١٤٤٥م**، وقد وصفه صاحب **الاستقصا** بقوله: **«صاحب الرجز المشهور»**. وقد نقل

التنبكتي عن بعض شراح نظمه هذا في الثناء على الرجل قوله: **«قال بعض شراح نظمه: كان عالما، صالحا، عارفا بالفقه، حسن الخلق»**. كما لم يصل إلى يدي شيء عن تدريسه العلم، أو التأليف فيه غير النظم الذي تقدم، مع ما تقدم من وصفه بمعرفة الفقه، والعلم والصلاح والورع. وقد توفي رحمه الله تعالى يوم الأربعاء سادس عشر رجب من سنة ٨٥٩هـ/١٤٥١م. يُنظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي الحضيكي (ت. ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م)، **طبقات الحضيكي**، تقديم وتحقيق: بومزكو أحمد، (ج١)، مطبعة النجاح الجددة، الدار البيضاء، ٢٠٠٦، ص: ٥٣٤.

(٦٣) سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، (ج٢)، ص: ٤٢٠.

(٦٤) أبو عبد الله محمد بن سعيد المرغيتي (ت. ١٠٨٩هـ/١٦٨١م)، **فهرسة أبي عبد الله محمد بن سعيد المرغيتي المسماة: العوائد المزرية بالموائد**، تقديم وتحقيق: اشريفي محمد العربي، (ج١)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٧، ص: ٢١٠.

(٦٥) نفسه، (ج١)، ص: ٢١١.

(٦٦) (فهرسة)، **فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث**، تصنيف: الجزائري الشيخ البشير ضيف، منشورات ثالة، الجزائر، ٢٠٠٧، ص: ٢٣٩.

(٦٧) سعد الله أبو القاسم، **مرجع سابق**، (ج١)، ص: ١١٣.

(68) Mostefa (K), **La Médecine en Algerie Au Cours De La Période Ottomane (Xvie – XIXe Siècle)**, Houma éditions, Alger, 2013, P:

(٦٩) أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن موسى بن محمد فتحا الزجاي الحفيد التلمساني (كان حيا سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م)، **مخطوط: إتمام الوطر في التعريف بمن اشتهر في أوائل القرن الثالث عشر**، المكتبة الوطنية بباريس، يحمل رقم: R.D٩٣٠٧.، الورقة ١٧/أ

(٧٠) أبو محمد عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز ابن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، **مخطوط: رسالة الصوفي للصوفي ...، مصدر سابق**، الورقة: ٢٩٠/ب.

(٧١) أبو محمد عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز ابن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، **مخطوط: ذهاب الكسوف ونفي الظلمة عن علم الطب والطبائع والحكمة**، (غير مصنَّف)، موقع أبو مريم، عدد الأوراق: ٨١ ورقة.

(٧٢) سعد الله (أبو القاسم)، **مرجع سابق**، (ج٢)، ص: ٤١١-٤١٢.

(٧٣) أبو محمد عبد الله ابن أحمد ابن عبد العزيز ابن عزوز العباسي المراكشي التلمساني (ت بعد ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م)، **مخطوط: جراب المجربات في التداوي بالأدوية والأعشاب**، المكتبة القاسمية ببوسعادة، عدد الأوراق: ٢٣٨.

(٧٤) سعد الله (أبو القاسم)، **مرجع سابق**، (ج٢)، ص: ٤١٢.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

دور الصحافة في توثيق التاريخ وصياغته
دراسة نماذج من الصحافة اليمنية



أ. م. د. أمين محمد علي الجبر
قسم التاريخ والعلوم السياسية
كلية الآداب – جامعة ذمار
الجمهورية اليمنية

مُلَخّصْ

تُعَدّ الوسائل الإعلامية بمختلف أنواعها، لا سيما الصحافة منها، أوعية مهمة تستوعب الكثير من مفردات المادة التاريخية لحياة أي مجتمع من المجتمعات البشرية. وذلك ليس بكونها تمثل دوما لسان حال مؤسساته، والناطقة باسم جهاته الرسمية وغير الرسمية وحسب، وإنما بوصفها تشكل غالبًا الأداة الأنجع والوسيلة المثلى للتعبير والإفصاح عن مجمل آرائه وتوجهاته، زمانًا ومكانًا، بل والسجل اليومي الذي يحتضن بين طياته العديد من الأحداث والأخبار ويختزن، المادة التاريخية المتنوعة، كما أنها المرآة التي تعكس أهم تفاعلات المجتمع وحراكه، بل الوسيلة التي تصاغ بين طيات صفحاتها مفردات الخطاب العام، وتتجلى نكهة وماهية التأريخ. فالصحافة اليمنية بمختلف أطيافها وكافة تعبيراتها، وعلى مدى تاريخها الطويل، كان لها دور كبير وفاعل في توثيق وصياغة التاريخ اليمني المعاصر، فضلاً عن تشكيله وحفظ وأرشفت الكم الهائل من مادته التاريخية الهامة والمتنوعة. فهذا البحث يتناول بمنهجية علمية إشكالية تعدد قراءات التاريخ اليمني المعاصر من خلال الصحافة، وخطابها المتعدد والمتنوع، معتمدًا منهجية علمية تاريخية تقوم على الاطلاع على نماذج من المصادر الأصلية وتحليلها (صحف رسمية، صحف حزبية، صحف أهلية)، مقتصرًا على صحيفة الإيمان بوصفها نموذج رسمي، وصحيفة صوت اليمن كنموذج حزبي، وفتاة الجزيرة كنموذج أهلي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٣	يناير	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	١٤	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الصحافة اليمنية؛ صوت اليمن؛ صحيفة فتاة الجزيرة؛ الصحافة الأهلية؛ تاريخ اليمن المعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325501 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أمين محمد علي الجبر، "دور الصحافة في توثيق التاريخ وصياغته: دراسة نماذج من الصحافة اليمنية".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ١٤٠ – ١٦٣.

Corresponding author: aljbar7@tu.edu.ye
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

قد يصبح من الضروري على الدولة/ السلطة في العصر الحديث والمعاصر، كعرف تقليدي والتزام رسمي، استخدام وسائل الإعلام بمختلف أنواعها، لا سيما الصحافة منها، وذلك بقصد التعبير عن رؤاها وسياساتها ونشر خططها واستراتيجياتها فضلاً عن تكوين راي عام مساند لها وداعم لسياساتها من خلال التأثير فيه وتوجيهه. إذ تحتاج السلطة، أي سلطة، إلى وسائل اتصال جماهيري تكون بمثابة متاحات ومتنفسات للتنفيس عن مخزونها الإيديولوجي والتعبير عن مكنونها الفكري-النظري، كما أنها في ذات الوقت بحاجة إلى قنوات ووسائل تتبنى خطابها وتعكس رؤاها واتجاهاتها بل وتستوعب مفردات ذلك الخطاب[١]، وهو ما قصده وأشار إليه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته عندما اعتبر وظيفة القلم ضرورية وتالية لوظيفة السيف في بناء القوة وتثبيت السلطة.[٢]

من هنا تُعَدّ الصحافة أنسب الوسائل وأجدى القنوات، في عملية رصد وتوثيق الأحداث التاريخية بوصفها التعبير الظاهري عن مجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة في المجتمع[٣]، كما أنها تمثل تجليًّا ثقافيًا – فكريًا لتفاعل مجموعة اجتماعية متجانسة إذ أن في استطاعتها تلوين الأحداث والإفصاح عن خبايا عمل مجموعة اجتماعية وتفاعلها، بحيث إنها تبدو بحرية اكبر حين تكشف النواحي القبيحة للحياة".[٤] كما نستطيع بواسطة الصحف ومضامينها الدخول إلى الواقع الحي لتفاصيل المشهد التاريخي للزمن الذي نسترجعه، ونتحرك حركة حرة ما بين الوقائع والأحداث بما يسمح لنا أن نرى أسبابها ونتائجها من أكثر من منظور أو زاوية[٥].

وتكمن أهمية البحث وأهدافه في: التعرف على أهمية الإعلام عمومًا والصحافة بشكل خاص في التوثيق والتأريخ. الوقوف عند دور الصحافة اليمنية في عملية الاحتفاظ وخزن المعلومات التاريخية الهامة، والتي تبدت لكأنها أرشيف دائم التراكم متواصل المعلومة، بل متنوع الصياغة متعدد القراءة. التعرف على كيفية صياغة التاريخ في خطاب ولغة الصحافة اليمنية المختلفة. إبراز نشاط ودور بعض نماذج الصحافة اليمنية في هذا الصدد. تسليط الضوء على أهمية الاعتماد على المادة الصحفية كونها تعبر عن جميع التوجهات ومختلف الآراء.

أولاً: تعريف الصحافة وأهميتها في التوثيق وصياغة التاريخ

إن التعريف القاموسي للصحافة قد اقتصر على المعنى اللغوي والمدلول الاصطلاحي وحسب. وكذلك الدور الوظيفي قد تحدد في طبيعة الإنجاز اللحظي الدعائي/ الإعلامي المناط بها تحقيقه والمرسوم لها سلفا، رسميًا وشعبيًا. لكن المهمة/الأهمية الاستراتيجية التي يمكن اعتبارها مؤجلة الى حين، تبعا لشروط وقياسات البحث العلمي التاريخي، تكمن فيما تحتويه وتختزنه تلك الصحف، وتصييره، بفعل التراكم الكيفي والنوعي، ذلك المعطى الاجتماعي/الثقافي الناجز حتى غدى ذلك المشترك الإنساني لمتراكمة من الخبرات والتجارب الحياتية/ الإنسانية يكون في المتناول ويخول كل ذي اختصاص قراءته بحرية.

فالصحافة في اللغة هي: الورقة من الكتاب بوجهيها، والصحيفة وجمعها صحف هي الجريدة، وهي مجموعة من الفرسان، وهي قلة من المال وهي النشرة الدورية التي تحمل الأخبار السياسية والاقتصادية المتنوعة.[٦] وهي أيضًا في الاصطلاح: بمعنى صناعة الصحف والكتابة فيها ومنها أخذت كلمة صحافي.[٧] وتعني الاتصال بكل الحقائق factul materials ، والمراكز situations، والأفكار ideas، والآراء opinions[٨] .

ومع تطور العلاقات الاجتماعية تطور بالتالي مفهوم الصحافة، كما اختلفت تعريفاتها باختلاف الأيدولوجيا التي تتبناها وهي التي ارتبطت بالفلسفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يقوم عليها المجتمع،[٩] فقد عُرفت بأنها "ظاهرة تنتمي إلى الثقافة المعاصرة وإلى نمط أيديولوجي واضح ومحدد، حيث تُعَدّ جزءًا من الصراع الذي يحتدم في المجتمع فهي بالتالي تعبر عن مصالح جماعات سياسية ليبرالية أو تقدمية. وهي كذلك منبر للآراء السياسية لهذه الطبقة أو تلك"[١٠].

وعرفت – أيضًا - بأنها " كل نشرة مطبوعة تشتمل على أخبار ومعارف عامة، وتتضمن سير الحوادث والشواهد والانتقادات التي تعبر عن مشاعر الرأي العام، وتعرض على الجمهور عن طريق البيع الإفرادي

والاشتراك السنوي"[١١]. وأيًا كانت التعاريف المتنوعة والمختلفة للصحافة إلا أنها تعطينا، بشكل أو بأخر، قراءات متعددة ومتنوعة للتاريخ وهو ما سوف نجده ماثلا في الصحافة اليمنية بكل أنواعها.

لان الصحافة متنوعة مهنيا ومتعددة وظيفيا بالتالي فإن أهميتها ودورها في توثيق وصياغة التاريخ ستكون تبعا لطبيعة الوظيفة والدور المناط بها تحقيقه. فإن كانت رسمية فإنها، بالضرورة، سوف تقدم قراءة رسمية للتاريخ كونها صدى للخطاب الرسمي المعبرة عنه، وان كانت حزبية فسوف تقدم قراءة حزبية للتاريخ، وإذا كانت أهلية فإنها سوف تقدم قراءة للتاريخ من منظورها الخاص وهلم جراء. وقد قسمت، إجمالاً، إلى صحافة ذات ميول ليبرالية، وصحافة ذات ميول سلطوية[١٢]، الأولى تعتبر الصحافة أداة للتعبير عن حرية الفرد من خلال حقه في ممارسة حرياته السياسية والمدنية[١٣]، وفي مقدمتها حقه في التعبير عن أفكاره وآرائه وهو الأمر الذي يلخصه مبدأ "حرية الصحافة[١٤]. والثانية تعتبرها نشاط اجتماعي يقوم على نشر المعلومات التي تهم الرأي العام، والمصالح المشتركة، وأنها ظاهرة ملتزمة وإنسانية عامة تخدم باستمرار أهداف عامة شمولية[١٥].

وهو ما كانت عليه الصحافة اليمنية، بكافة أشكالها وتعبيراتها، حيث تعددت وتنوعت في عملية توثيق وصياغة التاريخ، بناء على طبيعة الدور والوظيفة التي أدتها ومارستها في الواقع العملي، وتكمن أهميتها ودورها في أن الصحافة الرسمية (الموالية) قد صاغت وقدمت تاريخ رسمي يعبر عن وجهة نظر رسمية منحازة بالضرورة، والصحافة الحزبية (المعارضة) صاغت وقدمت أيضًا تاريخ حزبي من وجهة نظر معارضة، وكذلك الصحافة الأهلية (المتنوعة) قدمت تاريخ متنوع القراءة، تبعا لتوجه وطبيعة الصحيفة نفسها.

وانطلاقًا من ذلك فإننا نعتبر كل نسخ الصحافة اليمنية المحفوظة، سواء في الأرشيفات والمراكز الحكومية أو غيرها تشكل مادة علمية/ تاريخية مهمة لا غنى للباحث عنها. وإن الأسطر القادمة سوف تتناول دور وأهمية الصحافة اليمنية في توثيق وصياغة التاريخ من خلال الإجابة الموضوعية على السؤال الإشكالي: كيف أرخت وصاغت الصحافة اليمنية بكافة أنواعها وتعبيراتها تاريخ اليمن المعاصر؟ وكيف احتضنت صفحاتها العديد من المادة التاريخية الحافلة بالعديد من الأحداث والمعلومات من مختلف الآراء والتوجهات؟ وهو ما يقود من ثم الى طرح سؤال إشكالي مفاده: هل الصحافة في حد ذاتها تُعَدّ مصدرًا من مصادر التأريخ؟ وما أهميتها ودورها في التوثيق واستقاء المعلومة، بل وصياغة التاريخ نفسه؟

ثانيًا: الصحافة اليمنية الرسمية (الموالية) الإيمان أنموذجًا

شهدت اليمن طوال تاريخها المعاصر إصدار العديد من الصحف الرسمية التي عبرت عن الجانب الحكومي واحتضنت خطاب السلطة في كل مراحلها وأشكالها، كما وثقت العديد من الأحداث والأخبار الرسمية، وقدمت تاريخا رسميا يمثل وجهة نظر رسمية، بدأ من السلطة التركية في صنعاء، مرورا بسلطة الاحتلال البريطاني في عدن، وانتهاء بسلطة الإمامة في شمال الوطن، وحتى أيضًا سلطتي النظامين الرسميين في شمال وجنوب الوطن، وحكومة الوحدة (الجمهورية اليمنية).

فالإدارة العثمانية في ولاية اليمن أصدرت صحيفة رسمية أسمتها صنعاء وكان لهذه الصحيفة دور كبير في نقل وتوثيق أخبار الدولة العثمانية الرسمية في اليمن واحتفظت، بشكل أو بآخر، العديد من معلومات وأخبار ووقائع تلك المرحلة التي صدرت فيها من وجهة نظر رسمية، وكانت الإدارة العثمانية قد أصدرت قبلها صحيفة يمن من الحديدة على شكل نشرة إخبارية تسجل أخبار المعارك التي خاضتها القوات العثمانية في اليمن.

إن ما تحويه وتتضمنه صفحات صحيفة صنعاء من مادة علمية تاريخية يمكن أن تغطي معظم أحداث ووقائع تلك الفترة من زاوية رسمية، توثيقا وصياغة، وتعكس أيضًا طبيعة وتوجه الإدارة العثمانية في اليمن حينذاك. بالتالي فإنها وما تحويه صارت مصدر من مصادر التاريخ العثماني الرسمي في اليمن آنذاك، حيث وثقت بطريقة أو بأخرى مجمل النشاطات العثمانية الرسمية وقتذاك، وصاغت التاريخ من تلك الزاوية، بالتالي لا يمكن الغنى عن هذه الصحيفة أو تجاهلها في عملية التأريخ لتلك الفترة. والأرشيف العثماني الخاص بولاية اليمن وكذلك المركز الوطني للوثائق يعجا بالعديد من أعداد الصحيفة

المتضمنة والمحتفظة بالجم من التفاصيل والمفردات التاريخية عن ذات الفترة والتي يمكن الرجوع إليها في أي وقت. تلك المادة الغزيرة التي يمكن الاستفادة منها في تغطية أخبار الدولة العثمانية أو سد بعض فجوات التاريخ العثماني عمومًا.

وكذلك الحال بالنسبة لسلطة الاستعمار البريطاني في عدن فهي الأخرى أصدرت العديد من الصحف في مستعمرة عدن لذات الأغراض والتي وثقت للجانب الرسمي منه، وسجلت معظم أخبار الاحتلال من وجهة نظر رسمية/ استعمارية، كما صاغت التاريخ وفق رؤية تتناغم وخطابه وتوجهاته. ومن نماذج تلك الصحف الجريدة الرسمية والقلم العدني.. الخ، وغيرها من الصحف ذات الطابع الرسمي التي تدور في فلك السلطة الاستعمارية أخبارا وتغطية وتوجه. والتي وثقت وصاغت التاريخ اليمني المعاصر، زمن الاستعمار، من وجهة نظر حكومة الاستعمار البريطاني، وحوت صفحاتها الجم الغفير من المادة التاريخية المحسوبة على الاستعمار، والتي تشكل مادة علمية غزيرة.

في حين أدركت السلطة الإمامية، في شمال الوطن منذ وقت مبكر، أهمية الصحافة ودورها في صناعة الرأي العام والتأثير فيه، قبل أن يُسمح بإصدارها رسميًا داخل البلاد، إذ اعتمد الإمام يحيى في مصادره الإخبارية على الصحف العربية، لاسيما المصرية والسورية والعراقية، حيث نشر أولى بياناته السياسية فيها، وعبر عن بعض رؤاه ومواقفه تجاه بعض القضايا من خلالها [١٦]، الأمر الذي أوجد لديه نوعًا من القناعة حول جدوى الصحافة، جعلته يسمح بإصدار صحيفة رسمية ناطقة باسم نظامه ومعبرة عن سلطته، هي صحيفة الإيمان ، وكذلك الإمام احمد اصدر صحيفة رسمية اطلق عليها اسم صحيفة النصر. وكلا الصحيفتين الرسميتين (الإيمان، والنصر) أدتا نفس الدور وذات الوظيفة، كونهما عبرتا عن لسان حال سلطة رسمية واحدة هي الإمامة، في عهد الإمام يحيى، وولده احمد، وعكستا قراءة متقاربة، إن لم تك متطابقة، لتاريخ اليمن المعاصر زمن الإمامة الواحدة.

أما النظامين الجمهوريين في شمال وجنوب الوطن فقد أصدرا بعد نجاح ثورتي سبتمبر وأكتوبر صحيفتين رسميتين هما صحيفة الثورة، وصحيفة ١٤ أكتوبر ظلتا بمثابة الوعاء الكبير الذي استوعب جل مفردات الخطاب السياسي الرسمي لكلا النظامي، واللتان، حتما، قد اختزنتا الشيء الوفير من التاريخ الرسمي للفترة تلك، والتي نرى، منهجيا، ضرورة تفردها ببحث مستقل بذاته، ليس مجال ذكرها هنا. وكذلك الأمر بالنسبة لنظام الوحدة اليمنية الذي أبقي على الصحيفتين ناطقتين رسميتين له، بالإضافة الى وجود بعض الصحف الرسمية الأخرى مثل صحيفة ٢٦ سبتمبر العسكرية، وغيرها من الصحف ذات الطابع الرسمي أو القريبة منه، لولا أن هذا البحث سوف يكتفي بتناول ثلاث نماذج من الصحافة اليمنية، رسمية وحزبية وأهلية، نتعرف من خلاها كيف وثقت التاريخ وصاغته وحسب.

فالصحافة الرسمية الإمامية، ممثلة بصحيفتي الإيمان والنصر، انطلقت في توثيقها للتاريخ وصياغته من خلفية تمثل وجهة النظر الإمامية الرسمية، فقد أمر الإمام يحيى بإصدار صحيفة الإيمان عام ١٩٢٦م لتكون أول صحيفة رسمية في عهد الإمامة، ولسان حال حكومته، والمعبرة عن سياسته وتوجهاته[١٧]. وبما أنها صحيفة رسمية فإنها، بالضرورة الرسمية ومن أول أعدادها، قد وثقت لكل ما هو رسمي إمامي، وصاغت التاريخ، في زمنها، وفق الفلسفة الإمامية والقراءة الرسمية لها.

هذه الصحيفة التي صدرت في ظروف سياسية كل ما فيها كان رسمي/ إمامي، وكانت الوسيلة الإعلامية الرسمية المعبرة عنه والناطقة باسمه[١٨]، تعددت القراءة حولها وتباينت الطروحات إزاء دورها ووظيفتها. فعلى الرغم من أنها قد قدمت نفسها على إنها مشروع إعلامي/ ثقافي - أيًا كان مستواه - يحمل رسالة تنويرية وعظيه ويدفع باتجاه تعزيز الرابطة الدينية[١٩]، إلا أن ثمة جدل وتباين حولها تمحور بين التناغم والاستهجان والحياد، فهناك من رأى أن صدورها أتى من أجل دعم تماسك الجبهة الداخلية وإثارة الحماس الوطني لتحقيق وحدة الأرض اليمنية ولمواجهة الحملات الإعلامية التي يقوم بها الاستعمار لتمزيق الوحدة الوطنية عن طريق إثارة النعرات الطائفية بين الزيود والشوافع، والنعرات العنصرية بين القحطانيين والعدنانيين[٢٠]. في حين رأى أخر أنها مجرد وسيلة من وسائل الدعاية الإعلامية الإمامية التي سعت الى توطيد السلطة المركزية للإمام

يحيى وعائلته[٢١]، وما خطابها ومادتها الصحفية إلا تجلي إعلامي للتاريخ الرسمي الإمامي، وصدى صحفي لقرارات الإمام وتحركاته [٢٢]، فضلاً عن إنها صحيفة قصرية لا توثق إلا للجانب الرسمي أو ما يروقه ويتوافق مع سياسته وتوجهاته[٢٣].

وأيًا كانت تلك القراءات فإن صحيفة الإيمان، وما تحويه، مثلت نموذجًا تقليديًا/ ملتزمًا للصحافة الرسمية التي ينبغي عليها أن تكون، حيث أدت وظيفة مرسومة سلفًا وحملت رسالة إعلامية موجهة، أيًا كان مستواها، كانت لها سياستها الخاصة، وشروطها وظروفها الزمانية والمكانية التي صاغتها وتشكلت وفقًا لمعطياتها والتي لا ينبغي قراءتها بمنأىً عن سياقاتها[٢٤]. تبدت، في توثيقها للتاريخ وصياغته، بمثابة الوعاء الذي استوعب جلّ مفردات الخطاب السياسي الرسمي للسلطة، وصوتًا إعلاميًا صاغ تاريخ اليمن المعاصر وفق منطق الفكر السياسي الزيدي (الهادوي)، الذي تبنته الإمامة كنظرية ومنهج للحكم، وإن غايرته الصحيفة في كثير من جوانبه كتبرير ولاية العهد وتوريث السلطة وغيرها[٢٥].

إن المتصفح لإعداد الصحف الإمامية الرسمية (الإيمان، النصر) في كل مراحلها يجد أنها قد حفلت بالعديد من المقالات والأخبار ذات النفس الرسمي الإمامي، وحوت مادة علمية/ تاريخية غزيرة تبين الطريقة التي صاغت بها تاريخ تلك الفترة، وكيفية قراءاتها له ولأحداثه. حيث تركزت بشكل أساسي في محاور رئيسية هي: الأخبار الرسمية للسلطة الإمامية، والترويج للفكر السياسي الإمامي، والادلجة المذهبية، وتضمنت رؤيتها للوحدة الوطنية اليمنية، والوحدة القومية العربية، والرابطة الدينية للجامعة الإسلامية، كما احتفظت في طي صفحاتها مواضيع جدلها السياسي/الثقافي مع الأخر المذهبي والسياسي، ناهيك عن بعض تناولاتها فيما يخص السلطة والحكم.

فعلى صعيد الفكر نجد أنها قد تعاطت معه بنمطية حدية تمثل اتجاه فكري واحد، حيث حملت رسالة إعلامية ذات مضمون إيديولوجي، وبعد سياسي/ مذهبي يحمل طابع الخطاب الإمامي الرسمي وسماته، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد العدد الأول من صحيفة الإيمان الصادر في جمادي الأول سنة ١٣٤٥هـ أكتوبر سنة١٩٢٦م، قد حفلت مواضيعه بالترويج لثقافة من شأنها تكريس مصطلحات ومفردات (الأحقية...التميٌز...ظل الله ...الولاية...الاصطفاء...الخ)، ومحاولة تصييرها ثقافة رائجة سياسيًا ومستساغة إيديولوجيًا لدى الراي العام الشعبوي والنخبوي على حد سواء، كما وظفت الصحيفة في سبيل تحقيق ذلك النص الديني والمثيولوجيا والشعر وكل ما من شأنه خدمة سياستها، وتحقيق أهدافها[٢٦]، وكذلك الأمر مع صحيفة النصر نجد أنها في المجال الفكري قد تعاطت معه، أيضًا، طوال مراحل صدورها بنفس الخلفية والأسلوب الذي اتبعته صحيفة الإيمان[٢٧].

أما تناولات الصحافة الرسمية الإمامية لقضية وحدة اليمن الطبيعية، والتي وثقت مواضيعها العديد من إعدادها، فقد عكست، بطريقة أو بأخرى، رؤية ومفهوم الإمامة الرسمية وحسب، إذ نجد ثمة تمازج وخلط بين مفهومي الوطنية والقومية في مفهوم اختزالي واحد هو الرابطة الدينية، بحسبانها الدين أساس الهوية وأصل الانتماء، وهو ما فطر عليه اليمنيون في تدينهم وقوميتهم. طرحت ذلك في العديد من المقالات[٢٨]. ولعل المقالة المنشورة في صحيفة الإيمان بعنوان "بحث في الوحدة اليمنية"، تُعَدّ نموذجًا بارزًا يوضح مفهوم الصحافة الرسمية للوحدة الوطنية عموما والوحدة اليمنية بشكل خاص، إذ رأت أن وحدة الدين والعقيدة مقدمة على رابطة الجنس واللغة والوطن، وان الوحدة اليمنية يجب أن تكون على أساس الدين أولا ثم الوطن والجنس واللغة[٢٩]. كما أننا نلاحظ من خلال بعض المقالات الفكرية أن الصحافة الرسمية قد تعاملت مع المذهبية بشيء من الحذر ربما نوع من الدبلوماسية إن جاز التعبير، ففي الوقت الذي اعتبرت الاختلاف المذهبي أمر طبيعي ومشروع، دينا وخلقا، استهجنت المعارضة/السياسية (الضدية)، واعتبرتها عملاً عدائيًا[٣٠].

كما نجد أنها قد تعاملت مع القضية الجنوبية بمسؤولية وطنية، ولم تتوانى في المطالبة بالاستقلال وتوحيد الوطن، كون اليمن جزء واحد غير قابل للتجزؤ، ولم تعترف بأي حق أو مشروع يفرضه الاستعمار البريطاني[٣١]، وكانت كل الصحف الرسمية تسمي المناطق الجنوبية النواحي تأكيدًا على يمنيتها، وليس المحميات تماشيًا مع السياسة الاستعمارية البريطانية[٣٢]، وهو ما

يؤكد وحدويتها، ويوضح في الوقت نفسه أنها قد صاغت التاريخ في هذا الجانب وفق هذا الأفق.

وفيما يتعلق بالقضايا القومية والإسلامية فان الصحافة الإمامية الرسمية قد وثقت وتعاطت معها من منطلق الموقف الرسمي للإمامة نفسها، والمبني على أساس المفهوم الذي قوامه الديني قبل القومي؛ إذ دعت في الكثير من إعدادها إلى الوحدة العربية والإسلامية التي قوامها الدين قبل أي شيء آخر[٣٣]، وقالت في خضم تناولاتها: أن الوحدة العربية/ القومية لا تتحقق إلا إذا تحققت الوحدة الإسلامية أولاً[٣٤] على الرغم من أنها ناقضت خطابها هذا في ظروف سياسية مختلفة، حيث دعت الى إقامة تكتل سياسي على أسس غير دينية بين مختلف دول الشرق يسمى "اتحاد الشرق"[٣٥].

أما بشان مفهوم السلطة والحكم فقد تركزت وظيفة الصحف الرسمية/ الإمامية، في الدور الدعائي/الترويجي للحاكم وحاشيته من أسرته وتقديمه بمثابة الحاكم القدوة/ الضرورة الذي يجب اتباعه وعدم مخالفته دينًا وشرعًا، مبررة ذلك بمسوغات دينية ووطنية، موظفة النص الديني المأول والشعر والموثيولوجيا وكل ما من شانه يصب ويخدم مسالة احتكار السلطة وتابيدها، جاعله من تأييد اليمنيين واعتيادهم لحكم الأئمة نوع من التلازم العضوي والترابط العقدي بين الشعب اليمني المؤمن وحكامه المصطفيين[٣٦].

واعتبرت مَنْ يخالف هذه الرؤية عميلا ومتأمرًا ضد الدين وضد آل البيت[٣٧] .

وهو الأساس الفكري والنظري الذي انطلقت منه جميع الصحف الإمامية الرسمية في جدلها الطويل مع حركة المعارضة اليمنية وصحفها الحزبية[٣٨].

كما كانت هذه الصحف تهتم بالمناسبات الدينية والذكريات التاريخية التي تخدم السلطة الإمامية، فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت تقدم ذكرى يوم الغدير على انه يمثل "رمز الخلافة الهاشمية، ومصدر سلسلة الإمامة العلوية الفاطمية"[٣٩]، وكذلك الأمر مع بقية المناسبات ومعظم الاحتفالات التي تؤكد في خطابها الإعلامي مسالة ولائها للهاشميين وتدعو الشعب الى تعزيز ذلك[٤٠].

وعلى أية حال يمكن القول في نهاية الحديث عن الصحف الرسمية في اليمن، وكيفية توثيقا التاريخ وصياغته، أنها كانت عبارة عن صدىً إعلامي للسلطة الإمامية الرسمية وحسب. وكانت سجلاً متنوعًا احتضن تراث الإمامة، واستوعب جل مفردات خطابها، كما كانت سفرًا حافلاً بالمواضيع والأحداث التي أرخت لليمن المعاصر.

ثالثًا: الصحافة اليمنية الحزبية (المعارضة) صوت اليمن أنموذجًا

لعبت الصحافة اليمنية المعارضة دورا كبيرا في تشكيل وتوثيق أحداث ووقائع التاريخ اليمني المعاصر حيث عبرت عن اتجاه سياسي كان معارضا في رؤيته للسلطات الحاكمة، بالتالي احتفظت في طيات صفحاتها العديد من المقالات والأخبار ذات التوجه المعارض المعبر عن وجهة نظر أخرى مغايرة ومختلفة عن التوجه الرسمي يمكن لنا أن نسميها الوجه الأخر للحقيقة الموضوعية التاريخية. فالمعارضة اليمنية بكل تعبيراتها مثلها مثل السلطة الرسمية قد استخدمت الصحافة لذات الأغراض والأهداف كونها كانت تمثل لسان حالها والناطقة باسمها، بل والمعبرة عن توجهاتها وأهدافها. لذا فإنها – أي الصحافة – قد استوعبت جل مفردات خطاب المعارضة بكل مستوياته وتعبيراته وسجلت أحداث ووقائع وفق رؤية وتوجه المعارضة نستطيع القول إنها مثلت القراءة الأخرى لتلك الأحداث ليس إلا.

ومن نماذج الصحف التي استخدمتها حركة المعارضة اليمنية، التي وثقت لأدبياتها ومواقفها وكتبت التاريخ بطريقتها ووفق رؤيتها، صحيفة صوت اليمن الصادرة في عدن عام ١٩٤٦م باسم الجمعية اليمانية الكبرى التي تراسها كل من القاضي محمد محمود الزبيري والأستاذ احمد محمد نعمان، والتي ظلت طوال فترة صدورها ناطقة ومعبرة عن صوت المعارضة اليمنية ضد الإمام يحيى ومن بعده ابنه الإمام احمد. ومن خلال الاطلاع على إعداد صحيفة صوت اليمن نجد أنها أولت الاهتمام بنقد النظام الإمامي، تركز في بداية الأمر بالمطالبة بالإصلاح السياسي والدعوة الى تبني نظام الملكية الدستورية، كما تطور خطابها الإعلامي/ السياسي شيئًا فشيئًا تبعًا لخط ونهج حركة المعارضة نفسها إلى أن تم إغلاقها من قبل سلطات الاستعمار البريطاني في عدن إثر فشل حركة

١٩٤٨م في شمال الوطن، لتعاود الإصدار مرة ثانية من القاهرة وبنفس الزخم الثوري المعارض للإمامة.

ولقد تبنت فكر وتوجه المعارضة اليمنية، وصاغت التاريخ وفق وجهة نظرها، وحملت الجم الغفير من الأخبار والوقائع التي حدثت طوال تاريخ اليمن المعاصر، لتتبدى من ثم سفر حافل بالكثير من المادة التاريخية وسجل غزير المعلومة وثق لتلك الفترة من وجهة نظر معارضة.

أما صحيفة السلام الصادرة في كارديف ببريطانيا عام والتي أصدرها الأستاذ عبد الله الحكيمي فهي الأخرى مثلت صوتا أخر للمعارضة اليمنية، صاغت التاريخ بنكهة مختلفة تنزع نحو النفس الصوفي الثوري، كما مثلت وعاء أخر استوعب مفردات خطاب سياسي لقراءة مغايرة، لذا فنحن نعدها مصدرا مهما من مصادر تاريخ اليمن المعاصر لا غنى عنه في توضيح وجهة نظر معينة. كان لها دور فاعل في صياغة وتشكيل ملامح تلك الفترة. وكذلك الأمر بالنسبة لصحيفة الفضول ثالثة الصحف اليمنية المعارضة الصادرة من عدن عام ١٩٤٩م برئاسة الشاعر عبد الله عبد الوهاب نعمان (الفضول)، والتي صاغت التاريخ بنكهة تميل نحو الفكاهة والسخرية، مثلت التعبير التهكمي والوجه الأخر لصوت المعارضة بعد هزيمتها في ٤٨، كما حفلت مواضيعها بالعديد من الأحداث والقضايا التي وثقتها الصحيفة، وشكل خطابها الهزلي ومفرداتها الفكاهية نوع من الصياغة الساخرة والمعارضة للتاريخ.[٤١]

تبنت صحف المعارضة اليمنية نهجا سياسيا معارضا لسياسة الإمامة، كما تمرحلت في خطابها وتوثيقها للتاريخ وفقا لتمرحل المعارضة نفسها. وقد تركزت اهتماماتها في الأمور التي تهم المعارضة وقدمت التاريخ أو بمعنى اصح صاغته من وجهة نظر المعارضة[٤٢]. حيث جعلت رسالتها موجهه منذ البداية نحو تثوير الشعب ضد الإمامة [٤٣]، وضد ما وصفته بالمناطقية والمذهبية[٤٤].

"إن الخطاب السياسي الذي حوته كل من صحف السلطة والمعارضة يبدي – إلى حد كبير– مدى تقارب الطرفين في مفهومهما للدولة ووظيفتها، كما يظهر واحدية الثقافة السياسية التي كانت تجمعهما وواحدية الانتماء، والتي مبعثها – في اعتقادنا – واحدية المرجعية وتماثل الخلفيات، المتشكلة ضمن الإطار الإسلامي الجامع، وان كانت ثمة فروقات ليست بالجوهرية، تشكلت ضمن الأطر المذهبية المتباينة عبرت عنها تلك الصحافة بنحو أو بآخر"[٤٥].

كما نجد أن الصحف الحزبية (المعارضة) استخدمت نفس الصيغ التعبيرية في خطابها السياسي وذات المفردات في صياغة التاريخ –طبعا-مع الاختلاف في وجهات النظر تجاه القضايا[٤٦]، على الرغم من استهجانها لخطاب الإمامة الرسمي.

والمتصفح لصحف المعارضة يلحظ أن مطالبها الإصلاحية تركزت حول إصلاح النظام السياسي الإمامي والمتمثل في النقاط الأتية:

١- تأسيس مجلس شورى للدولة يتكون من العلماء والأعيان والمشايخ وأصحاب الرأي

٢- تشكيل وزارة من الأكفاء لها منهج إصلاحي شامل وسياسة مرسومة.

٣- احتفاظ سيوف الإسلام بمكانتهم كأمراء وابتعادهم عن تولي المناصب في الدولة.

٤- إصدار مرسوم ملكي بشأن تأسيس الوزارة المسئولة، وتشكيل مجلس الشورى.

٥- الموافقة على تشكيل لجنة مراقبة من الوطنيين يكون مقرها عدن أو القاهرة[٤٧].

وان تغيرت هذه المطالب بعض الشيء مستقبلاً، وتطورت تبعًا لمواقف المعارضة من مستجدات الأحداث[٤٨]. فعلى سبيل المثال لا الحصر طرح موضوع ولاية العهد ومناقشته شرعيا والذي قالت إن الإمامة لا تجيزه أساسًا، متسائلة كيف يجيزه الإمام يحيى لنفسه ولابنه، محاولة استغلال هذا الموضوع وأثارته للرأي العام، ومطالبة الإمام يحيى تشكيل مجلس شورى ومجلس وزراء من مختلف نخب وشرائح المجتمع اليمني، كي تستقر البلاد، ومماثلة بالبلدان العربية[٤٩]. كما أيدت ما ورد في صحيفتي (الصداقة) و(فتاة الجزيرة) في هذا الموضوع المتعلق بولاية العهد في اليمن، والذي نقدته واعتبرته مخالف لشروط الإمامة[٥٠]، وهو نوع من النقد والمعارضة الرامية الى إثارة التنافس بين الأمراء من جهة وكشف مخالفة الإمامة أمام الجمهور من جهة ثانية.

يمكن لنا القول: إن صحف المعارضة قد تميزت بغلبة الطابع والنفس ذي النزوع السني على مقالاتها، لذا تبدت في صياغاتها حافلة بصيغ وتعابير تنتمي قاموسيًا إلى مصطلحات الفكر السياسي السني، على عكس الصحف الرسمية والموالية للإمامة التي حفل قاموسها بصيغ ومصطلحات تقول بأفضلية آل البيت وأحقيتهم في السلطة والحكم، وتلك التباينات التي تعود – كما نعتقد - بجذورها إلى تباين المرجعيات والخلفيات.[٥١]

ومن أمثلة تلك المفردات والصيغ التعبيرية التي لا تكاد تخلو منها أي مقالة نشرتها الصحف المعارضة، تطرقت فيها ضمنًا أو صراحةً لشؤون السلطة والحكم في اليمن: "وأمرهم شورى بينهم" و "وشاورهم في الأمر" و "وليت عليكم ولست بخيركم فإذا زغت فقوموني" و "أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم" وغيرها من المفردات والصيغ المستنبطة من قاموس فقه التراث السياسي السني، الذي يؤكد بشرية الخليفة وعدم عصمته، وضرورة إشراك الأمة في الأمر الذي هو شأن بشري لا أحقية فيه[٥٢] ////، فضلاً عن أن الصحف الحزبية قد أشارت صراحةً إلى مشروع دولة ذات ملمح علماني يغاير رؤية الوصية والحق الإلهي، ويعالج إشكالية الدولة خارج إطار النص المراد تطويعه – اعتباطًا – لمصلحة أحد طرفي الصراع، فبعد أن أقرَّت نظرية ابن خلدون في العصبية القبلية وبناء الدولة، وأطوارها الثلاثة (قوة، ضعف، انحلال)، عرّفت الدولة: بأنها ذلك الكائن الاجتماعي الذي يصنعه العقل الاجتماعي وليس النص الديني، كما أخذت تفند العلل التي تعجل تآكل الدول وتحتم تشظيها ومن ثم سقوطها (= حالة المملكة المتوكلية اليمانية نموذجًا)، والتي من أبرزها تحول عوامل بناء الدولة إلى عوامل هدم في نهاية عهدها، فالشعب الذي قامت على حبه وولائه يصبح عدوًا يتربص بها الدوائر، والمال الذي طوَّع الكثير من الرجال لصالحها يتحول إلى موضوع إغراء وأطماع. وكذلك "المبادئ التي انتصرت باسمها الدولة وبنت عليها قواعد العرش، كثيرًا ما تكون هي التي تهزم الدولة وتأتي عليها من القواعد "وان رجال الدولة والنخبة الحاكمة يتحولون إلى منتجي أعداء ومثيري أزمات لا يستطيعون البقاء إلا في ظلها، وعندما تصل الدولة إلى هذه المرحلة، مرحلة التشبع، تبشر بدنو النهاية التي يعقبها الفناء، وتنصح الإمامة بإلغاء نظامها القائم وإتباع النموذج الدستوري والبرلماني، لتفادي خطر السقوط المحتم[٥٣]

وفي خضم الجدل الإيديولوجي الذي خاضته الصحف الحزبية مع الصحف الرسمية ردت صحيفة صوت اليمن على صحيفة الإيمان فيما أسمته بادعاءات الإمامة بالحكم بالشريعة الإسلامية حيث أثارت تساؤلات فحواها أي شريعة إسلامية تقصد صحيفة الإيمان: "...لأننا نقرأ القرآن الذي انزل على محمد (ﷺ) فنجد فيه هذه الآية الكريمة (وشاورهم في الأمر) ونقرأ فيه (وأمرهم شورى بينهم) ونطلع على مبدأ الشورى حتى عند فرعون (فماذا تأمرون، قالوا أرجه وأخاه)، وعند بلقيس عابدة الشمس (أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون) "، وهو ما لم تجده صوت اليمن محققاُ في اليمن، باستثناء مقولة السيف أحمد التقليدية: "أطيعوا أمري ولو كان اعوج مثل رجل الكلب"، وإمعانًا في الاستهجان وتكذيب الإيمان قالت: "متى كان في دين محمد بن عبدالله تأليف جيش مسلح لاحتلال بيوت الضعفاء واستباحة حرماتهم باسم الخطاط ؟ متى سار سلفكم الصالح سيرة الحاكمين بأمرهم في اليمن سجنوا الأطفال باسم الرهائن... هل في شريعة محمد بن عبد الله وأخلاق العرب وسيرة السلف الصالح أن يشقى شعب بأسره ليسعد بضعت أفراد وان تنزل العقوبات بالناس بدون محاكمات"[٥٤]، على اعتبار أن الإمامة كانت تدعي تمثيل الشريعة الإسلامية والسلف الصالح، الأمر الذي حاولت معه تغليف ذلك الجدل بالصراع المذهبي، وهو ما استبعدته صوت اليمن حيث قالت على لسان الزبيري: "قال جلالة الإمام لملأ من جلسائه: يجب علينا أن نلقن الشباب كتب الأئمة الزيدية القديمة لينشؤوا على طاعتنا وحبنا وتقديسنا.. فلو أن هذا الزبيري الخبيث قرأ شيئًا من هذه الكتب لما أقدم على التمرد والعصيان..." وردت في هذه المقالة على كلام الإمام أن الزبيري لم يجهل كتب الزيدية القديمة بل انه قرأ النافع منها وعمل به، وذكرته بالأصول الخمسة للزيدية[٥٥]، وانه عمل فقط بمبدأ الخروج على الظلمة، احد أهم مبادئ الزيدية، والذي عمل به معظم أئمة آل البيت الذين يعتبرون قدوة الأحرار في العالم كله[٥٦]. ومن صور حسن النية التي أبدتها صوت اليمن تجاه (آل البيت)،

دفاعها عن الإمام الهادي يحي بن الحسين (تـ ٩١٠م)، المتمثل في ردها على "فتاة الجزيرة" التي قالت: "نحن نعلم أن الإمام الهادي لم يكن خيرًا من الإمام يحي" وان الأئمة لم يكونوا جميعًا عادلين، ردت عليها برفض التعميم، وقالت إنما تعارض أدعياء آل البيت، الذين يظلمون الناس باسمهم وباسم الإسلام، واستشهدت على ذلك بقصيدة ابن الأمير الرائية التي مطلعها: "سماعًا عباد الله أهل البصائر..." التي ترفض استبداد الأئمة وظلمهم. لذلك استثنت الإمام الهادي من تلك المظالم ووصفته بالعادل الزاهد الذي يجعله في مصاف (عمر بن عبد العزيز) والخلفاء الراشدين، واستدلت بمقولته المشهورة: "إن هي إلا سيرة عليّ وإلا فالنار" كما دلت على عدالة حكمه بمبدئه الذي قرره في كتابه (الأحكام) قوله في باب الحدود: "وممن حده القتل الإمام الجائر.." وقارنت بين قوله: "إذا جرت فاقتلوني"، وقول أبي بكر رضي الله عنه: "إذا زغت فقوموني"، وشتان بين تقويم الحاكم إذا زاغ واستبد وبين قتله لنفس السبب، وفي نهاية المقالة قارنت بين قول الهادي وواقع الإمامة في اليمن المتوكلية، "فهذا هو الإمام الهادي يا أستاذ لقمان فنرجو أن لا تكون فضائح الظلمة السفاحين حكمًا عامًا يشوه سمعة آل البيت جميعًا.. أما الطغاة الظالمون الذين يتخذون من شرف أنسابهم وسيلة للإجرام والطغيان فلا نصيب لهم من الشرف النبوي"[٥٧].

وفي ذات السياق انتقدت صوت اليمن الدور الإيديولوجي الذي كانت تمارسه إذاعة صنعاء، التي قالت إن مهمتها اقتصرت على ترديد "غادر العاصمة" و "قدم العاصمة"، تقصد الإمام وحاشيته، وعلى أدلجة الناس بوجوب محبة (آل البيت). وتساءلت من هم آل البيت؟ هل هم من جسد أخلاق الرسول (ﷺ)؟ فليس هناك إشكال حولهم فجميع المسلمين مجمعون على محبتهم من دون تعبئة. أما إذا كانت الإذاعة تقصد بهم السيوف الوزراء الذين عاثوا في الأرض الفساد وظلموا الأمة باسم الإسلام، فلتبحث إذاعة صنعاء عن عالم آخر لتسويق بضاعتها وتمارس فيه تلك الأدلجة[٥٨]. ويلاحظ هنا أن صوت اليمن وظفت – بطريقة أو بأخرى – نصوص الفقه السياسي السني في رفض واستهجان مسألة احتكار السلطة وادعاء أحقيتها، في حين وظفت بالمقابل الجانب التحرري من الفقه السياسي الهادوي والمتمثل في مبدأ الخروج على الإمام الظالم في موضوع خروجها على الإمام. وان كان مبدأ الخروج هذا لا يقتصر إلا على سلالة معينة من دون عامة الناس.

فمن دعواتها الإصلاحية غير السياسية محاولة نقد وتصحيح بعض المفاهيم السطحية المتعلقة بحفلات المولد النبوي التقليدية التي كان يحييها اليمنيون تبعًا للعادة المألوفة، والتي صيرّوها بالتقادم إلى مجرد مظاهر شكلية خالية من الروح والمعنى، والى روتين ممل لا جديد فيه. فعلى الرغم من أهميتها للتهذيب والإصلاح، لكن لا قيمة لها إذا لم تدخل دائرة الفعل المنجز والوعي المدرك، وقالت لو أن روح الرسول (ﷺ) اطلعت على تلك الاحتفالات التقليدية لساءها ما وصلت إليه الأمة من سلبية وجمود، ولتساءلت مستغربة عن مصير "النبع الإلهي" الذي تركه الرسول بين ظهراني المسلمين، ذلك النبع الذي عولم القيم والأخلاق القرآنية، وأنسن السياسة والثقافة الإسلامية، حتى غدا المسلمون بمقتضاه سادة العالم وأصحاب رسالة خالدة. أما عندما افتقدوه وغادر حياتهم صاروا خارج نطاق الفعل الإنساني يقبعون أذلاء خارج نطاق التاريخ.

ولكي تتحقق النهضة وينجز الإصلاح، حثت الصحف الحزبية على ضرورة فهم روح الإسلام الصحيح، واشترطت لذلك صحة العقيدة. وصل بها الأمر إلى طرح سؤال جوهري وملح فحواه: "ما هي العقيدة التي يستقربها أمر الإسلام ؟"، رأت في الإجابة العقلية عليه أساس النهوض وأصل الإصلاح بل جسر العبور نحو الرقي والتقدم، لأن العقيدة الصحيحة هي الروح الوثابة السارية في ضمير ووجدان الأمة، وهي الفاعلية المتدفقة في حياة الإنسان، فبدونها تصبح الحياة مجرد حركة ميكانيكية ونوازع غرائزية تتشكل وفقًا لفلسفة القوة ومنطق الغلبة ليس إلا: "أيها المسلمون... لا يكفينا أن نزعم التفاني في حب الرسول (ﷺ) ونحن بمعزل عن نهجه وسيرته، وليست العقيدة كلامًا يقال ولا خطبة تلقى ولا شعرًا يبتكر ولا تأوهات ترسل في المناسبات ولكنها المبدأ الثابت الصارم الذي يسيطر على الروح ويهيمن على النفس ويشعل النار في الدم ويخرج من الإنسانية أبطالاً يستهينون بالحياة ويقدمون إقدام الآني الجارف الذي لا يلوي على شيء في شعابه ومنحدراته"[٥٩]، وانتقدت الفهم الخاطئ للعقيدة وإقرانها بالمذهبية: "إن

كثيرًا من الناس يظنون أن العقيدة مجرد التسمية إلى مذهب فلان أو فلان أو الاقتناع برأي من الآراء العابرة المتقلبة وهم بذلك يخلطون ويتخبطون، والواقع أن العقيدة لا تؤدي معناها الصحيح إلا حينما تكون هي المتصرفة بمصير المؤمن المؤثرة على كل شأن من شؤونه قد اتصلت بتاريخه وتحكمت في سمعته وخلقت له الأعداء والأصدقاء وكبدته الخطوب والأهوال وأصبحت عنده مسألة حياة أو موت"[٦٠]، فإذا ما بلغت العقيدة تلك الدرجة وأصبحت جزءًا من مكونات الإنسان الشخصية فسوف تُصنع عندئذ اللحظة التاريخية ويحدث التغيير والإنجاز. أما إذا استعصى الفهم الصحيح وندر الرجال المبدئيون ذوو العقيدة الراسخة فإن الاندثار والاضمحلال هو الكائن في الأمة لا محالة.

وتواصل الصحف الحزبية نقدها لما أسمتهم أصحاب العقائد الجامدة الذين قالت عنهم إنهم يزيفون وعي الأمة ويطوعون العقيدة الإسلامية لخدمة مصالح الحاكم الفرد بغية التكسب والربح المادي السريع، وحذرت الأمة من خطرهم والانجرار اللاواعي وراء أوهامهم، وقالت: إن هؤلاء الجامدين لا ينظرون إلى العقائد إلا من الزاوية النفعية والنفعية فقط. وان الغلبة والبقاء لا تكون – بالمطلق – دومًا وأبدًا إلا للعقيدة الصحيحة الخالية من الجمود والخرافة.[٦١]

هذا وهناك العديد من القضايا والإشكالات في مختلف الجوانب والأصعدة تطرقت إليها صحف المعارضة وحاولت إصلاحها وفقًا لرؤيتها الخاصة التي هي بالضرورة رؤية المعارضة، والتي تجاوزناها خشية الإطالة واكتفينا بالتركيز على الجانب السياسي، لاسيما الاستبدادي منه انسياقًا مع جلّ موضوعاتها ومجاراة لأهم اهتماماتها وأهدافها.

استهلت الصحف الحزبية مشروعها السياسي الإصلاحي بالمطالبة بالدستور وحكم الشورى – كما رأينا آنفًا – وظلت في مطالبتها طوال مراحل صدورها ومع استمرارية مطالبتها تلك، رفضت ثقافة الاستبداد بكافة أشكالها ومسمياتها، حتى لو جاءت تحت ستار ديني أو غلاف وطني، لان الاستبداد لديها كل لا يتجزأ وليس له إلا معنى واحد هو الظلم والجور والعُبدة غير المبررة في الأرض والتحكم اللا شرعي بمصائر الناس، والذي لا يمكن – بأي حال من الأحوال – القبول به أو السكوت عنه مهما بُررَ سياسيًا وسُوغَ دينيًا واجتماعيًا.

فقد شنت حربًا لا هوادة فيها ضد ما أسمته استبداد المؤسسة الإمامية الحاكمة، وقادت حملات إعلامية واسعة النطاق للتشهير بفساد الجهاز الإداري للحكومة المتوكلية، وجعلت من ذلك ديّدنها الدائم ورسالتها المقدسة، حتى تبدت لكأنها مجرد نشرات سياسية ضمت بين دفتيها بيانات ومنشورات الأحرار الطافحة بالثورية والمتمردة على المألوف الإعلامي الرسمي المعتاد في اليمن.

ولقد وجهت صحف المعارضة خطابها إلى كل من المؤسسة الإمامية الحاكمة والشعب في آن معًا، ووظفته في اتجاهين متوازيين، وعظ وتوعّد الحاكم المستبد من جهة وتوعية وتثقيف الرأي العام الثائر من جهة ثانية، ومن أمثلة ذلك ما قالته صحيفة صوت اليمن: "الجماعة المتحدة على الحق لا يغلبها الفرد الذي يفرض عليها الباطل"[٦٢] الذي هدفت من ورائه وعظ الحاكم وتحذيره من مغبة التمادي في استبداده وتقوية عزائم الأحرار ومن ورائهم الشعب.

يتضح من خلال الاقتباسات العديدة التي استخدمتها صوت اليمن بكثرة في موضوعة الاستبداد أن كتاب عبد الرحمن الكواكبي (تـ ١٩٠٢م) (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) كان يشكل رافدًا فكريًا وثقافيًا هامًا لمعظم محرري الصحيفة، فعلى الرغم من أن صوت اليمن قد اتخذت منه دليلاً نظريًا في محاربة الاستبداد وثقافته، إذ استعرضت الكثير من مضامينه ونشرت بعض موضوعاته وانتقت بعض مصطلحا ته، موظفة ذلك في سبيل تكثيف الحس الثوري وتجييش الرأي العام ضد ما أسمته طغيان واستبداد الحاكم الفرد[٦٣]، إلا أن لها اجتهاداتها الخاصة في تعريف الاستبداد، فقد عرفته على هذا النحو: "هو المشنقة التي تتسع حلقاتها لخنق أمة بأسرها فإذا أرادت الأمة أن تتخلص من الموت فما عليها إلا أن تقطع حبل المشنقة وتحطم أعوادها. وهو الجريمة التي تتلاشى أمامها جريمة السرق والقتل والاعتداء"[٦٤]. ولكي يتخلص الناس من الاستبداد طلبت منهم تهجيه حرفيًا وبصورة تكرارية في الصباح والمساء وفي البيت والمسجد، بل في كل مكان، واستحضاره – ولو وجدانيًا – في صلاتهم وفي كل لحظاتهم، حتى يغدو لديهم بمثابة

الراتب اليومي الشبه مُلزم. لأنهم لو فعلوا ذلك – في اعتقادها – لأصبح المستبد في نظرهم جريمة مجسمة في صورة إنسان، يسهل عليهم من ثم نقده ويجرئهم على تجريمه، ولقد قدمت المستبد في أبشع صوره: "سنرى هذا المستبد يتحدى قدرة الله وعدله ويريد منا أن نقدسه كما نقدس الله سبحانه وان نضفي عليه أوصاف الرب جل وعلا"[٦٥]، حتى خلصت في تصويرها له إلى تقرير الحقيقة الثابتة: انه مهما استبد المستبد بالأمة ومهما وأتته الظروف على ظلمها فانه لا يملك القوة الحقيقية لإذلالها على الدوام، اللهم إلا قوة الخوف الكامنة في النفوس هي التي تمنح المستبد سر قوته اللحظية، وتجعل الأمة تخضع له وترضخ لحكمه، فلو غضب الشعب وثار على المستبد لمرة واحدة لتبين للعيان ضعفه وتزلزل عرشه وسقطت تلك الأسطورة: "ما علينا الآن إلا أن نزيل هذا الخوف من نفوسنا وان نستعد للغضبة على شرفنا المهان وحقوقنا المهضومة وان نثور ثورة فكرية في وجه الظلم والطغيان ولنعلم أن الله معنا وان النصر حليف الحق".[٦٦]

وفي ذات السياق صنفت صوت اليمن المجتمع اليمني، على أسس قالت إنها من إفرازات ثقافة الاستبداد، إلى خمس فئات رئيسية هي "المستبدون، المحاسبون، المنافقون، المتمذغون، المجاهدون حقًا" وعرفت كل فئة على حدة:

- المستبدون: هم الذين يرون الشعب ذاهبًا إلى الهلاك ومصيره بأيديهم وأمواله في خزائنهم، تتركز كل السلطة في أيديهم.
- المحاسبون: هم أعضاء الحكومة من إداريين وكبار الموظفين الذين يملكون القرار، وهم الحكام وكبار التجار الذين يدركون الواقع ويحاولون الابتعاد عنه لمصالح ذاتية.
- المنافقون: هم الذين يشاهدون كل السلبيات ولا ينتقدونها، ويزيفون الوعي ويتملقون الحاكم، ويدركون كل الأخطار لكنهم يتجاهلونها ويعكسونها.
- المتمذغون: هم الانتهازيون المتفرجون من بعيد، وهم الانسحابيون – المتواكلون.
- المجاهدون حقًا: هم الذين يتما هون بصدق مع قضايا هم ومبادئهم بكل ما يملكون، ويتفانون بإخلاص في سبيل عقيدتهم[٦٧].

كما أنها رأت إن اليمن في ظل معطيات ثقافة الاستبداد التي خيمت عليها إبان الحقبة المتوكلية، قد تحولت، بفعل تمفصلاتها في شتى مناحي الحياة اليومية للإنسان اليمني، إلى ما وصفته بـ "مدرسة الاستبداد الابتدائية"، التي وجد فيها الاستبداد محضنًا ملائمًا وقابلية للتعايش والتبيئة، نتيجةً لجهل الناس حقوقهم وسكوتهم الطويل عليه[٦٨].

وأخذت تصف الحالة السياسية المتأزمة التي كانت تعيشها اليمن إبان الحكم المتوكلي قائلة: "سياسة الشدة لا تثمر إلا شرًا، متى ينطق هذا الشعب السجين، كتاب اليمن المنهوبة المنكوبة، رسالة من الجحيم من محاكم التفتيش إلى محاكم اليمن،... الخ"[٦٩]، والتي كان من أبرز سماتها الظلم والاستبداد، كما أخذت في الوقت ذاته تستنهض العاطفة الإسلامية، وتناشد المجتمع الإسلامي المناصرة والوقوف إلى جانب ما اعتبرته قضية اليمن الجوهرية، واصفة رجال الطبقة الحاكمة بالوحوش والسباع الشاردة: "...ولو لم تخلق هذه الوحوش لما سجنت أمة عربية مسلمة أربعين عامًا...أيها الناس سبعة ملايين [عدد سكان اليمن تقريبًا آنذاك] منكم رماهم القدر في هذه البقعة من الأرض يقتلون باسم الاستقلال ويموتون باسم الأمن ويحكمون بقانون الغابة وتزهق أرواحهم مخالب السباع. أيها المسلمون.. سبعة ملايين منكم ينهبون باسم الدين وينكبون باسم الإسلام"[٧٠].

وقالت إن من أسباب شقاء اليمن، إلى جانب استيطان ثقافة الاستبداد، ما أسمته بـ "المواجهة"، وهي المواجهة أو المقابلة المباشرة بين الحاكم والرعية، والتي كان الإمام يحيى يتبعها وفقًا للتقليد الإسلامي، ذلك لأنها تجسد بصورة مشوهة المركزية الشديدة، التي تختزل الوطن والشعب في شخص الحاكم وتمركز كل السلطات في يده المطلقة، واعتبرتها ظاهرة سلبية تمثل صورة من صور الدكتاتورية والاستبداد في اليمن، على الرغم من أن الإمام يحيى كان يتبعها تأسيًا بالخلفاء الراشدين بحسب الصحيفة. لكن هذه الظاهرة مع مرور الزمن قد تحولت بالتقادم إلى نوع من المناورة والتأليه، وخلقت رهابًا اجتماعيًا شاعت في ظله ثقافة الذل والخنوع وتسيدت الكهنوتية والمثيولوجيا بفعل ادعاء الإمام أن مصدر شرعيته مستمده من الله[٧١].

لم تحمل صوت اليمن الحاكم وحده وزر انتشار وإشاعة ثقافة الاستبداد بين أوساط المجتمع، بل حملت أيضًا ما أسمته قابلية الجماهير لتلك الثقافة واستساغتها ولو قسرًا. ولهذا نجدها توجه سؤلاً مهمًا إلى الجماهير مفاده: "هل سيرجع عبدة[عبَدتْ] الجرائم والدراهم إلى عبادة الله وحده"، استنكرت فيه تحول الكثير من قيم وأخلاق الناس نحو تعبيد السلطة والقوة من دون الله، والتي بمقتضاها يتحول الحاكم الفرد المطلق الصلاحية، الذي يبني سلطته على العسف والجور وسلب أموال الرعية، إلى "الحاكم بأمره"، والى "مستبد عادل"، يتملقه العوام ويسبح بحمده المنافقين "سلام الله عليه، صلوات الله عليه"، ويزداد في هذه الحالة عبدت المجرمين من الجهلاء، بل إن الجريمة الحقيقة تكمن – في نظرها – في تحول أماكن العبادة إلى مراكز للضخ الأيديولوجي لمصلحة استبداد الحاكم، ووجود من "يدعو للظالمين بالنصر والتمكين والظفر والفتح المبين"[٧٢]. لهذا اعتبرت صوت اليمن إن مجرد الجهر بحركة الأحرار في عدن، يعد في حد ذاته ثورة فكرية فجائية خلخلت –إلى حد كبير– البُنى والقيم التقليدية المتكلسة في العقلية السياسية اليمنية، بفعل ما قالت: أنه الجمود على العبودية ردحًا من الزمن ينوف على الأربعين عاما، تحولت معه الدكتاتورية إلى "إلوهية زائفة"[٧٣]. كما ردت في ذات السياق على إحدى النصائح الموجهة إليها من أحد العلماء بشأن عدم اهتمامها بتاريخ اليمن القديم وتحريها الدقة في نقد السلطة، بالاعتراف بالتقصير في ذلك الجانب، وبررت ذلك بان ثمة أولويات وأجندة مرحلية – كانت على سبيل التكتيك – قد شغلتها عن الالتفات إلى تلك المواضيع، في مقدمتها مقاومة الاستبداد. وهو ما كرسته بالفعل معظم، إن لم تكن كل، موضوعاتها[٧٤].

وفي خضم الجدل والسجال السياسي بين السلطة والمعارضة المتَجليّ في صحافتهما، يمكن التكهن بوجود صراع خفي ذو طابع مذهبي، فاحت رائحته – بطريقة أو بأخرى – في خطاب صوت اليمن، وعكست صفحاتها صداه. ففي الوقت الذي كانت الصحافة الموالية تقدم السلطة الإمامية، على أنها سلطة دينية تمثل امتدادًا فكريًا وتاريخيًا لخلافة الرسول (ﷺ)، ومُجسدة سياسيًا أفضلية (آل البيت) وأحقيتهم في الحكم، كانت صوت اليمن تعبر عن وجهة نظر المعارضة، والتي تستهجن مثل ذلك الطرح وتعتبره نوع من الادعاء وتزييف الوعي، وذلك لتكريس ثقافة الاستبداد ليس غير. لكن في المقابل يمكن القول إن "صوت اليمن" استندت في جدلها على تراث سياسي ينتمي إلى الفكر السني، إن صح هذا التعبير، وإلا ما معنى الحضور الكثيف لنصوص ومصطلحات ذات نفس ينزع إلى الفكر السياسي السني، وتوظيفها في سياقات مضادة لفكر الإمامة.

ولعلّ المقالة المعنونة بـ "من الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى الأبناء الحاكمين في اليمن"، إحدى صور الجدل التي عكست طبيعته وأجلت ملامحه، حيث ذَكَرَت بفضائل وأخلاق الإمام علي البشرية وبَيّنَت ما كان عليه من العدل والإنصاف، وقالت على لسانه إن الظلم والاستبداد لا يُبرَرْ لمجرد الانتماء سلاليًا إليه أو إلى آل البيت، كما نقدت بشدة استبداد الإمامة بدعوى تطبيق الشريعة[٧٥]، وقالت في هذه المقالة: إن الإمام عليّ كرم الله وجهه يرفض الكهنوتية في الدين ويجرم من يسعى إلى تكريسها من الحكام موجهًا خطابه إلى كل من يدعي الانتماء إليه وعلى رأسهم الإمامة في اليمن: "...متى قال لكم الإسلام كونوا أوثانًا تعبد ولتكن الأمة اليمنية مائدة تأكلونها؟ اللهم إني ابرأ مما تعملون"[٧٦]، وتواصل الحديث على لسان الإمام علي معتبرة أن أبشع جريمة تؤسس لها الإمامة هي سياسة التفرقة المذهبية: "أيها الأبناء، إن الجريمة التي لا تغتفر هي سياسة التفرقة التي اتخذتموها بين أبناء الأمة الواحدة، فقد فرقتم الأمة اليمنية إلى فرقتين فرقة سميتموها (شيعية زيدية) وأخرى دعوتموها (ناصبيه شافعيه) فضربتم الأخرى بالأولى"[٧٧]، وتتضح طبيعة الصراع بشكل أعمق وتتجلى ملامحه بصورة أوضح، عندما تورد على لسان الإمام عليّ ما مفاده: "وعمدتم إلى قبائل (حاشد وبكيل) فضربتم حولها نطاقًا من الجهل وحرمتم عليها العلم والثقافة وبذرتم في أدمغتها فكرة وثنية لا علاقة لها بالإسلام وهي فكرة التشيع وقلتم لها انتم المجاهدون والأنصار ونحن آل محمد تمسكوا بنا وقاتلوا في سبيل نصرتنا هؤلاء النواصب فدونكم إياهم لأنهم يبغضون (آل محمد) ولما استتب لكم الأمر عدتم إلى هؤلاء الأنصار الذين حاربوا معكم إخوانهم وأبناء عمومتهم فجرعتموهم الذل ألوانا

والضيم أنواعا خوفًا أن ينتهوا إلى أغلاطهم فيتداركوها"[٧٨]. وهي – بالطبع – تقصد بهذا إجلاء زيف خطاب الإمامة وتحديد رؤيتها، في الوقت ذاته، للسلطة والحكم، والتي تعود – في اعتقادنا – إلى التباين الجوهري بين مرجعيتهما، والذي يكمن في المفهوم العام للإمامة حيث إن الشيعة، بمعظم تعبيراتهم، يعتبرون الإمامة أصل من أصول الدين، بمقتضى الوصية وتأويل النص والأفضلية ... الخ، بينما أهل السنة يعتبرونها شأن بشري، يقتضيه النص الصريح "وأمرهم شورى بينهم"، والصلاحية ... الخ.

فيا ترى هل مثل هكذا خطاب يبرر القول: أن طبيعة الصراع بين الإمامة والأحرار كان ذو خلفيات مذهبية، وان كانت خفية. وهل يسوغ القول – أيضًا – بان صوت اليمن بخطابها هذا كانت تعبير جديد عن النفس السياسي السني، الذي أُجهض سياسيًا عقب رحيل الأتراك من اليمن عام ١٩١٨م، وشغور الجغرافيا من ثم ليسد الفراغ المشروع السياسي الهادوي (الزيدي)؟. بمعنى آخر هل وظفت صوت اليمن الفقه السياسي السني بموازاة فقه السلطة الهادوي في المحاججة والجدل والصراع؟ ربما!.

ومن صور الجدل التي تنطوي على خلفية مذهبية وتبرز طبيعة الصراع، ذلك السجال المتبادل بين "الإيمان" و"صوت اليمن"؛ إذ قالت صحيفة الإيمان في افتتاحية العدد (١٧٨) بعنوان "عين اليقين": "أن أهل اليمن كلهم ناعمون باستظلالهم بالرعاية النبوية العلوية الفاطمية" وردت صوت اليمن بالتعليق عليها بـ "عين اليقين.. العوراء "، واصفة ذلك بالدعوة المظللة والأسطوانة المشروخة التي طالما رددتها إيمان حكومة صنعاء، حسب تعبيرها. ولكنها لم تنكر أفضلية آل البيت وحب اليمنيين لهم، لكنها قيدت ذلك بشرط إلحاق كلمتي "الطيبين الطاهرين" على كلمتا "آل رسول الله" من باب المحاججة أو ربما المناكفة. ومن هذه الزاوية نظرت إلى الأمير إبراهيم، واعتبرته بعد انضمامه إلى صفوف المعارضة، أطهر الآل الطيبين في اليمن، ودعت إلى مناصرته والالتفاف حوله لمناهضة ما أسمته بالظلم والاستبداد، وكأنها هنا تبدي نوع من المناورة، التي تظهر واحدية النظرة مع الإمامة في مفهوم السلطة، حيث الخلاف يكمن في شخوص السلطة وليس في شكلها، وهو ما يمكن أن يناقض دعوتها إلى شوروية الحكم ودستورية المملكة الذي عبرت عنه باستشهادها المكثف بأقوال الصحابة في مسائل الخلافة والحكم، في الوقت الذي تجاهلت – إلى حد ما – أقوال الأئمة. وتصل في نهاية ردها إلى تحدي إيمان حكومة اليمن النبوية العلوية الفاطمية – حسب تعبيرها – أن تنكر وجود ما وصفته بالدكتاتورية الفاشستية في اليمن، وكذلك الفردية المطلقة والدجل باسم الدين والسلب والتعذيب باسم الإسلام، وتحدتها – أيضًا – إنكار وجود الإقطاعية واحتكار السلطة في اليمن، حتى تدعي الإيمان أن النخبة الحاكمة في صنعاء تمثل (آل البيت)[٧٩] أما عندما أنكرت صحيفة "الإيمان" أهلية رجال المعارضة للسلطة والحكم بحجة عدم انتسابهم للبيت الهاشمي (فئة السادة) حيث قالت: "يوجد في عدن رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ليسوا من السادة اليمانيين ولا من العلماء العاملين ولا من طلبة العلم المتورعين ولكنهم شذوا عن طريقة أهل الدين"، ردت عليها صوت اليمن بالاستهجان والرفض، وأتهمتها بالترويج لثقافة التمييز ألسلالي والعنصري وقالت: "أيها الآثمون أتقررون في شريعة جنونكم انه لا حق للإنسان أن يطالب بحقه إلا إذا كان رئيسًا سيدًا، سيفًا، وزيرًا..."[٨٠]

وحينما كانت السلطة الإمامية وآلتها الإعلامية تصور فرار المعارضة إلى مستعمرة عدن على انه ارتماء في أحضان الاستعمار وارتهان إليه، كانت المعارضة تسارع في الرد، وتعتبر ذلك هجرة تماثل هجرة الرسول (ﷺ) من مكة إلى المدينة من اجل الحفاظ على مشروعها من الظلم والاستبداد. فعلى سبيل المثال نشرت "صوت اليمن" حوارية لمحمد محمود الزبيري بعنوان "بين أخوين.. أو بين جيلين"، يجدر بنا التوقف عندها، كونها تعكس رؤية المعارضة للهجرة إلى عدن وموقفها من تلك الاتهامات؛ إذ قال في سياق حواره مخاطبًا الجمهور عن طريق أخته: أنها تعلم ظروف خروجه من ارض الوطن ويؤكد معرفتها بقوة إيمانه، وطالبها بعدم الانسياق وراء الشائعات التي تطلقها السلطة وأزلامها من انه ورجال المعارضة يعيشون مع النصارى وان دينهم قد تضعضع نتيجة الاختلاط، بل انه قال إن إيمانه القوي هو من حتّم عليه الهجرة تأسيًا بالنبي، واقسم لأخته انه لن يعود إلى بلاده إلا وقد تحقق هدفه وهو الثورة على الظلم

والاستبداد، وأبدى استغرابه من جزع أخته عليه لوجوده في بلاد الإفرنج مذكرًا إياها بسكان المدينة المنورة الهجين وهجرة الصحابة إلى الحبشة بلاد النصارى، وخاطب أخته بنوع من التهكم والازدراء ساخرًا من الاستبداد والصابرين عليه قائلاً: "أ فكل هؤلاء [يقصد رجال المعارضة وكل اليمنيين المتواجدين آنذاك في عدن] مذنبون آثمون إلا أنت وجيرانك في هذه القرية الصغيرة ؟ أ فيكون الله وجنته وملكوته لكم وحدكم يا سجناء الكهوف والظلام، ويا ضحايا الجهل والغباوة؟ أفلا أكون عندك مسلمًا صحيح الإسلام إلا إذا خضعت للظلم وأقمت في السجن وظللت احمل الأصفاد في رجلي والأغلال في عنقي وتقبلت العنف والاستعباد والقسوة ورضيت أن أعيش ذليلاً رعديدًا مهانًا مستعبدا"[٨١]، وحاول الزبيري في هذه الحوارية أن يجيب على كثير من الإبهامات المثارة حول المعارضة، لعل من أهمها توضيح رأي الإسلام في معارضة الظلم والاستبداد، فقد وضع مقارنةً بين التدين السلبي والتدين الإيجابي أو ما اسماه "الإسلام الذي يريده الله والذي لا يريده"، قال: إن الأول وراثي، انسحابي لا يضع وزنًا لشؤون المسلمين ومجريات الحياة، منحصرًا في المساجد وأماكن العبادة، والثاني متفاعل مع قضايا الأمة، منفتح على الكون كله ومتلازم قولاً وعملاً في حركة دائبة نحو العطاء والتجدد. وهو ما يرومه هو ورفاقه المعارضين.

ومن أجل ذلك جاد الزبيري ورفاقه بكل ما يملكون في سبيل قضيتهم، وكرسوا كل حياتهم واهتماماتهم لخدمة ذلك الهدف النبيل وهو محاربة الظلم والاستبداد: "إن الظلم في بلادي يجب أن يزول ويجب أن يمحى ويجب ألا أصرف نفسًا من أنفاس حياتي إلا وأنا احمل المعاول لتحطيمه. كل مال لا ينفق في سبيل الله والوطن فهو مال ملوث دنس، وكل كلمة لا تخرج من الحنايا غضبانة على الظلم والطغيان فهي كلمة لئيمة الأصل خبيثة المنبع، وكل قلب لا يمتلئ بالعطف والحنان على الملايين المعذبة فهو قلب وحش آثم"[٨٢]. وعلاوة على ذلك كانت صوت اليمن ترد على اتهامات السلطة للأحرار بالعمالة للاستعمار البريطاني، بأنها، أي السلطة، عميلة هي الأخرى لما أسمتها بالفاشستية المجرمة التي دخلت في تحالف مع الإمام يحي، وان الثقافة "الفاشستية" هي التي تؤثر وتتحكم على السيوف الوزراء ومحرري صحيفة الإيمان الناطقة باسم الحكومة المتوكلية[٨٣].

وهكذا جعلت الصحف الحزبية من محاربة الظلم والاستبداد موضوعها الأول وديدنها الذي أبداها بمثابة النشرات الثورية التي لا تحمل سوى ثقافة التمرد ولغة النضال، وهو ما كانت عليه بالفعل، فقد بررت ذلك بأحجية الظلم الواقع على الأمة وفي مقدمتهم رجال المعارضة، وبحثت له عن مصوغات وأسانيد، وجدت معظمها في القرآن الكريم "لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم "، تلك الآية التي قدمتها كنوع من التبرير لما تقوم به من هجوم وتعنيف ضد النخبة الحاكمة، والتي حاججت بها كافة أشكال النقد الديني الموجه إليها[٨٤]، كما استلهمت التراث الثوري لبعض الشعوب "صور من كفاح الشعوب: الثورة الفرنسية" نموذجًا، التي حاولت من خلالها إذكاء الروح الثورية في نفوس اليمنيين[٨٥].

أجمع معظم الكتاب والباحثين على أن صوت اليمن كانت في رسالتها الإعلامية متأثرة – إلى حد كبير – بفكر ونشاط الإخوان المسلمين في مصر، وإنها كانت تقتبس العديد من المقتطفات الإخوانية التي تتواءم مع مشروعها والتي طبعتها – بالضرورة – بطابعها، وأبدتها – ولوحيًنا – لكأنها صدى إعلامي للإخوان في اليمن وانعكاس فكري لتوجهاتهم[٨٦]، وقالوا إن التوأمة الفكرية - الإعلامية بين الجانبين كانت في إطار من التعاطف المرحلي المتبادل بين الإخوان والأحرار، بلغت لدى البعض حد القول الصريح: إن هوية الصحيفة الأيديولوجية هي الهوية الإخوانية[٨٧]. ناهيك عن حسبان رئيس تحريرها القاضي محمد محمود الزبيري، الذي تم استقطابه من قبل الإخوان المسلمين في مرحلة دار العلوم في القاهرة، أول من شكل خلية سياسية ذات هوية إخوانية في اليمن، وهو ما انعكس على خطاب الصحيفة في مراحل تالية[٨٨].

وعلى كل أيًا كانت نسبة الموضوعية في هكذا طرح، وسواءً اتفقنا معه أو اختلفنا، فان من نافل القول: إن صوت اليمن يمنية الثقافة والمنبع إسلامية الجذور والتوجه، تأثرت – بطريقة أو بأخرى – بفكر الإخوان المسلمين، في لحظة من التيه والشعور بفقدان الهوية وفي

زمن كانت تبحث فيه عن أفق تأوي إليه وتجد فيه حاجاتها المصادرة والمقموعة، والتي ظنت أنها قد وجدتها في فضاء الإخوان مقارنةً مع الواقع اليمني آنذاك. فقد تجلى على صفحاتها النفس الإخواني المتمثل في النقل الحرفي لمقالات الإخوان التي وجدت فيها نوع من التوائم مع أفكار وتوجهات الأحرار، والتبني الصريح لبعض الأفكار المتوافقة المتعلقة بشؤون السلطة والحكم، والتي جعلها تصرح في أحد أعدادها: "المرشد العام للإخوان المسلمين يحمل لواء القضية اليمانية في العالم العربي"، وتصف الإخوان المسلمين على هذا النحو: "وما الإخوان المسلمين إلا عصابة الله التي أخرجها في كنانة لتحمل للعروبة والإسلام مشاعل الهداية والنور والحرية والعدل والسلام"[٨٩]. بلغت ذروة التجلي في اختيار بعض الافتتاحيات من رسائل المرشد العام للإخوان المسلمين الشيخ حسن البناء (تـ ١٩٤٩م) والتي تحدث فيها عن دعائم الحكم الإسلامي، ومسؤولية الحاكم، ووحدة الأمة، واحترام رأي الأمة، والموقف من نظم الحكم المعاصرة[٩٠]. كما طالعتنا افتتاحية العدد (٥٥) بثلاثة عناوين بارزة: "الشيخ حسن البناء يقول: ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، مشاكلنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي، نظام الحكم"، وقدمت لها بنوع من التأثر والانجذاب قالت انه شكل من أشكال التوحد الوجداني والتجانس الفكري بين الأحرار والإخوان.

وهي الافتتاحية التي عكست – إلى حد ما – رؤية الإخوان المسلمين، للدولة ووظيفتها وحدود مشروعيتها، التي قدموها للأحرار الذين بدورهم استساغوها ووجدوا فيها الرؤية المثالية التي يمكن لها أن تمكنهم من حل مشاكلهم السياسية المستعصية. ولأهميتها رأينا ضرورة نقلها حرفيًا علّنا نقف عند مقاربة أولية – على المستوى النظري- تجمع الإخوان والأحرار حول مفهوم الدولة وحل إشكالاتها: " يفترض الإسلام الحنيف (الحكومة) قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي الذي جاء به للناس فهو لا يقر الفوضى ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام ولقد قال رسول الله (ﷺ) لبعض أصحابه: "إذا نزلت ببلد وليس فيه سلطان فارحل عنه"، كما قال في حديث آخر لبعض أصحابه كذلك "وإذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم رجلاً".

فمن ظن أن الدين أو بعبارة أدق الإسلام لا يعرض للسياسة وان السياسة ليست من مباحثه فقد ظلم نفسه وظلم علمه بهذا الإسلام ولا أقول ظلم الإسلام فان الإسلام شريعة الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجميل قول الإمام الغزالي رضي الله عنه: "اعلم أن الشريعة أصل والملك حارس وما لا أصل له فمهدوم ومالا حارس له فضائع" فلا تقوم الدولة في الإسلام إلا على أساس الدعوة حتى تكون دولة رسالة لا تشكيل إدارة ولا حكومة مادة جامدة صماء لا روح فيها.. كما لا تقوم الدعوة إلا في حماية دولة تحفظها وتنشرها وتقويها وتبلغها.

وأول خطتنا أننا نسينا هذا الأصل ففصلنا الدين عن السياسة عمليًا وان كنا لم نستطع أن نتنكر له نظريًا فنصصنا في دستورنا على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام، ولكن هذا النص لم يمنع رجال السياسية وزعماء الهيئات السياسية من أن يفسدوا الذوق الإسلامي في الرؤوس والفطرة الإسلامية في النفوس والجمال الإسلامي في الأوضاع باعتقادهم وإعلانهم وعملهم على أن يباعدوا دائمًا بين توجيه الدين ومقتضيات السياسة وهذا أول الوهن وأصل الفساد وبلاء التقليد الأعمى الذي لا خير فيه.

والحكومة في الإسلام تقوم على قواعد معروفة مقررة هي الهيكل الأساسي لنظام الحكم الإسلامي، فهي تقوم على مسؤولية الحاكم ووحدة الأمة واحترام إرادتها. (نظام الحكم) "وان احكم بينهم بما انزل الله إليك ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما انزل الله إليك"، ولا عبرة بعد ذلك بالأسماء والأشكال فالحاكم مسئول بين يدي الله وبين يدي الناس وهو أجير لهم وعامل لديهم ورسول الله (ﷺ) يقول: "كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته"[٩١]، وأبي بكر رضي الله عنه يقول حين وليَّ الأمر وصعد المنبر: "أيها الناس كنت احترف لعيالي فأكسب قوتهم فأنا الآن احترف لكم فافرضوا لي من بيت مالكم" وهو بهذا قد فسر نظرية العقد الاجتماعي أفضل واعدل تفسير بل هو قد وضع أساسه فما هو إلا تعاقد بين الأمة والحاكم على رعاية المصالح العامة فان أحسن فله أجره وان أساء فعليه عقابه، والأمة الإسلامية أمة واحدة لان الإخوة التي جمع الإسلام عليها القلوب

أصل من أصول الإيمان لا يتم إلا بها ولا يتحقق إلا بوجودها ولا يمنع ذلك حرية الرأي وبذل النصح من الصغير والكبير للصغير والكبير كذلك، وهو المعبر عنه في عرف الإسلام ببذل النصيحة وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد قال رسول الله (ﷺ): "الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولرسوله ولكتابه ولائمة المسلمين وعامتهم"(٩٢)، وقال "إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم"(٩٣)، وفي رواية وبطن الأرض خير لهم من ظهرها، وقال سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب: ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله. ولا تتصور الفرقة في الشئون الجوهرية في الأمة الإسلامية لان نظام الحياة الاجتماعية التي يضمها نظام واحد هو "الإسلام" معترف به من أبنائه جميعًا والخلاف في الفروع لا يضر، ولا يوجب بغضًا ولا خصومة ولا حزبية خاصة يدور معها الحكم كما تدور، ولكنه يستلزم البحث والتمحيص والتشاور وبذل النصيحة فما كان من المنصوص عليه فلا اجتهاد فيه وما لا نص فيه فقرار ولي الأمر يجمع الأمة عليه ولا شيء بعد هذا.

ومن حق الأمة الإسلامية أن تراقب الحاكم أدق المراقبة وان تشير عليه بما ترى فيه الخير وعليه يشاورها وان يحترم إرادتها وان يأخذ بالصالح من آرائها وقد أمر الله الحاكمين بذلك فقال: "وشاورهم في الأمر" وأثنى به على المؤمنين خيرًا فقال: "وأمرهم شورى بينهم" ومضت على ذلك سنة رسول الله (ﷺ) والخلفاء الراشدين المهديين من بعده، إذا جاءهم أمر جمعوا أهل الرأي من المسلمين فاستشاروهم ونزلوا عند الصواب من آرائهم بل إنهم ليندبونهم إلى ذلك ويحثونهم عليه فيقول أبو بكر رضي الله عنه فإن رأيتموني على حق فأعينوني وان رأيتموني على باطل فسددوني أو قوموني ؛ ويقول عمر بن الخطاب: "من رأى فيَّ اعوجاجا فليقومه".

والنظام الإسلامي بعد هذا لا يعنيه الأشكال ولا الأسماء متى تحققت هذه القواعد الأساسية التي لا يكون الحاكم صالحًا بدونها ومتى طبقت تطبيقًا يحفظ التوازن بينها ولا يجعل بعضها يطغى على بعض ولا يمكن أن يحفظ هذا التوازن بغير الوجدان الحيّ والشعور الحقيقي بقدسية هذه التعاليم وان في المحافظة عليها وصيانتها الفوز في الدنيا والنجاة في الآخرة وهو ما يعبرون عنه في الاصطلاح الحديث بالوعي القومي أو النضج السياسي والتربية الوطنية أو نحو هذه الألفاظ ومردها جميعًا إلى حقيقة واحدة هي اعتقاد صلاحية النظام والشعور بفائدة المحافظة عليه إذ أن النصوص وحدها لا تنهض بأمة كما لا ينفع القانون إذا لم يطبقه قاض عادل نزيه".(٩٤) وعلاوة على ذلك نجد أن الميثاق الوطني المقدس الذي نشرته في أكثر من عدد، ذو صيغة إسلامية تشبه – إلى حد بعيد – أدبيات الإخوان، قيل أن الذي صاغه موفد المرشد العام إلى اليمن "الفضيل الورتلاني" (تـ ١٩٥٩م) وقد استحسنه الأحرار واستساغوا مضامينه بحيث سعوا جاهدين إلى تفعيله وتطبيقه مثّله عمليًا حدث ٤٨(٩٥)

وهكذا ظهر النفس الإخواني جليًا على صدر صفحات صوت اليمن، ليمثل رافدًا فكريًا وثقافيًا هامًا تأثر به معظم محرري الصحيفة والنخبة المثقفة اليمنية حينذاك. خَفَت بعض الشيء في فترة لاحقة بعد انتصار ثورة يوليو٥٢ المصرية، وحلول وسيطرة التيار الناصري.

عرفت صوت اليمن نفسها بأنها صحيفة عربية أسبوعية، وجاء من ضمن أهدافها: أنها تستمد قوتها من روح الإسلام وتتخذ منه طريقتها المثلى، كما وأنها ستهتم بقضايا العرب والمسلمين في كل مكان، لاسيما الجاليات العربية في المهاجر.(٩٦)

الأمر الذي يؤكد على أن ثمة أفقًا عربيًا – يُتجاوز حينًا إلى الإسلامي – قد تجلى على صدر صفحاتها، وأنها قد أولت القضايا العربية والإسلامية أهمية كبيرة تمثلت في احتلالها حيزًا لا باس به من صفحاتها. كانت في مقدمتها القضية الفلسطينية، التي تناولتها من زاوية قومية أملاها داعي الواجب الديني والعاطفة الإسلامية، والتي انتقدت تخاذل الحكومة المتوكلية إزاءها وأفردت لها الصفحات العديدة والمقالات المتخصصة(٩٧). وكذلك الأمر مع القضية الباكستانية التي باركت استقلالها عن الهند وأبدت حماسًا وتعاطفًا إسلاميًا تجاهها، وصل إلى حد المطالبة من اليمنيين وحثهم على الاستلهام من تجربتها حتى ينالوا حريتهم المهدورة(٩٨).

ومما يدلل على أفقها العربي حرصها الدائم على إشراك الجامعة العربية في الشأن السياسي اليمني، حيث لم تغفل دور وأهمية الجامعة تجاه قضية اليمن، وظلت طوال

مراحل صدورها تشيد بدورها وتعلق عليها الآمال الكثيرة حتى في أحلك الظروف وأصعبها، باعتبار أن الجامعة العربية كانت تمثل واجهة العمق العربي لقضية الأحرار، والتي لا مناص من الاستعانة بها، رغم ما أبدته الجامعة من فتور وتباطؤ حيال قضية الأحرار اليمنيين. ومع ذلك لم يفقد الأحرار وصحيفتهم الأمل فيها. فقد توالت المناشدات والبيانات إلى الجامعة العربية بالتدخل وحل قضية اليمن تكللت بإرسال سيف الحق إبراهيم برسالة إلى أمين عام الجامعة العربية عبد الرحمن عزام نشرتها صوت اليمن في عددها (٣٦) طالب فيها النظر في قضية اليمن والتدخل لحلها، وهي الرسالة التي أوضح الأحرار فيها رؤيتهم للجامعة وتجلى فيها الحس القومي الذي أتسم به – ولو حينًا – خطاب الأحرار، والذي يرفض القطرية والتشرذم، فبعد أن اتهم الأمير إبراهيم الحكومة المتوكلية بالتواطؤ والانحياز إلى جانب الأمريكان والفرنسيين ضد العرب قال: "...وإذا كانت هذه هي نزعة المسؤولين في اليمن وشنشنتهم المعروفة فيجب أن تنبه الجامعة العربية وتعرف أن الشعب اليمني ورجاله الأحرار من مختلف الطبقات يضيقون ذرعًا بهذه السياسة الانفصالية عن البلاد العربية ويقدسون العروبة وجامعتها بل ولا يعترفون بالفروق السياسية بين الشعوب العربية، ذلك لان اليمن بلد عربي بكر يحمل طابعًا عربيًا أصيلاً ولا يكاد يفقه الوطنية الضيقة التي تجزؤ أقطار العروبة "، وتواصل الصحيفة في ذات الرسالة توضيح موقف الأحرار من الجامعة والعروبة قائلة: "وليست حركة الأحرار التي أبدتها وتزعمتها إلا أثرًا من آثار الجامعة العربية التي أيقظت عروبة اليمنيين وألهبت مشاعر الشباب، فذهبوا في صداها يجاهدون ويستبسلون بالرغم من أن الجامعة العربية احتفظت بالموقف الرسمي إزاءهم"[٩٩]. كما قالت الصحيفة – على لسان (محمد عبدالله الفسيل) أحد كتابها – إن الجامعة العربية كان لها أثر إيجابي في بلورة الوعي القومي في اليمن وظهور الحركة الوطنية، في حين كانت الحكومة المتوكلية تعتبرها منتج استعماري لا يجوز دينيًا الانضمام إليها[١٠٠].

ولقد بلغت ذروة تجلّي الحس القومي، لدى صوت اليمن، في مرحلة صدورها الثانية في القاهرة عام ١٩٥٥م حيث أشادت بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م المصرية، والتي اعتبرتها منارة أحرار اليمن التي قالت أن الأحرار سوف يهتدون بأهدافها وان جمال عبد الناصر صار – ربما بفكره – مثل الأحرار ونموذجهم[١٠١]، كما حفلت أعدادها بالعديد من المقالات والأعمدة التي تعج بالخطاب ذو النفس القومي العروبي من مثل عمود "عش لحظة مع أجدادك " الذي كان يحرره (إسماعيل الأكوع)، والذي تناول فيه عبر سلسلة من المقالات موضوع عروبة اليمن وأمجاد العرب الغابرة وحاول مقارنتها وإسقاطها على الواقع اليمني زمن الإمامة[١٠٢]. كذلك إندغامها حينًا مع إذاعة صوت العرب "صوت اليمن في صوت العرب.."، ونشرها لبعض برامجها ذات الطابع والميول القومية، التي تخدم وتتوافق - ولو مرحليًا - مع بعض توجهات الأحرار، والتي أوضحت من خلالها موقف الأحرار من انقلاب١٩٥٥م الذي قاده السيف عبدالله والثلايا، إذ نشرت ما قالت انه من أحاديث الأستاذ محمد محمود الزبيري في صوت العرب ما مفاده، إن مبادئ الأحرار الوطنية لا تتجسد في أشخاص بعينهم، وإنها ليست إلا حقوق الشعب وسيادة الشعب وسعادته وحكمه نفسه بنفسه على النحو الذي يسترد به كرامته ويحتل مكانته بين الأمم، وتصل إلى القول: إن الذي يتمسك به الأحرار هي المبادئ المجردة من الأشخاص سواء كانوا هؤلاء الأشخاص من الملائكة أم من الشياطين، وبعد المقدمة الاستهلالية قالت على لسان الزبيري: "... وفي موقفنا من الانقلاب اليمني الأخير رأينا أمامنا طريقين اثنين الطريق الأول فيما سيف الإسلام عبدالله ومعه تفاهمه المؤكد مع بعض الدول الكبرى على التفريط في حقوق الشعب وعلى الدخول في الحلف العراقي – التركي ومعه نزعته الاستبدادية وعنجهيته ونكرانه لحق الشعب واغتصابه لأمواله واستخفافه بمبادئ الأحرار..." وكذلك خطورة الحلف على مصر راعته المعارضة – حسب الزبيري – "... الطريق الثاني: فيما سيف الإسلام البدر وقد كنا على تفاهم معه على مطالبنا في سبيل الشعب، ورأينا هذا الشاب يسير في طريق السياسة العربية الاستقلالية مع مصر والمملكة العربية السعودية فأطمأنينا إليه من ناحية

السياسة الداخلية والخارجية... ولكن كنا ندرك أن الاتجاه مع البدر على كل حال أدنى إلى الاحتفاظ بسلامة البلاد وحريتها واستقلالها[١٠٣]، وغيرها من المقالات التي لا يتسع المجال لحصرها هنا. بيد أن أهمها والذي يستحق التوقف عنده هو ما نشرته صوت اليمن في احد أعدادها، حيث نشرت صورة الرئيس المصري جمال عبد الناصر وبجانب الصورة قوله المأثور: " اللهم أعطنا القوة لندرك أن الخائنين لا يصنعون الحرية والضعفاء لا يخلقون الكرامة والمترددين لن تقوى أيديهم المرتعشة على التعمير والبناء "[١٠٤]، والذي قدمته كشعار مرحلي، يحاكي – راهنًا – بعض صحف التيار الناصري التي اتخذت من هذه العبارة شعارًا لها (= صحيفة الوحدوي نموذجًا)، وهو ما يجعلنا نتساءل، في هذه الحالة، ما إذا كانت الصحيفة قد تأثرت بالمد القومي الناصري – ولو إلى حين – في مرحلتها الثانية، أو أنها تعاملت مع الأمر الواقع بحيث أنها لم تجد ثمة فرق جوهري بين التيارين القومي والإسلامي حين ذاك؟ أم أنها رفعت الشعار بعفوية، مجاراةً لظروف وأجواء أملتها المرحلة، دون ارتباط عقدي أو أية غايات إيديولوجية.

أن النزعة العربية والإسلامية التي اتسمت بها صوت اليمن انعكست تلقائيًا على موقفها المبدئي والمتصلب تجاه أمريكا الرافض لأية علاقة معها أو مع أي دولة استعمارية ما من شانها الإخلال بسيادة اليمن، حيث هاجمت بشكل لاذع ما أسمته المشاريع الإمبريالية التي قالت إن السيف عبد الله بدأ بشكل فاضح الترويج لها في اليمن عن طريق عقد الاتفاقيات الاقتصادية مع أمريكا. وصل بها الأمر إلى حد اتهامه بالعمالة لأمريكا وقالت أنه، سوف يعرض اليمن للاستعمار[١٠٥]. ولقد قيل في هذا الصدد إن موقف الصحيفة المتصلب، الذي أبدته تجاه أمريكا كان بإيعاز من بريطانيا، وذلك على سبيل النكاية بالسياسة الأمريكية في المنطقة، وانه لم يكن سوى مناورة وحسب، لا موقفًا مبدئيًا ثابتًا، وأيًا كانت الأسباب والدوافع وراء ذلك الموقف، المهم في الأمر هو التأكيد على أن صوت اليمن قد انحازت مخلصة إلى القضايا العربية والإسلامية، ووقفت في كل الظروف والأحوال إلى جانب قضاياها العادلة، انطلاقًا من رؤية عربية وإسلامية، وهو تكريس حي لموقف الأحرار اليمنيين[١٠٦]

وفي نهاية الحديث عن صوت اليمن يمكن القول – على وجه الإجمال – : إن خطابها حفل بمفردات ومصطلحات تشيء بتغلب النزعة اليمنية والعربية والإسلامية، بمعنى آخر تجلى على صدر صفحاتها نفس فكري ذو ملمح يمني – ابتداءً – إخواني محاكاةً – زمن ما – لتنتهي بالنفس القومي غير المؤدلج، وذلك تبعا للظرفية السياسية المتغيرة والمتطورة التي مرت بها الصحيفة، وعايشت ثقافتها، فهي في مرحلتها الأولى، زمن "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بدت يمنية النزعة والتوجه، أعقبتها تأثرًا بالنفس الإخواني ومن ثم النفس القومي عهد (الاتحاد اليمني) وأجواء خمسينات القاهرة . حتى تم إغلاقها عام ١٩٥٨م. كما يمكن القول – أيضًا – إن رسالتها قد وصلت وحققت بعض من نجاحات مثلاً ذروتهما حدثي ٤٨ و٦٢، المفصليين من تاريخ اليمن الحديث والمعاصر.

رابعًا: الصحافة الأهلية (المنوعة) فتاة الجزيرة أنموذجًا

شهدت اليمن في الفترة الممتدة من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٦٢م، وفرة في الإصدارات الصحفية الأهلية المتنوعة. تركزت معظمها في مستعمرة عدن بفعل ما شهدته هذه المدينة من طفرة اقتصادية وثقافية نسبية أهلتها لأن تكون الرائدة في هذا المجال. يليها حضرموت وما أصدر فيها من صحف متعددة التوجه والانتماء، وكذلك صحف المهجر الحضرمي العديدة المشارب والآفاق.

وكل هذه الصحف التي صدرت في مختلف المناطق اليمنية (عدن، سيؤون، المكلا، تعز، المهجر... الخ)، قد أرخت ووثقت لتاريخ اليمن المعاصر كل بطريقتها وتبعا لتوجهها، وكانت لها أهداف وتوجهات شتى توزعت بين: الاتجاه الإسلامي والقومي، والوطني والمحلي (الجهوي)...الخ.

ونظرًا لكثرة الصحف الأهلية، وصعوبة الإلمام بها في هذا البحث؛ فإننا سوف نقتصر على استعراض صحيفة فتاة الجزيرة كنموذج، لنتعرف من خلالها كيف وثقت وأرخت؟ بل وكيف صاغت تاريخ اليمن المعاصر؟

صحيفة فتاة الجزيرة (١٩٤٠ـ ١٩٦٧م)

تُعَدّ صحيفة فتاة الجزيرة أحد أهم مصادر التاريخ اليمني المعاصر ليس لما تحويه أعدادها الكثيرة جدا من

وفرة في المعلومة وغزارة في المادة التاريخية وحسب، وإنما أيضًا لما لها من دور جوهري في توجيه بوصلة المسار التاريخي في اليمن وقتذاك. فهي أول صحيفة يمنية أهلية صدرت بشكل دوري في مستعمرة عدن في ١ يناير عام ١٩٤٠م. وهي بحسب تعريف نفسها "جريدة عربية تصدر يوم الأحد من كل أسبوع. أدب، ثقافة، سياسة". صاحبها ورئيس تحريرها محمد علي لقمان المحامي.

جاء صدورها استجابة إعلامية لحاجات سياسية فرضتها ظروف وأجواء الحرب العالمية الثانية إذ كانت بريطانيا في حاجة إلى وسيلة دعائية تعبر عن أهدافها وتروج لسياستها، خاصة في حال تزايد السخط والتذمر الشعبي ضدها والمنحاز إلى دول المحور.

ففي بداية صدورها بدت من الناحية السياسية منحازة إلى خط الحلفاء حيث سخرت صفحاتها لنشر أخبار الحرب وانتصارات الحلفاء التي كانت تشيد بها من خلال مختلف الفنون الصحفية: من مقال وقصيدة وغيرهما. فضلاً عن أنها كانت تنقل بعض موضوعاتها الأولى نقلاً حرفيًا من الصحف والمجلات الإنجليزية الصادرة في عدن بعد ترجمتها إلى العربية. كما كانت تنشر أخبار القادة الإنجليز في حلهم وترحالهم[١٠٧]. لهذا ربطتها علاقة جيدة بسلطة الاستعمار ممثلة في حكومة عدن البريطانية بحيث بدت من خلال تناغم خطابها مع التوجه الرسمي لسلطة الاستعمار لكأنها رسمية دائرة في فلكه وناطقة باسمه، وإن كانت ثمة تبريرات تتعلق في هذا الجانب أوردها وبررها البعض[١٠٨].

وهناك مَنْ أعتبر أن فتاة الجزيرة اسم يوحي بأنها صحيفة للمرأة في منطقة الجزيرة، أو رمز لمدينة عدن، أو الجمعية العدنية أو ما يدخل في إطار المفهوم التلقائي للاسم وعلاقته بما يعبر عنه"، قياسًا على اسم "بهية" الذي يعبر أو يرمز لمصر، و"الفيحاء" اسم لدمشق "والجوهرة السوداء" لإفريقيا و"فتاة شمسان" للفتاة العدنية... وهلم جراء. وربما هذا ما يوحي إليه اسم "فتاة الجزيرة" التي اتخذت لها شعارًا مرحليًا البيت الشعري التالي:

إني أود من الشباب طموحهم
ويمضني فيك الشباب القنع

وهذا النص – في اعتقادنا – هو تحوير لغوي لشاعر عربي يقول فيه:

شباب قنع لا خير فيهم
وبورك في الشباب الطامحينا

والذي اعتمده البعض شعارًا لها.[١٠٩]

استمر هذا الشعار حتى العام ١٩٤٢م ثم اختفى من صفحاتها، وفي خلالها التزمت "فتاة الجزيرة" نهجًا سياسيًا غلب عليه الطابع العام يجمع بين نشر الأخبار والمقالات الصحفية والقضايا الأدبية والأبحاث العلمية مع اهتمامها بالتغطية الخبرية للحرب العالمية الثانية والنشاط الحربي لبريطانيا، والتي أبدت انحيازًا واضحًا لها ولدول الحلفاء من منطلق الانبهار والتأثر بالفكر الغربي، إلى جانب دورانها في فلك السلطة الاستعمارية البريطانية في مستعمرة عدن[١١٠]. وأكدت انحيازها إلى بريطانيا والى دول المحور في أكثر من عدد. ففي عامها الرابع قالت: "...نستقبل العام الجديد والأمل يشع في أنفسنا فيدفع بنا إلى المقدمة لنصارع الجهل والفقر حتى نصرعهما فنسلك مسالك السعداء من الأمم الفتية. والحرب لما تخمد نارها ولما يخب أوارها ونحن في جانب الأمم المتحدة قد عقدنا مصيرنا بمصيرها وآمنا بنيل أمانينا في عدلها وقد وجدناها تنافح عن حرياتها وحريات الأمم المستضعفة في هذا الكفاح الجبار ونحن لم نرتبط بدول غير بريطانيا العظمى وحلفائها في تاريخنا الحافل بالشدائد وجهادنا الطويل"[١١١].

وعلى الرغم من أن "فتاة الجزيرة" قد حددت رسالتها منذ العدد الأول والذي جاء في افتتاحيته " إن "فتاة الجزيرة" ستربي الصغير وستخدم المريض وستقوم بواجبها الإنساني إن شاء الله خير قيام، وغير خاف ما للصحافة اليوم من شأن في ميداني السياسة والاجتماع في السلم والحرب؛ فإن لها الكلمة النافذة والقول الفصل في كثير من الأوساط والدوائر.

ولما كانت عدن ونواحيها بحاجة ماسة إلى جريدة عربية لسان حالها، عزمت على إصدار هذه الصحيفة خدمة لهذه البلاد وأهلها قاصدًا نشر الثقافة العربية ومجاراة الأمم المتمدنة في تقدمها الثقافي والزراعي والصناعي والتجاري ورقيها العلمي والأدبي جاعلاً هذه

الصحيفة منبرًا لشباب الجزيرة العربية وأدبائها راميًا فيما ارمي إليه إلى تعميم التعليم للبنين والبنات ناشرا ألوية الأخلاق الحميدة. ولهذه الغايات ستقبل الجريدة المقالات العربية الصحيحة المفيدة وستنشر الثمينة منها. ومبدؤها دائمًا الدأب في سبيل خير الجزيرة العربية. بيد أنه يجدر بي أن أنبه العقلاء الأدباء أننا نواجه حربًا شعواء وأحوالاً عصيبة وما كل أيامنا سواء. وستكون سياسة هذه الجريدة موجهة إلى معاضدة الحق والأخذ بناصر العدل والحرية إن شاء الله"[١١٢]. برغم ذلك لم تحدد بعد هويتها، وأن هويتها لم تتبلور بشكل واضح إلا فيما بعد عندما صارت لسان حال الجمعية العدنية – كما سنرى لاحقًا – فحتى عامها السادس استمرت في تأكيد التزامها بتأدية رسالتها والتزامها بما تراه خدمة للثقافة العربية الإسلامية، وإن تجزأت بالنسبة لها الجغرافيا؛ إذ المهم هو وحدة الثقافة والعقيدة الدينية "وحدة الثقافة العربية"[١١٣]. كما جاء في افتتاحية عددها المزدوج (٢٥٣، ٢٥٤) " وفتاة الجزيرة تقف اليوم بعد أن قطعت خمسة أعوام من عمرها وهي لاشك دائبة في تأدية رسالتها للعروبة والإسلام رغم ما لاقت وما تلاقي من شدائد في محيط يضيق به الأديب ذرعًا وتفتقر فيه الجهود الأدبية إلى التقدير والتنظيم ويحتاج فيه الإصلاح الاجتماعي إلى كرم الرجال وتعاون الأمة بصورة واسعة مع الدولة الحاكمة – وهذه رؤيتها في الإصلاح – تعاونًا منبعثًا عن مؤازرة صادقة ترمي إلى وضع أهداف هذا الإصلاح بالنظر إلى حاجتنا في تربية أبنائنا وبناتنا ورفع مستوى معيشتنا وإصلاح بيوتنا ومدينتنا واستثمار مصالح البلاد لخير أهلها، والعمل المتواصل للقضاء على الأمية..."[١١٤].

وعلى هذا الأساس، ومن منطلق التأثر بالفكر الغربي الليبرالي، لعبت "فتاة الجزيرة" دورًا أساسيًا في الدعوة إلى الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مستعمرة عدن، حيث دعت إلى تعميم التعليم وإلزاميته على الرجل والمرأة على حد سوى، وناقشت موضوع الحجاب بأسلوب عصري حداثي، كما طالبت ببناء المستشفيات وإصلاح الطرقات على طريق تمدين عدن وبعض المحميات، وغيرها من المطالب الإصلاحية والخدمية، والتي طالبت بتحقيقها – أيضًا – في شمال اليمن كنوع من التضامن مع مطالب الأحرار ضد الإمامة، والتي على أساسها بُنيَت العلاقة بين الطرفين. فقد أفردت كثيرًا من صفحاتها لقضية الأحرار في منافحة الإمامة، وأفسحت لهم مجالاً للإدلاء بمختلف آرائهم الموجهة ضد الوضع القائم – آنذاك – في شمال اليمن، كما كتب فيها الأحرار العديد من المقالات وحرروا فيها الكثير من المواضيع الموجهة ضد السياسة الإمامية، وعلى رأسهم الزبيري والنعمان، حتى تبدت في بعض مراحلها لكأنها واحدة من صحف المعارضة كان لها قصب السبق في تبني مطالب الأحرار. من نماذج ذلك قول الأحرار فيها: " لقد كانت أول صحيفة تصدر في هذه البلاد رغم ما كانت تعانيه عدن في ذلك الوقت من تأخر، بل كانت أول صحيفة تفتح صدرها للأحرار المكافحين وكانت صفحاتها لا تخلو قط من المطالبة بالحياة الدستورية في اليمن، والحياة النيابية في إمارات الجنوب العربي. لقد شاركت أحرار اليمن نهضتهم الأولى، وخصصت لهم صفحاتها العريضة كما خصصت أخبار المحميات رغم تهديد الرجعيين والإقطاعيين، لقد ظلت هذه الصحيفة تكافح وتناضل هذه المدة الطويلة. وها هي اليوم لازالت تكافح ولازالت تخصص لنا صفحاتها لنحارب ذلك الظلم والاستبداد الجاثم في بلادنا، والصادر عن حكامنا، ذلك الظلم والاستبداد الذي شردنا في أوطاننا وزج ببعضنا إلى السجون، لقد كان لهذه الصحيفة الفضل الأكبر في محاربة الطغاة المستبدين الذين يتاجرون بالوطنية على حساب شعوبهم تلك الوطنية المزيفة التي يتفوهون بها وهم أعداؤها، لم تبع هذه الصحيفة وطنيتها بدراهم معدودة كما تفعل اليوم بعض الصحف، بل حاربت كل ظالم ومستبد "[١١٥]. كما حوت صفحاتها العديد من المقالات والأخبار المتعلقة بالمملكة المتوكلية اليمنية – سلطة ومعارضة – بل إنها خصصت صفحة أسبوعية أسمتها "ركن اليمن" كانت تنشر فيها شكاوى المواطنين من موظفي الإمام وحكامه وقضاته، وهذا – في اعتقادنا – سر تقارب الأحرار وصحافتهم مع توجه "فتاة الجزيرة" حول المطالبة بالحكم الذاتي لعدن كما سيتضح في الأسطر القادمة.

تبنت "فتاة الجزيرة" خطًا سياسيًا يدعو إلى الحكم الذاتي لمستعمرة عدن، بعد أن أصبحت لسان حال "الجمعية العدنية". فمنذ تأسيس الجمعية عام ١٩٥٠م

التزمت الصحيفة بتوجه الجمعية الداعي إلى (العدننة) وتمكين أبناء عدن من الوظائف العليا، إذ سخرت المقالات والأخبار وجميع المواد السياسية والأدبية لتعزيز هذا الاتجاه الذي يقوم في أساسه على شعار "عدن للعدنيين". ومن الأمثلة التي تجلت فيها النزعة الانفصالية المقال الذي كتبه حامد لقمان أحد كتاب الفتاة والذي جاء فيه " وعدن بلد صغير جدًا لا يتسع إلا لعدد محدود من الناس فبابه المفتوح على مصراعيه للداخلين من سائر أجناس الأمم هو الذي سبب لنا هذا الاضطراب في حياتنا وجعلنا لا نعرف ماذا نحن؟ في زمن أصبح الافتخار بالقوميات من الأسس القويمة [القومية]المتينة التي تقوم عليها الشعوب وتتبوأ مقامها العظيم تحت الشمس فإذا أقفل باب عدن وحددت الهجرة إلى هذا البلد الأمين فربما كان في استطاعتنا أن نؤسس قوميتنا ونفاخر (بعدنيتنا) ونصيح بملء فينا أن أصلحوا البلاد يا حكام البلاد لأننا مؤمنون فيما نذهب إليه من القول، مخلصون في أقوالنا وأفعالنا.

إذن (فعدنيتنا) تقوم على أساس أننا وجدنا في عدن وطننا الأصلي ولا ننظر إلى وطن غيره. فنحن كعدنيين لم نتنصل من (عدنيتنا) لا سمح الله وظل كل عدني لا يفكر في مصلحة عدن والشيخ عثمان والمعلا والتواهي لن نستطيع أن نكون أمة لها كيان تقول كلمتها وتعني ما تقول كما يقول المصطلح الأمريكي.

فإذا استطعنا أن نستأثر بعدنيتنا دون غيرها فسيكون الطريق معبدًا أمامنا إذ إن القومية لا تقوم إلا على توحيد الشعب واللغة والدين والتقاليد والروابط والوشائج العامة"(١١٦). كما طالبت من الأعضاء العدنيين في المجلس التنفيذي لمستعمرة عدن أن يبدؤوا بالمطالبة الفورية بتعدين الدوائر الحكومية ليكون لرؤساء الدوائر عوامل مشتركة مع الشعب العدني الذي يخدمونه – حسب تعبيرها – كونهم أعرف بحاجته(١١٧). وكانت الصحيفة تتناول الأحداث التي تقع خارج نطاق مستعمرة عدن، كحادث يقع في تعز، أو حضرموت أو صنعاء أو لحج...الخ، وكأنه وقع في بلاد أخرى خارج اليمن على اعتبار أن عدن قطر قائم بذاته لا تربطه باليمن أو بقية (إمارات الجنوب) أية صلة، سوى علاقات الجوار ليس أكثر. وكمثال على ذلك الحديث الذي نشرته مع حسين علي بيومي، وهو واحد من قادة الجمعية العدنية يقول فيه: " زرت لأول مرة القطر الشقيق لحج، وكانت بمناسبة يوم تأبين المغفور له الأمير أحمد فضل وقد رأيت من حفاوة الاستقبال والترحيب بالعدنيين... الخ "(١١٨)، وكذلك افتتاحية العدد (٢٠٣) المعنونة بـــ "أخبار عدنية" التي تناولت فيها بعض الأخبار المتعلقة بعدن، والتي تعكس روح المناطقية وسيطرة النزعة الانفصالية على خطاب "فتاة الجزيرة"(١١٩).

وهذا الخطاب الذي أبدته "فتاة الجزيرة" المنحاز صراحة إلى ثقافة ما يمكن أن نسميه (العدننة) جاء متسقًا مع رؤى وتوجهات الاستعمار البريطاني؛ الأمر الذي انعكس على مفهوم الجريدة للوحدة اليمنية التي غابت عن صفحاتها باستثناء بعض الإشارات السريعة التي تؤكد استحالة تحقيقها. وبالقياس كتب رئيس تحريرها محمد علي لقمان إحدى المقالات التي تقول: " هل يمكن قيام وحدة بين الصومال وإثيوبيا، فالوحدة لا تقوم على أساس الجنس والارتباطات الأخرى. وإلا لارتبطت العراق مع مصر لا مع بريطانيا العظمى من خلال حلف بغداد، وهكذا الحال بالنسبة لباكستان وإيران وتركيا"(١٢٠)، وهو ما ينطبق – من وجهة نظره – على وحدة اليمن الغائب – آنذاك – شرط مقومها المتمثل في وحدة المصالح المشتركة.

وهكذا مثلت صحيفة "فتاة الجزيرة" منبرًا إعلاميًا هامًا فاحت منه رائحة النفس الليبرالي المبكر، والذي من خلاله قرأت الوقائع والأحداث وأثرت – بشكل أو بآخر – في مجرياتهما. كما شكلت إرهاصة من إرهاصاته الفكرية والتي وجدت تجلياته امتدادات لاحقة استوعبتها بعض القنوات والوسائل.

خَاتِمَةٌ

خرج هذا البحث بجملة من النتائج يمكن إجمالها في التالي:

- إن الصحافة بكافة أنواعها، وبما تحويه من مادة صحفية، تمثل وعاء يستوعب مادة تاريخية غزيرة أكيد أن المؤرخ سوف يستفيد منها.
- إن الصحافة بمجملها تُعَدّ مصدرًا مهمًا من مصادر توثيق التاريخ، وهو ما كانت عليه الصحافة اليمنية بكل أنواعها.
- ثمة دور كبير للصحافة في صياغة التاريخ يتحدد وفق خلفيتها الفكرية – الأيديولوجية، وهو ما لمسناه في نماذج الصحافة اليمنية (الرسمية، الحزبية، الأهلية).
- للحقيقة الموضوعية – التاريخية عدة أوجه تعبر عنها مختلف القراءات وهو ما كرسته الصحافة اليمنية في تناولاتها المختلفة والمتنوعة للحدث الواحد.
- كانت الصحافة اليمنية في خطابها وفي مادتها الصحفية انعكاس لواقعها الموضوعي بكل تعبيراته وتجلياته.
- تمثل الصحافة اليمنية، بكل أنواعها، أرشيف غني ومتكامل لمادة تاريخية متعددة ومتنوعة صيغت من مختلف الاتجاهات من تاريخ اليمن المعاصر.

الاحالات المرجعية:

(١) للمزيد حول هذا الموضوع يمكن الرجوع الى دراستنا: **الصحافة والسلطة في اليمن المعاصر**.

(٢) **مجلة العربي**: العدد ٥٤٧، يونيو ٢٠٠٤م، ص ٣٢.

(٣) ذيبان، سامي: **الصحافة اليومية والإعلام، الموضوع التقنية والتنفيذ، الإعلام الحديث في النظرية والتطبيق، مدخل نظري وعملي إلى علم الإعلام**، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٧م، ط ٢، ص ١٣.

(٤) ماكلوهان، مارشال: نفس المصدر، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(٥) عصفور، جابر: **المجلات الثقافية مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة**، ج ١، سلسلة كتاب العربي، الكتاب ٦٩، يوليو ٢٠٠٧م، وزارة الإعلام، الكويت، ص ٣٠.

(٦) ذيبان، سامي: المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٧) طرازي، فيليب: **تاريخ الصحافة العربية**، ج ١، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩١٣م ص ٣٢، ٣٣.

(٨) عبد الحميد، محمد: بحوث الصحافة، عالم الكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٢٣، ٢٤.

(٩) أبو زيد، فاروق: **مدخل الى علم الصحافة**، عالم الكتب، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٤٢.

(١٠) خبارة، عبد الرحمن: **نشوء وتطور الصحافة في عدن، ١٩٣٧-١٩٦٧**، شركة الأمل للطباعة والنشر، (د.م)، (د.ت)، ص١٩.

(11) Donald m. MacKay ،information ،mechanism and meaing them. I .t press aass achusetts ،1972. p. 39-40.

(١٢) ميرل، جول، لونيشتاين، رالف: **الإعلام وسيلة ورسالة**، تعريب ساعد خضر العرابي الحارثي، دار المريخ، الرياض، ١٤٠٩، ص ٢٣١.

(13) Omerrilltohn. C. The foreign press. (Louisiana state university press) u. s. 1973. p.21.

(14) Rowlands ،d.g.h.: communications and change. (tom son foundation) Cardiff. Great. Britain p.14 ،16.

(١٥) فابر، فرانس: **الصحافة الاشتراكية**، ترجمة نوال حنبلي وآخرون، معهد الإعداد الإعلامي، دمشق، ١٩٧١، ص ٥، ٦.

(١٦) الواسعي، عبد الواسع بن يحيى: **تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن**، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، (د- م)، ١٤٠٢- ١٩٨٢م، ط ٣، ص ١٢٩، ٣١١، ٣١٤، ٣٢٦، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٧ .

(١٧) المؤيد، عبد الوهاب: **موسوعة الصحافة اليمنية**، ص ٥٧.

(١٨) المتوكل، **الصحافة اليمنية نشأتها وتطورها**، مطابع الطوبجي التجارية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٣٧.

(١٩) **الإيمان**: العدد١، السنة الأولى، جمادي الأول ١٣٤٥هـ، تشرين الأول ١٩٤٢م، ص ٢.

(٢٠) المتوكل، محمد عبد الملك: المصدر السابق، ص٣٧.

(٢١) الجاوي، عمر: **مجلة الثقافة الجديدة**، عدن، العدد ٢، فبراير ١٩٧٤م، ص ٤٠.

(٢٢) سلام، محمد عبد الجبار: **الإعلام اليمني والقضايا السياسية والاجتماعية النشأة والتطور**، الجزء الثاني، مؤسسة الكلمة، صنعاء، ١٤١٧ه-١٩٩٧م، ط ١، ص١٢.

(٢٣) الزين، عبد الله يحي: **اليمن ووسائله الإعلامية**، ص٦٢، ٦٣.

(٢٤) **الإيمان**: العدد ١، السنة الأولى، جمادي الأولى ١٣٤٥هـ، اكتو بر ١٩٢٦م، ص ٢.

(٢٥) للمزيد يمكن الرجوع الى دراستنا (**الصحافة والسلطة في اليمن المعاصر الاتجاهات الفكرية والسياسية**).

(٢٦) **الإيمان**: العدد ١، السنة الأولى، ص ١، ٢، والعدد١٣، جمادي الأولى ١٣٤٦هـ، تشرين الثاني ١٩٤٣م، ص ١؛ العدد ٢٥، السنة الثالثة، جمادي الأولى ١٣٤٧هـ، تشرين الثاني ١٩٤٤م، ص ١؛ الإيمان: العدد ٨٥، السنة الثامنة، جمادي الأول ١٣٥٢ هـ، ص ١.

(٢٧) **النصر**: العدد ٢، السنة الأولى، ٦ جمادي الأولى ١٣٦٩هـ - ٢٣ فبراير ١٩٥٠م، ص ١-٤.

(٢٨) للمزيد حول ذلك يمكن الرجوع الى دراستنا: **الصحافة والسلطة في اليمن المعاصر**.

(٢٩) **الإيمان**: العدد ٣، السنة الأولى، رجب، ١٣٤٥هـ - كانون الثاني، ١٩٤٢م٣، ص ٢، ٣.

(٣٠) **الإيمان**: العدد ٢٧، السنة الثالثة، رجب ١٣٤٧، ص١؛ العدد٣١، السنة الثالثة، ذي القعدة ١٣٤٧هـ، ص ١، ٢؛ العدد٣٦، السنة الثالثة، ربيع آخر ١٣٤٨هـ، تشرين أول ١٩٤٥م، ص١.

(٣١) **الإيمان**: العدد ١٥٤، السنة ١٣، ربيع ثاني ١٣٥٨هـ، ص١؛ العدد ١٥٥، السنة ١٤، جمادي الأول ١٣٥٨هـ، ص١.

(٣٢) **الإيمان**: العدد ٢٤١، ٢٤٢، السنة ٢٤، ٣٠ ربيع أول ١٣٦٩هـ- ٢٠ يناير ١٩٥٠ م، ص ٢.

(٣٣) أمين الجبر: **الصحافة والسلطة في اليمن المعاصر**، الاتجاهات الفكرية والسياسية، ١٩٦٢-١٩١٨م، المركز الديمقراطي العربي، ٢٠١٧م، برلين، ألمانيا، الفصل الثاني.

(٣٤) **الإيمان**: العدد ٥٧، السنة الخامسة، محرم ١٣٥٠هـ، ص ١، ٢.

(٣٥) **الإيمان**: العدد ٦٥، السنة السادسة، رمضان ١٣٥٠هـ، ص ١.

(٣٦) **الإيمان**: العدد ١٩، السنة الثانية، ذي القعدة ١٣٤٦هـ- مارس ١٩٤٤م، ص١؛ العدد ٢٠، السنة الثانية، ٢٠ ذي الحجة ١٣٤٦هـ وص١.

(٣٧) **الإيمان**: العدد ٢٢، صفر ١٣٤٧ هـ- أغسطس ١٩٤٤ م، ص ١.

(٣٨) **الإيمان**: العدد ١٧٩، السنة ٢٢، ٣٠جمادي الأول ١٣٦٦هـ - ٢٢ابريل ١٩٤٧م، ص١؛ العدد ١٧٨، السنة ٢٢، ١٥ جمادي الأول ١٣٦٦هـ - ٧ أبريل ١٩٤٧ م، ص ١.

(٣٩) **الإيمان**: العدد ١٩٣، السنة ٢٢، ٢٠ ذي الحجة ١٣٦٦هـ - ١٣ نوفمبر ١٩٤٧ م، ص ٢؛ العدد ٢١٢، السنة ٢٣، ٣٠ ذي الحجة ١٣٦٧ هـ - ٣ نوفمبر ١٩٤٨ م، ص ٢؛ العددان ٢٣٥، ٢٣٦، السنة ٢٤، ٣٠ ذي الحجة ١٣٦٨هـ - ٢٣ أكتوبر ١٩٤٩ م، ص ١.

(٤٠) **الإيمان**: العدد ٣٣٦، السنة ٢٩، ٢٩ جمادي الأول ١٣٧٤هـ، ٢٣ يناير ١٩٥٤م، ص ١، ٢، ٣، ٦.

(٤١) للمزيد عن صحف المعارضة اليمنية وكيف صاغت التاريخ يمكن الرجوع الى دراستنا، **الصحافة والسلطة في اليمن المعاصر**، الفصل الثالث.

(٤٢) **صوت اليمن**: العدد ١، ١٩٤٦م، ص١؛ العدد ١، ١٩٤٦م، ص١.

(٤٣) **صوت اليمن**: العدد ١، ١٩٤٦م، ص١؛ العدد ٣، السنة الأولى، ٢٧ ذي الحجة ١٣٦٥هـ، ٢١ نوفمبر ١٩٤٦م، ص ١.

(٤٤) للمزيد حول هذا الموضوع انظر **صوت اليمن**: الأعداد ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٣، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص ٢، ٢، ٢، ٣.

(٤٥) أمين الجبر: **الصحافة والسلطة في اليمن المعاصر**، الاتجاهات الفكرية والسياسية، ص

(٤٦) **صوت اليمن**: العدد ١١، السنة الأولى، ٢٣صفر ١٣٦٦هـ - ١٦ يناير ١٩٤٧م، ص ١.

(٤٧) **صوت اليمن**: العدد ١، ١٩٤٦م، ص٤.

(٤٨) **صوت اليمن**: العدد ٢، السنة الأولى، ٢٠ ذي الحجة ١٣٦٥هـ - ١٧ نوفمبر ١٩٤٦م، ص ١.

(٤٩) **صوت اليمن**: العدد ٢، السنة الأولى، نوفمبر ١٩٤٦م، ص ١، ٤.

(٥٠) **صوت اليمن**: العدد ٥، السنة الأولى، ١٢ محرم ١٣٦٦هـ - ٥ ديسمبر ١٩٤٦م، ص ٣.

(٥١) تشير معظم المصادر إلى أن الخلاف الجوهري بين الفكر السياسي السني والشيعي هو حول مفهوم الطرفين للإمامة حيث الشيعة بمعظم تعبيراتهم، يعتبرونها أصل من أصول الدين، بمقتضيات: النص المؤول، الوصية، الأفضلية.. إلخ. بينما السنة بكل أطيافهم يعتبرونها شأنُ بشري يحددها مقتضيات: النص الصريح (وأمرهم شورى بينهم)، الصلاحية.

(٥٢) أمين الجبر: **الصحافة والسلطة في اليمن المعاصر**.

(٥٣) **صوت اليمن**: العدد ٤٠، السنة الأولى، ٢٠ رمضان ١٣٦٦هـ - ٧ أغسطس ١٩٤٧م، ص١.

(٥٤) **صوت اليمن**: العدد ٢٦، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص ٤.

(٥٥) أصول الزيدية الخمسة: ١ – العدل. ٢ – التوحيد. ٣ – الوعد والوعيد. ٤ – القول بالمنزلة بين المنزلتين. ٥ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٥٦) **صوت اليمن**: العدد ٢٨، السنة الأولى، ٢٤ جمادي الثانية ١٣٦٦هـ - ١٥ مايو ١٩٤٧م، ص٢.

(٥٧) **صوت اليمن**: العدد ٣٥، السنة الأولى، ١٤ شعبان ١٣٦٦هـ - ٣ يوليو ١٩٤٧م، ص١.

(٥٨) **صوت اليمن**: العدد ٣٥، السنة الأولى، ٣ يوليو ١٩٤٧م، ص٢.

(٥٩) **صوت اليمن**: العدد١٤، السنة الأولى، ١٥ ربيع الأول ١٣٦٦هـ - ٦ فبراير ١٩٤٧م، ص ١، ٣.

(٦٠) **صوت اليمن**: العدد ١٤، ١٩٤٧م، ص ١،٣.

(٦١) **صوت اليمن**: العدد ١٤، ١٩٤٧م، ص ١، ٣.

(٦٢) **صوت اليمن**: العدد ١٢، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص٤.

(٦٣) **صوت اليمن**: العدد ٢١، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص٢؛ العدد ٢٣، السنة الأولى، ١٠ أبريل ١٩٤٧م، ص ٤ ؛ العدد ٢٤، السنة الأولى، ٢٥ جمادي الأولى ١٣٦٦هـ - ١٧ أبريل ١٩٤٧م، ص ٣ ؛ العدد ٢٦، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص ٤ .

(٦٤) **صوت اليمن**: العدد ١٥، السنة الأولى، ١٣ فبراير ١٩٤٧م، ص٤.

(٦٥) **صوت اليمن**: العدد ١٥، ١٣ فبراير ١٩٤٧م، ص ٤.

(٦٦) **صوت اليمن**: العدد ١٥، ١٣ فبراير ١٩٤٧م، ص ٤.

(٦٧) **صوت اليمن**: العدد ١٨، السنة الأولى، ١٣ ربيع الثاني ١٣٦٦هـ - ٦ مارس ١٩٤٧م، ص ١.

(٦٨) **صوت اليمن**: العدد ١٦، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص ٤.

(٦٩) **صوت اليمن**: العدد ١٩، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص ٢.

(٧٠) **صوت اليمن**: العدد ٤٢، السنة الأولى، ١١شوال ١٣٦٦هـ - ٢٨اغسطس ١٩٤٧م، ص ٢.

(٧١) **صوت اليمن**: العدد٣٣، السنة الأولى، ٣٠رجب ١٣٦٦هـ - ٢٠يونيو ١٩٤٧م، ص١.

(٧٢) **صوت اليمن**: العدد ٣٨، السنة الأولى، ٦ رمضان ١٣٦٦هـ - ٢٤ يوليو ١٩٤٧م، ص١.

(٧٣) **صوت اليمن**: العدد ٢٦، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص٥.

(٧٤) **صوت اليمن**: العدد ٤٣، السنة الأولى، ٤ سبتمبر ١٩٤٧م، ص١.

(٧٥) **صوت اليمن:** العدد ١٤، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص٣.
(٧٦) **صوت اليمن:** العدد ١٤، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص ٣.
(٧٧) **صوت اليمن:** العدد ١٤، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص٣.
(٧٨) **صوت اليمن:** العدد ١٤، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص٣.
(٧٩) **صوت اليمن:** العدد ٢٧، السنة الأولى، ١٧ جمادي الثانية ١٣٦٦هـ - ٨ مايو ١٩٤٧م، ص ١.
(٨٠) **صوت اليمن:** العدد ٣١، السنة الأولى، ١٦ رجب ١٣٦٦هـ - ٥ يونية ١٩٤٧م، ص ١، ٢.
(٨١) **صوت اليمن:** العدد ٤٤، السنة الأولى، ٢٥ شوال ١٣٦٦هـ - ١١ سبتمبر ١٩٤٧م، ص٢.
(٨٢) **صوت اليمن:** العدد ٤٤، السنة الأولى، ص٢.
(٨٣) **صوت اليمن:** العدد ٣١، السنة الأولى، ٥ يونية ١٩٤٧م، ص ١، ٢؛ العدد ٢٥، السنة الأولى، ٢ جمادي الثانية، ١٣٦٦هـ - ٢٥ أبريل ١٩٤٧م، ص١.
(٨٤) **صوت اليمن:** العدد ٤٤، السنة الأولى، ١١ سبتمبر ١٩٤٧م، ص ١.
(٨٥) **صوت اليمن:** العدد ٢، القاهرة، ٤ محرم ١٣٧٥هـ - ٢٢ أغسطس ١٩٥٥م؛ العدد ٣، ١٣ المحرم ١٣٧٥هـ - ٢ سبتمبر ١٩٥٥م، ص٣؛ العدد ٤، ٢٢ محرم ١٣٧٥هـ - ٩ سبتمبر ١٩٥٥م، ص٢.
(٨٦) الجاوي، عمر: **الحكمة (الجديدة)**، العدد ٢٦ يناير ١٩٧٤م، ص٧٩، ٨٠؛ الزين، عبد الله: **اليمن ووسائله الإعلامية**، ص ٩٣، ٩٥؛ مقبل، سيف على: **تاريخ الصحافة اليمنية (مطلع القرن العشرين ١٩٦٧م)**، ص ٤٦؛ طاهر، علوي عبد الله: **الصحافة اليمنية قبل ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م**، ص٢٨؛ سلام، محمد عبد الجبار: **الإعلام اليمني والقضايا السياسية والاجتماعية**، ص ٤٣.
(٨٧) الجاوي، عمر: **مجلة الحكمة**، ص ٨٠.
(٨٨) شحرة، حميد أحمد: **مصرع الابتسامة سقوط مشروع الدولة الإسلامية في اليمن (١٩٣٨ – ١٩٤٨م)**، صنعاء، إصدارات المركز اليمني للدراسات الإستراتيجية، ط ١، ١٩٩٨م، ص ٧٧، ٧٨؛ المسعودي، عبد العزيز: محمد الزبيري ومشروع حزب الله (١٩٤١ – ١٩٦٥م)، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص ٤٨.
(٨٩) **صوت اليمن:** العدد ٥١، العام الثاني، ٢٣ ذي الحجة ١٣٦٦هـ - ٦ نوفمبر ١٩٤٧م، ص١.
(٩٠) **صوت اليمن:** العدد ٥٥، العام الثاني، ٢١ محرم ١٣٦٧هـ - ٤ ديسمبر ١٩٤٧م، ص١.
(٩١) رواه البخاري.
(٩٢) رواه أبو هريرة.
(٩٣) رواه أحمد والبزار.
(٩٤) **صوت اليمن:** العدد ٥٥، العام الثاني، ٤ ديسمبر ١٩٤٧م، ص ١.
(٩٥) **صوت اليمن:** العدد ٦٦، العام الثاني، ٩ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ - ١٩ فبراير ١٩٤٨م، ص٤؛ العدد ٦٧، العام الثاني ١٦ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ - ٢٦ فبراير ١٩٤٨م، ص ٢؛ العدد ٦٩، العام الثاني، ٣٠ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ - ١١ مارس ١٩٤٨م، ص٢.
(٩٦) **صوت اليمن:** العدد ١، السنة الأولى، ١٩٤٦م، ص٣.
(٩٧) **صوت اليمن:** العدد ٤٩، السنة الأولى، ٢٠ ذي الحجة ١٣٦٦هـ - ١٦ أكتوبر ١٩٤٧م، ص ١؛ العدد ٥٦، السنة الثانية، ٢٨ محرم ١٣٦٧هـ - ١١ ديسمبر ١٩٤٧م، ص١؛ العدد ٥٧، العام الثاني، ٥ صفر ١٣٦٧هـ - ١٨ ديسمبر ١٩٤٧م، ص١.
(٩٨) **صوت اليمن:** العدد ٤١، السنة الأولى، ٢٧ رمضان ١٣٦٦هـ - ١٤ أغسطس ١٩٤٧م، ص ١.
(٩٩) **صوت اليمن:** العدد ٣٦، السنة الأولى، ٢١ شعبان ١٣٦٦هـ - ١٠ يوليو ١٩٤٧م، ص ١.
(١٠٠) **صوت اليمن:** العدد ٢٦، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ص ٧، ٨.
(١٠١) **صوت اليمن:** العدد ١، العام الثاني، ١٥ أغسطس ١٩٥٥م، ص ١؛ العدد ٢، العام الثاني، ٢٢ أغسطس ١٩٥٥م، ص ١.
(١٠٢) **صوت اليمن:** العدد ١، العام الثاني، ١٥ أغسطس ١٩٥٥م، ص ٢؛ العدد ٤، ٩ سبتمبر١٩٥٥م، ص ٣؛ العدد ٩، ١٧ أكتوبر ١٩٥٥م، ص٨.
(١٠٣) **صوت اليمن:** العدد ١، ١٥ أغسطس ١٩٥٥م، ص ٩؛ العدد ٢، ٢٢ أغسطس ١٩٥٥م، ص٤.
(١٠٤) **صوت اليمن:** العدد ٦، القاهرة، ٩ صفر ١٣٧٥هـ - ٢٦ سبتمبر ١٩٥٥م، ص١.
(١٠٥) **صوت اليمن:** العدد ٣٤، السنة الأولى، ٦ شعبان ١٣٦٦هـ - ٢٥ يونيو ١٩٤٧م، ص ١، ٢ ؛ العدد٣٧، السنة الأولى، ٢٨ شعبان ١٣٦٦هـ - ١٧ يوليو ١٩٤٧م، ص ١ ؛ العدد ٣٨، السنة الأولى، ٦ رمضان ١٣٦٦هـ - ٢٤ يوليو ١٩٤٧م، ص١؛ العدد ٤٥، السنة الأولى، ٥ ذو القعدة ١٣٦٦هـ - ١٨ سبتمبر ١٩٤٧م، ص١.
(١٠٦) الذيفاني، عبد الله أحمد: **الاتجاه القومي في حركة الأحرار اليمنيين ١٩١٨ – ١٩٤٨م**، مركز الدراسات والبحوث اليمني، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية، صنعاء، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص ١٨٥، ١٧٨، ١٨٨.
(١٠٧) الجاوي، عمر: **مجلة الحكمة (الجديدة)** العدد ٢٦ يناير ١٩٧٤، ص ٧٠، ٧١ ؛ سلام، محمد عبد الجبار، محمد، سعيد مقبل محمد: **الصحافة اليمنية في المناطق الجنوبية. ١٩٤٠ – ١٩٦٧م**، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ١٩٩٧م، ط٢، ص ١٤ ؛ طاهر، علوي عبدالله : المصدر السابق، ص ٦٦ ؛ خبارة، عبد الرحمن: المصدر السابق، ص ٣٩، ٤٠، ٤١.
(١٠٨) الجاوي، عمر: المصدر السابق٢٦، ص ٧٠، ٧١.
(١٠٩) الجاوي: المصدر السابق٢٦، ص ٧٠؛ خبارة: المصدر السابق، ص ٣٦ ؛ طاهر: المصدر السابق، ص ٦٦.
(١١٠) **فتاة الجزيرة:** العدد٩١، السنة الثانية، ١٤ رمضان ١٣٦٠- ٥ أكتوبر ١٩٤١، ص ١ ؛ العدد٩٤، السنة الثانية، ١٣ شوال ١٣٦٠- ٢٠ نوفمبر ١٩٤١، ص ١ ؛ العدد٢٠٢، السنة الخامسة، ١ يناير ٥ محرم ١٣٦٣ – ١٩٤٤، ص ١.
(١١١) **فتاة الجزيرة:** العدد١٥٢، السنة الرابعة، ٢٦ ذي الحجة ١٣٦١- ٣ يناير ١٩٤٣، ص ١.
(١١٢) **فتاة الجزيرة:** العدد ١، السنة الأولى، ص ١. نقلاً عن سيف علي مقبل: المصدر السابق، ص٣٩.
(١١٣) **فتاة الجزيرة:** العدد٩٩، السنة الثانية، ١٨ ذو القعدة ١٣٦٠- ٧ ديسمبر ١٩٤١، ص ١.
(١١٤) **فتاة الجزيرة:** العدد ٢٥٣، ٢٥٤، السنة السادسة، ٣٠ محرم ١٣٦٤ – ١٤ يناير ١٩٤٥، ص١، ١٦.
(١١٥) سلام، محمد عبد الجبار ومحمد سعيد مقبل: المصدر السابق، ص ٢٤.
(١١٦) **فتاة الجزيرة:** العدد ٣٠، ٣٦، ١٩٤٧، ص ٣. نقلاً عن سيف علي مقبل: المصدر السابق، ص ٤٠، ٤١.
(١١٧) **فتاة الجزيرة:** العدد ١٣٥٠، ١٥ الحجة ١٣٧٩- ٩ يونية ١٩٦٠، ص ١.
(١١٨) **فتاة الجزيرة:** العدد ١٩٠، ٢٦ رمضان ١٣٦٢- ٢٦ سبتمبر ١٩٤٣، ص ٣.
(١١٩) **فتاة الجزيرة:** العدد ٢٠٣، ٩ يناير ١٩٤٤- ١٢ محرم ١٣٦٣، ص ١.
(١٢٠) سلام، محمد عبد الجبار، ومحمد سعيد مقبل محمد: المصدر السابق، ص ١٩، ٢٠.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

التعديلات الدستوريّة آليّة ترسيخ الاستبداد السياسي في تونس من ١٩٥٩ إلى ١٩٨٧



د. ثامر سعداوي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
أستاذ تعليم ثانوي أوّل فوق الرتبة
وزارة التربية – الجمهوريّة التونسيّة

مُلَخّصْ

تبحث هذه الدراسة التعديلات الدستورية التي أجريت على دستور ١ جوان ١٩٥٩ في تونس خلال فترة حكم الرئيس الحبيب بورقيبة التي امتدّت بين ١٩٥٦و١٩٨٧. وهي تبرز مدى استجابة النخب الحاكمة إبّان الاستقلال للمطلب رفعته القوى الوطنيّة منذ العشرينات في وضع دستور يرسّخ قيم الاستقلال ويبني نظاما سياسيّا ديمقراطيّا، ومنذ بداية الإعداد لانتخابات المجلس القومي التأسيسي بدأت تظهر نوايا الحزب الحر الدستوري في السيطرة على كل دواليب الحكم وهو ما أكّدته نتائج الانتخابات حيث تكوّن المجلس من الحزب وحلفائه وتمكّن من فرض رؤاه وتصوّراته لطبيعة النظام السياسي بإلغاء الملكيّة وإعلان الجمهوريّة ثم فرض رؤيته لنظام الحكم عبر إقرار نظام رئاسي على الطريقة الأمريكيّة. واصل الرئيس الحبيب بورقيبة فرض سيطرته على الحياة السياسيّة عبر التعديلات الدستوريّة التي اقترنت بالأزمة التي عاشها النظام السياسي خاصّة بعد فشل تجربة التعاضد في الستينيّات فنصّ تعديل ١٩٦٩ على تفويض مهام رئيس الجمهوريّة إلى الوزير الأوّل وهو ما خلق تنافسا بين الطامحين في خلافة الرئيس الحبيب بورقيبة. وأقرّ تعديل ١٩٧٥ الرئاسة مدى الحياة في ضرب لمبدأ التداول السلمي على السلطة. وغيّر تعديل ١٩٧٦ من شكل نظام الحكم من خلال دسترة الحكومة كأحد مكوّنات السلطة التنفيذيّة لتخفيف الضغط على الرئيس وإبقائه واضعا وموجها للسياسات دون تحمّل تبعات أي فشل ممكن. وبذلك انحرفت "دولة بورقيبة" نحو الاستبداد عبر استخدم التعديلات الدستوريّة، وفقد النص الدستوري علويّته وأصبح خاضعًا لرغبات الرئيس وحزبه.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٧ يناير ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٧ فبراير ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

التاريخ السياسي؛ تاريخ الزمن الراهن؛ نظام الحكم؛ الحبيب بورقيبة؛ الحزب الحر؛ تاريخ تونس المعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325505 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ثامر سعداوي. "التعديلات الدستورية آلية ترسيخ الاستبداد السياسي في تونس من ١٩٥٩ إلى ١٩٨٧".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ١٦٤ – ١٧٧.

Corresponding author: thamersaadaoui@outlook.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

دستوركم يا سادتي مُفصّل
كما يُريد الحاكم ملابسه
يزيد في أكمامه... في طوله
يُفصّل فصوله مُقايسة

ـــ الشاعر محمد الجلاّلي (قصيدة في دولة القانون)

مُقدِّمَةُ

قد يصبح من الضروري على الدولة/ السلطة في العصر الحديث والمعاصر، كعرف تقليدي والتزام رسمي، استخدام وسائل الإعلام بمختلف أنواعها، لا سيما الصحافة منها، وذلك بقصد التعبير عن رؤاها وسياساتها ونشر خططها واستراتيجياتها فضلاً عن تكوين راي عام مساند لها وداعم

اعتبرت النخب التونسيّة أنّ الدستور هو طريق الإصلاح السياسي، ونشأ الحزب الحرّ الدستوري التونسي في مارس ١٩٢٠ وقاد النضال الوطني ضد المستعمر الفرنسي رافعا مطلب الدستور كمنطلق وغاية للإصلاح والتحرّر، واندرجت "المناداة بالدستور ... ضمن استراتيجية عامّة قصد تخليص البلاد من الهيمنة الأجنبيّة وبناء الكيان الوطني" (عمر، ١٩٨٦)، وبذلك فإنّ الدستور مثّل مطلبا مركزيّا في الخطاب النضالي للحركة الوطنيّة التونسيّة من أجل التحرّر من الاستعمار (عليّة الصغيرّ، ٢٠١١، صفحة ٤٨). وكان إنجاز دستور هو أوّل أهداف النخب التونسيّة منذ تحقيق الاستقلال الداخلي، وتحوّل إلى أهمّ أهداف قادة تونس المستقلّة لترسيخ أسس الدولة الحديثة وبناء أركان النظام الجديد.

سنحاول في هذه الدراسة البحثيّة رصد التعديلات الدستوريّة في تونس خلال فترة حكم الرئيس الأوّل للجمهوريّة التونسيّة الحبيب بورقيبة ودور هذه التعديلات في السير بالنظام السياسي نحو الاستبداد بما هو تطويع للدولة لخدمة الزعيم وحزبه دون الخضوع لضوابط أو قوانين. أمّا بالنسبة لمنهج هذه الدراسة البحثيّة التي تتمّ في إطار تاريخ الزمن الرّاهن فسنحاول مقاربتها وفق ما تقتضيه مناهج الكتابة التاريخيّة من دراسة أسباب الأحداث ونتائجها وتدقيق وجهات النظر والأفكار والرؤى المختلفة عبر مجابهة الوثيقة بالوثيقة، لذلك سنسعى لتنويع مادتنا المصدريّة والمراوحة بين الوثائق الرسميّة والخطابات والمذكّرات. كما سنعمل على الاستفادة من بقيّة العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة لدراسة المضامين الدستوريّة والتغيرّات التي طرأت عليها وساهمت من خلالها في إرساء منظومة الاستبداد واستمرارها.

أولاً: دستور ١٩٥٩

١/١-إنجاز الدستور

تتعدّد أساليب وضع الدساتير وتتمثّل في المنح والتعاقد والجمعيّة التأسيسيّة والاستفتاء التأسيسي أو الدستوري والاستفتاء السياسي. وأسلوب المنح "يمنح بمقتضاه الملك دستورا إلى شعبه بدون أن يتدخّل الشعب في ذلك"، والتعاقد وهو الاتفاق بين الملك والهيئة الممثلة للشعب، أمّا الجمعيّة التأسيسيّة فيتمّ انتخابها وتتولىّ إعداد الدستور، وبالنسبة للاستفتاء التأسيسي أو الدستوري، والاستفتاء السياسي فيتمّ وضع دستور ويستفتى الشعب على قبوله أو رفضه (المظفّر، ١٩٨٦). ويعتبر أسلوب المنح من الأساليب غير الديمقراطية والآليات السلطوية لإنجاز الدساتير لأنّه يجسّد إرادة الحاكم، أما الدستور الناتج عن أسلوب التعاقد فهو دستور نصف سلطوي لامتزاج إرادة الحاكم بإرادة الشعب (المساوي، ٢٠١٧، الصفحات ٧٣-٧٤).

أمّا الجمعيّة التأسيسيّة والاستفتاء التأسيسي أو الدستوري والاستفتاء السياسي فهي من الأساليب الديمقراطية في وضع الدساتير وتتميّز بحضور الإرادة الشعبيّة بشكل كبير في مرحلة الإنجاز (المساوي، ٢٠١٧، صفحة ٧٦). وكان أوّل ظهور للجمعية التأسيسية المنتخبة في العصر الحديث في الولايات المتحدة الأمريكية بعد استقلالها في ١٧٧٦، حيث انتخبت كل ولاية جمعية تأسيسيّة وضعت دستورا، كما وضعت الجمعيّة التأسيسيّة الدستور الفيدرالي، وأيضا صدرت دساتير فرنسا لـ١٧٩١ و١٨٤٨ و١٨٧٥ عن جمعيّات تأسيسيّة (المساوي، ٢٠١٧، صفحة ٧٧).

في تونس كانت رغبة محمّد الأمين باي هي منح دستور للمملكة يعدّه ثلاثة فقهاء دستوريين تونسيين وفرنسي وهو إما موريس دوفرجيه أو جورج فيديل ويتمّ فرضه على الشعب لاحقا ويقرّ نظاما ملكيا دستوريا برلمانيا ديمقراطيا يعتمد الفصل بين السلطات ويكون فيه رئيس الحكومة هو رئيس الحزب الأغلبي في المجلس التشريعي وتكون الحكومة مسؤولة أمامه، ويحافظ فيه الملك على مكانته البروتوكوليّة كرمز للدولة، مع تواصل الشكل الوراثي لانتقال السلطة وإلغاء قاعدة منح ولاية العهد لأكبر أمراء العائلة الحسينيّة سنا. وكان الباي يهدف

من خلال ذلك لتنصيب ابنه الشاذلي باي خلفا له والتصدّي لرغبة الحبيب بورقيبة في إقامة نظام جمهوري (BEY, 2012).

رفض الحزب الحر الدستوري الدستور الممنوح وطالب مؤتمر الحزب المنعقد بصفاقس في نوفمبر ١٩٥٥ بانتخاب هيئة تأسيسية في انتخابات حرّة ديمقراطيّة (إدريس، ٢٠٠١) وضغط على الباي لاعتماد أسلوب التعاقد (المظفّر، ١٩٨٦)، وهو ما مكّن من اعتماد طريقة ديمقراطيّة لإنجاز الدستور تتمثّل في مجلس تأسيسي (عمر، ١٩٨٦)، لكنّ هذا المجلس لم تكن له سلطة أصليّة فهو سلطة تأسيسيّة مقيّدة لا تمتلك كلّ الصلاحيّات أو حريّة صياغة دستور، فالباي هو الذي يقر الدستور الذي يعده المجلس (عمر، ١٩٨٦). ويعتبر أسلوب الجمعية التأسيسية المنتخبة مميزًا لأنّه يمكّن من فتح نقاش عام في الفضاء المفتوح حول مواد النص الدستوري (المساوي، ٢٠١٧، صفحة ٧٦). واستوحت قيادة الحركة الوطنيّة هذه الفكرة من المسار الذي اعتمدته الثورة الفرنسيّة (المكني، ٢٠١١، صفحة ١٣).

أجريت انتخابات المجلس القومي التأسيسي في ٢٥ مارس ١٩٥٦، شارك فيها كل من الجبهة القوميّة والحزب الشيوعي التونسي وبعض المستقلّين، وتكوّنت الجبهة القوميّة من الحزب الحرّ الدستوري الجديد وحلفاؤه من المنظمات القوميّة وهي الاتحاد العام التونسي للشغل واتحاد الصناعة والتجارة واتحاد المزارعين التونسيين، وتمكّنت الجبهة القوميّة من الحصول على كل المقاعد الـ ٩٨ وحصدت ٩٨,٣٤ % من أصوات المقترعين.

يطرح وضع الدستور من قبل جمعية تأسيسية إشكالا أساسيا وهو هيمنة تيّار أو حزب على الجمعيّة التأسيسيّة وتوجيه أشغالها وبالتالي وضع دستور يخدم مصالحها ويمكّنها من امتيازات دون أن يعبرّ عن أن يعبرّ عن طموحات كل مكوّنات الشعب (المساوي، ٢٠١٧، صفحة ٧٧)، وهو ما حصل في تونس بعد الاستقلال حيث سيطر الحزب الحر الدستوري الجديد على المجلس القومي التأسيسي وحوّله إلى أداة لتطبيق برامجه. وشارك أعضاء الحكومة في أشغال المجلس بصفتهم نوّابا، كما شارك رئيس الدولة بصفته نائب وكان صوته مهيمنا ووجّه النواب المؤسّسين لكتابة الدستور على قياسه (Bessis & Belhassen, 2012, p. 247). وكان التوجّه العام للمجلس هو إقرار نظام ملكي برلماني وهو ما يجسّده مشروع دستور ٩ جانفي ١٩٥٧ (بوقرَة، ٢٠١١، صفحة ٤٦)، لكنّ تمّ التخلي عن مشروع الملكيّة البرلمانيّة وأعلنت الجمهوريّة في جلسة ٢٥ جويلية ١٩٥٧ وعينّ الحبيب بورقيبة رئيسًا مؤقتًا.

بعد إعلان الجمهوريّة تمّت مواءمة مشروع دستور النظام الملكي البرلماني مع النظام الجمهوري، وسعى الرئيس الحبيب بورقيبة لوضع أسس نظام قويّ يعتمد على حزب واحد وقائد واحد، لذلك عمل على إقرار نظام رئاسي مشابه لنظام الولايات المتّحدة الأمريكيّة ليتمكّن من الاستحواذ على كلّ الصلاحيّات (بلخوجة، ٢٠٠٢)، لأنّه يعتبر أنّ النظام البرلماني على الشاكلة الفرنسيّة غير ضامن للاستقرار السياسي في بلد تتميّز أوضاعه الداخليّة بالضعف وعدم الاستقرار السياسي واستمرار الخلاف البورقيبي اليوسفي خاصّة مع تواصل رواسب الاستعمار وخضوع بعض أراضيه للسيطرة الاستعماريّة (بوقرَة، ٢٠١١، صفحة ٤٨).

٢/١-محتوى الدستور

تبنّى النصّ النهائي لدستور ١ جوان ١٩٥٩ "نظام رئاسوي مغلق" سيطر على الدولة بكل مفاصلها ومؤسّساتها والمجتمع بكل مكوّناته، وتمركزت فيه السلطات حول رئيس الدولة وهو نفس المبدأ الذي تبنّاه دستور الجمهوريّة الفرنسيّة الخامسة بإعطاء الرئاسة مكانة محوريّة (مالكي، ٢٠١٢)، وهو ما يؤكّد أنّ البلدان التي استقلّت بعد الحرب العالميّة الثانية اعتمدت دساتير دولها الجديدة على دساتير الدول الاستعماريّة (ليبهارت، ٢٠١٣). ورغم إشارة الدستور إلى المبدأ المقدس في الديمقراطية الليبرالية وهو الفصل بين السلطات، لكن كان هناك تناقض بين النص والقاعدة القانونيّة من جهة والممارسة السياسية من جهة ثانية، لأنّ الحزب احتكر السلطة وحدّد السياسات العامة للدولة. ولئن احتفظت السلطات التنفيذيّة والتشريعيّة بوظائفها فإنّها كانت تطبّق ذلك في إطار السياسات التي وضعها الحزب، وكانت مؤسسات الدولة مسؤولة أمام الهيئات الحزبية، فهي التي

تعينّ أفرادها قبل المصادقة عليهم بالاقتراع العام (Camau, 1975).

يمثّل رئيس الدولة السلطة التنفيذيّة في دستور ١٩٥٩ ويرأس اجتماعات الحكومة ولا يخضع لرقابة البرلمان، كما يمتلك صلاحيّات تشريعيّة وبإمكانه رفض مشاريع القوانين في قراءة أولى على شاكلة النظام الرئاسي الأمريكي، ويمارس الصلاحيات الترتيبيّة والدفاع الوطني باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلّحة ورئيسا للجهاز الدبلوماسي ويمضي المعاهدات ويصدر العفو وبإمكانه حلّ البرلمان (Silvera, 1960) . فرئيس الجمهوريّة يمتلك سلطة مطلقة مقارنة بالسلطة التشريعيّة، كما تبدو مكانة الحكومة متواضعة مقارنة برئيس الجمهوريّة (مالكي، ٢٠١٢). وصلاحيات رئيس الجمهوريّة التنفيذية والتشريعيّة في الدستور كانت استجابة "للرغبات الاحتوائية لشخص بورقيبة" الذي ما زال يتمتع بصحة جيّدة وقدرات ذهنيّة تمكنّه من التحرك بحرية وسهولة في كل المجالات (عبد الرحيم، ٢٠٠٣). وكانت مركزة السلطات بيد رئيس الدولة مقدّمة لتكريس نظام فردي استبدادي، وبذلك جسّد الدستور الجديد مطامح بورقيبة في نظام سياسي تمتلك السلطة التنفيذيّة صلاحيات كبيرة لمجابهة واقع ما بعد الاستعمار (البوبكري، ٢٠١٣)، وتعويض الفراغ الذي تركته سلطات الحماية في "هياكل الدولة وبنى المجتمع" (بوشلاكة، ٢٠٠٥). واختزلت الممارسة الدستوريّة في العشريّة الأولى من الاستقلال السلطة التنفيذيّة في رئيس الجمهوريّة مع غياب المؤسّسة الحكوميّة فلا وجود لوزير أوّل ولا لوزراء، بل كتّاب دولة وهي شبيهة بالسلطة التنفيذيّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة حيث رئيس الجمهوريّة هو رئيس السلطة التنفيذيّة ومساعدوه كتاب دولة (القليبي، ٢٠٠٠).

تزامنت كتابة الدستور مع سلوك سياسي غير ديمقراطي تمثّل في إبعاد المعارضة اليوسفيّة وتحجير النشاط السياسي والسيطرة على المنظّمات والجمعيّات وإخضاع الصحافة وهو ما حوّل النظام السياسي من رئاسي إلى رئاسوي فردي قمعي مغلق رسّخ سيطرة الزعيم والحزب ووضع تقاليد الاستبداد. ومثّلت التعديلات الدستوريّة إحدى الآليّات التي اعتمدها النظام البورقيبي لوضع أسس الاستبداد وترسيخه.

ثانيًا: التعديلات الدستوريّة

٢/١-في مفهوم التعديل الدستوري

تعديل الدستور هو عملية تغيير جزئي لبعض أحكام النص الدستوري سواء بالإضافة، أو الحذف أو بالتبديل أو التغيير وفقا للإجراءات والشروط المحددة في الدستور، وتقوم به السلطة المختصة بالتعديل استجابة لتغيّر الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية لكي يساير الدستور هذه التغيرات (الرقاد و الرقاد، ٢٠١٦). ويساهم التعديل الدستوري أيضا في تجاوز بعض نقائص وعيوب النص الدستوري مثل الغموض والتعارض (عزت، ٢٠٢٠).

ودافع أغلب رجال القانون منذ القرن الثامن عشر عن فكرة تعديل الدستور لكنّهم اختلفوا حول الجهة التي تتولّى التعديل، حيث اشترط السويسري إمير دي فاتل Emer de Vattel موافقة أغلب أفراد الشعب واعتبر الفرنسي إيمانويل جوزيف سياس Emmanuel Sieyès Josephأنّ الأمّة قادرة على تغيير دستورها متى شاءت وقبل الفرنسي جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau مبدأ تعديل الدستور ورأى ضرورة إجراءه من قبل السلطة المختصّة في ذلك والتي نص عليها الدستور (أحمد و عبد االله، ٢٠٠٩). ويعتبر تعديل الدستور الأمريكي الذي صادق عليه الكونغرس في ٢٥ سبتمبر 1789 أقدم التعديلات الدستوريّة في تاريخ الدول الحديثة (الرقاد والرقاد، ٢٠١٦).

وتختلف إجراءات تعديل الدساتير، لكن إجمالا يمرّ التعديل الدستوري بأربع مراحل وهي اقتراح التعديل ثمّ الموافقة على التعديل ثمّ إعداد التعديل وأخيرًا الإقرار النهائي للتعديل (أحمد و عبد االله، ٢٠٠٩). والجهات التي لها الحق في تقديم مبادرة تعديل الدستور في مختلف الأنظمة السياسيّة هي السلطة التنفيذية ومؤسّسة أو مؤسّسات السلطة التشريعية أو تكون مبادرة تعديل الدستور مشتركة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية (المساوي، ٢٠١٧، صفحة ٨٨)، لكنّ مبادرات التعديل من السلطة التشريعيّة نادرة مقارنة بمبادرات السلطة التنفيذيّة (المساوي، ٢٠١٧، صفحة ٨٩).

وتستعمل عديد العبارات للتدليل على التعديل الدستوري وأبرزها تنقيح ومراجعة وتغيير وتبديل وتحوير، ويعتبر البعض مثل الأستاذ فوزي أوصديق أنّه من الأفضل استخدام عبارة "نقّح" بدلا من "عدّل" لأنّ التنقيـح لا يعني إعادة صياغة النص، في حين أنّ التعديل يوحي بذلك (مولود، ٢٠٠٩-٢٠١٠). في دستور ١ جانفي ١٩٥٩ في تونس تمّ اعتماد لفظ تنقيح وخصّص الباب التاسع لتنقيح الدستور(الفصول ٦٠-٦١-٦٢) نصّ الفصل ٦٠ على أنّه "لرئيس الجمهوريّة أو لثلث أعضاء مجلس الأمّة على الأقلّ الحقّ في المطالبة بتنقيح الدستور ما لم يمسّ ذلك بالنظام الجمهوري للدولة"، وبذلك حصر هذا الفصل مبادرة التنقيح في الرئيس رأس السلطة التنفيذيّة وأيضا السلطة التشريعيّة مع إمكانيّة تغيير محتوى الدستور مع الحفاظ على النظام الجمهوري. واشترط الفصل ٦١ إقرار التنقيح بأغلبيّة الثلثين على الأقلّ وفي قراءتين تفصل بينهما ثلاثة أشهر على الأقلّ، أمّ الفصل ٦٢ فنصّ على ضرورة ختم رئيس الجمهوريّة للتنقيح ليصبح نافذا بعد إصداره في الرائد الرسمي في أجل لا يتجاوز خمسة عشر يوما حسب ما نص عليه الفصل ٤٤ في إطار التعرّض لصلاحيّات رئيس الجمهوريّة.

خضع دستور ١ جانفي ١٩٥٩ إلى ٧ تعديلات أثناء فترة حكم الرئيس الحبيب بورقيبة انطلقت من ١ جويلية ١٩٦٥ وتواصلت إلى ٩ سبتمبر ١٩٨١، وفيما يلي تواريخ وماهية هذه التعديلات الدستوريّة:

جدول رقم (١)
التعديلات الدستوريّة في فترة حكم الحبيب بورقيبة

عدد القانون	تاريخ التعديل	ماهية التعديل
٢٣ لسنة ١٩٦٥	١ جويلية ١٩٦٥	- فترة انعقاد الدورة العادية لمجلس الأمة وإلغاء نظام الدورتين النيابيّتين وتعويضه بنظام الدورة الواحدة.
٢٣ لسنة ١٩٦٧	٣٠ جوان ١٩٦٧	- انعقاد مجلس الأمة وتاريخ بداية المدة النيابية.
٦٣ لسنة ١٩٦٩	٣١ ديسمبر ١٩٦٩	- إذا تعذر على رئيس الجمهورية القيام بمهامه بصورة وقتية، فإنّه يفوض سلطاته إلى الوزير الأول مع إعلام رئيس مجلس الأمة. - عند شغور منصب رئاسة الجمهورية يتولى الوزير الأول مهام رئاسة الدولة.
١٣ لسنة ١٩٧٥	١٩ مارس ١٩٧٥	- الفصل ٤٠: إسناد رئاسة الجمهورية مدى الحياة وبصفة استثنائية إلى الرئيس الحبيب بورقيبة. - الفصل ٥١: عند شغور منصب رئاسة الجمهورية يتولى الوزير الأول مهام رئاسة الدولة لما بقي من المدة النيابية الجارية لمجلس الأمة.
٣٧ لسنة ١٩٧٦	٨ افريل ١٩٧٦	- اتاح لمجلس الأمة مراقبة الحكومة وإمكانيّة تقديم لائحة لوم - مكّن رئيس الجمهوريّة من حلّ البرلمان.
٤٧ لسنة ١٩٨١	٩ جوان ١٩٨١	- تغيير تسمية مؤسسة "مجلس الأمة" بـ"مجلس النواب"
٧٨ لسنة ١٩٨١	٩ سبتمبر ١٩٨١	- تنظيم انتخابات تشريعية سابقة لأوانها.

٢/٢-التعديلات الشكليّة

وكانت بعض التعديلات ذات طابع فنّي لم تمسّ من جوهر الدستور مثل تعديلات ١ جويلية ١٩٦٥ و٣٠ جوان ١٩٦٧ و٩ جوان ١٩٨١ والتي تناولت مسائل شكليّة مثل الدورات النيابيّة وفترة انعقادها وتغيير تسمية المؤسّسة البرلمانيّة.

*** تعديل ١٩٦٥:**

نقّح تعديل ١ جويلية ١٩٦٥ الفصل ٢٩ من الدستور ونصّه "يعقد مجلس الأمّة في كل سنة دورتين عاديتين يحدّدهما القانون، ولا تتجاوز كل دورة ثلاثة أشهر ويجتمع المجلس بصورة استثنائيّة بطلب من رئيس الجمهوريّة أو بطلب من أغلبيّة النواب" (الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٣٠، ١٩٥٩)، بفصل جديد نصّه "يعقد مجلس الأمّة في كلّ سنة دورة عاديّة واحدة تبتدئ خلال النصف الثاني من شهر أكتوبر وتنتهي خلال النصف الأوّل من شهر جويلية. على أن تكون بداية الدورة الأولى من المدّة النيابيّة خلال النصف الأوّل من شهر نوفمبر. ويجتمع المجلس أثناء عطلته في دورة استثنائيّة بطلب من رئيس الجمهوريّة أو بطلب من أغلبيّة النواب" (الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٣٥، ١٩٦٥) وتعلّق هذا التعديل بفترة انعقاد الدورة العادية لمجلس الأمة حيث ألغى نظام الدورتين النيابيّتين وعوّضه بنظام الدورة الواحدة.

*** تعديل ١٩٦٧:**

نقّح تعديل ٣٠ جوان ١٩٦٧ الفصل ٢٩ من الدستور والذي سبق تنقيحه في ١ جويلية ١٩٦٥ وتعلّق هذا التنقيح بتاريخ بداية المدة النيابة ونهايتها حيث أصبحت "تبتدئ خلال شهر أكتوبر وتنتهي خلال شهر جويلية"، عوضا عن النصف الأوّل من شهر جويلية والنصف الأوّل من شهر أكتوبر (الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٢٧، ١٩٦٧).

*** تعديل ٩ جوان ١٩٨١:**

أقرّ التنقيح الدستوري لـ ٩ جوان ١٩٨١ تغيير تسمية مؤسّسة "مجلس الأمة" بـ"مجلس النواب" في ستّة وعشرون فصلا من الدستور وهي الفصول ٢-١٨-١٩-٢١-٢٢-٢٤-٢٥-٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣٩-٤٠-٤٢-٤٦-٤٨-٤٩-٥٢-٥٦-٥٧-٦١-٦٢-٦٣-٧٠-٧٢-٧٣.

في دستور ١ جوان ١٩٥٩ أطلقت تسمية مجلس الأمّة على المؤسّسة التشريعيّة خلال ظرفيّة عامّة تميزت بتبنّي أيدولوجيا الدولة الوطنيّة القطريّة التي أعلت من مكانة "الأمّة التونسيّة" في مواجهة موجة القوميّة العربيّة والمدّ القومي في المشرق العربي. وكان مفهوم الأمّة الأكثر حضورا في الحقل الدلالي الذي استعمله بورقيبة، وهذا المفهوم "ينطوي على مستوى وطني محليّ قومي تونسي" (موسى، ٢٠١١، الصفحات ٩٢-٩٣). وبدأ مسار "إعادة صياغة الهويّة التونسيّة" و"الأمّة التونسيّة" منذ الانطلاق في كتابة الدستور ودوّن ذلك في الديباجة كما ذكرت "الأسرة العربيّة" للاحتفاظ "بتعبير الأمّة للأمّة التونسيّة"، ولجعل مفاهيم الأمّة والشعب متناسقة استعملت صياغة "نحن نواب الأمّة" إعلان الجمهوريّة وتمّ اعتماد تسمية المؤسّسة التشريعيّة بمجلس الأمّة (المنصر، ٢٠٠٧، صفحة ٤٦)، وذلك انطلاقا من مسودة الدستور المؤرخة في ٣٠ جانفي ١٩٥٨ بعد أن كانت المؤسّسات التشريعيّة تسمّى المجلس الوطني ومجلس الشورى في مسودة الدستور المؤرخة في ٩ جانفي ١٩٥٧. كما احتوت كل مؤسسات الدولة على عبارة القومي أو القوميّة مثل المجلس القومي التأسيسي، كتابة الدولة للتربية القوميّة، والشركات القوميّة، الفريق القومي بالنسبة للمنتخبات الرياضيّة. وبعد تراجع فكرة القوميّة العربيّة في المشرق وضعف تأثيرها الإيديولوجي في تونس تمّ تغيير لفظ القومي في تسمية المؤسّسات بألفاظ الوطنيّة والتونسيّة كما تم تغيير تسمية مجلس الأمّة بمجلس الشعب.

٣/٢-تعديل ٩ سبتمبر ١٩٨١: تعديل استثنائي

كانت بعض التعديلات الدستوريّة استثنائيّة مرتبطة بتغيرّ الواقع السياسي مثل تعديل ٩ سبتمبر ١٩٨١ الذي أقرّ تنظيم انتخابات تشريعية سابقة لأوانها استجابة للضغوطات المطالبة بالسير بالنظام السياسي نحو الديمقراطيّة سواء داخل السلطة أو خارجها خاصّة بعد انشقاق مجموعة من قيادات الصفّ الأوّل في الحزب الحاكم بسبب غياب الديمقراطيّة وتأسيسهم لحركة الديمقراطيين الاشتراكيين إضافة إلى الأزمة الاجتماعيّة التي بلغت ذروتها بالصدام مع الاتحاد العام التونسي للشغل في أحداث جانفي ١٩٧٨ وأحداث قفصة وهي

عمليّة قادها كومندوس مسلّح عروبي التوجّه لقلب نظام الحكم انطلاقًا من مدينة قفصة بالجنوب الغربي التونسي في الليلة الفاصلة بين ٢٦ و٢٧ جانفي ١٩٨٠. كلّ هذه الأحداث دفعت النظام التونسي للمضيّ مكرها نحو التوجّه الديمقراطي.

وفي المؤتمر الخارق للعادة للحزب الاشتراكي الدستوري المنعقد بتونس ٨-٩-١٠ أفريل ١٩٨١ في ١٩٨١ تم إقناع الرئيس الحبيب بورقيبة بضرورة الانفتاح السياسي وهو ما يستوجب القيام بتعديل دستوري. أقرّ تعديل ٩ سبتمبر ١٩٨١ إجراء انتخابات تشريعيّة سابقة لأوانها قبل ٣١ ديسمبر ١٩٨١ لتجديد مجلس النواب (الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٥٦، ١٩٨١).

وبالفعل أجريت الانتخابات في ١ نوفمبر ١٩٨١ بمشاركة الجبهة القوميّة المتكوّنة من تحالف الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم مع المنظّمات القوميّة وحركة الديمقراطيين الاشتراكيين وحركة الوحدة الشعبيّة والحزب الشيوعي التونسي. لكنّ الصراع المتواصل حول خلافة الرئيس بورقيبة وبلوغ أصداء عن إمكانيّة فوز حركة الديمقراطيين الاشتراكيين المعارضة في بعض الدوائر وخاصّة تونس العاصمة دفع وسيلة بورقيبة زوجة الرئيس إلى التأثير على بورقيبة الذي اتّخذ قرار تزوير الانتخابات وكلّف وزير الداخليّة إدريس قيقة الذي يشرف عليها بالقيام بهذه المهمّة (Dougui, 2020, p. 231)، رغم أنّ المنجي الكعلي مدير الحزب والطاهر بلخوجة وزير الإعلام وإدريس قيقة قدموا ضمانات بنزاهة الانتخابات لأحمد المستيري الأمين العام لحركة الديمقراطيين الاشتراكيين ومرشّحها في دائرة تونس، لكنّهم بعد تزوير الانتخابات لم يعلقوا على النتائج ولم يردوا على اتّهامات المستيري بتزوير الانتخابات (الصيّاح، ٢٠١٢، صفحة ٢٨٩). ورغم إقرار محمّد مزالي الوزير الأوّل بصعوبة فوز قائمات المعارضة بسبب القانون الانتخابي الذي يعتمد التصويت على القائمة بالأغلبيّة والذي يرجّح فوز قائمات الجبهة القوميّة، فإنّه أقرّ بتزوير وزير الداخليّة إدريس قيقة وزوجة الرئيس وسيلة بورقيبة ومدير السجون عمر شاشيّة للانتخابات ومنح مرشّح حركة الديمقراطيين الاشتراكيين على دائرة تونس أحمد المستيري ٢٧٠٠ صوتا فقط (مزالي، ٢٠٠٧، الصفحات ٤٣٨-٤٣٩). كما اعتبر مزالي أن سبب التزوير يعود لرغبة الرئيس الرئيس الحبيب بورقيبة وهو أيضا كان استجابة لرغبة وسيلة في إحراج محمّد مزالي ومنع تقاربه مع أحمد المستيري (مزالي، ٢٠٠٧، صفحة ٤٣٩). كما اعترف الباجي قائد السبسي مرشّح الجبهة القوميّة على دائرة تونس في مواجهة أحمد المستيري بتزوير كل الاستحقاقات الانتخابيّة في فترة حكم الرئيس الحبيب بورقيبة (قائد السبسي، ٢٠١١).

وبذلك فإنّ الانتخابات التشريعيّة لم تغيّر الواقع السياسي وفشلت في إرساء أسس الديمقراطيّة من خلال التداول السلمي على السلطة نتيجة تراجع الرئيس الحبيب بورقيبة تحت تأثير زوجته وسيلة التي كانت، رفقة حلفائها في الحزب والحكومة، ترفض هذا الخيار (Dougui, 2020, p. 231).

ثالثًا: التعديلات الدستوريّة ودورها في ترسيخ الاستبداد

وكانت بعض التعديلات الدستوريّة في تونس جوهريّة ونفذت إلى عمق النصّ الدستوري (عاشور، ٢٠٠١، الصفحات ١٠٥-١١١) مثل تعديلات ٣١ ديسمبر ١٩٦٩ و١٩ مارس ١٩٧٥ و٨ أفريل ١٩٧٦. هذه التعديلات غلّبت المعطيات الذاتيّة والشخصيّة على المعطى المؤسّساتي (عمر ع.، ٢٠٠٠)، وجاءت كلّها بعد إنهاء تجربة التعاضد في سبتمبر ١٩٦٩ وتقدّم السن بالرئيس الحبيب بورقيبة وبداية متاعبه الصحيّة وتراجع قدراته الخطابيّة وأنشطته وعدم ثقته في معاونيه، وهو طرح مسألة خلافته بجديّة خاصّة مع رفض الرئيس بورقيبة منح الثقة للشعب لاختيار رئيسه (Kraiem, 2000).

ويبرز عدم الاستقرار الدستوري تناقضات الطبقة الحاكمة (Camau, 1975) ، وتستخدم الأنظمة السياسيّة آليات وأجهزة مختلفة لتقويض الديمقراطية، بما في ذلك أدوات التغيير الدستوري التي تعتبر طريقة فعالة للأطراف القوية لترسيخ نفوذها عبر إضعاف المؤسّسات وتهميش المعارضة السياسيّة (Landau, 2017).

في تونس ساهمت النصوص الدستوريّة في ترسيخ الاستبداد وتدعيم الحكم الفردي أثناء الفترة البورقيبيّة فهي كرّست "نمط الحكم التسلطي الذي تكون فيه

صلاحيات السلطة التنفيذية بصفة عامة، وصلاحيات رئيس الجمهورية بصفة خاصة، مهيمنة على بقية المؤسسات الدستورية. وبذلك تدعّم التوجه التسلطي الذي طبع نظام الحكم السياسي في تونس طوال ثلاثة عقود من حكم الحبيب بورقيبة" (البوبكري، ٢٠١٣)، ولم يكن بورقيبة وفيّا للقيم الدستوريّة التي جاء بها دستور ١٩٥٩ (عليّة الصغيرّ، ٢٠١١، الصفحات ٥١-٦١).

٣/١-تعديل ١٩٦٩ وتفويض المهام للوزير الأوّل

هناك دوافع سياسية داخليّة لإجراء التعديلات الدستوريّة تتمثّل في إجراء إصلاحات أو تحقيق رؤى معينة (الرقاد والرقاد، ٢٠١٦)، وينطبق هذا الأمر على تعديل ٣١ ديسمبر ١٩٦٩ والذي تمّ بموجبه تنقيح الفصل ٥١ من الدستور ونصّه "في حالة شغور منصب رئاسة الجمهورية لوفاة، أو استقالة، أو عجز ثابت، يعينّ أعضاء الحكومة من بينهم من يتولىّ مهام رئاسة الدولة بصورة وقتيّة ويبلغون فورا إلى رئيس مجلس الأمّة وثيقة هذا التعيين. ويجتمع مجلس الأمّة بدعوة من رئيسه لانتخاب خلف للرئيس السابق ولما بقي من مدّته من بين المترشحين المتوفرة فيهم الشروط الواردة في الفصل التاسع والثلاثين أثناء الأسبوع الخامس ابتداء من الشغور. وطريقة الانتخاب هذا تكون سريّة وبالأغلبيّة المطلقة في الاقتراع الأوّل والثاني، وعند وجوب إجراء اقتراع ثالث فبالأغلبيّة النسبيّة على أن يجري هذا الاقتراع الأخير في اليوم الموالي". وشروط الترشّح لمنصب رئاسة الجمهوريّة الواردة بالفصل ٣٩ فهي أن يكون "تونسي مولود لأب وجد تونسيين، ثلاثتهم تونسيون بدون انقطاع بلغ من العمر أربعين سنة وتمتّع بجميع حقوقه المدنيّة" (الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٣٠، ١٩٥٩).

وأصبح نص الفصل ٥١ الجديد "الرئيس الجمهورية إذا تعذر عليه القيام بمهامه بصورة وقتية أن يفوض كامل سلطاته أو البعض منها إلى الوزير الأول ويعلم بذلك رئيس مجلس الأمة. وعند شغور منصب رئاسة الجمهورية لسبب الوفاة أو الاستقالة أو العجز التام يتولى فورا الوزير الأول مهام رئاسة الدولة لما بقي من المدة الرئاسية ويوجه رسالة في ذلك إلى رئيس مجلس الأمة ويؤدي اليمين الدستورية المنصوص عليها بالفصل الواحد والأربعين أمام مجلس الأمة أو عند التعذر أمام مكتب مجلس الأمة أو أمام رئيس مجلس الأمة" (الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٥٧، ١٩٦٩). وقد حدّد هذا التعديل طريقة خلافة بورقيبة ومنحها للوزير الأوّل مباشرة بعد أن كان أعضاء الحكومة يختارون من بينهم من يقوم بمهام رئيس الدولة بصفة مؤقتة ثمّ ينتخب مجلس الأمّة، أي السلطة التشريعيّة، الرئيس لبقيّة المدّة النيابيّة من بين المترشّحين الذين تتوفّر فيهم نفس شروط الترشّح للرئاسة.

هذا التعديل أجّج الصراع حول خلافة بورقيبة (Baccouche, 2018, pp. 270-271)، بين لوبيّين جهويين يمثّل أحدهما الساحل وهي المنطقة التي ينتمي إليها الرئيس بورقيبة ويتزّعمه محمّد الصيّاح مدير الحزب والشقّ الثاني يمثّل البلديّة وهي عائلات أصيلة مدينة تونس العاصمة وتتزعّمه وسيلة بن عمّار زوجة الرئيس بورقيبة. لكن الصراع حول خلافة بورقيبة يمرّ حتما بخلافة الوزير الأوّل الباهي الأدغم والذي كان محتدما بين الوزراء الهادي نويرة ومحمد المصمودي وأحمد المستيري (الأدغم، ٢٠١٩، صفحة ٥٨٢).

لكنّ هذا التعديل خالف الجانب الإجرائي في مسألة التنقيح الدستوري حيث ينصّ الفصل ٦٠ من الدستور "لرئيس الجمهوريّة أو لثلث أعضاء مجلس الأمّة على الأقل الحق في المطالبة بتنقيح الدستور ما لم يمسّ ذلك بالنظام الجمهوري للدولة"، وحسب الفقرة الأولى من الفصل ٦١ من الدستور "لا ينظر المجلس في التنقيح المزمع إدخاله إلاّ بعد قرار منه بالأغلبيّة المطلقة وبعد تحديد موضوعه ودرسه من طرف اللجنة المختصّة"، وتؤكّد الفقرة الثانية من نفس الفصل أنّه "لا يمكن إدخال أي تنقيح على هذا الدستور من طرف مجلس الأمّة إلاّ إذا تمّت الموافقة عليه بأغلبيّة الثلثين من الأعضاء في قراءتين تقع الثانية بعد ثلاثة أشهر على الأقلّ من الأولى". في حين أنّ هذا المشروع لتعديل الدستور كان مقرّرا في ١٧ نوفمبر ١٩٦٦ و٢٦ جويلية ١٩٦٧ لتتمّ مراجعة المادة ٥١ من الدستور بهدف تكليف مجلس الجمهورية بتعيين رئيس مؤقت للجمهورية في حال شغور منصب رئاسة الجمهورية، وكان مقرّرا أن يعتمد مجلس الأمة هذا التعديل في القراءتين الأولى والثانية بأغلبية الثلثين، لكن رغم إتّباع

الإجراءات المنصوص عليها في المادة ٦١ فلم يتم إصدار هذا النص (Camau, 1975).

ساهم تغيرّ الواقع السياسي في إعادة نصّ هذا التعديل للتداول، حيث أدّى تأزّم الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة إلى إنهاء تجربة التعاضد وتحميل المسؤوليّة عن ذلك لأحمد بن صالح ومعاونيه وإقصاءه عن الحكم، وسعي الرئيس الحبيب بورقيبة إلى احتواء الأزمة عبر إحداث تغيير في الجهاز التنفيذي فأحدث في ٧ نوفمبر ١٩٦٩ خطّة الوزير الأوّل واستبدل خطة كتاب الدولة بالوزراء وعينّ الباهي الأدغم وزيرا أوّل وسمّى أعضاء الحكومة (الأدغم، ٢٠١٩، صفحة ٥٤٨)، وكلّف الباهي الأدغم بتسيير الدولة في غيابه واقترح تعديل الفصل ٥١ من الدستور ليتولّ "الوزير الأوّل في حالة الشغور بالاضطلاع بمهام رئيس الجمهوريّة" مشترطا ضرورة إجراء التعديل قبل نهاية سنة ١٩٦٩ (الأدغم، ٢٠١٩، الصفحات ٥٤٨-٥٤٩).

وفي ديسمبر ١٩٦٩ تمت مراجعة المادة ٥١ مما جعل الوزير الأوّل، وهو منصب لا ينص عليه الدستور ولكن تم إحداثه بموجب أمر عدد ٤٠٠ لسنة ١٩٦٩ مؤرخ في ٧ نوفمبر ١٩٦٩ (الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٤٦، ١٩٦٩)، يتولىّ خلافة رئيس الجمهورية في حالة الشغور وينوبه في حال وجود مانع. وكان هذا التعديل محل إجماع في المجلس، لكنّ هذا القانون الدستوري الصادر في ٣١ ديسمبر ١٩٦٩ خالف أحكام المادة ٦١ في مستوى الإجراءات (Camau, 1975). واعتبر الباهي الأدغم أنّه أوجد حلا لتعديل الدستور بعد استشارة حمادي السنوسي وزير العدل وذلك من خلال اعتبار القراءة القديمة التي تمّت في ١٧ نوفمبر ١٩٦٦ و٢٦ جويلية ١٩٦٧ كقراءة أولى لإمكانيّة تحوير الدستور، رغم أنّ النص الذي سيتم تحويره يختلف عن النص السابق الذي كان مقرّرا تحويره في ١٩٦٦ و١٩٦٧. وأقرّ الباهي الأدغم بأنّه أجبر على خرق الدستور من خلال عدم القيام بقراءتين فعليا كما يقرّه النص الدستوري لعدم وجود حلول وحتّى يتمكّن من إنجاز التعديل قبل موفّ سنة ١٩٦٩ استجابة لرغبة الرئيس الحبيب بورقيبة (الأدغم، ٢٠١٩، الصفحات ٥٤٨-٥٤٩).

كما أقرّ الباهي الأدغم بأنّه أمضى على هذا القانون بدلا من الرئيس وهو أيضا مخالف للدستور إضافة إلى أنّه أمضى على قانون لفائدته وهو حسب رأيه "غير منطقي ولا قانوني ولا مقبول سياسيا" (الأدغم، ٢٠١٩، الصفحات ٥٤٨-٥٤٩). وتتمثّل المخالفة أنّ النص الدستوري لم يصدره رئيس الجمهورية، بل أصدره الوزير الأوّل المكلّف بـإدارة شؤون الدولة في غياب رئيس الجمهورية، والوزير الأوّل لا يمثّل سلطة حددها الدستور الذي لم يتضمن أي نص يخول تفويض الصلاحيات، وبذلك فإنّ الوزير الأوّل وبناءً على تفويض غير دستوري قام بتعديل للدستور بطريقة غير قانونيّة لتمكين نفسه (الوزير الأوّل) من الصلاحيات الرئاسية (Camau, 1975).

٢/٣-تعديل ١٩ مارس ١٩٧٥ والرئاسة مدى الحياة

من بين دوافع تعديل الدساتير الدوافع الشخصيّة التي يكون غالبا وراءها مطامع الرؤساء الراغبين في تمديد فترات انتخابهم، وهو ما ينطبق على تونس حيث كان الدستور لا يسمح بتجديد مدة رئاسة الرئيس أكثر من ثلاثة مرات متتالية، لكنّ مجلس الأمّة صادق بالإجماع في ١٨ مارس 1975على تعيين الحبيب بورقيبة رئيسا مدى الحياة للجمهورية التونسية (الرقاد و الرقاد، ٢٠١٦). ومن أكبر المخاطر التي تواجه الدساتير هو شخصنتها لأنّها تؤثّر على علويته وديمومته وتبينّ أنّ الدستور موضوع ومفصّل على مقاس الرئيس وأنّه يستجيب لطموحاته وأهدافه، وهو ما يقضي على أبرز المبادئ الديمقراطيّة وهو التداول السلمي على السلطة (مولود، ٢٠٠٩-٢٠١٠).

فبعد ضمان الآلية الدستوريّة لانتقال السلطة في حالة حدوث شغور، أقرّ الرئيس الحبيب بورقيبة في خطاب ألقاه يوم ٨ جوان ١٩٧٠ بأنّ "جمع كامل السلط والنفوذ بيد شخص واحد قد يؤول به إلى ارتكاب الغلط مهما تكن نزاهته واستقامته وحسن نواياه لأنّه بشر، والبشر يخطئ ويصيب... وقد كلّفنا لجنة بالنظر في إمكانيّة تحوير الدستور نفسه لجعل الحكومة مسؤولة في آن واحد لدى رئيس الحكومة وأمام مجلس الأمّة الذي تتجسّم فيه إرادة الشعب" (عمر و سعيّد، ١٩٨٧، صفحة ٢٣٥)، وكلّف الرئيس الحبيب بورقيبة لجنة برئاسة أحمد المستيري وعضوية الباهي الأدغم والصادق المقدّم والهادي نويرة ومحمد المصمودي والحبيب بورقيبة الابن وعبد الله

فرحات والحبيب عاشور للعمل على تعديل الدستور (عمر و سعيّد، ١٩٨٧، الصفحات ٢٣٥-٢٣٦). وفي جويلية وأوت ١٩٧٠ نظّمت جريدتا الصباح والعمل استشارة واسعة لمعرفة رأي المواطنين في أسلوب الحكم وتوزّع السلطات والتوازن بينها وخلافة بورقيبة في صورة حدوث شغور وتحوير النظام الأساسي للحزب وأظهرت رغبة شعبيّة في الحد من احتكار السلطة وإعادة تنظيم الحزب اعتماد الانتخاب داخل هياكله وتنقيح الدستور (العلاّني، ٢٠٠٣).

وبناءً على هذه الاستشارة قدّمت اللجنة تقريرها لرئيس الجمهوريّة في ١٥ أكتوبر ١٩٧٠ وجددت التمسّك بالنظام الرئاسي مع ضرورة "تمتّع رئيس الجمهوريّة بصلاحيات واسعة النطاق"، أما في مسألة الشغور فقدمت أربع مقترحات وهي تولي رئيس مجلس الأمّة للمنصب إلى حين انتخاب رئيس للجمهوريّة، أو تولي رئيس الحكومة للمنصب إلى حين إجراء انتخابات رئاسيّة ومقترح ثالث بإحداث خطة نائب رئيس يتولى أيضا رئاسة الحكومة واقتراح أخير بإحداث خطة نائب رئيس يتم انتخابه مع الرئيس ويتولى رئاسة مجلس الأمّة (عمر و سعيّد، ١٩٨٧، الصفحات ٢٤١-٢٤٢)، والملاحظ أنّ المقترح الثالث خلط بين مؤسستين في السلطة التنفيذيّة وهي الرئاسة ورئاسة الحكومة وأنّ المقترح الرابع خلط بين سلطتين هما السلطة التنفيذيّة ممثلة في مؤسسة الرئاسة والسلطة التشريعية ممثلة في مجلس الأمّة مما يعني غياب أحد أهم مبادئ الديمقراطيّة وهو الفصل بين السلطات. كما أجمع التقرير على "وجوب تنظيم الحياة السياسيّة للبلاد في نطاق حزب واحد على شرط أن يكون قادرا على استيعاب كل القوى الحيّة في البلاد" من خلال الفصل بين الحزب والإدارة واعتماد الانتخاب في اختيار المسؤولين الحزبيين في كل المستويات (عمر وسعيّد، ١٩٨٧، الصفحات ٢٤٣-٢٤٤).

وفي ٢ نوفمبر ١٩٧٠ استبدل الرئيس الحبيب بورقيبة الباهي الأدغم بالهادي نويرة في خطة الوزير الأوّل، وبرز في مؤتمر الحزب المنعقد بالمنستير في اكتوبر ١٩٧١ توجّه ينادي بالديمقراطيّة، وساهم انقلاب بورقيبة على نتائج الانتخابات التي أفرزها المؤتمر في استقالة مجموعة من القيادات البارزة من الحكومة والحزب (قائد السبسي، ٢٠٠٩، صفحة ١٧٤). وفي ١٣ اكتوبر ١٩٧٢ وجه ١١ من المستقيلين رسالة لبورقيبة طالبوه فيها باحترام خيارات المؤتمر وتجسيمها في تحوير الدستور المزمع إجراؤه (قائد السبسي، ٢٠٠٩، الصفحات ٤٦٧-٤٧٢). لكنّ سياسة الانغلاق تواصلت (قائد السبسي، ٢٠٠٩، صفحة ١٧٩)، فانتخب مؤتمر الحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم المنعقد بالمنستير بين ١١ و١٥ سبتمبر ١٩٧٤ الحبيب بورقيبة رئيسا للحزب مدى الحياة، وأوصى المؤتمر "بتنقيح الدستور بما يخوّل إسناد رئاسة الدولة إلى المجاهد الأكبر مدى الحياة" (الحزب الاشتراكي الدستوري، صفحة ١١٠). واستجاب مجلس الأمّة لرغبة الحزب ومن ورائه الرئيس الحبيب بورقيبة وأقرّ تسميته رئيسا مدى الحياة في تعديل ١٩ مارس ١٩٧٥ (الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ١٩، ١٩٧٥، صفحة ٦٠٢)

الذي تمم الفصل ٤٠ من الدستور بالفقرة التالية: "وبصفة استثنائية واعتبارا للخدمات الجليلة التي قدمها المجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة للشعب التونسي إذ حرره من ربقة الاستعمار وجعل منه أمة موحدة ودولة مستقلة عصرية كاملة السيادة يعلن مجلس الأمة إسناد رئاسة الجمهورية مدى الحياة إلى الرئيس الحبيب بورقيبة" (الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ١٩، ١٩٧٥، صفحة ٦٠٢). منح هذا التعديل للرئيس الحبيب بورقيبة الرئاسة مدى الحياة وأبّد الاستبداد من خلال التخلّي عن أحد أهمّ شروط الديمقراطيّة وهو التداول السلمي على السلطة.

كما عدّلت الفقرة الثانية من الفصل ٥١ وحدّدت مسألة الخلافة عند شغور منصب رئاسة الجمهورية وإجراءات تسلّمها وضبطت مدّتها بما تبقّى من المدّة النيابيّة لمجلس الأمّة: "عند شغور منصب رئاسة الجمهورية لسبب الوفاة أو الاستقالة أو العجز التام، يتولى فورا الوزير الأول مهام رئاسة الدولة لما بقي من المدة النيابية الجارية لمجلس الأمة ويوجّه رسالة في ذلك إلى رئيس مجلس الأمة ويؤدي اليمين الدستورية المنصوص عليها بالفصل الواحد والأربعين أمام مجلس الأمة أو عند التعذر أمام مكتب مجلس الأمة أو أمام رئيس مجلس الأمة" (الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ١٩، ١٩٧٥، صفحة ٦٠٢).

٣/٣-تعديل ٨ أفريل ١٩٧٦

يعتبر بعض خبراء القانون الدستوري أنّ تعديل ٨ أفريل ١٩٧٦ أهمّ تعديل عرفه الدستور التونسي (القليبي، ٢٠٠٠) فهو التنقيح الوحيد الذي ساهم في تعديل نظام الحكم بشكل كبير (Chaabane، ١٩٧٧). ألغيت الفصول ١٩-٢١-٢٢-٢٣-٢٤-٢٨-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦ وتعويضها بجملة من الأحكام فتمّ في الفصل الثاني إضافة لفظ "العربي" إلى "المغرب الكبير"، وإضافة الاستفتاء في خصوص المعاهدات المبرمة حول مسألة العلاقات مع دول المغرب العربي وهو ما يحيلنا إلى تجاوز ما حصل في مسألة اتفاقيّة الوحدة مع ليبيا في ١٢ جانفي ١٩٧٤ والتي نصّت على ضرورة إجراء استفتاء لإقرار الوحدة رغم عدم وجود نص دستوري حول الاستفتاء، كما تعلّق الفصل ٤٧ بالاستفتاء في خصوص المعاهدات أو تنظيم السلط العموميّة ومسألة الاستفتاء. ونصّ الفصل ٢١ على تخفيض سنّ الترشّح لمجلس الأمّة إلى ٢٨ سنة عوضا عن ٣٠ سنة في النصّ السابق، كما تعلّقت الفصول ٢٢-٢٣-٢٤ بانتخاب مجلس الأمّة في الشهر الأخير للفترة النيابيّة والتنصيص على انعقاده في أي مكان من تراب الجمهوريّة وتمديد فترته في حالة الخطر الداهم. كما بيّنت الفصول ٢٨ و٣٤-٣٥-٣٦ نصوص القوانين التي يصادق عليها المجلس، والفصلان ٣٢ و٣٣ بالمصادقة على المعاهدات. وألغي الباب السادس المتعلّق بمجلس الدولة (الفصل ٥٧ من النص الأصلي للدستور) الذي يفصّل في شأن الهيئة القضائيّة الإداريّة ودائرة المحاسبات اللذان يمثّلان مجلس الدولة في حين نصّ الفصل الجديد على تكوين مجلس الدولة في المحكمة الإداريّة ودائرة المحاسبات وترك "مسألة تركيبة مجلس الدولة ومشمولات إطاره وإدارته" إلى قانون يضبطه.

وألغي الباب الثالث من الدستور المتعلّق بالسلطة التنفيذيّة والذي كان يتعلّق برئيس الجمهوريّة فقط ويتكوّن من ١٥ فصلا من الفصل ٣٧ إلى الفصل ٥١، وتعويضه بباب جديد حول السلطة التنفيذيّة أقرّ فصله ٣٧ أنّ "رئيس الجمهوريّة يمارس السلطة التنفيذيّة بمساعدة حكومة يرأسها وزير أوّل". خصّص القسم الأوّل من السلطة التنفيذيّة لرئيس الجمهوريّة وبه ٢٠ فصلا من الفصل ٣٨ إلى الفصل ٥٧، وخصّص القسم الثاني للحكومة وبه ٦ فصول من الفصل ٥٨ إلى الفصل ٦٣. بالنسبة لرئيس الجمهوريّة فقد نصّ الفصل ٣٩ على أنّ الانتخابات الرئاسيّة "تجرى خلال الثلاثين يوما الأخيرة في المدّة الرئاسيّة" وأنّه "يجوز لرئيس الجمهوريّة أن يجدّد ترشّحه" دون تقييد لعدد الترشّحات على عكس ما نصّ عليه الفصل ٤٠ في نص الأصلي "ولا يحوز لرئيس الجمهوريّة أن يجدّد ترشّحه للرئاسة أكثر من ثلاث مرّات"، مع الإبقاء على الفقرة المتعلّقة بتولّي الرئيس الحبيب بورقيبة للرئاسة مدى الحياة والتي أضيفت في تعديل ١٩ مارس ١٩٧٥.

أمّا صلاحيّات رئيس الجمهوريّة فهو حسب الفصل ٤٩ "يوجّه السياسة العامّة للدولة ويضبط اختياراتها الأساسيّة ويعلم بها مجلس الأمّة"، والفصل ٥٣ "يسهر رئيس الدولة على تنفيذ القوانين ويمارس السلطة الترتيبيّة العامّة"، في حين كان الفصل ٤٣ في النصّ السابق "رئيس الجمهوريّة يضبط السياسة العامّة للدولة ويشرف على تنفيذها". وفي الفصل ٥٠ "يعينّ رئيس الجمهوريّة الوزير الأوّل كما يعينّ بقيّة أعضاء حكومته باقتراح من الوزير الأوّل. رئيس الجمهوريّة يرأس مجلس الوزراء" عوضا عن الفصل ٤٣ السابق "يختار أعضاء حكومته وهم مسؤولون لديه"، كما أنّه وحسب الفصل ٥١ "ينهي مهام الحكومة أو عضو منها تلقائيا أو باقتراح من الوزير الأوّل". كما حدّد الفصل ٤٦ صلاحيّات رئيس الجمهوريّة في حالة وجود "خطر داهم مهدّد لكيان الجمهوريّة وأمن البلاد واستقلالها" ممّا يؤدي إلى تعطّل دواليب الدولة ويمكن للرئيس اتّخاذ الإجراءات الاستثنائيّة بعد استشارة الوزير الأوّل ورئيس مجلس الأمّة، كما ربط هذا النصّ زوال التدابير الاستثنائيّة بزوال أسبابها. وفي الفصل ٥٥ يسند رئيس الجمهوريّة الوظائف المدنيّة والعسكريّة العليا باقتراح من رئيس الحكومة عوضا عن الفصل ٤٥ في النصّ السابق "يسند الوظائف المدنيّة والعسكريّة". وحسب الفصل ٦٣ يمكن لرئيس الجمهوريّة حلّ مجلس الأمّة ويمكن له استشارة الوزير الأوّل ورئيس مجلس الأمّة قبل حلّ المجلس.

بالنسبة للحكومة فهي حسب الفصل ٥٨ تسهر على تنفيذ السياسة العامّة للدولة، وحسب الفصل ٥٤ تتداول مشاريع القوانين في مجلس الوزراء ويؤشرّ الوزير الأوّل

وعضو الحكومة المعني للأوامر الترتيبيّة. وفي الفصل ٦٠ "يسيّر الوزير الأوّل الحكومة وينسّق أعمالها" كما يتصرّف في الإدارة والقوّة العامة وينوب رئيس الجمهوريّة في رئاسة مجلس الوزراء. ونصّ الفصل ٥٣ بإمكانيّة تفويض كامل السلطة أو جزء منها للوزير الأوّل، والفصل ٥٦ تفويض الرئيس لصلاحياته إلى الوزير الأوّل إذا تعذّر عليه القيان بمهامّه باستثناء حقّ حلّ مجلس الأمّة، والفصل ٥٧ تولّي الوزير الأوّل لصلاحيّات الرئيس عند شغور منصب الرئاسة "بسبب الوفاة أو الاستقالة أو العجز التام". وحسب الفصلان ٦١-٦٢ يراقب مجلس الأمّة الحكومة ويمكن تقديم أسئلة شفويّة وكتابيّة لها، وتقديم لائحة لوم وإذا تمّت المصادقة عليها بأغلبيّة الثلثين من أعضاء مجلس الأمّة فعلى الوزير الأوّل أنّ يقدّم استقالة الحكومة.

في ١٩٥٩ كما في ١٩٧٦ صمّم نظام الحكم من أجل الرئيس بورقيبة، لكن في ١٩٥٩ كان دور الرئيس مركزي إيجابي وفي ١٩٧٦ كان أيضا دور مركزي لكن سلبي، فنظام الحكم لا يزال تحت سيطرة الرئيس ولكن من خلال حكومة، فالسلطة التنفيذية بقيت أحادية الرأس، فالرئيس دائمًا هو الذي "يمارس" السلطة التنفيذية، والحكومة "تساعده" فقط في هذا المجال. وتختلف الحكومة التونسية عن تلك الموجودة في النوع البرلماني، فهي حكومة الرئيس تنبع منه وهي مسؤولة أمامه، لذلك تظل الحكومة فريقا تنفيذيا داخليا. ويتواصل الرئيس فقط مع مجلس الأمّة، أمّا الحكومة فتتصل مع مجلس الأمّة من خلال وزير مسؤول عن العلاقات مع مجلس الأمّة فيما يتعلق بالأعمال اليومية فقط (Chaabane، ١٩٧٧).

تعديل ١٩٧٦ أعاد تصميم نظام الحكم من خلال إبراء ذمة الرئيس وتطويق السلطة التشريعية. فإبراء ذمة من الرئيس باعتباره يوجّه ولا ينفّذ وهو وضع مريح للغاية باعتباره غير مسؤول بشكل مباشر. وتواصلت أحاديّة القيادة مع دور أساسي للحزب في تحديد فكر الدولة وتوجيه سياساتها وتماهي مؤسّسات الحزب مع مؤسّسات الدولة مع خضوع لسلطة رئيس الحزب رئيس الدولة (Chaabane، ١٩٧٧).

سعى التعديل الدستوري لسنة ١٩٧٦ "إلى الحد من اتساع الممارسات الشخصانيّة للرئيس" من خلال تحوير دور الحكومة لكي تصبح مشاركة للرئيس في تسيير الدولة وفي المراقبة لكنها حكومة غير نابعة من البرلمان أو من الأغلبية فله حكومة يعينها الرئيس ويعزلها، وجاء تنقيح ١٩٧٦ ليلبي الرغبات المتضاربة لرئيس الدولة فمن ناحية هو يقوم بكل أعباء الحكم ومن ناحية ثانية يريد أن يخفف من هذه الأعباء بعد اقتناعه بفشل التسيير الفردي اثر فشل تجربة التعاضد مما مسّ من كاريزمته وصحّته وكان إحداث منصب الوزير الأوّل "لإعفاء الزعيم من مقتضيات وإحراجات وتبعات الممارسة اليوميّةللحكم دون إفقاده سلطته سلطته الرقابيّة على المشهد" خاصة وأن الوزير الأول عادة ما يكون محل ثقة الزعيم ومساعه الأوّل (عبد الرحيم، ٢٠٠٣). إن المزج بين النظام الرئاسي الكليّ مع بعض عناصر البرلمانية ينبع من الرغبة الرئاسية في جعل المجلس هوائيًا قادرًا على قياس درجة شعبية السياسات. والهدف هو تجنب المبالغة في القطيعة بين الدولة والمجتمع كما حدث خلال الفترة الاشتراكية (Beatrix, 1987). ومنذ فشل التجربة الاشتراكية ومع كل أزمة سياسية لها أهمية معينة يشعر القائد بالحاجة إلى تجاوز المؤسسات التي فصُلت على مقاسه (Beatrix, 1987). خاصّةً وأنّ الرئيس الحبيب بورقيبة هو صاحب مقولة "إنّ القانون نطبّقه عندما يكون تطبيقه نافعا" (الفيلالي، ٢٠٠٣)، وبذلك فإن التعديلات الدستوريّة المتعاقبة أفقدت دستور ١ جوان ١٩٥٩ روحه وحوّلته من دستور لديمقراطيّة منشودة إلى دستور لنظام استبدادي يتمّ تفصيله وتعديله حسب رغبة الرئيس وحزبه (سعداوي، ٢٠١٩).

خَاتِمَةٌ

الدستور عقد توافقي مؤسّس لقوانين الدولة ومحدّد لنظام الحكم والمرجعيّات الأساسيّة للتشريع (المكني، ٢٠١١، الصفحات ٥-٦)، وهو يهدف إلى إبعاد شبح الحكم الفردي الذي يجمع كل الصلاحيات بنظام مُمأسس من خلال الفصل بين ملكيّة السلطة وممارستها وإلزام الحكام بالتقيّد بالقانون ضمن صلاحياتهم المحدّدة سلفا (طبّابي، ٢٠١٠).

مثّل الدستور أحد الأدوات القانونيّة لبناء تونس المستقلّة وعبرّ دستور ١ جوان ١٩٥٩ عن الواقع السياسي لفترة ما بعد الاستقلال لأنّه تضمّن كلّ تصوّرات ورؤى الرئيس الحبيب بورقيبة لشكل النظام السياسي من خلال اختيار النظام الجمهوري قبل إنهاء كتابة الدستور وتطويع الدستور ليلائم ذلك، وتركيز نظام حكم رئاسي يكون فيه دور الرئيس محوريا. ورغم ذلك واصل الرئيس الحبيب بورقيبة إحكام قبضته على السلطة عبر آليات مختلفة كانت التعديلات الدستوريّة أبرزها.

ارتبطت التعديلات الدستوريّة بتغيرّ الواقع السياسي فعبرّ تعديل ١٩٦٩ عن الأزمة التي يعيشها نظام الحكم بعد فشل تجربة التعاضد وكان هذا التعديل سببًا في اشتداد الصراع حول خلافة الرئيس الحبيب بورقيبة وهو ما استغلّه الرئيس للتحكّم في المشهد السياسي واستثمار رغبة الطامحين في خلافته عبر السعي لإرضائه ودفعهم إلى إعلان الرئاسة مدى الحياة في تعديل ١٩٧٥.

ورغم أنّ تعديل ١٩٧٦ أدخل تحويرًا على شكل نظام الحكم من خلال دسترة الحكومة كإحدى مكوّنات السلطة التنفيذيّة إلى جانب رئاسة الجمهوريّة، إلاّ أنّ ذلك كان خدمة لأغراض الرئيس في التخفّف من بعض أعباء الحكم في الجانب التنفيذي والبقاء بعيدًا عن الضغوطات وتحميل المسؤوليّة للوزير الأوّل وللحكومة في حالات الإخفاق والفشل، رغم أنّ الرئيس هو من يضع سياسات الدولة ويوجهها. وبذلك مثّل الدستور أداة لتوصل الحكم الاستبدادي ولسيطرة الزعيم والحزب على الدولة والمجتمع.

المراجع:

الحزب الاشتراكي الدستوري. لوائح ومقرّرات ٢ مارس ١٩٣٤- ٢ مارس ١٩٨٤ . شركة فنون الرسم للنشر والصحافة.

ع .ا .التميمي ,**الحبيب بورقيبة وإنشاء الدولة الوطنيّة :قراءات علميّة للبورقيبيّة** .(pp. 12-20)زغوان :مؤسّسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات.

إريند ليبهارت. (ماي, ٢٠١٣). **التخطيط الدستوري في مجتمعات منقسمة**. تبيّن (٤)، الصفحات ٣٣-٤٤.

أكرام فالح أحمد، وولة أحمد عبد الله. (٣٠ جوان, ٢٠٠٩). تعديل الدستور وأثره في تغيير خصائص الدساتير. (جامعة الموصل مركز الدراسات الإقليمية، المحرر) دراسات إقليمية، ٥ (١٤)، الصفحات ١-٣٧.

الباجي قائد السبسي. (٢٠٠٩). **الحبيب بورقيبة المهم والأهم**. تونس: دار الجنوب.

الباجي قائد السبسي. (١٤ ٦٠, ٢٠١١). برنامج حديث الثورة، قناة الجزيرة. (أحمد منصور، المحاور) الدوحة، قطر.

الباهي الأدغم. (٢٠١٩). الباهي الأدغم: **الزعامة الهادئة ذكريات وشهادات وخواطر**. تونس: نيرفانا للطباعة والنشر.

الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ١٩. (١٨-٢١ ٣٠, ١٩٧٥). قانون دستوري عدد ١٣ لسنة ١٩٧٥ مؤرّخ في ١٩ مارس ١٩٧٥ يتعلّق بتعديل الفصلين ٤٠ و٥١ من الدستور. الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، صفحة ٦٠٢.

الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٢٧. (٢٧-٣٠ ٦٠, ١٩٦٧). قانون عدد ٢٣ لسنة ١٩٦٧ يتعلّق بتنقيح الفصل ٢٩ من الدستور. صفحة ١١٠٠.

الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٣٠. (١ ٦٠, ١٩٥٩). قانون عدد ٥٧ لسنة ١٩٥٩ المؤرّخ في أوّل جوان ١٩٥٩ في ختم دستور الجمهوريّة وإصداره. (٣٠)، الصفحات ٧٤٥-٧٥٩.

الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٣٥. (٢ ٠٧, ١٩٦٥). قانون عدد ٢٣ لسنة ١٩٦٥ المؤرّخ في ١ جويلية ١٩٦٥ يتعلّق بتنقيح الفصل ٢٩ من الدستور. الصفحات ٩٤٥-٩٤٦.

الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٤٦. (٧ ١١, ١٩٦٩). أمر عدد ٤٠٠ لسنة ١٩٦٩ مؤرّخ في ٧ نوفمبر ١٩٦٩ يتعلّق بإحداث وزارة أولى وضبط وظائف الوزير الأوّل. الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، الصفحات ١٤٠٧-١٤٠٨.

الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٥٦. (٧-١١ ٠٩, ١٩٨١). قانون دستوري عدد ٧٨ لسنة ١٩٨١ مؤرّخ في ٩ سبتمبر ١٩٨١ يتعلّق بتنظيم انتخابات تشريعيّة سابقة لأوانها. الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، صفحة ٢٢٠٧.

الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، عدد ٥٧. (٣٠-٣١ ١٢, ١٩٦٩). قانون دستوري عدد ٦٣ لسنة ١٩٦٩ مؤرّخ في ٣١ ديسمبر ١٩٦٩ يتعلّق بتنقيح الفصل ٥١ من الدستور. الرائد الرسمي للجمهوريّة التونسيّة، صفحة ١٦٣٤.

الرشيد إدريس. (٢٠٠١). **في طريق الجمهوريّة**. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

الطاهر بلخوجة. (٣١ ٠٣, ٢٠٠٢). **برنامج شاهد على العصر**، قناة الجزيرة، الحلقة ٢. (أحمد منصور، المحاور) الدوحة، قطر.

آمال موسى. (٢٠١١). **بورقيبة والمسألة الدينيّة** (الإصدار ٢). تونس: سراس للنشر.

امحمد مالكي. (٢٠١٢). **الأسس الدستوريّة للجمهوريّة التونسيّة الثانية**. تأليف امحمد مالكي، ثورة تونس الأسباب والسياقات

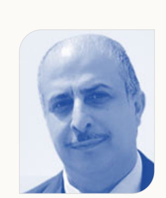
والتحدّيات (الصفحات ٣٧٧-٤٠٣). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
بركات مولود. (٢٠٠٩-٢٠١٠). **التعديلات الدستوريّة في النظام الدستوري الجزائري**. رسالة ماجستير في القانون الدستوري. بسكرة، الجزائر: كليّة الحقوق والعلوم السياسيّة جامعة محمّد خيضر.
ثامر سعداوي. (٢٠١٩). **جامعيون في خدمة الاستبداد**. تأليف المولدي قسّومي، وحمدي أونينة، الجامعة المواطنيّة (الصفحات ٢٥٧-٢٨٤). تونس: مؤسّسة روزا لكسمبورغ.
حافظ عبد الرحيم. (٢٠٠٣). الاستزلام patronage والتعزيب clientélisme آليّة لتحليل النسق السياسي التونسي في إطار دولة البناء الوطني، من خلال النمط العلائقي بين بورقيبة وأعضاده. تأليف عبد الجليل التميمي، السلطة وآليات الحكم في عصر بورقيبة بتونس والبلاد العربيّة (الصفحات ١٠٣-١١٦). زغوان: مؤسّسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات.
حفيظ طبّابي. (٢٠١٠). **الدستور التونسي وعقليّة الحزب الواحد وهاجس الإجماع**. روافد (١٥)، الصفحات ٢٨٣-٣٠٣.
رافع بن عاشور. (٢٠٠١). **المؤسّسات والنظام السياسي** بتونس. تونس: مركز النشر الجامعي.
رفيق عبد السلام بوشلاكة. (٢٠٠٥). **الاستبداد الحداثي العربي**: التجربة الونسيّة نموذجا. تأليف علي خليفة الكواري، الاستبداد في نظم الحكم العربيّة المعاصرة (الصفحات ٨٥-١٠٧). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة.
زهير المظفّر. (١٩٨٦). **العمل التأسيسي للمجلس القومي التأسيسي**. تأليف عبد الفتّاح عمر، المجلس القومي التأسيسي (الصفحات ٨٣-١١٣). تونس: مركز الدراسات والبحوث والنشر، كليّة الحقوق والعلوم الاقتصاديّة والسياسيّة بتونس.
سلسبيل القليبي. (٢٠٠٠). **السلطة التنفيذيّة في الدستور**. تأليف عبد الفتّاح عمر، الدستور التونسي في الذكرى الأربعين لإصداره ١٩٥٩-١٩٩٩ (الصفحات ١٠٧-١٢٠). تونس: مركز الدراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة.
صادق محمد عزت. (١ سبتمبر، ٢٠٢٠). **التعديل الدستوري بين المطلب الشعبي والضرورة القانونيّة**. مجلة جامعة تكريت للحقوق، ٥ (١)، الصفحات ٣١٠-٣٢١.
عبد الله خلف الرقاد، ومشعل محمد الرقاد. (سبتمبر، ٢٠١٦). تعديل الدستور. دراسات وأبحاث (٢٤)، الصفحات ١٤٢-١٦٠.
عبد الجليل بوقرَة. (٢٠١١). **المجلس القومي التأسيسي التونسي** الولادة العسيرة لدستور جوان ١٩٥٩. تونس: دار آفاق للنشر.
عبد الفتّاح عمر. (٢٠٠٠). **التقرير التمهيدي**. تأليف عبد الفتّاح عمر، الدستور التونسي في الذكرى الأربعين لإصداره ١٩٥٩-١٩٩٩ (الصفحات ٧-١٨). تونس: مركز الدراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة.
عبد الفتاح عمر. (١٩٨٦). **التقرير التمهيدي المجلس القومي التأسيسي** ١٩٥٦-١٩٥٩. تأليف عبد الفتاح عمر، المجلس القومي التأسيسي (الصفحات ٢١-٣٢). تونس: مركز الدراسات والبحوث والنشر، كليّة الحقوق والعلوم الاقتصاديّة والسياسيّة بتونس.
عبد الفتاح عمر، وقيس سعيّد. (١٩٨٧). **نصوص ووثائق سياسية تونسيّة**. تونس: مركز الدراسات والبحوث والنشر، كليّة الحقوق والعلوم السياسيّة.
عبد الواحد المكني. (٢٠١١). **حول دستور ١٩٥٩**. صفاقس: دار محمّد علي للنشر.
عدنان المنصر. (٢٠٠٧). **دولة بورقيبة فصول في الايديولوجيا والممارسة**. **صفاقس**: دار أمل للنشر والتوزيع.
عليّة العلاّني. (٢٠٠٣). **بورقيبة "والتيّار الليبرالي" داخل الحزب الدستوري**. تأليف عبد الجليل التميمي، الحبيب بورقيبة وإنشاء الدولة الوطنيّة: قراءات علميّة للبورقيبيّة (الصفحات ١٥٩-١٦٧). زغوان: مؤسّسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات.
عمر البوبكري. (٣١ ١٠، ٢٠١٣). **ظهور فكرة الدستور وتطوّرها في تونس**. تبيّن (٣)، الصفحات ٧٥-٨٦.
عميرة عليّة الصغيّر. (٢٠١١). **الحاكم بأمره بورقيبة الأوّل: دراسات وآراء في عهده**. تونس: المغاربيّة لطباعة وإشهار الكتاب.
محمّد الصيّاح. (٢٠١٢). **الفاعل والشاهد**. تونس: سراس للنشر.
محمد المساوي. (٢٠١٧). **القانون الدستوري والنظم السياسية** (المجلد الجزء الأوّل مدخل إلى النظريّة العامّة للقانون الدستوري). د.ن.
محمّد مزالي. (٢٠٠٧). **نصيبي من الحقيقة**. القاهرة: دار الشروق.
مصطفى الفيلالي. (١٠، ٢٠٠٣). **سمينارات الذاكرة الوطنيّة** شهادة الأستاذ مصطفى الفيلالي. المجلة التاريخيّة المغاربيّة (١١٠)، الصفحات ٣٥١-٣٨٨.

Baccouche, H. (2018). EN TOUTE FRANCHISE . Tunis: Sud Editions.
Beatrix, A. L. (1987). L'Etat tutélaire, système politique et espace éthique. Dans M. Camau, La Tunisie au présent Une modernité au-dessus de tout soupçon ? (pp. 121-144). Aix-en-Provence: Editions du CNRS.
Bessis, S., & Belhassen, S. (2012). Bourguiba (éd. 3ème ed). London: Editions Elyzad.
BEY, E. M. (2012, novembre). TAHAR BEN AMAR, ANCIEN PREMIER MINISTRE DEVANT LA HAUTE COUR DE JUSTICE (AOUT –SEPTEMBRE 1958). Revue d'histoire maghrebine (148), pp. 63-124.
Camau, M. (1975). Les institutions politiques des états maghrébins postcoloniaux. Dans C. d. méditerranéennes, introduction à l'Afrique du nord contemporaine,, 1975, p.p. (pp. 255-281). Aix-en-Provence: CNRS.
Dougui, N. (2020). Wassila Bourguiba La main invisible. Tunis: Sud Editions.
Hubert, M. (1975). Administration et développement au Maghreb. Dans W. K. Ruf, M. Cherif, & H. Menshing, introduction à l'Afrique du nord contemporaine (pp. 283-299). Aix-en-Provence: CNRS.
Kraiem, M. (2000). Réflexions sur la personnalité de BOURGUIBA. Dans
Landau, D. (2017). Democratic Erosion and Constitution-Making Moments: The Role of International Law. Consulté le 03 19, 2020, sur Journal of International, Transnational, and Comparative Law: https://bit.ly/3dgwXTP
Sadok Chaabane .(١٩٧٧) .Le systéme constitutionnel tunisien à travers la réforme de 1976 .Annuaire de l'Afrique du Nord.١٦، الصفحات ٣١١-٣٤٣
Silvera, V. (1960). Le régime constitutionnel de la Tunisie : la Constitution du 1er juin 1959. Revue française de science politique (10e année, n°2), pp. 366-394.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

عبد الغني العُرَيْسي (١٨٩١ – ١٩١٦)
تنبيه مبكر من الخطر الصهيوني



د. حسام سبع محي الدين
أستاذ التاريخ العربي الحديث والمعاصر
قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الانسانية
الجامعة اللبنانية – الجمهوريّة اللبنانية

مُلَخّص

عبد الغني العريسي (١٨٦١-١٩١٦)، صحفي وسياسي لبناني، عاصر سقوط العثمانيين خلال الحرب الكبرى الأولى، ودفع حياته ثمنًا لمواقفه من حركة التتريك، بل ربما ثمنًا لتسليط الضوء على الحركة الصهيونية المتغلغلة في فلسطين قبيل دخول البريطانيين إليها. انتسب العريسي في باريس إلى جمعية العربية الفتاة في عام ١٩١٢، وأسهم في تأسيس نادي الحرية والائتلاف في بيروت في ٤ أيلول ١٩١٢، كما شارك في تأسيس جمعية بيروت الإصلاحية. انتسب العريسي إلى حزب اللامركزية الإدارية، وكان من الداعين لانعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس شهر حزيران عام ١٩١٣؛ بل كان من أعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر؛ الذي عقد من أجل مطالبة الدولة العثمانية بإصلاح بلاد العرب وإعطائها حقها الدستوري. أنشأ جريدة المفيد، وكان توجهه السياسي واضحًا حيث حدد مساره الإصلاحي ضمن الأمة العثمانية... وفي كل مرة كان يلجأ العثمانيون الى تعطيل جريدته، كان يستعيد همته العربية، ليفتتح أخرى منها لسان العرب، وفتى العرب... نشر مقالات للتنبيه أيضًا من الخطر الصهيوني منذ عام ١٩١١. ولفت الانتباه الى مشروع الاستملاك الذي اتخذ نجيب الأصفر واجهةً له في فلسطين، قائلاً في إحدى نشراته الصحفية: "ومن عرف ما يجري في السلطنة وتحت ظل هذه الخلافة من أعمال يهودية ليخاف على كل شبر من أرضنا العثمانية". لم يهدأ العريسي في المطالبة بالإصلاح ضمن السلطنة، وبمتابعة الخطر الصهيوني في ظل ضغوطات عثمانية شهدتها بلاد الشام في ظل الحرب الأولى. واستمرت معركة الكر والفر، بين تهديد ووعيد، حتى قضى عبد الغني العريسي شهيد غزارته على يد أحكام جمال باشا العرفية مع شهداء الصحافة في أيار ١٩١٦، تاركًا لأبناء جيله ومن أتى بعدهم، أفكاره المناهضة للتتريك والصهيونية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٧	يناير	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الدولة العثمانية؛ جمال باشا؛ عبد الغني العريسي؛ حركة التتريك؛ الصهيونية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325586 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسام سبع محي الدين. "عبد الغني الغريسي (١٨٩١ – ١٩١٦) تنبيه مبكر من الخطر الصهيوني".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ١٧٨ – ١٩٠.

Corresponding author: ohiedine.houssam@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

لعل صفة الشهيد التي استحقها عبد الغني العريسي بجدارة في ٦ أيار ١٩١٦، تدفع المؤرخ الى الوقوف على تاريخ هذا الشاب الذي اتصف بعروبيته العنيدة في مواجهة حركة التتريك التي غزت "الوداعة العثمانية" في تعاطيها مع تنوع الملل، المتناثرة في سلطنتها المترامية الأطراف. إن رباطة الجأش والجبين المرتفع والصوت الصادح الذي واجهه به جمال بشا تؤكد ما امتلكه هذا الشاب من فكر ورؤية وعناد في المطالبة بحق وفي تأكيد هوية عربية واعية. "بلغوا جمال باشا أن الملتقى قريب، وأن أبناء الرجال الذين يقتلون اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق أبناء الأتراك، إن الدول لا تبنى على غير الجماجم وإن جماجمنا ستكون أساسًا لاستقلال بلادنا".

إن كان العريسي استشهد بصوت عال، فقد ترك أيضًا وصيته بصوت عال، فظلت تؤرق ً سباتَ الأتراك حتى أخرجتهم من بلّاد العًرب. ما يلفت في عبد الغني العريسي، هذه الغزارة الفكرية، المنطلقة من أرومة عربية، والمواجهة لكل أشكال الاستبداد، والداعية الى التيقظ في مواجهة الغرب، والوقوف في مواجهة التتريك، والتنبه في مواجهة الصهيونية. لقد أفرد في حركته الفتية، وهو في العقد الثالث من عمره فقط، لكل قضية من قضايا العرب زاوية تأمل وتفكير وتوعية، واستل من عناده المتميز سيف الموقف دون مواربة ليدفع حياته دون خوف ثمنًا له.

منذ وعيه القومي والعربي، شارك العريسي في عدة لقاءات ولجان ومؤتمرات، صبّت في تعزيز مطالب العرب تحت مظلة السلطنة العثمانية، ثم اتجهت نحو الانفصال عنها بعد تطور حركة التتريك، وإضرارها بالمصالح العربية في ظل الاتحاد والترقي. فعام ١٩١٣، وبموازاة هيئة رسمية باركها والي بيروت والصدر الأعظم لرفع لائحة إصلاحية إلى مجلس المبعوثان، شارك بهيئة غير رسمية في ١٤ كانون الثاني، طالبت بمجموعة إصلاحات مفصلية لولاية بيروت[١]. وبعد تعطيل الجمعية الإصلاحية من قبل الاتحاد والترقي، ساهم كمؤسس للمؤتمر العربي الأول عام ١٩١٣، وسعى مع رفاقه للمطالبة باللامركزية؛ وفي ٢٠ حزيران ألقى العريسي في الجلسة الثانية كلمة تحت عنوان "حقوق العرب في المملكة العثمانية"[٢]، مطالبًا فيها بمشاركة العرب العادلة في الحكم العثماني. واستمر عبد الغني العريسي في نشاطه السياسي وغذّاه بالعمل الصحفي، حي أنشأ جريدة المفيد تلتها أربع جرائد أخرى عطّلها العثمانيون جميعها.

من هنا أهمية دراسة هذه المسيرة الفكرية والقومية، مرورًا بالنتاج الصحفي والمتابعة السياسية لمستجدات فلسطين، والهجرة اليهودية، وتحركات الحركة الصهيونية المشبوهة. إذ لا يمكن المرور على هكذا شخصية تاريخية مرور الكرام، على الرغم من العمر القصير الذي أوقفه العثمانيون في زمن التتريك بالإقصاء والإعدام في أيار ١٩١٦. عبد الغني العريسي، فتى العرب العنيد، "مفكر الحركة العربية وكاتبها ونابغتها "[٣] كما قال عنه صديقه عوني عبد الهادي، مخضرم الحركة العربية، في بضع كلمات قد توفيه حقه.

أولاً: شهداء ٦ أيار ١٩١٦ (قراءات مختلفة لسياق تاريخي)

مما يلفت النظر في موضوع شهداء فجر ٢١ آب ١٩١٥ وفجر السادس من أيار ١٩١٦[٤]، هو الجدل التاريخي القائم حول موقفهم وهويتهم وانتمائهم. وطرح السؤال الإشكالي: هل هؤلاء شهداء أم عملاء؟ ويبدو أن بعض المؤرخين تركوا لمخيلتهم العنان فبالغوا وأسرفوا في توصيفهم وزرعوا الشك في اليقين حول موقفهم من حركة التتريك، بل تجرأ البعض على طعنهم بالماسونية، في وقت كان معظمهم واعيًا للحركة الصهيونية، منبهًا منها، ومنهم عبد الغني العريسي، الذي ضمن جريدته "المفيد"، مقالات وصفحات تنبه من الخطر الصهيوني، ومساعي هذه الحركة لابتلاع فلسطين من خلال المستوطنات والهجرة المكثفة التي حدثت في أواخر العهد العثماني، وبمباركة جماعة الاتحاد والترقي. وبدل تسليط الضوء التاريخي على علاقة الاتحاد والترقي بيهود الدونمة ومسايرتهم للمشاريع الصهيونية، نجد من كتبة التاريخ، وتحت باب الجهل أو التعمية، أو نتيجة تكرار عبارات قُرئت دون تدقيق أو تمحيص، من سعى لينقل عباءة العمالة واتباع الماسونية ومن ثَمَّ الصهيونية الى هؤلاء الشهداء، متجاوزًا المعطيات، ومغيبًا التاريخ. ولمجرد أن صوتًا ارتفع في وجه حركة التتريك مطالبًا بالقومية

العربية وحقوقها، قد خلط هؤلاء في خضم تحمسهم للسلطنة العثمانية بين فترة انقضت، وفترة عليها حركة التتريك طغت، بين الموضوعية التاريخية، والاتهام المجحف دون نقد وتمحيص.

يذكر جميل عبد الله المصري توصيفًا حول حالة العرب في تلك الفترة بالصيغة التالية: "كوّن العرب حزب اللامركزية، وتعني أن تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتيًا، وتبقى خاضعة خارجيًا لإستانبول. كما كونوا جمعيات سرية، مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبد الكريم الخليل، والضابط عزيز علي المصري، والجمعية العربية الفتاة، التي تشكلت في باريس عام ١٣٢٩هـ، على منهج تركيا الفتاة، ومن قبل طلاب يدرسون هناك تشبعوا بالأفكار الغربية، وخاصة مبادئ العصبية القومية، واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونية..."(٥)

وينقل علي محمد الصلابي بعد عقد من الزمن، وبالصيغة نفسها، تهمة تأثر الحركة العربية ضد التتريك بالحركة الماسونية(٦)، ويبدو واضحًا للقارئ، خلط الكاتبين بين الأفكار الغربية والقومية والماسونية في جملة من الاتهامات التي تطال الحركة العربية في مواجهة حركة التتريك الضالعة بتلقي الدعم من الجمعيات الصهيونية، والمتورطة ببيع "الأراضي المدورة"(٧) في فلسطين.

ومن الناحية التركية، يذكر يلماز في كتابه(٨)، تحت عنوان "قضية ديوان حرب (مجلس عرفي عسكري) عاليه ١٩١٦"، عن خيانة دولة، يتحدث عن علاقة المتآمرين بسلطان زاده حقي (١٨٦٠-١٩٥٥)، مؤسس جمعية التشبث الشخصي واللامركزية، والعميل وفق رأيه للمخابرات المركزية البريطانية(٩). ومن ناحية ثانية يؤكد يلماز من خلال مذكرات رئيس الأركان علي فؤاد بك (أردن باشا) في عهد جمال باشا، ضغط هذا الأخير على محكمة عاليه لإصدار هذه الأحكام القاسية، لاسيما أن الصدر الأعظم سعيد حليم باشا تمنى على جمال باشا ألا يصدر أحكام إعدام بحق المتهمين على الرغم من ثبات خيانتهم؛ واعتبر أن قرار جمال باشا المشترك مع أنور وطلعت باشا ألحق الضرر بالدولة العثمانية، وكان للعرب نصيبهم من هذا الضرر؛ واعتبرها من الأفعال القبيحة التي يتحمل مسؤوليتها جمال باشا كشخص وليست الدولة التركية(١٠).

وإذا كان المؤرخ التركي يعتبر إعدام جمال باشا لشريحة من النخب العربية من الأفعال القبيحة والأخطاء التاريخية، من المستغرب أن نقرأ كتابات تضع قائمة من هؤلاء الشهداء تحت تصنيف العلاقة مع الماسونية ومن ثم الصهيونية، وفي ذلك تشويه للحدث التاريخي، ولتلك الشخصيات التي حملة عبء المواجهة مع الحركة الصهيونية قبل وعد بلفور بسنين، وقبل سقوط فلسطين تحت براثن الصهيونية عام ١٩٤٨.

ثانيًا: عبد الغني العريسي (فتى الصحافة العنيد)

ولد عبد الغني العريسي، الكاتب والصحفي والسياسي، عام ١٨٩١ كما أجمعت العديد من المصادر، غير أن هذا التاريخ كان ليمر مرور الكرام لولا هذا الكم الكبير من الإنتاج الصحفي، وهذه المواجهة الكبيرة التي آثرها على نفسه. لقد أوردت جريدة الرأي عام ٢٠١٦، جردة استغراب على هذه الفترة الزمنية الزاخرة؛" إذ لا يعقل أن يتعلّم في باريس ويصدر أكثر من صحيفة، ويكون له نشاط سياسيّ واسع، ويستشهد عن عمر لا يتجاوز ٢٥ عامًا"(١١). وبسبب نشاطه السياسي، وخلال الحملة التي شنها جمال باشا لإطفاء أصوات المعارضة في الشارع العربي، وبحثًا عن كم الأفواه، قضى العريسي مع ثلة من الشهداء في بيروت في ٦ أيار ١٩١٦، قبل إعلان الثورة العربية بما يقارب الشهر.

وقد يمر بعض المؤرخين مرور الكرام على إنشائه صحيفة المفيد، وعلى إغلاقها ثم قيام العريسي بافتتاح صحف أخرى بتسميات مغايرة(١٢)، والتي لم تكن في الواقع إلا تستكمل مسيرته الأولى في المفيد؛ ولكن الحقيقة أن الصحفي الشاب بهذه الهمة الصحفية، سبب إزعاجًا منقطع النظير للعثمانيين. وقد يُفهم حجم العريسي ومدى إخافته للعثمانيين، من مقولة نابليون الأول: "إنني أوجس خوفًا من ثلاث جرائد أكثر مما أوجس من مائة ألف جندي"(١٣). لقد ضمن هذه الصحف أفكاره التي انقسمت بين المطالبة بالحقوق العربية، ومواجهة الاستعمار ومطامع الغرب، والتنبيه من الخطر الصهيوني منذ عام ١٩١١، أي قبل وعد بلفور بخمسة أعوام. واستمرت معركة الكرّ والفرّ بين افتتاح وإغلاق حتى قضى عبد

الغني العريسي شهيد غزارته وأفكاره المناهضة للتتريك والصهيونية.

ويبدو توجهه الصحفي واضحًا من خلال الصفحة الأولى للعدد الأول، حيث حدد مساره التحرري ضمن الأمة العثمانية في البداية، فصرّح أن جريدته "سياسيّة تنشر من الأخبار ما يفيد الناس، ولاسيّما ما له "مسيس بالأمّة العثمانيّة"... ويقول: "كان الناس يشايعون الأمير، ويبايعون الكبير، ولا يراعون حرمة الوجدان ولا كرامة الضمير، فانقضى ذلك العهد (يعني العهد الحميديّ) وتنزّلت آلهة الحكّام عن عروشها، وأصبح القوم بنعمة الله إخوانًا، لا استئثارَ بالأمر ولا استبدادَ بالرأي. فحيّا الله الأمّة إذ غدت تدير شؤونها بيدها وتعمل على صلاحها من نفسها، وحيّا الله الحكم إذ رجع إلى نصابه، بعدما اختلسه الظلَمَة الجوَرَة والخوَنَة المَكَرَة الذين أرادوا بنا كيدًا فجعلناهم الآسفين ..."[١٤]. ويقول عنه مؤرّخ الصحافة العربيّة فيليب طرّازي أنه " يتوخى الحقائق في كتاباته ولو كلفته الخسائر الجمة... وهو من الذاهبين مذهب العقلاء بوجوب إسقاط الخونة من بين الحكام العثمانيين"[١٥]. ولعل هذه الوجهة في كتاباته كانت سببًا رئيسيًا في كراهية الطبقة الحكامة العثمانية له، لاسيما في فترة بلغ فيها الفساد ذروته.

وكان واضحًا من كتاباته تمييزه بين القومية العربية ضمن الأمة العثمانية، وبين الرابطة العثمانية. ففي "لسان العرب" في العدد الأول في ٢٣ أيلول ١٩١٢، كتب مهاجمًا الاتحاديين، في افتتاحيّة صارخة حملت عنوان "باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت". كلامًا خطيرًا، وممّا جاء في تلك المقالة: "نحن عرب عثمانيّون مهما حاول غلاة الاتّحاديّين نقض هذه الجنسيّة، لأنّنا خُلقنا عربًا بالرغم من أنفسنا. فلو كان في الإمكان أن ينحطّ الرجل فينسلخ عن ماهيّة أمّته لعذرنا القائلين بفكرة الذوبان، لكنْ أبت النفس الكريمة أن تكون دنسة ساقطة... نعم، إنّنا عرب عثمانيّون بالرغم من أنفسنا، لأنّ الجنسيّة وديعة قد انتقلت إلينا دون أن نشاطر آباءنا هذا الرأي فيها..."[١٦].

"وافتتح العريسي العدد الأوّل من "فتى العرب" بمقالة افتتاحيّة حملت عنوان "فتى العرب: واجبه العامّ"، وشغلت أربعة أعمدة من الصفحة الأولى. ولهذه المقالة أهمّيّة كبرى، لأنّ العريسي حدّد فيها مذهبه في فهم "الجنسيّة العربيّة" (عنى بها العروبة أو الانتماء القوميّ)، فعرض أوّلاً لرأي الألمان في الرابطة القوميّة، وعرض ثانيًا لرأي الفرنسيّين فيها. ثمّ جمع، في تحديده "الجنسيّة العربيّة" هذه، بين العقيدتين الألمانيّة والفرنسيّة، أي أخذ "وحدة اللغة والنسب" من الألمان و"النزعة" (العاطفة أو الشعور بالانتماء) من الفرنسيّين. فالعربيّ، في رأيه، هو "من وصلته رابطة من نسب، ووحدة من لغة، وكان توّاقًا للعرب نزّاعًا إليهم، يغار عليهم غيرة البطل النبيل. فإذا استجمع هذا حقّت عليه كلمة الواجبات الوطنيّة لتأييد الحقوق العربيّة..."[١٧].

إلى جانب هذا النشاط الصحفي، كان العريسي ناشطًا سياسيًا، حيث كان من أوائل المنتسبين إلى جمعية العربية الفتاة في عام ١٩١٢ في باريس، وساهم في تأسيس نادي الحرية والائتلاف في بيروت في ٤ أيلول ١٩١٢، كما ساهم في تأسيس جمعية بيروت الإصلاحية في كانون الثاني ١٩١٣[١٨]. وبعد حل جمعية بيروت الإصلاحية في ٨ نيسان ١٩١٣، انضم لحزب اللامركزية الإدارية الذي أعدم بتهمة الانضمام إليه، وساهم في انعقاد المؤتمر العربي الأول في حزيران عام ١٩١٣، وكان الخطيب في الجلسة الثانية مفتتحًا "بحقوق العرب في المملكة العثمانية" ومطالبًا بحقوق العرب في التمثيل السياسي ضمن السلطنة العثمانية[١٩].

ثالثًا: موقف العريسي من الصهيونية

ما يلفت النظر في مواقف عبد الغني العريسي، هو تسليطه الضوء عبر خطابه الصحافي، ليس باتجاه الهجرة الصهيونية نحو فلسطين منذ عام ١٩١١ فقط، بل وكشف بعض ملابسات علاقة الاتحاد والترقي بالمحافل الصهيونية والصداقات التي كانت تجمعهم بها. وتأتي الشواهد التاريخية لتؤكد صدقية هذه العلاقة، وما أنتجته في فترة خمول السلطنة واضمحلالها من فتح مسارات تاريخية استثنائية، نقلت فلسطين من حال الى حال. إن مبالغة الاتحاد والترقي في الارتماء في أحضان الجمعيات الصهيونية والدفاع عنها في هياكل الدولة المتهالكة، يدفع الى البناء على فرضيتين: إما أن قيادات الاتحاد والترقي كانت ضالعة في المحافل الماسونية والصهيونية التي استعملتها في الانقضاض على السلطنة وتدميرها من الداخل، وإما كان وجود بعض المثلين اليهود في الدولة لا

سيما في مجلس المبعوثان يفرض وجود خطاب ودي للجمعيات اليهودية الظاهر الصهيونية الباطن، والتي كانت تغزو السلطنة بالقروض والهبات، تحت مسمى مساعدة السلطنة على مواجهة أزماتها.

ومما كتبه العريسي في المفيد كانون الثاني عام ١٩١١ في الصفحة الأولى تحت عنوان اليهود المهاجرون:"...إن شورى الدولة باشر البحث في القانون الذي سن لمنع الأجانب الموسويين الذين يهاجرون من أوطانهم من السكنى في أراضي سوريا وبيروت وفلسطين وقد جاء في هذا القانون شروط وقيود عديدة تمنع هؤلاء اليهود الأجانب من التلاعب في هذه البلاد، وعسى مجلس الأمة أن يوافق على هذا القانون سريعًا، فإن البلاد يكاد ينهار عليها التيار اليهودي الأجنبي"[٢٠] .

ويبدو أن موضوع الهجرة اليهودية الى فلسطين في ظل الحكم العثماني أخذ حيزًا من الاهتمام في أوساط النخب لاسيما أن الفترة التي تلت خروج الحكم المصري من بلاد الشام شهدت أولى محاولات التأسيس لفكرة الاستعمار اليهودي على يد اليهودي البريطاني "موشي مونتفيوري"، فقد أنشأ أول مستعمرة يهودية في ارض فلسطين حاصلاً على الضمانات من الدولة العثمانية بالحماية والامتيازات، وارتفع عدد هؤلاء القادمين من ١٥٠٠ يهودي الى عشرة آلاف. ومع تأسيس نواة الحي اليهودي في القدس، تم استقدام المهاجرين تباعًا على دفعات لاسيما في السنوات بين ١٨٨٢ و١٩٠٣، ثم في الفترة بين ١٩٠٤ ونهاية الحرب العالمية الثانية[٢١].

وتتناول بعض الوثائق العثمانية[٢٢] في تلك الفترة المتابعة العثمانية الرسمية أيضًا لموضوع الهجرة وتملك الأراضي، على الرغم من العوائق التي وضعت للحد من تلك الهجمة الديمغرافية على أراضي فلسطين. فعام ١٨٩٩، بعثت المثلية العثمانية في واشنطن إلى رئاسة دائرة الكتابة في القصر الهمايوني، التدابير المتخذة بحق اليهود الراغبين بالسفر الى بر الشام وتحديدًا أراضي فلسطين، وبأن "السفارة السنية بواشنطن أبلغت وزارة الخارجية بمذكرتها المؤرخة في ٩ أيلول سنة ١٨٩٨ بأن قرارا اتخذ بمنع اليهود من دخول أراضي فلسطين، وأن المأمورين العثمانيين تلقوا أوامر بمنع المهاجرين اليهود من النزول في البر"[٢٣]. إذ كان اليهود الراغبين بالهجرة يحتلون بعدة طرق للوصول الى فلسطين، ومن بين تلك الوسائل، استغلال زيارة الإمبراطور الألماني في تلك الفترة وطلب تأشيرات دخول من قبل البعض منهم، وإحراج السلطات العثمانية، التي رفعت التشديد جزئيًا، " فبمناسبة مغادرة جلالة الإمبراطور جهات فلسطين وسورية ألغي أمر المنع السابق مع الانتباه إلى عدم شمول الإلغاء الأشخاص المشبوهين، لكن الرسالة لم تتحدث أبدا عن منع دخول اليهود إلى أرض فلسطين. ومع ذلك فقد أبلغت القنصليات باستمرار سريان منع دخول اليهود أرض فلسطين على النحو السابق"[٢٤] .

وعلى الرغم، من جميع التشريعات العثمانية في تلك الفترة، والتي سمحت بتملك الأجانب لأراض في السلطنة العثمانية، باستثناء أراضي الحجاز ثم أراضٍ فلسطين بموجب أوامر سلطانية، كانت الهجرة اليهودية تتحرك بحذر وبطء شديد، وترافق ذلك، مع مشاريع استملاك للأراضي من خلال سماسرة عرب أو أجانب، بغية تأمين المستوطنات في مشروع نقل اليهود الى أرض فلسطين. وتشير بعض المراجع الى ما يقارب ٢٤٥,٠٠٠ دونم تم الاستيلاء عليها حتى عام ١٩١٤، بطرق متعددة، وراحت إلى بناء المستوطنات وتأسيس المشروع الصهيوني.

وتتناول المفيد عام ١٩١١، في الصفحة الأولى[٢٥]، رفض مجلس شورى الدولة لمشروع نجيب الأصفر، على الرغم من موافقة نظارة المالية عليه، وهيئة الشورى؛ ويربط في أسباب رفض هذا المشروع، "خوف السوريين من دخول الجمعية الصهيونية في مسألة الأصفر واستيلائها على فلسطين غنيمة باردة. فيقول: ويشهد الله أن خوفهم في مكانه ومن عرف ما يجري في السلطنة وتحت ظل هذه الخلافة من أعمال يهودية ليخاف على كل شبر من أرضنا العثمانية..."[٢٦] ويختم: "هذه حقائق تاريخنا الحاضر وتاريخ أجدادنا الغابر فهل لعقلاء في هذه الأمة أن يعتبروا وشالوم عليهم..."[٢٧]. فبعد عزل السلطان عبد الحميد، تعرضت أراضي الجفتلك لهجمة بيع من قبل حكومة الاتحاد والترقي، وسعت هذه الأخيرة في بيع، ممتلكات السلطان المدوّرة في بيسان- فلسطين إلى رأسمالي كبير من بيروت، يدعى نجيب الأصفر، بحجة التطوير ودعم خزينة الدولة المأزومة. لكن الأهالي استطاعوا، في حملة شعبية دامت قرابة أربعة أعوام

(١٩٠٩-١٩١٣)، وبمساندة النواب العرب في البرلمان والأعيان والصحافة المحلية، أن يثنوا الحكومة عن قرارها[٢٨].

ومن الوثائق العثمانية المتعلقة بهذا الموضوع عام ١٩١٣، عريضة مرفوعة تضمنت اعتراضًا على مشروع الصفر الذي استمر حتى تلك الفترة؛ وورد فيها: "في الوقت الذي تعتصر الآلام التي تسببت فيها حرب البلقان قلوب العثمانيين، فإن ثروة أهالي فلسطين تضيع ومصائبهم تتزايد، خاصة وأن الصهاينة يواصلون تملك أراضي فلسطين، وتمتد أيديهم إلى ما بقي من الأراضي. وقد علمنا أخيرا بأن الحكومة تسعى إلى تمليك الأراضي المدورة إلى شركة أصفر. وإذا تحقق ذلك، فمن المؤكد بأنه سيكون ضربة أليمة تجاهنا وتجاه أولادنا وعيالنا وبلادنا. ولما كان من المسلّم أن الحكومة العادلة تنظر إلى رعاياها المخلصين نظرة الأب الرحيم، وأن شركة أصفر قد تكون سببا في إخراج الرعايا المخلصين من ولائهم، وسيكون الضرر على الجميع كما سيكون خطرا كبيرا على الوطن العثماني المعروف بالشرف والعدل، لذلك نرفع احتجاجنا الشديد على هذه الشائعة".[٢٩]

وأتبعها نائب عكا السابق، أسعد شقير، ببرقية ورد فيها:"... جاءني بعد عودتي من بيروت إلى حيفا أكثر من مائة من رؤساء ووجوه الأهالي المخلصين للدولة المقيمين من أكثر من ثلاثين عاما في قرى الغور وبيسان التي تشكل سلسلة مترابطة بين لوائي عكا ونابلس وقد تأثروا من وضع تلك الأراضي في المزاد طالبين وضع حد لما يتعرضون له من البؤس راجين أن أتوسط لهم في ذلك. وقد استمعت إلى مطالبهم فوجدتها محقة كليا؛ فأراضي الغور وبيسان تقدر بثمانمائة ألف دونم، بينما يبلغ عدد العربان المقيمين فيها أكثر من ثلاثين ألفا، ... كما أن إعطاء هذه الأراضي لآخرين يعني إرجاع هؤلاء الناس إلى حال البداوة ... فأرجو منكم العمل على بيع تلك الأراضي للأهالي المذكورين ببدل المثل أو ما يتقرر من بدل مقسطًا، ومنع إجراء أي معاملة بيع لهذه الأراضي بعد ذلك لمدة أربعين عاما لإزالة احتمال انتقالها لآخرين، وإعطاء الضمانات للرؤساء المذكورين في الحفاظ على حقوقهم المشروعة بواسطة الولاية"[٣٠].

ويبدو أن هذه حركة الاستملاك في فلسطين اضطلعت بها شركات روتشيلد ونانا نرسيس إضافة الى جهات فرنسية وألمانية إضافة الى البريطانية، وتحت أعين الجهات الرسمية العثمانية، المتواطئة في فترة الاتحاد والترقي، والتي نظرت هي الأخرى، بعين العطف لاستيطان اليهود في فلسطين. ففي كتاب رفع من مهاجري البوسنة والهرسك، من أسرة محمد علي باشا الإستولجي الى الجهات العثمانية المختصة، يشرح ما آلت إليه أمور الاستملاك في فلسطين، موصفًا الوضع كالتالي: "أن البارون روتشيلد ونانا نرسيس وغيرهم من أثرياء اليهود في أوربا يحدوهم الأمل والفكر الفاسد في تأسيس حكومة يهودية في فلسطين مرة أخرى بقوة المال، أسسوا شركات كبيرة في أوربا برؤوس أموال كبيرة جدا لصرفها في سبيل تحقيق هذا الحلم الفاسد، وفتحوا فروعا لهذه الشركات في الممالك المحروسة، لتقوم هذه الفروع باستملاك أراض في الأرض المقدسة، وخلال حوالي خمسة عشر عاما تملكوا قسمًا كبيرا من الأراضي في سورية وفلسطين، وهم يواصلون توسيع أملاكهم. حيث يقوم وجوه البلاد والتجار بالبحث في الأرياف عن الأهالي المسلمين والرعايا الصادقين للدولة، فيشترون أراضيهم مستغلين فقرهم وضعف أحوالهم، وبعد ذلك يبيعونها لليهود بأرباح خيالية. كما يقوم المأمورون في الحكومة المحلية بمساعدة اليهود في كافة أمورهم لتحقيق منافعهم الشخصية. وخلال الخمسة عشر عاما الماضية أرسلت أوربا أعدادا كبيرة من اليهود الأجانب باسم المهاجرين الموسويين، ليستوطنوا في فلسطين. هؤلاء اليهود ليسوا من اليهود الذين نعرفهم، بل تلقوا التعليم في مدارس أوربا وتشربوا تربيتها وعلومها، إنهم قوم يخشى من تكاثرهم واكتسابهم القوة في بلد من البلدان.

ومع أن إرادات سنية صدرت بمنع دخول اليهود لفلسطين وإسكانهم، فإن مأموري الحكومة يسيئون استخدام الإرادة السنية ويلجأون إلى وسائل ودسائس لا تخطر على بال في تأمين شراء واستملاك الأراضي لليهود، حتى أنهم استملكوا مزرعة لكامل باشا بتلك الطريقة. وحاصل القول إن روتشيلد وسائر الشركات في أوربا تبذل كل شيء لزيادة عدد اليهود الأجانب في فلسطين ودعمهم وتقويتهم. أما مأمورو الحكومة فإنهم ينظرون

إلى شركة روتشيلد نظرة سياسية، ويحترمون اليهود ويراعونهم أكثر من الأهالي، يعطونهم الامتيازات، في الوقت الذي يعاملون أهالي البلد من الرعايا الصادقين للدولة معاملة إيذاء وجفاء هذه الشركات تواصل إرسال الليرات بالأحمال، وبفضل هذه الثروة يسخر الأهالي والوجوه لخدمة اليهود. يظن الوجوه والمأمورون بأن الأموال التي ينالونها من اليهود هي مجرد إحسان، لكن اليهود يسجلون كل ما يعطونه ويرسلون ما هو مسجل للمحاسبة العامة للشركة، مع تقرير عن أحوالهم وأوضاعهم. لقد استملك الفرنسيون والألمان القسم الأعظم من جبل الكرمل في قصبة حيفا، وهذا الجبل يعد من النقاط الاستراتيجية المهمة في سواحل البلاد السورية. وقد أقام الفرنسيون حول هذه النقطة جدارا ارتفاعه بطول الآدمي، وصرفوا عليه سبعة آلاف ليرة ويبلغ طولا وعرضا مسافة ساعتين. كما يقوم الألمان بإنشاء مبان ضخمة"[٣١].

وكان العريسي يقرأ بوعي في كتب التاريخ، ويأخذ العبر مما فعله اليهود ماليًا بدول كانوا مواطنين فيها، ويركز دائمًا على المشروع الصهيوني باحتلال فلسطين، حيث لم يكن ذلك خافيًا على النخبة المثقفة في تلك الفترة، وبل ولم يكن خافيًا عليهم التأثير الصهيوني الممارس على جماعة الاتحاد والترقي، لاسيما أن هؤلاء تلقوا الدعم في نشأتهم من يهود سالانيك. ويعتبر أن ليس من مبرر والحالة هذه من تسليم كافة الأمور للصهاينة بحجة هذا الدعم هنا وهناك.

هذا الانغماس التركي في المشروع الصهيوني كان في عين الصحفي الشاب عبد الغني، والذي تناول الجمعية الصهيونية في فلسطين في عدد ٥ شباط ١٩١١[٣٢] حيث فند مقالاً لسليمان أفندي البستاني[٣٣] كتبه هذا الأخير ردًا على مقالة رفيق بك العظم، وسلّط العريسي الضوء على مقاصد الحركة الصهيونية الحقيقية. وفي رده على نفي سليمان أفندي البستاني لنية الحركة الصهيونية بالاستقلال في الدولة العثمانية وإعادة أمجادها القديمة، يذكره بتصريح "ماكس نورداو"[٣٤] أحد أقطاب الصهيونية حول نيتهم ليس امتلاك بضعة آلاف من الأراضي في فلسطين فقط، ليسكنها المزارعون الإسرائيليون، بل يسعون لإتمام ما قرره التاريخ لهم. وفي هذا الإطار يتهم العريسي هذه الجمعية بامتلاك الأراضي وبطرد الأهالي منها لإسكان مهاجرين موسويين، بل ويشير ردًا على عرض فائدة مجاورة المستعمرين للسكان المحليين الى المضايقات التي عانى منها عرب عشيرتي الدلايكة العنيسي والسهو، وأهالي قرية السجرة والعبادية. ويعتبر العريسي هذه الكولونيات مستقلة عن الدولة العثمانية لأنها لم تسلم أي فرد للخدمة العسكرية العثمانية على الرغم من طرح سليمان أفندي أنهم عثمانيون ويحملون جوازات سفر عثمانية. ويتهم اليهود بكراهية الدولة العثمانية، وبمحبتهم فقط عمالها الذين يخدمون مقاصد الصهيونية، كرشيد بك والي بيروت السابق، وقومندان الجندرمة في أيامه عزيز باشا. ويتهمه بمزاحمة السكان المحليين اقتصاديًا واستيلائهم على موارد الرزق، خاتمًا بأن "لو كان اليهود يحبون العثمانية كما يقولون، لرضوا بالتوطن في أي بلاد تجيز لهم الحكومة التوطن فيها ولامتزجوا"[٣٥].

ويبدو أن هذه النظرة كان بعيدة المدى، لاسيما حول مسألة أراضي بيسان، والمؤامرة التي كانت تحيط بهم لإخراجهم من الأرض السلطانية التي شغلوها منذ القدم، والتي شارك في تفاصيلها جماعة الاتحاد والترقي. ففي عريضة مرفوعة من تلك النواحي في تموز ١٩١٣الى وزارة الداخلية العثمانية، ورد فيها: "من المعروف أن أحكام قانون الأراضي المتعلقة تنص على أن الأراضي الأميرية الخاضعة للطابو لا تستحق الطابو إلا إذا كانت متروكة أو معطلة، وتعرض على أصحابها فإذا استنكفوا تباع لمن يطلبها بالمزاد. لكن أراضينا في بيسان التي استولى عليها السلطان السابق تغلبًا، وكنا نقوم بزراعتها منذ مئات السنين، وندفع الضرائب المترتبة عليها، حيث يبلغ عدد الذين يتعيشون من هذه الأراضي حوالي خمسين ألفا معرضين الآن للمحو والانقراض. وبالرغم من رجائنا بالعرائض التي قدمناها ببيعها لنا ببدل المثل، فإن الحكومة تواصل عملية المزايدة على مجموع هذه الأراضي. إن بيع هذه الأراضي التي هي أغلى من حياتنا للمنظمات الأجنبية يعني التضحية بنا أيضا، ونحن مصممون على أن نموت ولا نسمح بذلك. وحتى لو أمكن تحصيل المبالغ المتوقعة بطردنا وإخراجنا من أرضنا، فإنها لن تعادل بأي حال المبالغ التي ستصرف على الطرد والإخراج. وفي

هذه الحالة ستتخلى الدولة عن رعاياها المطيعين وعن المال في وقت واحد. لذلك فإنه في حال الإصرار على بيعها، نرجو بيعها لزراعها وأهاليها القدماء ببدل المثل على أن تستوفى على أقساط"[٣٦].

من جهة ثانية، وحول القروض اليهودية المقدمة للدولة العثمانية، نقل العريسي في المفيد مجريات الجلسة التشريعية التي تمت في ١٦ شباط ١٩١١، ومما ورد فيها نقاش حاد حول قروض متعلقة بالمسألة الصهيونية، مما يؤشر لمتابعته الجادة في الموضوع الصهيوني، وإنشاء حكومة يهودية مستقلة على أرض فلسطين قبل وعد بلفور بسنوات، ومما يعرضه عن الجلسة التشريعية ما قاله إسماعيل حقي بك مبعوث كوملجنه:"... ثم انتقل الى القروض التي عقدها جاويد بك، وبالأخص القرض الأخير، وتدرج منها الى المسألة الصهيونية، ورمى الحكومة بالأخذ بناصر هذه الجمعية اليهودية الساعية في تأليف حكومة يهودية مستقلة في القطر الفلسطيني (الأرض الموعودة)، وقال إن لهذه الجمعية على علاقة كبيرة بالقرض الأخير ..."[٣٧]

ويكمل في عرض محاولة اليهود العمل لدى النافذين في المناصب السامية لإسكان اليهود في فلسطين، وتعرض لمقاطعة مبعوث ازمير وهو يهودي، كما واجهه طلعت باشا بالدفاع عن اليهود؛ مما أغضب جاويد بك ناظر المالية فخرج من الجلسة. وفند علاقة الجمعية وأفرادها وأبرزهم "أرنست كاسل" (اقتصادي يهودي بريطاني) وغيرهم من الماليين الفرنسيين والألمان والنمساويين بالمسألة الصهيونية. وما يثير الاهتمام في هذا العرض التفصيلي الذي نقلته المفيد، هو تسليط الضوء على انغماس قيادات الاتحاد والترقي في الدفاع عن اليهود واعتبار مساعدتهم للدولة العثمانية نزيهة، وبعيدة عن مؤامرة الحكومة المستقلة في فلسطين وتوطين اليهود. إذ ها هو الصدر الأعظم كما أوردت المفيد، يقاطع إسماعيل حقي، ويعتبره مؤلف لقصة فكاهية، وينتقل الى الدفاع عن "أرنست كاسل"، معتبرًا "إن السير كاسل كان في مصر، ولم يسع بتمليك اليهود فيها، متخذًا قوله هذا دليلاً على كون السير أرنست بعيدًا عن فكرة اليهود السياسية، كأن اليهود لا يفرقون بين مصر وفلسطين أرض الميعاد"[٣٨]. بل أخذ في مدح أرنست وما قدمه للدولة العثمانية، وهو الصديق للملك البريطاني، مستشهدًا بما قدمه لمصر، واعتبر أن وصف الحركة الصهيونية مجرد تخيلات وهمية طائشة..."[٣٩]

ولعله بهذا العرض التفصيلي أراد لفت النظر الى ما يحدث في الأروقة العثمانية في ظل حكم الاتحاد والترقي، من علاقات مشبوهة مع الحركة الصهيونية، وصلت الى حد الدفاع عنها في مجلس المبعوثان. وليس أدل على هذا الدفاع من الفصول الطوال التي كانت تنشرها جريدة "الجون ترك"[٤٠] دفاعًا عن الصهيونية؛ ويتهمها عبد الغني بإنكار محاولة الصهيونية استعمار البلاد العثمانية، وتأسيس دولة فيها تكون إسرائيلية، بل ويؤكد أن هذه الجريدة مؤسسة بأموال إسرائيلية[٤١].

لقد كان العريسي واعيًا لمخاطر الحركة الصهيونية وما تطمح اليه، في ظل شراء النفوس لدى جماعة الاتحاد والترقي، وفي ظل تغلغل أفكارها في الأروقة التركية حيث انتمى العديد من قياداتها الى الحافل الماسونية. ويبدو أن عدة من المراجع تشير الى أن علاقة المحامي اليهودي الماسوني "عمانوئيل قرة صو" بطلعت باشا[٤٢]، وهو من أدخله وجاويد باشا في الماسونية[٤٣]. من هنا يمكن فهم استماتة طلعت باشا في الدفاع عن الصهيونية والباسها لباس الوداعة والعمل لمصلحة الدولة التركية على أكثر من منبر.

وفي عدد ١٩ آذار ١٩١١، يعود العريسي للحديث عن الحركة الصهيونية في مجلس المبعوثان، وينقل خطاب إسماعيل حقي الشهير حول القرض والعلاقة مع الجمعية الصهيونية، وألمح أن الصدر الأعظم أراد الحط من خطورة الجمعية الصهيونية، وذر الرماد في عيون العثمانيين وتطمينهم، غير أن العريسي بالمرصاد لهكذا مقولات تشوه الحقائق. إذ يؤكد "انه إذا استمرت مساعي الصهيونيين السرية والجهرية ولم تقف الحكومة أمام هذا التيار الجارف، لم يمض مدة من الزمن إلا وتصبح فلسطين إسرائيلية، ويتم ما يريده اليهود الأجانب، وتتحقق أماني الصهيونيين"[٤٤]. يدق العريسي جرس الإنذار مبكرًا قبل وعد بلفور بسنوات، ويشير الى إمكانية تمدد هذا الخطر الى سورية وولاية بيروت، في مواجهة غير متكافئة في تلك الفترة بين سلوكيين وعقليتين وإمكانيتين مختلفتين، لتصبح شعوب هذه المناطق من مرويات

التاريخ. "ويستبعد أن يجهل الصدر الأعظم ما للصهيونيين من المكانة العظيمة، ومن المحال أن كون غير واقف على ما يصرفه أعضاء الجمعية المذكورة من النشاط تمهيدًا لسبل الاستيلاء على بيت المقدس في المستقبل"[٤٥]. ويحذر من مغبة الوقوع في الاحتلال السلمي، وبذل الغالي والرخيص في سبيل وضع اليد على جميع المرافق الاقتصادية، والاستيلاء على البلاد. ويعود فيفند نشأة الصهيونية وعلاقتها بجبل صهيون المبني عليه بيت المقدس، والشروع بتحقيق مشروعهم الذي أطلقه هرتزل. فيقول:" أقبل اليهود الأجانب وأي إقبال على اقتناء الأراضي والأملاك والعقارات، في الأرض الموعودة، رغم المنع الذي وضعته الدولة في الدور السابق، تارة بوسائل الترغيب، بكثرة ما يدفعونه من الثمن عن أرض أو عقار لا يساوي عشر ما يدفعونه فيه، وبالترهيب مرة، وبالوعد والوعيد طورًا حتى أصبح اليوم جبل القدس، ملكًا لليهود، ليس فيه شبر لمسلم أو مسيحي عثماني، وقس على ذلك في حيفا ويافا وضواحيهما وبقية بلاد فلسطين الآخذة بقطع المراحل..."[٤٦]

وفي عدد ٢١ آذار ١٩١١، تلفت المفيد النظر ونقلاً عن جريدة اللواء الى الهجرة الأرثوذكسية نحو فلسطين، والتي ترعاها روسيا، وتيسرها الحكومة لدرجة أنها تسمح بوضع كل ٥٠ زائر على جواز سفر واحد؛ وتشير المفيد باستغراب تعليقًا على المقال، أن روسيا "تحمي اليهود المضطهدين الذين يهاجرون من روسيا نحو فلسطين، وهؤلاء يأتون في كل سنة عائلات وأفواجًا، وعددهم لا يزال يزداد حتى أن الجمعية اليهودية تبني لهم الأحياء خارج بلدة يافا إيواء لهم، وإنه لمن العجب أن تحمي روسيا اليهود في بلاد الدولة، ولا تحميهم في بلادها؛ ولكن ليس في السياسة شيء عجيب..."[٤٧] وفي عدد ٢٨ آذار ١٩١١، تفتح المفيد بمقال لسليمان التاجي الفاروقي يحمل عنوان: "أطماع اليهود السياسية". ومما ورد فيه: "وليس تغلغل اليهود في بلادنا خطرًا على حياتنا الاقتصادية، بل ثمة أخطار وويلات ترتعد لها فرائص الوطني المخلص...كان اليهود يحنون الى فلسطين وسوريا حنين النازح الى وطنه، ويهفون إليها شوقًا...ظل اليهود من بعد، يخالسون فلسطين النظر...صرّح أحد زعمائهم في مؤتمر همبرغ الماضي، بأن اليهود لا يقبلون أن يكونوا عثمانيين، وأنهم إذا دخلوا البلاد العثمانية بآمالهم وأمانيهم، فهم يسعون الى تحقيق أماني تاريخية...لم يزلوا تلك الأمة التي عرفت بأطماعها تلك الأمة التي لم تكن عظات الدهر البالغة وعبره الواعظة لتقلع من نفوسهم أماني استرجاع مجد إسرائيل...فليعتبر العثمانيون بهذه القضية ففيها آية للمتوسمين، وليفطن أولو الأمر، الى مغبة امتلاك اليهود هذه الأراضي المقدسة وليحذروا عاقبة هذا الخطر الوبيل..."[٤٨]

وتنشر المفيد في ١٩ حزيران ١٩١١، مقالاً لحقي بك العظم عن الصهيونية في الدولة العثمانية نقلاً عما تناقلته الصحف التركية، يقول فيه: "وقد هلل الصهيونيون للدستور وصفقوا سرورًا بإعلانه في المملكة العثمانية، ظنًا منهم أنها فرصة مناسبة توصلهم الى أمنيتهم، وهي تأسيس حكومة يهودية في فلسطين. ولكن ظهر أخيرًا أن الحكومة العثمانية الجديدة، أيضًا ستقف بالتدريج دون تحقيق أماني الصهيونيين رغم مساعي الدكتور ناظم بك (من كبار رجال جمعية الاتحاد والترقي ومن معتمديها – مرخص- وهو من أهالي سلانيك)، ورغبة رؤساء تركيا الفتاة – رجال الجمعية – في إسكان كثير من مهاجري اليهود الروسيين والرومانيين في المملكة العثمانية؛ وقد كان تأسيس جريدتي أورور – الشفق – وجون ترك - الفتى التركي – بعد خلع عبد الحميد بقصد ترويج أماني الجمعية الصهيونية أو بمقاصد أخرى تقرب من ذلك...وقد كان الدكتور "نوسيغ" حضر منذ بضعة شهور موفدًا من قبل جمعية الاستعمار الإسرائيلية في برلين بمهمة المداولة مع رؤساء تركيا الفتاة – وفي الأصل جون ترك – والحصول على إذن بإسكان اليهود في الأناضول والعراق وفلسطين، من غير شرط...بينما نرى من جهة أن الصدر الأعظم وطلعت باشا الذي كان وزيرًا للداخلية، يكذبان مساعي الصهيونيين وينزلانها منزلة الخيالات والأوهام...وإذا أمعنا النظر في هذه المسألة، فإننا لا نرى فيها سوى أطماعًا إسرائيلية طبيعية، وهي نقل الملايين من الإسرائيليين الذين يئنون تحت أثقال أنواع الظلم والاضطهاد السياسي والاجتماعي في روسيا الى بلاد تربطهم بها روابط التاريخ القوية وما مضى من المجد الإسرائيلي...ولذلك كله لا نستغرب ما يخامر أفئدة

العثمانيين المعتدلين والمحافظين من الشك والريبة من مساعي الصهيونيين..."(٤٩)

ومما أشارت إليه «المفيد» عام ١٩١٢ في مقال تحت عنوان «الصهيونيون في حيفا»: "إلى مقام الولاية الجليلة نرفع هذه الصرخات الأليمة... ما كان سكوتنا عن المسألة الصهيونية، إلا بعد أن رأينا كلامنا يذهب أدراج الرياح، يوم كان للاتحاديين صولة على الأمة، وتساهل مع الصهيونيين... أما اليوم، وقد تبدلت الحال، فعسى أن تنتبه الحكومة الحاضرة إلى ما أغضت عنه الحكومة الغابرة، يهاجر أهل بلادنا إلى أميركا، ويهاجر الصهيونيون إلى بلادنا. ولا ريب بأنه سيأتي علينا يوم إذا استمر الحال على هذا المنوال يصبح العربي في بلده «أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام".

وخلال عامي ١٩١٣-١٩١٤، استضافت جريدة فتى العرب التي صدرت بديلةً للمفيد، مقالاً لمحمد علي الطاهر بعنوان "الصهيونيون في فلسطين"، وكان ذلك جزءًا من حملة كانت تقوم بها عدة جرائد في التنبيه من الخطر الصهيوني ومن بينها جريدة الكرمل لنجيب نصار، وجريدة فلسطين ليوسف العيسي، والحقيقة لحسن الناطور وكمال عباس(٥٠). "وذكر فيه أن يهود (حارة تل أبيب) يستعملون نقودا نحاسية نقش عليها خاتم سليمان وأن لهم طوابع بريدية عليها صورة هرتزل زعيم الحركة الصهيونية، وأن يهـود (حارة تل أبيب) يعملون استعراضات عسكرية، ثـم حذر الناس من اليهود الذين يقومون بإنشاء حكومـة يهودية داخل الحكومة العثمانية"(٥١)

خاتمة

يبقى السؤال بعد الاطلاع على ما ورد في جريدة المفيد لعام ١٩١١، هل كان إعدام وغيره من الرفاق الذين شاركوا في مواجهة حركة التتريك، لمجرد أنهم عارضوا الدولة العثمانية في فترة اختارت فيها الخوض في الحرب العالمية الأولى؟ وهل استهدف جمال باشا من خلال هذا الإعدام، القضاء على بذور التحرر، ومحاولة شدّ أواصر الدولة من الداخل في مواجهة أطماع الخارج؟

يبدو أن تصفية هذه المجموعة من النخب، كان لغايات متعددة، منها اغتيال للكلمة وللرأي الآخر، وتفريغ الساحة العربية من النخب الواعية والمثقفة، وبالتالي إضعاف البنية السياسية بإعدام مجموعة من الأعيان، والتي كان يمكن أن تكون مدخل استقلال فيما لو انهارت الدولة العثمانية. وبهذه السياسة القمعية، وهذه الأحكام العرفية، كأن جماعة الاتحاد والترقي أرادوا ترهيب المجتمعات العربية وضبط إيقاعها بحالة الحرب.

من جهة ثانية، لا يمكن إلا التفكير في هذا الاختيار لتلك الشخصيات واغتيالها، وربطه بمحاولة إطفاء أصوات تحدثت عن الخطر الصهيوني؛ وليس أدل على ذلك، من اعتقال يوسف حنا العيسى، المساهم بإصدار جريدة فلسطين، في دمشق حتى نهاية الحرب العالمية الأولى؛ وكانت هذه الجريدة متخصصة بمتابعة الحركة الصهيونية باتجاه فلسطين وتفنيد مؤامراتها. ويمكن ربط هذا الاغتيال للكلمة أيضًا مع ملاحقة نجيب نصار من قبل جمال باشا، وهو شيخ الصحافة الفلسطينية، والذي أصدر صحيفة الكرمل المتخصصة أيضًا بمواجهة الصهيونية.

يبدو أن عبد الغني العريسي في تلك الفترة العصيبة من تاريخ المشرق، مساحة وعي تمّ إطفاؤها من قبل جمال باشا، ويبدو أن التاريخ يشير الى أن هذا التغييب كغيره، طال شخصيات كان يمكن لها أن تواجه بوعي الخطر الصهيوني في فلسطين، وأن تساهم في فترات لاحقة في الحفاظ على هوية فلسطين العربية في مواجهة المؤامرات الصهيونية التي استغلت التحولات العثمانية في السلطة لصالحها، فعززت الهجرة واستملكت الأراضي، وألبست مشاريعها وداعةً كاذبة، لم يكن ليكشف حقيقتها سوى رجال القلم والكلمة الحرة.

الملاحق

اقتباسات من جريدة المفيد ١٩١١:

المفيد ١-١-١٩١١

اليهود المهاجرون

نشرت صباح خبراً عن اليهود
المهاجر بن مفاده ان شورى الدولة
باشر في البحث بالقانون الذى سن لمنع
الاجانب الموسو بين الذين يهاجرون
اوطانهم من السكنى في اراضي سورية
و بيروت وفلسطين وقد جاء في هذا
القانون شروط وقيود عديدة تمنع هؤلاء
اليهود الاجانب من التلاعب في هذه
البلاد وعسى مجلس الامة ان يوافق على
هذا القانون سريعاً فان البلاد يكاد
ينهار عليها التيار اليهودى الاجنبي

المفيد ١٦-٣-١٩١١

اما اسماعيل بك فانهُ استمر في
كلامه وقال انه يوجد علاقات بين
القروض والجمعية الصهيونية المار
ذكرها واستدل على ذلك بعلاقات
السير ارنست كاسل (اقتصادي
اسرائيلي انكليزي) وغيره من
الماليين الفرنسويين الالمانيين
والنمساويين واغلبهم من بني اسرائيل
وشرح قصد هذه الجمعية وما ترمي اليهُ
من الغايات السياسية في فلسطين وتلا
على المجلس بعض ماقرره مؤتمرها في
برلين عن اراضي فلسطين واستعمارها ولما
وصل الى هنا قاطعه الصدر الاعظم
قائلا:

— ان ما يقصه اسماعيل بك علينا
يؤلف قصة فكاهية لا يمكن تأليف
مثلها حتى في دور السلطان السابق

المفيد ١٦-٣-١٩١١

الصدر الاعظم — نعم احسن
منها. ثم اخذ حقي باشا يمدح ارنست
كاسل وما اداه من الخدمات الاقتصادية
للدولة العثمانية بفتحه البنك العثماني
الوطني واستنكر طعن اسماعيل بك
عليه خصوصاً وان الرجل صديق
حميم للملك الانكليز ووصف الحركة
الصهيونية بالتخيلات الوهمية الطائشة
التي لا اهمية لها ونسب التهوس للقائلين
بها وقال انهم بضعة اشخاص يريدون
ان يلعبوا دوراً على مسرح الطيش بعقد
مؤتمرات هنا وهناك مما يستوجب
استهزاء اليهود العثمانيين بهم ونفي علاقة

المفيد ١٨-٣-١٩١١

عن الاستعمار الصهيوني

تكتب جريدة الجون ترك
الفصول الطوال دفاعاً عن
الاستعمار الصهيوني وتحاول انكار
مقاصد هؤلاء الجماعات من استعمار
البلاد العثمانية وتأسيس دولة فيها تكون
اسرائيلية والذي نعلمه عن ان هذه
الجريدة مؤسسة باموال اسرائيلية
فاذا عرف السبب بطل العجب
......

المفيد ٥-٢-١٩١١ | **المفيد ٥-٢-١٩١١**

الجمعية الصهيونية

في فلسطين

اطلعنا في «اللسان» الاغر على
مقالة لسليمان افندى يلين محامي جمعية
(الايكا) الاستعمارية الاسرائيلية
الاجنبية في فلسطين يرد فيها على مقالة
رفيق بك العظم التي نشرتها الحضارة
تحت هذا العنوان وقد ارتأينا ضرورة
تفنيد اقوال سليمان افندى لئلا تنطلي
على عقول العامة وعلى الذين لا وقوف
لهم على تاريخ الاسرائيليين القديم
واعمال الجمعيات الموسوية الاستعمارية
ومقاصد الجمعية الصهيونية

الموسوي يعتقد اعتقاداً راسخاً بان امر
استقلاله منوط بارادة آلهية وان الله
عز وجل يرسل مسيحاً لاجل انقاذه
من هذه الحالة وقال انه لا يوجد في
التاريخ حادثة واحدة تثبت ذلك

اما نحن فنقول بان فكرة الاستقلال
واسترداد الملك والمجد القديمين لم تبرح
من اذهان اليهود منذ فقدوا استقلالهم
الى اليوم وقد حاربوا من اجلها الرومان
واليونان وغيرهم ثلاثة قرون متوالية

المفيد ٥-٢-١٩١١

ثم نفى سليمان افندي عن الجمعية
الصهيونية والمارضين لها فكرة السعي
وراء الاستقلال واعادة المجد القديم
بتاتاً فما قول حضرته في تصريح الدكتور
مكس نوردو احد اركان الجمعية
الصهيونية بانهم يسعون في فلسطين
ليس لامتلاك بضعة الاف من
الاراضي ليسكنوا فيها المزارعين
الاسرائيليين وانما يسعون لاتمام ماقرره
التاريخ لهم فيها وبقوله ما نقلته الطان
عن بعض رؤسائهم بان الجمعية الصهيونية
ستكون سفينة النجاة لانقاذ اليهود
الذين حسبت حالهم في البلدان الاجنبية
من الاستغراق في جنسياتها وعلى ماذا
يؤول اقوال المسيو ج لاوي استاذ
الاقتصاد في كلية لندرا ورئيس الجمعية
الموسوية في لندرا وهما من اعلام
اليهود الذين قبحوا مساعي الصهيونيين
وحضوا اليهود العثمانيين على اجتناب
الاشتراك فيها كما جاء في جريدة طنين

المفيد ٢٩-١-١٩١١

مشروع الاصفر واليهود

كتبت جرائد الاستانة ان
مجلس شورى الدولة رفض مشروع
الاصفر على اثر تعديلات لم يقبل بها
صاحب المقاولة ولما كانت هذه المسألة
موضوع بحث الباحثين منذ اشهر
احببت ان ابين لقراء المفيد الاسباب
التي حملت اعضاء الشورى على رفض
المشروع بعد ان وافقت عليه نظارة
المالية وهيئة الشورى في جلساتها
السابقة

اولاً — ان حملات الجرائد على
المشروع والكيفية التي صار الاتفاق
عليها بين نظارة المالية وصاحب المشروع
وأدت في الافكار العمومية شبهاً
تقتضي الحكمة بازالتها

ثانيا ان الصدر الاعظم خائف
[illegible]

في وجه كل نائبة تنوب البلاد لم
يأل الراجون في مجار بشركة الاستعمار
وطلائع جيش الاحتلال حتى ملأوا
الاستانة ضجيجاً ونشروا من مطوي
اسرار المشروع ماراع قلوب العثمانيين
الصادقين وبناء على كل ذلك رفض
المشروع على ان بعض المطلعين يقولون
ان الرفض رفض الى حين رجله
احتالوا بها على تسكين الخواطر وانه
لا بد من الرجوع الى هذه الاقضية
اجلا وعند اول فرصة تسنح اذ لم يبن
الرفض الاعلى رفض الاصفر (بعض)
شروط ارادت هيئة الشورى ادخالها
في المقاولة محافظة على مصلحة الوطن
فرفضها الاصفر وهو يدعي انه يستخدم
بمشروعه الوطن والامة وعلى كل
حال لا بد من مواصلة الاعتراض ولن

[illegible]
على انقاض تلك الدولة يملكون البلاد
باموالهم فلم يكن للاسبنيول مندوحة
عن اشراكهم في الاعمال الاقتصادية
لاشتهار اليهود بالاقتصاد وفنونه ولم يفطن
الاسبنيول الى ما اصاب العرب من
قبلهم فجعلوا خزائن ملكهم بايدي
اليهود وبالاصح قولاً عينوا منهم وزراء
المالية وعمالها فكانت نتيجة هذه الثقة
خراب اسبانيا ونفود اموالها ولم يتنبه
القوم لا وقد نزل الخطب بهم فهبوا
يقتلون اليهود ويعذبونهم لاسترداد
اموالهم وطفق هؤلاء يهاجرون
اسبانيا الى البلاد العثمانية لائذين براية
الاسلام وحماية سلاطينه فانزلتهم تلك
الحكومة في اخصب بقاع السلطنة
وعرفت بهم سلانيك وادرنه والاستانة
وما بين هذه المدن الكبيرة من مدائن
صغيرة فاليهود الذين خربوا دول اسبانيا
العربية والكاثوليكية هم اجداد من

المفيد ٢٨-٣-١٩١١

اليهود اني وجدوا وحيثما ثقفوا
يعملون على غاية واحدة ويسعون الى مقصد
واحد لا يختلف في ذلك قبيل عن
قبيل. فاليهودي الالماني هو بعينه
ذلك اليهودي الفرنساوي لا يفصله عنه
عداوة الدولتين او تنابذ الامتين ولا
اثر لتلك التبعة الا حيث يستعملها سلاحا
عند مس الحاجة حيث تشتبك
مصالحه بمصالح شعب اخر وفيما دون
ذلك لا اثر لها، بل هو يعتبرها حملاً
ثقيلاً على عاتقه.

المفيد ١٩-٣-١٩١١

الجمعية الصهيونية

في مجلس المبعوثان

تكلم اسماعيل حقي مبعوث
كوملجنه خلال خطبته التي القاها في
المجلس في جلسة ١٦ شباط عن القرض
الاخير وقال ان لهذا القرض علاقات
بالجمعية الصهيونية اليهودية واماما
واورد بعض الادلة على ذلك فرد عليه
الصدر الاعظم حقي باشا وقال عن
الصهيونيين انهم بضعة اشخاص من
المفتونين المتهوسين المشعوذين ووصف
افكارهم وآراءهم بالخيالات الوهمية التي
لا امكانة لها ونسب الطيش لمبادئهم الذى
لا يمكن تحققه وشبه اقوال اسماعيل
بك عن الجمعية المذكورة بقصة
فكاهية ولا اخال الا ان الصدر
الاعظم اراد بكلامه هذا الحط من
خطورة الجمعية وتطمين بال العثمانيين

اماني الصهيونيين التي وصفها حقي
باشا الصدر الاعظم امام المجلس النيابي
العثماني بانها اضغاث احلام ثم تتبع
فلسطين سورية وبيروت رغم الانوف
لعدم قدرة اهلها علماً واقتصاداً وسياسة
على الوقوف امام هؤلاء اليهود وهم
اغنى الارض ثروة واعظمهم اقتداراً
واشدهم تبصراً بالعواقب واقدرهم على
استعمال ضروب السياسة فمن اين لنا
دفع هذه الملمة الكبرى والمصيبة العظمى
ونحن نخاف لا علم لنا يفضل بخل
اغنيائنا المترفين المسرفين في سبيل
شهواتهم والمسكين في سبيل تعليم
ابناء شعبهم الفقراء ولا حول لنا في
السياسة والاقتصاد وكيف يجني
الشعب العربي الفلسطيني والسوري

الاحالات المرجعية:

(١) حسان حلاق، **تاريخ لبنان المعاصر، ١٩١٣-١٩٥٢**، دار النهضة العربية، ٢٠١٠، ص ١٦

(٢) حسان حلاق، مرجع سابق، ص ٣٤-٣٥.

(٣) عبد الغني العريسي، **مختارات المفيد**، قدم لها ناجي علوش، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨١، ص ١٠.

(٤) **القافلة الأولى** للشهداء الذين أعدموا في ١٥ آب ١٩١٥: عبد الكريم الخليل، من الشياح قرب بيروت؛ حمد المحمصاني، من بيروت؛ محمود المحمصاني، من بيروت؛ عبد القادر الخرسا، أصله من دمشق ومقيم في بيروت؛ نور الدين القاضي، من بيروت؛ سليم أحمد عبد الهادي، من قرية عرّابة قرب جنين بفلسطين؛ محمود نجا العجم، من بيروت؛ الشيخ محمد مسلّم عابدين، مأمور أوقاف اللاذقيّة من دمشق؛ نايف تللو، من دمشق؛ صالح حيدر، من بعلبك؛ علي الأرمنازي، من حماه.

القافلة الثانية من الشهداء الذين أُعدموا في السادس من أيار سنة ١٩١٦ : شفيق بك مؤيد العظم، من دمشق ؛ الشيخ عبد الحميد الزهراوي، من حمص؛ الأمير عمر الجزائري(حفيد الأمير عبد القادر الجزائري) من دمشق؛ شكري بك العسلي، من دمشق؛ عبد الوهاب الإنكليزي، من دمشق؛ رفيق رزق سلّوم، من حمص؛ رشدي الشمعة، من دمشق؛ وفي نفس التاريخ أُعدم في بيروت في ساحة البرج المحكومون التالية أسماؤهم : باترو باولي، من التابعية اليونانيّة، مقيم في بيروت؛ جرجي الحداد، من جبل لبنان؛ سعيد فاضل عقل، من الدامور بلبنان؛ عمر حمد، من بيروت؛ عبد الغني العريسي، من بيروت؛ الشيخ أحمد طبارة، إمام جامع النوفرة في بيروت؛ محمد الشنطي اليافي، من يافا بفلسطين؛ توفيق البساط، من صيدا؛ سيف الدين الخطيب، من دمشق؛ علي بن عمر النشاشيبي، من القدس؛ محمود جلال البخاري، من دمشق؛ سليم الجزائري، من دمشق؛ أمين لطفي الحافظ، من دمشق؛

- إلى جانب القوافل التي أُعدمت بشكل جماعي، هناك أفراد حكم عليهم الديوان العُرفي بتهم مختلفة وتمّ إعدامهم في مدن مختلفة، وفي تواريخ متفرقة وهم :
- الخوري يوسف الحايك، من سن الفيل قرب بيروت، أُعدم في دمشق يوم ٢٢ آذار سنة ١٩١٥، والذي كان أول شهيد يسقط في الحرب العالمية الأولى .
- نخلة باشا المطران، من أهالي بعلبك اغتاله حارسه الشركسي أحمد بك الرزّي قرب أورفه بالأناضول في ١٧ تشرين الأول ١٩١٥ وأُلقيت جثته في بركة ماء قرب المكان الذي اغتيل فيه.
- الشقيقان فيليب وفريد الخازن من جونيه بلبنان أُعدما ببيروت يوم الثاني من أيار سنة ١٩١٦ .
- عبد الله الظاهر، من عكّار، أُعدم ببيروت يوم الأول من آذار سنة ١٩١٦ .
- يوسف الهاني، من بيروت، أُعدم ببيروت في نيسان سنة ١٩١٦ .
- محمد الملحم، شيخ عشيرة الحسنة، أعدم بدمشق في أوائل سنة ١٩١٧ .
- فجر المحمود، من عشيرة الموالي، أُعدم بدمشق أوائل سنة ١٩١٧ .
- شاهر بن رحيل العلي، من عشيرة التركي، أُعدم بدمشق على أثر إعلان الثورة العربيّة .
- الشيخ أحمد عارف، مفتي غزة، وولده، من مدينة غزة أُعدما في القدس الشريف سنة ١٩١٧ .
- الشقيقان أنطوان وتوفيق زريق، من طرابلس، أُعدما بدمشق سنة ١٩١٦ .
- يوسف سعيد بيضون، من بيروت، أُعدم في عاليه بلبنان يوم العاشر من شهر آذار/مارس سنة ١٩١٦ .
- راهب فرنسي، كان عند مطران الروم الكاثوليك بطرابلس، أُعدم في دمشق.

(٥) جميل عبد الله المصري، **حاضر العالم الإسلامي: وقضاياه المعاصرة**، جزءان، الجامعة الإسلامية، المدينة، ١٩٨٦، الجزء الأول، ص ١٠٨

(٦) علي محمد الصلابي، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**، الأمل للتجهيزات الفنية، ٢٠٠١، ص ٤٦٥.

(٧) (المدورة أي المرجعة إلى خزينة الدولة بعد مصادرة خزينة السلطان الخاصة، وهي أراضي السلطان عبد الحميد المصادرة في فترة الاتحاد والترقي)

(٨) يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، مجلدين، منشورات مؤسسة فيصل، إستانبول، ١٩٩٠، المجلد الثاني: استقى بعض معلوماته من كتاب "علية ديوان حرب عرفيسنده تدقيق أولونان مسألة سياسية حقنده إيضاحات، دوردونجي أوردوي همايون طرفندن نشر ايدلمشدر، در سعادات ١٣٣٢"

(٩) يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، مرجع مذكور، المجلد الثاني، ص ٢٤٩: هرب الى القاهرة ونجا.

(١٠) يلماز أوزتونا، **المرجع نفسه**، المجلد الثاني، ص ٢٥١-٢٥٢.

(١١) **الرأي، عدد ١٧ حزيران ٢٠١٦**: ولد وتعلّم في بيروت. واشترك مع فؤاد حنتس بإصدار جريدة المفيد اليومية، في العام ١٩١٣. وذهب إلى باريس فدخل مدرسة الصحافة، ودرس علم السياسة الدولية، واشترك في المؤتمر العربي الاول عام ١٩١٣. وعاد إلى بيروت بعد وفاة فؤاد حنتس، فاشترك مع عارف الشهابي في متابعة اصدار الجريدة، ونقلاها إلى دمشق في بدء الحرب العالمية الأولى.

(١٢) **النّهار**، العدد ٢٣٦٨٠، ٢٠٠٩/٤/٢٧: د. جوزيف الياس، **مئة سنة على صدور جريدة المفيد**: بدأ عبد الغني العريسي بصحيفة "المفيد" اليومية في ٩ شباط ١٩٠٩، حتى أغلقها العثمانيون في أواخر أيار ١٩١٢. فأصدر صحيفة "صدى المفيد"، في ٣٠ أيار ١٩١٢، والتي استمرت لأعداد قليلة قبل أن تعاود "المفيد" إصداراتها قبل إغلاقها في أيلول من نفس العام بعد ١٠٨٢ عدداً. وصدرت بعد أيام قليلة صحيفة باسم "لسان العرب" وحمل العدد الأول منها رقم "١-١٠٨٣" في إشارة إلى استكمال مسيرة "المفيد"، وافتتحها العريسي بمقال شغل الصفحة الأولى كاملة تحت عنوان "باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت"، وتم إغلاقها في أواخر أيلول ١٩١٢. وفي ٢٨ أيلول ظهرت صحيفة جديدة تحت اسم "الفتى العربي" واستكمالاً لمسيرة "المفيد" أيضًا حمل عددها الأول رقم "١-١٠٨٦"، وظلت تصدر لعدة أشهر قبل أن يعاد افتتاح "المفيد" والتي أعاد الأتراك إغلاقها في أواخر كانون أول من عام ١٩١٣. واستمر العريسي بعناده وأصدر في ١٥ كانون أول من عام ١٩١٣ صحيفة تحت اسم "فتى العرب" وأيضًا حمل إصدارها الأول رقم "١-١٤٣٥"، واستمرت "فتى العرب" بالصدور حتى أواخر أيلول من عام ١٩١٤، وآخر عدد موثق هو "٢٢٩-١٦٦٣" الصادر يوم ٢٥ أيلول ١٩١٤. ثم عادت "المفيد" للصدور في أواخر أيلول من عام ١٩١٤، وكان آخر عدد موثق من "المفيد" يحمل رقم ١٧٠٩ صادر في ١٥ تشرين الثاني ١٩١٤.

(١٣) فيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، بيروت، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩١٣، الجزء الأول، ص٤٢.

(١٤) **النّهار**: العدد ٢٣٦٨٠، ٢٠٠٩/٤/٢٧: جوزيف الياس، مئة عام على صدور جريدة المفيد.

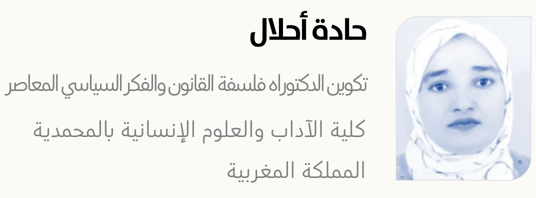
(١٥) فيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، مرجع مذكور، الجزء الرابع، ص ١٥-١٦.
(١٦) **جريدة لسان العرب**، العدد ٢٣ أيلول ١٩١٢.
(١٧) **النّهار**: العدد ٢٣٦٨٠، ٢٧/٤/٩٠٠٢: جوزيف الياس، مئة عام على صدور جريدة المفيد.
(١٨) حسان حلاق، **تاريخ لبنان المعاصر ١٩١٣-١٩٥٢**، مرجع مذكور، ص ١٦.
(١٩) المرجع نفسه، ص ٣٤-٣٥.
(٢٠) **جريدة المفيد**، عدد ١ كانون الثاني ١٩١١
(٢١) قد تمت على دفعتين رئيسيتين الأولى منهما بين سنة ١٨٨٢م وسنة ١٨٨٤م والثانية سنة ١٨٩٠م أو سنة ١٨٩١م ,وقد جاء في هذه الهجرة حوالي ٢٥ الف يهودي معظمهم أسر محدودة الإمكانيات من رومانيا وروسيا. وتشير المراجع الصهيونية الى ان هذه الهجرة نظمت ومولت من جمعيات أحباء صهيون وحركة بيلو، ولكن هناك قرائه كثيرة تشير الى بعض الشخصيات الاستعمارية والأجهزة البريطانية في تنظيم هذه الهجرة وتمويلها، كصندوق تطوير الاستيطان في فلسطين الذي أسسه سنة ١٨٥٢م الكونونيل جورج جاولر حاكم استراليا السابق والسير لورنس أوليفانت الذي زار روسيا في تلك الفترة ثم حضر الى فلسطين، واقام في حيفا مدة من الزمن www.paldf.com
(٢٢) وثائق نشرت على موقع شبكة فلسطين للحوار:(www.paldf.net): وهي وثائق عثمانية مترجمة الى العربية تتعلق بفلسطين من الارشيف العثماني؛ ترجمة الاستاذ كمال أوغلو خوجة، كمال خوجة /مترجم ومتخصص في الوثائق العثمانية-أنقرة،تركيا .
(٢٣) وثيقة رقم (Y.E.E 136/110-1) من الممثلية العثمانية في واشنطن، تاريخ: ٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٩٩
(٢٤) الوثيقة نفسها.
(٢٥) **جريدة المفيد**، عدد ٢٩ كانون الثاني ١٩١١
(٢٦) **جريدة المفيد**، عدد ٢٩ كانون الثاني ١٩١١.
(٢٧) **جريدة المفيد**، عدد ٢٩ كانون الثاني ١٩١١.
(٢٨) سهيلا سليمان الشلبي، **مشروع الصهيوني وبدايات الوعي العربي لمخاطره ١٨٩٧-١٩١٧**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٦، ص ١٦٦.
راجع أيضًا: زهير عبد المجيد الفاهوم، **فلسطين، ضحية وجلادون**، شمس للنشر والإعلام، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٣٩٠: تأجير أراضي بيسان لنجيب ألأصفر لمدة ٩٩ سنة...
ويجدر الذكر أن عبد الكريم الخليل، وهو من شهداء أيار ١٩١٦، ذكرها في خطاب أمام الصدر الأعظم في ٥ آب ١٩١٣، في مظاهرة تأييد للاتحاد والترقي، بعد وعدها العرب بتحقيق مطالبهم.
(٢٩) الوثيقة (D.H.I.D 73/8-25): كتاب مرفوع الى المقام الجليل للخلافة العظمى، وإلى مقام الصدارة العظمى، وإلى مقام نظارة الداخلية، بواسطة متصرفية القدس، موقع من محمد يوسف القاسمي نائب القدس السابق، سعيد الحسيني، وأكثر من خمسين توقيعا من القدس وغزة ويافا: في ٢٢ رجب سنة ١٣٣١الموافق (٢٧-٦-١٩١٣). ترجمة كمال خوجة: مجموعة منشورة على شبكة فلسطين للحوار.
(٣٠) الوثيقة (DH-I-D 73/8-36): برقية موجهة عبر إدارة برق الدولة العلية العثمانية، من عكا في ١٧ تموز سنة ١٣٢٩ (١٩١٣) إلى وزارة الداخلية: ترجمة كمال خوجة: مجموعة منشورة على شبكة فلسطين للحوار.
(٣١) الوثيقة (Y.P.R.KA.Z.J 34/1) : برقية إخبارية موجهة الى الجهات العثمانية. ترجمة كمال خوجة: مجموعة منشورة على شبكة فلسطين للحوار.
(٣٢) **جريدة المفيد**، عدد ٥ شباط ١٩١١.
(٣٣) سليمان أفندي البستاني، أديب ومفكر، ونائب بيروت في مجلس المبعوثان في الدورة التشريعية الأولى (١٩٠٨-١٩١٢) لمجلس المبعوثان في العهد الدستوري العثماني الثاني. واستقال البستاني في ٣١ كانون الثاني/ يناير من العام ١٩١١ عقب تعيينه عضوًا في مجلس الأعيان.
(٣٤) ماكس نورداو (سيمون ماكسيميليان سودفلد؛ ٢٩ تموز ١٨٤٩ – ٢٣ كانون الأول ١٩٢٣) كان زعيم صهيوني، وفيزيائي، كاتب، وناقد اجتماعي. كان مشارك في تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٨٩٧ إلى جانب تيودور هرتزل، ورئيس أو نائب الرئيس للعديد من المؤتمرات الصهيونية.
(٣٥) **جريدة المفيد**، عدد ٥ شباط ١٩١١.
(٣٦) الوثيقة (DH-I-D 73/8-43): برقية مرسلة عبر إدارة برق الدولة العلية العثمانية، من حيفا في ١٩ تموز ١٣٢٩ (١٩١٣)؛ إلى وزارة الداخلية الجليلة: ترجمة كمال خوجة: مجموعة منشورة على شبكة فلسطين للحوار: وقع على هذه العريضة: مجموعة من عشائر المنطقة والمخاتير والأئمة.
(٣٧) **جريدة المفيد**، عدد ١٦ آذار ١٩١١: ملحق رقم ٤
(٣٨) نجيب نصار، **الصهيونية، ملخص تاريخا وغايتها**، دار هنداوي، ١٩١٤، ص ٤٩.
(٣٩) **جريدة المفيد**، ١٦ آذار ١٩١١
(٤٠) كان رئيس تحريرها سامي هوخبرغ (S. Hochburg) وزار هذا الأخير القاهرة في أواخر نيسان ١٩١٣، ووضع تقريرًا حول تعامل العرب مع القضية الصهيونية؛ راجع سهيلا سليمان الشلبي، **مشروع الصهيوني وبدايات الوعي العربي لمخاطره ١٨٩٧-١٩١٧**، مرجع سابق، ص ٦٠.
(٤١) **جريدة المفيد**، ١٨ آذار ١٩١١
(٤٢) أحمد نوري النعيمي، **يهود الدونمة**، دراسة اجتماعية سياسية، دار زهران للنشر، ٢٠١٤، ص ٢١٢
(٤٣) زهير عبد المجيد الفاهوم، **فلسطين، ضحية وجلادون**، مرجع مذكور، ص ٢٨٢
(٤٤) **جريدة المفيد**، ١٩ آذار ١٩١١
(٤٥) **جريدة المفيد**، عدد ١٩ آذار ١٩١١
(٤٦) **المفيد**، عدد ١٩ آذار ١٩١١.
(٤٧) **المفيد**، عدد ٢١ آذار ١٩١١، مقال: في فلسطين، نشرت جريدة اللواء...
(٤٨) **المفيد**، عدد ٢٨ آذار ١٩١١، مقال: أطماع اليهود السياسية، سليمان التاجي
(٤٩) **المفيد**، عدد ١٩ حزيران ١٩١١: حقي بك العظم، الصهيونية في المملكة العثمانية.
(٥٠) محمد علي الطاهر، **خمسون عامًا في القضايا العربية**، دار الريحاني، ١٩٧٨، ص ٢٨٨: حديث أجراه معه رئيس تحرير جريدة "بيروت المساء" في العدد ٣٧٠٠، ٨ كانون الثاني ١٩٦٢؛ شيخ صحافة فلسطين يتحدث لبيروت المساء.
(٥١) محمد علي الطاهر، **خمسون عامًا في القضايا العربية**، مرجع سابق، ص ٧٦: مقالة لخيرية قاسمية، شؤون فلسطينية.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مؤسسة السجن في مجتمع تطوان القرن التاسع عشر
بين التنظير والواقع التاريخي



د. أكدي حسن
حاصل على دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس
سايس – المملكة المغربية



حادة أحلال
تكوين الدكتوراه فلسفة القانون والفكر السياسي المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية
المملكة المغربية

مُلَخّصْ

إن البحث في قضية السجن والسجناء تاريخيا، هو بحث في تاريخ التهميش والمهمشين. فالسجين في منظور السجان والمجتمع خارج عن الضوابط المتعارف عليها. في هذا الإطار نجد أحد أشهر فلاسفة الغرب خلال القرن العشرين الذي أعطى لقضايا الهامش حيزًا في كتاباته فكان السجن إحداها، إنه مشيل فوكو الذي حاول قراءة مفهوم السجن ضمن أفق منهجي مختلف، إذ يتعلق الأمر بصياغة إشكالية جديدة ضمن محور السلطة والحقيقة والذات. فكيف عرف من خلال مرجعيته الفلسفية السجن كمؤسسة هدفها تطويع، وترويض، وتدجين الجسد الآدمي؟ من جهة أخرى، يظل التأريخ للسجن من القضايا المسكوت عنها بالمصادر المغربية المعاصرة عامة وفي تاريخ حواضره خاصة. لذلك فالنبش فيه قد يقتضي التسلح بمادة مصدرية ووثائقية ومنهج تحليلي يمكن من بناء صورة تاريخية وموضوعية تسمح بتحقيق تراكم يروم لإبراز دور السجن كمؤسسة في مسار التطور السياسي والاجتماعي للمغرب. والسماح بفتح نقاش من زوايا مختلفة بخصوص إشكالية السلطة المخزنية كونها تطرح غموضًا بينها وبين مفاهيم مشابهة كالتسلط، القوة، النفوذ، الرقابة الاجتماعية، الهيمنة، السيادة والقمع وغيرها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ يناير ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ فبراير ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

السجن؛ السلطة؛ المخزن؛ تطوان؛ التعذيب

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325601

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أكدي حسن، حادة أحلال. "مؤسسة السجن في مجتمع تطوان القرن التاسع عشر بين التنظير والواقع التاريخي".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ١٩١ – ٢٠٥.

Corresponding author: hassan.akdi17gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

مما لا شك فيه أن لكل المجتمعات البشرية تاريخا يحدد معالمها على جميع المستويات، بالخصوص المستوى الاجتماعي والسياسي، باعتباره مجال معقد ومتداخل في تكوين ذاتية الشخص، ذات حاملة لتاريخ متراكم ومعقد قد يساهم في إغناء الهوية الذاتية والجماعية أو يكون بداية للتسلط والعنف تجاه ذاته أو تجاه السلطة السياسية والاجتماعية. لذلك سنسلط في ورقتنا البحثية هذه الضوء بالخصوص على إشكالية تهم تاريخ المجتمع الإنساني فيما له علاقة بتشكيل الذاتية في عالم تميز ولازال باضطرابات سياسية واجتماعية. هذا الاضطراب الذي ينتج كثرة الجرائم التي يلجأ من خلالها المجرم لإثبات ذاتيته ولو بالعنف والقوة. الأمر الذي يفرض تدخل الدولة بسلطتها الجبارة لتقنين السلوك كمؤسسة ضبطية تحاول تخليص المجتمعات من الانحرافات.

إن الحديث عن الجريمة في علاقتها بتشكيل ذاتية المجرم (السجين) تقتضي منا العودة لتنظير الفوكوي للجريمة والعقاب، حيث حاول هذا الفيلسوف تنزيل الفلسفة من علياء المثالية المجردة إلى الواقع الاجتماعي المهمش من خلال الوقوف على القضايا التي تشكل ما يسمى باللامفكر فيه، باعتباره يحدد تاريخ المسكوت عنه كالظواهر التعذيبية التي تمارسها السلطة داخل المؤسسات لاسيما المؤسسة السجنية بحجة التربية والحفاظ على النظام. ولعل تاريخ المجتمع التطواني في علاقته بسلطة المخزن تميزت بتفاعلات أسهمت في تشكيله عدة أحداث ومؤسسات كانت لها قدرة التأثير من خلال دورها في الضبط والتدجين وفرض هيبة المخزن كمؤسسة حاكمة لها السيادة، ولعل السجن كان أبرز أداة في هذا الإطار.

إننا إذن أمام قضايا سياسية اجتماعية وتاريخية، تجعل الذات تفقد هويتها الجسدية، هذه الأخيرة التي عرفت بدورها تغيرا على مستوى الفهم من جهة والتحديد والوعي التاريخي من جهة أخرى. إذن كيف تساهم المؤسسة السجنية في ضبط ذاتية المجرم؟ وهل فعلاً من خلال هذا الضبط يثبت السجين ذاتيته وهويته؟ وبأي معنى تتخذ الدولة من السلطة وسيلة للتعذيب؟ وما هي أشكال التعذيب الممارس داخل المؤسسات الاجتماعية والقانونية؟ بل تيمة السجن تحيلنا إلى نقاش ذا أبعاد سياسية رحبة من قبيل: هل السلطة مرتبطة بالمؤسسات والهياكل التي تجسدها أم تتجاوزها؟ هل تعمل بالعنف والقوة أم بالأيديلوجيا أم بهما معًا؟ هل تلجأ السلطة السياسية دائمًا إلى العنف أم إلى آليات أخرى أكثر تحكمًا وفعالية في الخارجين عن إرادتها؟

أولاً: علاقة السلطة بالمؤسسة السجنية[١]

كما هو معلوم في الدراسات الفلسفية لمفهوم السلطة عند ميشيل فوكو نجده يعتمد في تحليله للمجتمع الغربي على المنهج الأركيولوجي[*] الذي حاول من خلاله استحضار تاريخ المجتمع الأوروبي من أجل فهم وتأويل بعض الظواهر الإنسانية المهمشة كإشكالية الجنون، الشذوذ الجنسي، والعقاب الممارس داخل المؤسسات كالمؤسسة السجنية.

إن السلطة في الفكر القانوني تشير إلى كل أشكال القوة والتعذيب الممنهج على الذات من أجل فرض سيطرتها ونظمها السياسية والقانونية، كما تشير كذلك إلى طريقة واستراتيجية تتخذها الدولة لفرض هيمنتها ونظمها الملكية المستوحاة من العصر الوسيط. لذلك فالسلطة في النهاية هي السعي نحو تحقيق الملكية. فهو التعريف الذي رفضه فوكو لأنه يزيد من حدة السيادة والعنف والحرب رغما تأكيد هوبز عبر كتابه اللفيتان أن تشكيل الدولة بسلطتها كان وفق إرادة الأفراد الخاصة التي كانت نتيجة التعاقد الاجتماعي، وهذا التأكيد يستبعد مسألة الحرب والصراع باعتبارها أساس نشأة الدولة.

وهنا يدعو فوكو عبر كتاباته الفلسفية والتاريخية إلى تجاوز سلطة الحاكم المطلقة التي يتخذ فيها كل الوسائل سواء المشروعة وغير المشروعة لضمان حقه في البقاء والاستمرارية في السلطة وامتلاكها. فإذا كان الحاكم في الفلسفة الهوبسية نقل الإنسان من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية مستنكرا بذلك كل أشكال الحرب والتعذيب الممارس على الرعية مع التصريح فقط بحق الإنسان في الحفاظ على البقاء الذي هو من اختصاص الحاكم. فإن هذا الفهم تجاه السلطة يجب نقده وهدمه لكونه في النهاية يشكل نظامًا إقطاعيًا استبداديًا يقول فوكو"... يجب دراسة السلطة خارج اللفيتان، خارج الحقل المحدد من

طرف السيادة القانونية والمؤسسات للدولة، يجب دراستها انطلاقا من تقنيات وتكتيكات الهيمنة"[٢].

ما يلاحظ حسب فوكو أن السلطة الإقطاعية الاستبدادية الجبارة لم يستطيع الإنسان الانفكاك منها فهي أصبحت تتخذ حلة جديدة كما يقول دو طوكفيل "أريد أن أتخيل الصفات الجديدة التي سيرجع بها الاستبداد إلى العالم: فأرى حشودًا هائلة من أناس متشابهون ومتساوين، ينشغلون بأنفسهم بلا كلل ولا ملل من أجل تحقيق ملذاتهم... فوق هذه الحشود تقوم سلطة جبارة ومطلقة ودقيقة، منظمة ولينة، سلطة كان بإمكانها أن تشبه السلطة الأبوية"[٣].

إننا أمام سلطة جعلت من أفرادها أدوات ووسائل لتحقيق سلطتها القمعية التي تتمظهر عبر مؤسساتها، لذلك يرى فوكو أن القمع يشمل كل المجتمعات بما فيها المجتمعات الديمقراطية "إن علاقات السلطة ومسائل الهيمنة وممارسات الإخضاع لا تخص التوتاليتارية أو الشمولية، وإنما تميز كذلك المجتمعات الديمقراطية، إضافة إلى علاقة السلطة بالاقتصاد السياسي"[٤].

أمام هذا النقد الأركيولوجي تساءل فوكو عن السلطة وتجلياتها في التاريخ السياسي الاجتماعي من خلال الوقوف على سلطتين: السلطة الانضباطية والسلطة الحيوية، بالاستناد للمعطيات التاريخية الحربية وخاصة المرتبطة بالأعراق. بمعنى آخر فهم السلطة ضمن سياقها الواقعي وليس ضمن السيادة والهيمنة الملكية كما أكد الفكر السياسي الحديث.

فالحديث عن السلطة في فلسفة فوكو الواقعية هو حديث عن تغللها داخل المؤسسات عبر أشكال القمع والقوة، وليس البحث عن مَنْ يمتلكها ومن له الصلاحية في إصدار القوانين السلطوية. وبذلك تصبح سلطة محايثة للواقع الاجتماعي وعلى إثرها تتشكل الذوات الإنسانية. هنا سنخصص الحديث عن مؤسسة السجن كمؤسسة اجتماعية. إذن كيف تمارس السلطة سلطتها داخل هذه المؤسسة؟

تُعَدّ مؤسسة السجن من بين المؤسسات المسكوت عنها في التاريخ السياسي والاجتماعي نظرًا لما تخفيه من أشكال التعذيب والقمع تجاه الأفراد وهي التي حاول الليفيتان إخفائها من أجل الحفاظ على بريق السلطة. وهذا الأمر سيتغير مع ميشيل فوكو حيث سيقوم بكشف ما كان مسكوت عنه من اجل تشكيل خطاب صريح قائم على معطيات تاريخية سياسية. فالسلطة هي التقنيات والاستراتيجية اليومية التي لم يكن متفق عليها في العقد الاجتماعي إنها صراع وحرب من جهة ومقاومة من جهة أخرى، "السلطة هي الحرب، هي الحرب المستمرة بوسائل أخرى وهذا يعني ثلاثة أمور أساسية: أولا علاقات السلطة كما هي ممارسة في مجتمع مثل مجتمعنا لها علاقة بالقوة في لحظة زمنية وتاريخية محددة. هذه العلاقة قائمة على الحرب وبالحرب. ثانيا داخل ما يسمى "بالسلم المدني" توجد الصراعات السياسية والمواجهات في السلطة وخارج السلطة ومن أجل السلطة وتحولات في علاقات القوة كل هذا في نظام سياسي لا يمكن تأويله إلا باستمرار الحرب... ثالثا القرار النهائي لا يأتي إلا من الحرب"[٥].

فتناول علاقة السلطة بالسجن هو حديث عن أشكال ممارستها داخل هذه المؤسسة وهو ما يسميها فوكو بميكروفيزياء السلطة باعتبارها سلطة تمس المجتمع بما في ذلك السجن من خلال تبسيط آلياتها العنيفة بكل هدوء، عوض التشهير والممارسة العلنية فهي سلطة تقوم على الضبط والعقاب وهي ما يسميها فوكو بالسلطة الحيوية القائمة على السلطة الانضباطية. فما المقصود بهذه السلطة؟

أصبحت تعتمد الدولة على السلطة الانضباطية أو ما يسمى كذلك بسلطة تطويع الأجساد خلال القرن نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر. فهي سلطة تعتمد على تقنيات وآليات تطويع الجسد والروح في نفس الوقت. إذن ما هي الآليات السلطوية المعتمدة داخل السجن؟

ثانيًا: من السجن التعذيبي إلى السجن الانضباطي

يُعَدّ الجسد هو المكان الواقعي الذي تتجلى فيه السلطة الانضباطية إما اقتصاديًا أو اجتماعيًا ونقصد هنا الجسد المعذب سواء كان جسد المسجون، المريض، المجنون. هذا الجسد الذي يتم مثلاً إخفاؤه عبر أسوار السجن المراقب ممارسا عليه كل أشكال التعنيف بشتى أنواع السلطات. فمثلا في النظام الإقطاعي كانت العقوبات الزجرية تعلن

في الساحات العمومية ويعاقب السجين بشكل علني حسب الجريمة التي ارتكبها، وتتفاوت العقوبات بتفاوت الجرائم. فمن بين العقوبات التي كانت تصدر من طرف الحاكم الذي كانت له صلاحية تعذيب الأجساد آنذاك قطع جسد السجين، إحراقه، بتر بعض أعضائه، إعدامه شنقا، تقطيع اللحم وتكسير العظم... إن كل هذه الأشكال العقابية تم التنصيص عليها في الحكم الملكي لسنة ١٦٧٠ "...قد تضمن عقوبة الموت الطبيعي كل أنواع الموت: فالبعض يمكن أن يحكم عليهم بالشنق، والبعض الآخر قد يحكم عليهم بقطع اليد أو قطع اللسان أو ثقبه، ثم الشنق فيما بعد، وآخرون، يحكم عليهم بالتقطيع، ثم بلفظ الأنفاس فوق الدولاب، بعد قطع أطرافهم، وآخرون يحكم عليهم بالقطع حتى الموت، وآخرون يحكم عليهم بالخنق ثم التقطيع، وآخرون يحكم عليهم بالحرق أحياء، وآخرون يحكم عليهم بكسر الرأس"[٦].

إن التعذيب الجسدي بهذا الشكل كما يقول فوكو مؤلم إلى حد الفظاعة لذلك من أجل تطبيقه كتقنية للحد من الجرائم من طرف المحاكم لا بد من توفر ثلاثة معايير أساسية:

١- كما يقول فوكو يجب أن تحدث كمية من الوجع التي لا يمكن قياسها ولكن يمكن تقديرها كالموت الذي يكون تعذيبا بمقدار ما لا يكون فقد حرمانا من الحياة. "الموت التعذيبي هو فن إمساك الحياة في الوجع، وذلك بتقسيمه إلى ألف موتة مع الحصول قبل أن تتوقف الحياة على أشد حالات النزع"[٧].

٢-خطورة الإصابة الجسدية وكمية الإحساس بالأوجاع والألم المترتبة عن الجريمة فهنا يتم اتخاذ العقوبة الملائمة لدرجة الجريمة كعدد جلدات السوطية، أو الكي بالحديد الأحمر، الخنق بدل الإحراق...

٣-الاحتفال بالمراسيم والطقوس العقابية بشكل علني حتى يظل المجرم المعذب عبرة للآخرين بالإضافة إلى وضع على جسده إشارات تعذيبية لا تمحى وتظل محفوظة في ذاكرته وذاكرة الآخرين، بل أكثر من ذلك يتم تدوينه اسم المجرم في السجل الرسمي الخاص بالجرائم.

وبهذه المعايير تتحقق العدالة التعذيبية التي لا تطبق بشكل عشوائي وإنما وفق درجات الجرائم الهدف منها هو ترغيم المجرم على الاعتراف بجريمته من جهة والحد من الجرائم من جهة أخرى.

أمام قساوة العقوبات التعذيبية التي سادت في أوربا، ظهرت خلال القرن الثامن عشر أشكال من التمرد والمعارضة على كيفية التعذيب في المقابل تدعو إلى التخفيف من شدة العقوبات في إطار إصلاح المؤسسة السجنية. فعوض تطبيق التعذيبات القاسية نكتفي مثلاً بالاعتقال. فهل الاعتقال أفضل من التعذيب؟ أم أنه هو نفسه؟

يؤكد فوكو أن هذه الأشكال التعذيبية ما هي إلا تمظهرات للسلطة ورغبتها في فرض سيطرتها بالقوة مستندة في ذلك للجهاز القانوني والعسكري، سلطة تستمتع بتعذيب أفرادها والاحتفال بأجسادهم مقطعة ومحروقة وتزداد سعادتها وهي ترهب الشعب الذي يلعب دور المشاهدة رغما عليه، شعب ليس له الحق في أن يعارض أو يصرخ ضد كل الأعمال المشينة في حق جسد له الحق في العيش والبقاء الذي تم التعاقد من أجله." فالتعذيب إذا يلعب وظيفة قانونية سياسية. إنه احتفال من أجل إعادة إقرار السيادة بعد جرحها لحظة. فالتنفيذ العلني العام، مهما بدا متسرعا ويوميا، يدخل في سلسلة مراسم السلطة المغيبة والمبتعثة ... يضفي التعذيب، في عيون الجميع، قوة لا تقهر. وهدفه هو إبراز الفرق بين فرد من الرعية تجرأ على خرق القانون، والعاهل الملكي القوي"[٨].

حمل مجموعة من فلاسفة عصر الأنوار والحقوقيين والمنظرين في المجال القانوني شعار "فلتكن العقوبات معتدلة ومتناسبة مع الجرائم، وألا يحكم بعقوبة الموت إلا على المجرمين القتلة، وأن يلغى التعذيب الذي ينافي الإنسانية"[٩]. احتجاجات ضد التعذيب الوحشي باعتباره ممارسة اللاشرعية لذلك تدعو هذه الاحتجاجات لتلطيف العقوبات في المؤسسة السجنية الحديثة من خلال إضفاء الصفات الإنسانية على العقوبات الإجرامية التي عرفت تحولا من جرائم دموية إلى جرائم احتيالية. فأصبحنا نتحدث عن جرائم السرقة والاختلاسات التي تقوم بها فئة الفقراء عوضا عن جرائم القتل البشع، ثم تحطيم حافز الشر لدى المجرم "العمل على قمعه بالتهزؤ وبالتخجيل، إذا جرى تحقير الغرور التكبري لدى المتعصبين أمام جمهور كبير من المشاهدين، فمن المتوقع حصول مفاعيل

حسنة في العقوبة ولا يفيد في شيء، بالعكس أن يفرض عليهم آلاما جسدية"[١٠]. ومن علامات التلطيف كذلك تكليف السجناء بالأشغال الشاقة التي تخدم البلد عوض أن يكون إذن جسد السجين في ملكية الحاكم يصبح في ملكية المجتمع بأكمله.

أما بشأن العقوبات العلنية والاحتفال بها، تقترح الحركات الاحتجاجية أن تكون العبرة عبارة عن درس للجميع لكي يتعلموا القوانين مثلاً: "نتصور أماكن تنفيذ العقوبات كحديقة للقوانين ترتادها العائلات نهار الأحد من أجل إعداد العقول بخطاب معقلن حول المحافظة على النظام الاجتماعي، وحول فوائد العقوبات، قيادة الشبان، بل وحتى الرجال إلى المناجم، وإلى الأشغال، ليتأملوا المصير البشع الذي ينتظر المحكومين"[١١]. كما تدعو هذه الجمعيات المحتجة أيضا إلى إقرار قوانين الجريمة في المقررات المدرسية عبر الدروس المدرسية للأطفال، حكايات مستوحاة من الواقع مليئة بالرعب والخوف حتى تكون العبرة أكثر وقعا على نفوس الأطفال من أجل تجاوز الأفعال التي قد تؤدي إلى حدوث الجريمة داخل المجتمع.

ما يلاحظ من خلال هذه الدعوة النضالية والحقوقية التي عرفها المجتمع الأوروبي خلال القرن الثامن عشر ضد الجرائم التي كانت سائدة في القرون الوسطى والعصر الكلاسيكي من أجل تغيير بعض قوانين التعذيب والتخفيف من وطأته في إطار إحداث مؤسسة السجن، إلا أن هذا التخفيف يحمل تعذيبا روحيا ونفسيا أكثر ما هو جسدي، تعذيب سري مخفي وراء أسوار السجن. إذن تحديث مؤسسة السجن ما هي إلا تعميق من حدة الجرائم لذلك، "ظل السجن من منظور فوكو أداة إنتاج للجريمة والانحراف كمؤسسة عملية، فالمنحرف العابر يتخرج من السجن خبيرا بارتكاب الجرائم الموصوفة قانونيا"[١٢]. مضيفا بقوله:" فالسجن انضباطي كامل شامل استبدادي، ففي السجن تستطيع الحكومة أن تتحكم بحرية الشخص المعتقل"[١٣].

فالمؤسسة السجنية مؤسسة سلطوية تحول الأجساد البشرية إلى أجساد مطيعة ومنتجة في نفس الوقت من خلال المراقبة للسلوكات والتصرفات ومحاولة تقنينها بالآليات الضبطية. التي لا تظهر في المؤسسة السجنية فقط، بل في جميع المؤسسات الاجتماعية كالمستشفيات والمدارس والمصانع. إنها سلطة قاهرة فنية تستحوذ كل المجالات إننا أمام سلطة الرقابة والمعاقبة. فمثلا في تقويم سلوك الطفل تربويا سلطة انضباطية لقوانين المجتمع، وفي وضع قوانين الحرية ومحدوديتها إقصاء للتعبير عن الرأي تجاه السلطة، وفي تقنين الملكية إقصاء وحرمان للبعض في امتلاكها، إذ في انضباطية السلطة معرفة لتطبيع القوانين وتهميش لحقوق الأفراد لصالح هيمنة الدولة. وبذلك تصبح السلطة "مجموع المؤسسات والأجهزة التي تمكن من إخضاع المواطنين داخل دولة معينة"[١٤].

إن المجتمع التطواني كمجتمع خضع للتطور التاريخي وأترت في تكوينه ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية، فهو لم يخلو خلال فترات تاريخية معاصرة من وجود آليات سلطوية اعتمدتها السلطة السياسية المخزنية لتدبير إشكالية توسع الجريمة خاصة في فترات أزمة القرن التاسع عشر.

ثالثًا: صور ووقائع من تاريخ السجن بحاضرة تطوان القرن التاسع عشر

لابد من الإشارة هنا أن المصادر جد شحيحة فيما يرتبط بتقديم معطيات وافية عن فضاء ووضعية هذه المؤسسة الرسمية، اللهم بعض الإشارات التي تسمح لنا بتصور محدود عن بعض الجوانب التالية:

٣/١-الإشراف والتسيير

بما أنه مؤسسة مخزنية فإنها من ناحية الإشراف والتسيير المباشر كانت تتبع لجهات محددة بالمدينة، إذ أن باشا المدينة أو قائدها أي حاكمها المدني والجنائي كانت له السيطرة الكاملة عليها فهو يودع فيها كل من يصدر عليه الحكم بالسجن، سواء صدر ذلك الحكم من القائد أو من القاضي الشرعي أو من محتسب المدينة، أي حاكم حرفها وأسواقها، إلا أن الجميع تحت سلطة القائد أو الباشا الذي كان هو الممثل الوحيد للسلطان، رئيس الدولة وملك البلاط[١٥]. وبما أن السجن يقتضي التدبير اليومي بفضاءاته كان لابد من و جود أعوان يقومون بذلك، فالمشور كان يضم بنائق منها ما يشغله الكتاب ومنها ما تشغله الشرطة[١٦]. وغيرهم من القيمين عليها، وانتظام

الحراسة بها أيضا، وتفقد أحوالها وما يرتبط من إجراءات وتدابير كان يلزم اتخاذها في كل وقت وحين[١٧].

٢/٣-الإطعام والكسوة ودور المخزن

على ما يبدو أن ضعف التغذية كانت السمة المميزة لهذا السجن، لذلك كان مسموحًا لأي شخص أن يأتي بالأكل والشرب لمن يشاء من المسجونين، كما كان بعض أهل الخير والإحسان يبعثون من حين لآخر بمآكل ومشارب للسجن، فيتناول ذلك ضعفاء المسجونين وخصوصًا في بعض المواسم والأعياد والجنائز وغير ذلك من الأوقات والمناسبات التي يذكر فيها ذوو القلوب الرحيمة[١٨]. وهذا الواقع المزري هو الذي يشير إليه التهامي الوزاني قائلا: «كان للسجن الصغير شباك حديدي يدخل منه النور، وكان الشباك مفتوحًا لجهة الشارع، وكنا نسكن بدرب الشرفاء قريبين من السجن، وكثيرًا ما كنا نسمع أصوات المسجونيين، مرتفعة (نحن نموت من الجوع) فيسمعهم المارة، فيشرون الخبز والزيتون ويتصدقون به على البؤساء. وإذا أتت في البلاد جنازة كبيرة، فإن من جملة الصدقات على روح الميت أن يتصدق بطائفة من الخبز على المساجين، وكذلك في صدقات الأربعين، توجه للمساجين صحون الكسكس، وكذلك في الأعراس، وفي الحفلات التي يقيمها أصحاب الحرف، وكانت أحباس المنقطعين - فيما أذكر- تتصدق بالخبز على المساجين، ولكن ذلك لم يكن بطريق مضمون ولا منتظم»[١٩].

نستشف من هذا النص أن الإطعام الخاص بالسجناء كان دون المستوى ولا يكفي طيلة اليوم، وهو ما جعل المخزن يقدِّم تسهيلات للأهل أو الفئات الغنية أو مؤسسة الأحباس لدعمه في هذا الجانب[٢٠]، أي أن المخزن المغربي لا يعطي اهتماما لتغذية المساجين، لذا على هؤلاء أو عائلاتهم أن تقوم بذلك، أما المعدمون فيصنعون السلال والحصائر لتوفير لقمة العيش التي تحميهم من الهلاك جوعا، وفي هذه الوضعية يقضون مددا طويلة حتى تضيق الإدارة ذرعا بهم أو يطلقون سراحهم مقابل رشاوي، لكن كم هي حالات النسيان أو اللامبالاة التي تبقي هناك العديد من التعساء وهم ينتظرون الموت على أحر من الجمر، إنها الآلهة التي يترجون مقدمها كل يوم[٢١].

فأين يبرز دور المخزن على مستوى الإنفاق فيما يتعلق بتغذية وكسوة السجناء؟ موازة مع الدور الاجتماعي الذي كان يقوم به المخزن في مختلف الميادين، تكلف صندوق أمانة المراسي بتغطية تلك النفقات الاجتماعية، وهكذا اختص كل مرسى بالجهة التابعة لها[٢٢].

ومن الأمور المستجدة والخاصة بالعهد العزيزي إسناد مهمة الاعتناء بالمؤسسة السجنية والمقيمين بها إلى أمناء المراسي الذين كانوا يكلفون نواب عنهم للقيام بالزيارات اليومية أو الشهرية الخاصة بتموين أو تجهيز السجون[٢٣]. فهاته الفئة التي عدت على هامش المجتمع أو من المغضوب عليهم -وعبر المادة الوثائقية- نلحظ جوانب من إهتمامات المخزن والعناية بهم. لذا يتضح أن الإنفاق المخزني على هاته الفئة توزع بالمدينة بين مؤسستين وهما: الأحباس وأمانة المراسي «أحبتنا الأرضين أمناء مرسى تطوان ... فقد كتب العامل قبلكم في هذا الموضوع، فأجيب بأن يتضح المساجين الذين يستحقونها والذين لا يستحقونها ويخرج النصف من عند أمين المستفاد والنصف يقسم نصفين ينفذ نصفه على ناظر الأحباس الكبرى والباقي على ناظر أحباس المنقطعين»[٢٤].

والملفت هنا أن مؤسسة الأحباس كان لها دور كبير للغاية في تقديم العون والمساعدة للسجناء إذ نصت بعض وثائق الوقف وتقاييد مخزنية على مصاريف مالية تتعلق باستفادتهم من مشاهرات وقفية وفرتها لهم أحباس المدينة، كانت ترتبط بمصاريف الخبز والضوء وأجرة الواقفين عليهم[٢٥].

وتبرز إمكانيات المخزن في هذا الجانب حرصه على خدامه بأن يوفروا لهاته الفئة من المجتمع بعض المستلزمات الضرورية لهم «عما وجهته لخليفة العامل هنا عشرة من المساجين ليجعلهم بالسجن، هنا من جملة مساجين المخزن أعزه الله أعلمنا لتنفذوا لهم ما أذنا به الخليفة المذكور من الخبز اليومي وغيره وفق الأمر الشريف»[٢٦].

وبالفعل نجد أن هذا الحرص يترجم في تنفيد خدامه للأوامر الصادرة عن المركز بشكل ينم عن مدى الاهتمام والوعي الذي أصبحت تكتسبه الظاهرة السجنية في التدبير الزمني لقضايا المجتمع وفئاته خلال هاته الفترة «نعم سيدي فقد قبلناهم وأودعناهم السجن وأذنا أمناء يدفعون

لهم ما يدفعونه لمساجين سيدنا أعزه الله كما أمرت»[٢٧]، بل الأمناء بالمدينة وعندما يراسلون المركز فيما يخص مداخيل المخزن عبر مرسى المدينة وغيره مقدمين توضيحات دقيقة تتعلق بنفقات هذه الشريحة كنهج أصبح معمولاً به منذ مدة[٢٨]. وظل ثابتًا في مراسلات بين موظفي المخزن بالمدينة / المركز وهو ما تمدنا به مجموعة من الوثائق منها: «الحمد لله، هذا حساب صائر المساجين، بمرسى تطوان في المدة المذكورة يمنته على يد الأمينين المذكورين، مع بيان أسماء عمال المساجين وعدد مساجينهم، وما لزم كل عامل من الخبز، في جميع المدة المذكورة، وسعر الخبزة بإضافة صوائرها اللازمة لها لثمنها الأصلي، وبيان صائر الكسوة المستورة بها عورتهم، في رمضان عام[١٦]»[٢٩]. كذلك نجد مراسلة أخرى جاء فيها « للعلم الشريف أسماه الله أن المتحصل في جميع خرج صائر على المساجين من ثمن الخبز والكسوة وما يتعلق بها من الأجور مدة خدمتنا حسبما سطر ملخصا ءاخر كناشي خدمتنا ما قدره خمس عشرة ماية ريال وإثنان وتسعون ريالا وثلاثة وخمسون سنتيمًا ونصف»[٣٠]، حتى أن السلطان وبصفته ممثل لجميع رعاياه كان يعتبر السجناء جزء من اهتماماته لابد من الالتفات نحوهم، ومحاولة توفير ما يلزم لهم بالشكل الذي يسهم في حفظ كرامتهم أثناء مدة عقوبتهم، وهو ما تفصح عنه هاته المراسلة التي تحمل دلالات العطف والنبل الملكي « فما جعل بيت المال إلا مثل هذا، كما علمنا ما أخبرت به من ضرر المساجين المنقطعين، وأن الخمس عشرة أوقية التي كنا أمرناك بإبقائها لهم من فندق رحبة الزرع، تشتري لهم خبزًا كل يوم، لم تكفهم الآن لشيء، فجعلت لهم ثلاثين أوقية من الفندق المذكور، تشتري خبزًا وتعطي لمن لم يصله أحد، وأنك عملت للسجن الحصر وكتبت لتطوان على الجلاليب لَمَنْ هو من غير كسوة فقد أدنا لك في ذلك كله، ...وإن اقتضى الحال الزيادة على ما ذكر للمساجين وغير المساجين»[٣١].

ومن المفيد أن ننبه ونحن نتفحص هذه المتون فيما يتعلق بنوع نفقات السجناء نجدها فقط تتعلق بـ: الخبز، والكسوة، ونفقات الجنود والمرافقين للسجناء أثناء النقل والواقفين عليهم، ولا تسعفنا المادة المصدرية في معرفة نوعية الأغذية واللباس الذي كان يتلقاه السجين سوى الخبز والكسوة. ومادامت هذه المرحلة من تاريخ البلد امتازت بأزمة بنيوية عميقة مست «الدولة» والمجتمع فلاشك أن تنامي وتصاعد حجم المهمشين كان سمة بارزة، والتي أسهمت البوادي فيها بشكل كبير، فالظروف العصيبة جعلت منهم رافدًا أساسيا لسجن المدينة لكونهم اضطروا أمام الفقر والحاجة لارتكاب جرائم عدة أفضت بهم إلى الغياهب التي ستكرس معاناتهم وتعمق تهميشهم[٣٢].

٣/٣-غياب النظافة

في هذا الجانب يشير داود وهو يتحدث عن التنظيم الداخلي للسجن قائلا: «وكلمة (الحبس المنسي) مما كان الناس عندنا يكنون به عن المكان المهمل... وإنما هي كآبة وألم وعذاب وأحزان وأوساخ وإصفرار وحرمان»[٣٣]، مما يؤكد أن المؤسسة العقابية تلك لم تكن تتوفر فيها الشروط الصحية البتة، والدليل هو ما يحكيه التهامي الوزاني عن الشيخ إدريس الحراق بخصوص غياب الماء بسجن تطوان إذ يقول: «أن الفقيه الورزازي سجن في هذا الحبس، فلما وصل وقت الصلاة طلب الماء، فقيل له إن هذا الحبس لا ماء فيه، فلما أفرج عنه. وطلب مقابلة السلطان، وقال له إن سجن تطوان لا ماء به، وإن صلوات المسجونين به في رقبتك، ثم قفل إلى مقره بهذه المدينة، فأمر السلطان بإدخال الماء الجاري إلى هذا السجن، وبقي به إلى عصرنا هذا»[٣٤].

هذا الأمر والواقع البئيس لسجن تطوان تشترك فيه العديد من سجون الإيالة الشريفة خلال القرن التاسع عشر وهو ما وصفته الأقلام الأوربية في مشاهدتها التي دونت في عدة كتابات، فها هو خوصي بوعادا إي روميو ينقل قتامة السجن المغربي قائلاً: «ولا يطبع هذه السجون المغربية إلا القذارة التامة، والإهمال الذي لم يرى مثيل له في حق السجناء، يزحفون وسط فضلاتهم، ويلاحقهم الموت في كل لحظة جوعًا إن لم يرسل إليهم قريب أو صديق طعامًا»[٣٥]. نفس الوصف يتأكد عند أحد الأطباء الإسبان فيما يخص قذارة هذه المؤسسة، ومما جاء عنده بخصوصها «لابد من زيارة سجون المغرب لإدراك مدى هولها. ففي مساحة ضيقة نسبيا وبدون تهوية ومن غير ضوء تقريبا، يحشر المسجونون، الأبرياء منهم والمذنبون، تثقلهم السلاسل والأغلال والحلق. الأرض

القذرة هي المرقد والممشى ومجال لقضاء أغراض أخرى، ويخترق ذلك الكهف خندق يحمل كل أنواع النفايات ويجعل الهواء العطن غير قابل للتنفس. الجدران التي تعلوها الرطوبة وتنزل منها رائحة الأمونياك اللاذعة،...على الإنسان أن يكون معدنه من حديد حتى يتحمل العيش في تلك الشروط»[٣٦].

٣/٤-أثاث الإيواء بالسجن

مادام أن الفقيه داود يؤكد حقيقة مفادها أن مثل هذه السجون لم تكن لها ميزانية خاصة يصرف منها على المسجونين، فإن كل مسجون كان مكلفًا بأن ينفق على نفسه هو وأهله أو أقاربه[٣٧]،( )فقد كانت العادة أن السجين ياتيه أهله إما بمضربة خفيفة أو بهيدروة - أي جلد كبش- أو قطيعة أو حصير أو نحو ذلك مما يجلس عليه أو يتغطى به عند النوم، وجل المسجونين كانت لهم هيدورة ومخدة - وبطانية - غطاء، وكثيرًا ما كنا نرى الشخص يتأبط الأشياء الثلاثة وهو مار بأحد الشوارع[٣٨]، والامتياز الذي كان خواص المسجونين يستمتعون به، هو بعضهم كان له وثاق خاص أي خيمة من الثوب الخشن يتستر داخلها عن أعين باقي المسجونين، وقد عرفت أن الأخوين الوزيرين الجامعيين كانت لهما أثناء سجنهما بتطوان خيمة من هذا القبيل[٣٩].

٣/٥-الزيارة[٤٠]

كان في إمكان أي شخص أن يزور أي سجين في أي وقت شاء من النهار، إذ جعلت جنب باب كل حبس نافذة عالية تسامت وجه الواقف، وفيها قضبان حديدية سميكة، فيستأذن قائد السجن، أي حارسه وحافظ مفاتيحه، ثم يتقدم مريد الزيارة إلى النافذة وينادي بنفسه، أو ينادى له السجين الذي يريد زيارته أو الكلام معه، فيأتي إليه ويقف أمامه لا تفصل بينهما إلا القضبان الحديدية للنافذة، بحيث يمكنهما أن يتصافحا أو يتهامسا أو يتبادلا التنفيحة أو غيرها، وتقع هذه الزيارات في الغالب تحت إشراف قائد السجن الذي له مقعد بسيط في الساحة التي بها أبواب أقسام السجن[٤١]. ومن المألوف أن الصبيان والنساء والكبار والصغار كانوا يشاهدون هذه المناظر المؤلمة باستمرار[٤٢].

٣/٦-أنشطة حرفية بالسجن

لا تفيدنا المصادر بشيء عن إمكانية تشغيل المساجين داخل السجون في اختصاصاتهم المهنية أو غيرهما سواء لحساب المخزن أو لحسابهم الخاص، لكن الفقيه داود أورد أنه كانت لبعض المسجونين حرف بسيطة يقومون بها داخل السجن، وربما تعلم بعضهم تلك الحرف داخل السجن، والكثير مما كان بأسواق تطوان من القفف ونحوها مما يصنع من العزف والحلفاء كان من صادرات الحبس. وغالبا ما كانت هذه الأعمال المهنية كعقوبة مكملة للعقوبة الأصلية، وكانت بعيدا كل البعد عن الهدف الإصلاحي[٤٣].( )أي أن الغاية الأساس من هذه المعاملة هي معاقبة الجاني. وكان للمسجونين شخص يبيع مصنوعاتهم، ويشتري لهم ولكل من عنده دراهم منهم كل ما يريدونه من لحم ودهن وخبز وسكر وفحم وغير ذلك من المأكولات والمشروبات والأشياء التي يسمح بمثلها لنزلاء السجون[٤٤].

٣/٧-ضوابط سجنية

كان للقائد دفتر تقيد فيه أسماء المسجونين وألقابهم وتاريخ حبسهم وأسباب سجنهم، ولابد من سبب حقيقي أو مفتعل مع بيان المدة المحكوم بها عليهم إن كانت مدة محدودة، ثم تاريخ خروجهم من السجن أو أوقاتهم فيه[٤٥]،( )غير أن داود يؤكد من خلال تقصيه عدم علمه خلال هاته المرحلة وجود أي قوانين رسمية للسجون أو المسجونين بل هي عوائد وأعراف متبعة تارة، وأوامر ونواهي مرتجلة تارة أخرى، فلذلك كان جل المسجونين تحت رحمة الحاكم أو القائد أو السجان، وكثيرًا ما كان للمال القول الفصل والنفوذ الكامل في حالتي الشدة والرخاء[٤٦]، لكن ما يمكن التأكيد عليه أن المخزن كان حريصًا على استمرار الظوابط، ففي العرف المخزني يتم التمييز يومئذ بين مستويين على أساس خطورة الخرق فمستوى الجرائم العظام يمثله سجن جزيرة الصويرة وسجن مصباح بمراكش. هذا الصنف كان بمثابة متاهة يمكث بها المدان مثقلا بالسلاسل والأغلال إلى أن يجد في أمره جديد، كأن يعدم أو يهلك أو تقبل فيه شفاعة متمتع بكبير حظوة.

المستوى الثاني كان يخصص للتربية ويقصد بها ممارسة ما من شأنه توعية السجين وأعضاء جماعته بخطورة عواقب المس بالتوزيع القائم للحرية. يتلقن السجين تلقائيا مدى أهمية الانصياع للظوابط، حيث يخضع لنظام يستهدف تقوية وازعه الديني ويميز في مساجين هذا الصنف بين فئتين، منهم من يتوقف إطلاق سراحه على وفائه بما هو مطالب به من حقوق، ومنهم من يوكل نائبه عنه وينتظر البث في قضيته[٤٧].

٨/٣-التعذيب من طرف القيمين على السجن

دخول السجن بمغرب القرن التاسع عشر كان يعني بداية مرحلة جديدة من المعاناة والشدائد، وهو ما عرفه سجن تطوان آنذاك، فالفقيه داود في طفولته يحكي أنه كان يسمع من داخل زنزانات السجن الكبير أصوات كلها آهات كتعبير عن الألم والعذاب الذي يتعرض له المساجين من شدة الضغط عليهم أو لإهمال لا يتحمل أو بجوع شديد أو بأي نوع من الأضرار لا يستطيعها البشر[٤٨]. و الأخطر هنا أن حياة السجين تصبح مستهدفة عبر سياسة التجويع، وهو شكل من أشكال العنف الخطير غير المرئي، إذ كان السجناء كما سبق يعانون من نقص غذائي كبير، فلم يكن السجن يوفر لهم الغذاء، لذلك كان على هؤلاء تدبر أمرهم أثناء الزيارات أو توظيف المال للحصول على بعض المواد[*].

التعذيب بهذا الفضاء كان بغاية إلحاق أكبر قدر من الأذى والألم بجسد السجين، فمن الأساليب البشعة واللا إنسانية يذكر جعل أفراد عديدين، عشرة، عشرين، في سلسلة واحدة لا يمكن للواحد منهم أن يقوم أو يقعد أو ينام إلا إذا قاموا كلهم أو ناموا كلهم، لأن الغل الحديدي الذي في عنقه تصله السلسلة العامة بالأغلال التي في أعناق بقية رفقائه[٤٩]، بل السادية التي أبداها القيمون على السجن دلالة على غياب أي قيود أخلاقية أو إيمان برؤية إصلاحية للمدانين بالجرائم، سوى الحصول على المال، فقد كان ممن يقع في قبضتهم من الضحايا، أن يتركوا من يموت من المسجونين، في نفس السلسلة المتصلة بأغلال بقية المسجونين الأحياء، فلا يؤذن بسحب الميت من سلسلتهم إلا أن يدفع رفقاؤه مبلغًا معينًا من المال أو غيره من المحمولات[٥٠]. أيضا كان القيد يوضع في الأرجل حاميًا[٥١]. هذه الأساليب البربرية في ممارسة التعذيب كانت تخلق الرعب في نفوس بعض المحكوم عليهم بالسجن ولا أدل على ذلك مما يحكيه التهامي الوزاني قائلاً: «وكان من بينهم رجل من أسرة ابن حمزة فظل في سجنه يقرأ ثلاثين حزبًا في اليوم، وعندما أعد أهله المال الذي يدفعونه للعامل وقبل أن يدفعوه، فارقت روحه الدنيا»[٥٢].

وبالفعل ونحن نتفحص عدة رسائل مخزنية وجدنا **أن أهم الآلات التي وظفها الحكام والسجانون لتعذيب سجنائهم بالمدينة** كانت ما يلي:

(٨/٣) ١-الكبل للقيد

"أكثر وزنا من القيد، ولا يكاد ينهض به السجين حتى يكب على وجهه، وقد اعتبر القيد الشديد من التنكيل بدلالة الاشتقاق: النكل هو القيد الشديد من أي شيء كان، واقترن القيد بالسجن حتى وقع الانتقال اللفظي من الأول إلى الثاني، فالكبل هو أثقل القيود و من معانيه الحبس"[٥٣]. ومن الشواهد التاريخية التي تؤكد توظيف هاته الوسيلة لتعذيب السجناء بتطاون نذكر: «في قبض ظالم نفسه زيطان الذي هو في الحقيقة شيطان ... فبوصول كتابنا إليك اضرب عليه كبلاً ووجهه لحضرتنا»[٥٤].

« فيرد عليك ظالم نفسه العربي بن عمر المموني في كبله اجعله في السجن هناك »[٥٥].

« ولد مشيش وأخوه عبد الرحمان ولد الشتوكية في أكبالهم فبوصولهم اجعلهم بسجن تطوان»[٥٦].

« فيرد عليك إبراهيم الشرادى في كبله اجعله بالسجن واحتفظ به فإنه من الفساد بمكان»[٥٧].

«ثم إنك قبضت عليه حتى أقر ووجهته في كبله صحبة من أتاك بالا نية »[٥٨].

"ومهما اختلفت أشكال القيود وأنواعها يجمعها اسم الوثاق فهو من وسائل تعذيب السجين في سجنه، تزيده هما على ما فيه من مصيبة السجن وسلب لحريته، ويمكن أن نتصور مدى ألم السجين ومعاناته جراء القيود التي يتقلب فيها"[٥٩]. وها هي إحدى الوثائق التي تبرز قسوة السجن على لسان ضحاياه والذي كان يشغل منصبًا رفيعًا وحساسًا بالجهاز المخزني المركزي فما بالك بذاك العامي من رعايا السلطان، وسُجن بتطوان «وقد ضاق علي الحال بالسجن، واشتد علي الأمر وتفاقم، وطالت مدة السجن، -فهذه أعوام-١٣- وخمسة أشهر، ولا راحم ولا مغيث إلا

سبحانه وسيدنا المنصور بالله، نفترش الأرض ونستبطن الحديد، ونكابد هم السجن والضيق والمرض»[٦٠]. بل قسوة القيد والعنف اللفظي بالسجن تتمظهر بوضوح في محنة درقاوة الذين قمعوا ونكِّل بهم بطرق تغيب فيها الرأفة والاعتبارات الإنسانية الأخرى «ثم لازال يتردد إلينا وهو يهددنا بالضرب وجعل السلاسل في أعناقنا ويسمعنا الكلام القبيح هو ومن هناك من السجانين إلى المغرب»[٦١].

(٨/٣) ٢-أدوات الضرب[*]

يصعب تحديد طبيعة الآلات التي استخدمت في هذا النوع من العقاب لكن الغالب كان بالعصا أو السوط، فالضرب كان حاضرًا في تأديب وإيلام السجين بتطوان وهو ما تستحضرهُ بعض الشذرات المتناثرة في الوثيقة المخزنية «واذهبوا به لمدينة تطوان في السلاسل والأغلال وادفعوه للعامل بها نكالا لمن على شاكلته من أهل الغواية والضلال وكونوا بعد على أهبة في ضربهم عند ظهور أسبابه وانفتاح أبوابه وإثبات شريف أمرنا لكم به ليذقوا على يديكم إن شاء الله شديد النكال وأليم الوبال»[٦٢]. ويذكر كذلك أن واقعة ذات طبيعة اجتماعية حصلت بالمدينة كان العقاب فيها هو الضرب بالسوط جزاء ما فعله الجاني اتجاه زوجته التي تأذت بسبب تعنيفه لها «ثم بعد ذلك سجن عليها وتطوف من باب إلى باب في تطوان بعدما ضرُب سبعمائة سوط»[٦٣].

بل إن عقاب الضرب لم يسلم منه حتى الأطفال المدنيين، وهو ما يتضح في إحدى الأحداث التي كان فيها طفلان مغربيان وطفل نصراني يلعبون، إذ تعرض هذا الأخير للأذى على يديهما فكان لابد من تدخل السلطة بالمدينة بعد شكاية الأب النصراني والقيام باللازم، «وأحضرنا الصبيين وعزمنا على زجرهما بالضرب فوضع النصراني ما على الصبي الأول طالباً عدم ضربهما وجعلنا هما بالسجن»[٦٤]. والحال نفسه مع الدرقاويين الذين سجنوا مع العلامة بنعجيبة حيث ضربوا وأهينوا وشتموا «فوجدنا سيدي أحمد بنعجيبة ومن معه ولهم ثلاثة أيام في السجن، وقد ضرب جلهم»[٦٥]، «خرج بعض فقراء البلد إلى المسجد وصلى ما شاء الله ثم قعد يتلو القرآن، فجاء أصحاب الصريدي وأخذوه وكتفوه، ومهما كان يقول يضربونه بالسياط إلى الصباح»[٦٦].

ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا الصدد، أن بعض السجناء من أهل السياسة كان عقابه المحاصرة والعزلة بسجنه لأقصى مدة ممكنة نظرًا لعظم جرمه الذي كان يمس رأس الدولة و باستقرار البلد. وهذا ما نلمسه بخصوص اللهجة الصارمة فيما ورد في رسالة عامل تطوان محمد بن أحمد بن الخضر السلوي إلى أحمد بن موسى، من نفي قاطع لما أتهم به من تساهل وتعاطف مع محمد الصغير الجامعي، وزير الحرب على عهد المولى الحسن، وأخيه الوزير الصدر المعطي بن العربي الجامعي اللذين كان معتقلين بالحاضرة منذ الأسابيع الأولى لاعتلاء عرش البلاد حيث جاء فيها ما يلي: «فأنهي لكريم علم مولانا أنه لا يصل لهما شيء من نقير وقطمير، إلا بعد علمنا على يدنا وما وصلهم إلا ما لا محذور فيه ولابد منه من المئوية دراهم وإدام وطعام. ومع ذلك، وقف الحال لمحمد منهما قبل هلاك أخيه اُستسلف ما يقيم به من ضرورياته، حيث أن أخاه الهالك، وإن كان لم يلحقه ضرر بحيث خلف ما أطلعنا به العلم الشريف، فما كان ينال أخاه شيئًا من ذلك»[٦٧]. وخصوصية مثل هؤلاء السجناء جعلت رأس السلطة المحلية حتى في موت الحاج المعطي بعد ثلاث سنوات من الأسر، عدم قدرته على دفن جثة هذا الهالك، حتى يأتيه الأمر بالدفن من فاس، فبقي محمد الصغير مصفدًا إلى جانب جثة أخيه وهي تتفسخ بفعل الحرارة المفرطة في السجن حيث كان الفصل صيفا، إلى أن جاء الأمر بالدفن بعد أحد عشر يوما، وقد قيد لمحمد الصغير أن يحيا بالسجن أربعة عشر عاما ليطلق سراحه بعد ذلك سنة ١٩٠٨م مريضا معدما وفي حالة نفسية وجسدية مزرية وقد شتت الفقر والعوز أسرته وعياله[٦٨].

الصرامة ذهبت إلى حد إعفاء المسؤول الأول بالمدينة نتيجة عدم التعامل المطلوب مع مثل هؤلاء السجناء حتى في مماتهم وهو ما يؤكده داود قائلاً: «وذكر لي الشريف المذكور أن سبب عزل القائد المذكور من ولاية تطوان، هو أنه لما مات الوزير السابق الحاج المعطي الجامعي بسجن تطوان، اعتنى القائد المذكور بتجهيزه وجنازته، ودفنه في إحدى الزوايا المحترمة، وكان الوزير أحمد بن موسى ...لايزال بقيد الحياة، فاغتاظ من عمل القائد السلاوي،

وأسرها في نفسه، ثم عزله، وقد أكد لي ذلك عدد من شيوخ تطوان»[٦٩].

ومادام أن التعذيب كان حاضرًا بسجن تطوان فإن الوثيقة تستعرض لنا أحيانًا حالات متباينة لوفيات لا يحدد سببها بالضبط، والغالب هنا أن نهايتهم لربما جاءت لشدة التعذيب الذي مورس على الجسد بإحدى الوسائل التي كانت تعتمدها السلطة القائمة. ومن هاته الحالات نذكر: «زمام طيه مع رسم الإشهاد على من حازهم كما أمر مولينا وهم تسعون من ءال وادراس خمسة وأربعون مراهين ومات منهم أربعة وواحد هو الذي شيخناه عليهم»[٧٠]. «وأن القائد أحمد الزرار الشرادي الذي كان بسجن تطوان قد قضى نحبه»[٧١].

في نفس المضمار نجد أن المخزن يتعامل بقسوة ودون مراعاة الظرف الصحي لبعض الحالات التي كانت تقتضي العلاج الطبي كأحد الحقوق التي لابد من توفرها، وهذا ما سبب في الغالب نهاية حياة السجين المدان «وأمر بالتضييق عليه حتى يؤديها، وعليه فبوصول كتابنا هذا إليك، خاطبه في أدائها وضيق عليه حتى ينعم بأدائها كلها أو بعضها، ...وقد أخبر أولاده أنه تعتريه ضيقة والعياذ بالله، فكن تخرجه عند اشتدادها عليه لمحل خارج السجن حتى يستريح ورده للسجن»[٧٢].

ومع ذلك فإن هذه الأوضاع البالغة السوء لا يجب أن تحجب عنا حالات وإن كانت محدودة تمتع فيها السجناء بظروف اعتقال خالية من القسوة أو الإساءة إليهم وتوفير حاجياتهم من الطعام والشراب، بل إن بعض السجناء كانوا محل تكريم وتبجيل خلال فترة سجنهم، حتى أن هذا التكريم بلغ مداه لدرجة تحويل السجن لفضاء لممارسة التربية والإصلاح الأخلاقي والسلوكي وترتيل القرآن وتحفيظه، وهو ما يقرأ في فهرسة سيدي أحمد بن عجيبة الحسني أنه لما زج به في سجن تطوان حكى قائلاً: «ثم قدم علينا فقراء تازة لزيارتنا وفيهم العالم الكوهن والعارف المكودي فسجنوا معنا. فبقينا في السجن ثلاثة أيام. والله ما رأينا أيامًا كانت أطيب من تلك الأيام. انقلب السجن زاوية وصار كله يذكر الله وانفتح باب السجن للداخل والخارج وانبسط أهل السجن وزال غمهم ما دمنا معهم، وقد لقنت الورد في السجن لبعض المسجونين خمسة أو أربعة وأتت أنواع الأطعمة حتى طعم أهل السجن كلهم وبقي الخير»[٧٣].

على العموم تضمن هذا السجن فئات وشرائح تنتمي إلى بنيات متفاوتة اجتماعيًا واقتصاديًا، غير أنهم جمعوا في مكان واحد لا فرق بين أصحاب السياسة منهم وأصحاب الجرائم[٧٤]. بما يعني أنه لم يكن بالمدينة سجن للعوام وآخر للخاصة، رغم أن الأدبيات الإسلامية فيما يتعلق بالسجن حرصت على هذا التمييز لعدة اعتبارات منها، تجنب الاختلاط الذي قد ينتج عنه إفساد أخلاقي أو ترويج لأفكار مغرضة... "فالقانون وهو يفرض عقوبات أكثر خطورة من بعضها بعض، لا يمكن أن يسمح للفرد المحكوم بعقوبات بسيطة، أن يحبس في ذات المحل الذي يحبس فيه المحكوم بعقوبات أكثر خطورة"[٧٥]. أي لم يكن بسجن تطوان تمييزًا مرتبطًا بنوعية الجريمة وليس على أساس التصنيف الفئوي، وهو ما يتأكد لنا نسبيًا من خلال التهامي الوزاني بخصوص حكّيه لرواية سجن لأعيان قبيلة وادراس المحتجين ضد عامل تطاون. إذ يقول: «أحدهم بأن أعيان القبيلة قد أودعوا السجن»[٧٦]، بل أن إحدى الشخصيات السياسية الشهيرة كما سبق ذكره في القرن التاسع عشر، ما بعد عهد الحسن الأول أرسل لسجن تطوان حيث قضي به أواخر عمره هو وأخوه الوزير إلى أن توفي[٧٧]. بل تقدم كذلك نصوص عدة تبودلت بين المخزن والقناصل الغربيين احتواء المؤسسة السجنية بتطوان على أجانب يصعب معرفة الوضعية التي كانت تميزهم بسجن المدينة، وهل كان هناك امتياز يخصهم وما أصنافهم، اللهم بعض المعطيات الشحيحة التي تتناثر هنا وهناك بين ثنايا المراسلات، مثل هذا النموذج الذي يخص لوبيس فرير مما جاء فيها: «وبعد اقتضى النظر في نقل المساجين الاصبنيوليين محمد بن حدو بن سالم ومحمد بن حدو أمعروا الذين هم في سجن المخزن على يدي إلى السجن الاصبنيولي»[٧٨].

خَاتِمَةٌ

ختامًا، ومما جاء في التحليل يتبين لنا أن تناول السجن في المقاربة الفلسفية لميشيل فوكو حاولت أن تبرز مدى الارتباط الوثيق ببنية السلطة التي تنعكس رؤيتها في الضبط المجتمعي من خلال هذه المؤسسة التي كانت وظيفتها في تاريخ أوربا ولأزمنة طويلة ترهيب الذات المخالفة بأقسى العقوبات الجسدية والنفسية، غير أن هبوب رياح التحول المجتمعي الذي جاءت به الحداثة دفعت إلى ممارسة النقد حول الغاية منه وطرق ضبطه للمخالفين والمجرمين بغية جعله ألية تحقق الدمج عبر الإصلاح والتهذيب وليس تكريس الهيمنة للسلطة القائمة على الذات.

من جهة ثانية، اتضح ومن خلال استثمار مادة تاريخية حول هذا الفضاء "السجن" المخزني ونزلائه بأحد أبرز مدن المجال المتوسطي بالمغرب زمن القرن التاسع عشر- محاولين طرق الموضوع تاريخيا في جوانب معينة حسب ما تجود به الوثيقة من معطيات- أن السلطة القائمة لم ترى فيه سوى جهازًا قمعيًا لكل فرد أو جماعة تحاول تجاوز أعراف وسلطة المخزن، رغم التحولات التي عرفتها أوربا بخصوص التنظير لبناء مفاهيم تناصر البعد الإنساني في إنتاج مؤسسات ضبطية تتماشى وقيم حقوق الإنسان كأسس للتحول المجتمعي في علاقته بالسلطة السياسة. ويتضح جمود المخزن أكثر في ذاك الواقع الذي عاشه السجن ونزلائه بالمدينة تمظهرت لنا عبر عدة شذرات تاريخية حملتها لنا المصادر والوثائق.

الاحالات المرجعية:

(١) السجن نظام بصري مرئي قبل أن يكون صورة حجرية، فهو خاضع للمراقبة الشاذة متنتشرة حولها في الزنزانات كالخلايا في الجسد، فظهور المؤسسة السجنية حديث العهد من حيث الهندسة البنائية من جهة والعقوبات الجزائية من جهة أخرى. فتأسيسه جاء مباشرة بعد الثورة الفرنسية ليشمل كل العقوبات الزجرية والتأديبية كالأعمال الشاقة ليعوض مشنقة الموت ومسرح الدم.

(*) يُعَدّ المنهج الاركيولوجي الفوكوي منهجا مستقلا بذاته جمع بين ما هو تاريخي فلسفي من أجل التنقيب عن المعرفة بعيدا عن كل الذاتية التي سقط فيها ديكارت وبعيدا كدلك عن النسقية التي انغمست فيها المدارس الفلسفية الكلاسيكية. فهو منهج ابستمولوجي واقعي هدفه ربط الفلسفة بالأحداث التاريخية السياسية من أجل بناء خطاب منطوق معقول وفق الوقائع المجتمعية.

(٢) ميشيل فوكو، **يجب الدفاع عن المجتمع**، ترجمة الزواوي بغوره، دار الطليعة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، بيروت ص٥٨.

(٣) أليكيس دو طوكفيل، **الديمقراطية في أمريكا**، ترجمة أمين مرسي قنديل وتصدير محسن مهدي، عالم الكتب، القاهرة مصر، صص.٣٦١-٣٦٢.

(٤) ميشيل فوكو، **يجب الدفاع عن المجتمع**، م س، ص٨.

(٥) ميشيل فوكو، **يجب الدفاع عن المجتمع**، م س، صص.٤٣-٤٤

(٦) ميشيل فوكو، **المراقبة والعقاب ولادة السجن**، ترجمة علي مقلد، مركز الإنماء القومي بيروت، ١٩٩٠، ص.٧٠

(٧) **المراقبة والعقاب ولادة السجن**، م س، ص ٧٠

(٨) ميشيل فوكو، **المراقبة والمعاقبة**، م س، ص.٨٢

(٩) نفسه، ص. ١٠٣.

(١٠) نفسه، ص. ١٣٢.

(١١) نفسه، ص. ١٣٥.

(١٢) ميشيل فوكو، ميشيل فوكو، **المراقبة والمعاقبة**، م س، ص.٣٧.

(١٣) نفسه، ص. ٢٣٩ (بتصرف)

(١٤) ميشيل فوكو، **جينيالوجيا المعرفة**، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر المغرب، الطبعة الثانية ٢٠٠٨، ص١٠٥.

(١٥) محمد داود، **التكملة ذيل لكتاب تاريخ تطوان في خطط المدينة وسكانها وحياتها الاجتماعية**. مراجعة وتحقيق وإضافات، حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان الطبعة الأولى ٢٠١٦، ص. ١٧٨.

(١٦) المرجع، نفسه، (هامش)، ص. ١٧٧.

(١٧) هذا ما نلمسه في الدارستين القيميتين، حول السجن والسجناء خلال مرحلة القرن ١٩ لكل من:

~ مصطفى الشابي: «السجن والسجناء في مغرب القرن التاسع عشر (١٨٣٠ – ١٩١٢)»، ضمن كتاب **الثابت والمتحول في تاريخ**

المغرب المعاصر، الواقع والتأويل، المطبعة والوراقة الوطنية، طبعة ٢٠٠٩، ص. ٢٩ – ص. ٢٧٣- ص. ٣٩٣.

~ مصطفى بوشعراء، **علاقة المخزن بأحواز سلا، قبيلة بني احسن ١٨٦٠ – ١٩١٢**. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، صص. ٢٦١ – ٣٠١.

لكن يشير داود في إحدى الفقرات وهو ما لم نفهمه قائلا: «لم يكن للسجن خدام معنيون يقومون بما عسى أن يحتاج إليه من خدمة داخله، بل كان قائد السجن هو الذي يأمر المسجونين بما يجب من تنظيف أو جمع أزبال أو غير ذلك من الخدمات»، أنظر، **التكملة**، م. س، ص. ١٨١.

(١٨) **التكملة**، المرجع، نفسه، صص. ١٧٩ – ١٨٠.

(١٩) **التكملة**، م س، (هامش)، ص.١٧٩.

(٢٠) وهذا الواقع كانت تعيشه كذلك مؤسسات سجينة أخرى بمدن المملكة وهو ما تبرزه رسالة السلطان لعامل سلا ١٨٨٠ جاء فيها: «بلغنا أن مساجين سلا يصرخون بألم الجوع والبرد، وينادون بالشرع فنأمرك بالوقوف في إحصائهم بالعدول». أنظر، **علاقة المخزن بأحواز سلا...** ، م. س، ص. ٢٦٥.

(٢١) فيليبي أوبيلو كناليس، **حميميات من المغرب**، ترجمة، محمد المساري، تقديم، فرانثيسكوخ مارتينيس أنطونيو. منشورات ليتوغراف، طنجة الطبعة الأولى ٢٠١٥. ص.٣٥، وعنوان المؤلف بلغته الأصل هو،

- Intimidades de Marruecos. **Escritos del Medico Español, Felipe Óvilo Canales Sobre Marruecos del Siglo** xix.

(٢٢) بديعة الهيزور، **جوانب من التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية خلال العهد العزيزي (١٨٩٤-١٩٠٨)**. دكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الأداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية ٢٠٠٤/٢٠٠٥، ص١٢٦.

(٢٣) م. ن. ص ١٢٦.

(٢٤) رسالة من محمد بن العربي الطريس إلى أمناء مرسى تطوان، بتاريخ ٢٥ صفر ١٣٢٦ ه / ٢٢ مارس ١٩٠٨م، مح ١٤، ب: م. و. م، بالرباط.

(٢٥) تقيد **صائر أحباس الفقراء والمساكين بثغر تطوان**، ب:خ. ح، بالرباط، رقم: ٥٩٥.

(٢٦) رسالة من عبد الرحمان العوفيل إلى النائب الحاج محمد الطريس، بتاريخ ١٩ صفر ١٣٢١ ه/ ١٠ ماي ١٩٠٣م، مح ١٢ب : م. و. م، ونفس الأمر يخص سجناء طنجة حيث كان السلطان حريص على عملية الإكساء وغيره، أنظر الرسالة، عند محمد داود، **تاريخ تطوان**، مراجعة وتصحيح حسناء داود، منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة دار أبي رقراق للطباعة والنشر، طبعة ٢٠١٣، مج٨، ص.٥٣.

(٢٧) رسالة من بنعبد السلام الشربوت للنائب الحاج محمد الطريس، بتاريخ ١٩ صفر ١٣٢١ه/ ١٠ ماي ١٩٠٣م، مح ١٢، ب: م. و. م.

(٢٨) وهو ما يتضح من خلال تقييد عنوانه: صائر شوال الأبرك عام ١٢٨٤ ه/فبراير ١٨٦٨م. مما جاء فيه: «

- خبز (٣) مساجين (٣٩) الرحامنة عن أيام ٥ سعر وعن أيام ٩ مساجين(٣٨) سعر يجب في ١٤ يوما هذا ... ¾ ١٢٩٣.

- مونة مخازنيين ودارس الحضرة في شأن المساجين الرحامنة عن أيام ٣ على حساب ٢ ... (٤) ٦١٥ ....

- زاد(٢٠)هما عند توجهها بالمساجين للحضرة ... ٢٠ ....

- زاد فرسان توجهوا مع مساجين الرحامنة ١٠ ٤/١ مع رماة ٦/٥ يجب.. ٧٠....»

(٢٩) مصطفى الشابي، **الثابت والمتحول**...، م. س، ص. ٢٨٧.

(٣٠) من أمناء الأعشار بمرسى تطوان محمد بن عبد الرحمان القباج وعبد القادر بن العربي فرج إلى السلطان، بتاريخ ٧ رمضان ١٣١٤ه/ ٣ فبراير ١٨٩٧م، مح، ١٠ب: م. و. م.

(٣١) رسالة سلطانية إلى محمد الخطيب، بتاريخ ٦ ربيع الثاني ١٢٧٣ه/ ٢٦ نوفمبر ١٨٥٦م، **تاريخ تطوان**، م. س، مج ٧، ص.٣٨.

(٣٢) هذا النص يبرز ذاك الواقع ضمن السجن، جاء فيه، «يقع إطعام السجين على أهله أو على قبيلته. أما أولئك الذين لا سند لهم فلربما قضو داخل السجن، إذ يقوم المخزن بتوزيع الخبز مسبقا وينتظر أن تؤدي القبيلة ثمن ما أعطي فإن طال تأخرها عن الأداء عانى السجين، دون أن تذكر أن الطعام المقدم من قبل الإدارة السجنية كان قليلا جداً». أنظر كتاب محمد الناجي، **جند وخدم وسراري، الرق في المغرب**. ترجمة، محمد الغرايب، طبع مطبعة التومي، سلا، الطبعة الأولى، ٢٠١٨، ص. ١٩٥.

(٣٣) **التكملة**، م. س، ص. ١٧٩.

(٣٤) م. ن، ص. ١٨٠.

(٣٥) خوصي بوعادا إي روميو، **ما وراء المضيق، المغرب في القرن XIX بعيون إسبانية**. ترجمة محمد عبد السلام المرابط، مطبعة ليتو غراف الطبعة الأولى بطنجة، ٢٠١٥، ص. ١٩٤. هذا الوصف الصادق يتأكد بوضوح حين يصف «خوصي» سجن طنجة ص.٥٠ قائلاً: «ويشير رؤية السجن، حقا الرعب والهلع الممزوجين بالقرف، غرفة مقززة معتمة أرضيتها مليئة بكل أنواع القمامة والقذارة، تنبعث منها رائحة نتانة لاقبل لأحد بتحملها. وبين كل ذلك جلسوا مبللين وسط غائطهم خمسة عشر أو عشرون من المخلوقات البشرية ينتظرون حتفهم ببطء بسبب الجوع والتعفن».

(٣٦) فيليبي أوبيلو كناليس، **حميميات من المغرب**...، م. س، ص.٣٤.

(٣٧) **التكملة**، م. س، ص. ١٨١.

(٣٨) نفسه، ص. ١٨١.

(٣٩) نفسه، والصفحة نفسها. ويشار أن واقعة التآمر على الوزير بتفصيل وحيثيات إرسالهما بعدها لسجن تطوان بتهم ثقيلة عهد المولى عبد العزيز وردت التفاصيل عنها في كتاب،

-Walter, B. Harris, **le Maroc disparu**. prèmier édition.plon paris .1929

(٤٠) (-) اعتبرها «الفقهاء حقا أصيلا لهم، فلا يمنع أحد من زيارة مسجون، بل ذهبت بعض المصادر إلى أبعد من ذلك، بحيث نبهت على ضرورة ألا يفرق بين الأب والإبن والإخوة في السجن». عن، أحمد إبراهيم رفاعي، **الجريمة والعقوبة في المغرب والأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، دار النابغة للنشر والتوزيع، مصر، ط ١، ٢٠١٩، ص. ٢٠٠.

(٤١) **التكملة**، م. س، ص. ١٧٩.

(٤٢) نفسه، (هامش)، ص. ١٧٩.

(٤٣) كريمة هرهار، **تطور السياسة العقابية على ضوء مشروع القانون الجنائي**، كلية العلوم القانونية والإقتصادية والاجتماعية بطنجة، ٢٠١٧، ص. ٢٨. وفي هذا المضمار وجب التأكيد أن السجون كمؤسسات لم تعرف تطورا في نظمها إلا بعدما انتشرت الدعوات الفكرية الإصلاحية التي ظهرت في القرن ١٨ بأروبا حيث دعت لاحترام حقوق الإنسان وتطبيق مبادئ العدالة والديموقراطية التي انعكست آثارها على السياسة العقابية، إذ تم تأهيل المحكوم عليهم وإعدادهم لمواجهة المجتمع دون العودة لارتكاب الجرائم.

(٤٤) **التكملة**، م. س، ص. ١٨٠. ويشير الصحفي بوغادا في كتابه، بخصوص سجن سبتة خلال القرن ١٩ كيف مارس السجناء به بعض الأنشطة مقابل امتيازات منحت لهم، إذ يقول: « ... غير أن المعتقلين، و يشارك كثير منهم في بناء التحصينات يتمتعون بنوع من الحرية داخل المدينة، وقد تشفع السلوك الحسن لبعض هؤلاء المسجونين في أن يتمتعوا بعض العطف من جانب الرؤساء، فشاركوا في بعض الصنائع، وتكلفوا بخدمات سمحت لهم بالإقامة خارج المعتقل».أنظر، **ما وراء المضيق...**، م. س، صص ٢٨٣ – ٢٨٤

(٤٥) **التكملة**، م. س، ص. ١٨٢، ويشير مصطفى بوشعراء في كتابه، إلى عدة ضمائم كانت تحتوي هذه الضوابط فيما يخص سجن سلا كنموذج. أنظر، **علاقة المخزن ...**، م. س، صص. ٢٨٥ – ٣٠١

(٤٦) **التكملة**، م. ن، ص. ١٧٨، وحضور المال في عمليات تسريح السجين أو تغيير وضعيته من مدان إلى بريء أو جعله يتمتع بامتيازات ما مسألة كانت حاضرة بقوة يستحضرها الصحفي بوعادا في كتابه السالف، قائلاً: « ... وحتى إذا استطاع أحد أن يغادر السجن فلا يكون ذلك سوى بعد دفعه قدراً ضخماً أو صغيراً من المال، على حسب درجة الجرم. وعادة ما يتدبر السجين هذا المال خلال سجنه، أو تتكفل عائلته بجمعه. وبدون هذا المسعى الذي تتحمس له كل دوائر الحكم بالمغرب، بدون استثناء، فإن الأبواب التي فتحت لاستقبال سارق دجاجة لن تعود أبداً لتفتح في وجهه مرة أخرى، إن لم يمر من هذا الإجراء». أنظر، **ما وراء المضيق..**، م. س، ص. ٥٠.

وبالنسبة للمعذبين غير المسمين، فلدينا رواية «المستر هاتفيلد» قنصل إنجلترا بتطوان، في العهد الأول لولاية الباشا أحمد الريفي على المدينة وهي تصف بدقة متناهية حالة تعذيب وحشي، إذ أورد ذلك داود على لسان القنصل قائلا: « البارحة عند مروري أنا والمستر نوبل أمام السجن رأينا رجلا معلقاً من رجليه مكبلا بالحديد وعلى أنفه لقاقيط، ولحمه يقطع بالمقص، ورجلان يضربانه بالعصي يطلبان منه المال، وعندما يسكت هذا الرجل من الصياح يعودان لضربه... وهذا المنظر المفزع عندما رآه نوبل صاح قائلا: يارب هذه ثمرة حكومة استبدادية ظالمة ...» **التكملة**، م. س، ص. ١٨٢.

(٤٧) علي المحمدي، **المخزن والنظام**، ١٨٣٠-١٨٩٤. أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الأداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية ١٩٩٨/٩٧، ص.١٠٥

(٤٨) **التكملة**، م. س، صص. ١٨١ - ١٨٢.

(*) بالفعل هذا الواقع تم التقاطه من طرف الرحالة الأجانب الذين زاروا المغرب خلال القرن ١٩، فالطبيب جوزيف أوجوستين ديكيجي في زيارته لسجن طنجة يقدم لنا صورة سيئة وتعيسة عن واقع السجناء قائلاً: «..لا يخرج هؤلاء التعساء من العتمة ومن إقامتهم النتنة، والشمس محجوبة دائما عن أعينهم تتركهم الدولة ومصيرهم، ولولا الآباء والأصدقاء والزوار الغرباء الذين كانوا يأتونهم بالقوت لكان الجوع قد قضى على هؤلاء السجناء المساكين. في زاوية ردهة كومة من السلاسل والأطواق المرمية على الأرض، ومنظر أدوات التعذيب هذه يوحي بفكرة مفادها أن قدر هؤلاء الرجال حياة أفظع من الموت، فيجتاح الروح حزن عميق.»، عن، **رحلة داخل المغرب، مارس وأبريل ١٨٧٧م**، ترجمة بوشعيب الساوري، مراجعة، محمد الدخيسي، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، الطبعة الأولى، ٢٠١٤. ص. ٢٢.

(٤٩) **التكملة**، م. س، ص. ١٨٢.

(٥٠) نفسه، ص. ١٨٢.

(٥١) نفسه، (هامش) صفحة. ٨٢.

(٥٢) نفسه، (هامش)، ص. ١٧٩.

(٥٣) حميد حداد، **السلطة والعنف في الغرب الإسلامي**. دكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، بتطوان. السنة الجامعية ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤، ص.١٣٥.

(٥٤) رسالة من السلطان لمحمد أشعاش، بتاريخ ٦ شوال ١٢٤١ ه/ ٦ ماي ١٨٢٦م، مح، ١/٧ /ك١٧. ب:خ. ح، بالرباط.

(٥٥) رسالة سلطانية لنفس القائد، بتاريخ ١٦ شعبان ١٢٥٦ ه/٥ أكتوبر ١٨٤٠م، مح، ١٢ / ٣٣/ك١٧.ب: خ. ح، بالرباط.

(٥٦) رسالة سلطانية لعبد القادر أشعاش، بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى ١٢٦١ ه / ٢٧ ماي ١٨٤٥، مح، ١/٢١ /ك١٧ .ب :خ. ح.

(٥٧) رسالة سلطانية إلى القائد محمد أشعاش، بتاريخ ٥ ذي القعدة، ١٢٥٢ ه / ٤ فبراير ١٨٣٧م، مح ٤/٤ /ك١٧.ب. خ. ح بالرباط

(٥٨) رسالة سلطانية للقائد عبد القادر أشعاش، بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٢٦٤ه/ ١٣ نوفمبر ١٨٤٨م، وردت بملف **من أعلام تطوان**، ص. ١٢٦، خزينة أبو بكر بنونة.

(٥٩) أورده حميد حداد، **السلطة والعنف...**، م. س، ص. ١٣٥.

(٦٠) رسالة وجهها محمد الصغير إلى أحمد الطريس بطنجة، بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى ١٣٢٥ ه / ٢ يوليوز ١٩٠٧م، أوردها داود **بتاريخ تطوان**، م. س، مج. ٨، ص. ٨٠.

(٦١) **تاريخ تطوان**، م. ن، مج ٣، ص.٢٠٤.

(*) ظلت مسألة ضرب السجين وأدواته موضع خلاف بين الفقهاء والأئمة الأربعة، للتعمق يرجع لدراسة مصطفى نشاط، **السجن والسجناء نماذج من تاريخ المغرب الوسيط**. مطابع إفريقيا الشرق، البيضاء، ٢٠١٢، صص. ١٠٦ – ١٠٨.

(٦٢) رسالة سلطانية للقائد بركاش، بتاريخ ٢٠ ربيع الثاني ١٣١٩ه/ ٢٩ يوليوز ١٩٠١م، مح، ١٦.ب: م. و. م بالرباط.

(٦٣) رسالة إلى الكاتب العربي بن الفقيه، بتاريخ ٣ رمضان ١٢٦٥ه/ ١٦ يوليوز ١٨٤٩م، مح، ٢، ب: م. و. م.

(٦٤) رسالة من أحمد الخضر بن محمد السلاوي إلى النائب محمد برقش، بتاريخ ١١ ربيع؟ ١٢٩٥ ه / ١٨٧٨م، مح، ٥. ب: م. و. م.

(٦٥) محمد داود، **تاريخ تطوان**، م. س، مج ٣، ص.٢٠٢.

(٦٦) المرجع، نفسه، والمجلد نفسه، ص.٢٠٧.

(٦٧) ورد عند مصطفى الشابي، **«السجن والسجناء...»**، م. س، ص.٢٩٢.

(٦٨) خوصي بوعادا إي روميو، **ماوراء المضيق**..، م. س، (هامش)، ص.٢١٤. وربما القسوة التي عومل بها الأخوين جاءت نتيجة تراكمات الفساد السياسي والمالي وصراع النفوذ بالمحيط الملكي تفجرت حصيلته مباشرة بعد موت الحسن الأول، ليكونوا جزءا من ضحاياه المباشرين. فالكاتب نفسه يحاول أن يبرز ذلك في المؤلف نفسه قائلا: «ويحكي عن وزير الحربية في الحكومة السابقة محمد الصغير، وهو الآن مغلول بالسلاسل، ارتكابه لأبشع الفظائع، لعل أبسطها استحواذه بكل بساطة على أجور عدد كبير من الجنود... وكان يحدث أحياناً ان يرغب السلطان في أن يستعرض جيشه، .... فكان محمد الصغير هذا يسرع إلى جمع بعض مئات من الفلاحين ويلبسهم زيا موحداً ويحولهم توا إلى جنود حقيقين طوال المدة التي يستغرقها الاستعراض. والغريب أن مثل هذه السلوكات يحكيها المغاربة...»، المرجع، نفسه، صص.٢١٣-٢١٤.

(٦٩) محمد داود، **تاريخ تطوان**، م. س، مج ١٠.ص.٩٩.

(٧٠) رسالة من عبد القادر أشعاش للسلطان، بتاريخ ١٧ ذي القعدة ١٢٦٤ ه/٨ أكتوبر ١٨٤٨م، مح ٢، ب: م. و. م.

(٧١) رسالة من محمد بن أحمد الخضر السلاوي للسلطان، بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى ١٣١٤ه/ ٢٦ أكتوبر ١٨٩٦م، مح، ١٠، ب: م. و. م.

(٧٢) رسالة من ولي العهد سيدي محمد إلى القائد عبد القادر أشعاش، بتاريخ ١٥ ذي القعدة ١٢٦٢ه/ ٢٩ أكتوبر ١٨٤٦م، وردت بملف من **أعلام تطوان**، م. س، ص. ٦٩، خزانة أبو بكر بنونة.

(٧٣) أحمد بنعجيبة، **فهرسة العالم الرباني الكبير، سيدي أحمد بن عجيبة الحسني**. تقديم وإعداد، عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص.٥٩.

(٧٤) **التكملة**، م. س، ص. ١٧٧. وهنا أشير إلى أن المدينة خلال سقوطها في يد الإسبان في حرب ١٨٦٠حرص خلالها الأمير مولاي العباس في هروبه أو انسحابه على أخذ كل ما هو ثمين وقيم محملاً على «ثلاثين بغلة ثم ساق معه بعض السجناء السياسين حتى لايفلتو من العقاب، وقد كان هؤلاء في أغلبيتهم من المسؤولين السابقين ....». انظر: بيدرو أنطونيو دي الاركون، **يوميات شاهد على حرب إفريقيا**، ترجمة، محمد عبد السلام المرابط، منشورات ليتوغراف طنجة، الطبعة الأولى ٢٠١٢، ج ٢، ص.٥٣.

(٧٥) ميشيل فوكو، **المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن**، م س، ص. ٢٣٧.

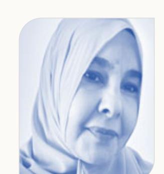
(٧٦) **التكملة**، م. س، (هامش)، ص. ١٧٩.

(٧٧) **التكملة**، م. ن، ص. ١٨٢.كما سلط محمد داود الضوء على مأساة هذين الوزيرين، **تاريخ تطوان**، م. س، مج ١٠، صص.٧٦-٨٠.

(٧٨) رسالة من قنصل إسبانيا إلى قائد المدينة بتاريخ، ١٦مارس ١٩٠٩م، أوردها محمد داود، **تاريخ تطوان**، م. ن، مج ١٠، ص.٢٨٢.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الدور الوطني والريادي للمرأة الليبية
خلال النصف الأول من القرن العشرين



مريم الصادق جمعة
أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة عمر المختار – البيضاء
دولة ليبيا

مُلَخّص

شهدت ليبيا خلال النصف الأول من القرن العشرين أحداثاً سياسية وعسكرية كان لها أثرًا كبيرًا على حياة المجتمع وعلى وضع المرأة ودورها فيه، فقد أصبحت البلاد خلال هذه الفترة ساحةً لصراعات القوى الأجنبية، ما أثر على حياة المجتمع من كافة الجوانب السياسة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وانعكس ذلك بدوره على وضع المرأة ودورها في المجتمع، وتميزت هذه المرحلة التاريخية ببروز الدور الوطني والريادي للمرأة الليبية، وتمثل الدور الوطني للمرأة في مشاركتها في حركة المقاومة الوطنية ضد الغزو الإيطالي منذ البداية، حيث أسهمت النسوة الليبيات في حركة الجهاد عبر قيامهن بأدوار مختلفة، ولعبت النساء في المجموعات القبلية دورًا محوريًا بالانضمام لحركة المقاومة مع أفراد أسرهن وقبائلهن في معسكرات الجهاد، ما أدى إلى تعرضهن لعمليات الاعتقال والأسر والتعذيب والنفي والحكم بالإعدام، كما قمن بالحفاظ على استمرار الحياة الطبيعية في القبيلة ورعاية أسرهن أثناء الحرب وتوفير الدعم اللوجستي للمقاومة، وكان دورها في حركة الجهاد مكملاً لدور الرجل ودافعًا هامًا لاستمراريتها، وشهدت هذه الفترة التاريخية كذلك بروز الدور الريادي للمرأة الليبية الذي تمثل في مبادرات قامت بها رائدات ليبيات كان لهن دورًا بارزًا في تطوير المجتمع من خلال العمل في مجالات التعليم والثقافة والإعلام، وكان لهذه النخبة من السيدات دورًا بارزًا في النهوض بالمجتمع والرفع من مستوى المرأة وفتح المجال أمامها للخروج للعمل والتعليم، ويهدف هذا البحث إلى رصد التطورات التي طرأت على أوضاع المرأة في ليبيا خلال القرن العشرين، والتعرف على الدور الوطني الذي قامت به بمساهمتها في حركة الجهاد ضد الغزو الإيطالي، كما يهدف إلى التعرف على الدور الريادي للمرأة الليبية في المجالات المختلفة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١١ يناير ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ١٩ فبراير ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

المرأة الليبية؛ تاريخ ليبيا المعاصر؛ العهد العثماني؛ الاحتلال الإيطالي؛ الحرب العالمية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325611



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مريم الصادق جمعة. "الدور الوطني والريادي للمرأة الليبية خلال النصف الأول من القرن العشرين".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٢٠٦ – ٢١٧.

Corresponding author: mariam.elsadeg@omu.edu.ly
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

كانت المرأة الليبية في بدايات هذا القرن تعيش في ظل مجتمع تقليدي هيمنت عليه ثقافة وعادات وتقاليد متوارثة، قامت على تقييد حرية المرأة والحد من تفاعلها داخل الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه، وقد تأثرت أوضاع المرأة بالظروف السياسية التي مرت بها البلاد ففي العهد الإيطالي عانت المرأة من السياسات الاستعمارية كالمعتقلات الجماعية وحملات النفي والتهجير والعقوبات المختلفة إلى جانب العوائق الأخرى التي واجهتها خلال هذه الفترة مثل كسوء الأحوال الاقتصادية، وعلى الرغم من هذه الأوضاع التي شهدتها البلاد خلال النصف الأول من القرن العشرين إلا أن المرأة الليبية لعبت دورًا وطنيًا ورياديًا هامًا فقد تميزت هذه المرحلة التاريخية بمشاركتها في حركة المقاومة الوطنية ضد الغزو الإيطالي، حيث أسهمت النساء الليبيات في حركة الجهاد عبر قيامهن بأدوار مختلفة، كما شهدت بروز الدور الريادي للمرأة الليبية الذي تمثل في مبادرات قامت بها رائدات ليبيات كان لهن دورًا بارزًا في تطوير المجتمع والنهوض به.

تتمثل **أهمية الموضوع** في أن دراسة أوضاع المرأة الليبية ودورها الوطني والريادي خلال النصف الأول من القرن العشرين يسهم في فهم طبيعة التغيرات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع الليبي ومعرفة تطور الحركة النسائية في ليبيا.

الهدف من الدراسة: يهدف هذا البحث إلى رصد التطورات التي طرأت على أوضاع المرأة في ليبيا خلال القرن العشرين، والتعرف على الدور الوطني والدور الريادي للمرأة الليبية في المجالات المختلفة.

مشكلة الدراسة: تطرح هذه الدراسة مجموعة من التساؤلات أهمها كيف كانت أوضاع المرأة الليبية خلال النصف الأول من القرن العشرين؟ ما طبيعة الدور الوطني الذي قامت به المرأة الليبية خلال النصف الأول من القرن العشرين؟ وما هو الدور الريادي الذي قامت به الرائدات الليبيات خلال هذه الفترة التاريخية.

ولتحقيق هذه الغاية تم تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور رئيسية، المحور الأول بعنوان: أوضاع المرأة الليبية خلال النصف الأول من القرن العشرين ويتناول أوضاع المرأة في أواخر العهد العثماني ثم يتطرق إلى أثر الاحتلال الإيطالي على حياة المرأة، كما يتناول تأثير التطورات التي شهدها المجتمع الليبي بعد الحرب العالمية على المرأة الليبية، أما المحور الثاني فهو بعنوان: الدور الوطني للمرأة الليبية خلال النصف الأول من القرن العشرين ويتطرق إلى الدور الوطني الذي قامت به النساء الليبيات إبان حركة الجهاد ضد الغزو الإيطالي مثل الدور المادي والمعنوي الذي قامت به المرأة الليبية في معسكرات الجهاد، وكذلك الوظائف الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تقوم بها دعمًا لحركة الجهاد، والمحور الثالث بعنوان: الدور الريادي للمرأة الليبية ويستعرض الجهود التي قامت بها أهم الرائدات الليبيات خلال هذه الفترة التاريخية.

أما **المنهج** المتبع في كتابة ها البحث فهو المنهج التاريخي السردي القائم على رصد التطورات التاريخية وتحليلها، ومن **أهم المصادر والمراجع** التي تم الاعتماد عليها في إعداد وكتابة هذا البحث الوثائق الصادرة عن مركز جهاد الليبيين مثل: موسوعة روايات الجهاد تجميع رباب أدهم سلسلة الروايات الشفوية المجلد رقم ٢٩، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس،١٩٩١)، وزينب محمد زهري، سلسلة الروايات الشفوية، المجلد رقم ٣٧، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس،١٩٩٥)، وأطروحة دكتوراه منشورة للباحثة كاترينا إليزابيث بعنوان:

Women, Resistance and the creation of new gendered Frontiers in the making of modern Libya, 1890- 1980, a published doctoral, dissertation, Graduate school of Arts and Sciences, Georgetown University, (Washington, D .C.,15 November, 2017).

الحدود المكانية: ليبيا.

الحدود الزمانية: النصف الأول من القرن العشرين.

أولاً: أوضاع المرأة الليبية خلال النصف الأول من القرن العشرين

شهد المجتمع الليبي خلال النصف الأول من القرن العشرين تغيرات جذرية في بنيته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقد توالت على ليبيا خلال هذه الفترة أحداث تاريخية مهمة تمثلت في سيطرة القوى الاستعمارية على

البلاد، وأثر ذلك على حياة المجتمع من كافة الجوانب، وانعكس على وضع المرأة ودورها في المجتمع، ولمعرفة أثر هذه التحولات التاريخية على حياة المرأة يمكن دراستها وفقًا للتقسيم الآتي:

١/١-المرأة الليبية في أواخر العهد العثماني

تأثرت أوضاع المرأة في العهد العثماني بالثقافة التقليدية السائدة في المجتمع التي وضعتها في مرتبة متدنية عن الرجل على الرغم من الدور الاجتماعي الذي كانت تقوم به كزوجة وأم ويد عاملة منتجة، وقد عانت المرأة كثيرا من سيطرة الرجل الذي كان ينظر إليها نظرة تستند على الأفكار والعادات المتوارثة التي رسخت في المجتمع والتي تقوم على تقييد حرية المرأة والهيمنة عليها، فعاشت حبيسة بيتها لا تغادره إلا للمناسبات المهمة جدًا(١)، والإناث وفقًا لذلك كن يجهلن ما يجري خارج دائرتهن الضيقة ولا يعلمن إلا بالقدر الذي يسمح به لهن الذكور في إطار العزلة المفروضة عليهن(٢)، ويظهر السلوك المتشدد تجاه المرأة في المجتمع الحضري أكثر منه في مجتمعات الريف والبادية، وقد أسهم تفشي الأمية في العهد العثماني في انتشار هذه النظرة، وعلى الرغم من ظهور التعليم الحديث للإناث في أواخر العهد العثماني المتمثل في إنشاء مدارس ابتدائية ورشدية (إعدادية) للبنات إلا إن التعليم فيها لم يكن متاحًا لكافة الفتيات من عامة الشعب، وكان الهدف منها منع بنات الحامية التركية من الالتحاق بالمدارس الأجنبية، وقد التحقت بها أعداد بسيطة من التلميذات الليبيات مما يعكس نخبوية التعليم ومحدوديته(٣).

لقد انعكست هذه الثقافة على وضع المرأة فحرمت في كثير من الأحيان من أبسط حقوقها التي أقرتها لها الشريعة مثل حقها في اختيار الزوج وحقها في الميراث بذريعة أنها تعطي الأرض للغريب، وقد أثر ذلك على نظام الزواج الذي كان في الغالب قرابيًا وداخل الأسرة(٤), أما فيما يخص مشاركة المرأة في العمل فيبدو دور النساء في البادية والأرياف أكثر وضوحًا من قاطنات المدن، حيث تقوم المرأة البدوية أو الريفية بدور مهم في العمل والإنتاج يتمثل في مشاركتها للرجل في الأعمال الزراعية والحصاد ورعي الحيوانات والقيام ببعض الصناعات إلى جانب أعمالها المنزلية مما جعلها تتمتع بهامش من الحرية مقارنةً مع نساء الحضر(٥)، وفي المناطق الصحراوية شاركت النساء في الأعمال التجارية فقد أشار الضابط التركي عبد القادر جامي إلى وجود ركن للنساء بسوق (حميدة) في مرزق تقوم فيه النساء ببيع السلع المختلفة(٦)، أما المرأة في المجتمع الحضري فقد كانت بعيدة عن المشاركة في العمل الرئيسي والتقاليد تحرم عليها مغادرة المنزل في أغلب الأحيان، وفي حالة ممارستها لأي نشاط اقتصادي يكون منزليًا مثل الخياطة أو صباغة الصوف ودبغ الجلود أو صناعة الحصر(٧)، وقد اشتهرت النساء في بعض المدن بالقيام بهذا النوع من النشاط ٍمثل مصراتة التي قيل انه لا يخلو بيت من بيوتها من نول لصناعة الحصر وكانت النساء تشكل اليد العاملة في هذه الصناعة(٨)، كما اشتهرت نساء زليطن والخمس ونالوت وجادو بنسج الصوف.(٩)

٢/١-أوضاع المرأة الليبية خلال فترة الاحتلال الإيطالي

تعرضت ليبيا عام١٩١١م للاحتلال الإيطالي واستمر هذا الاحتلال لثلاثة عقود تقريبًا شهدت البلاد خلالها حرب إبادة هدفها إزاحة الليبيين وتوطين الإيطاليين، وقد واجه الشعب الليبي هذا الاحتلال بحركة مقاومة مسلحة شارك فيها الرجال والنساء، وسعت إيطاليا لقمع حركة المقاومة الوطنية بمختلف الوسائل، وكان لذلك آثاره الواضحة على جوانب الحياة الاجتماعية وعلى أوضاع المرأة بشكل خاص، فالمعتقلات الجماعية وحملات النفي والتهجير طالت النساء الليبيات ونفذت في الكثير منهن العقوبات المختلفة جراء الدفاع عن الوطن، إلى جانب العوائق الأخرى التي عانت منها المرأة الليبية كسوء الأحوال الاقتصادية والصحية ومحدودية التعليم، وكلها كانت معرقلة لأدوار النساء وفعاليتها(١٠).

وفيما يخص تعليم المرأة في فترة الاحتلال فقد كانت إيطاليا ترى في التعليم وسيلة لنشر ثقافتها، فعملت خلال العقد الأول من الحكم الاستعماري على افتتاح المدارس الابتدائية والمدارس الفنية والمهنية لأبناء العرب واليهود بهدف استقطابهم وتنشئتهم وفقًا لأهدافها الاستعمارية(١١)، كما افتتحت أول مدرسة لتعليم البنات(مدرسة التربية والعمل للبنات) في عام ١٩١٢م، وتضمن المنهج فصلين أحدهما ابتدائي والآخر مهني، ولكن إقبال

الفتيات على هذه المدارس كان ضعيفًا(١٢)، فقد أحجم الآباء عن تعليم بناتهم بعدما رأوه من تصرفات قوات الاحتلال وسلوك الإيطاليين الذي يتنافى مع الشريعة الإسلامية والتقاليد العربية(١٣)، كما أن الإستراتيجية التي وضعها الإيطاليون ركزت على تعليم الأطفال الذكور أكثر من تعليم الفتيات إلى حد كبير، ولم يتضمن المرسوم الملكي الذي صدر في عام ١٩١٤م أي أحكام لمدارس الفتيات المسلمات، واقتصرت السياسة التعليمية للحكومة الإيطالية الخاصة بتعليم البنات على مدارس مهنية تسمى مدارس التربية والعمل للفتيات(١٤).

وبعد سيطرة الحزب الفاشستي على الحكم عام ١٩٢٢م استخدمت السلطات الإيطالية التعليم وسيلةً للتغلغل في الأوساط الشعبية الليبية والترويج لسياساتهم وثقافتهم داخل المجتمع الليبي(١٥)، فاتبع الإيطاليون سياسة رسمية لتعليم الفتيات كان الهدف منها هو إقامة تحالفات مع عائلات النخبة التي كانت ضرورية لترسيخ الحكم الإيطالي في المدن الرئيسية بدلاً من تعزيز تعليم المرأة كغاية في حد ذاتها، وصدر مرسوم ملكي عام ١٩٢٨م تضمن إرشادات مختلفة لتعليم الفتيات ونص مرسوم ملكي آخر على تأسيس مدرسة نسائية لتعليم الحرف التقليدية للفتيات في طرابلس، وكانت تقدم منهج أكاديمي مشابه للمنهج العثماني مع التركيز على تعليم اللغة الإيطالية، كما أنشئت مدرستان للبنات في بنغازي ودرنة، وفي المعتقلات التي أقيمت لقبائل برقة تم تأسيس معسكرات لتعليم الأطفال الأيتام وتلقينهم الأيديولوجية الفاشية، وضم معتقل (سلوق) مدرسة للفتيات لتعليمهن الخياطة، وشهد عام ١٩٣٥ نموًا بسيطًا في التعليم المهني للفتيات مع افتتاح مدرستين إحداهما في درنة ضمت ٣٠٠ طالبة والأخرى في مصراتة لتدريب الفتيات على نسج السجاد، وفي عام ١٩٣٦م قررت السلطات الإيطالية إتاحة الفرصة لأول مرة أمام الفتيات المسلمات لتلقي تدريب يوفر لهن إمكانية الحصول على وظيفة مهنية، فافتتحت مدرسة لتدريب المرضات تسمى مدرسة الأميرة ماريا وقد التحقت بها ستة عشر فتاة، وفي العام التالي زاد العدد إلى خمسة وعشرون متدربة، وبحلول عام ١٩٤٠ قامت المدرسة بتدريب ١٦٦ طالبة خمسة منهن من خارج المستعمرة، وعلى الرغم من نمو التعليم المهني إلا أن إيطاليا لم تهتم بالتعليم الأكاديمي للفتيات ولم تفتتح أي مؤسسات تعليمية متوسطة أو ثانوية للفتيات وألقت الحكومة باللوم في ذلك على النزعة المحافظة للسكان ومعارضتهم لتعليم البنات(١٦).

١/٣-أوضاع المرأة خلال فترة الإدارة البريطانية والفرنسية (١٩٤٣-١٩٥٠م)

بعد هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٣م خضعت ليبيا للإدارة البريطانية والفرنسية، وكانت الحرب قد ألحقت أضرارًا مادية ومعنوية بالسكان وتسببت في تدمير المباني والمنشآت في المدن الرئيسية في البلاد وأصبح سكانها بدون مأوى، كما تعطلت الخدمات وهبط مستوى معيشة السكان بشكل كبير(١٧)،وتمثلت أهم المشاكل التي كان على حكومتي الإدارة معالجتها في استعادة الأمن وتوفير المؤن لبلاد أنهكتها الحرب وهدمت الكثير من مبانيها، بالإضافة إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للسكان بالعمل على إنعاش التجارة التي أصابها الركود بسبب الحرب وتوفير الخدمات الصحية وإعادة افتتاح المدارس(١٨).

وعلى الرغم من أن الأوضاع الاجتماعية للسكان لم تشهد تحسنًا ملموسًا في ظل حكومتي الإدارة إلا أنه يمكن ملاحظة بعض التطورات الجوهرية التي مر بها المجتمع الليبي خلال هذه الفترة كان أبرزها إدراك السكان لأهمية تعليم أبنائهم، ومطالبتهم بإعادة افتتاح المدارس التي أغلقت بسبب الحرب، كما شهدت هذه الفترة حدوث اهتمام محدود من الأهالي بتعليم البنات، وحصول الإناث على فرص للتعليم أفضل من قبل(١٩)، وكان لعودة الأسر الليبية التي هاجرت إلى الأقطار العربية أثرًا إيجابيًا في زيادة الوعي تجاه تعليم المرأة ودورها في الحياة العامة، فأنشأت الإدارة البريطانية عددًا من المدارس لتعليم البنات بلغ مجموعها عام ١٩٤٨م أربعة عشر مدرسة ووصل عدد طالباتها إلى ١٤٥٩ تلميذة(٢٠)، وتم تدريب بعض المعلمات المحليات وافتتاح مدرسة لإعداد المعلمات في عام ١٩٥٠م، وتولت معلمات مصريات وليبيات مهمة التعليم في مدارس البنات(٢١).

ثانيًا: الدور الوطني للمرأة الليبية خلال النصف الأول من القرن العشرين

شاركت المرأة الليبية في حركة المقاومة الوطنية ضد الغزو الإيطالي منذ البداية، ويمثل هذا الجانب أهم أدوارها الوطنية، وقد أسهمت النساء الليبيات في حركة الجهاد عبر قيامهن بأدوار مختلفة تشمل تقديم الدعم المادي والمعنوي للمجاهدين في ساحات القتال، وتوليهن مهمة العناية بأسرهن في غياب الرجال، وقد تعرضت المرأة الليبية نتيجةً لذلك لعمليات الاعتقال والنفي والتعذيب[٢٢]، ومن أهم صور مشاركة المرأة في مقاومة الغزو الاستعماري:

٢/١-دور المرأة الليبية في معسكرات الجهاد

لعبت النساء في المجموعات القبلية دورًا محوريًا بالانضمام لحركة المقاومة مع أفراد أسرهن وقبائلهن في معسكرات الجهاد، فعلى سبيل المثال مكن نظام (الأدوار) وهو التنظيم القبلي الذي أعطى المقاومة ضد الاستعمار في شرق البلاد شكلها واستمراريتها النساء من الانضمام لحركة المقاومة رفقة أقاربهن، ومنذ ذلك الحين ظهر مصطلح (النفاقة) للتعبير عن النساء اللواتي تركن بيوتهن لخدمة المجاهدين وعلاج الجرحى والمصابين منهم[٢٣]، وقد أشار المراسل الفرنسي جورج ريمون إلى هذا الدور فذكر بأنه شاهد أثناء زيارته لمعسكر المجاهدين في معسكر عين بو منصور بالقرب من درنة مجموعات من المجاهدين خصصت لكل منها امرأة مكلفة بطبخ طعامهم وغسل ملابسهم[٢٤].

كما ذكر الضابط التركي أنور باشا بأن القبائل العربية المتمركزة حول مدينة درنة كانت تبعث بالمجاهدين إلى معسكرات الجهاد ومعهم النساء لخدمتهم فكان كل عشرة مجاهدين مزودين بجمل يحمل خيمة لإيوائهم، ومصحوبين بامرأتين من قبيلتهم لتقوما بإعداد الطعام وغسل الثياب وتنظيف البنادق وتضميد الجراح،، وقد تعرضت أولئك النسوة للإصابة برصاص العدو أثناء قيامهن بمهامهن، فأصيبت إحدى المجاهدات بشظية في صدرها خلال اشتباك مع الإيطاليين في عين بو منصور في١٨ ديسمبر عام١٩١١م أثناء قيامها بإذكاء حماس المحاربين، واستشهدت ثلاث نساء في شهر يوليو١٩١٢م نتيجة القصف الإيطالي على هذا المعسكر[٢٥]، وكان دور النساء في هذه المعسكرات يتمثل في إعداد الطعام والملابس ومد المجاهدين بالسلاح والعتاد والماء، ومداواة الجرحى ونقل الشهداء من ساحة المعركة، كما قامت بعض النسوة بدور استخباراتي يتمثل في نقل أخبار وتحركات العدو إلى المجاهدين[٢٦]، وقد أعرب أنور باشا عن إعجابه بالنساء الليبيات وببساطتهن وتواضعهن وقوة شخصياتهن وقدرتهن على التحمل[٢٧].

إلى جانب هذا الدور لعبت النساء دورًا معنويًا في ساحات الجهاد يتمثل في الرفع من الروح القتالية لدى المجاهدين وشد أزرهم، ومن الأمثلة على ذلك ما قامت به نساء عيت (فرع) مريم من قبيلة العبيدات عندما أصيب شيخ القبيلة المبري المريمي أثناء تصديه للقوات الإيطالية التي كانت تحاول احتلال منطقة قصر الناظورة بالقرب من طبرق في ديسمبر عام ١٩١١م، ولما رأى أفراد القبيلة شيخهم صريعًا كادت عزائمهم تخور غير أن نسائهم كن ورائهم يلهبن حماسهم، فما كان منهم إلا أن هاجموا العدو وأعملوا فيه أسلحتهم[٢٨]، وقد أشاد الضابط التركي (خليل مظفر بي) بما قامت به نساء المجاهدين في منطقة ترهونة خلال عام١٩١٢م، ووصف للصحفي جورج ريمون موقفهن في مقاومة الغزو الاستعماري قائلاً:(...وتصحب المجاهدين نسوتهم، حيث يقفن فوق قمم التلال والروابي مطلقات أثناء التحام رجالهن مع العدو زغاريد حادة هي زغاريد الفرح والتشجيع والإعجاب بهم، فلا يتراجع منهم أحد وقد سلطت عليه النساء أنظارهن بل إن الكثيرات منهن يقاتلن معهم، في حين تتطوع أخريات بنقل الماء لسقي الرجال على خط النار الأول، أو نقل الشهداء حيث يقصينهم عن ميدان المعركة ويتحلقن حول جثثهم الطاهرة يندبن ويصرخن ...)[٢٩].

وكانت الأهازيج والأشعار التي ترددها النساء في ساحات المعارك مصدرًا لبث الحمية والفخر في نفوس المجاهدين، وقد وصف أنور باشا وصول موكب يضم ثلاثة آلاف من محاربي قبيلة البراعصة إلى معسكر القتال بالظهر الحمر قرب درنة في يناير عام ١٩١٢م، فقال:(تقدم ركب المقاتلين عدد من النسوة العربيات يترنمن بالأغاني الحماسية الشجية، وأعقبهن زوجات الشيوخ والحسناوات من الفتيات من شتى القبائل على

ظهور الجمال، وأخذ المقاتلون الفرسان يتسابقون بخيلاء خلف هذا الركب المهيب)[٣٠]، كما ذكر جورج ريمون بأنه قد سمع وهو يتجول في مضارب قبيلة سديدي (العواقير) غناء متناوب بين امرأتين إحداهما من قبيلة سديدي (من فروع العواقير) والأخرى من قبيلة المغاربة، وقد ترجم له الضابط عزيز المصري كلمات المرأتين التي كانت تدور حول معركة الزريريعية، وكانت كلتاهما تتفاخر باستبسال رجال قبيلتها في تلك المعركة التي خاضوها ضد الإيطاليين محاولة أن تضفي عليهم من شيم البطولة أكثر من الأخرى، وأشار عزيز المصري إلى إحدى المرأتين قائلاً بأنها اشتهرت في معركة الزريريعية بأهازيجها الشعبية وقد عرضت نفسها للخطر في ساحة المعركة وهي سادرة في الشدو بملحمتها البطولية حتى تلقت رصاصة فجرحتها جرحًا بليغًا، واعتبر جورج ريمون أن هذه الأهازيج والأغاني البدوية ليست سوى صدى بعيد لشعر الفخر الذي عرفه العرب في العصر الجاهلي وبداية العصر الإسلامي عندما كان الشاعر إنسانًا ملهمًا لقبيلته و لكلماته من الفصاحة وقوة البيان تأثيرًا قويًا في نفوس الناس[٣١].

وقد برزت شاعرات ليبيات جسدن حركة المقاومة في أشعارهن، اشتهرت منهن الشاعرة صالحة الطويلية والشاعرة داروها العبار والشاعرة أم الخير عبد الدائم شاعرة معتقل البريقة التي عبرت في أشعارها عن الواقع المرير الذي عاشه السكان المعتقلون في معتقلات الإبادة الجماعية، ووصفت الأوضاع المأساوية في المعتقلات قائلة:

لسلام يا مولاي ضعفن أحوالهم
وضاقت وسيعات الخلا من قبورهم[٣٢]

ووصفت إدارة الضابط الإيطالي باريلا للمعتقل قائلة:

حكمك جاير يا باريله فنى المال ورق العيلة
جضينا من الحكم الجاير والسوط اللي ديما عايل
ضديتك رعيان سلايل واتحارب في ناس رعية
ماسكنا في بو مختار اللي كاد أركان الحربية
سخر لك في الجو ثقيلة واقطع يدك يابريلة[٣٣].

والشاعرة سالمة ملاس الفاخري التي رثت المجاهد عمر المختار وصورت في أبياتها مشهد إعدامه[٣٤]

وعلى الرغم من أن الدور الرئيس للمرأة في حركة الجهاد كان يتمثل في الإمداد والدعم المعنوي، وأن حمل السلاح كان منوطًا بالرجال إلا أن بعض المصادر قد أشارت إلى مشاركة النساء في القتال في المعارك، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الصحفي جورج ريمون بأن امرأة من قبيلة النوايل تدعى سليمة بنت مقوس اشتهرت باشتراكها في المعارك التي نشبت مع الإيطاليين بالقرب من طرابلس، وقد تعرضت للإصابة بالرصاص في صدرها ونقلت إلى مضارب قبيلتها لتلقي العلاج، وأنها عادت بعد شفائها لتأخذ مكانها من جديد في صفوف المجاهدين، وقد أعجب بول تريستان مراسل جريدة (المرسيلي الصغير) الصادرة في مرسيليا بشجاعة هذه المرأة فأهداها حسامًا، كما أشار إلى أنه أثناء وجوده بمعسكر بن غشير عام١٩١٢م انضمت اثنتا عشر امرأة محاربة من فزان إلى صفوف المجاهدين[٣٥].

وقد ذكر المجاهد عثمان عبد السلام العبار الذي شهد معركة سلوق بأن النساء قاتلن في تلك المعركة[٣٦]، كما تحدث المجاهد علي أمبارك اليمني عن مشاركة المرأة الليبية القتال ضد العدو فيقول:"(اشتبك المجاهدون مع الإيطاليين قرب المرج ، وكانت مع المجاهدين زوجة المجاهد عيسى الوكواك وتدعى مبروكة تمتطي حصانًا وعندما حمى وطيس المعركة تقدمت مبروكة بجوادها وسلاحها وشاركت المجاهدين القتال...)[٣٧]، وقد وردت أسماء عدد من المجاهدات ضمن الشهداء الذين سقطوا في المعارك ومنهم على سبيل المثال المجاهدة معلومة الهنداوي التي استشهدت يوم معركة مراوة بمنطقة الجبل الأخضر عام ١٩٢٤ م والمجاهدة أم حلاط التي سميت بهذا الاسم لأنها كانت تضع حلاط أي الوشاح حامل الذخيرة على وسطها مثل الرجال[٣٨]، والشهيدة مبروكة عبد الرحمن التي استشهدت مع زوجها الشهيد حسن الصديق المسماري في معركة وادي السانية عام ١٩٣٠ م[٣٩].

٢/٢-الدور الاقتصادي والاجتماعي

على الصعيد الاقتصادي كان دور المرأة في الحفاظ على استمرار الحياة الطبيعية في القبيلة أثناء الحرب وتوفير الدعم اللوجستي للمقاومة هامًا، ومثل هذا الدور دافعًا لاستمرار حركة الجهاد[٤٠]، فقامت النساء وخاصة في الريف والبادية بتوفير احتياجات أسرهن في ظل غياب

الرجال في معسكرات الجهاد، وبذلن جهدًا مضاعفًا لحرث الأرض وبذرها وحصد المحصول وطحن الحبوب ورعي الحيوانات، وكان العبء الأكبر عليهن في إعالة أسرهن وإمداد المجاهدين بالماء والغذاء، ونستطيع أن نتصور مدى ثقل هذا العبء عندما نتعرف على أدوات القيام بهذه الأعمال فالمحراث كان يدويًا تجره الدواب وكانت المرأة البدوية تقوم بالحصاد يدويًا بالمناجل ، وتطهو الطعام على نار الحطب الذي تقوم بجلبه بنفسها، وإلى جانب ذلك كان عليها أن تقاوم سياسات العدو لتجويع السكان بحرق المحاصيل وردم الآبار.[٤١]

وعلى الصعيد الاجتماعي قامت المرأة بواجب الرعاية الاجتماعية لأطفالها ولأقاربها من المسنين والعجزة[٤٢] وبحمايتهم، وفي حالة حدوث الاشتباكات بالقرب من المضارب كن يقمن بترحيل النجع قبل وصول العدو، وتقول إحدى المجاهدات: (نحن النساء كنا نسوق الإبل ونقوم برعاية الأطفال و"نوكل" المجاهدين...) كما شاركن في حراسة مضارب القبيلة وقد ذكرت إحدى المجاهدات إن بعض النساء كن يقمن بحراسة النجع، وإخفاء المجاهدين عندما كانوا يأتون من أجل استقصاء الأخبار عن العدو والاطمئنان على أسرهم والتزود بالطعام والشراب، وقد تتعرض النساء للتعذيب والأسر في حالة إيواء المجاهدين ويعاقبن بالجلد والشنق[٤٣].

وفي ظل غياب الرعاية الصحية كانت المرأة تقوم بدور كبير في هذا الجانب، فكانت تقوم بمعالجة المصابين في الحرب إلى جانب معالجة الكثير من الأمراض التي يتعرض لها أقاربهن بالوسائل التقليدية، وفي الغالب كانت تتولى هذه المهمة النساء المتقدمات في السن من ذوات الخبرة في الطب الشعبي ويطلق علي من تقوم بهذا الدور اسم (طبيبة العرب) وتقوم بعلاج الأمراض باستخدام الأعشاب والخرت والكي وغيرها من الأساليب التقليدية[٤٤].

ونظرًا لأهمية الدعم الذي قدمته المرأة الليبية لحركة الجهاد فقد تعرضت لعمليات الاعتقال والأسر والتعذيب والنفي وحكم على العديد منهن بالإعدام والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد اعتقل الإيطاليون يوم معركة الحقيفات بمنطقة سلوق(١٩١٥ م) أكثر من ستين امرأة وقاموا بسجنهن بسجن جردينة[٤٥]، ويروي الرحالة الدانمركي كنود هلمبو الذي زار ليبيا في عام ١٩٣٠ م أن المحكمة العسكرية في درنة حكمت بالإعدام على إحدى نساء المدينة بتهمة تزويد المجاهدين بالمؤن وقد تم تنفيذ الحكم فيها[٤٦]، ويذكر أحد المجاهدين أن الإيطاليين هاجموا نجعهم وقتلوا والده وإحدى أخواته فما كان من والدته إلا أن ضربت الجندي الإيطالي بالحجارة فأطلق عليها النار وأصيبت في كتفها ثم أخذها وأخته الأخرى معه ولم يراهما بعد ذلك، وكان الإيطاليون يأخذون النساء من عائلات المجاهدين رهائن ويتم تهديد ذويهن بتعذيبهن والاعتداء عليهن وشنقهن إذا لم يرضخ المجاهدين ويسارعوا إلى تسليم أسلحتهم، من الأمثلة على ذلك اعتقال المجاهدة خزنة عبد السلام الكزة لإرغام والدها على الحضور من مصر وتسليم نفسه للإيطاليين، كما اعتقلت زوجة المجاهد إبريك اللواطي وابنته بعد هربه إلى مصر وأعدمتا[٤٧]، وقد استنكر الضابط الإيطالي جوزيبي دايودياتشي الذي كان يشغل منصب متصرف الجبل عام ١٩٣٠م في رسالة له سلوك الجنود الإيطاليين الذين كانوا يطلقون النار على النساء والأطفال وذكر بأن مجموعة من الضباط قامت بإطلاق النار على ٣٦ امرأة وطفل في أحد المعسكرات[٤٨].

وفي معتقلات الإبادة التي أقامها الإيطاليون لقبائل برقة خلال الفترة ١٩٢٩-١٩٣٤م تعرضت النساء للضرب والتعذيب، وقد جسد الشاعر الشعبي رجب بوحويش معاناة النساء في معتقل سلوق فيقول:

ما بي مرض غير ضرب الصبايا وجلودهن عرايا
ولا يقعدن يوم ساعة هنايا
ولا يختشوا من بنات السمايا
يقول يارزيلة وعيب قبيح ما يرتضى للعويلة[٤٩]

ومن الجدير بالذكر أن عمليات النفي إلى الجزر الإيطالية لم تستهدف الرجال فقط بل طالت النساء أيضًا، ففي عام ١٩١٢م وصلت مجموعة من المنفيين الليبيين من بينهم خمسين امرأة، وقد خصص للنساء سجن (تراني) في مدينة باري بمقاطعة بوليا في جنوب ايطاليا[٥٠]، واستمرت عمليات النفي حتى نهاية الاستعمار الإيطالي، فقد قامت ايطاليا خلال الحرب العالمية الثانية بنفي أعداد

من الليبيين كرد فعل على مساندة الليبيين للقوات الانجليزية أثناء تقدمها في عام ١٩٤١م وعلى الهجمات التي تعرض لها المستوطنين الإيطاليين بعد انسحاب القوات الإيطالية، وكان من بين المبعدين إلى إيطاليا حوالي ثلاثمائة امرأة[٥١].

ثالثًا: الدور الريادي للمرأة الليبية

واجهت المرأة الليبية خلال النصف الأول من القرن العشرين الكثير من العوائق والتحديات التي أثرت على وضعها ودورها في المجتمع، فقد عاشت في مجتمع تقليدي محكوم بنسق من القيم المستندة على أفكار ومعتقدات متوارثة تقوم على تقييد حرية المرأة والهيمنة عليها[٥٢]، كما تأثرت أوضاع المرأة بالظروف السياسية والاقتصادية التي مرت بها البلاد خلال هذه الفترة التاريخية كالاستعمار والفقر والأمية، فاحتلال ليبيا من قبل القوى الاستعمارية، والحروب التي دارت رحاها على الأراضي الليبية أثر على الأوضاع والنظم الاجتماعية والثقافية في المجتمع وانعكس ذلك على دور المرأة، وكان للأوضاع الاقتصادية دورًا هامًا في تشكيل المجتمع الليبي فليبيا كما وصفها تقرير للأمم المتحدة كانت حتى الخمسينيات من القرن الماضي مثالاً للفقر في صورته المتطرفة وقد شكل ذلك عائقًا أمام المرأة وقدرتها على التطور[٥٣].

وعلى الرغم من هذه الظروف والتحديات إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور رائدات ليبيات أسهمن في كسر حالة الجمود والتخلف التي فرضتها العادات والتقاليد الراسخة في المجتمع، فقد استطاعت بعض نساء المدن المعروفات في ثلاثينيات القرن الماضي أن يقتحمن بصعوبة بعض مجالات الحياة العامة كالتعليم والتمريض، وظهرت محاولات لأقلام نسائية كتبت مقالات اجتماعية نشرت في بعض الصحف مثل صحيفة طرابلس الغرب ومجلة ليبيا المصورة[٥٤]، وبصفة عامة يمكن القول بأن نشاط المرأة في هذه الفترة كان نشاط نخبة أو نشاط قلة اعتمد على المبادرات الفردية من أجل توسيع دائرة المشاركة و فتح المجال أمام الأخريات[٥٥]، ومن أبرز الأمثلة على الرائدات الليبيات خلال النصف الأول من القرن العشرين:

٣/١-حميدة طرخان (العنيزي)

هي حميدة محمد طرخان (١٨٩٢-١٩٨٢م) رائدة الحركة النسائية في ليبيا، ولدت في مدينة بنغازي ودرست فيها ثم أوفدت من قبل الإدارة التركية في عام١٩١١م إلى إسطنبول للدراسة بالمعهد العالي للتدريس وبعد أربع سنوات أنهت دراستها، وحفظت القرآن الكريم وأتقنت عدة لغات إلى جانب اللغة العربية منها التركية والفرنسية، وعادت إلى أرض الوطن في عام ١٩١٤م، وتزوجت من السيد عبد الجليل العنيزي، وكانت تحمل رسالة تود تحقيقها فقد أدركت أن التعليم هو السبيل الوحيد للنهوض بالمرأة وتحويلها إلى عضو فاعل في المجتمع، وانطلاقًا من قناعتها هذه عزمت على فتح باب التعليم أمام من يرغب في ذلك من البنات الصغيرات، ودعت قريباتها وجاراتها إلى إرسال بناتهن إلى دارها ليتعلمن القراءة والكتابة، وقد لبت دعوتها بعض الأسر[٥٦].

بدأت حميدة خطوتها الأولى في مجال التعليم خلال عامي ١٩١٧م و١٩١٨م، وكان عملها تطوعيًا بحتًا فافتتحت فصلاً دراسيًا في بيتها وفرشته بالحصر، واتخذت من المدرسة منطلقًا لتحقيق رسالتها للنهوض بالمرأة ثقافيًا واجتماعيًا، وكانت تشتري من مالها الخاص بعض ما تحتاجه الفتيات الفقيرات، وأصبح اسم الخوجة حميدة- كما كانوا ينادونها- معروفًا لدى معظم النساء في المدينة، وأدخلت خريجات حميدة روحًا جديدة على منازلهن فازدانت جدران الغرف باللوحات الجميلة التي قامت بتطريزها التلميذات في المدرسة، وفي عام ١٩٢٤م افتتحت السلطات الإيطالية مدرسة للبنات في بنغازي لتعليم الفتيات اللغة الإيطالية والعربية وفن الخياطة والتطريز وصناعة السجاد، فالتحقت حميدة بها وأسند إليها تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، وقد التحق بها في بادئ الأمر عدد قليل من الفتيات لأن الناس لم تتقبل بعد فكرة تعليم الفتيات، فكانت حميدة تذهب إلى الآباء والأمهات لإقناعهم بالسماح لبناتهم بالتعلم، ولم يكن هذا الأمر سهلاً ولكنها امتلكت قدرة كبيرة على الإقناع واستخدمت الحجج والبراهين لحثهم على ذلك، وكان عليها أن تتجاوز مهمتها كمعلمة وتتحول إلى داعية لتعليم الفتاة الليبية، ثم افتتحت مدرسة أخرى في منطقة بنغازي القديمة وكان أول من التحقت بها السيدة شبرا طراخان شقيقة حميدة والسيدة سمية حجلاكي، وأسندت إليهما مهمة تعليم الفصل الأول والثاني، وفي هذه الأثناء استمرت حميدة في افتتاح الفصول الدراسية أو المدارس

البسيطة والتوسع في نشر العملية التعليمية لفتح المجال أمام المزيد من الطالبات، فأنشأت مدرسة بعدة فصول في منطقة باب البحر أو البلاد، وقد خرجت تلك المدارس مجموعة لا بأس بها من الطالبات تحصلن على شهادة الابتدائية باللغتين الإيطالية والعربية، وانخرط أغلبهن في مهمة التدريس، ومن أولئك المعلمات خديجة الجهمي ونورية الأزرق وفريحة طراخان والسيدة فاطمة بن غلبون وحميدة بن عامر(٥٧).

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية توقف التعليم بشكل كامل نتيجة لتعرض بنغازي للغارات الجوية وعمليات الكر والفر بين الدول المتصارعة، وإثر هزيمة إيطاليا ووضع البلاد تحت إشراف حكومتي الإدارة وعودة بعض الأسر الليبية من المهجر حدث اهتمام محدود بتعليم الفتيات من قبل الأهالي(٥٨)، وقد أسهمت السيدة حميدة في ذلك بنصيب كبير منادية برسالتها الإنسانية المتمثلة في محو الأمية المتفشية في مجتمع النساء على وجه الخصوص، وأعيد افتتاح المدارس في بنغازي، فتأسس أول فصل ابتدائي للذكور في عام ١٩٤٣م واتبعه إنشاء فصل للفتيات، ثم تم افتتاح مدرستين للبنات في بنغازي إحداهما في البركة أسندت إدارتها إلى حميدة العنيزي، فكانت أول سيدة تتولى إدارة مدرسة خلال فترة حكومة الإدارة، وقد تخرج من هذه المدرسة العديد من الفتيات اللاتي واصلن دراستهن فيما بعد وقدمن خدمات قيمة للمجتمع(٥٩).

٢/٣-جميلة الإزمرلي

جميلة مصطفى صبري الإزمرلي(١٨٩٢-١٩٦٥) معلمة وكاتبة من مواليد مدينة طرابلس، وتعد من أوائل المعلمات في ليبيا إلى جانب السيدة حميدة العنيزي، وكانت من السيدات اللواتي يرجع الفضل لهن في حث الأسر على تعليم البنات وإدخالهن المدارس(٦٠)، وتعد من أبرز نساء طرابلس ثقافةً وتعليمًا فقد تلقت تعليمها في تركيا حيث درست بالمدرسة الرشدية بتركيا إبان العهد العثماني، ثم درست بدمشق في معهد المعلمات وتحصلت على دبلوم المعلمات(٦١)، وعملت كمعلمة لفترة قبل عودتها إلى طرابلس وهو ما مدها بخبرة واسعة في مجال التعليم، وأوقفت حياتها على تعليم البنات وعلى الرغم من كل الصعوبات التي واجهتها كانت تحث الفتيات على التشبث بالتعليم والذهاب إلى المدارس حتى ولو بالفراشية (الزي الليبي)، وكانت السيدة جميلة أيضًا كاتبة ولها بعض المقالات التي كتبتها في أواخر الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات، اتسمت بالوعظ والإرشاد وتناولت العادات والأخلاق(٦٢)، اشتغلت عبر مسيرتها كأستاذة في فن التطريز فضلاً عن كونها من رائدات العمل التطوعي(٦٣).

٣/٣-زكية عبد الله شعنانة

من مواليد مدينة طرابلس عام ١٨٩٥م، والدها الشيخ عبد الله شعنانة إمام جامع الدروج بالمدينة القديمة، حفظت القرآن الكريم على يد الشيخ مختار حورية، وتعلمت اللغتين التركية والإيطالية إلى جانب صناعة السجاد والصناعات اليدوية الأخرى كالحياكة والتطريز بجميع أنواعه، وبرعت فيها إلى درجة أن أعمالها بيعت في بريطانيا، وهى أول سيدة ليبية تعمل كمعلمة في مدينة طرابلس في عام ١٩١٧م(٦٤).

٤/٣-زعيمة الباروني

المعلمة والأديبة زعيمة (١٩١٠-١٩٧٦م)(٦٥) ابنة المجاهد والشاعر سليمان باشا الباروني، وهي واحدة من الرائدات اللواتي كن يحملن نظرة تقدمية فيما يخص حرية المرأة وتعليمها، ولدت في جادو بجبل نفوسة، وتلقت تعليمها الابتدائي في إسطنبول بتركيا، ثم أكملت دراستها باللغة العربية بعد عودتها من تركيا وأثناء تنقلها مع والدها بين الأقطار العربية، وكان لوالدها دور كبير في تعليمها وتثقيفها فقد عاشت معه في المهجر(٦٦)خلال فترة تنقله بين العراق التي مكث فيها لفترة(٦٧) ثم سلطنة عمان التي عمل بها والهند، ومما أسهم في زيادة ثقافتها أنها كانت تتمتع بشخصية منفتحة وتحب القراءة، وبعد وفاة والدها سنة ١٩٤٠م عادت إلى طرابلس مع عائلتها، وعينت في عام ١٩٥٠م كمدرسة في مرحلة التعليم الابتدائية(٦٨).

٥/٣-خديجة الجهمي

خديجة محمد الجهمي (١٩٢١-١٩٩٦) هي إحدى رائدات العمل الإذاعي والصحفي في ليبيا إلى جانب عملها كمعلمة، من مواليد مدينة بنغازي التحقت بالمدرسة الإيطالية في بنغازي وهى في السادسة من عمرها خلال الفترة من ١٩٣١-١٩٣٦م وحصلت على الشهادة الابتدائية، وتتلمذت على يد السيدة حميدة العنيزي وبديعة فليفلة، ألفت في طفولتها وهى في المرحلة الابتدائية

مجموعة كتب بسيطة كان عنوان أحدها(قالوا في المرأة) وهى عبارة عن أقوال جمعتها عن المرأة، وكتبت رسالة لموسوليني باللغة الإيطالية قالت فيها: (أنا معجبة بك كونك تريد توحيد بلادك- ولكن احتلالك لبلادي غير صحيح – ولابد أن تفكر كثيرًا كي تترك ليبيا لأهلها وتخرج منها وإلا سيأتي يوم سيكون جحيمًا على إيطاليا)، وبسبب هذه الرسالة قام رجال الاحتلال باستجواب والدها، عملت بمجال التدريس بعد حصولها على الابتدائية، ثم سافرت بعد ذلك مع والدها للقاهرة ودرست في مدرسة عابدين ضمن الفترة المسائية، ووصلت إلى الصف الثاني الثانوي- ويعرف في ذلك الوقت بشهادة الثقافة العامة- وكانت محبة للعلم ولإلقاء الشعر ونظمه وخاصة الشعر الشعبي وشجعها والدها على هذه الملكة، وكانت أول الأبيات التي نظمتها تتغنى بالعلم فقالت:

محل الشرف والعز نا نبيها
هي المدرسة يا خالقي داعيها
فيها تروق أفكاري علي
خوجتي نقرأ جميع أفكاري
أبجاه النبي والبيت والبخاري
تحفظ جميع اللي تعلم فيها

فأعجب والدها بكلماتها وأحضر لها شيخًا أزهريًا لتعليمها القرآن الكريم ومبادئ النحو، ومعلمة علمتها فنون الحياكة والتطريز، كما وفر لها الكتب والمجلات الإيطالية التي تعني بشئون المرأة والفنون الجميلة مما حبب إليها العمل الصحفي فيما بعد(٦٩)، وقد كتبت قصائد شعرية وأزجال تناولت فيها مواضيع مختلفة تعالج فيها المشاكل الاجتماعية في صورة كوميدية ساخرة ومنها قصيدة جزلية عن التقازة (العرافة) وعن تعدد الزوجات(٧٠).

٦/٣-صالحة ظافر المدني

من مواليد طرابلس(١٩٢٣-٢٠٠٨) هاجرت أسرتها في عشرينيات القرن الماضي من طرابلس إلى السعودية، وفي مكة حفظت القرآن الكريم في الكتاب وظلت بها لمدة أربعة عشر عامًا، وخلال الحرب العالمية الثانية سافرت مع والدها إلى روما، ثم عادت إلى طرابلس عام ١٩٤٥م وعملت كمعلمة، كتبت عدة مقالات نشرتها في جريدة طرابلس الغرب وكانت تدعو الفتيات إلى التعلم، وكانت أول سيدة طرابلسية ينطلق صوتها عبر أثير إذاعة الراديو المحلي العربي بمدينة طرابلس في٣ فبراير ١٩٤٩م في بيان حثت فيه الفتيات إلى الالتحاق بركب العلم والمعرفة وعدم الاستماع إلى أقوال الرجعيين(٧١).

خَاتِمَةٌ

في ختام هذا البحث نستخلص أن الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية التي مرت بها البلاد قد أثرت على حياة المرأة الليبية وعلى دورها في المجتمع بشكل كبير، ففي أواخر العهد العثماني تأثرت حياة المرأة بالثقافة التقليدية السائدة في المجتمع التي قيدت حريتها وحرمتها من الكثير من حقوقها، وفي العهد الإيطالي تأثرت أوضاع المرأة في ليبيا بالسياسات الاستعمارية كالمعتقلات الجماعية وحملات النفي والتهجير والعقوبات المختلفة إلى جانب سوء الأحوال الاقتصادية، كما قامت السلطات الإيطالية باستغلال تعليم الإناث كوسيلة للترويج لسياساتهم وثقافتهم داخل المجتمع الليبي وللتغلغل في الأوساط الشعبية الليبية، وكان للتطورات التي شهدتها البلاد بعد الحرب العالمية الثانية وعودة الأسر المهاجرة أثرها على حياة المرأة حيث أسهمت في رفع مستوى الوعي بأهمية تعليم المرأة مما أدى إلى تغيير بعض المفاهيم الاجتماعية السائدة في المجتمع المتعلقة بخروج المرأة للتعليم والعمل.

وقد تميزت هذه المرحلة التاريخية بمشاركة المرأة الليبية وخاصة في المناطق القبلية في حركة المقاومة الوطنية ضد الغزو الإيطالي، وعلى الرغم من أن المرأة قد لعبت دورًا استثنائيًا في هذا الجانب وأسهمت في تقديم الدعم المادي والمعنوي للمجاهدين في معسكرات الجهاد، وتولت مهمة العناية بأسرتها في غياب الرجل إلا أنه ذلك لم يسفر عن حصول المرأة على الكثير من حقوقها بسبب العوائق الأخرى التي عانت منها المرأة الليبية المتمثلة في تفشي الفقر والأمية.

إن ظهور التعليم الحديث في ليبيا في أواخر العهد العثماني وفي فترة الاحتلال الإيطالي على الرغم من محدوديته قد ساعد على ظهور الدور الريادي للمرأة الليبية وأسهم في بروز رائدات من نساء المدن عملن في مجالات التعليم والثقافة والإعلام مثل حميدة العنيزي وخديجة الجهمي وجميلة الإزمرلي وزعيمة الباروني وغيرهن، ولكن هذا الدور اقتصر على نخبة قليلة من النساء بسبب العادات والتقاليد ونتيجة للظروف التي مرت بها البلاد وقد كان لهذه القلة من السيدات دورًا بارزًا في تشجيع النساء على كسر القيود الاجتماعية والإقبال على التعليم والخروج للعمل.

الاحالات المرجعية:

(١) تيسير بن موسى، **المجتمع الليبي في العهد العثماني الدار العربية للكتاب**(١٩٨٨) ص ص٥٦-٦١.
(٢) بهية القمودي، **مظاهر التغير في وظائف الأسرة الليبية**، المجلة الجامعة، العدد١٦، المجلد١ (فبراير ٢٠١٧) ص١٢٣.
(٣) رأفت غنيمي الشيخ، **تطور التعليم في ليبيا الحديثة**، دار التنمية للنشر والتوزيع والإعلان(١٩٧٢) ص ١٦.
(4) Emrys. L.Peters, The Bedouin of Cyrenaica: Studies in personal and corporate power, Cambridge university press (Cambridge,1991)PP.244-246.
(٥) تيسير بن موسى، **المجتمع الليبي في العهد العثماني**، ص٥٨.
(٦) عبد القادر جامي، **من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى**، ترجمة محمد الأسطى، دار المصراتي (طرابلس،١٩٧٤) ص١١٨.
(٧) بهية القمودي، **مظاهر التغير في وظائف الأسرة الليبية**، ص ص١٢٢، ١٢٣.
(٨) تيسير بن موسى، **المجتمع الليبي في العهد العثماني**، ص١٥٢.
(٩) عقيل محمد البربار، **دراسات في تاريخ ليبيا الحديث**، منشورات ELGA (فاليتا، ١٩٩٦) ص٣٧.
(١٠) أم العز الفارسي، **المرأة الليبية ونسج الهوية، دراسة في أثر التحولات التاريخية على تكوين الهوية**، https;//daamdth.org، ص ٣٦
(11) Erica Moretti, "Memorie private di infanzie pubbliche: i bambini libici tra colonia e campi vacanze" Colonialismo e Identità nazionale, Editors Valeria Deplano and Alessandro Pez,(Milano, 2015)p. 138.
(12) Katrina Elizabeth Anderson, Women, Resistance and the creation of new gendered Frontiers in the making of modern Libya, 1890- 1980, a published doctoral, dissertation, Graduate school of Arts and Sciences, Georgetown University, (Washington, D .C.,15 November, 2017) p.138.
(١٣) رأفت غنيمي الشيخ، **تطور التعليم في ليبيا الحديثة**، ص١٩٩.
(14) Katrina Elizabeth Anderson, Women, Resistance and the creation of new gendered Frontiers,p.142.
(١٥) صلاح الدين السوري، **ليبيا والغزو الثقافي الإيطالي، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي ١٩١١-١٩٤٣**، الجزء الثاني، ط٢، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، ١٩٩٨) ص٤٦٤.
(16) Katrina Elizabeth Anderson, Women, Resistance and the creation of new gendered Frontiers, pp,154-161.
(١٧) مجيد خدوري، **ليبيا الحديثة دراسة في تطورها السياسي**، ترجمة نقولا زيادة، د.ط، دار الثقافة (بيروت، ١٩٩٦)، ص ٦٠-٦١.
(١٨) نقولا زيادة، **محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال**، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية (القاهرة،١٩٥٨) ص١٢٢-١٢٨.
(١٩) رأفت غنيمي الشيخ، **تطور التعليم في ليبيا الحديثة**، ص ٢٨.
(٢٠) راسم رشدي، **طرابلس الغرب في الماضي والحاضر**(طرابلس،١٩٥٣) ص١٤١.
(٢١) رأفت عنيمي الشيخ، **تطور التعليم في ليبيا الحديثة**، ص ٢٨.
(٢٣) يوسف البرغثي، **حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر١٩٢٧-١٩٣٢**، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، ٢٠٠٠) ص ٢٠٠، ٢٠١.
(٢٤) أم العز الفارسي، **المرأة الليبية ونسج الهوية**، ص٣٤.
(٢٥) جورج ريمون، **من داخل معسكرات الجهاد**، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، ط٢، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان (طرابلس،١٩٨٣) ص٢٦٢.
(٢٦) أنور باشا، **مذكرات أنور باشا**، ترجمة عبد المولى صالح الحرير، منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي (طرابلس، ١٩٧٩) ص٥٨-٦١.
(٢٧) زينب محمد زهري، **موسوعة روايات الجهاد**، سلسلة الروايات الشفوية، المجلد رقم ٣٧، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس،١٩٩٥) ص٣٥.
(٢٨) أنور باشا، **مذكرات أنور باشا**، ص٩٧.
(٢٩) المصدر السابق، ص٣٧٥.
(٣٠) جورج ريمون، **من داخل معسكرات الجهاد**، ص١٧٢.
(٣١) أنور باشا، **مذكرات أنور باشا**، ص٦٥.
(٣٢) جورج ريمون، **من داخل معسكرات الجهاد**، ص٣٠٩.
(٣٣) معنى الأبيات: أن الناس في معسكرات الاعتقال قد تردت أحوالهم، وكثرت الوفيات بينهم حتى ضاقت بها الأرض الواسعة، أنظر يوسف البرغثي، حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر١٩٢٧-١٩٣٢، ص١٠٧.
(٣٤) معنى الأبيات: أن حكمك الظالم يا باريلا قد تسبب في إفناء المال ونقص الرجال، وأنهم قد ملوا من الحكم الجائر والسوط الذي يلهب جلود المعتقلين، وأن باريلا قد ترك الفرسان وصب غضبه على العزل محملاً إياهم ما يقوم به عمر المختار، الذي وصفته بأنه قد أربك وحير أركان الحرب الإيطاليين، ثم دعت على باريلا بأن تصيبه قنبلة من الجو تقطع يده جزاء ما اقترفت في حق الأبرياء، انظر مصطفى سعد الهاين، **الشهيد عمر المختار في الشعر الشعبي**، الندوة العلمية سبتمبر ١٩٨١، مركز دراسة جهاد الليبيين (طرابلس، ١٩٨٣) ص ص ١٥٨،١٥٧.
(35) يوسف البرغثي، **حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر١٩٢٧-١٩٣٢**، ص٣٠٥.
(٣٦) جورج ريمون، **من داخل معسكرات الجهاد**، ص١٢٥.
(٣٧) رباب أدهم، **موسوعة روايات الجهاد**، سلسلة الروايات الشفوية، المجلد رقم ٢٩، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس،١٩٩١) ، ص٢٣٦.

(٣٨) يوسف البرغثي، **حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر١٩٢٧-١٩٣٢**، ص ١٠٢.

(٣٩) زينب محمد زهري، **موسوعة روايات الجهاد**، ص٣٥.

(٤٠) المصدر السابق، ص٢٥٥.

(41) Katrina Elizabeth Anderson, Women, Resistance and the creation of new gendered Frontiers,p.249.

(٤٢) زينب محمد زهري، **موسوعة روايات الجهاد**، ص ٤٠.

(٤٣) يوسف البرغثي، **حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر١٩٢٧-١٩٣٢**، ص ١٠٢.

(٤٤) زينب محمد زهري، **موسوعة روايات الجهاد**، ص٣٨، ٣٩.

(٤٥) المصدر السابق، ص٤٥.

(٤٦) المصدر السابق، ص٣٥.

(٤٧) كنود هولمبو، **مواجهة الصحراء مغامرة عبر شمال أفريقيا**، ترجمة حامد محمد مراد، مؤسسة جسور للخدمات الثقافية (٢٠٠٦) د.ص.

(٤٨) زينب محمد زهري، **موسوعة روايات الجهاد**، ص ص٣٥-٣٨.

(49) Chiara Volpato, La violenza contro le donne nelle colonie italiane,Prospettive psicosociali di analisi, DEPORTATE ESULI PROFUGHE,rivista telematica di studi sulla memoria femminile,N10,Universita' Ca' Foscari(Venezia,2009),p113.

(٥٠) زينب محمد زهري، **موسوعة روايات الجهاد**، ص٣٧.

(51) Francesca Di Pasquale, "The Other At home: Deportation and transportation of Libyans to Italy during the colonial era(1911-1943), International review of Social History,vol.63, International Institute Voor Social Geschienis, published on line by Cambridge University Press (19 June 2018).p.p,212-215.

(٥٢) يوسف البرغثي، **حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر١٩٢٧-١٩٣٢**، ص١٦٧.

(٥٣) تيسير بن موسى، **المجتمع الليبي في العهد العثماني**، ص٥٧.

(٥٤) آمال سليمان العبيدي، **"الحركات الاجتماعية النسوية في البلاد العربية تقرير مركز المرأة العربية"** ٢٠٠٣، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا)، (بيروت،٢-٥ ديسمبر٢٠٠٣) د.ص.

(٥٥) **الحركة الثقافية للإبداع النسائي في ليبيا**، مجلة اللغة العدد الرابع الكتاب الثاني (أكتوبر- ديسمبر٢٠١٦) ص ٢٠

(٥٦) آمال سليمان العبيدي، **الحركات الاجتماعية النسوية في البلاد العربية**، د.ص.

(٥٧) أمينة حسين بن عامر، **المرأة الليبية إبداع وإشعاع، حميدة العنيزي ونصف قرن من الريادة التعليمية في ليبيا**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية(طرابلس،٢٠٠٥) ص ص٢٩، ٣٠.

(٥٨) المرجع السابق، ص ص٣٢-٣٦.

(٥٩) رأفت غنيمي الشيخ، **تطور التعليم في ليبيا الحديثة**، ص٢٧٥، ٢٨٠.

(٦٠) أمينة حسين بن عامر، **المرأة الليبية إبداع وإشعاع**، حميدة العنيزي ونصف قرن من الريادة التعليمية في ليبيا، ص٣٨.

(٦١) سالمة شنيب، **رائدات ليبيات**، آزول برس https://azulpress.ma//، ٧ أبريل ٢٠٢٠.

(٦٢) **موسوعة عريق**، جميلة الإزمرلي، https://areq.net

(٦٣) سالمة شنيب، رائدات ليبيات.

(٦٤) **موسوعة عريق**، جميلة الإزمرلي.

(٦٥) زكية عبد الله شعنانة، موقع tabib-hishamtabib,https:/worldpress.com.march28,2022.

(٦٦) تُعَدّ السيدة زعيمة الباروني أول أديبة ليبية، وتميزت بأسلوبها القصصي الشيق، وتمثل فترة الاستقلال مرحلة خصبة لإنتاجها الأدبي، ومن أهم مؤلفاتها في تلك الفترة قصة تتناول الجنوب الليبي بعنوان فزان البعيد ولها أيضاً مجموعة قصصية نشرت في جريدة صوت المربي وجريدة هنا طرابلس الغرب، وصدرت لها في عام ١٩٥٨م مجموعتها من" القصص القومي"، ولذلك تعتبر رائدة في كتابة القصة القصيرة في ليبيا، ومن أهم إسهامات هذه الأديبة هو توثيقها وتأليفها للعديد من الكتب حول والدها الزعيم سليمان الباروني، فوزي عمر الحداد، **دراسات نقدية في القصة الليبية**، منشورات المؤسسة العامة للثقافة (٢٠١٠) ص١٨، ١٠٤، وكذلك سالمة شنيب، رائدات ليبيات.

(٦٧) المرجع السابق

(٦٨) الطاهر الزاوي، **أعلام ليبيا**، ط٣، دار المدار الإسلامي (بيروت، ٢٠٠٤) ص١٧٤.

(٦٩) سالمة شنيب، **رائدات ليبيات**.

(٧٠) التحقت خديجة الجهمي للعمل بإذاعة بنغازي المسموعة كمذيعة بعد الاستقلال في عام١٩٥٤م، وقدمت العديد من البرامج خاطبت من خلالها المجتمع كافةً مثل أضواء على المجتمع وصور من الماضي، كما تولت رئاسة تحرير مجلة المرأة التي صدرت في عام ١٩٦٥م التي أصبح اسمها مجلة البيت فيما بعد، وإلى جانب مجلة المرأة أصدرت مجلة الأمل وهي مجلة خاصة بالطفل، أمينة حسين بن عامر، **خديجة الجهمي نصف قرن من الإبداع**، د.ط، مجلس الثقافة العام (القاهرة، ٢٠٠٦) ص٢٥، ٦٥، ٦٦.

(٧١) المرجع السابق، ص ص٢٨-٣٢.

(٧٢) فاطمة غندور، **أول مقابلة مع رئيسة جمعية النهضة الطرابلسية ١٩٥٧**، موقع منتديات القانون الليبي، 9-11-2008. info@lawoflibya.com

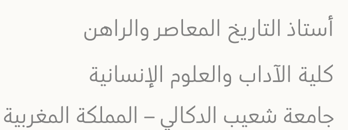
دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

حصيلة تجربة العدالة الانتقالية في المغرب
تقييم ومساءلة نقدية



قاسم الحادك



أستاذ التاريخ المعاصر والراهن
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة شعيب الدكالي – المملكة المغربية

مُلَخَّص

تحفل الممارسة الدولية في مجال العدالة الانتقالية على امتداد مناطق مختلفة من العالم بتجارب متنوعة ومتباينة من حيث سياقاتها وخلفياتها وأهميتها، بيد أن تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة في المغرب، وإن كانت تندرج في السياق التاريخي نفسه الذي تبلورت فيه هذه التجارب، إلا أنها أتت متمايزة عنها، واستأثرت بالكثير من خصوصيات المغرب السياسي بمختلف معاركه وصراعات قواه الحية مع النظام السياسي السائد طوال العقود التي أعقبت الاستقلال عام ١٩٥٦ إلى غاية تسعينيات القرن الفائت، وآلياته في التدبير السياسي وما عرفه من انتقال سياسي بلغ أوجه مع حكومة التناوب التي أوصلت المعارضة إلى السلطة سنة ١٩٩٨. تروم هذه الدراسة تقييم منجز تجربة العدالة الانتقالية في المغرب، ومساءلة حصيلتها الإجمالية، عبر وضعها في سياقها السياسي والتاريخي الخاص، واستحضار جملة من المعطيات الحاسمة في فهم تميزها وتفردها مقارنة بغيرها من التجارب الدولية والعربية. والوقوف عن كثب على ما تم إنجازه وتحقيقه في مسار تسوية ماضي الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، ووضع اليد على بعض مكامن الضعف وجوانب النقص.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٩ يناير ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ١٨ فبراير ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

هيئة الإنصاف والمصالحة؛ العدالة الانتقالية؛ انتهاكات حقوق الإنسان؛ تاريخ المغرب الحديث؛ تاريخ المغرب المعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325613

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

قاسم الحادك. "حصيلة تجربة العدالة الانتقالية في المغرب: تقييم ومساءلة نقدية".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٢١٨ – ٢٢٨.

Corresponding author: hadeg100@hotmail.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

تأسست هيئة الإنصاف والمصالحة عام ٢٠٠٤ كآلية حقوقية وسياسية تنشد المصالحة مع الماضي السياسي، وطي صفحاته القاتمة التي اقترنت بانتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان، وتجاوز مآسي هذه المرحلة ورد الاعتبار إلى ضحاياها وتضميد جروحهم. عهد برئاسة الهيئة لأحد ضحايا هذه الانتهاكات، الأمر الذي أضفى على التجربة دلالة رمزية معتبرة، وتوّجت عملها بإعداد تقرير نهائي حمل بين طياته حصيلة أشغالها في مجالات الكشف عن الحقيقة، وتقييما شاملا للبحوث والتحريات المنجزة في شأن الانتهاكات التي عرفتها "سنوات الرصاص" بكل صنوفها وسياقاتها، واقتراح مجموعة من التوصيات القانونية والإجرائية الكفيلة بحفظ الذاكرة، وأخرى لها علاقة بالإصلاحات السياسية والمؤسساتية والدستورية الواجب إنجازها لتلافي تكرار الانتهاكات الجسيمة.

واليوم، يشكل مضي أكثر من عقد ونصف على تقديم الهيئة لحصيلة عملها مسافة زمنية كافية للقيام بقراءة استرجاعية نقدية أقل انفعالاً لتجربتها، ومساءلة منجزها وتقييم حصيلتها وأوجه الخلل فيها. فما أهمية التجربة المغربية في مجال العدالة الانتقالية؟ وما قيمتها المضافة؟ وما هي الخصوصيات التي استأثرت بها والإكراهات والتحديات التي واجهت تدخلاتها في سبيل تجاوز صعاب الماضي والولوج إلى واقع سياسي جديد؟ وما حصيلتها، وتداعياتها السياسية، والاجتماعية، والحقوقية؟ وما مدى مساهمتها في تحصين الأجيال القادمة ضد تكرار نفس التجارب الأليمة؟

أولاً: الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان في المغرب ما بين 1956 و1999 (خلفية تاريخية)

شهد المغرب غداة استقلاله سنة ١٩٥٦ فصولا من الصراعات السياسية، واكبت بناء الدولة الوطنية، واتخذت في أحايين كثيرة طابعا من العنف كان له تأثير كبير على الذاكرة الجماعية للمجتمع المغربي. وارتبطت هذه الصراعات، التي كان لها وقع بليغ على مسيرة التطور السياسي للبلاد، بطبيعة التناقضات الجديدة التي تفجرت في مرحلة بناء الدولة المستقلة، وارتكزت حول النمط النظام السياسي اللائق بالمغرب المستقل، ومراكز الحكم الجديد ومناهج ووسائل وطرق بناء الدولة الوطنية الحديثة(١). وقد احتدم هذا الصراع بين منطقين سياسيين مختلفين، يملكان رؤيتين متناقضتين في معالجة إشكالية السلطة في المغرب المستقل، وشكل وأسلوب ممارسة الحكم ووسائل التحكم فيه، توجّه مثلته المؤسسة الملكية التي رأت أنها صاحبة المبادرة في الإشراف على مشروع بناء الدولة الوطنية، والضامنة لإرساء مقوماتها وتحصين استقرار البلاد إزاء المخاطر المتربصة(٢)، فيما التوجه المقابل مثلته الأحزاب المنحدرة من الحركة الوطنية والتنظيمات اليسارية المنبثقة عنها، وكانت تنشد اقتساما أكثر توازنًا للسلطة، وإرساء دولة عصرية تستمد شرعيتها من الشعب وتعبر عن إرادته(٣). واتسم هذا الصراع في بداية الأمر بالاحتقان والحذر المتبادل قبل أن يتحول إلى تعارض تام وصدام عنيف، أسهمت في تغذيته وتعميق حدته مجريات الأحداث في المحيط الإقليمي والدولي(٤).

وعلاوة على ما وسم فجر الاستقلال من صراع بين المؤسسة الملكية والأحزاب سليلة الحركة الوطنية من جهة، وبين هذه الأحزاب ذاتها من جهة ثانية، وبخاصة بين حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال، وما نجم عن ذلك من عمليات قتل واختطاف وتعذيب ذهب ضحيتها عديد المقاومين والمناضلين. اتسمت ستينيات وسبعينيات القرن الفائت بدورها باشتعال جذوة التوتر بين الملك الراحل الحسن الثاني وحزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية المنشق عن حزب الاستقلال، فقد شهدت هذه الحقبة تقلبات سياسية عنيفة تخللتها حملات قمع واسعة طالت قادة ومناضلين من الحزب نفسه، لعل أكثرها ضراوة تلك التي كانت عرضة لها قيادات اتحادية على إثر ما سمي مؤامرة التخطيط لاغتيال الملك الحسن الثاني في يوليوز ١٩٦٣ التي لم يكشف بعد عن كل خباياها، وكان من تداعياتها ظهور نزوعات راديكالية داخل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية تتبنى العمل المسلح(٥). ففي ١٦ يوليوز من سنة ١٩٦٣ أعلنت السلطات المغربية وقتذاك إحباط "مؤامرة لاغتيال الملك"، يقودها الفقيه البصري بمعية بعض قدماء المقاومين، ترتب عليها قيام الشرطة بمحاصرة المقر المركزي للحزب بالدار البيضاء، واعتقال أعضاء لجنته المركزية لحظة

اجتماعهم. ولم يسلم البرلمانيون والصحافيون الحاضرون من الاعتقال الذي شمل أيضا خمسة آلاف من مناضلي ومنتسبي الحزب في مدن عديدة مثل الدار البيضاء والرباط وفاس[٦]، ووجّهت للجميع تهمة محاولة الاعتداء على حياة الملك والتخطيط لاغتياله في غرفة نومه، والمس بسلامة الدولة الداخلية، وعدم الإخبار عن الجرائم، والمشاركة فيها. وبعد محاكمات دامت عدة أشهر، تخللها تسريب معلومات عن التعذيب الشديد الذي تعرض له المعتقلون أثناء استنطاقهم في معتقلات مثل دار المقري في الرباط[٧]، صدرت في مارس ١٩٦٤ عدة أحكام بالإعدام في حق عدد من القيادات الاتحادية في مقدمتهم الفقيه البصري وعمر بنجلون، قبل أن يتم العفو عن الجميع سنة ١٩٦٥[٨].

ومن بين أبرز تجليات العنف الذي طبع الحياة السياسية في مغرب الستينيات المواجهة الدامية التي شهدتها مدينة الدار البيضاء في شهر مارس ١٩٦٥، والتي أشرّت على التوجه السلطوي المطلق التي اتخذته الدولة المغربية[٩]. فقد وجدت هذه الأخيرة نفسها وللمرة الأولى منذ الحصول على الاستقلال في مواجهة انفجار اجتماعي حضري شكل لحظة تصادم واضحة بين الدولة والمجتمع[١٠]. وإذا كانت الأحداث قد انطلقت بإضرابات مدرسية وطلابية في مدينة الدار البيضاء احتجاجا على القرار الذي اتخذته وزارة التربية الوطنية والقاضي بفصل تلاميذ الثانوي الذين تجاوزت أعمارهم سنّا معيّنا، فإنها سرعان ما تحولت إلى تظاهرات شعبية حاشدة امتدت لتشمل مدنا كبرى أخرى جرّاء الأزمة الاجتماعية وتدهور الأوضاع المعيشية[١١]، ولم تكن بمعزل عن مزاج البلاد العام، إذ تزامنت مع تدهور الأوضاع السياسية، وارتبطت بشكل وثيق بالصراعات السياسية التي ميزت المغرب المستقل بين المؤسسة الملكية والقوى الوطنية الأخرى، وهو ما تبدّى بوضوح من خلال الشعارات التي رفعها المتظاهرون والتي ندّدت بالسياسات العامة المتبعة، وأيضا من خلال العنف الذي واجهت به القوات العمومية بقيادة وزير الداخلية الجنرال أوفقير المتظاهرين وحجم الخسائر التي لحقت الأشخاص والممتلكات[١٢]. وقد تباينت حصيلة هذه الأحداث التي شهدتها مدينة الدار البيضاء بين البيان الرسمي الذي أصدرته وزارة الداخلية والذي لم يقر سوى بسقوط سبعة قتلى، وبين وسائل الإعلام الوطنية والدولية التي زعمت أن عدد الضحايا يتجاوز بكثير الأرقام الرسمية، حيث قدرت مثلا مجلة الإكسبريس L'express الأسبوعية الفرنسية عدد الضحايا ب ٦٠٠ قتيل، في حين صرح بعض المعارضين أن عدد القتلى في مدينة الدار البيضاء تجاوز الألف[١٣]. وكانت هيئة الإنصاف والمصالحة قد حصرت عدد ضحايا هذه الأحداث في خمسين شخصًا[١٤].

وفي حمأة هذه التقلبات السياسية العنيفة التي كان يموج بها المغرب، أضحى العنف والعمل المسلح الخيار الأنسب لمواجهة نظام الحسن الثاني من قبل الجناح الراديكالي داخل حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، الذي تزعمه الفقيه البصري بمعية قادة آخرين[١٥]، ورام تغيير الأوضاع جذريا من خلال التخطيط للقيام بعمليات مسلحة داخل المغرب، وشن ثورة شعبية عارمة على غرار ما كان سائدا إبانه في كثير من بلدان العالم الثالث[١٦]، لاسيما أن تتابع محاولتين انقلابيتين، في ظل بروز الجيش وصعود أسهمه، أعطى الانطباع بأن الوضع في البلاد على صفيح ساخن، وأن نظام الملك الحسن الثاني يعيش أزمة داخلية وأنه آيل للتصدع[١٧]. وقد ترجم هذا التخطيط على أرض الواقع في الأحداث الدموية التي تفجرت في منطقة مولاي بوعزة في ٣ مارس ١٩٧٣ أو ما سمي بالثورة المجهضة، وما تخللها من اعتقالات ومحاكمات في صفوف قياديي ومناضلي حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في المدن والبوادي، الذين تعرضوا لشتى صنوف التعذيب والتنكيل[١٨].

ازدادت هذه الأزمة السياسية والمجتمعية التي عرفها المغرب في النصف الأول من سبعينيات القرن الماضي حدّة وتفاقما جرّاء المحاولتين الانقلابيتين الفاشلتين، وما أعقبهما من اعتقالات واسعة ومحاكمات عسكرية وإعدامات بالجملة. واتسمت هذه المحاكمات التي همّت المتورطين وجرت أطوارها أمام المحكمة العسكرية في عموميتها بالقسوة، حيث تراوحت العقوبات بين الإعدام والمؤبد والسجن المحدد، فأصحاب المحاولة الانقلابية الأولى التي شهدها قصر الصخيرات في يوليوز ١٩٧٢ مثلوا أمام المحكمة العسكرية في شهر فبراير ١٩٧٢، بتهمة المس بالأمن الداخلي للدولة، وصدرت في حقهم أحكام تراوحت

ما بين ٢٢ إعداما و٢٦ سجنا مؤبدا و٢٥ حالة بالسجن مدة عشرين سنة، فيما انعقدت محاكمة ثانية بعد بضعة شهور في حق المسؤولين عن مهاجمة الطائرة الملكية في غشت ١٩٧٢ أسفرت عن ١١ حكمًا بالإعدام و٣٥ حكمًا بالسجن تراوح بين ثلاثة وعشرين سنة، وتم تحويل المحكوم عليهم بأكثر من ثلاث سنوات في غشت ١٩٧٣ إلى المعتقل السري تازمامرت ليودعوا برفقة المدانين في انقلاب الصخيرات حيث أمضوا ما ينيف عن ثمانية عشر عامًا[١٩].

أسهمت هاتان المحاولتان الانقلابيتان المتتاليتان في تأزيم الأوضاع السياسية وزادتها سوءا وتفاقما، وأدخلت المغرب في منعرج خطير ومفزع، فأمام غموض الخصم وصعوبة تحديده، نزعت الدولة إلى توسيع دائرة التضييق ليشمل الفصائل المكونة لليسار، فسلطت قمعا لا هوادة فيه على المنتسبين إليها[٢٠]، واعتقلت أغلبية أطرها القيادية ومناضليها، وتعرض الجميع للتعذيب بكل من معتقل درب مولاي علي الشريف بالدار البيضاء ودار المقري بالرباط. وتم تقديم هؤلاء المعتقلين للمحاكمة وصدرت في حقهم عقوبات سجنية ثقيلة جدا بتهم المس بأمن الدولة والامتلاك غير المشروع للمتفجرات[٢١]. فتوارت بذلك هذه المنظمات اليسارية وانحسرت أنشطتها جرّاء التضييق الذي تعرضت له والاعتقالات التي مست عمقها التنظيمي وأتت على وجودها وكادت تعصف به[٢٢].

أفرزت هذه المرحلة التي سميت لاحقا بسنوات الجمر والرصاص، وامتدت ما ينيف عن أربعة عقود إرثا من الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان على نطاق واسع، وحصيلة ثقيلة من الخروقات المنهجة ضد المعارضين السياسيين والناشطين الحقوقيين، الذين زج بهم في غياهب السجون والمعتقلات السرية والمنافي. وقد مثّل هذا الإرث من الانتهاكات الجسيمة التي عرفتها العقود الماضية عبئا ثقيلا وشم الذاكرة الجماعية للمغاربة وخلّف ندوبا غائرة فيها، وبالأخص ذاكرة الفئات المتضررة التي اكتوت بنارها في فترات الصراع.

بقيت الدولة المغربية حتى مستهل التسعينيات من القرن الماضي تنفي نفيا قاطعا لجوءها إلى القمع المنهجي والعنف غير المشروع وممارستها لأية انتهاكات لحقوق الإنسان، وتعتبر أن العنف الذي مارسته يدخل في إطار العنف المشروع الذي تنص عليه القوانين المعمول بها، وفرضتها الضرورة السياسية المتمثلة في مواجهة الأخطار الكبرى التي كانت تهدد الدولة ومؤسساتها[٢٣]، وزعمت أن ما يشاع حول وجود معتقل "تزمامرت" أو سجون سرية أخرى مجرد اختلاقات لا أساس لها من الصحة. بيد أن متغيرات داخلية وخارجية جعلت استمرار خروقات حقوق الإنسان يلقى ردا قويا من أطياف حقوقية شتى داخل المغرب وخارجه، ومن شخصيات فكرية وازنة لها سمعة دولية محترمة[٢٤]. وهكذا وجد الملك الحسن الثاني نفسه في ظل التقارير الحقوقية الدولية المندة بوضعية حقوق الإنسان بالمغرب وضغط المنظمات الحقوقية المغربية في الداخل، مجبرا على الاعتراف بوجود معتقلات سرية، والتمهيد لسياسة الانفراج السياسي والحقوقي بالمغرب لحظة التسعينات، معتبرا في أحد حواراته الصحافية أن أي نظام مهما بلغ من الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان تعتوره أخطاء وعيوب، ويتعرض بدوره للانتقادات، وعمد إلى إغلاق معتقلات سرية طالما كذّب وجودها.

ثانيًا: هيئة الإنصاف والمصالحة (سياق النشأة والخصوصيات)

بعد سنوات من إنكار الدولة المغربية لحدوث انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان، انخرطت البلاد تدريجيا في مسار انتقالي مع مطلع التسعينيات[٢٥]، رامت من خلاله تحقيق انفراج سياسي وتحسين صورة المغرب في الخارج. وكانت فاتحة ذلك الإفراج عن المعتقلين الباقين على قيد الحياة، وإغلاق مراكز الاعتقال والاحتجاز السرية وفي مقدمتها معتقل تازمامرت، والسماح بعودة المنفيين لدواع سياسية[٢٦]، وما استتبع ذلك من أحداث مثّلت انعطافه كبرى في مقاربة الدولة لملف حقوق الإنسان، وأسهمت في ترسيخ المسار الجديد الذي اختارته، والذي كان ينشد طي صفحة الماضي وتحقيق تحول سياسي مرن وهادئ. فعلاوة على إنشاء المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان سنة ١٩٩٠ باعتباره اللبنة المؤسسية الأولى في المسار الجديد[٢٧]. تأسست في غشت ١٩٩٩ هيئة التحكيم المستقلة التي حددت مهمتها في تقديم تعويضات فردية لضحايا الاختفاء القسري والاعتقال التعسفي وعائلاتهم. وجاءت تجربة التناوب التي شهدت النور سنة ١٩٩٨، في شكل

حكومة قادها الزعيم اليساري عبد الرحمان اليوسفي. وتوج هذا المسار بتأسيس هيئة الإنصاف والمصالحة في يناير ٢٠٠٤ استجابة للتحركات الدؤوبة والمستمرة التي قام بها نشطاء جمعيات حقوق الإنسان في المغرب، وتجاوبًا مع مطالب وضغوطات حركات متنوعة منبثقة عن المجتمع المدني بشأن معالجة ماضي انتهاكات ما يعرف بسنوات الرصاص في إطار مقاربة أكثر شمولية وعمقا.

كان حدث تأسيس هيئة الإنصاف والمصالحة بالمغرب وثيق الصلة أيضًا بالتطور الذي عرفته التدابير السياسية والمؤسساتية في البلاد منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين، في إطار مسلسل من التوافقات بين المؤسسة الملكية والمعارضة، والتي شجعت على ممارسة الحريات المدنية على نطاق أوسع، وأتاحت الفرصة للاعتراف بانتهاكات حقوق الإنسان في الماضي. فقد عانت أحزاب المعارضة المنبثقة عن الحركة الوطنية من الاستنزاف جرّاء صراعها الطويل مع المؤسسة الملكية، نجم عنه مراجعتها لمواقفها من السلطة وعدولها عن منطقها الصدامي، وانتقالها من ثقافة سياسية تصارعية إلى ثقافة سياسية تنافسية، ومن ثَمَّ نضج أكبر في ابتكار أساليب جديدة للمواجهة خالية من العنف المبرر للاعتقال[٢٨]، وأضحت المصالحة السياسية والتاريخية مع ماض عريض من الانتهاكات مطلبًا ملحًا[٢٩]، وهو ما يفسر انطلاق مسلسل الحوار بين الحسن الثاني وأحزاب المعارضة بشأن الإصلاحات السياسية والدستورية ومسألة المشاركة في السلطة.

اندرجت هذه الحركية المعتبرة أيضا في سياق تأثر المغرب بما كان يعتمل في محيط دولي مطبوع بتحولات جوهرية أفرزها انهيار المعسكر الشرقي وإقبار نظام الثنائية القطبية، وبروز نظام عالمي جديد أمسى يحمل بين طياته تصورات ومفاهيم جديدة اتخذت مؤشرا للقطيعة مع مرحلة سابقة، وأضحت تحتل مقام الأولويات السياسية على الصعيد الدولي، والتي يمكن أن توجز في سيادة القيم الليبرالية وترسيخ الديمقراطية وحقوق الإنسان[٣٠].

ضمن هذا السياق أحدثت هيئة الإنصاف والمصالحة في يناير سنة ٢٠٠٤، وتألفت من رئيس وستة عشر عضوا معظمهم من الناشطين والمناضلين الحقوقيين والسجناء السياسيين السابقين، وأنيطت بها مهام البحث والتحري فيما يتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان التي حصلت طيلة الفترة الزمنية الممتدة بين عامي ١٩٥٦ و١٩٩٩، وتمثلت في الاختفاء القسري والاعتقال التعسفي والتعذيب والاغتراب الاضطراري لدواع سياسية، والاستعمال المفرط وغير المتناسب للقوة العمومية ضد المتظاهرين، والوقوف على مسؤولية أجهزة الدولة في الانتهاكات موضوع التحريات[٣١]. واستندت في سبيل ذلك إلى شهادات الضحايا والأبحاث الميدانية، والاطلاع على السجلات والأرشيفات الرسمية، واستيفاء المعلومات وتجميع وتحليل المعطيات التي تتيحها مختلف المصادر الوطنية والدولية، لفائدة الكشف عن الحقيقة بغرض جبر الضرر الجماعي ورد الاعتبار لضحايا سنوات الرصاص وإنصافهم[٣٢]. وأنيطت بالهيئة فضلا عن ذلك مهمة إعداد تقرير ختامي تضمن حصيلة أعمالها وتقييما شاملا للبحوث والتحريات المنجزة في شأن الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان وسياقاتها، مقرونا بجملة من التوصيات والاقتراحات الكفيلة بحفظ الذاكرة وعدم تكرار ما جرى ومحو آثار الانتهاكات واسترجاع الثقة وترسيخها[٣٣].

وعلاوة على ذلك باشرت الهيئة في إطار جلسات مغلقة الاستماع إلى شهود قضوا فترات إلى جانب ضحايا لم يحدد مصيرهم[٣٤]، ونظمت زيارات معاينة لمراكز الاحتجاز، واستمعت إلى أشخاص أشرفوا سابقًا على حراسة تلك المراكز[٣٥]. والتزمت الهيئة بإنجاز أربعة أهداف رئيسة تمثلت في إثبات نوعية ومدى جسامة الانتهاكات الماضية لحقوق الإنسان من خلال البحث والتقصي انطلاقا من مطالب الضحايا وصولا إلى الكشف عن الحقيقة وإقرارها[٣٦]، واتخاذ سلسلة من التدابير والإجراءات تتوخى جبر الضرر المادي والرمزي لفائدة الأفراد والتجمعات البشرية، فضلا عن تقديم اقتراحات تشريعية ومؤسساتية من شأنها توفير ضمانات الوقاية وعدم تكرار ما صدر عن الدولة من ممارسات تعتبر منافية لحقوق الإنسان، والإسهام في إقرار ثقافة المصالحة في إطار دولة الحق والقانون[٣٧].

اشتغلت هيئة الإنصاف والمصالحة على فترة تاريخية امتدت ثلاثة وأربعين عاما أي ما يقارب نصف قرن، وهي فترة تُعَدّ الأطول من نوعها مقارنة مع باقي تجارب العدالة الانتقالية في العالم[٣٨]. وعانت بالإضافة إلى ذلك من ضعف إن لم نقل غياب دراسات أكاديمية تتناول هذه المرحلة الحساسة من تاريخ المغرب الراهن، مما زاد من تعاظم الصعوبات التي اعترضت الهيئة بشأن الكشف عن الحقيقة[٣٩]. ونظرًا لكون الهيئة ذات طبيعة استشارية وليست قضائية مثلما ذكرنا آنفا، فقد ارتكز نشاطها أساسا على المزاوجة بين التحري الميداني والبحث الوثائقي عبر إجراء الأبحاث وتلقي الإفادات والاطلاع على الأرشيفات الرسمية، واستقاء المعلومات التي قد تفيد في استجلاء ظروف وملابسات الأحداث التي وقعت خلالها انتهاكات حقوق الإنسان.[٤٠]

اعتمدت الهيئة بخصوص التحريات والمعاينات الميدانية مقاربة ارتكزت على إشراك كل المعنيين بهذا الملف بمن فيهم الضحايا السابقين أو عائلاتهم[٤١]، واستعانت أيضا بالخبرة الدولية في هذا الإطار لاسيما أن مسارات البحث عن الرفات ورصد القبور والمدافن كانت ملتوية. وقامت بتنظيم زيارات لعائلات الأشخاص مجهولي المصير واستقبلتهم بمقرها، بغية الاستماع إليهم وتحديد مطالبهم، وشرح مقاربة الهيئة والمنهجية المتبعة لتسوية هذا الملف[٤٢]. ونظمت فضلاً عن ذلك زيارات لمعاينة مراكز الاحتجاز السابقة واستمعت إلى الشهادات المقدمة من قبل بعض الموظفين الذين أنيطت بهم سابقًا بعض المسؤوليات فيما يتعلق بحراسة أو تدبير شؤون بعض مراكز الاحتجاز[٤٣].

أما بشأن البحث الوثائقي ودراسة السجلات والوثائق، فقد قامت الهيئة بتجميع وتحليل المعطيات المتأتية من مختلف المصادر المتداولة وطنيا ودوليا، والتي تشير بشكل أو بآخر إلى حالات اختفاء، مثل لوائح المنظمات الحقوقية الوطنية غير الحكومية ومنظمة العفو الدولية ووثائق فريق العمل الأممي المعني بموضوع الاختفاء القسري، وتقارير اللجنة الدولية للصليب الأحمر[٤٤]. وتلقت إفادات الضحايا السابقين الذين أدلوا بشهاداتهم أثناء جلسات الاستماع العمومية، أو الشهادات المدلى بها من قبل شهود ليسوا ضحايا خلال الجلسات المغلقة التي نظمتها الهيئة، إضافة إلى الاطلاع على سجلات ووثائق ممسوكة من طرف السلطات العمومية ودراسة أجوبة الأجهزة الأمنية، والقيام بدراسات أكاديمية وتحليل السياق القانوني الذي ارتكبت فيه تلك الانتهاكات وكذا الاطلاع على كافة الكتابات التي قاربت الموضوع.[٤٥]

من جهة أخرى وموازاة مع عمل الهيئة المتعلق بالأبحاث والتحريات بشأن الانتهاكات وسياقاتها المشار إليها آنفا، قامت أيضًا بتنظيم سلسلة من الندوات واللقاءات في مناطق عديدة من المغرب شاركت فيها عشرات الجمعيات وثلة من الخبراء والأكاديميين من المغرب ومن خارجه، الغاية منها التفاهم حول قراءة مشتركة تساعد على فهم ما جرى من انتهاكات وخروقات وتسمح ببناء ذاكرة مشتركة[٤٦]. وعقدت الهيئة إضافة إلى ذلك لقاءات مفتوحة للتشاور واستطلاع آراء الفاعلين المحليين فيما يتعلق بالسبل الكفيلة لجبر الضرر الجماعي لمناطقهم، وضمان مصالحة المواطنين مع مجالهم وتاريخهم في العديد من المدن والقرى المغربية، باعتبار أن الإدماج الاجتماعي للمناطق المتضررة يبقى من أعقد التحديات التي تعترض سيرورة المصالحة الوطنية في المغرب[٤٧].

وقد أفضى عمل هيئة الإنصاف والمصالحة المتعلق بالاستماع وإجراء التقاطعات ودراسة الأجوبة التي تلقتها من السلطات العمومية، إلى مجموعة من النتائج ضمّنتها الهيئة في ختام أعمالها في تقرير شامل تضمن خلاصات الأبحاث والتحريات بشأن الانتهاكات وسياقاتها. ويتبدى من خلال هذا التقرير الختامي الذي أصدرته الهيئة، أن هذه الأخيرة قد قامت ببحث ودراسة ما ينيف عن عشرين ألف ملف لضحايا الإخفاء القسري والاعتقال التعسفي والتعذيب والمعاملة السيئة، ومكّنت تحرياتها من كشف مصير ٧٤٢ حالة ضحايا الاختفاء القسري أو الاعتقال التعسفي أو الأشخاص المتوفين خلال أحداث اجتماعية مختلفة، نجحت الهيئة في اكتشاف أو تحديد هويات ٨٩ شخصًا بعدما قضوا رهن الاحتجاز في المعتقلات السرية، وانتهت إلى أن ٣٢٥ من الأشخاص المدرجة أسماءهم في عداد مجهولي المصير قد لقوا حتفهم على إثر الأحداث الاجتماعية التي عرفها المغرب طيلة هذه الحقبة بفعل الاستعمال المفرط وغير المتناسب للقوة. كما

حددت الهيئة أيضا وفاة ١٧٣ شخصًا رهن الاعتقال التعسفي أو الاختفاء القسري في الفترة الممتدة من ١٩٥٦ إلى ١٩٩٩ في مراكز الاعتقال، بيد أنها لم تتمكن من تحديد أماكن دفنهم[٤٨].

وبالنسبة لجبر الضرر قامت الهيئة بدراسة ١٦٨٦١ ملفًا، واتخذت مقررات بشأنها لفائدة ضحايا الانتهاكات ذات الصلة بالاختفاء القسري والاعتقال التعسفي المتبوع بمحاكمة، أو المتبوع بوفاة تلت حكم قضائي بالإعدام. وكذلك الوفاة أو الإصابة بالرصاص أو الاعتقال التعسفي خلال أحداث اجتماعية، إضافة إلى الاغتراب الاضطراري. وقد أصدرت الهيئة مقررات بالتعويض المالي لفائدة 6358 ضحية من بينهم ١٨٩٥ ضحية صدرت لفائدتهم توصيات إضافية بأشكال أخرى لجبر الضرر الإدماج الاجتماعي من قبيل تسوية أوضاع إدارية وظيفية وغيرها[٤٩].

وفي السياق نفسه وقفت الهيئة على مسؤوليات أجهزة الدولة في مختلف الانتهاكات والوقائع، واستطاعت بفضل المعطيات والشهادات الشفهية لضحايا الانتهاكات التأكد من أن مجموعة من أساليب التعذيب استعملت بشكل منهجي ضد المعتقلين، بهدف انتزاع اعترافات منهم أو معاقبتهم أو ترهيب عائلاتهم، وخلصت إلى تنوع طرائق التعذيب المتبعة بغرض إلحاق الآلام والمعاناة بالضحية ماديًا ومعنويًا[٥٠].

ثالثًا: تجربة العدالة الانتقالية المغربية (تباين المواقف بشأن الحصيلة)

تحيل حصيلة تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة على وجهات نظر متباينة في تقييم منجزها، ومدى إسهامها في دعم التحول السياسي والحيلولة دون تكرار هذه الممارسات في المستقبل. وقد حظيت حصيلة الهيئة بإشادة غالبية المتتبعين والفاعلين السياسيين، والعديد من المنظمات غير الحكومية الدولية التي نوّهت بالجهود التي بذلتها في مجال تقصي انتهاكات الماضي ورد الاعتبار للضحايا، وعدّتها خطوة جريئة ومعتبرة[٥١]، نجحت بفضلها الدولة ومؤسساتها في صوغ سردية سياسية جديدة تتجاوز إرث المرحلة التاريخية السابقة وتقطع مع تجاربها الأليمة، وفتح صفحة جديدة تروم ترسيخ دولة المؤسسات والحريات والحقوق. كما كان للتحولات التي رافقتها دور محوري في "عبور تجربة الانفجارات التي عمّت أغلب البلدان العربية في عام ٢٠١١، إذ تفاعل النظام السياسي في المغرب بطريقة استوعبت كثيرا من المطالب التي تلخصت في الشعارات التي رفعت في التظاهرات التي ملأت الساحات العمومية، الأمر الذي مكن المغرب من عبور لحظات الانفجار بأقل ما يمكن من الخسائر، مقارنة بأنظمة عربية أخرى"[٥٢]. وهو الرأي الذي تعضده المقاربة الجديدة التي تبنتها الدولة في مواجهة الأحداث الاجتماعية التي وقعت في عدد من المناطق كالريف وجرادة، التي تمايزت كليًا عن السياسات السابقة التي طبعت الأحداث الاجتماعية لسنوات الرصاص، والتي تأسست على اختيارات عنيفة زهقت فيها الأرواح ودفن فيها الناس ليلاً واختطفوا قسريًا[٥٣].

وكان لاحتجاجات حركة ٢٠ فبراير التي عرفها المغرب سنة ٢٠١١ الأثر الكبير في الإسراع "بدسترة" مجموعة من توصيات الهيئة، وتفعيل التدابير ذات الصبغة القانونية والحقوقية والقضائية التي جاءت بها، وهمّت بالأساس ملاءمة القوانين المغربية مع المواثيق الدولية، ودعم استقلالية السلطة القضائية، وإصلاح المنظومة الجنائية خاصة ما تعلق بحظر التعذيب، وتجريم جميع صنوف الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان من اعتقال تعسفي أو سري ومعاملات قاسية أو لا إنسانية أو مهينة أو حاطّة بالكرامة الإنسانية[٥٤].

ومقابل ذلك ووجهت حصيلة الهيئة بمجموعة من المآخذ والانتقادات من لدن البعض الآخر، لكونها لم تنجح في إجلاء الحقيقة كاملة حول العديد من الأحداث السياسية والاجتماعية التي شهدها المغرب، إذ قفزت على محطات تاريخية مهمة في السنوات الأولى من الاستقلال، وبالأخص أحداث الريف سنتي ١٩٥٨ و١٩٥٩، فقد أشار التقرير الختامي للهيئة إلى أن حقيقة ما وقع في الريف تتطلب بحثًا أكاديميًا ينصب على جمع شهادات الضحايا والفاعلين واستثمار الوثائق. ولأن الهيئة لم تتوصل إلى أي شيء، فقد أوصت بضرورة إدراج دراسة تلك المرحلة ضمن الأولويات[٥٥]. كما ظلت الحقيقة غائبة بشأن مجموعة من الملفات الشائكة ذات الصلة بظروف وملابسات ما حدث من اختطافات واغتيالات سياسية طالت بعض قادة ومناضلي المعارضة السياسية.

وبالأخص تلك ذات الرمزية والوضعية الاعتبارية مثل ملف المهدي بن بركة المعارض السياسي الذي اختفى في باريس سنة ١٩٦٥[٥٦].

اعترت التجربة المغربية في مجال العدالة الانتقالية، حسب عدد من المنتقدين لمسارها، جملة من النقائص نظير عدم تحديد المسؤوليات الفردية واستمرار بعض المتورطين في الانتهاكات في تقلد مسؤوليات إدارية وأمنية وعسكرية مهمة، مما أثر سلبًا على آلية العدالة الانتقالية، وأفضى دون شك إلى الإفلات من العقاب[٥٧]. كما بقيت هذه التجربة محدودة التأثير في نظر البعض الآخر، ولم تنتصب حائلا دون استمرار التجاوزات والمخالفات والطي النهائي للانتهاكات ذات صلة بحقوق الإنسان، جرّاء البطء الحاصل في تنفيذ ما تبقى من توصيات الهيئة المدرجة في تقريرها النهائي. وإذا كانت الكثير من توصيات الهيئة التي لها علاقة بالإصلاحات السياسية والدستورية قد وجدت طريقها إلى دستور ٢٠١١ وما تضمنه من إصلاحات وقائية احتوت بموجبها الدولة احتجاجات ٢٠ فبراير ٢٠١١، فإن العديد من التوصيات ما تزال معلقة وتحتاج إلى تفعيل.

من جهة أخرى سجلت الهيئة غياب التعاون من لدن بعض الأجهزة، ففي الوقت الذي قدّمت فيه بعضها أجوبة ناقصة عن الملفات التي عرضت عليها، أوصدت الأجهزة الأمنية الباب في وجهها، ورفض العديد من المسؤولين السابقين المحالين عن التقاعد التجاوب مع الهيئة، والمساهمة في البحث عن الحقيقة وتقديم شهاداتهم أمامها، مع ما عناه ذلك من حرمانها من مصادر معلومات من شأنها المساهمة في استجلاء حقيقة الوقائع المتحرى بشأنها، وجعل الوصول إلى الحقيقة أحيانا أمر صعب للغاية.

على الرغم من أهمية تجربة الإنصاف والمصالحة ضمن ما هو متعارف عليه بلجان الحقيقة والمصالحة عبر العالم، والتي تم إحداثها في سياق ما سمي بالعدالة الانتقالية، فإنه لم يكن في مقدورها تجاوز "خطوط حمر" حدّت من أهميتها، وانتقصت من مصداقيتها ونجاعتها حسب عدد من المنظمات الحقوقية المغربية وبعض المعتقلين السياسيين السابقين، وتأتي في صدارتها إغفال الجلاد وعدم القصاص منه ولو رمزيا، أي استبعاد منطق المقاضاة والمقاربة القضائية[٥٨]. فخلافا للعديد من التجارب الدولية التي اختارت الحسم مع مراحل عسيرة من تاريخها عبر مقاربة قضائية، شدّدت المبادرة المغربية على المصالحة مع هذه الحقبة العسيرة في تاريخ المغرب من خلال التحري والبحث عن الحقيقة وصولاً إلى إنصاف الضحايا المتضررين من الانتهاكات الجسيمة، بتعويضهم ماديا وجبر ضررهم[٥٩]. ومن ثَمَّ اختارت مقاربة سياسية في مسار البحث عن الحقيقة والتأسيس للمصالحة، تتحمل بموجبها الدولة المسؤولية السياسية والأخلاقية والقانونية لتجاوزات الماضي دون أن تثير المسؤولية الفردية أو المؤسساتية عن الانتهاكات[٦٠].

بيد أنه لا يمكن تقييم منجز الهيئة بشكل موضوعي دون وضع التجربة المغربية في مجال العدالة الانتقالية في سياقها السياسي والتاريخي الخاص، والتوقف عند الخلفيات السياسية التي كانت وراء إقرارها، واستحضار جملة من المعطيات الحاسمة في فهم تميزها وتفردها مقارنة بغيرها من التجارب العربية والدولية، صحيح أنه لا يمكن فصل مشروع التحول السياسي في المغرب عن السياقات التاريخية التي تبلورت فيها تجارب العدالة الانتقالية في أوربا وأمريكا اللاتينية، إلا "أنه مشروع يحمل كثيرا من خصوصيات المغرب السياسي بمختلف معاركه وصراعات قواه الحية مع النظام السياسي السائد"[٦١]، ومن ثَمَّ يعزى استبعاد المغرب لآلية المقاضاة والمحاكمات الجنائية وتبنيه خيار "الإنصاف والمصالحة" خلافا للتجارب الدولية الأخرى في مجال العدالة الانتقالية، إلى المعطيات الخاصة بسياقه السياسي والاجتماعي، وطبيعة العلاقات بين مكونات مجاله العام. فمن جهة، اتسمت تسوية ملف الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان خلال المدة الممتدة بين ١٩٥٦_١٩٩٩، أي من الإعلان عن الاستقلال وحتى نهاية حقبة حكم الملك الراحل الحسن الثاني بكونها تمت في ظل استمرار نفس النظام السياسي، وليس في أعقاب انهياره أو تغييره، مثلما حدث في جل البلدان التي عاشت مناخ العدالة الانتقالية[٦٢]، مع ما عناه ذلك من استمرار الأشخاص والمؤسسات المسؤولة عن تلك الانتهاكات الجسيمة، باستثناء المسؤولين المدنيين والعسكريين الذين غيّبهم الموت أو التقاعد. وهو معطى حاسم في فهم تميز التجربة المغربية في مجال العدالة

الانتقالية، أما المعطى الآخر المفسر لهذا التميز فيخص طبيعة التوافقات الحاصلة بين المؤسسة الملكية والنخبة السياسية خاصة أحزاب المعارضة المنبثقة من الحركة الوطنية[٦٣]، فقد كانت هذه التجربة محصّلة تلاقي إرادة المؤسسة الملكية التي جنحت إلى بلوغ الانفراج السياسي، وطموحات الطبقة السياسية اليسارية بالخصوص وفعاليات المجتمع المدني ومكونات الحركة الحقوقية للعمل على معالجة سلمية وتوافقية للإرث الثقيل للانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان.[٦٤]

وانطلاقًا من ذلك بقيت قرارات الهيئة وخلاصاتها خاضعة لإكراهات الواقع السياسي المغربي، ولم يكن في مقدورها تجاوز الخطوط التي رسمها هذا الواقع، وكان أعضاؤها مدركين الشروط والسياقات التي واكبت عملية تأسيسها، والأفق الذي وضع لبرنامجها في تدبير العدالة الانتقالية، فقد أنشئت الهيئة بشكل اختياري في سياق تطور تاريخي انتقالي متدرج، ولم تكن إملاء فوقيا، أو بقرار أحادي للدولة، ثم إنها لم تحدث من فراغ وبشكل فجائي، أو عقب ثورة وتحول مفاجئ في نظام الحكم في المغرب، بل تعد ثمرة تطور سياسي ومجتمعي أفرزتها دينامية مجتمعية توافقت مع إرادة عليا للإصلاح والتحديث والبناء[٦٥]، وهي معطيات كانت لها بصمتها على التجربة المغربية في مجال العدالة الانتقالية، وأسهمت مجتمعة في تغليب أفق التصالح التاريخي والسياسي على منطق المقاضاة[٦٦]. وجعلت من هيئة الإنصاف والمصالحة في المغرب حالة نادرة في سياق اللجان المشكلة في العالم، تحديدًا من زاوية إنشائها في إطار النسق السياسي والدستوري نفسه، لذلك انحصر اختصاصها فقط في التقويم والبحث والتحري والتحكيم والاقتراح فيما يخص الانتهاكات، واستكمال فكرة المصالحة مع الماضي دون مقاضاة المسؤولين عن انتهاكاتهم الجسيمة، تحت مسوّغ أن المحاكمات لن تسهم في المصالحة المنشودة، بل على العكس من ذلك يمكن أن تقود إلى الانتقام وتترتب عنها مظاهر من الفوضى[٦٧]. وقد أثارت هذه المقاربة ردود فعل متحفظة من جانب بعض من اعتبروا أنها أسهمت في ترسيخ وضعية اللاعقاب بالنسبة للمسؤولين عن الممارسات المدانة، خصوصًا أن عددًا من هؤلاء ما يزالون محتفظين بوظائفهم في مستويات متعددة من جهاز الدولة[٦٨].

خاتمةٌ

تبقى هيئة الإنصاف والمصالحة تجربة رائدة ومتميزة في سياقها الإقليمي، بوصفها خطوة لتجاوز ماض عريض من الانتهاكات والإسهام في إرساء الوئام الوطني، إذ تعد أول هيئة للعدالة الانتقالية تؤسس في قطر عربي ضمن ما هو متعارف عليه اليوم بلجان الحقيقة والمصالحة، وأيضًا بالنظر إلى ما أفرزته من حصيلة إيجابية بخصوص المصالحة مع الماضي والطي النهائي لملفات الاختطاف السياسي والاعتقال التعسفي لأسباب سياسية، ووضع مقومات الوقاية وضمانات عدم التكرار.

كما تُعَدّ هذه التجربة فضلاً عن ذلك من مميزات النهج المغربي المتسم بالقطع الإيجابي مع الماضي في ظل استمرارية نفس النظام السياسي والدستوري، وباعتماد مقاربة عقلانية لنظرية المساءلة وجبر الضرر الجماعي، ومن ثَمَّ واجهت الهيئة جملة من التحديات والصعوبات، واعترتها نواقص شتى تبدت بجلاء في تقريرها الختامي الذي عكس محصّلة هذه التجربة والإخفاقات التي حاصرت عملها. فقد اشتغلت على فترة تاريخية قاربت نصف قرن، وهي مدة زمنية تعد الأطول من نوعها مقارنة مع باقي تجارب العدالة الانتقالية في العالم. وكانت الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان المسجلة على امتداد هذه الفترة وليدة أزمات عنف سياسي تداخلت فيها أطراف متعددة داخلية وخارجية، علاوة على ضعف إن لم نقل انعدام وجود دراسات أكاديمية تناولت هذه المرحلة الحساسة من تاريخ المغرب الراهن وشخصت جوانبها المتعلقة بحقوق الإنسان، مما زاد من تعاظم الصعوبات التي اعترضت الهيئة بشأن الكشف عن الحقيقة.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد الأخصاصي، **الحركة التقدمية الوطنية المغربية: شهادات وقضايا ومواقف**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٥، ص. ٣٢. محمد القبلي، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة عكاظ الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص.٦٢٢.

(٢) الأخصاصي، **الحركة التقدمية الوطنية المغربية**، ص.٣٤. - هيئة الإنصاف والمصالحة، **السياق التاريخي للانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان بالمغرب**، منشورات المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، سلسلة دراسات وندوات، الرباط، يونيو ٢٠٠٩، ص. ١٧.

(٣) الأخصاصي، **الحركة التقدمية الوطنية المغربية**، ص.٣٤.

(٤) نفسه، نفس الصفحة.

(٥) نفسه، ص.٣٥.

(٦) جيل بيرو، **صديقنا الملك**، ترجمة مشيل خوري، الطبعة الأولى، دمشق، ٢٠٠٢، ص.٦٩.

(٧) بيير فيرمورين، **تاريخ المغرب منذ الاستقلال**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص.٧٣.

(٨) المهدي بنونة، **أبطال بلا مجد، فشل ثورة ١٩٦٣-١٩٧٣**، ترجمة علي آيت احماد، منشورات طارق، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٥، ص.٤٦.

(٩) القبلي، **تاريخ المغرب**، ص.٦١٨.

(١٠) عزيز خمليش، **الانتفاضات الحضرية في المغرب المعاصر: دراسة ميدانية لحركتي مارس ١٩٦٥ ويونيو ١٩٨١ بالدار البيضاء**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ص.٥٢.

(١١) الأخصاصي، **الحركة التقدمية الوطنية المغربية**، ص.٩١.

(١٢) خمليش، **الانتفاضات الحضرية في المغرب المعاصر**، ص.٥٣.

(١٣) امبارك بودرقة وأحمد شوقي بنيوب، **كذلك كان...مذكرات من تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠١٧، ص.٩٦.

(١٤) نفسه، ص.٩٨.

(١٥) امبارك بودرقة، **بوح الذاكرة وإشهاد الوثيقة أحداث مارس ١٩٧٣**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠، ص.٣٠. - شنّت الدولة سنة ١٩٦٩ حملة اعتقالات واسعة في صفوف مناضلي حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية شملت أكثر من ٣٠٠ شخص، بعد اكتشاف وجود تنظيمات مسلحة سرية بأنحاء من المغرب، وتمت محاكمة ١٧٠ شخصا منهم في السنة الموالية، وصدرت في حق بعضهم أحكام بالإعدام، انظر، محمد بن سعيد آيت يدر، **هكذا تكلم محمد بن بنسعيد**، الجزء الأول، منشورات مركز محمد بن سعيد آيت يدر للأبحاث والدراسات، الدار البيضاء، ٢٠١٨، ص.٢١٦.

(١٦) محمد لومة، **الثورة الموؤودة**، مطبعة بني إزناسن، سلا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، ص.٢٤.

(١٧) بودرقة، **بوح الذاكرة**، ص.٤٧.

(١٨) وصف مبارك بودرقة في مذكراته هذه الحملة الواسعة من الاعتقالات بقوله: "كان القمع رهيبا وشاملا طال المناضلين الاتحاديين في المدن والبوادي على حد سواء... اكتوى المئات بنار الانتقام إن لم نقل الآلاف، لم يؤدّوا الضريبة بأجسادهم في شكل اعتقال فحسب، بل في أرزاقهم ومساكنهم أيضًا... أحدث جو القمع البشع رجة كبيرة داخل المجتمع المغربي وخلق حالة من التعاطف مع الضحايا وذويهم"، انظر، بودرقة، **بوح الذاكرة**، ص.١٠٣.

- تم تقديم هؤلاء إلى المحكمة العسكرية لمدينة القنيطرة في ٢٥ يونيو ١٩٧٣، وصدرت في حق عدد منهم في ٣٠ غشت ١٩٧٣ أحكام تراوحت بين الإعدام الذي همّ ستة عشر من المتهمين، نفذ في خمسة منهم يوم في الأول من شهر نونبر ١٩٧٣ الذي وافق يوم عيد الأضحى، علاوة على خمسة عشر حكما بالمؤبد، في حين توزع الباقي بين عشرين سنة والبراءة، انظر، مورفيرين، **تاريخ المغرب منذ الاستقلال**، ص. ١٢٥.

(١٩) هيئة الإنصاف والمصالحة، **السياق التاريخي للانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان بالمغرب**، ص. ٣٤-٣٥. القبلي، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، ص.٦٣٥. فيرمورين، **تاريخ المغرب منذ الاستقلال**، ص.١١٤.

(٢٠) يتعلق الأمر بقوى وحركات برزت في الحياة السياسية المغربية مع بداية السبعينيات، وأخذت مسافة تنظيمية وإيديولوجية عن الأحزاب التاريخية، مستفيدة من الاحتقان السياسي الداخلي والزخم اليساري الراديكالي المتصاعد في المحيط الدولي. تبنت خطابا احتجاجيا مختلفا عن المتداول والمألوف في الحياة السياسية المغربية، من قبيل العنف الثوري والثورة الوطنية الديمقراطية المستلهمة من الإيديولوجية اللينينية الماركسية الشائعة وقتئذ، ووضعت كهدف مفصلي لها تحطيم علاقات الإنتاج المبنية على الاستغلال الإمبريالي للقوات الشعبية. وقد حظيت هذه التنظيمات اليسارية الراديكالية لا سيما منظمة إلى الأمام وحركة ٢٣ مارس بالنصيب الأكبر من الاعتقالات والتعسفات، واستمرت ملاحقتها حتى نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، تمثلت على الخصوص في حملات من الاعتقالات الجماعية التعسفية والاختفاءات القسرية والتعذيب والإعدام خارج نطاق القانون، انظر، هيئة الإنصاف والمصالحة، **السياق التاريخي للانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان بالمغرب**، ص.٣٦. الأخصاصي، **الحركة التقدمية الوطنية المغربية**، ص.١٠٣.

(٢١) عبد القادر الشاوي، **اليسار في المغرب ١٩٧٠-١٩٧٤ تجربة الحلم والغبار**، منشورات على الأقل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص.١١٣. القبلي، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، ص.٦٣٧.

(٢٢) الشاوي، **اليسار في المغرب**، ص.١٤٦.

(٢٣) هيئة الإنصاف والمصالحة، **السياق التاريخي للانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان بالمغرب**، ص.٥٦.

(٢٤) شكل صدور كتاب "صديقنا الملك" للكاتب الفرنسي جيل بيرو سنة ١٩٩٠، صرخة في وجه خروقات حقوق الإنسان في المغرب خلال عهد الملك الراحل الحسن الثاني، إذ كشف الغطاء لأول مرة عن مجموعة من التجاوزات والانتهاكات الجسيمة، وأورد معطيات دقيقة بشأن تفاصيل الاختطافات القسرية وعمليات الاحتجاز والتعذيب المنهجي التي تعرض لها عشرات العسكريين في معتقلات سرية مثل تازمامارت وسجون قلعة مكونة وأكدز في ظروف مأساوية، ونقل مجموعة من الشهادات عن الاغتيالات والتصفيات السياسية، التي شهدتها سنوات الرصاص كما سميت لاحقا. بما في ذلك عائلة أوفقير التي تعرضت للاعتقال لما يقارب عقدين من الزمن. جيل بيرو، **صديقنا الملك**، ترجمة مشيل خوري، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

(٢٥) المركز الدولي للعدالة الانتقالية، **مفهوم وتحديات جبر الضرر الجماعي**، تقرير الرباط، المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، فبراير ٢٠٠٩، الرباط، ص ٢٧.

(26) Abdellah Labdaoui, **L'IER : un transformateur politique ?**, Confluences Méditerranée, N°62, L'Harmattan, Paris, 2007, p. 17.

(٢٧) فؤاد بلحسن، **القرار السياسي بإحداث هيئة الإنصاف والمصالحة في المغرب**، موقع الحوار المتمدن، العدد ٢٤٢٥، ٥ أكتوبر ٢٠٠٨، تاريخ الاطلاع :٣\١٧\٢٠٢٢.

(٢٨) الطيب بياض، **تجربة هيأة الإنصاف والمصالحة: إسهام في توثيق الذي كان على أمل ألاّ يتكرر**، مجلة رباط الكتب الإلكترونية، تاريخ الاطلاع :٩٠\٣١\٢٠٢٢.

(29) Abdallah Laroui, **Le Maroc et Hassan II: Un témoignage**, Centre Culturel Arabe, Casablanca, 2005, p.78.

(٣٠) الأخصاصي، م.س، ص.٤٤

(٣١) هيئة الإنصاف والمصالحة، **التقرير الختامي**، الكتاب الأول، الحقيقة والإنصاف والمصالحة، منشورات المجلس الاستشاري لحقوق الانسان، الرباط، ٢٠٠٦، ص.١٧.

(٣٢) محمد سعدي، **هيئة الإنصاف والمصالحة والتاريخ الشفوي في المغرب أنموذج شهادات النساء ضحايا سنوات الرصاص**، التاريخ الشفوي، مقاربات في الحقل السياسي العربي، المجلد الثالث، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص ١١٧.

(٣٣) هيئة الإنصاف والمصالحة، **التقرير الختامي**، الكتاب الأول، ص.٢٥.

(٣٤) نفسه، ص.٦٧.

(٣٥) عبد الواحد بلقصيري، **إشكالية الذاكرة السياسية والعدالة الانتقالية بالمغرب**، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، عدد ٣٦٢، أبريل ٢٠٠٩، ص ٧٤.

(٣٦) هيئة الإنصاف والمصالحة، **التقرير الختامي**، الكتاب الأول، ص.٢٢.

(٣٧) عبد الحد السبتي، **التاريخ والذاكرة أوراش في تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٢ الدار البيضاء، المغرب، ص ٢٠٩.

(38) Driss El Yazami, **Transition politique, histoire et mémoire**, Confluences Méditerranée, N°62, L'Harmattan, Paris, 2007, p. 26.

(٣٩) بودرقة وبنيوب، **كذلك كان...**، ص. ٧٥.

(٤٠) امحمد مالكي، **العدالة الانتقالية والتحول الديمقراطي في المغرب، قراءة في تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة**، الندوة السنوية للشبكة العربية للتسامح، العدالة الانتقالية والتحول الديمقراطي في العالم العربي، بيروت، أبريل ٢٠١٢، ص.٧.

(٤١) هيئة الإنصاف والمصالحة، **التقرير الختامي**، الكتاب الأول، ص.٦٥.

(٤٢) نفسه، ص.٦٧.

(٤٣) هيئة الإنصاف والمصالحة، **التقرير الختامي**، الكتاب الثاني، ص.١٢١.

(٤٤) هيئة الإنصاف والمصالحة، **التقرير الختامي**، الكتاب الأول، ص.٦٦.

(٤٥) نفسه، ص ٣٩-١٢١

(٤٦) نفسه، ص.١٠٧.

(٤٧) مالكي، **العدالة الانتقالية والتحول الديمقراطي في المغرب**، ص.٩.

(٤٨) هيئة الإنصاف والمصالحة، **التقرير الختامي**، الكتاب الأول، ص.٧٧.

(٤٩) هيئة الإنصاف والمصالحة، **التقرير الختامي**، الكتاب الثالث، ص.٧٦.

(٥٠) سعدي، **هيئة الإنصاف والمصالحة والتاريخ الشفوي في المغرب**، ص ١١٧.

(٥١) وفي هذا الصدد يمكن التذكير بأن الأمين العام للأمم المتحدة أشاد في تقريره الصادر في غشت من سنة ٢٠٠٤، والمقدم لمجلس الأمن حول "سيادة القانون والعدالة الانتقالية في مجتمعات الصراع ومجتمعات ما بعد الصراع"، بالتجربة المغربية معتبرا أنها من ضمن التجارب الخمس الأوائل ضمن ما يزيد عن ثلاثين تجربة دولية.

(٥٢) كمال عبد اللطيف، **العدالة الانتقالية والتحولات السياسية في المغرب تجربة الإنصاف والمصالحة**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص ١٢.

(٥٣) شوقي بنيوب، تجربة المغرب في العدالة الانتقالية ذهبت إلى أبعد مدى في عهد جلالة الملك، جريدة بيان اليوم، 31يوليو، ٢٠١٩.

(٥٤) إدريس لكريني، **العدالة الانتقالية في السياق المغاربي**، الخليج، 24 أبريل ٢٠١٥، تاريخ الاطلاع: ١٢\٤\٢٠٢٢.

(٥٥) لحسن أيت الفقيه، **التاريخ والأرشيف وحفظ الذاكرة في التجربة المغربية للعدالة الانتقالية - الريف نموذجًا-** موقع الحوار المتمدن، ١٦ يناير ٢٠١٣، تاريخ الاطلاع: ١٢\٤\٢٠٢٢.

(٥٦) رغم تعاقب مختلف الأحزاب السياسية على هرم السلطة في فرنسا لاسيما الأحزاب اليسارية، لم ترفع السرية بعد على ملف المهدي بن بركة، وإذا استحضرنا باقي التأثيرات الأخرى لقوى عالمية أخرى، فهل فعلا المغرب يملك الحقيقة؟ سيبقى هذا السؤال مطروحا. وبالمقابل هل تستر المغرب عن مبدأ الكشف عن الحقيقة، الجواب لا، وما تصديه لاستخراج الرفات من مقبرة الدار البيضاء إلا أكبر دليل على ذلك. أعتبر أن التجربة الوطنية للعدالة الانتقالية ذهبت إلى أبعد مدى خلال العشرين سنة الماضية، شوقي بنيوب، تجربة المغرب في العدالة الانتقالية.

(٥٧) نوفل الشرقاوي، **العدالة الانتقالية في المغرب... الإنجازات والنقائص**، أندبندت عربية، الثلاثاء ٩ يوليو ٢٠١٩، تاريخ الاطلاع: ٢٣\٤\٢٠٢٢

(٥٨) إدريس لكريني، **٧سنوات على تقديم هيئة الإنصاف والمصالحة لنتائج عملها**، نشر في الاتحاد الاشتراكي يوم ١٣ - ٢٠٢ – ٢٠١٣.

(٥٩) مالكي، **العدالة الانتقالية والتحول الديمقراطي في المغرب**، ص٣.

(60) Labdaoui, op.cit, p.18.

(٦١) كمال عبد اللطيف، **العدالة الانتقالية والتحولات السياسية في المغرب تجربة الإنصاف والمصالحة**، ص٢٨.

(٦٢) بودرقة وشوقي بنيوب، **كذلك كان...**، ص.٣.

(٦٣) مالكي، **العدالة الانتقالية والتحول الديمقراطي في المغرب**، ص ٤.

(٦٤) إدريس اليزمي، **خصوصية العدالة الانتقالية في المغرب**، جريدة الصحراء، الأربعاء ١١ يونيو ٢٠١٤.

(٦٥) بودرقة وشوقي بنيوب، **كذلك كان...**، ص٣

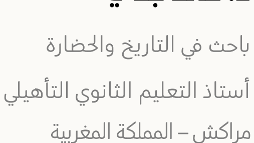
(٦٦) كمال عبد اللطيف، **العدالة الانتقالية والتحولات السياسية في المغرب تجربة الإنصاف والمصالحة**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص ٣٥-٣٨.

(٦٧) إدريس لكريني، **تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة بالمغرب**، معهد الوارف للدراسات الإنسانية، نشر في 22 :سبتمبر ٢٠١٤ ، تاريخ الاطلاع : ١٢\٥\٢٠٢٢.

(٦٨) السبتي، **التاريخ والذاكرة**، ص ٢١.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الخلفية الدبلوماسية لحرب الريف

د. خالد جدي
باحث في التاريخ والحضارة
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
مراكش – المملكة المغربية

الدِّرَاسَةُ

Jean-Louis Miege, «L'arrière-plan diplomatique de la guerre du Rif», Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°15-16, 1973. Mélange Le Tourneau. II., pp. 219-230.

جون لوي مييج مؤرخ فرنسي (١٩٢٣ – ٢٠١٨)، متخصص في تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر. ترنو هذه الدراسة التي انجزها جون لوي مييج، تتبع خيوط أبرز حدث شهده العهد الاستعماري والمتمثل في حرب الريف في شمال المغرب، لقد سلك الكاتب مقاربة التاريخ الدبلوماسي، فعرج على جميع المواقف الأوربية إزاء حدث حرب الريف، محاولا تفسير كل موقف على حدى بناء على وثائق وتقارير دبلوماسية آنية، إنها رحلة في جغرافية المجال المتوسطي خلال بداية القرن العشرون، رحلة مليئة بالمصالح والتجاذبات الدولية، تبين كيف استغلت فرنسا سياق حرب الريف في شمال المغرب لحالة تدويل المجال المتوسطي، وفي ختام دراسته يؤكد جون لوي مييج، أن تحليل الخلفية الدبلوماسية، لحرب الريف، على استمرارية مواقف الدول. في مدريد، كما هو الحال في باريس، ولندن، وروما، ظهرت ردود الأفعال لتقاليد القرن التاسع عشر. على الرغم من تقلبات الحرب، والآمال المعلقة على الهيئات الدولية الجديدة، والاضطرابات العميقة في العالم العربي، على الرغم من صعود القوى المناهضة للاستعمار، فقد انتصرت الأشكال؛ الأكثر تقليدية لدبلوماسية الإمبريالية، أعادت اكتشاف "وصفات" سنوات ١٨٨٧-١٨٩١م. وستكون العواقب المحلية والدولية، القريبة والبعيدة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام الترجمة:	٢٧	يناير	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

حرب الريف؛ التنافس الاستعماري؛ عبد الكريم الخطابي؛ فرنسا؛ إسبانيا؛ التاريخ الحديث والمعاصر؛ التاريخ الدبلوماسي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325616

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:

جون لوي مييج."الخلفية الدبلوماسية لحرب الريف"، ترجمة: خالد جدي.- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة - العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٢٢٩ – ٢٣٧.

Corresponding author: khalid.jeddi@outlook.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

الخلفية الدبلوماسية لحرب الريف

لطالما، كانت بعض جوانب حرب الريف متجددة، فجزء منها يندرج في سياق دبلوماسي، شكلته الاتفاقات الدولية، وبعد، المصادقة على الحماية الفرنسية، في المغرب، وفتح الأرشيفات[١]، والنشر الأخير للوثائق الدبلوماسية[٢]، كل ذلك شجع على إعادة تعريف هذا السياق الدبلوماسي، الذي بدونه ستظل العديد من الأحداث المحلية غير مفهومة.

كان تطبيق الحماية الفرنسية، على المغرب، نتيجة لخطة طويلة، فرضت نفسها أكثر على الدبلوماسية الفرنسية، في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، خطة تتناسب مع سياستها الشاملة في البحر الأبيض المتوسط، وتشكل واحدة من أقدم تقاليد السياسة الفرنسية، والتي أعيد التأكيد عليها ببراعة من قبل نابليون الثالث، بين سنتي ١٨٥٧ و١٨٦٣م[٣]، وكذلك، من قبل "الغامبيين" (Gambettistes)، المجتمعين حول رجل السياسة[٤]. لقد واجه نابليون الثالث، معارضة منظمة بشكل دقيق، من قبل بريطانيا العظمى، والتي كانت سياستها المتوسطية، بطرق ووسائل مختلفة، أحد ثوابت وزارة خارجيتها.

منذ صيف ١٨٨٤م، فشلت محاولات الوزير"أورتيجا" (Ordega) في تطبيق الحماية[٥]، فواجهت فرنسا عداء ممنهجًا، من بريطانيا العظمى، حيث عارضتها، ليس فقط، في إطار التنافس حول البحر الأبيض المتوسط (ولا سيما نفوذها على مصر)، لكن، نافستها في مواقع أخرى. وقد تعززت هذه المنافسة من خلال موقف "بيسمارك"، الذي كان رد فعله، في خريف ١٨٨٤م، نهاية لآماله في التفاهم الفرنسي الألماني، وتأييده لسياسة التوسع الاستعماري لبلده.

واجهت الدبلوماسية الفرنسية معارضة من طرف إسبانيا، وذلك، بسبب طموحاتها المحبطة في تونس، ومن إيطاليا. وتم تشكيل "رابطة متوسطية" مناهضة لفرنسا، من طرف لندن وبرلين، بدافع المخاوف، وانعدام الثقة، والاستياء من سياستها. وأدى تشابك الاتفاقيات، حول البحر الأبيض المتوسط، سنة ١٨٨٧ (حوالي عشر اتفاقيات)، إلى نسج شبكة مراقبة، فيما يتعلق، بميول الشركات الفرنسية، وإعادة التأكيد على الوضع الراهن، للبحر الأبيض المتوسط، حيث يمنعها من العمل لأكثر من عشر سنوات. هذه الاتفاقيات، لم توليها الإسطوغرافيا الفرنسية اهتمامًا كبيرًا، والتي لا تعتبر نتائجها مهمة، فقط، بل، لأنها ستبقى نوعا من النماذج المرجعية، التي لن يفكر فيها العديد من المسؤولين، أو المستشارين، في وزارة الخارجية، دون الحنين إلى الماضي، في سنوات ١٩٢٥م.

لم تستطع الحكومة الفرنسية التغلب على هذا السد من التحالفات، إلا بفضل مجموعة مهمة من الظروف الدولية، استخدمها بمهارة "دلكاسي"[٦] (Delcassé) على مر القرن العشرين. ومن ناحية أخرى، أدى الفشل الثلاثي، للقوى المتوسطية، إلى التشكيك في المبادئ ذاتها لسياستها الخارجية. كما أدت كل من كارثة أدوا[٧] (Adoua)، في مارس ١٨٩٦م ، وفقدان كوبا في ربيع ١٨٩٨ ، والتراجع الفرنسي بفشودة (يوليو - نوفمبر ١٨٩٨)، إلى التأثير بعمق، على البلدان الثلاثة، فاضطرت إلى الاقتراب فيما بينها، واعتبرت المساعي الفرنسية، بين الولايات المتحدة وإسبانيا، محل تقدير في مدريد، بينما أعقبت هزيمة أدوا المحادثات الفرنسية الإيطالية الأولى، التي وضعت نهاية للحرب الجمركية بينهما.

بدأ الاندفاع الألماني في البحر الأبيض المتوسط يثير قلق لندن، في الوقت الذي تم فيه محو الصراعات النسبية، بين الدول المتوسطية، ثم جاءت رحلة ويليام الثاني، إلى سوريا، وفلسطين، سنة ١٨٩٨م، وصعود التجارة الألمانية، في الإمبراطورية العثمانية بمشروع "بغداد- برلين"[٨] (Bagdadbahn)، حيث بدأ اختلال التوازن في شرق البحر الأبيض المتوسط، وأظهر أن الخطر، الآن، أقل من فرنسا، منه من المنافس التجاري الألماني. باستخدام هذا الوضع الجديد، لتحقيق مشاريع قديمة، تمكنت الدبلوماسية الفرنسية من إقامة جميع المحادثات، التي أدت إلى الاتفاقات الرئيسة، بشأن المغرب، في سنوات ١٩٠٢-١٩٠٤م: اتفاقية الانسحاب الفرنسية الإيطالية، (بالمثل بشأن ليبيا والمغرب)، والاتفاق الفرنسي- الإنجليزي، في أبريل سنة ١٩٠٤م، واتفاقية التعاون الفرنسي- الإسباني، في أكتوبر سنة ١٩٠٤م.

لا شك، أن هذه الأدوات ظلت هشة، ولم تلغ مخزون الشكوك القديمة. لقد واجهت الدول الأوربية معارضة مزدوجة خارج وداخل كل بلد. استنكر الرأي العام، في كل حزب استعماري، عمليات التخلي عن نظيره، بهذا الشكل.

وهكذا، أكدت إنجلترا بقوة، من خلال لوبي قوي، تتلخص حججه، من خلال كتاب أفلالو، "الحقيقة حول المغرب" (Truth about Morocco). وفي إسبانيا، يتفاقم استياء الأفارقة، بينما كان هناك قلق في إيطاليا، بشأن استمرار المؤامرات الفرنسية في طرابلس.

تميزت المعارضة الألمانية على المستوى الخارجي، بضرباتها المتنوعة، وبإنزال ويليام الخامس في طنجة، وتبني قضية الفارين من الدار البيضاء، والوقوف وراء انقلاب أكادير. فمن المهم التأكيد على أن الهجوم الألماني أدى إلى إسكات بعض المعارضات، داخل فرنسا، التي كانت مواقفها متذبذبة في البداية، فإذا زال التهديد الألماني، ولد معارضات من جديدة.

وهكذا، شكلت الاتفاقيات الأنجلو-إسبانية، والفرنسية-الإسبانية، الموقعة في ١٦ ماي، سنة ١٩٠٧م، والمتعلقة بالحفاظ على الوضع الراهن، في البحر الأبيض المتوسط، جبهة الجديدة[٩]. والتي بدت كنسخة معكوسة، لاتفاقيات سنة ١٨٨٧م، فهي تعتبر، بالفعل، نهاية "التحالف المتوسطي الرباعي"، الموجه ضد فرنسا.

استمرت التوترات المحلية، لا سيما الوضع في طنجة، مع تطبيق، اتفاق الجزيرة الخضراء، و"الاختراق السلمي" للمغرب. تم تجديد الاتفاق الدبلوماسي، الذي يضمن، الوضع الخاص للمدينة وضواحيها من خلال مشروع المعاهدة الفرنسية الإسبانية، لسنة ١٩٠٢م، المادة ٩ من الاتفاقية الفرنسية الإسبانية السرية، بتاريخ ٣ أكتوبر ١٩٠٤، ومذكرة السيد إدوارد جراي (Edouard Grey)، في ١٤ نونبر ١٩١١، والتي تشير إلى الالتزام التام "بوضع المدينة بشكل نهائي تحت السيطرة الدولية"، معاهدة الحماية الفرنسية المغربية المؤرخة، ب ٣٠ مارس سنة، ١٩١٢م، (المادة الأولى، "ستحتفظ مدينة طنجة بالطابع الخاص، الذي تم الاعتراف به لها، والذي ستحدده منظمة تم تأسيسها لهذا الغرض")، المادة ٧، من المعاهدة الفرنسية الإسبانية، المؤرخة، ٢٧ نونبر، سنة ١٩١٢م، ("سيتم تزويد مدينة طنجة، وضواحيها بنظام خاص، سيتم تحديده لاحقًا")، استهلت المحادثات، حول طنجة، سنة ١٩١٣م، واستمرت إلى غاية سنة ١٩١٤م، بين فرنسا، وبريطانيا العظمى، وإسبانيا، وتم تعليقها أثناء الحرب. ولضمان دعم إسبانيا، لم يوافق الإنجليز والفرنسيون، على التنازل عن مسألة طنجة. واتجاه الشائعات المختلفة عن التدخل الإسباني - الذي تم تأسيسه للتحقق من ردود فعل الحلفاء، خاصةً في سنة ١٩١٥، الذين استجابوا، أكثر من غيرهم للتحذيرات.

كما أن الحكومة الفرنسية، لم تتوقف عن استغلال كل الظروف، لتعزيز سلطتها في المغرب، ففي بعض الأحيان، تلجأ لتفسير أوسع للنصوص الدولية، وأحيانًا أخرى، عن طريق جهلهم الإداري. تقلصت بشكل كبير (أكثر من الثلث)، المساحة التي تركتها لإسبانيا، مقارنة بما وعدت به الاتفاقيات السابقة. وقد عزز هذا الإجراء من العداء الإسباني، الذي أخذ يظهر بوضوح، من خلال انتهاكات السلطات الفرنسية، وسياستها في الريف، وكذلك، التحقير المعلن، من خلال العمل العسكري، والاستعماري لمدريد[١٠]. وأسفرت محاولات التحايل على شروط الجزيرة الخضراء، إلى احتجاجات في دوائر الأعمال الإنجليزية، وفي الولايات المتحدة. وهو ما يفسر تحفظ وزارة الخارجية الأمريكية، عن الاعتراف بالحماية الفرنسية، على الرغم من الخطوات الملحة للسفير الفرنسي "جوسيران" (Jusserand)، في الولايات المتحدة الأمريكية. فلم توافق أمريكا على هذه الشروط، إلا في ٢٠ أكتوبر، سنة ١٩١٧م، دون أن تحافظ على جميع الامتيازات[١١].

في الأخير اصطدمت، جهود الاختراق الفرنسية والإسبانية، في الريف.

استخدمت الحكومة الفرنسية، علاقاتها القديمة مع الزوايا في الريف، وهجرات العمال الريفيين، نحو القطاع الوهراني، وتجنيد العديد من الأفواج منهم[١٢]. ألغيى القانونان الملكيان، الصادران في أكتوبر، سنة ١٩٠٦م، ومارس سنة ١٩٠٧م، المتعلقان بالسجناء، مما ساهم بشكل كبير في تطوير سبتة ومليلية، حيث عرفت المدينة الأولى تزايدا سكانيا، من ١٣٠٠٠ إلى ٢٤٠٠٠ نسمة، خلال الفترة الممتدة من ١٩٠٠ إلى ١٩١٠م، بينما عرفت مليلية ارتفاعًا في عدد السكان من ٥٦٠٠ نسمة، إلى ١٥٠٠٠ نسمة، خلال الفترة الممتدة ما بين ١٨٩٥ إلى ١٩١٠م[١٣]. كما نجد الشيء نفسه في الاهتمام بقطاع التعدين، خاصة الشركة الإسبانية للمناجم بالريف (برأسمال إسباني، وألماني، وبلجيكي والتي لعب فيها رومانونيس (Romanones) دورًا مهما، وشركة شمال إفريقيا

(برأسمال أغلبه فرنسي، وتدعمها المجموعة الاستعمارية الفرنسية، التي يرأسها إتيان (Etienne)، التي تطورت إلى حد كبير من ١٩٠٦-١٩٠٧م[١٤]. فلم يكن هذا الدور، غير المرتبط، برفض مدريد المتجدد للنظر في قضية تبادل سبتة بجبل طارق، وهو مشروع قديم، تم تناوله بشكل دوري، خلال سنتي ١٩٠٢-١٩٠٣م، لكن، في سنة ١٩١٧م، سيوضع في الأجندة السياسية الخارجية الإسبانية، في فترة ما بين سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٢م[١٥].

في سنة ١٩١٩، وبعد انتصار الحلفاء، استعاد الوضع الدبلوماسي بعض مقومات سنة ١٨٨٧م.

1 - يعتبر البحر الأبيض المتوسط "مركز النظام الإمبراطوري البريطاني"، إن تأثير المملكة المتحدة، في شرق البحر الأبيض المتوسط أمر حاسم، على الرغم من أنه يتعارض مع مزاعم فرنسا. أرادت لندن الاحتفاظ بالقيادة، وتوافق على منح الدبلوماسية الفرنسية دورًا حاسمًا في غرب البحر الأبيض المتوسط، شريطة ألا تغير، هذه الهيمنة السياسية، سيطرتها على الطرق البحرية[١٦]. عملت وزارة الخارجية البريطانية من أجل الحد من الهيمنة الفرنسية المحتملة، و انعكاس سياستها التقليدية، والمشكلة المغربية، بوصف الأحداث المتأخرة، بإسهاب، في مذكرة والذي تمت استعادتها. ويتعلق الأمر بمذكرة قدمها "غريغوري" (Gregory)، في يوم ١٠ أبريل ١٩٢٦م، إلى السيد أوستن تشامبرلين (Austen Chamberlain)، هذه المذكرة التي تعيد التأكيد على مبادئ توازن القوى، والسيطرة، والأمن، في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وتجدر الإشارة، بشكل خاص، إلى الممر المتعلق بالريف: "لسنا مستعدين لرؤية ساحل المغرب المتوسطي، وخاصة الشاطئ الجنوبي، لمضيق جبل طارق، في أيدي قوة من الدرجة الأولى، وبعض المخاوف التي أثيرت العام الماضي، مع النجاحات الأولية للريفيين ضد الإسبان. فلو تم طرد الإسبان، في الجانب الذي تسيطر عليه من المغرب، لكان قد نشأ موقف محرج للغاية. نحن، بالتأكيد، لسنا مستعدين للسيطرة على ساحل الريف بأنفسنا، ولسنا مستعدين لرؤية الفرنسيين، أو الإيطاليين، مستقرين بين سبتة ومليلية "[١٧].

بدا، في سنة ١٩١٩، أن الميزان الأوربي القديم قد استبدل بـالهيمنة الفرنسية. التي أكدت نفسها في المغرب. تلغي المادة ١٤٢، من معاهدة فرساي، جميع الاتفاقيات بين ألمانيا والإمبراطورية الشريفية. بموجب المادة ١٤٣، تعترف الحكومة الألمانية بأن الحكومة الشريفية، (وهي كلمة استبدلت، بناء على طلب الممثل الفرنسي، الذي كان يفكر في طنجة، بعبارة "فرنسا") تتمتع بحرية تامة في التصرف من أجل "تنظيم الوضع، وشروط حماية الألمان في المغرب ". وللكشف عن مدى تطور أكبر للطموحات الفرنسية، خلال اجتماع مكتب المؤتمر، في ١٨ و٢٥ فبراير ١٩١٩م، أعرب "كليمنصو" (Clemenceau) عن رغبة الحكومة الفرنسية، في إلغاء بعض أحكام قانون الجزيرة الخضراء، ولكن، في نداء حماسي، نددت "بيريتي ديليا روكا" (Peretti Delia Rocca)، بموقف إسبانيا أثناء الحرب، وطالبت بضم طنجة، بعد انسحاب إسبانيا "الجزئي أو الكلي" منها[١٨]. لم يتم اتباع الممثلين الفرنسيين، وسيتعين عليهم قبول: "إخضاع طنجة في المستقبل لنظام خاص". فواصلت الحكومة البريطانية مخاوفها- أو التظاهر بالخوف جزئيًا - من المخططات الفرنسية، اتجاه المدينة. ففي العديد من المناسبات الرسمية، أو غير الرسمية، تذكرنا الاتصالات، بمدى أهمية مسألة طنجة بالنسبة لها. ففي يناير، سنة ١٩٢٢م، سيلاحظ المراقب البلجيكي جايفير (Gaiffier)، أن ضمانات إنجلترا على نهر الراين (Rhin)، "يصعب تحقيقها، طالما أنه لم يتم التوصل إلى اتفاق فرنسي بريطاني، بخصوص موضوع طنجة. ووفقًا للإنجليز، يضيف: فإن مقاومة فرنسا لأي اتفاق حول هذا الموضوع، تأتي من فكرة أن الأخيرة تجعل من طنجة، ميناء للغواصات، والطائرات، الموجهة نحو جبل طارق، وضد السيادة البريطانية، في البحر الأبيض المتوسط "[١٩]. كما تشعر المملكة المتحدة بالقلق، إزاء الإجراءات التي اتخذتها الإدارة الفرنسية، للالتفاف على مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، بكل الطرق الممكنة، من أجل تفضيل الشركات الفرنسية، ولا سيما في طنجة، تحت غطاء سلطة السلطان. تحتوي أرشيفات لندن، وكذا أرشيفات واشنطن، على عدد كبير من الرسائل المتعلقة بهذه الانتهاكات، التي تشجع

على استمرار معارضة السياسة الفرنسية، لمجموعة من الأعمال التي تحظى بإذن، من المسؤولين البريطانيين.

أخيرًا، قصدت الحكومة البريطانية، استخدام مسألة المغرب، وفقا لكلماتها الخاصة، واعترف السيد "إير كرو" (Eyre-Crowe)، نائب وزير الخارجية، للسفير البلجيكي، بلندن "مونشور" (Moncheur)، في يونيو ١٩٢٢م، كورقة مساومة، في كل صراعاتها مع فرنسا - في الشرق الأوسط، في تونس، حول الجنسية المالطية[٢٠].

هذا الموقف العدائي لإنجلترا، سوف يتم الحفاظ عليه، في السنوات المقبلة. ففي خريف سنة ١٩٢٣م، ستثبت نفسها، خلال المفاوضات بشأن طنجة. وفي مارس سنة ١٩٢٤م، لاحظ الوزير الأول البريطاني، "رامسي ماكدونالد" (Ramsay MacDonald)، أن "الرأي العام البريطاني، يحس، بعدم الثقة من فرنسا" ولن يخفي مشاركة مخاوفه[٢١]. على الرغم من التحسن القصير، في العلاقات الفرنسية البريطانية، مع وصول "هيريوت" (Herriot) إلى السلطة، فظلت وزارة الخارجية حازمة، على هذا الموقف، ولم تتوقف على تشجيع إعادة تشكيل ضمنية، لـ "عصبة ١٨٨٧م". فزيارة تشامبرلين (Chamberlain) لروما، في دجنبر سنة ١٩٢٤م، والتنازل الإنجليزي عن جغبوب الليبية، والمبادرات المتعلقة بإثيوبيا، ستشكل عودة هياكل العمل الدبلوماسي الإنجليزي، في البحر الأبيض المتوسط[٢٢]. انقضت فترة ما بين ١٩٠٤ و١٩١٨م، بسبب الخطر الألماني، وأعادت إنجلترا اكتشاف ممارساتها، ما بين ١٩٢٤-١٩٦٥م، كاللحظات العظيمة، ما بين ١٨٨٥-١٨٨٧م، عندما دفعت لندن إيطاليا، نحو البحر الأحمر، واستخدمت "الكراهية والعداء لفرنسا والفرنسيين وكل ما يتعلق بها"، لمواجهة نفوذها. كان هذا أحد أكثر مواقفها التقليدية، وأحد أكثر إجراءاتها العرفية.

تواجه الاحتياط الأمريكي، وموقف انعدام الثقة البريطاني، مع عداء ملحوظ من إسبانيا وإيطاليا، حيث عرفت إنجلترا كيفية استخدامه، لإعادة إعمار جبهتها المتوسطية.

كانت إسبانيا تمر بواحدة من أخطر أزمات مؤسساتها السياسية، فقد شهدت ثلاث عشرة أزمة وزارية، وثلاثين أزمة جزئية، في الفترة الممتدة من١٩١٧ إلى ١٩٢٣م، وظلت في حالة من الاضطراب السياسي، حيث كانت تشوش على السلطة الحاكمة كل من، النقابات العمالية، والكتالانية، والعلمانية، والعسكر[٢٣]. وخلال هذا النقاش، فقد جزء كبير من الرأي العام، إهتمامه بالمغرب، أو يندد بالهاوية التي يمكن، أن يمثل لمالية الدولة، من خلال مشروع عقيم، كالمغامرة الإسبانية في كوبا، والتي كلفت أكثر من ثلاثة مليارات بيزيتا اسبانية، مليار ونصف، مابين سنة ١٩٠٨م، وسنة ١٩١٥، وأكثر من مليار من سنة ١٩١٦م، إلى سنة ١٩٢١م[٢٤]. رأت بعض الأوساط الإسبانية، في سنة ١٩١٩م، تفويت المنطقة المغربية لفرنسا. إقترح "ميغيل بريمو دي ريفيرا" (Miguel Primo de Rivera)، في خطاب شهير ألقاه في قادش، سنة ١٩١٧م ، اقترح التخلي عن المنطقة الإسبانية[٢٥].

من ناحية أخرى، عزز هذا الموقف قوة عصبة "أفريكانيستا"[٢٦] (Liga Africanista). التي دعت إلى إعادة إحياء الحركة، بعد خسارة المستعمرات القديمة، فوجد متحدثون، عبر الصحافة، من ضباط، محسوبين على ألفونسو الثالث عشر (Alphonse XIII) القائد الأعلى للجيش، والمتعاملين مباشرة مع العمليات المغربية. واعتبرت الحكومة الإسبانية، في سنة ١٩١٩م، أنه ينبغي الاستماع إليها في مؤتمر فرساي، بشأن مسألة المغرب لكونها "إحدى القوى الرئيسة المعنية". اتصلت وزارة الخارجية الإسبانية بالمندوبين الأمريكيين لتأييد هذا الطلب. وقد أعرب ألفونسو الثالث عشر، مرارا، عن إنزعاجه من عدم استلامه طنجة، ثمناً لحياده أثناء الحرب[٢٧]. وتحول العداء الإسباني، في البداية، نحو إنجلترا - حيث حملتها مسؤولية تقييد المنطقة الإسبانية، خلال معاهدة ١٩١٢ – ثم هاجمت فرنسا، وقد أدت كارثة أنوال في يوليوز سنة ١٩٢١م، إلى تفاقم هذا الشعور. استنكرت عصبة "الأفريكانيستا"، ومجلتها الرسمية "Rivista Hispano Africana "، في عددها الأول من يناير سنة ١٩٢٢م، المواقف المزدوجة لفرنسا. وشددت على الحقوق القديمة لإسبانيا على طنجة، وأهمية السكان الإسبان في المدينة. وقد أشادت بتطور مدينتي مليلة وسبتة، اللتين تم تنشيط مينائيهما، منذ سنة ١٩١٩م. و ذكرت، أخيرا، كيف عملت فرنسا، بلا توقف، على تعزيز مزاياها في الريف، منذ نهاية القرن التاسع عشر.

ستؤثر هذه الصعوبات على المحادثات التحضيرية الطويلة لاجتماع المؤتمر، الذي يهدف إلى وضع النظام الأساسي لطنجة، خلال سنة ١٩٢٢م، وربيع سنة ١٩٢٣م.

وتؤكد تقارير، رسمية إسبانية، أن الريفيين يتلقون دعما منتظما، من الأسلحة، والذخائر، والإمدادات، من قبل السلطات الفرنسية، المتهمة برغبتها في طرد الإسبان من المنطقة لصالحهم[٢٨]. وذهبت وزارة الخارجية الإسبانية إلى القول، بأنها يمكن أن تنظر، في تدويل المنطقة الإسبانية، باستثناء سبتة ومليلة، من أجل الضغط على المحاور الفرنسي، وكذا، امتناع مدريد عن التوقيع على القانون الذي كان من الصعب وضعه في باريس، (المؤتمر الذي استمر، من ٢٥ أكتوبر، إلى ١٨ دجنبر سنة ١٩٢٣م)، كان ذلك، سيؤدي إلى تأجيل المصادقة عليه، إلى غاية ١٤ من ماي ١٩٢٤م[٢٩]. طوال هذه الفترة، من سنة ١٩١٩م، إلى سنة ١٩٢٥م، ظل انعدام الثقة ثابتا بين الحكومتين؛ الإسبانية، والفرنسية. ففي إسبانيا، كنيسة رومان (Romanes)، والمعارضة الجمهورية، هما من يؤيد التقارب مع باريس، كما اشتهرفي فرنسا، عداء فليب بيرثيلو (philippe Berthelot)، الأمين العام لوزارة الشؤون الخارجية لإسبانيا[٣٠]، وكما هو الحال في الرباط، السخرية المقيتة لليوطي (Lyautey). إن الميل إلى الجرمانوفيليا (La Germanophilie)[٣١] - وهو الأمر الأكثر وضوحا، لدى العديد من الأفارقة الإسبان، يعني أن المعارضة في فرنسا، للاتفاقية مع إسبانيا، تتغذى من الحجة القائل،ة بأن أي إرضاء سيتم إعطاؤه لها في المغرب، سيعطى في الواقع لألمانيا. نفس المشاعر المعادية لفرنسا، في مكاتب وزارة الخارجية الإسبانية، أكدها جميع المراقبين الأجانب، ولا سيما السفير الإيطالي بولوتشي Paulucci.[٣٢]

في هذا النزاع حصلت إسبانيا على دعم إيطاليا، وأعادت القوتان اكتشاف انسجامهما المتوسطي، لسنوات ١٨٨٧-١٨٩٦م، ضد فرنسا.

تميزت السياسة الإيطالية بالاستياء من تسوية السلام، ومرت بمرحلتين؛ وكان لديها أمل في اتفاق محتمل، مع فرنسا، حتى بداية سنة ١٩٢٣م. ويعتبر الموقف الإيطالي، خلال صراع الرور (Ruhr)، آخر دعوة للحكومة الفرنسية، لإعادة النظر في سياستها تجاه إيطاليا. وإذ يقول كواروني (Quaroni): "لم تكن هناك استجابة حقيقية لهذا التقدم". ثم عادت الحكومة الإيطالية إلى الدعامة الأساس، لسياستها الاستعمارية - والتي كان، لا بد، من حمايتها خلال الحوادث القصيرة، في تركيا واليونان، يعني الحفاظ، بأي ثمن، على علاقاتها الجيدة مع إنجلترا. وهكذا، وجدت الدبلوماسية الرومانية مسارات التنافس القديم، ضد السياسة الفرنسية، في البحر الأبيض المتوسط ، بشكل متتال، منذ سنة ١٨٧٨م، إلى غاية الحرب العالمية الأولى.

تعزز هذا العداء، في أعقاب الصراع، الذي بدت نتائجه سلبية، تماما، في نظر الإيطاليين. ويشير كوروني إلى أن "إيطاليا لم تحبط، فقط، من ثمار الإنتصار الذي نتج عنه اضطراب كامل في الإطار السياسي، الذي تم فيه توسيع، وتقوية إيطاليا خارجيا، في إطار التوازن الأوربي. يبدو أن إيطاليا، قاتلت تحت اسم " مجد الله الأعظم" (Ad majoren Franciae gloriam)، ولم تُظهر فرنسا جحودا للجميل، تجاه حليفتها فحسب، بل، حاولت أيضا حصرها في موقع من الدرجة الثانية، وحرمانها من كل إمكانية للتطور والتوسع"[٣٣]. سعى جيوليتي (Giolitti) - بطريقة متناقضة، للحصول على تنازلات من فرنسا، واستعادة التوازن القديم من خلال دعم ألمانيا، وتركيا، والنمسا.، إلا أنه لم يجد تفاهما بين محاوريه الفرنسيين. كان الخلاف قد تفاقم، وتم وصف مجرياته، جيدا، في محادثة سيجريها الأمين العام لوزارة الخارجية الإيطالية، كونتاريني (Contarini)، في ماي سنة ١٩٢٥م، مع السفير البلجيكي، الكونت ديليا فيلDélia Faille ([٣٤])، الذي فهم بعمق، مشكلة تونس، ومشكلة التعويضات الاستعمارية، ومشكلة طنجة.

مشكلة الإيطاليين في تونس، والإتفاقية الفرنسية – الإيطالية لسنة ١٨٩٦م، والتي تنظم وضع المستعمرة الإيطالية في إطار الحماية، والتي تجدد كل سنة، إلى غاية شتنبر لسنة ١٩١٨م، حيث سيتم إلغاؤها. رغم بعض التمديد، كل ثلاثة أشهر. في الوقت نفسه، استنكرت الصحافة الإيطالية الرسمية، هذا الإجراء الذي اتخذته السلطات، وهو مصدر إلهام لكتاب " Tunisiaca"، الذي نشرته مارجريتا سارفاتي (Margerita Sarfatti)، صديقة موسوليني في سنة ١٩٢٣م، مع مقدمة، تحت اسم

مستعار لرومانوس، وأعتبر موضوع احتجاجات منتظمة، وعاجلة من وزارة الشؤون الخارجية الإيطالية. ظلت مشكلة التعويضات الاستعمارية، التي وعدت بها معاهدة لندن، في ٢٦ أبريل سنة ١٩١٥م، دون حل. من خلال نبذها الضمني للتراث الاستعماري الألماني، ويمكن لإيطاليا، من الآن فصاعدا، أن تتصور أي توسع، فقط، على حساب المنتصرين، وهذا يعني، بالأساس، فرنسا، التي لم يجلب انتصارها التفاهم أو التسوية(٣٥).

انزعجت الحكومة الإيطالية، من الموقف العام لفرنسا تجاهها. وهذا ما أعطى مشكلة طنجة بعدها الحقيقي. أرادت إيطاليا أن تشارك في صياغة النظام الأساسي الجديد، في إدارة المنطقة الدولية، لأسباب تتعلق بهيبة الدولة، وبسياسة البحر الأبيض المتوسط(٣٦). فجاءت المحادثات، بين السفير، أفيزانا (Avezzana)، وبوانكاريه (Poincaré)، ضد الحجج الفرنسية "القانونية"، التي بموجبها أدت الاتفاقيات الفرنسية الإيطالية، لسنوات، ١٩٠٢-١٩١٢م، إلى عدم اهتمام إيطاليا بالمغرب كله، مقابل حرية التصرف في ليبيا. ورد الممثل الإيطالي، بأن طنجة خارج هذه الاتفاقات، بعد أن اعترفت فرنسا بمكانة المدينة الخاصة، في مختلف المحافل الدولية. في الواقع، بالنسبة لفرنسا، كان الاعتراف بإيطاليا، محفوفا بالمخاطر لرؤية القوى الأخرى، ولا سيما، الولايات المتحدة، بدفاعها الصارم عن سياسة الباب المفتوح، حيث طالبت، بالحق نفسه بالنسبة لها. كان الحادث "الكوميدي البطولي"، لهبوط الدرك الإيطالي في طنجة، في صيف سنة ١٩٢٣م، علامة على رغبة الإيطاليين، في ربط "الأطروحة الثورية" بالتوسع الاستعماري (٣٧).

ولمواجهة العناد الفرنسي، وصول "بريمو دي ريفيرا" (Primo de Rivera)، إلى السلطة، في ١٣ شتنبر، سنة ١٩٢٣م، نتج عنه التقارب الإيطالي-الإسباني. وفي ربيع، سنة ١٩٢٣م، بدأت المحادثات التجارية بينهما، فنتج عنها إبرام اتفاقية في ١٥ نونبر، السنة نفسها. وعززت رحلة الملك، ألفونسو الثالث عشر، برفقة بريمو دي ريفيرا، إلى روما، العلاقات السياسية. كان التصور هو تشكيل الكتلة الأنجلو-إيطالية-الإسبانية-البرتغالية، لمواجهة الهيمنة الفرنسية في المغرب: لقد كانت، بالضبط، إعادة إحياء "العصبة" ما بين سنتي ١٨٨٧ و١٨٩١م. إذا لم يؤد المشروع إلى اتفاق، في شكل علاقات دبلوماسية، بين القوتين اللتين ظلتا قريبتين جدًا. فزيارة الملك الإيطالي، "فيكتور إمانويل" (Victor-Emmanuel) لمدريد، في يونيو ١٩٢٤م. من خلالها، يمكن أن تسمح هذه الاتفاقية بين البلدين، لروما بالاستجابة بشكل إيجابي، لدعوة عبد الكريم للعمل، كوسيط بين إسبانيا والريفيين(٣٨). لقد، أدت الصداقة الايطالية الإسبانية، والتقارب مع إنجلترا، إلى دعم المظاهرات الفاشية العدوانية ضد فرنسا. بين خريف وشتاء سنة ١٩٢٤م، تم عزل فرنسا، دبلوماسيا.

استهلت سنة ١٩٢٥م بهجوم عبد الكريم على المنطقة الفرنسية، (أبريل سنة ١٩٢٥م)، ولكن، دون أن يكون الهجوم حاسمًا. ستؤدي سلسلة من الأسباب إلى إضعاف جبهة البحر الأبيض المتوسط مؤقتا، والتي سيتم إعادة تشكيلها، في صيف، سنة ١٩٢٦م(٣٩).

العنصر الأول، هو حدود التقارب الإسباني الإيطالي. سيكون من المستحسن، أن نتساءل عن احتمالات هذا التقارب، فمنذ التاريخ أعلاه، بدأت تظهر بوادر حرية العمل الإسباني. تحدث دبلوماسيون إيطاليون، في سنة ١٩٢٤م، عن عدم إلزام "بريمو دي ريفيرا" مع إيطاليا، باتفاق رسمي، فيما يتعلق بباريس، وهو القرار الناشئ، عن اعتبارات اقتصادية، واستراتيجية، ومالية، وعسكرية.

العنصر الثاني، حصلت بريطانيا العظمى، في شتاء ١٩٢٤-١٩٢٥م، على وعد بإخلاء منطقة الرور (Ruhr). وفي بداية سنة ١٩٢٥م، تغير موقف "كاي دورسي " (Quai d'Orsay) تجاه إيطاليا، في ضوء المحادثات، التي أدت إلى توقيع اتفاقيات "لوكارنو" (٥-١٦ أكتوبر ١٩٢٥م). وأكد الممثل الإيطالي أفيزانا (Avezzana)، في باريس، على هذا التطور، الذي تأكد في صيف، سنة ١٩٢٥(٤٠). بعثات السفير البلجيكي، إلى باريس، تعطي الانطباع نفسه، عن روح جديدة من المصالحة مع الفرنسية(٤١). خلافًا لجميع المواقف الصارمة، التي كانت سائدة، في السنوات السابقة، ففي ٢٥ شتنبر، عرض وزير الخارجية الفرنسي "أريستيد بريان" (Aristide Briand)، على إيطاليا "بشكل عفوي"، مقابل دعم السياسة الأوربية، إزالة أي سبب من أسباب التوتر بين البلدين: منها مراجعة فرنسا المسألة التونسية، من أجل إرضاء الرأي العام الإيطالي، وكذا، مراجعة الوضع في طنجة، من منظور

إيجابي. وستدعم فرنسا، أخيرًا، المطالب الإيطالية، بشأن الانتدابات الألمانية القديمة، في حال قررت إنجلترا إعادتها إلى برلين، كما ستدعم إيطاليا، إذا سنحت لها الفرصة، للحصول على المستعمرات البرتغالية.

وهكذا، في نهاية صيف سنة ١٩٢٥م، بدأت فترة تصفية الريبة، والخلافات، حيث أصبح المناخ العام هو، القضاء على الجبهة المتوسطية، المناهضة للفرنسيين. هذا الهدوء الدبلوماسي، لن يكون بدون عواقب، على اختتام قضية الريفيين. وتوضح، بشكل خاص، أن مشاريع الوساطة الإيطالية، قد انتهت بإرادة مدريد، بقدر رغبة روما، في عدم إعاقة تقاربها الأخير مع باريس.

نسيت الدبلوماسية الفرنسية، بعد خطر الريفيين، وعودها لإيطاليا. ولتعزيز مكانتها، في البحر الأبيض المتوسط، استجابت إنجلترا باستئناف سياستها التقليدية؛ سياسة حشد قوى البحر الأبيض المتوسط، النابعة من عدم الثقة، فيما يتعلق بـ "الهيمنة الفرنسية"، تم التوقيع على المعاهدة الإيطالية الإسبانية، في ٨ غشت سنة ١٩٢٦م، بموافقة إنجليزية. و تدعم وزارتها الخارجية مطالب إيطاليا وإسبانيا ـ لعقد مؤتمر حول المغرب، لكي تحافظ على "جبهة البحر الأبيض المتوسط" المعادية لفرنسا: فكان اللقاء، في ليفورن (Livourne)، خريف سنة ١٩٢٦م، علامة على هذا التحالف الأنجلو-الإيطالي-الإسباني [٤٢].

وهكذا، تميزت فترة حرب الريف، من سنة ١٩٢٢م إلى سنة ١٩٢٦م، باستثناء الفترة القصيرة التي سبقت وتلت معاهدة لوكارنو، باستعادة، إن لم يكن بالحرف، روح اتفاقيات البحر الأبيض المتوسط، لسنة ١٨٨٧م[٤٣].

يؤكد تحليل الخلفية الدبلوماسية، لحرب الريف، على استمرارية مواقف الدول. في مدريد، كما هو الحال في باريس، ولندن، وروما، ظهرت ردود الأفعال لتقاليد القرن التاسع عشر. على الرغم من تقلبات الحرب، والآمال المعلقة على الهيئات الدولية الجديدة، والاضطرابات العميقة في العالم العربي، على الرغم من صعود القوى المناهضة للاستعمار، فقد انتصرت الأشكال؛ الأكثر تقليدية لدبلوماسية الإمبريالية، وأعادت اكتشاف "وصفات" سنوات ١٨٨٧-١٨٩١م. وستكون العواقب المحلية والدولية، القريبة والبعيدة.

الاحالات المرجعية:

(1) Sauf pour les archives des Affaires Etrangères et d'Outre-Mer de France et d'Italie.

(2) Notamment les Documenti diplomatici italiani, 7e série sous la direction de MM . Moscati et Carocci, Rome, 1966 sq. ; Documents of British Foreign Policy, 1919-1939, 1(e) série et série IA, I, Sous la direction de R. Duler, D. Dakin et M.E. Lambert, Londres, 1963 sq. ; Les Documents diplomatiques belges, 1920-1940, publiés par Ch. de Visscher et F. Vanlangenhove, Bruxelles, 1961 sq.

(3) Sur le "dessein méditerranéen" de Napoléon III par "l'union des races latines", Temime (E), La France et l'Espagne 1848-1868, Aix, 1973.

(4) Gambetta avait à plusieurs reprises dans la République française souligné le rôle que devait assumer la France en Méditerranée.

(5) Le 18 juin 1884. Sur ces antécédents, J. L. Miège, Le Maroc et l'Europe, T. III, Paris, 1962.

(٦) دبلوماسي فرنسي شغل وزير المستعمرات (١٨٩٤-١٨٩٥) ، ثم الشؤون الخارجية (١٨٩٨-١٩٠٥) ، كسر العزلة الدبلوماسية لفرنسا، كان مهندس الوفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا العظمى (اتفاقيات أبريل ١٩٠٤)، شغل كذلك وزير البحرية (١٩١١-١٩١٣) ثم سفيرًا في سانت بطرسبرغ (١٩١٣-١٩١٤)، ثم وزيرًا للخارجية في ١٩١٤-١٩١٥. (المترجم).

(٧) قرية توجد بإثيوبيا حيث انهزم الجيش الإيطالي أمام نظيره الإثيوبي بمساعدة إنجليزية. (المترجم)

(٨) مشروع برلين - بغداد ، الكلمة الألمانية Baghdadbahn ، هي عبارة عن خط سكة حديدية، تم بناؤه بين عامي ١٩٠٣ و ١٩٤٠ في الإمبراطورية العثمانية، مما يجعله أحد أكبر أعمال البنية التحتية في ذلك الوقت، وأحد الإنجازات الكبرى للإمبريالية الاقتصادية الألمانية. (المترجم)

(9) Sur l'accord méditerranéen de 1907, Documents diplomatiques français, 2e série, t X, Madrid, 2.1.1907, 18.1.1907 et sq ; note du 10 avril 1912 ; British Documents on the origins of the war, t. VII, p. 1 sq ; Hallmann (H.), Spanien und die Franzôsisch-englische mittelmeer Rivalitât, Stuttgart, 1937, p. 203-225.

(10) Le Bulletin du Comité de l'Afrique française, organe officieux des milieux coloniaux affiche une condescendance constante à l'égard de l'oeuvre espagnole au Maroc, v. notamment mai 1922, p. 268 ; août 1922, p. 385 etc.

(11) Hall (L.J.), The United States and Morocco, Metuchen, 1970, p. 689.

(12) Sur cet aspect peu connu de l'émigration riffaine v. notamment la campagne du journal anglais de Tanger Al Maghreb al-Akça, n° des 19.2.1898, 5.3.1898, etc.

(13) Sur le rôle de Ceuta dans la politique riffaine de l'Espagne, Manual Gordillo Osuna, Geografia urbana de Ceuta, Madrid, 1972.

(14) Sur ces entreprises minières, l'entrelas et l'affrontement des intérêts miniers, Duchesne (A.), Leopold II et le Maroc, Bruxelles, 1965, p. 237.

(15) Les réactions espagnoles au projet, i cette date, sont bien analysées par Gile Armanguè Ruis, Gibraltar y los espanoles, Madrid, 1964.

(16) Dimming (H.H.), Franco-British Rivalry in the Post war Near East : The decline of Franch influence, Londres, 1938.

(17) Documents on British Foreign Policy, 1919-1939 I.A., Londres, 1966 pp. 846-881 : Memorandum on the Foreign Policy of this Majesty's government, with a list of British Commitments in their relations order of Importance. Sur le Rif, p. 253.

(18) Sur la politique française i l'égard du Maroc lors de la conférence de la paix, Beer (G.L.), African question at the Paris peace conference, New-York, 1923, pp. 447-451 et Hall, op. cit., p. 745.

(19) Documents diplomatiques belges, op. cit. 1. 1, p. 460, Paris, 14.1.1922.

(20) Ibid., Londres, 12.6.1922.

(21) Ibid., Londres, 26.3.1924.

(22) Sur ce rapprochement anglo-italien nombreux documents dans les Documenti diplomatici italiani opicit, 7e série, vol. 4, v. également les remarques du Bulletin de l'Afrique française, 12.1925, p. 613 et les indications de Salvemini, Mussolini diplomate, Paris, 1938, p. 56 et de Medlicott (M.N.), British Foreign Policy since Versailles, Londres, 1940.

(23) Vicens Vives, L'Espagne du XXe siècle, in l'Europe du XIX et du XXe siècle, Milan, 1959, p. 110.

(24) Sur ce bilan colonial Brenan (G.), Le labyrinthe espagnol, traduction franc., Paris, 1962, p. 59 ; Bruguera (F.G.), Histoire contemporaine d'Espagne, Gap, 1953, p. 329 sq. "Le redressement national sacrifié à l'aventure marocaine" ; Hall, op. cit., p. 754.

(25) Primo de Rivera demeura anti-africaniste jusqu'à son arrivée au pouvoir. Après Allouai encore ses discours au Sénat le montent hostile à "l'aventure marocaine".

(٢٦) تأسست في ١٠ يناير ١٩١٣، في قصر مجلس الشيوخ في مدريد مباشرة بعد إنشاء الحماية في المغرب، سعت إلى عرض المصالح الإسبانية في القارة الأفريقية على الرأي العام، والدفاع عنها أمامه. يقع مقر هذه العصبة، التي تم إعلانها كمؤسسة للمصلحة العامة، في شارع زوربانو في مدريد. (المترجم)

(27) Cte de Saint-Aulaire, Confessions d'un vieux diplomate, p. 513. Malgré des efforts divers (Comité de rapprochement franco-espagnol créé en 1916, Semaine espagnole de Paris du5-12 mai 1919 etc.) les rapports entre les deux pays restent marqués de méfiance

(28) Sur ces accusations venues également des milieux officiels américains, Hall, op. cit., p. 756.

(29) Après que l'échange de lettres entre Poincaré et Quinones de Leon, le 7 février 1924 ait apporté à l'Espagne quelques satisfactions sur 7 articles de la convention. Le statut fût déclaré en vigueur le 1er juin 1925 mais sans l'accord de l'Italie, du Portugal et des Etats-Unis.

(30) Challener (R.D.), The French foreign Office. The Era of Philipp Berthelot, in The Diplomats, Londres, 1970, pp. 49-85.

(٣١) بدأ استخدام مصطلح " La Germanophilie " في القرنين التاسع عشر والعشرين - بعد تشكيل الإمبراطورية الألمانية سنة ١٨٧١م، وما تلاه من صعود إلى السلطة. يتم استخدامه ليس فقط سياسيا ولكن أيضا ثقافيا؛ ففي حقبة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانت أوربا القارية منقسمة بين ألمانيا وفرنسا، وهما القوتان السياسيان الرئيسيان، في ذلك الوقت، وكان أحد محبي ألمانيا (La Germanophilie) يختارون الوقوف إلى جانب ألمانيا ضد المصالح الفرنسية. (المترجم)

(32) Doc. Dipt It., op. cit. 7e série, t II, p. 319, Madrid 12.1.1923.

(33) Quaroni, La politique extérieure de l'Italie, in L'Europe du XIX et du XXe siècles, Milan, 1959, p. 1006.

(34) Doc Dipt Belges, t IL, Rome, 12.5.1925

(35) Doc Dipt It., 7e série, Avezzana, Paris, 4.10.1923.

(36) Bon exposé des thèses italiennes par Castellani (E.), Lo Statute de Tangere et l'Italia in Nuova Antologia, 16.1.1924, p. 206 sq

(37) Le nouveau cours de la politique italienne, annoncé par Mussolini dans son discours du Bivouac, au Parlement, le 16 novembre 1922, s'affirme après l'affaire de Corfou qui lui montre qu'il peut jouer des désaccords franco-anglais, Rumi (G.), Revisionisme fascista ed espansione coloniale 1925-1935. In IL Movimento di Liberazione in Italia, n° 80, juillet 1965, pp. 37-73.

(38) Doc. Dipl Ital 7e série, vol 3, notamment Rome 19.4.1925, 21.4.1925, 24.3.1925.

(39) Avec la signature du traité italo-espagnol le 8 août 1926, répétition de celui de 1887.

(40) Doc. Dipl It. série 7, t. IV, notamment Avezzana à Mussolini, Paris 23.9.1925, 25.9.1925 sq.

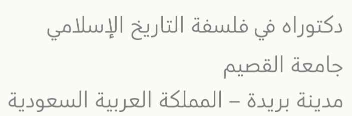
(41) Doc Dipl Belges, t II, conversation Vandervelde-Briand, 2.2.1925.

(42) Carocci(C), La politica estera dell'Italia fascista, 1925-1928, Roma, 1965 ; B. de Jouvenel, D'une guerre à l'autre, Paris, 1941, t. II, p. 104.

(43) Plus important que le fait est l'aspect de méfiance ou d'hostilité à rencontre de la France : les manifestations anti-françaises multipliées en Italie en octobre et novembre 1926, la campagne de presse en Angleterre, l'attitude des publicistes espagnols, etc.

ملف العدد
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

واجبات الطّبيب وحقوقه في ديار الحضارة الإسلاميّة

د. مها عبد القادر زكريّا
دكتوراه في فلسفة التاريخ الإسلامي
جامعة القصيم
مدينة بريدة – المملكة العربية السعودية

مُلَخّصْ

هذا البحث هو دراسة تاريخية تختص بتسليط الضوء على واجبات أطباء المسلمين وحقوقهم في ديار الحضارة الإسلامية كما جاءت في كتب التراث العربي الإسلامي. وتشمل الدراسة على تعريف بآدب مهنة الطب مع بيان أهمية تطبيق هذه الآداب في المجتمع، ودور الدين الإسلامي في ترسيخ هذه الآداب. كما وتسلط الدراسة الضوء على شروط ممارسة مهنة الطب في الدولة الإسلامية، ومنها: امتحان الطبيب وحصوله على إجازة بممارسة المهنة، وتعهده بعد ذلك أن يكون أمينًا ومخلصًا لشرف المهنة. وتنتقل الدراسة بعد ذلك للحديث عن واجبات طبيب المسلمين تجاه خالقه ومجتمعه ومريضه، مثل التزامه بقوى الله والتحصيل العلمي واحترام أساتذة المهنة، وبذل الجهد في المداواة والعلاج، ثم توضح الدراسة حقوق الطبيب في ديار الحضارة الإسلامية من حصوله على المنزلة الرفيقة والتقدير والاحترام من قبل الحكام وعامة الناس، وهذا لا يمنع من تعرض الطبيب من قبل بعض الناس إلى الاستهانة بعلم الطب وطرق العلاج. وتأتي الخاتمة بجملة من النتائج التي توصلت إليها الدراسة حيث حرص أطباء المسلمين على التزامهم بالقواعد الأخلاقية في ممارستهم للمهنة، ودعوا إلى تجنب كلّ ما يسيء إلى شرفها، ويتنافى مع أهدافها الإنسانية. وقد ظهر تناغم بديع بين تطبيق العلم والشرع في سلوك الطّبيب في ديار الحضارة الإسلامية، فهو يحمل شرف أمانة الإسلام أولًا، وأمانة المحافظة على صحة الإنسان ثانيًا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٣	يناير	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	١٠	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:
الآداب الطبية؛ أطباء المسلمين؛ الحضارة الإسلامية؛ واجبات الطبيب؛ حقوق الطبيب

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325623

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
مها عبد القادر زكريّا، "واجبات الطّبيب وحقوقه في ديار الحضارة الإسلامية".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٢٣٨ – ٢٤٨.

Corresponding author: dr.maha1zak@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةٌ

لما كانت مهنة الطّب من أسمى المهن الإنسانيّة عبر العصور؛ لحاجة جميع النّاس إليها، ولارتباطها الوثيق بصحّة الإنسان العضويّة، والنّفسيّة، كان من الطّبيعي أن يكون (الأدب) وصفًا مشروطًا لصاحبها؛ ولهذا وضعت جملة من المعايير، ليتأدّب بها، ولتنتظم العلاقة بينه وبين المريض، وأُطلق عليها مصطلح (الآداب الطّبّيّة)، والّتي ارتبطت بالآداب العامّة للمجتمع، فضلاً عن ارتباطها أيضًا بقيمه الدّينيّة، فقد حاز الحديث عن واجبات الطبيب وحقوقه اهتمامًا ملحوظًا من فلاسفة وأطبّاء المسلمين، وعُدَّ موضوع أخلاقيّات مهنة الطّبّ، موضوعًا ذا شأنٍ كبيرٍ في ديار الحضارة الإسلاميّة.

ولأن الدّين الحقّ فطرة أصيلة في الإنسان، وهو الّذي يدفعه إلى ضبط نفسه والالتزام بالخلق الفاضل، ولكن إن فسدت الفطرة السّليمة، فسد السّلوك القويم، وعلى هذا؛ كلّما وافقَ الطّبيب بين فطرته السّليمة وطبعه، كان مُسْتَقرًا في سلوكه، وكلّما خرج عليها وعاندها ماتت فطنته، وعميت بصيرته؛ وهذا ما يُرى بصورة واضحة في سلوك بعض الأطبّاء، ممّن ضعف عندهم الوازع الدّينيّ والأخلاقيّ، فظهر من بينهم المتطفّلين وذوي النّفوس الضّعيفة، وتظاهروا بعلمهم بصنعة الطّبّ بغية اكتساب المال والجاه، وأصبح وجودهم خطرًا يهدّد حياة الإنسان ويسيء إلى شرف المهنة.

غير أنَّ الشّواهد التّاريخيّة تحدّثنا، بأنّ مثل هؤلاء لم ينجوا -في غالب الأحيان- من ذمّ وتوبيخ الملتزمين بآداب المهنة، فمنهم من وضع فيها التّصانيف، مثل كتاب الرّازي (أخلاق الطّبيب)، وكتاب الرّهاوي (أدبُ الطّبيب)، وكتاب صاعد الأندلسي (التّشويق الطّبّيّ)، ومنهم من خصّص في كتبه الطّبّيّة فقرات لخّص فيها آداب المهنة، ومنهم من وضعها في مطلع كتابه، مثلما فعل علي بن ربن الطّبري في كتابه (فردوس الحكمة) وعلي بن عبّاس المجوسيّ في كتابه (كامل الصّناعة الطّبّيّة).

وجاءت هذه الآداب على نحو نصائح فيما يجب أن يتأدّب به الطّبيب في سلوكه المهنيِّ، وأخلاقه، وعلاقته بعامّة النّاس وكبرائهم وأقرانهم، وبالأصحّاء والمرضى، وما يجب أن يكون عليه الطّبيب في طبّه وتطبيبه، فقلّما خلا كتابًا طِبيًّا عربيًّا تُراثيًّا من توجيهات، وآراء مستوحاة من مكارم الأخلاق الّتي تحثّ على الصّدق والأمانة والإخلاص في العمل، والاحتراس من الأطبّاء الجهلة والمحتالين.

وفي حقيقة الأمر، كان لمجيء الدّين الإسلاميّ، وما يحمله من تعاليم سامية، دوره في تطوير مفهوم (أخلاقيّات المهنة)؛ بتقديمه صورة عمليّة لجوهر الفكر الأخلاقيّ، تجمع بين مصلحة الفرد، ومصلحة الجماعة، وهذا ما يفسرّ ارتباط أخلاقيّات المهنة عند المسلمين بالعقيدة الدّينيّة بصورة كبيرة؛ فظهر تناغم بديع بين تطبيق العلم والشّرّع في سلوك طبيب المسلمين، فوجب عليه أن يحمل في جنبات نفسه تقواها؛ وكيف لا، وهو الّذي حمل شرف أمانة الإسلام أوّلاً، وأمانة المحافظة على صحّة الإنسان ثانيًا، فكان أولى النّاس أن يكون سلوكه، والتزامه بخلق الإسلام جزءًا لا يتجزّأ من طبعه، وسلوكه المهني.

وعلى هذا، فقد زخرت الحضارة الإسلاميّة بأسماء العديد من الأطبّاء الذين التزموا بقواعد المهنة، ليصلوا إلى درجة رفيعة من الاستواء في الشّخصيّة الإنسانيّة، فتركوا لنا تُراثًا طبّيًّا أخلاقيًّا خالدًا، يُقتدى به في كلّ زمان. وقبل الخوض في صلب الموضوع ولكي يفهم بصورة جيدة، لابد من تسليط الضوء أولاً على شروط ممارسة مهنة الطب في ديار الحضارة الإسلامية.

أولاً: شروط ممارسة مهنة الطب في ديار الحضارة الإسلامية

تعدُّ المسؤوليّة الطّبّيّة وأخطاء الأطبّاء من المواضيع التي لازمت ممارسة الطّبّ في كلِّ زمانٍ ومكان، إذ وضعت منذ أقدم العصور التّشريعات والنّصوص المحدّدة لتلك المسؤوليّة القانونيّة الطّبّيّة، ولعلّ كان من أقدمها، ما تضمّنته قوانين شريعة حمورابي[١]. وبمجيء الدّين الإسلاميّ، وضع النّبي محمّد (ﷺ) ضوابط ممارسة هذه المهنة، والّتي كان جوهرها: "من تطبب ولم يعلم منه الطّبّ قبل ذلك فهو ضامنٌ"[٢]. ومع تطوّر العلوم الطّبّيّة، وازدياد عدد الأطبّاء الممارسين لمهنة الطّبّ في بلاد المسلمين، كثر أدعياء هذه المهنة، فكان من الضّروريّ أن تتطوّر هذه التّشريعات، من خلال توافر أنظمة تتولّ مراقبة سلامة هذه المهنة، والتزام القائمين عليها بقوانينها النّاظمة؛ ولهذا طبِّق (نظام الحسبة) على الممارسين لمهنة

الطّبّ. وتبعًا لذلك، أوجبت الحسبة على الأطبّاء شروطًا تحفظ المهنة من عبث العابثين وضلالات المشعوذين وغشّ الدّجّالين[٣]، ومن هذه الشّروط:

١/١-إجازة الطّبيب

كان الطّبيب في أول عهد الدّولة الإسلاميّة يكتفي لممارسة التّطبيب بقراءة كتب طبّ الأوائل على طبيب من النّابهين في عصره، حتّى إذا آنس من نفسه القدرة على مزاولة الصّنعة، باشرها من دون قيد أو شرط.[٤] وإنّ أوّل من نظم صناعة التّطبيب وقيدها بنظّام خاصٍّ حرصًا على مصلحة النّاس، هو الخليفة العبّاسيّ المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م)، فمنع الأطبّاء من ممارسة الطّبّ إلاّ بعد امتحانهم من الطّبيب سنان بن ثابت[٥]، والّذي كان آنذاك يتولّى مهمّة الإشراف على بيمارستانات بغداد[٦]. وبناءً على ذلك، كتب سنان بن ثابت رقعة عمّن يحقّ لهُ ممارسة الطّبّ، فامتحن الأطبّاء بموجبها، وصرّح لكلّ واحد منهم أن يطبّب حسب تخصّصه، وبلغ عددهم على ما يقارب على (٨٠٠) طبيبًا، وبقي هذا الامتحان شرطًا أساسيًّا لمباشرة صنعة الطّبّ[٧].

وعرف هذه الامتحان في كتب التّراث العربيّ باسم (محنة الطّبيب)، للتميز بين الأطبّاء، وانتقادهم بالنّظر والبحث ليظهر فضل الأفاضل منهم، وجهل المدّعين، فيحذر الناس منهم[٨]. ومن حينها؛ أصبح على طالب الطّبّ بعد أن يتمّ دراسته لكتب قدماء الأطبّاء الأفاضل، التّقدّم إلى رئيس الأطباء والمسؤول عن البيمارستانات، والمرتبط بديوان الحسبة في قصر الخلافة، برسالة بخصوص التّخصّص الّذي يريد الحصول على إجازة في الاشتغال به، فيختبره الطّبيب (المحتسب) في التّخصّص المرغوب، فإن استطاع الإجابة عن الأسئلة، واجتاز ذلك الامتحان، أعطاه إجازةً تسمح له بممارسة الطّبّ، والتّصرّف في حدود تخصّصه[٩].

وكان أوّل ما يُسأل عنه طالب الطب التّشريح ومنافع الأعضاء، وهل عنده علم بالقياس وحسن فهمه ومعرفته لكتب القدماء، فإن لم يكن عنده ذلك، فليس من حاجة إلى امتحانه في المرضى، وإن كان عالماً بهذه الأمور امتحن أعماله حينئذ في المرضى[١٠]. كما وضعت العديد من الكتب في موضوع (امتحان الطّبيب)، مثل كتاب (محنة الطّبيب) ليوحنّا بن ماسويه[١١] [١٢]، وترجم حُنين بن إسحاق[١٣] كتاب (محنة الطّبيب)[١٤]، ثمّ كتب بعد ذلك أبو بكر الرّازي[١٥]، كتاب (رسالة في محنة الطّبيب وكيف ينبغي أن يكون حاله في نفسه وسيرته وأدبه)[١٦].

٢/١-قَسم الطّبيب (الميثاق الأخلاقيّ)

من المعلوم أنّ الميثاق الأخلاقيّ لأيّ مهنة، يضمّ القواعد المرشدة للارتقاء بها وتدعيم رسالتها، ومهنة الطّبيب، كان لها دستور يحكم قواعد العمل الطّبّيّ، وشروطه، وما ينبغي التزامه من جانب القائمين عليه من جميع التّخصّصات الطّبّيّة المعروفة آنذاك. وهذا الميثاق الأخلاقيّ كان يعدُّ دستورًا تعاهديًّا بين الأطبّاء، فيلتزمون بالسّلوك الهادف إلى أداء مهنيٍّ عال، ويترفّعون عن الأخطاء، والتّجاوزات الضّارّة بالمهنة، أو مشتغليها.

ويكتسب هذا الدُّستور قوّته واحترامه من قوّة الالتزام والإجماع الصّادق على أهمّيّة تنظيم هذه المهنة، فقد أُشترط في الدّولة العبّاسيّة على كلّ من يريد ممارسة الطّبّ بعد اجتياز الامتحان أن يؤدّي قَسمًا طبّيًّا (عَهد الطّبيب) أمام رئيس الأطبّاء، الّذي شمل أغلب بنود قسم أبقراط[١٧]، مع قيام علماء المسلمين ببعض التّغيير والتّحوير فيه، لجعله أكثر ملاءمة للمفاهيم الإسلاميّة الدّاعية لتقوى الله (ﷻ)، والطّهارة والفضيلة في ممارسة مهنة الطّبّ[١٨].

وعلى هذا الأساس، كان على الطّبيب في ديار الحضارة الإسلاميّة قبل الشّروع بممارسة المهنة أن يتعهّد بـ:

- أن يكون تعلّمه لقواعد الحكمة طالبًا بها وجه الله تعالى وحسن ثوابه.
- أن يمشي إلى الضّعفاء ولا يتكبّر على الفقراء.
- أن يلقوا المرضى بالبشاشة والإيناس، وإظهار التّفاؤل للمريض فيما يسرّه.
- ألا يعزب في ذكر الأدوية عن المشهور، وأن يكون من عمل هذه الصّناعة متقرّبًا بنصحه إلى الله تعالى لا إلى الخلق.
- ألاّ يصف أدوية لإسقاط الأجنّة، ولا ما يمنع الحبل لقطع النّسل، إلاّ أن يدعو إلى ذلك أمر عظيم خشي منه هلاك المرأة في الحمل والوضع.
- ألاّ يعطي السّموم ولا يعلِّمُه ولا يتعلَّمه إلاّ في معرض مداواة من علة.

- حفظ الأسرار، فإنّه يطّلع على ما لا يطّلع عليه الآباء والأولاد من أحوال النّاس.
- أن يلزم العفّة وغضّ الطّرف، وإذا دخل بيت النّاس لا يكون همّه إلاّ صالح المريض[١٩].

ومن اللاّفت للنّظر؛ أنّ كثيرًا من هذه الشّروط والوصايا هي نفسها الّتي ينادي بها الطّبّ الحديث، وهي من أبرز الأبجديّات الّتي لا بدّ لطالب الطّبّ اليوم أن يتقن تعلّمها، وأن يجعلها نظامًا أوليًّا في حياته العمليّة.

ثانيًا: واجبات الطّبيب في ديار الحضارة الإسلاميّة

٢/١-تقوى الله (ﷻ)

إنّ تقوى الله (ﷻ) من أولى الواجبات التي ينبغي لطّبيب المسلمين أن يلتزم بها، يقول الكنديّ [٢٠] في وصيّته للأطبّاء: "وليتّق اللهَ (ﷻ) تعالى المتطبّبُ، ولا يخاطر، فليس عن الأنفس عوض"[٢١]. وفي هذا النطاق أوصى شيخ الأطباء ابن سينا[٢٢] تلامذته أن يكون الله (ﷻ) أوّل فكر الطبيب وآخره، وأن يسافر بعقله في ملكوت الله وما فيه من آيات كبرى، وأن لا يُقصر في الواجبات الشّرعيّة ويعظّم السّنن الإلهيّة والمواظبة على العبادة[٢٣].

ولا أدل على تمسك الطبيب بتقوى الله من فعل الطبيب حنين بن إسحاق مع الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٤-٨٣٣م)، حين طلب منه إعداد سمٍّ لقتل عدوٍّ له، فرفض برغم عروض الوعد والوعيد، والسّجن مدّة سنة، وهو دأبه في هذه السنة النّقل والتّفسير والتّصنيف، غير مكترث بما هو فيه، بل مُصرّ على التّمسك بتقوى الله وأخلاق المهنة؛ قائلاً: "الدّين يأمرنا بفعل الخير والجميل" و"الصّناعة (أي؛ صناعة الطّبّ) تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس"[٢٤].

٢/٢- احترام الأساتذة وزملاء العمل

أوصى أساتذة أطبّاء المسلمين أن يحترموا ويفضلّوا معلميهم، ويحمدوهم ويخدموهم ويحسنوا مكافآتهم ويكثروا برّهم كما يكثروا برّ آبائهم[٢٥]، ولا يستغنوا عن ملازمة المعلّمين[٢٦]، وأن يتدبّروا الأمر قبل النّطق به في حديثهم معهم، وأن يحرصوا على الاستماع لكلامهم وإرشاداتهم، والإجابة عن السّؤال المحدّد فقط، إذا عرف الطّبيب الجواب، والتّوقف عمّا لا يعرف حتّى يتفكّر ويبحث، ولا يستحي من الازدياد ولا يملّ من الحرص والاجتهاد[٢٧].

والطّبيب الفاضل لا يكون مُحبًّا لسقطات أهل صنعته، بل يستر زلاّتهم[٢٨]، ويحافظ على العلاقات الطّيّبة مع زملاء المهنة، وتوقير أهل الاختصاص، وترك التّباغض والتّحاسد فيما بينهم؛ فذاك من خُلق اللّئام، ولا يليق بالطّبيب الفاضل، بل عليه أن يوقّر زميله في حضرته ويحفظه في غيبته، ويتجنّب الإساءة إليه، ويقدّم له العون والنّصح والمشورة[٢٩]. وعلى الطّبيب الحاذق ألاّ يبخل على من أراد تعلّم هذه الصنعة من المستحقّين لها، بتعليمهم إيّاها بلا أُجرة ولا شرط ولا طلب ولا مكافأة، وأن يمتنع عن تعليمها من لا يستحقّها من الجهّال والمشعوذين[٣٠]، ومن يلتزم بهذا الخلق النّبيل؛ يطيب ذكره، ويظهر فضله بين الأطبّاء[٣١].

٢/٣-حفظ الأسرار

من المعروف أنّ عملية العلاج تتضمّن محاورات عديدة بين المريض وطبيبه، بغرض الحصول على المعلومات والاستفادة منها، وهذه المعلومات يكون المريض هو المصدر الأوّل لها؛ فهي بذلك تتّسم بدرجة كبيرة من الخصوصيّة، لأنّه يكشف أستاره طواعية أمام الطّبيب؛ فقد يُحدِّثه عن إثم أو فعل شائن ارتكبه، ثمّ استمرّ في حياته بستر الله (ﷻ)، كما أنّ كثيرًا من المرضى يكتمون عللهم عن آبائهم وأهليهم ويفشونها إلى الطّبيب، ومن هنا تقتضي القواعد الأخلاقيّة التي أوصى بها أطباء المسلمين أن يصون الطبيب هذه المعلومات، وألاّ يشع أمرها، وأن يحيط هذه المعلومات بسياج من الكتمان[٣٢]، فإن حصل وكشف الطّبيب ما حدّثه به المريض قد يسبّب ذلك له ألمًا نفسيًّا شديدًا، يجعل المريض يستاء ويحزن، وقد يفسد ما كان بينه وبين أهله من مودّة ورحمة[٣٣].

٢/٤-مراعاة الحالة النَّفسيّة للمريض

كّد أطبّاء المسلمين عُمق تأثير الأوهام والأحداث النّفسانيّة وأهمّيّة التّفاؤل والبشاشة في صحّة الإنسان ومرضه، وأن على الطبيب أن يسعى دومًا إلى بثّ روح الأمل والتفاؤل في نفس المريض، ويوهمه بالصّحّة ويرجيه بها، حتى إن كان لا يوجد أمل من شفائه[٣٤]. ويضرب الطّبيب أبو القاسم الزّهراوي[٣٥] مثالاً في أهمّيّة مراعاة الحالة النّفسانيّة للمريض بإشارته إلى حالة علاج

كسر انجبر وبقي العضو بعد ذلك رقيقًا على غير طبيعته الأولى، فيكون تدبير هذا الأمر بـ "تغذية العليل وتخضيب بدنه حتّى يكثر الدّم فيه واستعمال الحمّام وإدخال السّرور عليه والفرح ونحو ذلك..."[٣٦].

ومن الوصايا المهمّة أيضًا لأساتذة أطبّاء المسلمين؛ أنّه يجب على الطّبيب تهيئة المريض نفسيًّا للفحص قبل البدء في العلاج، بأن يشرح له ما سيقوم به، وأن يخفّف عنه ويهدئ من روعه إن كان خائفًا أو قلقًا، مع تحذيره إن كان سيقوم بعمل جراحي، مثل الفصد أو غير ذلك[٣٧]، ولا سيما الأطفال، فيوصي الزّهراوي المعالج قبل القيام بعملية الختان: "(لا بدّ) أن توهم الصّبي، ولا سيّما إن كان ممّن يفهم قليلاً، أنّك تربط الخيط ليلةً فقط وتدعه إلى يوم آخر، ثمّ فرّحه وسرّه بكلّ وجهٍ يمكنك منه، وبما يقبلهُ بعقله"[٣٨].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لما كان الطبيب هو أعلم من غيره ما يعانيه المريض من هشاشة واضطراب في نفسه، فعليه أن يتجنّب قولاً أو فعلاً يؤلم نفس المريض؛ من نظرة دونيّة له، مهما كان مستواه الاجتماعي، ومستوى ذكائه وقدراته العقليّة، أو أن يسخر منه على حديث يدلّ جهله بالأمور الطّبّيّة[٣٩]، فأشاروا إلى أن المريض يكفيه ما به من شدّة أمراضه حتّى تتضاعف عليه إساءة الطّبيب فوقها[٤٠].

٢/٥-مداومة التّحصيل العلميّ

أكّد أساتذة أطبّاء المسلمين أنّه ينبغي للطّبيب النّاجح أن يلتزم بمداومة التّحصيل العلميّ، ويكون ذلك بالتزامه عدة أمور، منها:

- أن يكون حريصًا على القراءة والتّصفّح في علوم الأوائل الطّبّيّة[٤١]، وشديد العناية بالنّظر في كتب أبقراط وجالينوس[٤٢]، ومن يرى رأيهما، والاجتهاد في فهمهما، والبحث في غوامضها، ومذاكرة أهلها[٤٣].
- حريصًا على صيانة نفسه عن الاشتغال باللّهو والطّرب[٤٤].
- أن يواظب على دخول البيمارستانات متجمّلاً بالسّكّينة والوقار فيها[٤٥]، وكثير التّدرّب وملازمة كبار الأطبّاء[٤٦].
- أن يُجدَّ النّظر في العلوم المنطقيّة؛ فلن يكون حكيمًا ماهرًا ما لم يعرف علم المنطق؛ فبه يتمكّن من استخراج الدّواء من طبيعة المرض، وتقسيم أجناس الأمراض على أنواعٍ[٤٧]، كما ينبغي للطّبيب أيضًا أن يعرف في علم الهندسة وعلم النّجوم والموسيقى؛ وإلاّ فلن يعرف تقسيم الأزمنة وحال البلدان، وأثر الألحان في مزاج المريض[٤٨].

٢/٦-الاجتهاد في العلاج

يقول الطّبيب عيسى أبو قريش: "علينا الاجتهاد، والله يهب السّلامة"[٤٩]، فقد كان لأطبّاء المسلمين في مسألة العلاج والدّخول على المرضى وسؤالهم، طريق مرسوم من قبل أساتذة الطّبّ ورجال الحسبة، ووجب عليهم اتّباعه؛ مثل: حسن استماعهم لشكوى المريض والتّرفّق بهم واستعمال الدّواء الأنسب، فإن أمكن الطّبيب أن يعالج بالغذاء فلا يقرب الدّواء أو يعالج بالدّواء فلا يقرب الحديد، ويصف لكلّ مريض على قدر حاله، ولا يصف له دواءً معدومًا ولا يذكر له اسمًا مجهولاً أو غريبًا[٥٠]، وألاّ يكون غرضه في مداواة المرضى طلب المال، بل الأجر والثّواب[٥١].

وإذا بدأ الطّبيب في الفحص، ولكي يتمكن من تشخيص نوع المرض إن كان نفسيًّا أم عضويًّا، فعليه ألاّ يحصر الفحص بمعاينة العضو المريض وحسب، بل يشمل البدن كلّه، ويرافق عمليّة الفحص طرح بعض الأسئلة التي تتعلّق بطريقة معيشته وعاداته والأمراض الّتي أصيب بها قبل، وعن حالته الصّحّيّة ومناخ بلاده، وعن الأحداث النّفسانيّة الّتي تعرّض لها[٥٢]، يقول الرازي: "ينبغي للطبيب ألاّ يدع مساءلة المريض عن كلّ ما يمكن أن تتولّد عنه علّته من داخل ومن خارج ثمّ يقضي بالأقوى"[٥٣]. ويضاف إلى ذلك، إمعان الطّبيب النّظر بوجه المريض ولون سحنته وملمس شعره، وعمق تنفّسه، وفحص البول وقياس النّبض، والانتباه إلى حالة المريض النّفسيّة وردود أفعاله؛ إن كان هادئًا أو مضطربًا، بطيئًا أو مندفعًا، ومدى احتواء كلام المريض على مظاهر الهوس والهذاءات المتنوّعة ومدى الخلوّ منها[٥٤].

وهنا المقام يستوجب أن نبينّ أنّه كان من عادة بعض الأطبّاء تشخيص المرض بفحص (التّفسرة) فقط، دون أن يقابل المريض بصورة مباشرة، وقد نبّه حذّاق الأطبّاء على خطورة ذلك[٥٥]، وأنّ ذلك يفضي إلى مفسدةٍ كبيرة، إذ قد

يرى الطّبيب التّفسرة، ومن ثمّ يبحث عن سبب العلّة، فلا يجد لها علامة واضحة بجسم المريض، وإنّما يكون سببها اضطراب نفسيّ، مثل: خوف أو قلق من أمر ما أو انفعال نفسي شديد، وهذا الأمر لا يُكشف إلاّ من خلال المحاورة بين الطّبيب والمريض، وهذا ما أكّده الرّهاوي بقوله: "من أصحاب المالنخوليا[٥٦] وغيرهم، ممّن تداخلهم الرّعب والفزع من أشياء فذابت أبدانهم، واصفرّت ألوانهم، فلم يقدر فيهم على علامة تدلُّ على مرض... فيحتاج أن يكون الطّبيب لذلك ذكيًّا ً فطنًا لاستخراجٍ السّبب، ولمقابلته بالحيلة"[٥٧].

٧/٢-حسن الاستماع لشكوى المريض

كان من ملامح الطّبيب ذي الخبرة؛ الحوار الّذي يُجريه مع مريضه، وهو حوار متقن يتبع فيه منهجًا علمِيًّا، وعلى هذا الأساس تأتي أهمّيّة التزامه بأدب الحديث وحسن الاستماع الجيّد للمريض، وأن يجلس قريبًا منه بحيث يرى وجهه ويقابله ويسمع كلامه ويسأله عمّا يجب أن يسأل عنه وينصت لشكواه، ولا يقنَع بقول المريض حتّى يستشهدَ عليه بقولِ من يخبر أمره من أهله، فإنّه ربّما استحى المريض أو فزِع أو كتم شيئًا ممّا قد استعمله أو نسيه، وربمّا كان المريض لا يحسن أن يعبرّ عمّا يجد إمّا لسوء تصرّفه في العبارة أو لغموض العلّة[٥٨]. وعلى الطّبيب أن يختار في أثناء حديثه مع مريضه العبارات المناسبة الطَّيِّبة، من دون الإسراف في حديث في غير موضعه[٥٩]، يقول الطبيب ابن ربن الطّبري[٦٠]: "أنْ يجعل (الطّبيب) همَّتُه في الفعل دون القول؛ لأنّ زيادة الفعل على القول مكرِمة، وزيادة القول على الفعل منقصة"[٦١].

٨/٢-التواضع والقدرة على التّعايش مع مختلف أطياف المجتمع

فرضت طبيعة مهنة الطّبّ، أن يتعامل الطّبيب مع جميع النّاس، باختلاف ثقافاتهم، وأفكارهم، وأجناسهم؛ وأن يعالج الفقراء، كما يعالج الأغنياء [٦٢]. والطّبيب الفاضل أولى النّاس أن يتخلّق بخلق التواضع؛ لرفيع مقامه وشرف مهنته، وإنّ امتلاك الطّبيب لهذه السمة، تجعله أقرب لامتلاك قلب مريضه وثقته، وبذلك يضمن أكثر نجاح العمليّة العلاجيّة ووصولها إلى المبتغى[٦٣]. إلاّ أنّه بالمقابل؛ ينبغي له أن يمنح الودَّ لأهله؛ فالتّواضع في هذه المهنة زينة وجمال، ولكن دون ضِعة النّفس، لأنّه قد يفهم اللّئيم تواضعه ذُلاًّ؛ فيجب أن يكون تواضعه بحسن اللّفظ وجيّد الكلام ولينه، ويترك الفظاظة والغلظة على النّاس[٦٤].

ثالثًا: حقوق الطّبيب في ديار الحضارة الإسلاميّة

تمتع الأطبّاء في ظل الحضارة العربية الإسلامية بحقوق واسعة، ونالوا الاحترام والتّقدير من الخلفاء والوزراء وعامّة النّاس، وبلغوا – حتى غير المسلمين منهم- المراتب العالية في الدّولة[٦٥]. ويمكن تقسيم حقوق الطّبيب كما جاءت في كتب التّراث على:

٣/١-تكريم الأطبّاء

جاء في التراث العربي الإسلامي أنه اجتمع للأطبّاء خمس خصال لم تجتمع لغيرهم: الأولى: اتّفاق أهل الملل والأديان على تفضيل صنعتهم. الثّانية: اعتراف الملوك، والسّوقة بشدّة الحاجة إليهم؛ إذ هم المفزع والغياث، حين لا ينفع عدّة ولا عشيرة. الثّالثة: مجاهدة ما غاب عن أبصارهم. الرّابعة: اهتمامهم الدّائم بإدخال السرّور والرّاحة على غيرهم. الخامسة: الاسم مشتقٌ من أسماء الله تعالى (الحكيم)[٦٦].

لقد عُرفَ علم الطّبّ عند المسلمين، بأنّه علمٌ إنسانيٌّ بعيدٌ عن الهوى والتّعصب من أيّ نوع، فقد أوصى النّبي محمد (ﷺ) بالتّطبّب عند الطّبيب النّصراني الحارث بن كلدة[٦٧] لمهارته في صنعته[٦٨]. وفي العصور الإسلامية اللاحقة تمتّع الأطبّاء بالمكانة الرّفيعة، فيقول الرّازي في ضرورة احترام الأطبّاء وإجلالهم: "ينبغي لمن يختصّ المتطبّب لنفسه، من الملك والأكابر والسّوقة، أن يبالغ في تطيب قلبه بلطيف الكلام، وأن يرفعه فوق جميع من في مجلسه من خدمه وغيرهم، فإن هم إلاّ خدّام الجسم، والمُتَطَبب خادم روح"[٦٩].

وكان من مظاهر اعتزاز أطبّاء المسلمين بمكانتهم العلميّة وكرامتهم وترفُّعهم عن كلّ تبذّل، ما أتى عن الطبيب ابن الجزّار القيرواني[٧٠] من معلومات تاريخيه تفيد أنه كان يحضر الجنائز والعرائس ولا يأكل فيها ولا يركب قطّ إلى سلطان[٧١]. غير أنّه مع إقرار الملوك والعامّة بشدّة الحاجة إلى الطّبيب، ومكانته وفضله[٧٢]، استهان بعض العامّة، ولا سيّما الجهّال منهم بمهنة الطّبّ وعظيم فائدتها، فلم يدرك هؤلاء مدى أهمّيّة علم الطّبّ، ولا أهمّيّة

أن يكون الطّبيب عالماً متمرِّسًا في مهنته[٧٣]، واستشهدوا بأراجيز بعض الشّعراء، وأقوال للعامّة، يسخرون فيها من مهنة الطّبّ وأهلها.

فواحدٌ يقول: "ما للطّبيب يَمُوتُ بالدّاء الّذي قد كان يشفي غيرَه فيما مضى!". وآخر يقول: "الموَت شيء لا بدّ منه، وإنّما الطّبيب يطيّب القلوب"، وقالوا أيضًا "مادام الإنسان حيًّا ما يضرّه شيء، فإذا جاء الموت ما يفيده شيء"[٧٤]. ويُرجع الأطباء سبب استهانة بعض النّاس بالأطبّاء إلى استهانة الأطبّاء أنفسهم بشرف المهنة، فيقول ابن بطلان[٧٥] في ذلك: "كلّ هذا من عجز الأطبّاء، وقلّة خبرتهم بكتب القدماء، فانقرضت الصّناعة ووَهيَ نظام سلكها... فهانت في النّفوس، ودثرت، وخلت من الفضلاء، فصَار الآن يتعاطاها القوابل وقوّام الهياكل"[٧٦].

غير أنّ أساتذة علم الطّبّ في دولة الإسلام ردّوا بشدّة على من ينكر أهمّيّة هذا العلم في حياة النّاس، ومن ذلك ما قاله ابن ربن الطّبري: "أنّ قومًا من كَتَبَة زماننا هذا، دعاهم العجب بأنفسهم والجهل بأقدارهم إلى أن أبطلوا الطّبّ، وزعموا أنّه ليس في الأشياء منافع للأبدان والنّاس والأمصار، ومن قال ذلك لم يستحق جوابًا ولا عقابًا، وكان بمنزلة الوطواط والبوم اللّذان يعميان عن نور الشّمس ولا يُحسّانه"[٧٧].

٢/٣-الحصانة

عرَف القدماء المسؤوليّة الطّبّيّة الّتي ينبغي للطّبيب أن يتحمّلها هو ومن في حُكمه ممّن يزاولون المهنة الطّبّيّة، وسجلوا شروطًا محدّدة لممارسة المهنة في دساتيرهم، وتقع على المخالف لها عقوبات صارمة، قد تصل إلى قطع اليد أو الإعدام في حال وفاة المريض، غير أنّ هذه التّدابير القاسية دفعت بعدد من الأطبّاء في كثير من الأحيان، أن يحجموا عن التّطبيب أو يشرطوا عدم المسؤولية[٧٨]. أمّا في ديار الحضارة الإسلاميّة، فقد منحت الدّولة الطّبيب قدرًا كبيرًا من الحرّيّة في ممارسة المهنة، ولكنّها حرّيّة مسؤولة، فالطّبيب مسؤولٌ أمام الله (ﷻ) وأمام المحتسب، وفي الوقت ذاته يتمتّع بحصانة محدّدة المعالم، كانت خير معين له على ممارسة مهنة الطّبّ بحرية، ودفعت بكثير من الأطبّاء إلى الإبداع، دون خوف من عقابٍ أو اضطهادٍ[٧٩].

لقد جاءت توصيات أساتذة أطباء المسلمين أنّه ينبغي للطّبيب الماهر أن يكون واثقًا من نفسه وكفاءته، شجاعًا، وألاّ يُحجم عن مساعدة المريض، بل عليه القيام بواجبه الطّبّيّ الّذي أناطه الله به[٨٠]. وكانت من الحقوق المحفوظة للطّبيب الّذي يحمل إجازة الطّبّ؛ ألاّ يُسأل عن الضرّر الّذي يصيب المريض، ولو مات من جرّاء العلاج، ما دام المريض قد أذن له بعلاجه، ولم يقع من الطّبيب خطأ في هذا العلاج، وإن حدث مثل هذا الموقف؛ فكان يحضر أهل المريض إلى (رئيس الأطباء) ويكون معه عدد من العلماء بصناعة الطّبّ، ويقدم الأهل لهم النسخ، الّتي كان قد كتبها الطّبيب عن حالة المريض، فإن رأوا فيها أنّها على مقتضى الحكمة وصناعة الطّبّ من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب، أعلموا الأهل بذلك، وإن رأوا الأمر بخلافٍ ذلك قالوا للأهل: "خذوا دية صاحبكم من الطّبيب، فإنّه هو الّذي قتله بسوء صناعته وتفريطه"[٨١].

٣/٣-أجور الأطبّاء

يشهد التّاريخ على مقدار ما وصل إليه العديد من أطبّاء المسلمين من حسن ورغد العيش؛ فيُحكى أنّ الخليفة هارون الرّشيد (170-193هـ/787-809م) سأل ذات يوم صاحب حرسه عن جملة ما يمنح من المال والعطاء في السّنَة من جانب الخلافة، ثمّ سأل حاجبه السّؤال ذاته، فأدرك أنّهما ينالان أكثر ممّا يناله كبير أطبّائه جبرائيل بن بُخْتيشوع[٨٢]، فعجب من ذلك الخليفة، ورأى أنّه لم يكن منصفًا مع طبيبه؛ إذ كيف يكون عطاؤه أقلّ منهما مع أنّه يعتني بصحّته، ويعالجه من الأسقام الّتي كانت تعتريه، وأمر على الفور بأن يعطى أكثر مما يعطي صاحب حرسه وحاجبه[٨٣]. وقد وصل الترّف عند الطّبيب بُخْتيشوع بن جبرائيل أن يجلس في الحرّ في مجلس مخيش بعدّة طاقات، يتوسّطها ستارة من قصب صبغ بماء الورد، وبجانبها مواضع مكسوّة بالثّلج، وغِلمان بجانبه يروحون ذلك، فيخرج منه الهواء البارد[٨٤].

أما في مجال العمل الحرِّ في ممارسة مهنة الطّبّ، فلم يكن هناك أجرة محدّدة لفحص المريض ومعالجته - بالمعنى الّذي نفهمه اليوم- بل كان الطّبيب يتقاضى أجرة حسب حالة المريض الماليّة في أغلب الأحيان، فمنهم من أخذ ما يستحقّه وأكثر، ومنهم من عالج الفقراء بالمجّان[٨٥]، ومنهم بأجور بسيطة، مثل الطّبيب إسحاق بن عمران،

الّذي كان يفحص المرضى بأجر محدود جدًّا[٨٦]. أمّا أجور الأطبّاء في البيمارستانات، فكانت تشبه ما تطبقه اليوم بعض المستشفيات؛ إذ خصصت الدّولة للأطبّاء رواتب شهريّة تتفاوت حسب شهرة الطّبيب وعلمه وكفاءته، ويضاف إليها أجورٌ أخرى لقاء قيامهم بأعمال إضافيّة؛ مثل التّدريس أو التّرجمة[٨٧].

خَاتمَةٌ

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

- حرص أطبّاء المسلمين على التزامهم بالقواعد الأخلاقيّة في ممارستهم للمهنة، ودعوا إلى تجنّب كلّ ما يسيء إلى شرفها، ويتنافى مع أهدافها الإنسانيّة.
- ظهر تناغم بديع بين تطبيق العلم والشرّع في سلوك الطّبيب في ديار الحضارة الإسلامية، فهو يحمل شرف أمانة الإسلام أوّلاً، وأمانة المحافظة على صحّة الإنسان ثانيًا.
- زخرت كتب التراث العربي الإسلامي بأسماء العديد من أطبّاء الذين التزموا بقواعد المهنة، ليصلوا إلى درجة رفيعة من الاستواء في الشّخصيّة الإنسانيّة، فتركوا تُراثًا طبّيًّا أخلاقيًّا خالدًا، يُقتدى به في كلّ زمان.
- لم يكن السّلوك الأخلاقيّ الموصى به لأطباء الدولة الإسلامية، واجبًا على الطّبيب المسلم فحسب؛ بل على جميع الأطبّاء على اختلاف أجناسهم ودياناتهم ونحلهم.
- لا يسمح لطبيب المسلمين بمزاولة المهنة إلا بعد تجاوزه لامتحان الأطباء ومنحه إجازة ممارسة المهنة.
- منحت الدّولة الإسلامية الطّبيب قدرًا كبيرًا من الحرّيّة في ممارسة المهنة، ولكنّها حرّيّة مسؤولة، فالطّبيب مسؤولٌ أمام الله وأمام المحتسب.
- تمتع الأطبّاء في ظل الحضارة العربية الإسلامية بحقوق واسعة، ونالوا الاحترام والتّقدير من الخلفاء والوزراء وعامّة النّاس.
- رد أساتذة الطب بشدّة على من ينكر أهمّيّة هذا العلم في حياة النّاس.
- عاش الأطباء في كنف الدولة الإسلامية في بحبوحة من العيش، وصلت لدرجة الترف عند العديد منهم.

وتبقى **كلمة أخيرة** لا بد من ذكرها، كعبرة نستقيها من دراسة واجبات الطبيب وحقوقه في ديار الحضارة الإسلامية؛ إنَّ "رقابة الضّمير أقوى من رقابة الأمير"، ومن قال إنّ الضّمير شيء والعمل شيء آخر، فكأنه بقوله هذا يقصّ الجسم الإنسانيّ الحيّ الكامل بمقص إلى نصفين. فقضيّة السّلوك المهني لا تُحلّ بقسم، ولا تستوفى بدراسة كتب في آداب ممارسة مهنة الطّبّ، ولا يمكن أن تحكمها قواعد قانونيّة تقرِّرها نقابة مهنيّة بصورة كاملة؛ لأنّ رعاية الإنسان الضّعيف توجب على الطّبيب أن يحمل التزامات أخلاقيّة نابعة من ضميره. إذ إنّه من الطّبيعي أن تواجهه خلال ممارسته اليوميّة للمهنة، العديد من المواقف الشّائكة، وقد يكون منها مواقف لم تشملها القواعد القانونيّة، فحينها سيستلزم من الطبيب استفتاء ضميره الإنسانيّ الخيرّ، وسيظهر مدى التزامه تجاه ربّه وقيمه الأخلاقيّة.

الاحالات المرجعية:

(١) **حمورابي**: هو سادس ملوك بابل، عاش في السنة ٢٠٠٠ ق.م تقريبًا، وطال عهده ثلاثة وأربعين عاما قدر له فيها أن ينهض ببابل من دويلة صغيرة إلى عاصمة دولة كبيرة ذات إمكانات عديدة وأملاك واسعة وشهرة ضخمة، وبدأ تشريعاته التي خلدت اسمه في التاريخ منذ العام الثاني من حكمه، وخلد كتبته هذه البداية في تسمية عامها باسم عام إقرار حمورابي "العدالة في الأرض". (عطية مشرفة: **التشريع والقضاء في العهد الفرعوني**، مجلة الرّسالة، (ع ٢٢٦)، القاهرة، مصر، ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م، ص١٨).

(٢) حديث حسن. (محمد الألباني: صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية، مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة، الإسكندرية، مصر، (د.ت)، ج٧، ص٤٦٦).

(٣) ابن الأخوة، ضياء الدين محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م): **معالم القربة في طلب الحسبة**، دار الفنون، كمبردج، (د.ت)، ص١٦٧.

(٤) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت نحو ٥٩٠هـ/١١٩٤م): **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م)، ص٩٧.

(٥) **سنان بن ثابت**: هو الطبيب أبو سعيد سنان بن ثابت، والد مصنف التّاريخ والطّبيب ثابت بن سنان بن قرة، وقد أسلم سنان على يد الخليفة القاهر بالله، وقد طبب جماعة من الخلفاء العبّاسيين، وقد وصف أنه كان متفننًا في صنعته. (الذّهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٢٥، ص٨).

(٦) القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م): **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١٤٨- ١٤٩؛ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م): **عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء**، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص٣٠٢.

(٧) القفطي: **إخبار العلماء**، ص١٤٨- ١٤٩؛ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٣٠٢.

(٨) الرّهاوي، إسحاق بن علي (ت في القرن ٤هـ/١٠م): **أدب الطَّبيب**، تحقيق مريزن عسيري، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، المملكة العربيّة السعودية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٢٤٣.

(٩) علي عيسى: **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص٤٣.

(١٠) الرّازي، أبو بكر محمد بن زكريا (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م): **الحاوي في الطب**، تحقيق هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج٧، ص٤٢٦.

(١١) **يوحنا بن ماسويه**: هو أبو زكريّا يوحنّا (يحيى) بن ماسويه، من أطبّاء بيمارستان جنديسابور، مسيحيّ المذهب سريانيّ، وقد وصف أنّه طبيب فاضل، مقدّم عند الخلفاء، وكان قد خدم هارون الرَّشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكِّل. (ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي (ت ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م): **الفهرست**، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص٣٧٥؛ ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (ت نحو ٣٨٣هـ/٩٩٤م): **طبقات الأطبّاء والحكماء**، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرّسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م،ص٦٥؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٤١٤).

(١٢) ابن النديم: **الفهرست**، ص٣٥٧.

(١٣) **حُنين بن إسحاق**: هو أبو زيد حنين بن إسحق العَبّادي، طبيب ومترجم من نصارى الحيرة، عاش في بغداد، تتلمذ على يد يوحنا بن ماسويه، وترجم العديد من المصنفات من اليونانيّة والسُّريانيَّة إلى العربيّة، فعينه الخليفة المأمون رئيسًا لبيت الحكمة، وترقى في عهد المتوكِّل ليصبح طبيب الخليفة، وتوفي في بغداد سنة (٢٦٤هـ/٨٧٩م). (ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٢٥٧وما بعدها).

(١٤) القفطي: **إخبار العلماء**، ص١٠٥.

(١٥) **الرازي**: هو أبو بكر محمّد بن زكريّا الرّازي، من أئمّة صناعة الطّبّ، وصف بأوحد دهره وفريد عصره، وأنّه كان كريمًا متفضّلاً بارًا بالنّاس، نشأ في مدينة الرّيّ، ثم سافر إلى بغداد، وهناك وجد متّسعًا له لدراسة علم الطّبّ، وبأمر من الخليفة عضد الدّولة أشرف على تشييد بيمارستان كبير فيها، وفي آخر زمانه فقد بصره، لنزول ماء على عينيه، وبعد وفاته سنة (٣١٣هـ/٩٢٥م) جمع تلامذته مسوّدات كتابه (الحاوي) ورتّبوها ليخرج الكتاب بالصورة التي نعرفها اليوم. (ابن النديم: **الفهرست**، ص٣٦٠؛ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٤١٤-٤١٥).

(١٦) الرّازي: **الحاوي**، ج٧، ص٤٢٨؛ القفطي: **إخبار العلماء**، ص١٨٢؛ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٤٢٥.

(١٧) **أبقراط**: فيلسوف وطبيب إغريقي (٤٦٠- ٣٧٠ق.م)، وصفة أبقراط أو بقراط أو إبُقراط تعني (ماسك الروح) أو (ماسك الصحة)، وهو من أعظم أطبّاء عصره؛ إذ اعتمد في العلاج على الملاحظة والتجربة، وابتعد عن السحر والشعوذة، وكان أول من علّم الغرباء هذه المهنة، وعالج النّاس احتسابًا، حتى لقب بأبي الطب، وهو صاحب فكرة (القسم الطبي) الذي يؤديه الأطبّاء قبل الشروع بمزاولة المهنة، ومن مؤلفاته الطبية: كتاب الفصول وتقدمة المعرفة، طبيعة الإنسان، كتاب الأخلاط. (ابن جلجل: **طبقات الأطبّاء**، ص١٦؛ القفطي: **إخبار العلماء**، ص٧٤؛ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٤٣-٤٤).

(١٨) الرّهاوي: **أدب الطَّبيب**، ص١٦٤- ١٦٥.

(١٩) الشيزري: **نهاية الرتبة**، ص٩٨؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٦٧.

(٢٠) **الكندي**: هو الطبيب والفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكنديّ، ينتسب إلى قبيلة (كِندة) اليمنيّة، قضى طفولته في الكوفة، وبدأ يتلقّى علومه فيها، ثمّ انتقل إلى بغداد، وكان من النشطاء في حركة ترجمة الكتب اليونانيّة إلى اللغة العربيّة، فغدا واسع الاطّلاع، عالماً بالطّبّ والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وطبائع الأعداد والهيئة، ومن مصنّفاته: الطّبّ الرّوحانيّ، كيفيّة الدّماغ، النّفسيّات، كتاب في علّة النّوم والرؤيا وما تأمر به النّفس، رسالة في الأخلاق، توفي نحو ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م. (القفطي: **إخبار العلماء**، ص٢٧٤-٢٧٥؛ ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص٢٨٦).

(٢١) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٢٨٨؛ العمري: أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربيّة المتحدة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٩، ص٤١.

(٢٢) **ابن سينا:** هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا، ولد بالقرب من بخارى في قرية أفشنة، ثمّ انتقل إلى بخارى ليتلقّى فيها علوم القرآن الكريم والشّريعة، وحين بلوغه العاشرة من عمره حفظ القرآن الكريم ودرس الرّياضيّات والمنطق والفلك، وبدأت تظهر عليه علامات النّبوغ والعبقريّة، وسعى إلى مزيدٍ من العلم والمعرفة، فرغب بدراسة علم الطّبّ، حتى برع فيه ولقب بالشيخ الرئيس، ومن أشهر مؤلفاته الطبية كتابه القانون في الطب، كما شارك في الحياة السياسيّة، وتقلّد الوزارة مرّتين لشمس الدّولة البويهي، ما بين (٤٠٥- ٤١٢هـ/١٠١٤- ١٠٢١م)، توفي في سنة (٤٢٨هـ/١٠٣٧م). (القفطي، إخبار العلماء، ص٣٠٥؛ ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص٤٣٧؛ الكاشي، يحيى بن أحمد (ت بعد ٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، **نُكت في أحوال الشيخ الرئيس ابن سينا**، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، مصر، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص٩-١٨).

(٢٣) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٤٤٥-٤٤٦.

(٢٤) القفطي: **إخبار العلماء**، ص١٣٥؛ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٢٦١؛ العمري: **مسالك الأبصار**، ج٩، ص٤١١.

(٢٥) المجوسيّ، علي بن عبّاس (ت.٤٠٠هـ/١٠٠٩م): **كامل الصّناعة الطبية** (الملكي)، (مخطوط)، ٩١١هـ/١٥٠٥م، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربيّة السعودية، رقم ٣٣٦١، ج١، ص٥.

(٢٦) ابن ربن الطّبري، أبو الحسن علي بن سهل (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م): **فردوس الحكمة في الطب**، تحقيق محمد زبير الصديقي، مطبع آفتاب، برلين، ألمانيا، ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م، ص٨.

(٢٧) صاعد الأندلسي، أبو العلاء صاعد بن الحسين (ت بعد ٤٦٤هـ/١٠٧١م): **التشويق الطبي**، تحقيق مريزن عسيري، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٦٦.

(٢٨) ابن ربن الطّبري: **فردوس الحكمة**، ص٤.

(٢٩) صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٦٦.

(٣٠) المجوسيّ: **كامل الصّناعة**، ج١، ص٥.

(٣١) ابن ربن الطّبري: **فردوس الحكمة**، ص٤.

(٣٢) المجوسيّ: **كامل الصّناعة**، ج١، ص٥؛ صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٨٧-٨٨.

(٣٣) الرّازي، أبو بكر محمد بن زكريا (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م): **أخلاق الطَّبيب**، تحقيق عبد اللطيف العبد، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٢٧.

(٣٤) الرازي: **أخلاق الطَّبيب**، ص٦٧.

(٣٥) **أبو القاسم الزّهراوي:** هو خلف بن العبّاس الزّهراوي، طبيب مسلم، ولد في الزّهراء في الأندلس، وقد وصف أنّه كان طبيبًا فاضلاً خبيرًا بالأدوية المفردة والمركّبة، جيّد العلاج، ويشهد له التّاريخ أنّه من أبرز الجرّاحين في العصور الوسطى، ومن أشهر مؤلفاته موسوعته الطّبّيّة (التّصريف لمن عجز عن التّأليف)، توفي نحو (٤٠٤هـ/١٠١٣م). (ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٥٠١).

(٣٦) الزهراوي، أبو القاسم خلف بن عباس (ت ٤٠٤هـ/١٠١٣م): كتاب الزهراوي في الطب لعمل الجراحين "وهو المقالة الثلاثون من **التصريف لمن عجز عن التأليف** (العمل باليد)"، تحقيق محمد زكور، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سورية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٤٨٩.

(٣٧) الرّازي: **الحاوي**، ج٧، ص٤٢٥.

(٣٨) **كتاب الزهراوي**، ص٢٧١.

(٣٩) الجوزية: **زاد المعاد**، ج٤، ص١٠٧.

(٤٠) صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٩١.

(٤١) الرّهاوي: **أدب الطَّبيب**، ص٤٤، ١٤٥؛ صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٦٥.

(٤٢) **جالينوس:** طبيب إغريقي، ويعد الشخصية الطبية المميزة الثانية بعد أبقراط، رحل إلى الإسكندرية وتلقى الطب فيها علمًا وعملاً، ثم شد رحاله إلى جزيرة قبرص وفلسطين للدرس والبحث عن الأعشاب الطبية والاتصال بالعلماء، ثم عاد بعدها إلى موطنه ومارس مهنة الطب هناك مدة، ثم استقر به المقام في روما، وأسس فيها حلقة لتدريس علم الطب، وأهم ما يميز منهجه، هو إعطاء الأولوية للملاحظة التشريحية، وكان عدد كبير من أطبّاء القرون الوسطى، ومن ضمنهم أطبّاء المسلمين يدرسون التشريح عن طريق مؤلفاته، توفي سنة (٢٠١م). (ابن النديم: **الفهرست**، ص٣٤٧- ٣٤٨).

(٤٣) صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٦٦.

(٤٤) الرّازي: **أخلاق الطَّبيب**، ص١٩؛ صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٦٦.

(٤٥) صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٨٥.

(٤٦) ابن ربن الطّبري: **فردوس الحكمة**، ص٦؛ صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٦٦.

(٤٧) صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٦٩.

(٤٨) الرّازي: **الحاوي**، ج٧، ص٤٢٦؛ المجوسيّ: **كامل الصّناعة**، ج١، ص٧.

(٤٩) القفطي: **إخبار العلماء**، ص٣١٥.

(٥٠) ابن ربن الطّبري: **فردوس الحكمة**، ص٥؛ صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٨٦.

(٥١) المجوسيّ: كامل الصّناعة، ج١، ص٥.

(٥٢) ابن سينا، أبو علي الحسن بن عبد الله بن الحسن (ت ٤٢٨هـ/١٠٣٦م): **القانون في الطب**، تحقيق محمد الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج١، ص١٣٠.

(٥٣) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٤٢١.

(٥٤) علي بن رضوان، ابن علي بن جعفر (ت ٤٥٣هـ/١٠٦١م): **الكفاية في الطّبّ**، تحقيق سلمان قطاية، دار الرَّشيد، بغداد، العراق، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٥٤.

(٥٥) الرّازي: **أخلاق الطَّبيب**، ص٨٩.

(٥٦) **الماليخوليا:** أو المالنيخوليا أو الماخوليا أو ما تعرف أيضًا بالسَّوداويّة؛ هي تغيّر الأفكار والظنون عَن المجرى الطبيعي إلى خوف ومزاج سوداوي يسيطر على الدِّماغ. (ابن سينا: **القانون**، ج٢، ص١٠٣). وهي في الأصل مصطلح يوناني، مركب من لفظين مختلفين يتكاملان معًا في تشكيل دلالته:

(Melanos) وتعني الأسود، و(Kholé) وتعني المرَارة، والتّضافر بين اللفظين يدل على الغدة المسؤولة على تخزين وإفراز خليط السوداء وتحريره في الجهاز الهضمي، وقد عرّفها الطّبّ الحديث بأنها حالة من الاضطراب النّفسيّ الاكتئابي -حسب تصنيف الجمعية الأمريكية للطّبّ النّفسيّ- تظهر آثارها بوضوح في الجانب الانفعالي لشخصية المريض، وهي من أكثر الاضطرابات النّفسيّة شيوعًا في العالم، وتستلزم تدخل الطّبّ النّفسيّ للخروج من هذه الحالة المرضيّة. (القلسي، عبد الرزاق، **الاكتئاب والطب النّفسيّ في الحضارة العربيّة الإسلامية**، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، https://www.mominoun.com/ ،١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ص٤

American Psychiatric Association, Depression, www.psychiatry.org؛

Taylor, Michael, Melancholia, The Diagnosis, Pathophysiology and Treatment of Depressive Illness, Hardcover, 2016, p5-6).

(٥٧) **أدب الطَّبيب**، ص١٠٠.

(٥٨) صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٨٣.

(٥٩) الرّازي: **أخلاق الطَّبيب**، ص٤٠؛ صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٧٧.

(٦٠) **ابن ربن الطبري**: هو أبو الحسن علي بن سهل بن ربّن الطّبري، من أسرة فارسيّة نصرانيّة، برعت في العلوم في طبرستان، واشتهر هو بالطّبّ والفلسفة والطّبيعيّات، ومن أشهر تلامذته؛ الطّبيب أبو بكر الرّازي، عمل ابن ربن في بداية أمره كاتبًا للمازيار محمّد بن قارن، ولما اعتنق الإسلام قربه إليه الخليفة المعتصم، ثمّ أدخله المتوكّل في جملة ندمائه، ومن مؤلفاته كتابه (فردوس الحكمة) الذي يُعَدّ أقدم موسوعة طبّيّة جامعة، توفي بعد ٢٣٦هـ/٨٦١م. (القفطي: **إخبار العلماء**، ص١٧٨؛ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٤١٤).

(٦١) **فردوس الحكمة**: ص٤.

(٦٢) الرازي: **أخلاق الطَّبيب**، ص٣٧.

(٦٣) صاعد الأندلسي: **التّشويق الطّبّيّ**، ص٥٥، ٦٦.

(٦٤) الرّهاوي: **أدب الطَّبيب**، ص٨٤.

(٦٥) محمود الحاج قاسم: **السلوك الطبي للأطبّاء العرب والمسلمين**، المجمع العلمي العراقي، (ع٢)، بغداد، العراق، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٦٥.

(٦٦) الرهاوي: أدب الطَّبيب، ص٨٧- ٨٨.

(٦٧) **الحارث بن كلدة**: يعرف بـ (طبيب العرب)، تعلم الطّب ببلاد فارس، وعاصر أيام النبي محمد (ﷺ)، والخليفة معاوية بن أبي سفيان (ؓ) (٤١هـ-٦٠هـ/٦٦١- ٦٨٠م). (ابن جلجل: طبقات الأطبّاء، ص٥٤؛ الذّهبي: **تاريخ الإسلام**، ج٤، ص١٩٢- ١٩٣).

(٦٨) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق علي محمد معوض، وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج١، ص٥٩٦.

(٦٩) أخلاق الطَّبيب، ص٣١- ٣٢.

(٧٠) **ابن الجزار القيرواني**: هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد بن الجزّار، من مدينة القيروان، وكان أبرز الممارسين لمهنة الطّبّ فيها آنذاك، وقد وُصِف أنّه من أهل الحفظ والدّراسة للطّبّ وسائر العلوم حسن الفهم لها، ومن أشهر مؤلفاته (سياسة الصّبيان وتدبيرهم)، توفي (٣٦٩هـ/٩٨٠م). (ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٤٨١).

(٧١) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٤٨١.

(٧٢) ابن ربن الطّبري: **فردوس الحكمة**، ص٤.

(٧٣) مريزن عسيري: **علم الطب وأهميته وشرفه ومعاييره الأخلاقية والعلمية عند المسلمين**، سلسلة مركز بحوث الدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربيّة السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٧٣.

(٧٤) ابن بطلان، أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون (ت نحو ٤٥٨هـ/١٠٦٥م): **دعوة الأطبّاء**، تحقيق محمد مهدي أصفهاني، مؤسسة مطالعات تاريخ بزشكي، إيران، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٧٧-٧٨.

(٧٥) **ابن بطلان**: هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان، من نصارى بغداد، تتلمذ على يد أبي الفرج عبد الله بن الطّيب، وأتقن عليه قراءة كثير من الكتب الحكيمة وغيرها، ولازم أيضًا الطّبيب أبا الحسن الحرّاني، واشتغل عليه وانتفع به في صناعة الطّبّ وفي مزاولة أعمالها، وقد وصف أنّه كان كثير الاطّلاع، توفي (٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، من كتب ابن بطلان الطّبّيّة: دعوة الأطبّاء، تقويم الصّحّة. (القفطي: **إخبار العلماء**، ص٢٥١؛ ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٣٢٥-٣٢٨).

(٧٦) **دعوة الأطبّاء**، ص٨٠.

(٧٧) **فردوس الحكمة**، ص٥٢٢.

(٧٨) محمود الحاج قاسم: **السلوك الطبي**، ص١٤٣- ١٤٤.

(٧٩) محمود الحاج قاسم: **السلوك الطبي**، ص١٤٥.

(٨٠) الرَّهاوي: **أدب الطَّبيب**، ص٥٦.

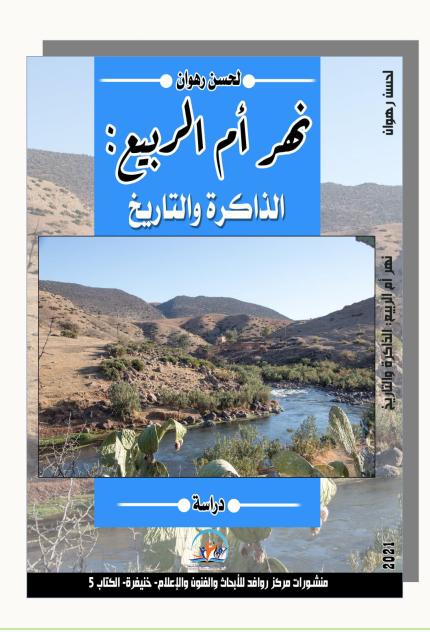
(٨١) الرَّهاوي: **أدب الطَّبيب**، ص٢٦٥.

(٨٢) **جبرائيل بن بُخْتيشوع**: يُعَدّ من أشهر أطبّاء أسرة بُخْتيشوع الّذين خدموا في البلاط العبّاسيّ، وهو حفيد الطّبيب جورجس (طبيب المنصور)، وابن الطّبيب بُخْتيشوع بن جورجس (طبيب هارون الرَّشيد)، لمع نجم جبرائيل بين أطبّاء عصره أيّام الخليفة هارون الرَّشيد واتّسعت شهرته، وبات يعرف بطبيب الخلفاء والأمراء والوزراء، وقد وُصف أنّه كان مشهورًا بالفضل، جيّد في المداواة، عالي الهمّة، حظيًّا عند الخلفاء، ومن أشهر مؤلفاته: رسالة إلى المأمون في المطعم والمشرب، كتاب في الباه، توفي (٢١٣هـ/٨٢٨م).(ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص١٨٧؛ العمري: **مسالك الأبصار**، ج٩، ص٣٤٢).

(٨٣) العمري: **مسالك الأبصار**، ج٩، ص٣٤٨.

(٨٤) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص٢٠٣- ٢٠٤.

نهر أم الربيع
الذاكرة والتاريخ





د. جواد التباعي
باحث في التاريخ والتراث
أكاديمية فاس مكناس
المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: لحسن رهوان
منشورات مركز روافد للأبحاث والفنون والإعلام بخنيفرة
عدد الصفحات: ١٧٥ صفحة

المطبعة: مطبعة بلال
الطبعة: الأولى. سنة النشر: ٢٠٢٢
مكان النشر: فاس، المغرب.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325811 

كلمات مفتاحية:
أنهار المغرب؛ التراث الثقافي؛ الذاكرة والتاريخ؛ المعالم الطبيعية؛ التاريخ الزياني

مقدمة

صدر للباحث الزياني لحسن رهوان كتاب "**نهر أم الربيع الذاكرة والتاريخ**" عن مركز روافد للأبحاث والفنون والإعلام بخنيفرة، وهو الإصدار الخامس لهذا المركز، طبع مطبعة بلال بفاس بداية ٢٠٢٢. خرج الكتاب في حجم المتوسط ضم ١٧٥ صفحة. جاء غلافه معبراً عن موضوعه من خلال مشهد من عالية النهر تحت عنوان بارز "نهر أم الربيع: الذاكرة والتاريخ" بلون أزرق بزرقة مياه النهر. أما متنه فقد قُسم إلى خمس فصول مسبوقة بمقدمة ومذيلة بخاتمة، وتضمن الكتاب لائحة بيبليوغرافية موسعة وقدم لهذا العمل عبد الكريم جويطي أحد أعمدة الكتابة الروائية بالمغرب.

يطرح عنوان "أم الربيع الذاكرة والتاريخ" سؤال تقديم الذاكرة على التاريخ، رغم أن التاريخ هو أصل متن الكتاب والبارز فيه على غيره. وفي تقديمه للكتاب أشار الجويطي لأهمية الأنهار في ازدهار الحضارة الإنسانية، وذكر بمحاولات الإنسان لتطويعها بين زمني الأسطورة والتقنية، معتبراً الأنهار من مواضيع التاريخ الطويل[1].

في مدخل الكتاب أشار الباحث إلى دواعي التأليف، وأعتبر الكتابة في التاريخ المحلي مغامرة بالنظر للمحيط الثقافي العام للمجال المدروس، وندرة المصادر، وضعف البحث الأركيولوجي في الموضوع الذي اختاره. وذكر بالصعوبات التي تواجه الباحث في التاريخ المحلي الزياني، دون أن يغفل حجم والتهميش الذي عاناه مجال الدراسة (الأطلس المتوسط) في الإستُغرافيا المغربية

قديمًا وحديثًا، واعتبره في بعض الأحيان مُمنهجًا. وذلك لأنه لم يأت إلا في سياق الحديث عن الثورات، والحَرْكَاتِ المخزنية، والانتقال بين العواصم والقواسم مع استثناءات كان أبرزها صاحب "مفاخر البربر" الذي شذ عن القاعدة، وحاول إبراز غنى الموروث الثقافي للنهر. وختم الباحث مدخله ببسط خطة بحثه ودعوة الباحثين الغيورين للتعمق في الموضوع[٢].

الفصل الأول: نهر أم الربيع في التسمية[٣]

١. أم الربيع في الكتابات الإغريقية واللاتينية

يشير المؤلف إلى أن النهر ورد في الكتابات القديمة بتسميات متعددة، فذكر برحلة القرطاجي حانون وأعتبره أول من تحدث عن هذا النهر باسم "أسانا"، ويذكر بورود اسم النهر أيضًا عند سكيلاكس (نهاية ٦ وبداية ٥ ق.م)، وعند بلينوس الشيخ تحت مسمى "اناتيس". وانتيخولي" عند بطليموس. ويواصل المؤلف تتبع التسميات القديمة للنهر بالإشارة إلى أن صولان بوادي نعته بـ "اناتيس" وحدد موقعه على بعد ١٥٠ ميلاً من سلا وأكد ملوحة مياهه. ويخلص المؤلف إلى أن "أسانا" و "أناتيس" هي أسماء النهر القديمة الأكثر شهرة، ويرجح الاسم الثاني بناء على دراسات متعددة في الموضوع.

٢. أم الربيع في الكتابات العربية

يغوص الكاتب في مسألة تعدد أسماء النهر فيذكر "وانْسِيفْنْ" و "وَاسِيفنْ" و "مْ رْبِيعْ" و "أمْ الربَيعْ". وهكذا يبدأ بالقول إن **البكري** (ق١١م م/٥هـ) يسميه "**واد وانسيفن الذي يجري إلى بلاد برغواطة**"[٤]، ويحدد موقعه شالة تحت الرباط في البحر المحيط[٥]. ويرصد المؤلف تضاربًا في معلومات البكري الذي يجعل حصن داي (بني ملال الحالية) منبع وعالية وادي أم الربيع مرة، يعود ليقول أنه: يمتد من إلى وادي دَرَنَة نهر كبير يقع في نهر وانسيفن في موضع آخر. ويرجع المؤلف تقصير البكري هذا لاعتماده على روايات ومعطيات مكتبية دون أن يزور المنطقة. ينتقل بنا صاحب الكتاب إلى وصف الشريف الإدريسي (ق٦هـ/ ١٢م) للنهر، والذي يرجع أصل الكلمة إلى قرية "**أم الربيع" على واد خرار يُجاز بالمراكب، ويصف أهلها بأنهم أصحاب مواشٍ وجمال والغالب عليهم الفروسية**"[٦]. وخلال نفس القرن يسميه الزهري (ق٦هـ/ ١٢م) أم الربيع، ويتحدث بوضوح عن منبعه بين فاس وقلعة بن توالى ومعدن غوان(عوام) أو وركناس. ويعتبره في موقع أخر "**من أبرز الأنهار المشهورة التي تدخلها المراكب المتوسطة**"[٧].

أما صاحب الاستبصار (ق٦هـ/ ١٢م) الذي جال وصال المنطقة فيؤكد أن وانْسِيفنْ هو أم الربيع، ويحدد منبعه بدقة. وهو أمر يدل على انتشار الاسمين معًا (وانسيفن وأم الربيع) خلال القرن (٥٧/ ١٣م)، ويضيف أن عرضه نحو ٢٠ شبرا (عرض قليل عند العالية حتى مْزِضْ إلفَان[٨]). يسميه عبد الواحد المراكشي في المعجب "وانسيفن و"أم الربيع"، ويفك شفرة التسميتين بالقول بأن النهر يسمى أم الربيع، ومنبعه يسمى وانسيفن. أما ابن خلدون (ق ٨هـ/١٤م) فيسميه "أم الربيع" ويعتبره أحد أهم أنهار مملكة فاس يصعب عبوره خلال فترة التساقطات لاتساعه[٩]، بينما يؤكد صاحب الروض المعطار (٩هـ/١٥م) أن وانسيفن هو أم الربيع[١٠]. يطلق عليه الحسن الوزان (بداية ق ١٦م) "أم الربيع" ويحدد منبعه بدقة "**بين حدود بلاد تادلا وفاس ويجري عبر سهول أدخسان ويمر بين دكالة وتامسنا إلى أن يصب في المحيط بأزمور يصعب قطعه خلال الفصل المطير إلا بمراكب على قرب منفوخة**". اتخذها سكان المناطق المجاورة حرفة. ونسجل في هذا المحور إخلالا نسبيا بالتتبع الكرونولجي حيث يعود المؤلف من تسميات القرن السادس عشر الميلادي إلى القرن السابع الهجري (المعجب) ثم إلى القرن السادس الهجري (الاستبصار) ثم الروض المعطار (ق ٩هـ/ ١٥م).

٣. أم الربيع في الكتابات الغربية

يختار الباحث من الكتابات الغربية التي تناولت نهر أم الربيع دراسة مارمول كاربخال (نهاية القرن ١٦م) الذي يؤكد أن النهر كان يعرف قبالة أزمور باسم "**كوفة**". ومع بداية الرحلات الاستكشافية تمهيدا لفرض الحماية على المغرب، وتقدم الجغرافيا والعلوم المساعدة. يؤكد شارل دوفوكو عند عبوره للوادي بين تادلا وبني ملال في ١٩ شتنبر ١٨٨٣ على نقطة مهمة جدًا وهو أن به "**ماءً صافيًا وصالحًا للاستهلاك ولو أن مذاقه ملح بعض الشيء**". ويبدي المؤلف تخوفًا من النزعة الكولونيالية في كتابات دوفوكو، وهو في نظرنا تخوف لا مبرر له بعد ست عقود من الاستقلال، وانتهاء موجة الكتابة الموجهة لدحض الأطروحات الاستعمارية، خاصة عندما يتعلق الأمر

بالوصف الجغرافي الذي برع فيه دوفوكو أكثر من عدد كبير من جغارفة اليوم.

في خلاصة مناقشته للتسميات التي أطلقت على النهر عبر التاريخ، يؤكد الكاتب أن التسمية اختلفت من قرن لأخر. ويستبعد الأسماء القديمة للإغريق والرومان، ويرجح التسمية العربية للنهر استنادا إلى ما جاء في مصادر المرحلة. ويشدد على أن التسمية اختلفت من مقطع لأخر من النهر، لكن الأكثر استعمالاً كانت هي "وانْسِيفنْ". لنخلص معه إلى أن "وانسيفن" أطلقت كثيرا الجزء الأعلى من النهر، وسمي الجزء الثاني (انطلاقاً من مجراه الأوسط بتادلا) "أم الربيع" في مرحلة متأخرة، مع الاستقرار العربي على ضفتيه خاصة تامسنا ودكالة.

في نقدنا لهذا الجزء نرى أنه من الصعب إطلاق اسم عربي على نهر ينبع من منطقة أمازيغية. ونرجح أن تسمية "أم الربيع" التي تحدث عنها البكري خضعت لتحوير كتابي لصعوبة فهم غير الأمازيغ لبعض مخارج الحروف المحلية. وبالمقابل سيشق على القسم العربي من أم الربيع نطق كلمة لن يجيدها إلا أصحابها، لذلك كانت للنهر تسميات عدة حسب المقاطع. وتزكي هذا القول تسمية "كوفة" التي كانت تطلق على النهر عند مدينة أزمور، والذي يجعلنا نرجح كلامه هو تحديد مساره من المنبع إلى المصب بدقة. لكنا نعيب على المؤلف الاستناد لكتابات لا تتجاوز بداية القرن العشرين الميلادي لترجيح الاسم العربي "أم الربيع". نذكر منها كتابات "إدموند دوتي" الذي نسب تسمية النهر لكثرة ربيع، وأحمد المنصوري الذي أشار إلى استدل بوجود أسماء عربية بخنيفرة خلال القرنين الأخيرين على غرار بَامُوسَى، وجبْلْ عْمِيرَةْ، وكهف النسور للدفاع عن التسمية العربية للنهر. واستند الباحث أيضًا للباحث المعاصر مصطفى عربوش" الذي يقول أن "مْربيع" معناها صاحب الخير العميم وأم الربيع، ربما لضعف درايته بمجال ولغة أهل المنبع.

كانت منطقة المنابع تعرف ب "وانسيفن" أو بويسافن، اسيف ن ايسافن[11]" مما يدل على أهميته التاريخية وقدم مكانته، لكون المنطقة أمازيغية. وحتى لو سلمنا بأن أصل التسمية هو مُ ربيع، فإننا نعتقد أن الأصل فيها مُ ربيع: أي منطقة "اجتماع القبائل" بصفة دورية عند رأس النهر، حيث الماء والخضرة والوجه الحسن التي يتطلبها فض النزاعات القبيلة خلال فصل الربيع. وهو الأمر الذي تجسده احتفالات "تيفسا"[12] و"أجموع إعريمن[13]" ببعض قبائل المنطقة حتى اليوم. ولا حاجة للتذكير أن "تادلا" وأزمور" نفسيهما كلمتان أمازيغيتان، لذلك نعتقد أن أهل المنبع أحق بالتسمية من غيرهم. والنقطة الثانية التي تستحق النقاش في هذا الفصل عند الحسن الوزان، وسجلها دوفوكو فيما بعد هي طريقة عبور النهر في سافلة النهر بحزم من القصب مرفوعة على جلود منفوخة. وهي إشارة واضحة لغياب جسور قادرة على أداء هذا الدور، في الوقت الذي تميزت فيه عالية النهر بكثرة القناطر التي شيدت في مراحل تاريخية مختلفة.

الفصل الثاني: نهر أم الربيع: تاريخ مجال[14]

يستهل الكاتب هذا الفصل بالتأكيد على أن "أم الربيع"، أحد المعالم الطبيعية التي تَهيكَل حولها المجال الجغرافي ومجالات النفوذ، ولعل هذا ما جعل السيطرة عليه أولوية للدول المتعاقبة. كما ساهم النهر بدور فعال في تنشيط الدورة الاقتصادية بالبلاد، وانتعشت على ضفافه الحياة الفكرية والدينية (أساطير، روايات، مزارات دينية، طقوس خرافية...)

١. الدور المجالي:

حصره الباحث في أربع أدوار رئيسة:

١.١- **تحديد الأقاليم:** إذ شكل أم الربيع دومًا الحد الفاصل بين القبائل والأقاليم المغربية. ويورد الباحث نموذجا للحسن الوزان يجعل بموجبه النهر حدًا غربيا لدكالة، ومنبعه هو الحد الشمالي لبلاد زيان، وهي أيضا الحد الجنوبي لمملكة فاس والحد الغربي لتامسنا.

٢.١- **حركية القبائل واستقرارها:** كانت خوانقه خاصة في عالية النهر تحد من تحركات القبائل، وشكل وسطه ومصبه حدا طبيعيا بين قبائل دكالة والشاوية والسراغنة.

٣.١- **الامتداد المجالي للكيانات السياسية:** حيث شكل النهر الحد الطبيعي بين السعدين والوطاسيين، وبين الدلائيين والإمارات الأخرى.

٤.١- **نشأة التجمعات البشرية:** نشأت على ضفاف النهر مدن وتجمعات سكانية كخنيفرة، وتادلا، وأزمور بالإضافة إلى تجمعات صغرت أو تقاوم عاديات الزمن أو اندثرت ومنها:

قرية أم الربيع: قرية مندرسة وردت في مصادر مختلفة ك "نزهة المشتاق" الذي أكد أن بها اسمان وألبان، وحنطة رخيصة، ومزارع قطاني وقطن وكمون، وبجوارها الطرفاء. فيها غابة كثيرة الأسد، لا يهابها أهل المنطقة الذين تمهروا في مقاتلتها بغير سلاح، خاصة بشوك السدرة، والسكاكين. إثنيا كانت القرية تجمع أخلاط من البربر، رهونة، زناتة، وتامسنا، وبرغواطة، ومطماطة، وركادة والغالب على سكانها الفروسية.

السْبِيتْ: يُرجح المؤلف أنها "قصبة بُولْعوَانْ" الحالية، استنادا لما دونه عنها مارمول كاربخال والحسن الوزان بقولهما: أنها محاطة بأسوار وأبراج عتيقة، والمقصود بها قصبة بولعوان.

تمرَّاكشتْ: يقول عنها الوزان أنها مدينة صغيرة بدكالة، وينسبها الوزان إلى يوسف بن تاشفين ويظن الشياظمي أنها مراكش القديمة.

تَركَا: يحدد الباحث موقعها بناء على مصادره على بعد ٣٥ كلم عن أزمور، على الضفة اليمنى لأم الربيع، كانت وفقا للوزان تضم ٣٠٠٠ كانون، وأصبحت في عهده خربة.

بُولعْوانْ: تحيط بها أسوار وأبراج قديمة، تضم أكثر من ٥٠٠ دار. تعرضت للغزو البرتغالي، وشيد بها المولى إسماعيل قصبته الشهيرة كواحدة من القصبات المجددة على طول النهر.

تِكِيتْ: إحدى اهم مراكز تامسنا، كانت كثرة السكان وفي الطريق نحو الصحراء. خربت خلال الحروب البرغواطية.

خنيفرة: يستهل الباحث هذا الجزء من عمله بالتذكير بمعظم الروايات الطوبونيمية المؤصلة لاسم خنيفرة كخنفر، وموخنفور، وعلاقتها ب المصارعة (تاموغزيل). ويرجح تسمية "خنك فارا" ويقصد به يعني مضيق "فارًّا" الذي يخترق المدينة من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي. ويعرج على قصة تشييد المدينة، ورحلة ايت حركات من البرج إلى خنيفرة، ولم يغفل قضية طرد ايت عفي من ايت بوحدو منها نحو مستقراتهم الحالية حول قرية كهف النسور. ويتطرق الباحث أيضا لقضية تصميم موحى اوحمو للمدينة (القصبة، القنطرة، منازل علية القوم، دار القاضي، قضية نظافة المدينة...)، وخلص إلى أن المدينة شيدت في موقع حصين على نهر جارٍ باعتبار الماء شرط أساسي للاستقرار. ويورد نقلا عن المعمر فرانسوا بيرجي أن المعمرين هم الذين شيدوا الأبراج على كل ممرات أم الربيع بين ثاقا إيشيعان وزاوية ايت إسحاق، لمنع كل اتصال لزيان بالسهول. وختم الباحث هذا المبحث بالتأكيد على أن إعفاء سوق خنيفرة من الرسوم الجمركية دليل على الرخاء. لكننا نرجح أن الأمر لا يتعلق برخاء اقتصادي بقدر ما هو دعم كولونيالي لسوق ناشئة قرب مقراتهم الإدارية.

قصبة تادلا: يستهل الباحث دراستها بالإشارة إلى أن أصل كلمة تادلا هي الحزمة من السنابل أو غيرها الزرع. تميزت بتحصينات مهمة مع غياب الحدائق، وهي الإشارة التي التقطها القائمون على الشأن المحلي عكس مدن المنبع التي تعد فيها الحدائق على رؤوس الأصابع ومنها حدائق إسمنتية.

أزمور: على مصب أم الربيع، وموطن سمك الشابل، النعمة التي جرت على المدينة وبال الغزو الايبيري، يؤكد كاربخال أن خمسها من اليهود نهاية القرن السادس عشر الميلادي.

٢. الدور الاقتصادي:

يستهل الباحث هذا المبحث بالتأكيد على أن ضفاف أم الربيع كانت موطن الخيول، والأغنام، والنباتات والعقاقير، وخشب الأرز، والثروة السمكية. وهو أيضا مصدر أساسي للماء الشروب للإنسان، ونقاط الماء للمواشي. ووسيلة لتسهيل المواصلات.

يتحدث الباحث **خيرات النهر السمكية** الهائلة خاصة سمك الشابل عند المصب، والتي توفر المذاق واللذة المطلوبين والذهنيات الكثيرة حتى إن نقودا قديمة تحتوي على صورة لحوات. لكننا نسجل إغفال الباحث للحديث عن الثروة السمكية عند المنبع. ينتقل بعدها للحديث عن **الماء الشروب، حيث يشير نقلا** عن المصادر أنه لا ماء لأبي الجعد وتادلا غير أم الربيع. ويعرج الكاتب على مسألة تلوث النهر، حيث يؤكد أنه ففي بعض الفترات "كان الناس لا يشربون من وادي أم الربيع من كثر الجيف وكذلك الخيل". يشير بعدها لدور النهر في **تنشيط الحياة الفلاحية** بتادلا وأبي الجعد... وينفي عدم صلاحيته للسقي خاصة قبل مصب وادي صرو، وعند زاوية تامسكورت حيث يمر النهر ضائعًا ولا يطعم جائعًا.

يشكل النهر واحدا من أهم **طرق المواصلات** الرابطة بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب. ويورد نماذج لأهم مشاريعه كمشروع بنعبو، مشروع الحمري بني مسكين، مشروع بولعوان ببني مسكين، لكن الباحث أغفل مشروع إيجْ قرب زاوية تامسكورت على بعد أقل من ٦ كلم جنوب خنيفرة.

تطرق المؤلف لقنطرة مدينة خنيفرة فذكر أنها حسنية وأورد بعض ذكر طقوس الانتجاع المرافقة للتنقل عبر القنطرة. والأقرب إلى الصواب أنها إسماعيلية بدلائل أثرية ومعمارية. ورجح أن يكون تشييد قنطرة خنيفرة قد تم في نفس عهد تشييد قنطرة البرج على بعد أقل من ١٠ كلم جنوبًا. وهو ما يدفعنا لطرح السؤال يحتاج إلى المزيد من البحث والتنقيب: **إذا كانت قنطرة خنيفرة شيدت في نفس زمن تشييد قنطرة البرج هل من المعقول أن تشيد على مسافة قصيرة؟**

يجيب الباحث بأن نزوح أيت حركات إلى خنيفرة كان بعد تراجع مداخيل الأولى ويرجح أن قنطرة خنيفرة لاحقة لقنطرة البرج. وأشار إلى توجد قناطر لم تولها المصادر التاريخية أهمية كبيرة وأهمها:

- قنطرة في عالية أم الربيع بين وانسيفن ومعدن عرام عليها لوح كبير.
- قناطر العهد السعدي: كقنطرة تادلا، وقنطرة لالة مسعودة.
- قناطر العهد الدلائي: أبرزها مرض الفان، أمسدل، تاحيزونت، وخلاطة التي تعرف عند الأهالي والمنتجعين وتبرز بشكل جلي أهمية الانتجاع عند الدلائيين.

كان أم الربيع أهم وسائل **نقل الأخشاب** نحو بلاد تادلا ومراكش، وذكر برواية المنصوري بخصوص تهريب الأرز نحو مراكش.

٣ـ الدور الديني:

بدأ الباحث بالإشارة إلى العلاقة الجدلية بين المزارات، والأزمات الاجتماعية، والسياسية صعودًا ونزولا. وينتقل إلى الحديث الاقتصادي الذي يبديه رجال الصلاح للمجتمع زمن الأزمة.

أ ـ أدب المناقب:

أكد أن انتشار الصلحاء وأدب المناقب على ضفاف أم الربيع جاء لملء الفراغ السياسي من خلال عدة نماذج أبرزها:

ـ قصة الأربعين دجالاً الذين حاولوا السيطرة على كنوز المصب بإغلاق عيون المنبع، إلا أنها عادت لتجرفهم. بينما نذر أربعون صالحًا أنفسهم لحماية العيون، وكلما توفي أحدهم دفن على إحدى ضفتيه وهي تفسير خرافي لانتشار الأولياء على ضفتي النهر.

ـ قصة رحال الكوش البودالي الذي شق النهر في تذكير بمعجزة موسى عليه السلام.

ـ كرامة جريان النهر بالزيت زمن بلقاسم العمري والد أبو عبيد الله محمد الشرقي شيخ مدينة أبي الجعد

ـ ثوبة لصوص على يد أبي حفص بعد محاولة سرقة ثيابه وهو في المسجد.

ـ وذكر برواية الإفراني عن قصة المجاهد العياشي الذي حاول قطع أم الربيع قرب مدينة البريجة (الجديدة الحالية) رغم فيضانه، فدعا الله واقتحم الوادي فوصل الماء ركب الخيالة بعدما كان لا يدرك له قعر في تذكير بمعجزة موسى مع فرعون.

ب ـ الزاوية الدلائية:

استهله المؤلف بالتذكير بسياق تأسيس الزاوية الدلائية، والفترة التاريخية التي تسيدت فيها المشهد الديني ثم السياسي بالمغرب. وتحدث عن الزوايا التي تفرعت عنها خاصة ربيبتها الزاوية العياشية بالأطلس الكبير الشرقي. وسرد مراحل الازدهار السياسي للزاوية بعد هزم قادتها لمحمد لشيخ السعدي في معركة واد بوعقبة على ضفة أم الربيع. وذكر بقضاء الدلائيين على حركة المجاهد العياشي بسلا، وهزم العلويين، وربط علاقات مع الخارج بعد بناء عاصمة جديدة بالسهل (زاوية أيت إسحاق الحالية). وذكر بعوامل الانهيار، وتعدد الطامحين لتوحيد المغرب في ذات الوقت. غير أنه وجبت الإشارة هنا إلى أن معظم الباحثين يسمون المعركة التي هزم فيها الرشيد العلوي الدلائيين بمعركة بطن الرمان، إلا أن تعميق البحث في الأمر أكد لنا أن الأمر يتعلق بمعركة بورمان[١٥]. ووجب التذكير أيضا بدور أم الربيع في

عرض كتـــاب

تاريخ هذه الزاوية كمنطقة انتجاع، ودور الدلائيين في تشييد قناطر على طرق استراتيجية تعبر النهر.

ج. زاوية تامسكورت:

اعتبرها واحدة من أقدم فروع الزوايا الناصرية، أسسها محمد الكبير[16] بمنطقة عبور بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب. استفادت من موقعها الاستراتيجي كمعبر ضروري بين منتجعات زيان الشتوية بأزاغار، ومجالاتهم الجبلية الصيفية. وبرز دورها الكبير في التحكيم بين القبائل، وفض النزاعات على ضفتي أم الربيع بشكل اثار ريبة المخزن المركزي[17]

د. مدشر أروكو:

مدشر على أحد أهم روافد النهر في موقع الاستراتيجي على طريق تجارة القوافل بين مكناس وتافيلالت. يقع قرب المعبر الوحيد على طريق مطروقة من طرف الناصريين، كما تدل على ذلك العديد من المراسلات، ونقل المولى إسماعيل لوالد أبي القاسم الزياني ليكون إمامه في المحلة ثم نقله إلى لمكناس سنة ١٦٨٧.

زاوية سيدي علي أمهاوش:

ذكر الباحث بأنها زاوية ناصرية تحولت إلى درقاوية، بدأت الطموحات السياسية للزاوية خلال أزمة الثلاثين سنة وبعدها. لكنها ظلت مهمشة في التاريخ الرسمي عدا ربطها بالفوضى حيث نعت أكنسوس والناصري زعمائها بالدجالين. أصبحت الزاوية في عهد أبي بكر أمهاوش واحدة من الزوايا الثلاث الأخطر التي أنتجتها الكتلة الصنهاجية إلى جانب حنصالة والدلاء، رغم محاولات المخزن تسخير سكان أزاغار لتطويع سكان الجبل. تعمد المولى سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢م) إتلاف زروعهم سنة ١٨١٩ رغم طلب الصلح والصفح وذلك بعيد هزيمته في معركة زيان بأزرو[18] (أسر السلطان وقتل ابن أخيه). وعند تولي علي بن المكي الزعامة الروحية للزاوية إلتفت حوله القبائل في مواجهة محمد اوحمو الزياني، لكن هذه المواجهة خفت لمواجهة العدو الخارجي بعد ١٩١٨ بقيادة سيدي المكي خاصةً في معركة تازيزاوت الشهيرة سنة ١٩٣٢م.

الفصل الثالث: أم الربيع

تراث مائي يعيش حالة احتضار[19]

ذكر المؤلف بأن الأطلس المتوسط منبع معظم أنهار المغرب، وأم الربيع أكثر أنهار المغرب طولاً وصبيبا. يتجاوز طوله ٦٢٠ كلم من جبل حيان بزيان إلى لالة عيشة البحرية على شط المحيط الأطلسي قرب أزمور بدكالة.

١. منابع أم الربيع:

يؤكد الباحث أن تعد أم الربيع صهريج المغرب لكثرة عيونها الكارستية وهي نوعان: عيون مالحة على الضفة اليسرى في اتجاه أجدير، وأخرى عذبة قادمة من مقعر "البقريت". وبتقدم جريان النهر تزداد روافده من المنبع إلى المصب وأهمها:

أ. واد سرو: تراجع صبيبه نتيجة الجفاف والسقي وضعف خزنه الكارستي. يتغذى من اشبُوكة، واد بُومزيل وأمركُو و واد أرُوكُو بالإضافة إلى العيون. يتميز بارتفاع الملوحة بسبب انتشار المواد الملحية بالطبقات الصخرية، وسرعة انصهارها حيث ينقل الوادي أزيد بين ٤٦ ألف و٢٦ الف طن من الأملاح سنويًا.

ب. واد إشبُوكة: أحد أهم روافد واد سرو ينبع من أيت بومزيل بأريغ، يتصل بماء جنان إمَّاس. وعندما يصل إلى منطقة شبوكة قبالة قلعة فازاز يسمى واد إشبوكة إلى أن يلتقي بواد سرو قرب الهري. يسمى بعده واد سرو الذي يصبح بدوره أم الربيع قرب زاوية آيت إسحاق الدلائية.

ج. واد العبيد: يبين الباحث أن الوادي يصل أعلى صبيبه عندما تبدأ الثلوج في الذوبان ربيعا، ويُعَدّ أكبر روافد أم الربيع. يورد المؤلف نقلاً عن مارمول كاربخال أنه سمي وادي العبيد نسبة إلى الزنوج أو الرقيق بلغة أهل البلاد بينما يؤكد مؤرخ بزو المصطفى فرحات أن اسمه الأصلي "أسيف ن آيت سخمان" التي ينبع منها ويضيف الكاتب أن سخمان ربما تحريف لكلمة اسمغ أو أسمغ التي تعني العبد وهذا محط نقاش.

د. واد تاساوت والواد الأخضر: تساوت ج تيساوين أي الحواشي أو البطون باللغة المحلية، أما الثاني فيسمى الواد الأخضر لأنه ينساب وسط غطاء نباتي وأشجار زيتون دائمة الخضرة. يؤكد الباحث نقلاً عن الحسن الوزان أنهما

نهر واحد ينبعان من عُجدَامة، ولا تفصل بينهما أكثر من ثلاثة أميال. وهما معا من روافد واد العبيد.

و ـ واد درنة: بين أفزا وتافزا وسط قطع الصخرية بلغ عرضه ٢٥ م وعمقه ٧٠ سم.

في ختام هذا الفصل يدق الباحث ناقوس الأخطار التي تتهدد النهر، ويتعلق الأمر بتناسل السدود (أزيد من ١٤ سدًا)، والتزايد السكاني، وتراجع الموارد التي تهديد التوازن البيئي وخطر انقراض الكائنات الحية ومساهمة الجفاف ونهب الرمال في ارتفاع الملوحة. بالإضافة إلى أخطار أخرى أبرزها:

- المياه العادمة المنزلية خاصة بالمدن الكبرى كخنيفرة وتادلا، والإفراط في السقي والضخ والاستعمال المكثف للأسمدة الذي يهدد المياه السطحية والجوفية.
- سوء تدبير وإهمال معظم المواقع التاريخية على ضفتي النهر (باستثناء قصبة تادلة) بشكل يهددها بالاندثار. حيث تحول بعضها إلى أطلال، وحتى أغلب الترميمات تمت بطرق (كالقنطرة الإسماعيلية، تامسكورت، والقصبة الإسماعيلية...). وذلك في ضرب تام لتوصيات الايكومس بحماية وحماية التراث الثقافي للماء.
- كثرة الوحدات الصناعية حيث أحصى الباحث أزيد من ٦٠٠ مقاولة صناعية، معظمها معامل سكر، وحليب، ومعاصر زيتون، ومجازر، ومدابغ، ومناجم.
- وتعثر العديد من المشاريع وضعف مبادرات المجتمع المدني

جاءت الخاتمة قصيرة جدًا تطرق فيها الباحث لاغتيال الموروث الحضري بمنطقة عالية النهر، واعتبرها حبيسة التاريخ الاستراتيجي العريق رغم الموقع الاستراتيجي وتنوع الموارد. وغابت عنها التوصيات للجهات الفاعلة والمهتمة، لهذا نقدم بعضا منها:

- استثمار المؤهلات المائية لتزيل مخططات فلاحية نموذجية.
- دعوة فعاليات المجتمع المدني من أبناء المنطقة للترافع عن منطقتهم كل من موقعه ومجال تخصصه، لتصيح الصورة النمطية التي رسمها الإعلام العمومي عن المنطقة كواجهة فلكورية لا غير.
- ضرورة تهيئة منابع النهر وشلالها (الوحيد بالإقليم) وتخليصها من الأكواخ التي تشوه صورة المنطقة في ظل مقاربة تشاركية مع السكان المحليين توقف جعل سكان عالية النهر يمسكون بقرون بقرة ليحلبها غيرهم.
- الاهتمام بالموروث الثقافي للنهر وتكثيف الدراسات حول أهميته في ماضي وحاضر ومستقبل سكان ضفافه.
- ضرورة أخذ عالية النهر نصيبها من التنمية في إطار العدالة المجالية التي تنص عليها مختلف المواثيق والقوانين الوطنية وتفعيلا للجهوية المتقدمة لأننا نعتبر أن عالية النهر لم تأخذ من هذه الجهوية إلا الاسم لحد الآن.

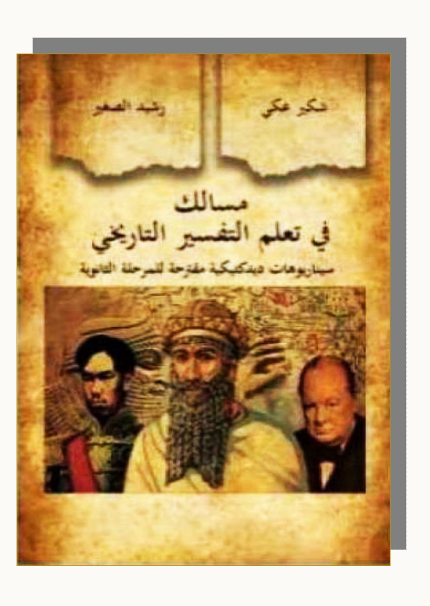
خَاتِمَةٌ

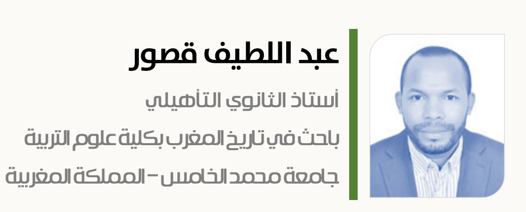
عمومًا نجح الأستاذ لحسن رهوان في تحريك مياه الثقافة التاريخية الراكدة حول منابع وعالية أم الربيع. إلا أنه مطالب في طبعة ثانية من الكتاب بتوحيد طبعة مصادره، وطريقة التهميش، وتسميات المؤلفين وتجنب بعض أحكام القيمة. وبحكم معرفتي به عن قرب ألومه على عدم توظيف صور للمعالم التي تحدث عنها، خاصة أنه زار هذه المعالم مرات ومرات كعضو في جمعية لرياضات المشي، ويشتغل عضوًا بفريق بحث في التاريخ والتراث بمدرسة الإبداع الأدبي والفني، حيث أنجز ربورطاجات كثيرة في الموضوع. بالمقابل نجح الباحث إلى حد بعيد في توظيف الذاكرة في الكتابة التاريخية. أملنا أن يكون هذا العمل نبراسا ونقطة انطلاق لكتابات أخرى تنفض الغبار عن مجموعة من قضايا المنطقة في مختلف المجالات. ومتمنياتنا أن يمارس المثقف العضوي المحلي دوره الرئيس في إثارة الضجيج المعرفي حتى لا ينام المركز على جسد الهامش.

الاحالات المرجعية:

(١) رهوان لحسن، **أم الربيع الذاكرة والتاريخ**، منشورات مركز روافد للأبحاث والفنون والإعلام بخنيفرة، مطبعة بلال، فاس، ط١، ٢٠٢٢. ص ٥-٧.
(٢) رهوان لحسن، **أم الربيع الذاكرة والتاريخ**، ص ٩-١٩
(٣) رهوان لحسن، م.س، ص ٢١-٤٨
(٤) البكري أبو عبيد عبد الله، **المسالك والممالك**، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيرت، ١٩٢٢، ج١، ص ٢٣٨
(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ٨٢٧
(٦) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، منشورات عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩، ج١، ص ٢٣٧.
(٧) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٥٨
(٨) **مُرْض إلفَانْ** (mzdilfan) مركب اسمي محلي يعني "مطحنة الخنازير"، والراجح أن القنطرة استمدت اسمها من الخانق الصخري المسنن الذي شيدت عليه. يتراوح عرض النهر في بعض المقاطع بين نصف متر، ومتر واحد بسبب تعمق النهر في الصخور البركانية الحادة وسط أحراش تعج بالخنازير. لذلك يقصد عدد كبير منها هذا الأخدود النهري إما للشرب أو للعبور، فيسقط معظمها في النهر وتطحنه الصخور وقوة تيار النهر (التباعي جواد، **نماذج من التراث الثقافي ببلاد زيان من العصر الوسيط إلى الزمن الراهن: دراسة وتثمين**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ والتراث، كلية الآداب سايس، فاس، ٢٠٢٠-٢٠٢١، ص٢٥٤).
(٩) ابن خلدون عبد الرحمان، **تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨١، ج٦، ص ١٣٣.
(١٠) الحميري أبوعبد الله، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، مطابع دار السراج، ط٢، ١٩٨٠، ص ٦٠٠.
(١١) **أسيف ن إيسافن**: تسمية أمازيغية معناها نهر الأنهار. أي النهر الذي تصب فيه كل الروافد.
(١٢) **ثِيفسَا tifssa (الاحتفال بفصل الربيع)**: مهرجان ينظم في شهر مارس بأزاغار احتفالا بقدوم فصل الربيع، تدق خلاله الخيام في مكان محدد، وتتزين النساء، ويرتدي الرجال أفخم ثيابهم لتأدية وصلات في الفروسية، وتنطلق الأفراح وحفلات أحيدوس، وتنحر الذبائح. وينفصل كبار القبيلة عن الجمع للبث في المشاكل العالقة بين القبائل، خاصة تلك المتعلقة بطرق استغلال الأرض، مايزال هذا الاحتفال يقام بآيت سكوكو رغم طغيان الطابع الفلكلوري على فعالياته. (التباعي جواد، **نماذج من التراث الثقافي...**، م.س، ص ٣٤٦
(١٣) **أجْمُوع إعْرِّيمن (تجمع الشبان)**: حفل تنصيب شيخ القبيلة الجديد ومساعديه. وهو تقليد ثقافي موغل في القدم بالمنطقة، لازال بعض الزيانيين يحيونه حتى اليوم. تجسده كل أطياف قبيلة آيت سيدي أحمد أو حمد من آيت سكُوكُو، وجاليتها بالخارج خلال شهر غشت من كل سنة، يؤكد استمرار تشبث أفراد القبيلة بثراتها وتقاليدها القانونية، ويضمن استمرار وتجديد رمزية مؤسسة "أمغار" باعتبارها نظاما سياسيا فعالا في تشجيع الشباب على تحمل المسؤولية، والانضباط لمنطق القبيلة وعاداتها. (التباعي جواد، **نماذج من التراث الثقافي...**، م.س، ص (٣٧٤
(١٤) رهوان لحسن، **أم الربيع...**، ص ٤٩-١٣٧.
(١٥) يحدد معظم المؤرخين موقع المعركة ببطن الرمان قرب "زاوية الشيخ" الحالية، لكن الأمر لا ينسجم وخط توحيد البلاد الذي اتخذه المولى الرشيد من الشمال نحو الجنوب إذ لا يعقل في نظرنا أن تأتي جيوش السلطان من فاس وتحارب جيوش الدلائيين ببطن الرمان جنوب الزاوية ثم تعود نحو الشمال لتحطيمها، وبعد بحث في طوبونيميا المنطقة اكتشفنا أن الأمر يتعلق بمنطقة بُورمان التي تحدث عنها ابن زيدان كمحطة في حملة الحسن الأول من مكناس في ١٥ رمضان١٣٠٥ لتأديب القبائل الثائرة على مشارف قصبة أدخسان (ابن زيدان عبد الرحمان، **الإتحاف...** م. س، ج٢، ص٢٩٢).
(١٦) هو محمد (الكبير) بناصر(١٠٤٦-١١٢٦هـ/١٦٣٧-١٧١٣م. وقد لقب بالكبير لكونه أكبر بني أبيه محمد بناصر الدرعي مؤسس الزاوية الناصرية، ولد سنة ١٠٤٦هـ/ ١٦٣٧م. أخذ العلم عن والده، وعليه تخرّج، ثم شد الرحال إلى فاس للأخذ عن جماعة من علمائها كالإمام أبي الحسن علي الشهير بالمراكشي، أبي الحسن اليوسي، وأبي الحسن علي الدادسي. وصف بأنه "سريع الغضب، سريع الرّضى، مجاب الدّعوة". أصبح فقيهًا ومؤقتًا وأحاط نفسه بكرامات ظاهرة وخوارق باهرة كافية لتنال زاويته الرضى الخليفتي محمد بن عبد الله، **الدرر الجليلة في مناقب الخليفة**، دراسة وتحقيق أحمد عمالك، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط١، ٢٠١٤، ج١، ص ١٨١/ الناصري أحمد بن خالد، طلعة المشتري...، م. س، ص٢-٣
(١٧) تخوف المخزن الإسماعيلي من تكرار الدلائيين لتجربة السيطرة على الحكم، وتجسد هذا التخوف في تعمد خدم دار المَخْزَنْ على إجبار شيخ تامسكورت على زيارة القصر السلطاني، وتعمدوا المرور به أمام جناح قناجر القصر اختبارًا لقدرته على الصمود فيما عرف تاريخيا بحادثة القناجر(الخليفتي محمد بن عبد الله، م. س، ج١، ص ١٨٢، هامش٣).
(١٨) هناك معطيات تؤكد أن زيان كانوا في ركب امهيواش في معركة زيان وكانت منطقة القباب من أهم مناطق صنع تيمزين البارود المستعمل في المقاومة إلى جانب الكعيدة واستنزاف طاقة المستعمر.
(١٩) رهوان لحسن، **أم الربيع...**، ص ١٣٩-١٥٧.

مسالك في تعلم التفسير التاريخي
سيناريوهات ديداكتيكية مقترحة للمرحلة الثانوية




عبد اللطيف قصور
أستاذ الثانوي التأهيلي
باحث في تاريخ المغرب بكلية علوم التربية
جامعة محمد الخامس – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: شكير عكي، رشيد الصغير
منشورات دار القلم للنشر
مكان النشر: المغرب.
عدد الصفحات: ١٥٩ صفحة
الطبعة: الأولى. سنة النشر: ٢٠٢٢

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.325977

كلمات مفتاحية:
التفسير التاريخي؛ السيناريو الديداكتيكي؛ التفسير بالعوامل المتعددة؛ التفسير بحافزية الفاعلين؛ التفسير بمقارنة التأويلات؛ التفسير بزمنيات متعددة.

مقدمة

اتكاء على البون الشاسع، بين المرقى الباهر الذي وصل له الإنتاج التنظيري الأكاديمي والدايكتيكي ومقولات المنهاج الموجهة لتدريسية مادة التاريخ في المدارس المغربية ولاسيما في الثانويات، من ناحية ومن ناحية ثانية واقع حال الممارسة الصفية الذي تشوبه في كثير من الأحيان تجليات الإغراق في أساليب شحن المتعلمين أو توجيههم للاستظهار الذاكراتي الخالص، وغيرها من الشوائب التي تسلب من تدريس مادة التاريخ حيويته وجاذبيته، فإنه بإمكاننا القول إن الدراسات والأبحاث التي تهتم بالديداكتيك التطبيقية الخاصة بمادة التاريخ المدرسي، قادرة على تجاوز التحديات التي تواجهها العملية التعليمية التعلمية والمرتبطة ببناء، وفهم الأحداث التاريخية المدروسة انطلاقًا من المدرس وبمعية المتعلمين، على ضوء خطوات علمية وبمجهود ذهني محسوب ومنظم.

يبدو أن سبيل الفكاك من معضلة نفور المتعلمين في الثانويات المغربية، من الإقبال على الانخراط الإيجابي في بناء المعارف الخاصة بمادة التاريخ، يتمثل في تجديد الطرق الديداكتيكية التطبيقية **للتفسير التاريخي**، وهو ما سنحاول تقديمه عبر مراجعة لإسهام كل من الباحثين المؤلفين **الدكتور شكيرعكي**[1] و**الدكتور رشيد الصغير**[2] المعنونة بـ"**مسالك في تعلم التفسير التاريخي سيناريوهات ديداكتيكية مقترحة للمرحلة**

عرض كتاب

الثانوية" وقد اقترح الباحثان في هذه الأخيرة أربع سيناريوهات ديداكتيكية كفيلة بتجديد تدريس مادة التاريخ في السلك الثانوي وإزالة ما يعتريها من مواطن الضعف، وهي دراسة صادرة عن دار القلم للنشر سنة ٢٠٢٢، هذا الكتاب يقع في ١٥٩ صفحة من الحجم الصغير، تمت صياغة مضامينها في استهلال وفهرسة ومدخل تأطيري وأربعة فصول وأخيرًا خلاصة وامتدادات وبيبليوغرافية مختارة، ويمثل هذا الكتاب ذو الحمولة التطبيقية من حيث الأهداف امتدادًا لمؤلف سابق للباحث الدكتور شكير عكي **"تفسير تاريخي تأصيل إبستمولوجي وتطبيق ديداكتيكي"**[٣].

محتويات الكتاب

في **المدخل التأطيري** أشار الباحثان شكير عكي ورشيد الصغير إلى أن البحث والتفكير في الديداكتيك الخاص بمادة التاريخ ومنذ ظهوره في ثمانينيات القرن العشرين وإلى وقتنا الحاضر يركز بإمعان على موضوع إحداث التغيير الإيجابي[٤] في تعلم التاريخ بالمدارس، وقد ربط الباحثان هذا التغيير بشكل حاسم بضرورة بلورة سيناريوهات ديداكتيكية توفر إمكانيات تطبيقها باحترافية في الممارسة الميدانية، وليس فقط التركيز على المرجعيات الإبستمولوجية والمنهجية في الفكر التاريخي، فهذا الكتاب يرمي إلى تبيان أهمية كفاية تخصصية مركبة وجب تنميتها لدى المتعلمين(ص:٩) وترتبط أساسا بطرح سؤال تاريخي ابتداء وانتهاء ببلورة جواب تفسيري كفيل بنسج المعنى التاريخي، وإذا كان تعلم الكفاية التفسيرية في مادة التاريخ بالسلك الثانوي هو غاية هذا الكتاب موضوع القراءة فقد قدم الباحثان أربعة سيناريوهات ديداكتيكية تقود لتحقيق هذه الكفاية (ص:١٠)، وأجرأتها ديداكتيكيا عبر أربعة مسالك لتعلم التفسير التاريخي وهي: أولاً التفسير بالأسباب المتعددة، وثانيًا التفسير بفهم حوافز الفاعلين في الأحداث التاريخية ومقاصدهم، وثالثا التفسير بالمقارنة بين تأويلات تاريخية وأخيرًا التفسير بأزمنة متعددة مع شرح منطوق هذه المسالك الأربعة (ص:١٢-١٠).

كما نجد على مستوى كل فصل على حدة من الفصول الأربعة ضمن هذا المؤلف خطاطة مكونات السيناريو الديداكتيكي، التي تضم منطوق المسلك تفسيري، الملخص العلمي، الدعامات المهيئة، هندسة السيناريو، دليل تدبير هذا الأخير، وبيبليوغرافيا للتوسع (ص:١٤).

استهل المؤلفان **الفصل الأول** المعنون **بالسيناريو الديداكتيكي الأول مسلك التفسير بالأسباب المتعددة موضوع: الحرب العالمية الثانية الأسباب والنتائج** معتبرين إن هذا الموضوع كفيل بإنماء كفاية التفسير التاريخي عند المتعلمين على ضوء تتعدد الأسباب، قصد بناء فهم للمعرفة التاريخية (ص:٢٠)، هكذا ورد في خطاطة السيناريو الديداكتيكي لهذا الفصل على مستوى منطوق المسلك وخلفيتها الابستيمية والمنهجية، تجاوز مؤرخي الحوليات[٥] والتاريخ الجديد للمنحى التفسيري الوضعاني القائم ربط المقولة السببية في فهم الحدث التاريخي بعوامل خارجية موضوعية فقط، إلى مستوى يبحث في مختلف الأسباب وتصنيفها وتحديد وزنها التأثيري في مسار تشكل الأحداث التاريخية وفهمها، إذ أن "السببية لها فضائلها الابستيمولوجية لأنها تساعد المؤرخ على الذهاب بعيدا في نسج العلاقات والشبكات والسلاسل السببية بين الوقائع التاريخية" (ص:٢٢)، فهذا المسلك التفسيري إذن يفرد أنواع مختلفة من الأسباب بمقدورها الإحاطة العلمية بالمادة التاريخية وهي: الأسباب الموضوعية في إشارة لما تفرضه الأسس المادية والاجتماعية بالمحيط على الفاعلين في التاريخ من تحديات من جهة أو إمكانات من جهة ثانية، ثم الأسباب القصدية، الأخيرة تحيل على فهم الأحداث التاريخية بربطها بما كان يصبو إليه فاعلون التاريخيون، أخيرا الأسباب العرضية أو المصادفات في التاريخ والتي تحمل مفاجآت غير متوقعة (ص:٢٣).

وعلى **المستوى المنهجي** يعمد المؤرخ إلى إنجاز التمرين التفسيري بواسطة عمليات تبدأ بانتقاء الأسباب وتصنيفها (اقتصادية، اجتماعية، سياسة...) أو زمنية (زمن قصير، متوسط، طويل) أو مكانية (محلية، جهوية، وطنية، عالمية)، وتحديد تراتبية الأسباب وقيمتها وفعاليتها في فهم الأحداث التاريخية وكذا ترتيبها حيث إن "تراتبية العوامل خاصية تميز التفسير التاريخي عن غيره في حقول معرفية أخرى... وهذه بعض الأمثلة: هل كانت ألمانيا ستخسر الحرب سنة ١٩١٨ لو تأخر الأمريكيون في الدخول إلى هذه الحرب؟ ماذا سيكون مصير الاقتصاد الأميركي لولا اكتشاف السكك الحديدية؟" وانتهاء

بتجسير العلاقات بين الأسباب وتوطينها في صيرورة التحول أو الديمومة "فجرد العوامل وتصنيفها ليس كافيا للوصول إلى المعنى والمفهومية التاريخية بل لا بد من ربط العلاقات والحدث استنادا إلى برهنة واستدلال منطقي" (ص:٢٥-٢٤)، في المقابل يرتكز الجانب الديداكتيكي في هذا السياق على خطوات للتعلم والمعالجة التفسيرية بالأسباب حيث يوجه المدرس فيه المتعلمين إلى القيام بها وهي: الخطوة الأولى انتقاء الأسباب وتصنيفها وفق معايير زمنية ومكانية وموضوعاتية، الخطوة الثانية رصد تراتبية الأسباب ووزنها حسب فاعليتها التاريخية، أما الخطوة الثالثة فتستهدف ربط العلاقات بين الأسباب وموضوعاتها في صيرورة التحول أو الديمومة(ص:٢٦-٢٥).

بخصوص الملخص العلمي لموضوع السيناريو الديداكتيكي، يمكننا القول ابتداء أن موضوع/ درس الحرب العالمية الثانية الأسباب والنتائج على غرار حروب تناولها قدامى المؤرخين كحروب البيلوبونيز[٦] والحروب البونيقية[٧] يعد موضوعا صعبا ومعقدا بالنظر لتسارع وتيرة أحداثها العسكرية والسياسية والاقتصادية في سياق زمني قصير، إلا أنه درس يوفر إمكانية فضلى لإعمال المقاربة الحدثية التفسيرية والتي تظهر جليا في عنوانه(ص:٢٧)، وعليه يمكن تقديم ملخص علمي قائم على "المقاربات الآتية: المقاربة المفاهيمية للحرب؛ المقاربة النظرية التقعيدية للمفهوم؛ المقاربة التاريخية الحداثية"(ص:٢٨).

فالمقاربة الأولى، الجيولوجية. المفاهيمية، تركز على الإجابة على سؤال "كيف يمكننا إذن أن نعرف الحرب؟"، حيث نجد معجم أطلس تاريخ الحرب (١٩٨٩) قد اعتبر أن الحروب اختيار حاسم لاستتباب أمن الدولة وضمان بقائها، (ص:٢٨)، حسب مؤهلاتها الجسدية والتموينية والانضباطية ونوعية الأسلحة والتقدم التكنولوجي، كما يجيب "معجم أطلس" من خلال مقال كتبه ريشار هولمز (Richard holmes) على سؤال هل بمقدور العنصر البشري حسم الحرب؟ بجواب يجعل الحسم رهينا التقنية العسكرية، مختلف الأسلحة الحديثة بحوزة الحلفاء.

و"حسب معجم لوروبير (١٩٩١) فإن كلمة حرب هي نقيض كلمة السلم. وهي تدل على الصراع العسكري والمسلح بين دولتين"، ويمكن تصنيفها إلى حرب توسعية، حرب هجومية، حرب دفاعية سواء باعتماد القوة الجوية أو البرية أو البحرية، وعطفا على التأصيل المفاهيم للحرب يمكن أيضا رصد تعاريف على لسان كبار المختصين في ظاهرة الحرب ومثل تعريف لبرونيسلاف مانيلوفسكي يقول " الحرب هي مواجهة مسلحة بين قوتين مستقلتين" أو غاستون بوطهول يعرفها بقوله" إي صراع مسلح بين مجموعتين منتظمتين"(ص: ٣٠-٢٩).

أما المقاربة الثانية: فهي نظرية تقعيدية، من خلال نظريتين لمؤلفين حربيين أولها نظرية كلاوزوفيتش (Karl von Clausewtiz)[٨] ونظرية أنطوان هنري جوميني (Antoine Henri Jomini)[٩]، حيث ذهب كالاوزوفيتش إلى أن الحرب تمثل المجهول والعبث والصدفة والخطر الجسيم، إذ يرى في كتابه الوجيز في الحرب الذي ظهر السنة ١٨٣٤ أنها" أعمل من أعمال العنف لفرض إرادتنا على الخصم"، على النقيض من ذلك يرى أنطوان هنري جوميني في كتابه مختصر في الحرب(١٨٣٨) أن التفكير السليم لوحده غير كاف لربح الحرب إذا لم يقترن بالشجاعة والمبادرة والابتكار فضلا عن الذكاء الاستراتيجي فقد اهتم بتحركات وتمركز الفرق العسكرية، رغم اعترافه أن" الحرب هي تراجيديا مرعبة"(ص:٣٢-٣١-٣٠)

في المقابل كانت المقاربة الثالثة: حدثية تفسيرية، إذ مثل هول المآسي التي تسببت فيها الحرب العالمية الثانية، وضحاياها، وتدمير مقومات الحياة، دافعا قويا للباحثين في تاريخها لبورة خريطة معطيات تفسيرية لهذا الحدث الجلل، حيث لا يمكن التسليم فقط بالعوامل التي جرى تداولها على نطاق واسع باعتبارها من البديهيات، فهل نعلم مثلا "أسباب الهزيمة الفرنسية أمام تقدم غوديريان في معركة ليزاردين ١٩٤٠؟ هل كان ستالين دوغمائيا في تقديره للخطر النازي؟ وكيف نجح الحلفاء في إنزال النورماندي وما هي التكلفة الحقيقية لذلك اليوم (٦ يونية ١٩٤٤) ولماذا سمي بأطول يوم في التاريخ"، وهكذا برزت إسهامات تاريخية لعبت دورا في تصحيح تمثلات سائدة عن تطورات الحرب ومآلاتها، حيت يؤكد لوران هينينجر(Laurent Henninger)[١٠]، " بأن التفوق التكنولوجي الألماني (الدبابات الألمانية المتطورة ك.Tiger)، لم تصمد أمام الفعالية القتالية للدبابة الروسية (T34)" حيث إن الأخيرة ورغم بساطتها كانت

قادرة على تحمل قساوة الظروف المناخية عكس نظيرتها الألمانية.

كما أن السوفيات كانوا قد راجعوا نظريات الحرب التي صاغها كلاوزوفيتش وذلك بالتخلي عن مفهوم الحرب الإستنزافية الخطية (حروب نابوليون) لصالح" الاستراتيجية، التكتيك الحربي" وهو ما فاجأ النازيين (ص:٣٣-٣٢)، أما موريس فايس (M.Vaisse)[١١]، فاستعرض عشرة عوامل كأجوبة عن سؤال طرحه ومفاده هل كان يمكن لفرنسا تجنب الهزيمة أمام تقدم الألمان سنة ١٩٤٠؟، ومن تلك العوامل إن المجتمع الفرنسي كان ما يزال يجتر مآسي الحرب العالمية الأولى، فضلا عن ضعف سلاح الجو ووجود حكومة ديمقراطية ركزت على الحرب الدفاعية(ص:٣٤)، في المقابل لا يمكن ربط استسلام اليابان ذات الروح القتالية العالية بإلقاء القنبلتين النوويتين فقط، بل هناك سبب آخر قوي وهو الهجوم الروسي الكاسح على منشوريا في ٩ غشت ١٩٤٥ ثلاثة أيام بعد قصف هيروشيما ويذهب جون لوبيز[١٢] في تفسير الاستسلام الياباني بربطه أساسا بالرغبة في الحفاظ على النظام السياسي الإمبراطوري في اليابان (ص:٣٧-٣٦).

أما العنصر الثالث ضمن خطاطة السيناريو الديداكتيكي الأول الذي جرى اقتراحه، والمرتبط بالدعامات الوثائقية المنتقاة، فقد رصدت لوضعية إطلاق التعلمات الدعامة رقم ١ و٢ و٣، على التوالي، مقطع من أغنية يابانية قدمت بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة ٧٥ لنهاية الحرب العالمية، ثم مقتطف نظري حول أسباب اندلاع الحرب للمفكر البروسي كلاوزوفيتش من مؤلفه الوجيز في الحرب، وأخيرا خلاصة بحثية أنجزها المؤرخ الفرنسي جون لوبيز حول المشروع التوسعي لهتلر، ثم لبناء التعلم وهيكلته ضمن النشاط الأول فاقترحت الداعمة رقم ٤ كمقتطف من بنود" معاهدة فرساي" الموقعة بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٩، ونص حول دور الأزمة الاقتصادية في انسداد الأفق السياسي داخل أوروبا في الداعمة رقم ٥، وكذا الداعمة رقم ٦ وهي خط زمني يبرز الأحداث الممهدة للحرب ووثيقة عن الوضع الصعب لمنظمة" عصبة الأمم" في الثلاثينيات تمثلها الداعمة رقم ٧، من مصادر مختلفة، منها مقررات مدرسية، وفي النشاط الثاني لامس عدد دعامات بناء التعلم وهيكلته خمسة عشر دعامة منها بطاقة منهجية لدراسة الحرب وتطورها الزمني وحركيتها في المجال و أحداثها، من إنجاز المؤلفين فضلا عن صور وغيرها من مصادر مختلفة، أما في النشاط الثالث فقد اعتمدت ١٢ دعامة من الدعامة رقم ٨ إلى الدعامة رقم ١٩ وضمت مثلا دعامات - في سياق بناء وهيكلة تعلماته - منها إحصائيات عن نسب الإنفاق العسكري ومنها من يصف خسائر الحرب البشرية والمادية من مقرر الجديد في التاريخ، وأخيرا على مستوى تحويل تعلمات قدمت الدعامة رقم ٢٠و٢١و٢٢، منها مفاعل نووي لإنتاج الكهرباء في بيلاروسيا على سبيل المثال. (ص:٣٩-٣٨-٣٧).

في عنصر هندسة السيناريو الديداكتيكي المقترح، لا بد في البداية المرور بعناصر تعريفية بهذا السيناريو، وفي مقدمتها أولا السياق المفضي إلى تساؤل، الأخير يرتبط كما سبقت الإشارة، بحدث احتفال العالم بمرور ٧٥ سنة على نهاية الحرب العالمية الثانية، بالاستناد إلى أغنية قدمت في اليابان خلال هذه المناسبة، ثم الرهان ويرتبط بفهم وتفسير حيثيات هذه الحرب الكونية، والمفهوم المركزي، والخطة المنهجية ثم المقاربة التاريخية ، وستكون حدثية، كرونولوجية، و تفسيرية، وتحديد كفايات الاشتغال، ثم طبيعة المنتج المنتظر وسيكون عبارة عن ملخص مدرسي تركيبي يحضرفيه الترتيب والاختيار والترابط، ثم القيمة التربوية استراتيجية كنبذ وازدراء العنف، وأخيرا الغلاف الزمني المتوقع وهو أربع حصص (ص:٤٠-٣٩).. ثانيا وضعية الإطلاق، في هذه الأخيرة يتم طرح أسئلة توجهية إجرائية للمتعلمين تهم التعليمة والدعامات المهيئة والتمهيد الإشكالي ثم صياغة فرضيات تفسيرية، ثلاث فرضيات مثلا، كتلك التي تربط اندلاع الحرب بقرارات الأنظمة الديكتاتورية أو أن انضمام بلاد العم سام كان حاسما في تحديد مسار الحرب، أو أن أهوال الحرب دفعت الوجدان البشري إلى نبذ العنف والميلان نحو السلم، وهذه الفرضيات هي إجابة عن السؤال المركزي الذي يتطرق إلى سبر أغوار المسؤولين عن الحرب وتداعياتها وكذا أسئلته الفرعية (ص:٤٢-٤١-٤٠).

ثم بناء التعلم وهيكلته، عبر نشاطين، النشاط الأول يستهدف تفسير اندلاع الحرب ويضم الدعامات المهيأة ومعجمها الوظيفي رقم٤ و٥ و٦ و٧، والتعليمات ومطالب الإنجاز والتي تذيل على مستوى المنتوج

المنتظر بفقرة تركيبية تنجز من خلال أسئلة توجيهية إجرائية ، وفي المنتج المعرفي المدرسي المنتظر يمكن أن يصاغ في فقرته المركزة الأولى على النحو الآتي: "لا ينفصل اندلاع الحرب العالمية الثانية عن السياق التاريخي لفترة ما بعد الحرب العالمية الأولى (مخلفات معاهدة فرساي ١٩١٩، والأزمة الاقتصادية لسنة ١٩٢٩، توتر العلاقات الدولية في الثلاثينات في ظل عجز عصبة الأمم عن إقرار السلم العالمي) وقد ساهمت هذه الظرفية المشحونة اجتماعيا، والمخنوق اقتصاديا، والمتأزمة سياسيا، في اندلاع الحرب؛ التي يمكن تفسيرها بالعوامل الثلاثة الآتية: السياسة التوسعية لبعض الدول، والأضرار التاريخية للحرب العالمية الأولى، والأوضاع الاقتصادية لما قبل الحرب"، وذلك قبل تحليل هذه العوامل الثلاثة في باقي الفقرات (ص:٤٥).

أما النشاط الثاني فسيخصص لتفسير تطور مجريات الحرب في الزمان والمكان، وترصد له على مستوى الدعامات المهيأة ومعجمها الوظيفي الدعامة رقم ٨ وهي عبارة عن بطاقة منهجية بعناصر مترابطة، لدراسة الحرب من ناحية التطور الزمني والحركي والمجالي والحدثي، في حين ستكون قد دعامات رقم ٩ و١٠ و١١ و١٢، عبارة عن وثائق مساعدة في وظيفة التقصي والبحث، ولاحقا ستبرز الدعامة رقم ١٣ وضعية الجيش الفرنسي في بداية الحرب العالمية الثانية، والدعامة رقم ١٤ توضح قرغزو الاتحاد السوفيتي ١٩٤٠، فضلا عن دور الدعامة من رقم ١٤ إلى رقم ١٨ في تأطيرالوظيفة نفسها(ص:٤٩-٤٨-٤٧-٤٦)، و على مستوى التعليمات ومطالب الإنجاز سيكون المدرس بصدد توجيه متعلمين للتعامل مع الوثائق والإجابة عن أسئلة تستهدف تحديد طبيعة المدة الزمنية التي استغرقتها الحرب، ثم توصيف مجريات الحرب في مرحلتها الأولى، وكذا مرحلتها الثانية للوصول إلى إنتاج منتج مدرسي يتم تفريغ الأجوبة المتوصل إليها فيه في خطاطة، أو ترسيمة أو جدول.

ولاحقًا سيخصص النشاط الثالث لتقييم تداعيات الحرب ونتائجها، وستهيئ له الدعامات رقم ١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢...، يعمد دخل المدرس إلى حفظ المتعلمين على في الإجابة عن أسئلة تبرز تداعيات الحرب وموقفهم منها، وتفريغ العناصر المتوصل لها في منتج معرفي مدرسي عن طريق تعبير جرافيكي مثلاً، وأخيرًا إنجاز نشاط لتحويل التعلمات المكتسبة يبرز مدى استيعاب المتعلمين للمعاني التاريخية المدروسة ح عبر استقاء مواقفهم من قضايا كتسخير العلم لخدمة التسلح على سبيل المثال لا الحصر(ص:٥٣-٥٢-٥١-٥٠-٤٩-٤٨-٤٧-٤٦).

أما على مستوى دليل الأستاذ (ة) وفي تدبير السيناريو الديداكتيكي مقترح فقد عمد المؤلفان على مستوى تقديم دليل السيناريو الديداكتيكي المقترح، إلى وضع دليل إجرائي قصد الاهتداء به في طرف المدرس في تخطيط وتنفيذ وضعيات تعليمية تفسر درس الحرب العالمية الثانية الحاضر في السلكين الثانوي الإعدادي والثانوي التأهيلي، ثم تحديد إجراءات مرحلة الإطلاق في ثلاث خطوات الأولى يتم ربط موضوع الحرب العالمية فيها بسياق أصيل استحضروا أحس فالعالم قبل سنتين (٢٠٢٠) و بالذكرى ٧٥ على نهاية الحرب، وفي الخطوة الثانية، تبين فيه مسألة أن الحرب كانت قرارا سياسيا – للزعيم النازي هتلر- من خلال ربط موضوع الأغنية و بنصف كلاوزفيتش الدعامة رقم ٣ ، في الخطوة الثالثة يتم توجيه المتعلمين إلى صياغة سؤال مركزي عن من يتحمل مسؤولية اندلاع الحرب العالمية الثانية، وفي دليل تدبير بناء وهيكلة التعلم حدد المؤلفان ما يجب القيام به في هذا النموذج من السيناريو الديداكتيكي التفسيري الأول المقترح في النشاط الأول والثاني ينصب المجهود على تفسير اندلاع الحرب العالمية الثانية ودراسة مجرياتها، وفي النشاط الثالث يتم الوقوف على تداعيات ومخلفات الحرب، وفي الختام اقتراح دليل لتحويل التعلمات، وذلك عبر وضعيتين حيث الوضعية التحويلية الأولى تتأطر في شقين، الشق الأول يحلل فيه المتعلم المعاني والدلالات التاريخية لقيادة هتلر للحرب، وفي الشق الثاني يشرح عوامل التراجع الألماني، ثم في الوضعية التحويلية الثانية، تفتح حلقة للنقاش حول العلاقة بين تسخير العلم للحرب في أفق رصد مدى تمكن المتعلم من التعبير عن رأي سليم في هذا السياق، وإشارته لقيمة وأهمية العيش المشترك (ص٥٧-٥٦-٥٥-٥٤).

في الختام، قدم المؤلفان، على مستوى الخطاطة الموجهة لهذا السيناريو الديداكتيكي الأول المقترح، للمدرسين بيبليوغرافية بغية الإغناء وتوسيع أفق الاطلاع على معطيات خاصة بالموضوع، بلغت ستة عشر اقتراحا

بين مراجع بالعربية و والفرنسية والإنجليزية، وكذا أفلام وثائقي وبرامج حوارية هادفة، مثل كتاب الوجيز في الحرب لكارل فان كلاوزفيتش، و كتاب When Titans clashed how the red army stopped Hitler للمؤرخين David Glantz Jonathan Houseg، وكتاب Paix et Guerres au 21 siéle للمؤرخ Dario Battistea والفيلم الوثائقي والذي بث " دوتشي . فيلي" بعنوان " نكازاكي لماذا ألقيت القنبلة الثانية؟" (ص:٥٨ - ٥٧).

في **الفصل الثاني** من هذا الكتاب موضوع القراءة عمد المؤلفان إلى تقديم **السيناريو الديداكتيكي الثاني** معتمدين فيه نموذج **مسلك التفسير عبر فهم دوافع وحوافز الفاعلين ومقاصدهم** و وتطبيقه على موضوع الاكتشافات الجغرافية وظاهرة المركنتيلية أحد وحدات مستوى الجذع آداب وكذا الجذع علوم بالسلك الثانوي التأهيلي، وهكذا على مستوى متن منطوق المسلك وخلفيته الإبيستمية والمنهجية، ضمن الخطاطة المؤطرة لهذا السيناريو الديداكتيكي الثاني المقترح، ألمح المؤلفان في البداية إلى الدور الهام الذي اضطلعت به مدرسة الحوليات والتاريخ الجديد في الخروج بالتفسير التاريخي من ثنائية الذاتي والموضوعي إلى نمط تأويلي تفسيري يستحضر فيه تداخل الوقائع التاريخية الموضوعية والنسق ذاتي للفعل البشري، باعتباره النمط الأكثر نجاعة في فهم الواقع التاريخي، عملا ب"مقولة الفالية البشرية"، ثم أردف أنه "من الوجهة الديداكتيكية يمكن الاشتغال مع المتعلم(ة) عادات سيئة السببي القصدي بواسطة الآليات الآتية": وعلى التوالي حفز المتعلمين إلى التمييز بين نماذج الأفعال البشرية في التاريخ، ثم تدريبهم على طرح التساؤلات، ووضع الفعل في السياق التاريخي وأخيرا تقييم الفعل بالمرور إلى لحظة لاحقة للفعل والوقوف على ما إذا كان الفعل مناسبا لتطلعات الفاعل(ص: ٦٤-٦٣-٦٢).

وبالوصول إلى الملخص العلمي لموضوع السيناريو الديداكتيكي المقترح، فقد وردت فيه إثارة انتباه بارزة إلى طابع التعقيد الذي يلف موضوع الاكتشافات الجغرافية في علاقتها بالمدرس الذي سيبني لها فهما تاريخيا بمعية المتعلمين، نظرا لكون الموضوع ظل و لردح طويل من الزمن خاضعا لوجهة نظر المركزية الأوروبية التي ربطت الكشوفات الجغرافية بسعي الإنسان الأوروبي إلى تغيير نظرة الإنسان للكون ومنح الرقي الحضاري لباقي الثقافات، قبل أن يردف المؤلفان بالقول " تضعنا القراءة المتأنية لهذا الحدث أمام إشكالية من شقين؛ فهل كانت الاكتشافات حركة جغرافية مسنودة بأسس علمية ومحكومة بأهداف إنسانية؟ أم أنها كانت حركة توسعية استعمارية مغلفة بالذرائع الدينية والسياسية وبحافزية الفاعلين المشاركين في هذا الحدث التاريخي الممتد بآثاره وشخصياته إلى يومنا هذا." وهكذا سيكون الجهاز المفاهيمي المتحرك في الدرس، يشمل الاكتشافات الجغرافية، الشخصية التاريخية، الحافزية المتعددة، التفسير المادي، التفسير العلم، الصدمة الثقافية، الاحتكاك الحضاري.

وعلى المستوى المنهجي والعلمي أولا يظل الحدث التاريخي -الاكتشافات الجغرافية- المقترح حدثًا بالغ التعقيد، بسبب تنوع الإسطوغرافية التاريخية حوله سواء الأوروبية أو اللاتينية أو غيرها، لذلك سيرتكز الملخص العلمي في تناول هذا الحدث عبر أربع مقاربات هي: المقاربة التاريخية الكلاسيكية، المقاربة الأنثروبولوجية التاريخية النقدية، المقاربة الجيوتاريخية للحدث، والمقاربة البيوغرافية، لتحقيق الفهم والموضوعية في تناول هذا الحدث (ص:٦٦-٦٥-٦٤).

بخصوص المقاربة الأولى التاريخية الكلاسيكية، نجد أنها ترتكز على الرواية الأوروبية التليدة للحدث، كون الاكتشافات الجغرافية مثلت اختراقا بحريا ناجحا للقوتين الإيبيريتين[١٣]، كثمرة لما أسهم به عصر النهضة لا سيما في ميدان الملاحة البحرية، إذا أعقبها تأكيد كروية الأرض، وهو ما ذهب إليه مؤرخون مثل ميشيل شونداين، قبل أن قبل أن تنضم إسبانيا إلى نادي القوى البحرية المستكشفة، وهي رواية على كل حال تتوافق مع ما لدينا من معطيات حول الكشوفات جغرافية إذ "تفسرها بعوامل منها تقدم الخرائطية تلاقي حافزية التجار مع حافزية الحكام"، أما المقاربة الثانية وهي إثنوغرافية. تاريخية، فتقول بأن الاكتشافات الجغرافية مثلت للأوروبي فرصة سانحة للتعرف والتثاقف مع شعوب أمريكا اللاتينية غير أن هؤلاء -الهنود الحمر[١٤]- لم يكونوا سعداء بهذا التعارف لما جلبه لهم من مآسي كالإبادات الجماعية والاسترقاق وما نتج عنها نزيف ديمغرافي حاد في صفوفهم، وهو ما عبر عنه بشكل نقدي ناتان

واشتيل (Nathan wachtel) ب " التثاقف فالمفروض" لمزيد من المعطيات حول الموضوع يمكن الرجوع إلى مؤلف نتان بعنوان:" la vision des vaincus, les indiens du Pérou la conquête espagnole (1530-1570),1971 "، في المقابل ذهبت المقاربة الثالثة الجيو. تاريخية، إلى القول إن موضوع الاكتشافات الجغرافية لا يعدو أن يكون درسا جغرافيا خالصا، يعكس ولع الإنسان الدائم باكتشاف مناطق ما وراء البحار، وهو طرح نجده في كتابات كل من جون فافيي وبيير جورج، فهذا الأخير قد يعبر عن ذلك بالقول" ماذا نعني بالاكتشافات في الاصطلاح الجغرافي قد نعني بها حصيلة البحث قد يخص جانبا من الكرة الأرضية وقد يهم موضوعا معينا وقد يتعلق الأمر باكتشاف مجال..." وأخيرا المقاربة الرابعة البيوغرافية، والتي تركز مثلا على شخصية كريستوف كولمب الإيطالي المولد الإسباني كمكتشف، وهي شخصية يلفها إلى جانب الهالة التاريخية تمثلات أسطورية جعلتها وإلى اليوم محطة للانبهار أو الازدراء[١٥]، بيد أن هذا الوضع لا يعني أن كولمب لا يستحق كشخصية من المدرسين بمستويي السلك الثانوي تطبيق المقاربة البيوغرافية على الكشوفات الجغرافية من خلاله(ص: ٧٠-٦٩-٦٨-٦٧-٦٦).

وهكذا على المستوى الثاني الخاص بالنماذج التفسيرية للاكتشافات الجغرافية، يمكن للمدرس عبر توجيه المتعلمين - قصد بناء فهم تاريخي- لموضوع الكشوفات الجغرافية الاستناد للتفسير العلمي والتقني الذي يربط الموضوع بالإفرازات العلمية لعصر النهضة في الفلك والجغرافيا والخرائطية مثلا، أو التفسير المادي الذي الموضوع بتلك الحوافز الاقتصادية التي عكست طموحات طبقة التجار والوسطاء، ثم التفسير بحافزية الفاعلين، حيث أن حدثا كبيرا كهذا لا غرو أنه ستتشارك فيه حافزيات أطراف متعددة بدء بالبحارة العاطلين والتجار الطامحين والحكام الحالمين ورجال الدين المبشرين (ص:٧٢-٧١-٧٠).

لاحقًا في العنصر الثالث الدعامات الديدكتيكية المهيئة ومعجمها الوظيفي، اقترح المؤلفان ما مجموعه ١٩ دعامة، بالنسبة لوضعية إطلاق التعلم من الدعامة رقم١ إلى الدعامة رقم ٤ وللنشاط الأول الخاص بهيكلة وبناء التعلمات من الدعامة رقم ٥ إلى الدعامة رقم ٧، وفي نظيره الثاني من الدعامة رقم ٨ إلى دعامة رقم ١١ وفي النشاط الثالث لهيكلة وبناء التعلم من الدعامة رقم ١٢ إلى الدعامة رقم ١٧ ووفي الختام الدعامة رقم ١٨ و١٩ كدعامتين لمرحلة التحويل، وهي دعامات متنوعة من حيث الأصناف والمصادر بشكل كبير(ص:٧٤-٧٣-٧٢).

أما العنصر الرابع وهوهندسة السيناريو الديداكتيكي المقترح فقد وردت فيه عناصر تعرف به فضلا عن السياق المفضي إلى التساؤل، حيث نجد أن موضوع الرحلات الجغرافية ومنذ ردح طويل من الزمن كان مثار نقاشات بين جمهور المؤرخين والباحثين الذين اعتبر فريق منهم أنه كموضوع يمثل اختراقا علميا وإنجازا جغرافيا، فيما ذهب فريق آخر إلى القول بأنه لا يعدو أن يكون توسعا استعماريا، خلف مآس كبيرة في المستعمرات وما زال هذا النقاش متجددا إلى اليوم إذ عكفت سلطات ولايات أمريكية على إزالة تمثال كريستوفر كولومبوس سنة ٢٠١٨ بعد اتهامه أكاديميا بإبادة السكان الأصليين. وكيفما كان الحال فإن هذا الموضوع قد عرف تعدد الفاعلين كالملوك، رجال الدين، التجار، البحارة الحالمون، فكان من البديهي أن تتباين حوافزهم، وهو ما يمكن الارتكاز عليه في إضاءة الفرضية الأولى من سؤال الدرس المركزي" كيف يمكننا إذن تعريف وتفسير الاكتشافات الجغرافية؟ هل هي إنجازات علمية لأولئك الفاعلين في أحداثها؟ أم أنها حملات توسعية استعمارية نفذت تحت ذرائع مختلفة؟"، هذا السؤال يمكن الإجابة عليه من خلال هذه الخطوات ومضامينها الواردة في الجدول الآتي:

الخطوات	مضامينها
الفرضية الأولى	اكتشافات جغرافيا ظاهرة نتج عنها عدة إنجازات علمي ومجالية
الفرضية الثانية	قد تكون الاكتشافات أيضا ظاهرة توسعية استعمارية
الرهان	بلور التعريف لمفهوم اكتشافات وتفسيره بحوافز الفاعلين
المفهوم المركزي	الاكتشافات الجغرافيا، المركنتلية
الخطة المنهجية	خطة استدلالية، حجاجية، برهانية
المقاربة التاريخية	ستكون تفسيرية، مفاهيمية، إشكالية

الخطوات	مضامينها
كفاية الاشتغال	عمر سيارتي سؤال مركزي والفرضيات؛ واستخراج معلومات تاريخية من الوثائق لتعلم التفسير بحافزية الفاعلين، وتصنيفها في بطاقة منهجية؛ ثم تركيب خلاصة معرفية لأشكال الحافزية مع الالتزام بمسافة نقدية تجاه الوثائق
طبيعة المنتوج المنتظر	عبارة عن ملخص مدرسي تركيبي، يحضر في التمييز بين حافزية الفاعل
القيمة التربوية الاستراتيجية	أعور إدراك قيمة التثاقف بين الحضارات والشعوب
الغلاف الزمني المتوقع	أربع حصص

لاحقًا انتقل الباحثان إلى عنصر إطلاق التعلم، الذي يتضمن تعليمة مرافقة، تسلك فيها ثلاث خطوات في الخطوة الأولى تشخص تمثلات المتعلمين حول الظاهرة، وفي الثانية يتم الاحتفاظ بنماذج من تمثلات المتعلمين قصد تعديلها وفي الخطوة الثالثة يربط موضوع الاكتشافات بسياق أصيل من الحاضر مع تحديد طبيعة الأسئلة التي سترفق بالدعامات المعتمدة. كما حددت الدعامات المهيئة وهي صورة وثلاث نصوص.

وفي مسارات السيناريو التكتيكي للوضعية المشكلة يتم تقديم تمهيد إشكالي وأسئلة موجهة عرضوا الدعامات المرصودة، إذ بعد التمهيد الذي سينطلق من خلال التعامل مع الصورة والنصوص عبر الأسئلة، يمكن صياغة الإشكالية على النحو الآتي "كيف يمكننا إذن فهم وتفسير الاكتشافات الجغرافية؟ هل هي مشروع علمي تحكمت فيه مجموعة الحوافز؟ أم أنها مشروع توسعي استعماري أدى إلى إبادة الشعوب المستعمرة؟"، ثم استحضار الفرضيات التفسيرية المصاغة الأولى والثانية قبل الانتقال إلى بناء التعلم وهيكلته، وعلى مستوى النشاط الأول من هذا الأخير سيتم تمحيص فرضية الإنجاز العلمي للاكتشافات الجغرافية عبر دعامات مهيئة بمعجمها الوظيفي، الدعامة رقم ٥ خريطة و٦ نص تاريخي و٧ نص تاريخي، واتباع تعليمات مطالب الإنجاز بالإجابة على الأسئلة المناسبة التي تستهدف الوصول إلى، الموضعة في الزمان بتحديد بداية الرحلات الإيبيرية من الخريطة... ثم الموضعة في المجال باستخراج أهم الدول التي قادت الرحلات من الدعامة رقم ٥ و ٦، وأخيرا استخراج المظاهر الدالة على أهم الإنجازات العلمية والجغرافية والاقتصادية للاكتشافات الجغرافية من الدعامة ٦ و٧، و تأكيد أو نفي أو تعديل فرضية الإنجاز العلمي(ص:.٨٠-٧٩-٧٨-٧٧-٧٦-٧٥).

وفي النشاط الثاني حول تفسير انطلاق الاكتشافات الجغرافية بالحافزية الفاعلية اقترح الباحثان دعامات مهيأة مع معجمها الوظيفي، وهي الدعم رقم ٨ و٩ و ١٠ و١١، وهي عبارة عن نصوص تاريخية فضلاً عن الدعامة رقم ١٢ ، وهي دعامة منهجية مساعدة على تعلم التفسير التاريخي لا تتضمن خانتين أفقيتين الأولى ، تبرز طبيعة الفاعلين في الحدث، والثانية حافزية المشاركة في الحدث، مع الإشارة إلى أن ترتيب الفاعلين ليس قارا، وإنما يمكن أن يعدل حسب ما تقتضيه مرحلة التركيب، وفي التعليمات مطالب الإنجاز، و وبغية توضيح الحافزية المتعددة في تفسير الحدث التاريخي سيطلب من المتعلمين في هذا النشاط الاشتغال على الوثائق لتهدئتي الجدول (الدعامة ١٢)، من خلال الإجابة على عدة أسئلة تتضمن أجوبتها تأطير الحوافز التي كانت وراء انطلاق الرحلات، والتمييز بين هذه الحوافز حسب طبيعتها، وتبيان حافزية فاسكو دي غاما والملك إيمانويل الأول مثلا، وكذا دور البابا ألكسندر السادس، في حين سيكون المنتوج المدرسي المنتظر عبارة عن ملخص تركيبي للنشاط الأول وفي نشاط الثاني تصنف في الجدول أشكال التفسير المتوصل إليها، أو تحويله إلى ملخص تركيبي(ص:٨٢-٨١-٨٠).

إذن في المنتج المعرفي المدرسي المنتظر سيتم تقديم جواب تركيبي على السؤال المركزي والذي يتضمن قبولا مؤقتا لفرضية الإنجاز العلمي الذي كان وراء الرحلات، وقصد تفسير الحادث بـ حافزية الفاعلين المشاركين فـ في الأحداث يمكننا الإشارة إلى أشكالها

في الجدول السالف الذكر والمحددة في أربعة دوافع مختلفة ومتداخلة على النحو الآتي:

- **الحافزية السياسية:** التي ترد إلى منطق الدولة الأمة؛ وتظهر في الطموحات المادية لملوك وأمراء الدول الإيبيرية لاحتكار تجارة التوابل والذهب...
- **الحافزية الاجتماعية:** ترتبط بتسخير الملوك نخبة من المستكشفين من الطبقة النبيلة والبرجوازية لقيادة هذه الرحلات.
- **حافزية المكتشفين:** لها علاقة بالطموحات التي حركت هؤلاء، قصد تحصيل مكاسب اجتماعية ومادية، ككريستوف كولومبس الذي حصل على لقب ملكي هول والأميرال...
- **الحافزية الدينية:** إذ ومنذ بداية الرحلات، تدخل البابا عبر توقيع معاهدة توردسيلاس ١٤٩٤، حيث قدم دعمه ومباركته لخطة تقسيم العالم بين الإسبان والبرتغال، لدعم عمليات التبشير على نطاق واسع (ص:٨٤-٨٣-٨٢).

تتبع الباحثان، هندسة السيناريو الديداكتيكي المقترح، فخصصا النشاط الثالث منه، لتمحيص فرضية التوسع الاستعماري للاكتشافات الجغرافية، واقترحا في الدعامات المهيئة ومعجمها الوظيفي، الدعامة ١٢ و١٣ و١٤ و١٥، وهي عبارة عن نصوص تاريخية، ثم الدعامة ١٦ خريطة و دعامة ١٧ عبارة عن مبيان، وللتعامل مع هذه الوثائق قصد إنجاز المطلوب ورد في تعليمات مطالب الإنجاز ضرورة البدء بتمحيص فرضية التوسع الاستعماري ونتائجه على شعوب المستعمرات من خلال الإجابة على سلسلة من الأسئلة المتدرجة، وفي المنتج المدرسي المنتظر يتم صياغة فقرة تركيبية تستجيب لشروط في مقدمتها البدء بجملة تقديمية تذكر بالسؤال المركزي... (ص:٨٦-٨٥).

وفيما يخص المنتج المعرفي المدرسي المنتظر، فسيتخذ شكل فقرات تركيبية تبرز الحضور القوي للفرضية الثانية القائلة بارتباط الاكتشافات " بأطروحة التوسع الاستعماري، منذ الرحلة الثانية لكريستوف كولومب ١٤٩٣ حسب ما توصل إليه بيير شانو ويقول وهي أطروحة يدعمها بيير جورج"، كما سيتضمن هذا المنتج أفكارا تحيل على نتائج الاكتشافات سواء على سكان المستعمرات بالنزيف الديمغرافي و الاستغلال كحالة المكسيك، أو على القوتين الإيبيريتين بمراكمة المعادن النفيسة والتحكم في طرق الملاحة...، كما كما ورد كما وردت ملاحظة منهجية بعد المنتج المعرفي مفادها أنه من نواتج الاكتشافات نجد أيضا ظاهرة المركنتيلية، والتي يمكن دمجها " ضمن فرضية الإنجاز العلمي والمادي للكشوفات"، أما تحويل التعلمات الذي سيكون آخر أداء سيتم إنجازه فقد اقترحت الدعامة ١٨ وهي ينص تاريخي و الدعامة ١٩ وهي عبارة عن صورة لأوراق التبغ التي اكتشفها الأوروبيون في أمريكا، فسيوجه المدرس للمتعلمين" انطلاقا من الفكرة التي يبرزها الباحث التاريخي في الدعامة ١٨، وموضوع الصورة ١٩، أنجز بحثا مصغرا (في بضعة أسطر)، تعدد فيه مظاهر التثاقف بين أوروبا ودول أمريكا اللاتينية" وذلك عبر الاسترشاد بالإجابة على الأسئلة محددة (ص:٨٩-٨٨-٨٧).

وفيما يخص المكون الخامس، من هذا السيناريو، وهو دليل الأستاذ في تدبير السيناريو المقترح، فقد اقترح الباحثان سلسلة من الدلائل التي، سيقتدي بها المدرس بداية بدليل لتقديم عام للدليل، ثم دليلاً لتدبير مرحلة الإطلاق، وآخر لتدبير مرحلة البناء والهيكلة في النشاط الأول والثاني والثالث، وفي الختام دليل لتدبير تحويل التعلمات، وكالعادة كان العنصر السادس والأخير من السيناريو المقترح هو تقديم بيبليوغرافيا للتوسع والإغناء في الموضوع، تضمنت ثمانية كتب، مثل كتاب (Christophe Colomb et ses fantomes) للباحث Todericiu,D وكتاب (les imposteurs de l'histoire) للباحث Mossé,C (ص:٩٢-٩١-٩٠-٨٩).

الآن نحن بصدد **الفصل الثالث** من هذا الكتاب العملي، الذي اقترح فيه الباحثان **السيناريو الديداكتيكي الثالث**، واعتمدا فيه **مسلك التفسير بالمقارنة بين تأويلات مختلفة** وتطبيقه على **موضوع حضارة بلاد الرافدين**، وقد ورد في عنصره الأول الذي هو **منطوق المسلك وخلفيته الإبستيمية والمنهجية**، إلى أن التفسير التاريخي يوجد لدينا ثقافة المؤرخ وخلفيته النظرية، وما يحمله من هموم حاضره، وأن هذه الخلفية النظرية والمفاهيمية تتجسد في مختلف الإنتاجات المجردة التي يعتمدها في مساره الفكري، سواء كانت نظريات، تعميمات، مفاهيم،

نماذج وغيرها، في سياق مقاربته للواقع التاريخي وإنتاج معرفة حول هذا الواقع، وتوظيف أنماط التأويل الممكنة تجاه الماضي سواء بطريقة واعية أو غير واعية استنادا إلى خلفيته النظرية، حيث" يبدأ النشاط التأويلي في التاريخ بأسئلة المؤلف وفرضياته التي تقوده إلى اكتشاف وقائع في شكل تواريخ وأماكن وأعلام وتعبيرات لغوية ورمزية يخضعها المؤرخ للتأويل"، والحالة هذه فقد ركز هذا المسلك من التفسير التاريخي في الجانب الديداكتيكي على جعل المتعلمين يتخذون مسافة نقدية من الوثائق وأصحابها أثناء دراسة الوضعيات التاريخية، إذ تمكنهم هذه المسافة النقدية من إدماج الفهم في نص تفسيري (ص:٩٧-٩٦-٩٥).

في المكون الثاني من هذا السيناريو الديداكتيكي المقترح، وهو الملخص العلمي لموضوعي السيناريو، أشار الباحثان إلى ضرورة إلمام المدرس بأهم النظريات والمقاربات التاريخية المفسرة لنشأة الحضارات القديمة، حيث يمكن "التمييز بين ثلاث مقاربات: الأولى جينالوجية تبحث في اشتقاق مفهوم الحضارة ونشأته، وعلاقته بالثقافة. والثانية ماكرو-انتروبولوجية، والثالثة مونوغرافية تهتم بدراسة الجوانب المادية؛ الجغرافية؛ البشرية لكل حضارة من حضارات العالم المتوسطي القديم على حدة"، وهكذا على مستوى الدراسات المفاهيمية، نجد أن لوسيان فيبر منذ سنة ١٩٢٩ قد نشر دراسة جينالوجية حول نشأة مفهوم الحضارة من المنظور الفرنسي، ملمحا إلى أنها تتخذ الكثير من المعاني، إذ قد تطلق على الحياة المشتركة لمجموعة بشرية معينة، أو تطور هذه المجموعة البشرية مقارنة بأخرى فقد تحضرا إي (متوحشة) مثلا، كما مثل كتاب معجم الحضارات لفرناند بروديل حجر زاوية أساسي في الدراسات الجينالوجية لهذا الموضوع، نظرا لأربعة محددات، تتمثل في تداخل مفهوم الحضارة والثقافة وصعوبة الفصل بينهما، وهل استعمال مفهوم الحضارة يتم بالمفرد أو بالجمع -خلص إلى أن الاستعمال يجب أن يكون بالجمع نظرا لتباين البيئات الجغرافية- فضلا أن تناول مفهوم الحضارة لم يكن من أولوية المؤرخ، وإنما حظي باهتمام الباحث الجغرافي وأخيرا أن ما يغري المؤرخ في موضوع حضارة هو الزمن الذي يتميز بالاستمرارية حيث رغم سقوط حضارة ما، فإنها تظل حية في آثارها المادية، حضور بعض مظاهر الحضارة -الحافز الديني مثلا- في مجتمع معين، وغيابها في مجتمع آخر، يفرض على المؤرخ بالضرورة حين دراسته لموضوع الحضارة التركيز فقط على البعد الزمني والمكاني، ففي كليهما يحضر المجتمع، وهو ما قال به أرنولد توينبي[١٦] بعد تفكير فلسفي عميق، وهو ما سيجري تطبيقه ديداكتيكيا لتعلم درس"الحضارة في بلاد الرافدين" (ص: ٢.١-١-١.١-١.١-٩٩-٩٨-٩٧).

أما على مستوى **الدراسات الشمولية التحليلية، يمكننا رصد الكثير من الدراسات الشمولية للمؤرخين أزولد شبنغلر، وول ديورانت، وأرنولد توينبي**، وفي سياق هذا السيناريو، سيعتمد البحث الذي أنجزه هذا الأخير حيث يعد توينبي من فطاحلة الباحثين في تخصص دراسة الحضارات القديمة وفق نظريته الشهيرة" **التحدي والاستجابة"**، والتي تقول بأن الإنسان يصنع حضارته عندما يستطيع تجاوز التحديات التي تفرضها عليه عناصر بيئته سواء كانت طبيعية أوبشرية، وقد تجاوز من خلالها ربط نشوء الحضارات القديمة بالعامل الجغرافي الملائم - ظهور حضارات في وادي النيل متطورة جدا، مقابل غياب نظيرلها في نهر المسيسيبي مثلا- أو حتى الأساس العرقي ، وبذلك استحقت نظرية توينبي توهجها الكبير، ما جعل باحثين آخرين على غرار **رالف لنتون** يتلقفونها ويطورونها، ففي كتابه **شجرة الحضارة** اعتبر أن التفاعل العرقي والمجالي والفكري، الذي جمع اليونانيين قديما مع جيرانهم، كان سببا في نشوء الحضارة اليونانية المتميزة (ص:٣.١-١-٢.١).

هكذا اعتبر الباحثان مع إن حضارة بلاد الرافدين تمثل نموذجا مناسبا للدراسة في هذا السياق المرتبط بالتفسير عبر المقارنة بين تأويلات مختلفة إذ أن" نشأة الحضارة في بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات)، مرتبط أشد الارتباط بقدرة الإنسان العراقي القديم على التفاعل وتحدي الطبيعة النهرية للحوض الرسوبي، علما أن ضفتي النهرين، إن لم تكونا دائما مناسبتين للاستيطان والاستقرار وبناء الحضارة"، فالحضارة السومرية على سبيل المثال لا الحصر، قد ازدهرت بفضل الاستجابة للتحديات الجغرافية وكذا انفتاح مجال الدلتا بشكل دائم أمام توافد الهجرات البشرية ، كما أن الجماعات البشرية التي ازدهرت في هذا المجال، قد انتقل من ميراثها الحضاري إلى حوض البحر الأبيض

المتوسط عبر أقوام آخرين كالفرس والإغريق، ما يبرز دور التأثير والتأثر في الصعود الحضاري (ص:١٠٥-١٠٤)، أما الدراسات المونوغرافية حول حضارات العالم المتوسط القديم وتمتاز بالتعدد حيث يمكن اعتماد نماذج من هذه الحضارات القديمة كالحضارة المصرية، الإغريقية والرومانية ففي" دراسة بعنوان تاريخ وحضارة مصر الفرعونية (٢٠١٢)، لمحمود عبد الحميد أحمد، لتأكدوا القارئ بالمقارنة أن الحضارة المصرية أقرب ما تكون من الحضارة العراقية، فهي بدورها ولدت في بيئة نهرية صحراوية، جاف..." في المقابل نجد أن النموذج الروماني قابل للتوظيف أثناء "التنزيل الديداكتيكي للوضعية المشكلة" فالحضارة الرومانية لم تكن حضارة نهرية على غرار الحضارة العراقية القديمة، إذ ارتبطت نشأتها ببيئة بحرية وتميزت بحيوية كبيرة وقدرة على المواجهة مع باقي المنافسين حتى حولت البحر الأبيض المتوسط لبحيرة رومانية لردح طويل من الزمن(ص:١٠٧-١٠٦-١٠٥).

وبالاستناد إلى ما سلف ذكره يمكن التمييز في المقاربات حول مفهوم الحضارة، بين ثلاث مقاربات تاريخية حول هذا المفهوم: الأولى جينالوجية، غايتها النبش والتعرف على جذور المصطلح واستعمالاته المختلفة، والثانية شمولية تحليلية، تجمع بين المنظور التاريخي والأنثروبولوجي في الإحاطة بمفهوم الحضارة، والثالثة مونوغرافية، وباعتبارها تقليدا تاريخيا كلاسيكيا فهي تسعى إلى وصف وتفسير النماذج الحضارية المنتقاة. وعلى مستوى النماذج التفسيرية لتطور الحضارة القديمة يمكن الإشارة إلى أربعة نماذج:

- **النموذج الأول:** نرصده عند المؤرخ أرنولد توينبي والقائم على مفهوم التفاعل الحضاري أو نظرية " **تحدي والاستجابة**".
- **النموذج الثاني:** يرد إلى ثلة من الباحثين الجدد الذين فسروا الحدث التاريخي الحضاري بالمجال الجغرافي وتفاعلاته، ضمن ما يعرف **بالعامل الجيوتاريخي** على غرار **فرناند بروديل**.
- **النموذج الثالث:** يظهر عند بعض المتخصصين الحضارات القديمة والذين ربطوا نشأتها باستحضار" **عملية الاختلاط، متجانس، والتزاوج بين الجماعات البشرية فيما بينها"،** وليس النموذج اليوناني في تحليلات رالف لنتون إلا مثالا على ذلك.
- **النموذج الرابع:** يقول بازدهار الحضارة عن طريق ما يعرف **بنظرية الصدام الحضاري، كصامويل هنتنغتون.**

وبذلك ستكون هذه النماذج التأويلية جسرًا لتناول دروس الحضارات القديمة في المتوسط وتفسير صعودها، بطريقة ديداكتيكية مبتكرة (ص:١١٠-١٠٩-١٠٨-١٠٧).

أما العنصر الثالث من هذا السيناريو الديداكتيكي المقترح فقد طرح فيه الباحثان الدعامات المنتقاة، بخصوص دعامات إطلاق التعلم، هناك الدعامة رقم١، وهي لوحة طينية لملحمة جلجامش، الدعامة ٢، نص جغرافي بحثي يربط الحضارة العراقية القديمة بالتربة الطينية المحلية، الدعامة ٣، نص يؤكد التأويل الجغرافي في تفسير نشأة الحضارات القديمة، وأخيرا الدعامة ٤، تمثل منطوق نظرية التفاعل الحضاري على لسان توينبي. وفي النشاط الثاني تم اقتراح دعامات بناء التعلم وهيكلته، وهي الدعامة رقم ٥، خريطة للموضعة في المجال، ورقم ٦ خريطة لهجرة الشعوب السامية، ورقم ٧ خط كرونولوجي للموضعة في الزمن، ورقم ٨ بطاقة منهجية تمثل الجزء الأول من شبكة تحليل الحضارات، ورقم ٩ ترسيمة تفاعلية. ولهيكلة وبناء التعلم في النشاط الثاني تم اقتراح على التوالي الدعامة رقم ١٠، ١١، ١٢، و١٣، عبارة عن صورة لتوينبي ونصين وقصاصة تبرز ريادة حضارة بلاد الرافدين، وللنشاط الثالث الدعامة رقم ١٤، ١٥، و١٦، دراسة لوحة طينية ونصف تاريخي ومقتطفات من قانون حمورابي (ص:١١٢-١١١-١١٠).

لاحقًا انتقل الباحثان للعنصر الرابع وهو هندسة السيناريو الديداكتيكي المقترح، وضمن العناصر التعريفية به جرى الانطلاق من السياق المفضي إلى التساؤل والمرتبط بتعدد المقاربات والتأويلات التاريخية المفسرة لنشأة الحضارات القديمة بحوض البحر الأبيض المتوسط ، سواء النظرية العرقية أو الجيوتاريخية، أو الحتمية الطبيعية، وكذا نظرية التفاعل الحضاري، فيكون بذلك السؤال المركزي المناسب هو: "كيف تمكن الإنسان العراقي القديم من التفاعل مع بيئته النهرية لوضع أسس نموذجها الحضاري؟"، مرورًا بالبرهان، تحديد المفهوم المركزي، والخطة المنهجية، ثم المقارنة

التاريخية، وكفاية الاشتغال، وأخيرًا بناء المنتج المنتظر، الذي سيرد في شكل تعبئة بنود مقومات شبكة تحليل الحضارات مع تبيان تفاعلات عناصرها مشفوعا بملخص مدرسي تركيبي. وعلى مستوى إطلاق التعلم، اقترح الباحثان في التعليمة المرافقة على المدرس اتباع ثلاث خطوات تستهدف تشخيص المكتسبات القبلية والربط بين الماضي والحاضر حول الموضوع ثم توظيف نصين مختلفين للتأويل، أما الدعامات المهيئة فهي الدعامة رقم ٤،٣،٢،١، (ص:١١٥-١١٤-١١٣-١١٢)، وفي الخطوة الموالية سيعمد المدرس إلى دفع المتعلمين لكتابة تمهيد إشكالي مناسب، على ضوء أسئلة موجهة تدور حول سؤال مركزي هو: "كيف تمكن الإنسان العراقي من التفاعل مع بيئته لوضع أسس نموذجه الحضاري؟"، حيث يمكن تفريع هذا السؤال إلى فرضيتين، الأولى تقول بنشأة حضارة بلاد الرافدين في ارتباط بخصوصية البيئة الجغرافية النهرية، والثانية تربط هذه النشأة بالتفاعل بين الإنسان والبيئة الجغرافية. وعلى مستوى النشاط الأول المرتبط: بتمحيص فرضية التأويل الجغرافي في نشأة الحضارة اقترحت الدعامات المهيأة ومعجمها الوظيفي، رقم ٥، ٦، ٧، ٨، و٩، ثم في تعليمات ومطالب الإنجاز ضرورة الاشتغال على فرضية التأويل الجغرافي، من خلال الإجابة على عدة أسئلة موجهة تقود لمنتج مدرسي منتظر، عبارة عن فقرة ملخصة تبرز أهمية التفاعل بين المجتمع وبيئته الجغرافية، وتذيل هذا المنتج بسؤال يتجاوز التأويل جغرافي في نشأة الحضارة لتأويل آخر(ص:١١٩-١١٨-١١٧-١١٦). وفي النشاط الثاني الذي سيخصص لتمحيص نظرية التفاعل الحضاري في تفسير نشأة الحضارات اقترحت الدعامات المهيئة مع معجمها الوظيفي رقم ١٠، ١١، ١٢، ١٣،١٤،١٥،١٦، و١٧، ثم في التعليمات ومطالب الإنجاز سيتم الاشتغال على فحص فرضية التحدي والاستجابة لأرنولد توينبي، عبر تقديم إجابات لأسئلة موجهة، في أفق الوصول إلى منتج مدرسي منتظر يحول في المتعلم ما توصل إليه إلى خطاطة تفاعلية أو فقرة تركيبية مناسبة، وسيتم إغناء هذا المنتج المعرفي بالجانب الفكري الذي أعطى دفعة أغنت الحضارة الإنسانية في منطقة بلاد الرافدين قديما، ممثلا في كتابة المسمارية منذ (٣٢٠٠ ق.م)، ثم الجانب التشريعي المرتبط بالتطور القانوني الناتج عن شريعة حمورابي والتي تمثل أول نص قانوني مكتوب منذ (١٧٣٠ق.م)، وكل تاريخ الحضارة، قبل أن يصل المتعلم لنشاط تحويل التعلم، حيث في التحويل الأول يستهدف الانطلاق من دراسة شريعة حمورابي، دورها في تنظيم الحياة العامة عبر الانفتاح على" ميثاق التلميذ"، والتحويل الثاني، يروم تناول موضوع البقايا الأثرية من حيث مثلا العلم الذي يعنى بدراستها، وإبداء الرأي تجاه دور المتاحف في حفظ الآثار،(ص:١٢٤-١٢٣-١٢٢-١٢١-١٢٠-١١٩).

لاحقًا في دليل الأستاذ لتدبير السيناريو المقترح الذي يمثل العنصر الخامس من هذا السيناريو، اقترح الباحثان، تقديمًا عامًا للدليل للمدرس، ثم دليل تدبير وضعية مرحلة الإطلاق، ومثله لبناء التعلمات وهيكلتها في النشاط الأول، الخاص بتمحيص فرضية التأويل الجغرافي، وفي النشاط الثاني الذي يستهدف تحليل فرضية "التحدي والاستجابة" وكذا دليل لتدبير تحويل التعلم. قبل الانتهاء بالعنصر السادس والأخير من السيناريو وهو بيبليوغرافية للأغنياء والتوسع في الموضوع، اقترحت فيها مراجع بالعربية ككتاب بحث في التاريخ لأرنولد توينبي، وكتاب مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة لباقر طه، وأخرى بالفرنسية مثل كتاب grammaire des civilisations للمؤرخ Fernande Braudel، (ص:١٢٨-١٢٥-١٢٤).

في **الفصل الرابع والأخير**، اقتراح الكاتبان **السيناريو الديداكتيكي**، القائم على **التفسير بزمنيات متعددة**، انطلاقًا من **موضوع بروز قوى رأسمالية خارج أوروبا (اليابان نموذجا)**، وتم استهلاله بمنطوق المسلك التفسيري وخلفيته الإبستيمية والمنهجية، في هذا الأخير أشير إلى العلاقة القوية التي تربط المؤرخ مع المقولة الزمنية، ففي الوقت الذي كان المؤرخ الوضعاني يقدم الزمن كمطلق مقدس يضع الأحداث في إطار كرونولوجي، أصبح المؤرخ الجديد "يشتغل بما يسمى بتعدد الأزمنة بديلا للزمن الخطي"، إذ أصبحت كلمة الظرفية تدخل ضمن المدة الزمنية المتوسطة، وكلمة البنية ضمن المدة الطويلة، فضلاً عن الحضور القوي للديمومة والاستمرارية في إشكالية المؤرخ، وهكذا" نجد في مجال العلاقة بين السببية والزمن تمييزا بين قراءتين الأولى حتمية والثانية احتمالية"، حيث أن الأولى ينساب فيها الزمن من الماضي في اتجاه المستقبل فيحدد الماء قبل المزاد، أما الثانية فيعمد فيها المؤرخ إلى الرجوع

على المستوى السببي من النتيجة إلى السبب و حيث يقوم" بطرح احتمالات في الماضي وتفسير عدم حدوثها ومن ثم إمكانية استخدام المنطق الافتراضي، بمعنى تخيل تاريخ مغاير كوسيلة لإيجاد التاريخ الواقعي الحقيقي"، بتقسيم الزمن التاريخي غدا شرطا ضروريًا في التناول الجيد للإشكالية التاريخية المقدمة، وفي تمرينه التحقق بي اتجه المؤرخ لنهج طريق من ثلاث مستويات، أولها اختيار معالم الحقبة، ثم إعادة النظر في التحقيبات الجاهزة والموروثة وأخيرًا تسمية الحقب، بعبارات معينة قد تكون بسيطة وقصيرة أو مركبة وممتدة. إن التجديد الكبير الذي شهده موضوع علاقة الزمن بتفسير الأحداث التاريخية، يرد الفضل فيه إلى إسهامات بروديل الذي ميز بين ثلاثة أبعاد للزمن: البعد الأول الزمن الفردي أو الحدثي، وهو زمن قصير، والبعد الثاني هو الزمن الاجتماعي أو الظرفي، وهو الزمن المتوسط ، والبعد الثالث الزمن الجغرافي أو البنيوي وهو زمن المدة الطويلة الذي يقاس بالقرن أو الألفية، ويمكننا إذن على الصعيد الديداكتيكي اعتبار المسلك التفسيري بزمنيات متعددة يصب في تنمية كفايات أساسية في الاستدلال التاريخي للتلاميذ عبر موضعة الحدث في الزمن الطويل والممتد، ونسج العلاقات القائمة بين الأحداث التاريخية في فترات متباينة وإنتاج منتج سردي تركيبي لوضعية تاريخية ذات معنى،(ص:١٣٥-١٣٤-١٣٣-١٣٢-١٣١-١٣٠).

في العنصر الثاني من هذا السيناريو الديداكتيكي الأخير، وهو الملخص العلمي للموضوع المقترح، وتماشيا مع المنظور المنهجي والإبستيمولوجي المذكور، سيجري تقديم أبرز الدراسات التاريخية المعاصرة التي درست التجربة النهضوية الرأسمالية لليابان، على ضوء تفسير هذه التجربة بالزمنيات المتعددة، إذ يمكن الإشارة مثلا لدراسات وصفية تقريرية، ربطت نهضة اليابان الرأسمالية بحرق المراحل التاريخية، ودراسات تاريخية " تشتغل في ظل المدة الزمنية الطويلة" لتفسر نجاح اليابان في المزاوجة على مستوى تحوله الرأسمالي بين الأصالة والحداثة. وهكذا يمكن للدارس الذي يبحث في العوامل المفسرة لنجاح النهضة اليابانية أن يعتمد على العديد من الكتابات والدراسات والمقاربات ومن ذلك: (ص: ١٣٧-١٣٦-١٣٥).

- **المقاربة الأولى: دبلوماسية عيانية**، ترتبط بانبهار بعض الدبلوماسيين العرب مثلا بتفرد الإنسان الياباني، ما جعلهم يكتبون عن التجربة النهضوية اليابانية، مثل غانم علوان جواد الجميلي.
- **المقاربة الثانية:** سوسيولوجية ميدانية، تظهر مثلا في كتابات السوسيولوجي الأمريكي فوجل عزرًا الذي زار اليابان عدة مرات، وقام بالتأليف حوله محاولا تفسير أسس التفوق الياباني.
- **المقاربة الثالثة: ماكرو- تاريخية**، نرصدها في أبحاث تاريخية كتلك التي أنتجها فوزي درويش، وظاهر مسعود وتقوم على المقاربة التاريخية التعميمية بدراسة مختلف الجوانب الخاصة بالإنسان الياباني قبل الانتقال إلى تقديم أسس التطور التاريخي الرأسمالي لهذا البلد.
- **المقاربة الرابعة: تاريخية تحليلية**، تظل من أبرز الدراسات التاريخية المهتمة بتفسير النهضة اليابان التحديثية، حيث تتجاوز الانبهار السريع بهذه النهضة، وتركز على الإصلاح التراكمي والاستمرارية، ضمن "المدة الزمنية الطويلة" في هذا البلد، من نماذج هذه الدراسات أطروحة المصري رؤوف عباس، بعنوان "المجتمع الياباني في عصر الميجي ١٨٦٨. ١٩١٢"، القائلة بارتباط نجاح إصلاحات ميجي بالتحولات المجتمعية التي بدأت منذ عهد توكوغاوا في القرن ١٧، مرورا بمختلف التحولات والتطورات التي شهدها اليابان حتى فترة الحرب العالمية الثانية. وكذا أطروحة المغربي محمد أعفيف بعنوان "أصول التحديث في اليابان ما بين ١٥٦٨ و١٨٦٨" اتجه فيها هذا الباحث إلى تفسير نجاح النهضة اليابانية بالرجوع بعيدا في الماضي الياباني ودراسة تطوراته من منتصف القرن ١٦ إلى منتصف القرن ١٩ لفهم نجاح إصلاحات الميجي. كما نجد أطروحة الفرنسي بيير فرنسوا صويري التي تماهت مع نفس النهج التحليلي في تفسير نهضة اليابان والمعنونة ب moderne sans etre occidental, aux origines du Japon d'aujourd'hui، حيث ربط فيها نجاح الإصلاح بالتراكمات المختلفة منذ عصر توكوغاوا في القرن ١٧، كتوفر مجتمع حضري استهلاكي، ومجتمع حرفي يدوي، وكذا مجتمع للمتعة والترفيه.

▪ **المقاربة الخامسة: تاريخية مقارنتية،** استدل فيها الباحثين بمثالين، الأول ورد في كتاب تأملات في التاريخ العربي، لشارل عيساوي، ركز فيه على دور الصدفة والعراقيل السياق التاريخي في فشل إصلاحات محمد علي في مصر، مقابل الصدفة السعيدة التي نجم عنها نجاح إصلاحات ميجي في اليابان، كالموقع الجغرافي المحصن ضد الأخطار خارجية لهذا الأخير. والثاني لظاهر مسعود الذي نسج على نفس المنوال في دراسته النهضة العربية النهضة والنهضة اليابانية، حيث قارن بين التجربة اليابانية - التي متحت من الغرب دون الذوبان فيه كليا- والمصرية، كما ألح في نفس الوقت على استحضار تجارب أخرى كالتجربة العثمانية، وعلى هذا أساس هذه الدراسات التاريخية، يمكن التمييز بين ثلاثة نماذج تفسيرية لنجاح التجربة الرأسمالية في اليابان، وقادرة على إتاحة تعلم التفسير التاريخي بالزمنيات المتعددة، وهي نموذج التفسير الثقافي على المدى الطويل والمتوسط، نموذج التفسير القصير الأمد، ونموذج التفسير بالنظير(ص:١٤٦-١٤٥-١٤٤-١٤٣-١٤٢-١٤١-١٣٩-١٣٨-١٣٧).

أما على مستوى الدعامات الديداكتيكية المنتقاة في هذا السيناريو المقترح، فتم تحديد سبع دعامات لبناء التعلم وهيكلته وهي : الدعامة رقم ١ خط زمني، رقم ٢ نص تاريخي يفسر نهضة اليابان بعدة عوامل، رقم ٣ نص وصور لبعثة إيواكورا تومومي، رقم ٤ عن تأثر لليابان بالصين على المستوى الديني من مؤلف أعفيف محمد وصول التحديث في اليابان ما بين ١٥٦٨،١٨٦٨، ورقم ٥ مقولة للباحث بيير صويري عن أهمية الزمن طويل، ورقم ٦ خلاصة بحثية للباحث عفيف من نفس المؤلف عن أهمية لمدة طويلة، ورقم ٧ تبرز دور الإقطاع في نجاح الرأسمالية في اليابان ضمن الزمن المتوسط، من نفس مرجع الباحث أعفيف،

لاحقًا في هندسة السيناريو الديداكتيكي المقترح، وضمن عناصره التعريفية سيتم الانطلاق من السياق المفضي إلى التساؤل وهو: "يعتقد كثير من المهتمين (مؤرخين، باحثين، مثقفين، صحفيين..." بأن نجاح التحديث الياباني يرتبط حصرا بإصلاحات الميجي ١٨٦٨. ١٩١٢"، في اتجاه تحديد السؤال المركزي الآتي: " كيف يمكن إذن تفسير التحول الذي عرفته اليابان نحو الرأسمالية بزمنيات متعددة (الزمن الطويل، المتوسط، والقصير؟)"، والوقوف عند باقي العناصر كالرهان والمفهوم المركزي والخطة المنهجية ثم المقاربة التاريخية، وتحديد كفاية الاشتغال وطبيعة المنتوج المنتظر كأثر كتابي أوغرافيكي ينجزه المتعلم، والقيمة التربوية الاستراتيجية، في غلاف زمني متوقع من حصة ونصف (ص:١٤٨-١٤٧).

ودائماً في سياق بناء التعلم وهيكلته، سيخصص النشاط الثاني لتفسير صعود الرأسمالية اليابانية بزمنيات متعددة، وتمثلت دعاماته المهيئة مع معجمها الوظيفي بالدعامات السالفة الذكر، فضلاً عن تعليمات ومطالب الإنجاز التي سيتم من خلالها الإجابة على عدة أسئلة، تتوج بمنتج مدرسي منتظر يجيب على السؤال المركزي للمقطع التعلمي، ويكون على شكل فقرة تفسر نهضة اليابان بتداخل الأزمنة الثلاث الطويل والمتوسط والقصير(ص:148-149-150-151-152). في المقابل سيشتغل المتعلم في العنصر الخامس من السيناريو الديداكتيكي هو تحويل التعلم على المقارنة بين التجربة التحديثية لمحمد علي في مصر ونظيرتها اليابانية. وفي العنصر السادس وهو دليل الأستاذ(ة) في تدبير السيناريو المقترح، قدم الباحثان عنصر تقديم للدليل، ودليل تدبير مرحلة الإطلاق، وآخر لتدبير مرحلة بناء التعلمات وهيكلتها في النشاط الثاني وأخيرا دليل تحويل التعلم، وأخيرا في الببليوغرافية الإغناء والتوسع في الموضوع اقترح الباحثان تسعة مراجع بالعربية منها كتاب المعجزة اليابانية لإيزرا فوجل، هو مرجع بالفرنسية هو Modern sans être occidental, origine de Japon d'aujourd'hui, للباحث P-F. souyri (ص: -152-153 154-155-156).

خَاتِمَةٌ

إذا في الخلاصة الشاملة لهذه القراءة، في كتاب مسالك في تعلم التفسير التاريخي سيناريوهات ديداكتيكية مقترحة للمرحلة الثانوية، يمكننا التصديق بالتأكيد النهائي أن هذا الكتاب يعد إسهاما رصينا ويتسم بالجدة والأهمية للمؤلفين، في ميدان **الديداكتيك التطبيقية**، الخاصة بمادة التاريخ في السلك المدرسي الثانوي، وأنه كفيل بإضفاء الإبداع والتجديد والحيوية على الممارسة الصفية للمدرسين بمعية متعلميهم، ولا غرو في هذا إذا علمنا أن السيناريوهات الديداكتيكية الأربعة المقترحة، قادرة على تنمية الروح النقدية في التعاطي مع الأحداث التاريخية، وكذا القدرة على تحليل وفهم الأحداث الراهنة واتخاذ القرارات المناسبة في الحاضر وتوقع النتائج في المستقبل، كما يعد انخراط وتفاعل الممارسين في الميدان ضروريًا للوقوف على مدى صواب فرضية المزاوجة بين الجانب النظري والمنهجي في التأطير الذي يتغيا تجويد الممارسة الصفية، إذ من شأن هذا الوضع في نهاية المطاف جعل مادة التاريخ بشكل عام والتاريخ المدرسي بشكل خاص مادة ألمعية تضيء دروب الحاضر والمستقبل بضوء الماضي، وترصد تجارب هذا وتنقلها للأجيال القادمة لتعلم الدروس وتلافي الأخطاء.

الاحالات المرجعية:

(١) **شكير عكي**، أستاذ في ديداكتيك التاريخ بمركز تكوين مفتشي التعليم بالرباط، حاصل على دكتوراه في علوم التربية سنة ٢٠١١ م، ويعتبر مرجعا في التأطير والتكوين، ومن التميزيين في بحوث الديداكتيك التخصصي، فضلاً عن كونه ضمن فرق تأليف عديد الكتب المدرسية للمواد الاجتماعية في مختلف جميع الأسلاك، كما وأنه مساهم له إسهامات في مجلات علمية متخصصة في ديداكتيك المواد الاجتماعية.

(٢) **رشيد صغير**، مفتش تربوي لمادة الاجتماعيات وحاصل على دكتوراه في التاريخ المعاصر من جامعة محمد الخامس، الرباط، له إسهامات في مجلات علمية.

(٣) كتاب مهم للباحث شكير عكي تطرق فيه لموضوع التفسير التاريخي- نظرًا لأهميته الكبرى على مستوى نهج مادة التاريخ-من خلال المرجعية الإبستيمولوجية وكذا التطبيق الديداكتيكي، في طبعته الأولى، ٢٠٢١ نادية للنشر، الرباط.

(٤) يروم هذا الكتاب تجاوز النمط السائد في تدريس مادة التاريخ على مستوى المدارس الثانوية والذي يقلل من جاذبية المادة وتحفيز المتعلمين لأعمال خطوات فكرية دقيقة تنتهي بهم بناء وفهم تعلماتهم وذلك من خلال رصد سيناريوهات ديداكتيكية تستهدف كفاية التفسير التاريخي وكفيلة بإعادة النقل والتطبيق كنماذج تحقق هذه الغاية.

(٥) مدرسة الحوليات، ظهرت في فرنسا، على يد ثلة من المؤرخين والباحثين الشباب والذين وجهوا انتقاداتهم للمرسة الوضعانية، ويعتبر مارك بلوك ولسيان فيفر من رعيلها الأول، صدرت مجلتها الشهيرة "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" منذ سنة ١٩٢٩.

(٦) **حروب البيلوبونيز** هي مجموعة من الحروب الهامة التي وقعت بين مدينتي أثينا وسبارتا وحلفائهما في القرن ٥ قبل الميلاد، لتقاسم النفوذ.

(٧) **الحروب البونيقية** هي سلسلة من الحروب التي جرت بين روما وقرطاج في القرنين ٣ و٢ قبل الميلاد، بسبب الصراع على النفوذ في المتوسط.

(٨) يتوفر على خبرة عسكرية ميدانية إذ شارك في عدة معارك كمعركة إينا ١٨٠٦ بين فرنسا وبروسيا توفي في بولندا سنة ١٨٣١ برتبة قائد أعلى للقوات العسكرية.

(٩) ولد في مقاطعة "فود" السويسرية سنة ١٧٧٩ خدم في الجيش السويسري وكان مولعا بالعسكر والعسكرية، يعتبر مؤسس الاستراتيجية العسكرية الحديثة له عدة مؤلفات يمكن تقسيمها إلى مؤلفات تعنى بالتاريخ العسكري وأخرى نظرية تحليلية.

(١٠) **لوران هنينجر**، مؤرخ فرنسي ولد سنة ١٩٥٩ متخصص في التاريخ العسكري وأحد خبراء الشؤون العسكرية.

(١١) **موريس فايس**، أستاذ جامعي ومؤرخ فرنسي من مواليد ١٩٤٢.

(١٢) **جون لوبيز**، مؤرخ وصحفي فرنسي ولد سنة ١٩٥٢ متخصص في التاريخ العسكري.

(١٣) البرتغال وإسبانيا.

(١٤) ينتظمون في ثلاث مجموعات رئيسية بالقارة الأمريكية هي: الأزتيك والمايا والإنكا.

(١٥) بسبب اتهام كثير من الباحثين لكريستوف كولومب بالتورط في إبادات جماعية للهنود الحمر أزالت السلطات في لوس أنجلس الأمريكية مثلاً تمثالاً له من أحد الساحات العمومية سنة ٢٠١٨ نقلاً عن: مجلة إكسبرس الفرنسية

(١٦) أرنولد توينبي، مؤرخ بريطاني ولد سنة ١٨٨٩ في لندن وتوفي في سنة 1975، من كبار مفكري القرن العشرين.

Articles

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

Economic and Political Impact of the Russia-Ukraine War on Egypt



Dr. Zoltán Prantner
Associate professor
Kodolányi János University
Hungary



Dr. Abdallah Abdel-Ati Al-Naggar
Associate professor
Eötvös Loránd University, Hungary
Academy of Scientific Research, Egypt

ABSTRACT

The launched Russian invasion of Ukraine has had a severe economic and political impact on all over the world. Concerning Egypt, it caused an incredible threat to key wheat imports, some 80% of which have so far come from Russia and Ukraine. Furthermore, the ongoing war is the main reason that the world food prices have generally risen to a 10-year high. Because of the war, the tourism, already hard hit by the COVID epidemic, was negatively affected, although it had hoped to make up the shortfall by the return of 300-400 000/month Russian tourists. The war in Ukraine has also resulted in depletion of foreign currency reserves in Egypt. The balanced foreign policy of Cairo is also in a delicate position and has a particular interest in supporting the development of the domestic economy. The country is in need of investment and loans from the America and Europe and is also engaged in inevitable cooperation with Russia in food import, energy and military affairs.

Keywords:

Russia-Ukraine war; Western states; foreign policy; food security; tourism; hard currency shortage

Article info:

Received: 21 January 2023
Accepted: 24 February 2023
DOI: 10.21608/KAN.2023.326131

Citation:

Zoltán Prantner, Abdallah Abdel-Ati Al-Naggar, "Economic and Political Impact of the Russia-Ukraine War on Egypt".- Historical kan Periodical. - Vol. (16) Issue (59); March 2023. Pp. 272 – 281.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: Abdallah.alnagggar@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Introduction

The outbreak of the Russian-Ukrainian war had serious consequences for Egypt in many ways. The biggest challenge is the resulting food security crisis, which in itself poses a serious threat to the economy. The Arab state, the world's largest wheat importer, is facing inflation not seen since the unrest that toppled the government of President Hosni Mubarak a decade ago, the 2015/2016 hard currency shortage and the crisis caused by the International Monetary Fund.

The aim of this study is to present the areas affected by the direct, immediate consequences of the Russian-Ukrainian war on Egypt. Here, the authors discuss the background to Egypt's peculiar, aloof foreign policy, the problems in the country's food supply and possible alternatives to solve them. They also present the budgetary problems and the measures taken to overcome them, the attempts to find a way out of the already difficult situation of the tourism sector due to the pandemic, as well as the possible domestic political risks of adverse effects. The conclusion emphasizes that if the current problems, especially food security, worsen or even persist, unfavourable developments may arise that may have harmful consequences not only at the regional but also at the global level.

Egypt's distant foreign policy

The Russian invasion launched against Ukraine on February 24 was met with surprise by the Egyptian leadership, which has maintained balanced relations with both Moscow and Western-backed Kiev. It has therefore tried to remain impartial in the conflict and called for dialogue in order to resolve the conflicts and end war situation as soon as possible, instead of condemning either side, which in turn led to disappointment on the part of Western allies, primarily the USA. Egypt gave up its neutral position on the issue only at the urging of the G7 and EU ambassadors, when it voted for the UN General Assembly's resolution condemning the Russian invasion on March 2 (Salah, 2022). However, just a few hours after the vote, the government issued a statement in which it urged a substantive investigation of Moscow's national security concerns regarding Ukraine as soon as possible. It also criticised the sanctions imposed by the United States and Europe against Russia, which it considered illegitimate and consistently refused to apply them (Hamzawy, 2022). In this respect, it was significant when President Sisi visited Serbia, which also has friendly relations with Moscow, during his six-day European tour, in addition to France and Germany. During his three days there, 13 agreements and declarations were signed to enhance cooperation in political, economic, and other fields, and the first economic forum between the two countries was held, with the participation of 130 Egyptian and Serbian companies.[1]

The main reason for this distancing policy is the Egyptian government's desire to secure continued financial support from the West, while at the same time being careful not to damage the excellent political and economic relations with Russia that have been built up since President Abdel-Fattah el-Sisi came to power in 2014. The latter has been exemplified by, among other things, the personal relationship between the two heads of state and the annual "2+2" meetings between the two countries' foreign and Defence Ministers. Moreover, Russia is one of Egypt's top 10 trading partners and the two sides signed the Comprehensive Partnership and Strategic Cooperation Agreement in 2018. The value of bilateral trade reached $3.3 billion in 2021, of which $2.8 billion was Russian exports to Egypt and only $490 million was Egyptian exports to Russia (Aziz, 2022). Russian direct investment in the Arab state has increased in recent years, mainly in oil and gas exploration, agriculture, food and machinery. Major Russian companies such as the oil companies Rosneft and Lukoil and the Lada car manufacturer are operating in Egypt, while Transmashholding, the largest manufacturer of locomotives and rail equipment in Russia, with the participation of the Hungarian side, is contributing to the renewal of Egyptian rail transport with the delivery of 1,300 trains (Saied, 2022a).

In addition, Cairo tacitly supported Russian military intervention in Syria and was ready to acknowledge President Bashar al-Assad remaining in power, while in Libya the two governments (Egypt and Russia) jointly supported General Khalifa Haftar and his allies militarily and financially. Furthermore, to reduce its dependence on the United States, Cairo has also concluded significant military and energy agreements with Moscow over the last ten years, particularly after tensions arose in its relations with Washington over so-called human rights violations. Thus, 41% of the new combat equipment for the Egyptian armed forces was purchased from Russian

1 The most significant short-term outcome of the talks was the agreement on the export of Serbian wheat to Egypt. In addition, Egyptian President Sisi and Serbian President Vucic signed a partnership declaration, and a free trade agreement is planned to be concluded by the end of 2022. (Bzganovic, 2022; Magdy, Muhammed, 2022b)

sources between 2016 and 2020, making Moscow effectively Cairo's main arms supplier. In addition, Russia is establishing an industrial park in the Suez Canal Economic Zone, which is expected to attract $7 billion in new investment and create about 35,000 jobs, 90% of which are expected to be filled by Egyptians.[2] Moscow is also financing and building Egypt’s first nuclear power plant, near El-Dabaa city, some 300 kilometres north-west of Cairo, which construction work began in July 2022. According to the Nuclear Power Authority, the owner and operator of the project, the plant will consist of four units, each with a capacity of 1,200 megawatts. The total cost of the project is $28.5 billion, of which $25 billion is provided by Russia in the form of a 35-year loan (Mahmoud, 2022). Last but not least, especially on the GERD issue, Egypt expects a lot from Moscow (mainly political pressure and support), which also has good relations with Ethiopia and could therefore play a decisive role in the peaceful settlement of the tension over the use of the Nile water (Shousha, 2022).

For all these reasons, President el-Sisi does not want to alienate Putin, even though international pressure on the Russian head of state has clearly and continuously increased since the beginning of the war. At the same time, Egypt is an unavoidable factor for Moscow in its policy and communication with the Third World. This was well illustrated, among other things, when Russian Foreign Minister Sergey Lavrov began his tour of Africa in Egypt on 24 July, barely two weeks after US President Joe Biden's visit to the Middle East, where he used his speech at the Arab League to both reiterate the Kremlin's narrative on Ukraine and reaffirm previous commitments.[3] However, sanctions against Russia raise serious doubts about the implementation of signed contracts and launched projects.

Food security

Over the past 25 years, the Black Sea region has grown from a net food importer to one of the largest suppliers of cereals and vegetable oils in all over the world. This was perfectly illustrated by the fact that before the outbreak of the war, Russia and Ukraine exported 34% of the world's wheat, 17% of maize, 27% of barley and 73% of sunflower oil. The image is further complicated by the fact that around 12% of the total internationally traded calories came from these two countries alone. Russia also plays a prominent role in the international sales of fertilizers based on nitrogen (15%) and potassium (33% jointly with Belarus). It is also a major player in the production of oil and natural gas, which are of particular importance in the food industry and in the production of fertilisers, as well as in the delivery and sale of products (Glauber – Laborde, 2022). All of this added together makes it understandable the adverse effects that the Russian-Ukrainian war has on the global food markets in a direct or indirect way.

In Egypt, the liberalisation policies introduced earlier, the reduction of public spending and the phasing out of agricultural subsidies have already led to a decrease in local productivity. This has been compounded by the slowdown in the Arab region's integration with global markets and the preference for export-oriented production of higher-income crops in arable land. As a result, the Arab state is now clearly vulnerable to food imports. It imports up to 13 million tonnes of wheat from foreign sources every year, making it the world's largest wheat importer. Bread and other wheat products account for around 35–39% of the caloric intake per capita. Although crop yields are relatively high, domestic production has not kept pace with the country's population of 105 million people, which is growing at an annual rate of 1.9%. As a result, the level of imports to meet food needs has risen steadily over the past three decades, and currently about 62% of the cereals consumed are imported (Abay – Abdelfattah – Breisinger – Glauber – Laborde, 2022).

The picture is further complicated by the fact that, despite efforts to diversify sources of supply, around 80% of imported wheat comes from the Black Sea region, which has been an increasing problem for the Egyptian budget. Even before the outbreak of the Russia-Ukraine war, the government spent around $3 billion a year on wheat purchases, which could now be worth up to $5.7 billion thanks to the boom in world prices.[4] Food price inflation more than doubled in the first four months of 2022. Across product groups, this meant that import costs rose by 49% for fresh fruit and vegetables, 49% for wheat and 93% for oil and oil products in one year (Rivlin, 2022).

2 The original objectives of the project, financed by the Russian Export Center and the Russian Central Bank, were to be completed over 12 years, the costs of which were to be repaid in 50 years. However, war will almost certainly change the terms and conditions. (Abu Zaid, 2022b)

3 Another example of Moscow's efforts to gain ground in Africa was Lavrov's announcement during his stay in Cairo that the second Russia-Africa summit would be held in mid-2023. (Magdy, Samy, 2022)

4 The world price of wheat, for example, had already risen to $523 in early March 2022, a 10-year high. (Ibid.)

Increased costs threaten the so-called *Aish Baladi*[5] Bread Subsidy Program, on which more than $3.24 billion has been spent so far.[6] Around 9 million tonnes of wheat are needed to ensure that some 70 million Egyptians - 73% of Egyptian households - continue to have access to the same preferential bread prices as before, which have remained unchanged since the 1980s (Awadalla, 2022). To complicate matters, Egyptian Minister of Supply and Internal Trade Ali Moselhy announced on 2 February - 22 days before the Russian invasion of Ukraine - that the country's strategic wheat reserves were only enough for five months.[7] In the six months or so since then, reserves have increased modestly, not least thanks to the 1.9 million tonnes of wheat purchased abroad since the start of the current financial year, the export ban on wheat, broad beans, lentils and pasta, new regulations and incentives to support Egyptian farmers, and the 3.9 million tonnes of wheat harvested by the end of June (Ahram Online, 2022). However, the quantity accumulated by August would still only have been enough to cover the country's wheat consumption for seven months.[8] The government has therefore ordered bakeries to reduce the weight of subsidised bread as an emergency measure, with effect from 18 August (Awadalla, 2022). The new weight of the bread, reduced to 90 grams, will certainly not go unnoticed by consumers, which will require increased caution on the part of the Cairo Administration. The government's decision to fix the price of bread sold outside the subsidy scheme is also due to the latter's intervention, to avoid the risk of price increases leading to social unrest (The Arab Weekly, 2022a).

In order to solve the crisis caused by the war between Russia and Ukraine, the International Food Policy Research Institute's (IFPRI) analysts consider it essential to diversify wheat import sources more effectively. The contract signed in June with India to buy 180 000 tonnes of wheat, for example, appears to be a temporary solution from this point of view (El Safty, 2022). However, the quantity fixed at $400 per tonne is only a fraction of demand, and the exact date of delivery is currently unclear. An alternative source of supply could be the southern hemisphere, including Argentina and Australia, where deliveries are made mainly in late autumn and early winter. In addition, Canada and Kazakhstan are also significant producers, with an autumn harvests. In the coming year - and beyond - exports from these regions could make up much of the shortfall in Ukrainian supplies caused by the drop in supplies. However, longer transport routes and higher oil prices will lead to a sharp increase in transport tariffs, which will then significantly raise procurement costs.

It is also necessary to reduce the consumption of bread per capita, which is currently twice the global average.[9] Restructuring of the food subsidy program and the range of beneficiaries is deemed essential, as households that are not in need currently receive around two-thirds of the value of the subsidies. The practical application of this would allow savings to be made which could then be used to finance other food security interventions, such as the restructuring of food security strategies, the modernisation and efficiency of local production systems, or the modernisation of water and land management. In the long term, these could provide solutions to the threats posed by water shortages, climate change and overpopulation. In this regard, the first encouraging signs were already visible in mid-June, when President el-Sisi inaugurated one of the various development projects, an integrated livestock and dairy complex with a capacity of up to 5 000 cattle and a mechanised slaughterhouse with a production capacity of 1.5 tonnes in Sadat city in Menoufia Governorate (Asharq Al-Awsat, 2022).

Fiscal problems

In addition to the price boom in the global food markets, the effects of the COVID-19 epidemic, the unequal competitive conditions in the economy due to the expansion of the army and the state, and the failures of the Cairo leadership's misguided economic policies aggravate the unfolding crisis in Egypt's financial sector. The scale of the crisis is

---

5 Egyptian Arabic Flatbread similar to pita but made with whole wheat flour.

6 Only 10% of the costs of bread production are covered by the participants in the program, the rest is paid by the government. (Al-Arabiya News, 2021)

7 At the same time, the country had enough reserves for 5.5 months of vegetable oils and five months of sugar. (Atallah, 2022)

8 The supply minister announced that, in addition to wheat, 3.3 months' worth of rice reserves, more than six months' worth of sugar reserves and 6.2 months' worth of vegetable oil reserves have been accumulated. (The Arab Weekly, 2022b; El Safty, 2022)

9 According to relevant statistics, Egyptians consume 150–180 kilograms of bread per person per year, well above the global average of 70-80 kilograms. A shift to more varied food groups would therefore not only have a positive impact on the country's self-sufficiency but would also provide an opportunity to reduce the high rates of obesity closely linked to food subsidies and the consumption of energy-dense foods. (Hendawi, 2021)

clearly shown by the fact that the unemployment rate reached 7.2% in 2022, while the number of Egyptian workers abroad is falling and, as a result, the volume of remittances they have been sending.[10] In addition, the country's external debt has already reached $140 billion, and between the end of January and the end of March 2022, some $15 billion of so-called "hot money" - short-term, high-yield foreign investment, mostly in the local debt market - left the country (Saleh, 2022). In addition, Egypt lost about $3 billion of foreign capital in the period between the invasion that began on 24 February and 2 March alone (Al-Anani, 2022). The country's current account deficit in the first nine months of the 2021/2022 fiscal year (July-March) was $13.6 billion, and the merchandise deficit increased by $3 billion due to a $14.9 billion increase in imports of goods (oil and non-oil) (Business Today Egypt, 2022). Finally, the country's foreign exchange reserves were reduced to $33.14 billion over the course of seven months, which represented a 19% decrease compared to 40.93 billion dollars at the end of December 2021 (Correspondent, 2022). At the same time, the Egyptian national currency hit an all-time low in August, when more than 19 Egyptian pounds were paid for one US dollar (Egypt Independent, 2022c).

Because of the ongoing war, inflation was rampant, reaching 14.7% in June 2022 compared to 5% in the same period of the previous year (El Sirgany – El Wardani, 2022). Increased prices and emerging economic uncertainty led to a reduction in production and new orders, which particularly affected energy, food, and raw materials producers (Al-Monitor Staff, 2022).

Many have also criticised the huge cost of large-scale projects at a time when the country has already accumulated a huge debt. For example, the procurement of a new $23 billion electric train, the construction of the first single-track railway[11] and the long-distance "LRT", which cost €2.7 billion, were seen as failures. To solve the funding problems in this case, the Egyptian government has put forward a proposal to name the new railway and metro stations after wealthy individuals or municipalities that have taken on the cost of building the facilities.[12] However, the initiative has met with a mixed reception among the public. On the one hand, despite the huge costs involved, many people have already expressed their interest in participating in the project, and the Ministry of Transportation, which is responsible for its implementation, has received substantial advances from businessmen and private universities.[13] On the other hand, the move has also created some divisions in society, as the practice of naming had until then been associated with modern-day national and historical symbols (Abdallah, 2022).

In response to the criticism and to mitigate the negative effects, the government was forced to postpone some large-scale national investments and devalue its currency on 21 March. In addition, the Central Bank raised interest rates for the first time since 2017 to curb inflationary pressures and growing financial problems (Al-Anani, 2022). Immediately afterwards, it requested financial assistance from the IMF - for the third time in six years - so that Egypt was already one of the Fund's biggest borrowers after Argentina (Saleh, 2022). However, this will inevitably require the introduction of further austerity measures and will make the livelihoods of average Egyptian citizens even more difficult. The government has therefore planned to set up a $7.1 billion aid package, including wage increases, in an attempt to limit the negative impacts of rising prices on the local population (Dudley, 2022).

The Gulf countries were keen to avoid a new wave of anti-government protests in the most populous Arab country as a result of the economic downturn and food shortages, as it could easily destabilise the region and trigger a series of events similar to the Arab Spring of 2011. For this reason, billions of dollars have been contributed to stabilising Egypt's budget to replenish dwindling Egyptian foreign reserves since February.[14] The

10 Most recently, Kuwait announced in early August 2022 that it would lay off 250,000 Egyptian workers in September 2022, followed by a further 500,000 in 2023. The decision will have a serious impact not only on the individuals concerned and their families, but also on the Egyptian state, for which Egyptian money transfers from the Gulf States represent a significant source of foreign currency. By comparison, the value of remittances from Egyptians working abroad reached $31.5 billion in 2021. (Middle East Monitor, 2022)

١١ Bombardier Transportation won the tender for the railway project in May 2019. Under the contract, the trains will be delivered between 2021 and 2024.

12 By way of comparison, it costs about 6 million euros to build a station, which private entrepreneurs or municipalities have to pay in euros. (Abdallah, 2022)

13 Many stations already bear the names of Egyptian businessmen, such as Ahmed Sweedy (owner of Sweedy Electric) or Yassin Mansour (Chairman of Palm Hills Board of Directors). (Ibid.)

14 The United Arab Emirates announced an investment package of around $2 billion on 23 March, Qatar allocated

financial support, however, did not come in the form of loans or aid, but rather by increasing their presence in the Egyptian market. For example, a significant portion of the funds received from the United Arab Emirates came in the form of investments and acquisitions in large Egyptian companies and financial institutions.[15] The desire to attract more foreign capital could intensify efforts to privatise state-owned enterprises, including those linked to the country's defence sector. This is also favoured by the government, which plans to offer shares in state-owned and military-owned companies, including seven ports, for sale (El Sirgany – El Wardani, 2022). In addition, the Suez Canal Authority has already increased transit tariffs in two stages, especially for tankers transporting crude oil and natural gas, resulting in historic record revenues month after month.[16] In addition, the government wants to increase exports of natural gas to Europe to replace Russian gas deliveries lost due to sanctions, as well as to attract foreign investors to explore new fields and to increase the exploitation of existing ones (Al-Monitor Staff, 2022).

Situation of the tourism sector

The Russian-Ukrainian war is also having a severe impact on the country's tourism sector, which accounted for 12% of the country's GDP in 2018.[17] The sector has been severely damaged by the pandemic, and it became a matter of survival to reach the pre-pandemic level after restrictions were lifted. It was encouraging that Egypt had received millions of tourists from Ukraine and Russia in previous years, whose combined share reached one third of all tourists at peak times. In addition, Russia resumed direct flights to Hurghada and Sharm el-Sheikh in August 2021, which were suspended in 2015.[18] The latter played a significant role in the fact that approximately 700,000 Russian tourists visited Egypt in 2021 and another 125,000 in the first two weeks of 2022.[19] In addition, 1.6 million Ukrainian tourists visited the Arab country in 2019, which represented a 32% increase compared to the previous year.[20] Based on this, Egyptian authorities did not rule out the possibility of up to 300–400,000 tourists a month spending longer or shorter periods in the country in 2022 (Gomaa, 2022).

However, preliminary expectations were dashed by the war in Ukraine. While the new arrivals of Ukrainian tourists have virtually disappeared, the first Russian tourists - only 300 people - did not arrive until early April (Abu Zaid, 2022a). The shortfall in expected guests played a significant role in the drop in hotel occupancy in the Red Sea resorts to 5% by the end of the first quarter of 2022 (Saleh, 2022). In addition, after the outbreak of the war, some 20,000 Ukrainian tourists were stranded in resorts due to the airspace closure. For them the Egyptian leadership either assumed the costs of a longer stay in Egyptian hotels or allowed them to travel to one of the European state neighbouring Ukraine, the cost of which was paid by the government (Ayyad, 2022). To add to the problems, several Russian and Ukrainian travel agencies have accumulated substantial debts to their Egyptian partners and hotels, the repayment of which has become doubtful (Mounir, 2022).

$5 billion on 29 March, and Saudi Arabia also deposited $5 billion with the Central Bank of Egypt the following day. (Dudley, 2022)

١٥ The investments made by the Abu Dhabi-based ADQ Investment Fund have involved key Egyptian business players such as Fawry for Banking & Payment Technology Services, Commercial International Bank, Abou Kir Fertilizers & Chemical Industries, Misr Fertilizers Production Company or Alexandria Container & Cargo Handling Company. (Magdy, Mirette, 2022)

16 In July 2022, Suez Canal's revenues reached $704 million, thanks to a significant recovery in transit traffic for various types of ships. The total net tonnage of water transport amounted to 125.1 million tonnes, which represents an increase of 18.2 percent compared to the same period of the previous year. (Egypt Independent, 2022b)

17 In 2018, the number of tourists visiting Egypt was estimated at 13 million. More importantly, the sector provided around 2.9 million jobs. These impressive figures were then significantly reduced by the impact of the COVID-19 epidemic and the contribution of the Egyptian travel and tourism sector to the country's GDP fell from $32 billion (8.8%) in 2019 to $14.4 billion (3.8%) in just 12 months. (Allam, 2022)

18 Moscow introduced a ban on direct charter flights to and from tourist destinations in Egypt when the Russian Metrojet Airbus A321-231 crashed over the Sinai Peninsula on October 31, 2015, after taking off from Sharm el-Sheikh. All 224 people on board were killed in the Islamic State terrorist attack. (France 24, 2015)

19 But the hundreds of thousands of Russian tourists were still only a fraction of the 3 million who visited the country in 2014 alone. (Saied, 2022b)

20 According to the Ukrainian Embassy in Cairo, "only" 727,000 Ukrainian tourists visited Egypt in 2020, which represented 21% of all foreign tourists that year. However, this number started to rise again in 2021, reaching 1.46 million people, according to the Ukrainian State Tourism Agency. (Egypt Independent, 2022a; Mounir, 2022)

Responding to the absence of Russian and Ukrainian tourists, the Egyptian government extended its Regular and Low-Cost Charter Flights Incentive Program to provide financial support to airlines at the end of March, and introduced a tourist visa facilitation package in early April to ease the entry of visitors.[21] They also called for the resumption of international flights suspended due to COVID-19 restrictions, an increase in the number of flights previously suspended, and the launch of new direct scheduled and charter flights. In addition, the Ministry of Tourism has conducted an effective promotional campaign on social media to boost domestic tourism and attract foreign visitors, especially from Western Europe and the Arab Gulf region.[22]

The Egyptian efforts have been successful and, in this respect, have succeeded in compensating for the negative effects of the Russian-Ukrainian war with tourists from other nations. This was illustrated by the fact that the country's tourism receipts for the period from July 2021 to the end of March 2022 increased to around $8.2 billion, compared to around $3.1 billion in the same period of the previous fiscal year (Egypt Today Staff, 2022). In addition, the unfolding debate in the European Union about banning Russian tourists from European countries could further increase Russian citizens' interest in Egypt, which could become one of the most important destinations for Russian tourists for years if the Ukrainian proposal is adopted (AFP, 2022).

The domestic political risks of the current crisis

As a result of the current economic crisis, the purchasing power of Egyptian households at all income levels has fallen spectacularly, which does not rule out the possibility of unrest. From a political point of view, ensuring a balanced bread supply has been the cornerstone of the regime's stability since the 1952 Free Officers' Revolution. It is a particularly sensitive issue today, with around half of the population living at or below the poverty line. This is borne out by experience, which shows that civilians tend to react in a highly sensitive and often unpredictable way to changes in food subsidies, as demonstrated by the deadly riots that erupted across the country in 1977 over cuts to bread subsidies,[23] the collapse of former President Mubarak's 30-year rule in 2011,[24] and the small-scale protests in several Egyptian cities in March 2017, among other events (Jyoti Das, 2022).

Although Egyptians have shown little inclination for major unrest since the Arab Spring, they have nonetheless taken to social media more frequently in recent months to express their anger against the government, particularly over the rising prices of public transportation, fuel, food, and basic goods. In a warning sign, new Facebook groups have mushroomed on social networks in response to import restrictions and the devaluation of the local currency, and protests have already taken place over delays in the delivery of new cars (El Sirgany – El Wardani, 2022). Rising utility bills have also caused growing discontent, especially after the government even imposed restrictions on household supplies to boost energy exports and foreign exchange reserves (Aboualabbas, 2022).

The leading global Credit Rating Agency Moody's also warned of social and political risks when it downgraded Egypt's economic outlook from stable to negative in May. The concerns are shared at the highest levels by the Egyptian leadership. This was demonstrated, inter alia, when President Abdel-Fattah el-Sisi initiated a national dialogue with opposition figures. The latter represents a fundamental change from the practice of recent years, which has seen a crackdown on dissent by the authorities and the imprisonment of thousands of people (El Sirgany – El Wardani, 2022).

Despite the difficult economic situation and expected further austerity measures, analysts do not expect a widespread wave of protests in the country. They stress, however, that the failure to do so will depend not only on effective preventive measures by the Egyptian security forces, but also on the government's plans to expand social spending and maintain commodity subsidies (Yousef, 2022).

21 Under the introduced visa facilitation, foreigners arriving in the country were granted emergency entry visas at the various arrival terminals if they held entry visas for Japan, Canada, Australia, New Zealand, the United States, the United Kingdom, and Schengen countries. (Saied, 2022b)

22 In addition to the above, in the long-term vision of the Ministry of Tourism, it wanted to place great emphasis on its appearance in Latin America, East Asia, and the Gulf States, which are still unknown or new tourist markets for Egypt. (Saied, 2022b)

23 The infamous 1977 "bread riots" were triggered by the introduction of IMF-mandated subsidy cuts for wheat flour, cooking oil and other basic foodstuffs. The riots proved so serious that President Anwar al-Sadat was forced to use the army to quell them.

24 "Bread, freedom, social justice" was one of the crowd's most frequently sounded slogans during the 2011 protests in Egypt.

Conclusion

Egypt's role is considered crucial in ensuring stability in the Middle East and Africa. The United States, as well as the Arab state's allies in Europe and the Gulf region, are therefore likely to do their utmost in the economic and financial field to avoid risks, such as a debt crisis or currency shock, that could lead to a domestic political crisis. For this reason, Cairo must first and foremost find an effective solution to the looming food crisis. The challenge is compounded by the loss of dominant Ukrainian and Russian suppliers and the search for new exporters, as well as the unpredictable adverse natural impacts of the worsening global climate crisis. Concerns are also exacerbated by the potential consequences of the Great Ethiopian Renaissance Dam being built on the Blue Nile on the ecosystem, especially on the agricultural areas located downstream. Failure to guarantee essential food security for any of these reasons could lead to inequalities that could result in mass migration, famine or even insurgency, and could intensify the region's latent economic and political problems.

Bibliography

Abay, K. – Abdelfattah, L. –Breisinger, C. – Glauber, J. – Laborde, D. (2022) 'The Russia-Ukraine crisis poses a serious food security threat for Egypt', *International Food Policy Research Institute (IFPRI).* Available at: https://www.ifpri.org/blog/russia-ukraine-crisis-poses-serious-food-security-threat-egypt (Accessed: 16 August 2022).

Abdallah, Mohamed (2022) ' إطلاق أسماء رجال أعمال على محطات المونوريل مقابل التكلفة.. هل تنجح خطة الحكومة المصرية؟', Available at: https://1-a1072.azureedge.net/ebusiness/2022/9/1/%D8%AA%D9%85%D9%88%D9%8A%D9%84-%D9%85%D8%A8%D8%AA%D9%83%D8%B1-%D8%A3%D9%85-%D8%AA%D8%B9%D8%AB%D8%B1%D8%9F-%D9%85%D8%AD%D8%B7%D8%A7%D8%AA-%D9%82%D8%B7%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA (Accessed: 4 August 2022).

Aboualabbas, B. (2022) 'Economic crisis leaves Egyptians in the dark', *The Times of Israel*. Available at: https://www.timesofisrael.com/economic-crisis-leaves-egyptians-in-the-dark/ (Accessed: 28 August 2022).

Abu Zaid, M. (2022a) 'Egypt welcomes first Russian tourists since start of Ukraine war', *Arab News*. Available at: https://www.arabnews.com/node/2056696/lifestyle (Accessed: 25 August 2022).

Abu Zaid, M. (2022b) 'Suez industrial zone to attract $7bn in investments: Russian envoy', *Arab News*. Available at: https://www.arabnews.com/node/1724086/business-economy (Accessed: 27 August 2022).

AFP (2022). 'EU ministers to study call for ban on Russian tourists', *Arab News*. Available at: https://www.arabnews.com/node/2152231/world (Accessed: 30 August 2022).

Ahram Online (2022) 'Egypt bans export of wheat, other staples for 3 months', *Ahram Online*. https://english.ahram.org.eg/News/462620.aspx_Available at: (Accessed: 23 August 2022).

Al-Anani, K. (2022) 'Russia's War on Ukraine: Egypt's Limited Room for Maneuver', *Arab Center Washington DC*. Available at: https://arabcenterdc.org/resource/russias-war-on-ukraine-egypts-limited-room-for-maneuver/ (Accessed: 16 August 2022).

Al-Arabiya News (2021) 'Egypt's Sisi price of subsidized bread needs to be raised', *Al Arabiya*. Available at: https://english.alarabiya.net/business/economy/2021/08/03/Egypt-s-Sisi-price-of-subsidized-bread-needs-to-be-raised (Accessed: 16 August 2022).

Al-Monitor Staff (2022) 'Egyptian economy experiences 'sharp fall' from Ukraine war', *Al-Monitor*. Available at: https://www.al-monitor.com/originals/2022/04/egyptian-economy-experiences-sharp-fall-ukraine-war (Accessed: 24 August 2022).

Allam, H. (2022) 'Egypt's Tourism Hit by Ukraine Crisis', *All Africa*. Available at: https://allafrica.com/stories/202204070028.html (Accessed: 25 August 2022).

Asharq Al-Awsat (2022) 'Egypt Launches Development Projects to Overcome Ukrainian War Impact', *Asharq Al-Awsat*. Available at: https://english.aawsat.com/home/article/3702661/egypt-launches-development-projects-overcome-ukrainian-war-impact (Accessed: 28 August 2022).

Atallah, M. S. (2022) 'Egypt has strategic wheat reserves to cover 5 months - supply minister', *Nasdaq*. Available at: https://www.nasdaq.com/articles/egypt-has-strategic-wheat-reserves-to-cover-5-months-supply-minister (Accessed: 23 August 2022).

Awadalla, N. (2022) 'Egypt shrinks subsidized bread loaf by 20 grams, revises cost of flour', *Reuters*. Available at: https://www.reuters.com/article/egypt-commodities-bread-idAFL8N2FJ50N (Accessed: 16 August 2022).

Ayyad, I. (2022) 'Egypt extends stay of stranded Ukrainian, Russian tourists', *Al-Monitor*. Available at: https://www.al-monitor.com/originals/2022/03/egypt-extends-stay-stranded-ukrainian-russian-tourists (Accessed: 28 August 2022).

Aziz, R. (2022) 'Cairo's Opportunity for Policy Change on the War in Ukraine', *Fikra Forum*. Available at: https://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/cairos-opportunity-policy-change-war-ukraine (Accessed: 27 August 2022).

Business Today Egypt (2022) 'Egypt's current acct. deficit registered as $13.6B in first 9M of FY2021/2022 |CBE', *Business Today Egypt*. Available at: https://www.businesstodayegypt.com/Article/1/1641/Egy

pt%E2%80%99s-current-acct-deficit-registered-as-13-6B-in-first (Accessed: 16 August 2022).

Bzganovic, I. (2022) ‘Serbia, Egypt agree to boost cooperation amid war in Ukraine’, *Associated Press*. Available at: https://apnews.com/article/russia-ukraine-africa-egypt-middle-east-476b0df3476d889ea040966c4ed9fb9b (Accessed: 27 August 2022).

Correspondent (2022) ‘Egypt’s foreign reserves drop 19% due to economic crisis caused by Russia-Ukraine war’, *Al-Monitor*. Available at: https://www.al-monitor.com/originals/2022/08/egypts-foreign-reserves-drop-19-due-economic-crisis-caused-russia-ukraine-war (Accessed: 24 August 2022).

Dudley, D. (2022) ‘Rich Gulf States Line Up to Offer Egypt Billions of Dollars’, *Forbes*. Available at: https://www.forbes.com/sites/dominicdudley/2022/03/30/rich-gulf-states-line-up-to-offer-egypt-billions-of-dollars/?sh=6b99db4a7da3 (Accessed: 24 August 2022).

Egypt Independent (2022a) ‘125,000 Russian tourists visit Egypt in two weeks’, *Egypt Independent*. Available at: https://egyptindependent.com/125000-russian-tourists-visit-egypt-in-two-weeks/ (Accessed: 27 August 2022).

Egypt Independent (2022b) ‘Suez Canal records highest monthly revenue in its history’, *Egypt Independent*. Available at: https://egyptindependent.com/suez-canal-records-highest-monthly-revenue-in-its-history/ (Accessed: 25 August 2022).

Egypt Independent (2022c) ‘US dollar exchange rate increases against Egyptian pound on Tuesday’, *Egypt Independent*. Available at: https://www.egyptindependent.com/us-dollar-exchange-rate-increases-against-egyptian-pound-on-tuesday/ (Accessed: 30 August 2022).

Egypt Today Staff (2022) ‘Egypt's tourism revenues hike to $8.2B in 9 months’, *Egypt Today*. Available at: https://www.egypttoday.com/Article/3/118180/Egypt-s-tourism-revenues-hike-to-8-2B-in-9 (Accessed: 30 August 2022).

El Safty, S. (2022) ‘UPDATE 2-Egypt's deal for Indian wheat stands, but not shipped yet – minister’, *Reuters*. Available at: https://www.reuters.com/article/egypt-commodities-wheat-india/update-2-egypts-deal-for-indian-wheat-stands-but-not-shipped-yet-minister-idINL1N2ZY0II (Accessed: 23 August 2022).

El Sirgany, S. – El Wardani, L. (2022) ‘It's getting scary. How the war in Ukraine plunged this Middle East nation into crisis’, *CNN Business*. Available at: https://edition.cnn.com/2022/07/08/business/egypt-economy-inflation-mime-intl/index.html (Accessed: 24 August 2022).

France 24 (2015) ‘Russia’s Putin suspends all flights to Egypt on security advice’, *France 24*. Available at: https://www.france24.com/en/20151106-russia-suspends-flights-egypt-britain (Accessed: 25 August 2022).

Glauber, J. – Laborde, D. (2022) ‘How will Russia’s invasion of Ukraine affect global food security?’ *International Food Policy Research Institute*. Available at: https://www.ifpri.org/blog/how-will-russias-invasion-ukraine-affect-global-food-security (Accessed: 16 August 2022).

Gomaa, A. (2022) ‘Egyptian tourism sector braces for impact from Ukraine crisis’, *Al-Monitor*. Available at: https://www.al-monitor.com/originals/2022/02/egyptian-tourism-sector-braces-impact-ukraine-crisis (Accessed: 28 August 2022).

Hamzawy, A. (2022) ‘What the Russian War in Ukraine Means for the Middle East’, *Carnegie Endowment for International Peace*. Available at: https://carnegieendowment.org/2022/03/24/what-russian-war-in-ukraine-means-for-middle-east-pub-86711 (Accessed: 27 August 2022).

Hendawi, H. (2021) ‘Why ending Egypt's bread subsidies holds great significance’, *MENA*. Available at: https://www.thenationalnews.com/mena/2021/08/13/why-ending-bread-subsidies-feels-like-an-existential-threat-to-egyptians/ (Accessed: 23 August 2022).

Jyoti Das, H. (2022) ‘Impact of Russia-Ukraine Conflict on Food Security in Egypt’, *Vivekananda International Foundation*. Available at: https://www.vifindia.org/article/2020/may/12/impact-of-russia-ukraine-conflict-on-food-security-in-egypt (Accessed: 24 August 2022).

Magdy, Mirette (2022) ‘Giant UAE-Egypt Deal to Include Stakes in Fertilizer Firms’, *Bloomberg*. Available at: https://www.bloomberg.com/news/articles/2022-03-23/giant-uae-egypt-deal-said-to-include-stakes-in-fertilizer-firms?srnd=premium-middle-east (Accessed: 24 August 2022).

Magdy, Muhammed (2022) ‘Egypt, Serbia launch new chapter in relations amid war in Ukraine’, *Al-Monitor*. Available at: https://www.al-monitor.com/originals/2022/07/egypt-serbia-launch-new-chapter-relations-amid-war-ukraine (Accessed: 28 August 2022).

Magdy, S. (2022) ‘Russia FM visits Egypt, part of Africa trip amid Ukraine war’, *Associated Press*. Available at: https://apnews.com/article/russia-ukraine-middle-east-africa-egypt-5ccec2b9c53870c6bea98baf7f86666c (Accessed: 27 August 2022).

Mahmoud, R. (2022) ‘Russian company begins construction at Egypt’s first nuclear power plant’, *Al-Monitor*. Available at: https://www.al-monitor.com/originals/2022/07/russian-company-begins-construction-egypts-first-nuclear-power-plant (Accessed: 16 August 2022).

Middle East Monitor (2022) ‘Kuwait to lay off 750,000 Egypt workers’, *Middle East Monitor*, Available at: https://www.middleeastmonitor.com/20220822-kuwait-to-lay-off-750000-egypt-workers/ (Accessed: 24 August 2022).

Mounir, S. (2022) ‘Ukraine war hits tourism’, *Ahram Online*. Available at:

https://english.ahram.org.eg/NewsContent/50/1201/462076/AlAhram-Weekly/Egypt/Ukraine-war-hits-tourism.aspx (Accessed: 27 August 2022).

Rivlin, P. (2022) 'The Ukraine War and the Middle East: The Rich Get Richer and the Poor Get Poorer', *Middle East Economy*, Vol. 12. No. 3. July 2022. Available at: https://dayan.org/content/ukraine-war-and-middle-east-rich-get-richer-and-poor-get-poorer (Accessed: 18 August 2022).

Saied, M. (2022a) 'Egypt seeks middle ground between US, Russia as Ukraine fighting rages', *Al-Monitor*. Available at: https://www.al-monitor.com/originals/2022/03/egypt-seeks-middle-ground-between-us-russia-ukraine-fighting-rages (Accessed: 28 August 2022).

Saied, M. (2022b) 'Egypt looks to Gulf to revive tourism sector affected by Russian-Ukrainian war', *Al-Monitor*. Available at: https://www.al-monitor.com/originals/2022/05/egypt-looks-gulf-revive-tourism-sector-affected-russian-ukrainian-war (Accessed: 25 August 2022).

Salah, E. (2022) 'Egypt, UAE, Saudi Arabia abandon neutrality in UN vote, condemn Russian invasion', *Mada Masr*. Available at: https://www.madamasr.com/en/2022/03/02/news/u/egypt-uae-saudi-arabia-abandon-neutrality-in-un-vote-condemn-russian-invasion/ (Accessed: 27 August 2022).

Saleh, H. (2022) 'Egypt's economy reels from Ukraine war', *Financial Times*. Available at: https://www.ft.com/content/e033ceba-b1ed-4414-8865-d25254c640dd (Accessed: 24 August 2022).

Shousha, A. (2022) ' روسيا وأوكرانيا: لماذا تحاول مصر إمساك العصا من المنتصف؟', BBC Arabic. Available at: https://www.bbc.com/arabic/60624654 (Accessed: 4 August 2022).

The Arab Weekly (2022a) 'Egypt sets fixed price for unsubsidised bread', *The Arab Weekly*. Available at: https://thearabweekly.com/egypt-sets-fixed-price-unsubsidised-bread (Accessed: 23 August 2022).

The Arab Weekly (2022b) 'Egypt's strategic wheat reserves sufficient for 5.7 months – minister', *The Arab Weekly*. Available at: https://thearabweekly.com/egypts-strategic-wheat-reserves-sufficient-57-months (Accessed: 23 August 2022).

Yousef, N. (2022) 'How is the Ukraine War Squeezing Egypt's Economy?' *Al-Estiklal Newspaper*, Available at: https://www.alestiklal.net/en/view/14595/how-the-ukraine-war-is-squeezing-egypts-economy_(Accessed: 24 August 2022).

الآثار الاقتصادية والسياسية للحرب الروسية – الأوكرانية على مصر

د. زولطان برانتنر
أستاذ مساعد
جامعة كودولاني يانوش، المجر

د. عبد الله عبد العاطي النجار
أستاذ مساعد
جامعة إتفوش لوراند، المجر
أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، مصر

مُلَخّص

للحرب الروسية – الأوكرانية تأثير اقتصادي وسياسي واسع على مصر نظرًا للتهديد الكبير الذي تتعرض له واردات القمح الرئيسة للبلاد، والتي جاء حوالي ٨٠٪ منها حتى الآن من روسيا وأوكرانيا. علاوة على ذلك، وفي ظل وضع مقلق بشكل متزايد، ارتفعت أسعار الغذاء العالمية عامة إلى أعلى مستوى لها في ١٠ سنوات. كما أن للتطورات الحاصلة تأثير سلبي إضافي على السياحة، التي تضررت بالفعل بشدة من وباء كوفيد ١٩، والتي كان يحبوها الأمل في التعافي وتعويض التراجع الحاد بعودة ٣٠٠-٤٠٠٠٠٠ سائح روسي شهريًا. وبدلاً من ذلك، زادت التكاليف في هذا القطاع بسبب إجبار الفنادق على استيعاب آلاف المواطنين الأوكرانيين مجانًا بعد اندلاع النزاع المسلح لحين تمكنهم من العودة إلى وطنهم أو إلى أي بلد آمن آخر. كما ساهمت الحرب في تسريع استنفاد احتياطيات العملات الأجنبية للقاهرة، فضلاً عن تخوف المستثمرين الأجانب من الأسواق الناشئة بسبب الأزمة. ومن ناحية أخرى، فالسياسة الخارجية للقاهرة، الساعية دوما للتوازن بين الغرب وموسكو، هي أيضًا في وضع حساس ولها مصلحة خاصة في دعم تنمية الاقتصاد المحلي. تحتاج البلاد بشكل خاص إلى استثمارات وقروض جديدة، والتي كانت بالفعل موضوع مفاوضات مكثفة مع الدول الغربية قبل الغزو الروسي. في الوقت نفسه، تتعاون مصر أيضًا مع روسيا في مجالات حاسمة كالواردات والصادرات الغذائية والطاقة والشؤون العسكرية. في هذا البحث، نستعرض مدى تأثر مصر بهذه الحرب والأسباب التي أدت إلى ذلك ونتائجها، وكيفية تعامل القاهرة مع الأزمة.

كلمات مفتاحية: الحرب الروسية الأوكرانية؛ الدول الغربية؛ سياسة خارجية؛ الأمن الغذائي؛ السياحة؛ العملة الصعبة.



https://kan.journals.ekb.eg

Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

https://www.facebook.com/historicalkan